التيسيرُ في فهم التفسيرِ

د. محمود خالد الزهار

المجلد الثاني

من سورة المائدة إلى سورة يونس

الطبعة الأولى

٢٠٢١م – ١٤٤٣هـ

المحتويات

سورة المائدة ٣

سورة الأنعام ١٠٤

سورة الأعراف ٢٠٢

سورة الأنفال ٣١٥

سورة التوبة ٣٦٤

سورة يونس ٤٤٥

سُورَةُ المَائِدَة

ترتيبها 5 — آياتها 120

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هذه السورة سُميّت في كتب التفسير، وكتب السنة بسورة المائدة، **ووجه التسمية:** لأنّ فيها قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام، وتسمى أيضًا سورة العقود، والمنقذة، والأخيار. وهي مدنيّة باتفاق: وقد عُدّت السورة الحادية والتسعين في عدد السور على ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأحزاب، وقبل سورة الممتحنة. وعدد آياتها: مائة واثنتان وعشرون في عدِّ الجمهور، ومائة وثلاث وعشرون في عدِّ البصريين، ومائة وعشرون عند الكوفيين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١)

افتتحت سورة النساء بنقض اليهود مواثيق الله تعالى، التي أخذها عليهم، فكانت النتيجة تحريمُ طيباتٍ أُحلّت لهم **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾** [النساء-١٦٠]، فكانت بداية المائدة: **﴿يَا﴾**: حرفُ نداءٍ للقريب وللبعيد **﴿أَيُّهَا﴾**: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتيهم؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله تعالى، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات: البعيد والقريب **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يُفيد هنا جميع من **﴿آمَنُوا﴾**: وقد ورد هذا النداءُ الأولُ من الله تعالى في سورة المائدة (١٦) مرّة من أصل (٨٨) مرّة جاءت في القرآن كلّه، أي ما نسبته ١٨% تقريبًا، والهدف هو تنظيم العلاقة بين المسلم المؤمن وبين الآخرين، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُحَدَّثَ، وَإِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فَارْعَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ[1]، وقد كان نداءُ الله تعالى للمؤمنين في القرآن **آمَنُوا**: أمّا نداؤه في التوراة فكان: يا أيّها المساكين **﴿أَوْفُوا بِ﴾**: حرف باء التوكيد **﴿الْعُقُودِ﴾**: هي ما عقدها الإنسان على نفسه للآخرين أو ما عقده الله تعالى من الطاعات مثل الصوم والصلاة والحج وغيرها يأتي الأمر الربّاني أوفوا أي أتموا كلّ العقود التي وثّقتموها، وما تعاقدتم عليه من التحالف وغيره، وقيل: ما أحلّ الله تعالى، وما حرّم، وما فرض في القرآن كلّه، وقال زيد ابن أسلم: هي ستة: عهد الله تعالى، وعقد الحلف، وعقد الشراكة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين؛ أي لا خلاف بين العقود، وبين خيار المجلس بين البائع والمشتري **﴿أُحِلَّتْ﴾**: بدأ الله

---

[1] الزهد لأحمد بن حنبل ١/ ٢٩٢(٨٦٧) الحديث ضعيف لوقوع الانقطاع في كل طرقه.

ﷻ بما أحلّ للنّاس وليس بما حرّم عليهم ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾: حلالٌ لكم أنْ تأكلوا من الأنعام وهي البقر، والإبل، والغنم، والضأن إذا تم ذبح البهيمة، والذبح هو شقُّ الحلق وقطع الأوعية الدموية التي تصل الدم للمخ فيموت وإنْ كان في بطنها جنين، يؤكل الجنين، عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجَنِينِ فَقَالَ كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ. وَقَالَ مُسَدَّدٌ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَنْحَرُ النَّاقَةَ وَنَذْبَحُ الْبَقَرَةَ وَالشَّاةَ فَنَجِدُ فِي بَطْنِهَا الْجَنِينَ أَنُلْقِيهِ أَمْ نَأْكُلُهُ قَالَ كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ[1]، ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: الذي من غير جنس العاقل ﴿يُتْلَى﴾: ما جاء تحريمهُ صريحًا ﴿عَلَيْكُمْ﴾: وهي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والمنخنقة، ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿مُحِلِّي﴾: لا تعُدّوه حلالًا ﴿الصَّيْدِ﴾: لا يحلُّ لكم الصيد ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾: في حالة الإحرام في الحج، أو العمرة، أيضًا لا تأكلوا الحيوانات من صيد البرِّ؛ بسبب تحريم الصيد في حال الإحرام بحجٍ، أو عمرةٍ، ويأتي هنا استثناءً، جاء في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة-١٧٣] ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الانكار والشكّ ﴿اللَّهَ يَحْكُمُ مَا﴾: الذي ﴿يُرِيدُ﴾: أي بحكمه، كان حكم التشريع، ولا راد لحكمه، فهو الحكيم في كلّ ما يأمر به، وينهى عنه، بلا اعتراض.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: وهم عموم المؤمنين، وهذا هو النداء الربانّي الثاني في هذه السورة الكريمة ﴿لَا﴾: حرفُ نهيٍ للتحريم ﴿تُحِلُّوا﴾: لا يقع منكم الإخلال بشيء منها، لا تنتهكوا شرع الله ﷻ؛ فتجعلوا الحرام حلالًا في ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾: المراد هنا عدم الإخلال بجميع مناسك الحج، مثل الصفا والمروة وغيرها، هي حُرماتُ اللهِ ﷻ التي أمر بتعظيمها، قال: ابن عباس: هي مناسك الحج، وقال: مجاهد: هي الصفا والمروة، والهَدْى، والبُدن، ولا تلبسوا المخيط، ولا تصطادوا ﴿وَلَا﴾: مُحرّمٌ عليكم أيضًا أنْ تُحلوا

[1] سنن أبى داود /٣/٦٢(٢٨٢٩). صححه الألباني.

﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾: الأربعة أشهر الحرام عليكم الاعتراف بتعظيمها، وترك ما نهى عنه فيها، بعدم بدء القتال فيها، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ[1]، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة–٥]، فلم يستثن شهرًا حرامًا من غيره ﴿وَلَا﴾: لا تُحلّوا ﴿الْهَدْيَ﴾: لا تتركوا الإهداء من الأنعام المهداة للبيت الحرام ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: أيضاً لا تتركوا تقليدها، وهو وضع قلادةٍ في أعناقها؛ لتتميز عمّا عداها من الأنعام؛ لتُعرف أنّها هدْيٌ إلى الكعبة ﴿وَلَا آَمِّينَ﴾: قاصدين أنْ تتمتعوا بقصد البيت الحرام؛ لحجٍ أو عمرةٍ أو ليسكن عنده من المسلمين، أو ليمارس التجارة فيه ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: الكعبة المشرفة ﴿يَبْتَغُونَ﴾: يريدون ويطمعون في التجارة، ومرضاة الله ﷻ؛ وتؤكد الآيةُ هذا المعنى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة–١٩٨] ﴿فَضْلًا﴾: كرمًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا بداية الغاية الكلّية التي لا يحدّها زمان أو مكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو منشئُ الكون بمن وما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام وهو تعالى الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ. لا تستحلوا قتال قاصدي البيت الحرام؛ لأنّ كلّ من دخله كان آمنًا، وكذلك من اتجه إليه راغبًا في رضوان الله ﷻ، فلا تصدوه، ولا تمنعوه، ولا تهجوه، وكان في البداية لا يُمنعُ كافرٌ من التوجه للبيت الحرام، وهم الذين ﴿وَرِضْوَانًا﴾: أيضًا يبتغون رضاه، ورحمته، ومغفرته ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿حَلَلْتُمْ﴾: فإذا فرغتم من الإحرام، وتحلّلتم منه ﴿فَ﴾: حرف ربط جواب الشرط أي بعد التحلل يمكن ﴿اصْطَادُوا﴾: فمباحٌ لكم ما كان مُحرّمًا عليكم في الإحرام وتحلّلتم من الصيد ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يحملنّكم، لا يدفعكم ﴿شَنَآَنُ﴾: كرهُ وبُغض ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿صَدُّوكُمْ﴾: منعوكم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: حرفُ جرٍّ، يفيد السبب بمعنى منعوكم من الوصول إلى المسجد الحرام في عامِ الحديبية ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾: أنْ تقتصوا منهم، وتنتقموا ظلمًا وعدوانًا ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾: معنى البر هنا الطاعة وهو ما جاء بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة–٩]، وفي قوله أيضًا ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ

---

[1] صحيح البخاري /١٠٧/٤(٣١٩٧).

يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم-١٤] وفي قوله ﷻ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم-٣٢]، هو فعل الخيرات، وترك المُنكرات ﴿وَالتَّقْوَى﴾: وهي أيضًا عبادة الله ﷻ، عبادة المُشاهد ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾: الذي هو تجاوز الحدود إلى الجور في القول والعمل، وترك العدل، الفريضة التي فرضها الله ﷻ على المسلم وعلى الكافر، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ[1]، وقال ﷺ: مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ[2]، وفي حديثٍ آخر قال رسول الله ﷺ: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا[3]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: وأيضًا الخوف من الله ﷻ الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: عقابه للمخالف والمعارض والمحارب لشرعه شديد الإيلام.

التكليف: قال: ابن جرير وبالإجماع على جواز قتل المشرك؛ الذي ليس له أمان من المسلمين، ويُمنع من قَصَدَهُ إلحادًا فيه، والشرك عنده، والكفر به عملًا بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا﴾ [التوبة-٢٨]، وقال ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة-١٧]، هذه التعاليم كلّها نُسخت بالآيات البينات: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة-٥].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ (٣)

نزلت هذه الآية في حجة الوداع، في وقفة عرفات يوم الجمعة وقد نصر الله ﷻ المسلمين و نبيّه ﷺ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾: هذا أمرٌ من الله ﷻ، بتحريم أكلِ المُحرّمات، ومنها أكل التي ماتت حتف نفسها، من غير ذكاةٍ، ومن غير ذبحٍ، ولا اصطياد؛ لضررٍ يعلمه الله ﷻ،

---

(١) مسند أحمد /٩/٦٤(٥٠٢٢). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات، رجال الشيخين.

(٢) صحيح مسلم /٣/١٥٠٦(١٨٩٣).

(٣) صحيح مسلم /٤/٢٠٦٠(٢٦٧٤).

هذه ضارة للدين، والبدن، باستثناء السمك؛ عن أبي هُرَيْرَةَ قال: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرْكَبُ البَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا قَلِيلًا مِنَ المَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنَ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ»[1]، ﴿وَ﴾: أيضًا حُرّم عليكم ﴿الدَّمُ﴾: وهو الدم المسفوح، جاء في المعنى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام-١٤٥] هذا الدم الذي يجمعه أُناسٌ من الذبائح، ولذلك حلالٌ أكلُ الطُحال؛ لأنّه ليس مسفوحًا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ، فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ، فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ»[2]، ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾: ومُحرّم أيضًا أكل لحم الخنزير، المستأنس منه والوحشي، ويشمل ذلك اللحم والشحم، وقد حرّم الرسول ﷺ استخدام شحم الخنزير في طلاء السفن، ودهن الجلود، وفي الإضاءة؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ عَامَ الفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ، وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لاَ، هُوَ حَرَامٌ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ[3]، ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أُهِلَّ﴾: تم ذكر، عند ذبحه ﴿لِغَيْرِ﴾: حرف استثناء، بمعنى دون ﴿اللَّهِ بِهِ﴾: الذي ذُكر اسمٌ غير اسم الله ﷻ عليه عند الذبح، من صنم، أو طاغوت، أو وثن ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾: أيضاً التي ماتت بالخنق قصدًا، أو بالاتفاق، أو التي خُنقت بالحبل ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾: أيضًا التي ضُربت بشيءٍ ثقيلٍ، حتى ماتت، فإذا ضُربت بالسهم أو بالرصاص فأصاب منها دمًا وماتت بنيّة الصيد؛ فحلال، وأمّا إن ماتت من ضرب الخشبة؛ فهي موقوذة، وفي ذلك يأتي حكم صيد الكلب، عن أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضٍ مِنْ أَهْلِ كِتَابٍ نَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ، وَإِنَّ أَرْضَنَا أَرْضُ صَيْدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي، وَبِالْكَلْبِ الْمُكَلَّبِ، وَبِالْكَلْبِ الَّذِي لَيْسَ بِمُكَلَّبٍ، فَأَخْبِرْنِي مَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِمَّا يَحْرُمُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكُمْ بِأَرْضِ أَهْلِ كِتَابٍ تَأْكُلُونَ فِي آنِيَتِهِمْ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الصَّيْدِ، فَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَكُلْ مِنْهُ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مَا أَصَابَ كَلْبُكَ الْمُكَلَّبُ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مَا أَصَابَ كَلْبُكَ الَّذِي لَيْسَ بِمُكَلَّبٍ، فَإِنْ أَدْرَكْتَ

[1] مسند أحمد ١٤/ ٣٤٩(٨٧٣٥) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.
[2] سنن ابن ماجه ٢/ ١١٠٢(٣٣١٤) قال الألباني: صحيح.
[3] صحيح البخاري /٣/٨٤(٢٢٣٦).

ذَكَاتَهُ فَكُلْ، وَمَا لَمْ تُدْرِكْ ذَكَاتَهُ فَلَا تَأْكُلْ»[1] فهناك من خالف هذا الحكم؛ والله أعلم، وأمّا الجوارح من الطير فهناك اختلاف، ومنهم من قال إنّها ليست كالكلب ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾: أيضًا التي ماتت بسبب السقوط من علو ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾: التي ماتت من نطح حيوانٍ غيرها لها، حتى ولو نطحها قرن؛ أو صدمتها سيارة، فأخرج الدم من عنقها ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾: أيضًا إذا اعتدى عليها أسدٌ، أو فهدٌ، أو نمرٌ، أو ذئبٌ؛ فأكل بعضها، فماتت فهي حرام، حتى وإنْ سال منها الدم من عنقها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: إلّا الذي ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾: ما لحقتم به قبل موته، وتم ذبحه، وكان فيه حياةٌ مستقرةٌ، أي ما تم ذبحه وفيه روح، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «إِذَا طَرَفَتْ بِعَيْنِهَا، أَوْ مَصَعَتْ بِذَنَبِهَا أَوْ رَكَضَتْ بِرِجْلِهَا فَكُلْ»[2]، ﴿وَمَا ذُبِحَ﴾ والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية التي تصل الدم للمخ فيموت ﴿عَلَى النُّصُبِ﴾: وهي حجارةٌ كانت حول الكعبة، عددها ثلاثمائة وستون نُصبًا، كان النّاس في الجاهلية يذبحون عندها، وينشرون اللحم على الحجارة؛ فحُرّمت حتى ولو ذكر اسم الله عليها، وأساس التحريم أنّها تدخل في ﴿وَأَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿تَسْتَقْسِمُوا﴾: تريدون معرفة ما قسم لكم ﴿بِالْأَزْلَامِ﴾: هي قداحٌ كان الكفّار يستعينون بها فيستقسمون بها في الأمور، ومن الأصنام العظيمة، كان هُبل، منصوبًا على بئرٍ داخل الكعبة، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وعنده سبعة أزلام، مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه من إشكالاتهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، كلّ ما سبق من الأمور التي نهى اللهُ ﷻ عنها ﴿فِسْقٌ﴾: التعاطي معه فسق، وهو خروجٌ عن الحدود المسموح بها، وضلالةٌ، وجهالةٌ، وشركٌ، وكان البديل هو الاستخارة، عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ القُرْآنِ: إِذَا هَمَّ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ[3]. ﴿الْيَوْمَ﴾: بعد تمكن الدين من عقيدة المسلمين ﴿يَئِسَ﴾: انقطع أملُ الكافرين من إبطال دينكم، وأنْ يردُّوكم إلى دينهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا مِنْ﴾: حرف يفيد

---

[1] صحيح ابن حبان ١٣/ ١٩٠(٥٨٧٩) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[1] مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٥٧(١٩٨٤٨).

[3] صحيح البخاري /٨/٨١(٦٣٨٢).

التأكيد، الرجال والنساء، ﴿دِينِكُمْ﴾: يئس الكفّار من رجوعِ المسلمين عن دينهم، فقد قوي المسلمون، فعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ[1]. ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهيٌ عن ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: لا تخافوا منهم أنِ يغلبوكم، أو يُبطلوا دينكم، مهما كانت قوتهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾: عطفًا على هذا لا تخافوا مخالفتهم لكم، ولا مخالفتكم إياهم، واخشوا فقط الله ﷻ؛ هو الذي ينصركم عليهم، ويؤيدكم ﴿الْيَوْمَ﴾: واضحٌ أنّ هذه من الآيات الأخيرة التي نزلت على محمد ﷺ ﴿أَكْمَلْتُ﴾: والكمال يتم على مراحل متقطعة، بينما التمام يكون بصورة مستمرة ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: بظهوره على الأديان كلّها؛ لكمال إمكانية ما يحتاج المسلمون إلى دينِكُمْ: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ، لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة-٣] قَالَ عُمَرُ: « قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[2]، ﴿وَأَتْمَمْتُ﴾: أيضاً الكمال يتم على مراحل متقطعة، بينما التمام يكون بصورة مستمرة ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾: فضلي وكرمي؛ بفتح مكّة، وقهر الكفار، ومنعهم من الظهور عليكم، كما وعدتكم ﴿وَ﴾: عطفاً على ما سبق ﴿رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: تم كمال الإيمان بالذي أنتم عليه اليوم؛ باقيًا حتى يوم القيامة؛ فقد أتمَّهُ اللهُ ﷻ فلا ينقصه أبدًا، وقد رضي الله ﷻ فلا يسخطه أبدًا، كان هذا يومَ عرفةَ ولم ينزل بعدها تشريعٌ، حرامٌ أو حلالٌ، ثم مات رسول الله ﷺ بعد عرفة هذه بواحد وثمانين يومًا، فعَنْ وَكِيعٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة-٣] قَالَ: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، قَالَ: فَبَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْكَانِي أَنَّا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذَا كَمُلَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمُلْ قَطُّ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، قَالَ: صَدَقْتَ[3]، ﴿فَمَنِ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا ﴿اضْطُرَّ﴾: مُرغمًا ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾: من احتاج إلى تناول شيءٍ من هذه المُحرّمات لضرورةٍ ألجأته ﴿غَيْرَ﴾: حرف للنفي بمعنى ليس ﴿مُتَجَانِفٍ لِ﴾: غير مائلٍ إلى ﴿إِثْمٍ﴾: غير متعاطٍ لمعصيةِ اللهِ ﷻ، لا يميلُ ولا يقتربُ من الحرام، وغير باغٍ، ولا متعد. ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيدٍ وسببٍ ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: واسع السماح والعفو ﴿رَحِيمٌ﴾: عظيم الرحمة والعطف بعباده.

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢١٦٦(٢٨١٢).

[2] صحيح البخاري ١/ ١٨(٤٥)

[3] مصنف ابن أبي شيبة /٧/٨٨(٢٤٤٠٨)، وضعفه عبد الرزاق المهدي في حاشية تفسير البغوي /٢/ ١٢.

التكليف: من الأحكام الفقهية تحريم أكل الميتة بأي وسيلة، مثل: المنخنقة، التي تم منع دخول الهواء إلى رئتيها، والموقوذة، والمتردية وبقية ما جاء في الآيتين، ولكن يمكن إباحة هذه المحرمات في الحالات الآتية: عند الاضطرار لدفع الضرر، والضرورة مقيدة بقيدين: الأول أن يكون الأكل سببًا في دفع الضرر الجسدي فقط، والثاني أنْ تكون كمية المأكول ما يسدُّ حاجة الجسم فقط.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤)

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بعد أنْ حددت الآية السابقة المحرّمات من الخبائث، سأل بعض الصحابة **﴿مَاذَا﴾**: أداة استفهام **﴿أُحِلَّ لَهُمْ﴾**: ماذا جعل اللهُ ﷻ الحلال لهم **﴿قُلْ﴾**: قل لهم يا محمد ﷺ **﴿أُحِلَّ لَكُمُ﴾**: حرف تخصيص **﴿الطَّيِّبَاتُ﴾**: ما تقبله النفس وتستمتع به الحواس، كلّ ما طاب من الطعام من الذبائح، ما هو حلال من الرزق الحلال **﴿وَمَا﴾**: أيضًا أحلّ لكم الذي من غير جنس العاقل الذي **﴿عَلَّمْتُمْ مِنَ﴾**: يفيد بداية الغاية المكانية جزء أو بعض **﴿الْجَوَارِحِ﴾**: إضافة إلى الذبائح التي ذُكر اسم الله ﷻ عليها، أيضًا التي تم صيدها بواسطة الكلاب المُدرّبة، التي تمسك الصيد مرّة بعد مرّة ولا تأكل منه، وتدريب الصقور، أو ما شابهها من أصحاب المخالب، وأصحاب الأنياب، والجوارح في اللغة هي الكسب **﴿مُكَلِّبِينَ﴾**: التي تم تدريبها وتستخدم المخالب، كالكلاب، متفق عليه عند الأئمة الأربعة **﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا﴾**: من الذي **﴿عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾**: تدربوهن، أي إذا علّمه المسلم، وأرسله يذهب في أثر الصيد، وإن أخذه بمخالب، أو بأظفاره أمسكه، حتى يأتي صاحبه، ويذبحه، ولا يأكله الطير لنفسه **﴿فَكُلُوا﴾**: لهذا السبب مسموحٌ لكم الأكل **﴿مِمَّا﴾**: من الذي **﴿أَمْسَكْنَ﴾**: أحضروه لكم، فإن أكل منه فقد أمسكه لنفسه، فلا تأكلوا منه **﴿عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾**: إن ذكر اسم الله ﷻ يكون في اللحظة التي يُطلق فيها الصياد الكلب، أو الطير الجارح، أو السهم، أو المقذوف من بنادق الصيد، حتى إذا قتله كان الصيد حلالًا، قال ﷺ: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ» قُلْتُ: أُرْسِلُ كَلْبِي فَأَجِدُ مَعَهُ كَلْبًا آخَرَ؟ قَالَ: «فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبٍ آخَرَ[1]، وهنا حكمٌ: إذا أكل الكلب من الصيد؛ يُحرّم مطلقًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

---

[1] صحيح البخاري /٤٦/١(١٧٥).

إنْ أَكَلَ الكَلْبُ فَقَدْ أَفْسَدَهُ، إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة–٤] فَتُضْرَبُ وَتُعَلَّمُ حَتَّى يَتْرُكَ وَكَرِهَهُ ابْنُ عُمَرَ وَقَالَ عَطَاءٌ: «إِنْ شَرِبَ الدَّمَ وَلَمْ يَأْكُلْ فَكُلْ»[1]، وإذا رميت سهمك فأذكر اسم الله ﷻ، وحكم إطلاق النار من البندقية أنْ تُسمّى قبل الإطلاق، وقال بعضهم بالتسمية عند الأكل؛ استنادًا للحديث: عن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ، يَقُولُ: كُنْتُ غُلاَمًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا غُلاَمُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[2]. وإذا أكل الإنسان ولم يُسمّ؛ فليقل بسم الله، أوله وآخره، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ[3]، وكذلك إذا دخل الرجل بيته، فذكر اسم الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لإخوانه لا مبيت لكم ولا عشاء، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ[4]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتَّقُوا اللَّه﴾: والتقوى هي العمل بالحلال والامتناع عن المحرمات ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: لا يُؤجلّ الله ﷻ العقابَ والثوابَ.

التكليف: هذه آيات آداب الصيد للعمل بها، وهناك من أدوات الصيد يُضاف إليها الفخ، والبندقة، والسهم.. وغيرها.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥)

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾: بعد توضيح التحريم بما سبق من آياتٍ، جاء ذكر المُباح، والذي تُلخصه كلمةُ ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾: ما تقبله النفس وتستمتع به الحواس التي تشمل الطعام اللذيذ، الذي ذُبح بالأصول، والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية التي توصل الدم للمخ فيموت أو تم اصطياده بالمواصفات التي جاءت في الآية السابقة ﴿وطَعَامُ الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا،

---

[1] صحيح البخاري ٧/ ٨٧ باب إذا أكل الكلب.

[2] صحيح البخاري /٧/٦٨(٥٣٧٦).

[3] سنن الترمذي ٤/ ٢٨٨(١٨٥٨).

[4] صحيح مسلم ٣/ ١٥٩٨(٢٠١٨)

أيضًا جميع من ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم الله جنس ﴿الْكِتَابَ﴾: السماوي، جاءت كلمة "**الطعام**" في القرآن الكريم على أربعة أوجه، هنا بمعنى ما يأكله النّاس من الذبائح، وبمعنى: الطعام الذي يأكله النّاس عمومًا، ومنها ذبائح اليهود والنصارى، وهذا مُجمعٌ عليه لأسبابٍ عديدة: هم يُحرّمون الذبح لغير الله، ويذكرون اسم الله على ذبائحهم ﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾: حلال لكم أكلهُ ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾: أيضًا يجوز لكم أنْ تُطعموهم من ذبائحكم، من باب المكافأة، والمجازاة، والمقابلة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لاَ تُصَاحِبْ إِلّا مُؤْمِنًا وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلّا تَقِيٌّ[1]. وهو محمولٌ على الندب والاستحباب ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: أُحلّ للمسلمين الزواج من المسلمات، من العفيفات عن الزنا، جاء في المعنى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء–١٥] ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: أيضًا أُحلّ لكم الزواج ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: من نساء اليهود والنصارى ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: إذا دفعتم إليهنّ المهور ﴿مُحْصِنِينَ﴾: واشترط أن تكون الكتابية محصنةً، فيدخل تحت هذه الآية الحرّةُ العفيفةُ من اليهود والنصارى، شرط العفّة عن الزنا، وهو شرطٌ في الرجال أيضًا ﴿غَيْرَ﴾: حرف نفي بمعنى ليس ﴿مُسَافِحِينَ﴾: المُسافح هو الذي لا يرتدع عن الزنا، والمجاهرين بها، والمستمرين في المعصية ﴿وَلَا﴾: أيضًا غير ﴿مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: هم أصحاب العشيقات، الذين يمارسون الزنا معهن فقط، وعطفًا على هذا لا يجوز زواج الرجل الفاجر من العفيفة، حتى يتوب، ويُقلع ﴿وَمَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾: الذي يُخفي شريعة الله ﷻ ﴿فَقَدْ﴾: حرف يفيد ما تحقق ومضى من الزمن ﴿حَبِطَ﴾: بَطُلَ ثواب ﴿عَمَلُهُ﴾: لفقده شرط الإيمان ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: لآخرته بسبب دخوله النّار.

التكليف: لم يُذكر أنّ نساء المسلمات المؤمنات حلالٌ لرجالهم، كما أحلّ طعامنا لهم؛ ليدلّ على تحريم نساء المسلمين لهم، وقد حرّم بعضُهم ذلك إذا كانت الكتابيةُ تعيش في بلدٍ يحارب الإسلام والمسلمين، أو تنتشر فيه الإباحية، لصعوبةِ حياةِ المسلمةِ وتربية أولادها فيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ

---

[1] سنن أبى داود /٤٠٧/٤(٤٨٣٤). وحسنه الألباني.

أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء الثالث، كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آَمَنُوا﴾: بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿قُمْتُمْ﴾: نويتم ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾: هو مندوب وليس واجبًا قبل كل صلاة، إلّا على من أحدث، وهو الوضوء، ﴿فَ﴾: فعل أمر يفيد السبب والفعل المتتابع السريع ﴿اغْسِلُوا﴾: استخدام الماء لنظافة ﴿وُجُوهَكُمْ وَ﴾: بالماء ومنها الوجه، والمضمضة، والاستنشاق، وقد ورد الدليل بتخليل اللحية؛ أيضًا اغسلوا ﴿أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾: مع المرافق، وهي التي بين الساعدِ والعضُد ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾: حرف الباء عنا يفيد التبعيض، قيل إذا قمتم للصلاة، وهي في حالِ الحدثِ الأصغر؛ فعليكم بالوضوء، يتم غسل الوجه، واليدين إلى المرافق، والمسح على الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، مع اتصالهما بالساق، فاغسلوا وجوهكم للصلاة مع ذكر اسم الله عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لاَ وُضُوءَ لَهُ وَلاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ[1]، ويُستحسن غسل الكفين قبل وضعهما في الإناء، قال عَلِيٌّ ﷺ لِغُلَامٍ لَهُ: ائْتُونِي بِطَهُورٍ فَجَاءَهُ الْغُلَامُ بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ وَطَسْتٍ «فَأَخَذَ بِيَمِينِهِ الْإِنَاءَ فَأَكْفَأَ عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ غَسَلَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ الْإِنَاءَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى فَأَفْرَغَ عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى، فَعَلَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»: كُلُّ ذَلِكَ لَا يُدْخِلُ يَدَهُ الْإِنَاءَ حَتَّى يَغْسِلَهَا مَرَّاتٍ، «ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى الْإِنَاءَ فَمَلَأَ فَمَهُ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، وَنَثَرَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَى الْمِرْفَقِ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَى الْمِرْفَقِ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى فِي الْإِنَاءِ حَتَّى غَمَرَهَا الْمَاءُ، ثُمَّ رَفَعَهَا بِمَا حَمَلَتْ مِنَ الْمَاءِ، ثُمَّ مَسَحَهَا بِيَدِهِ الْيُسْرَى،

---

[1] سنن أبي داود /١/٣٧(١٠١). صححه الألباني.

ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا أَوْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ صَبَّ عَلَى رِجْلِهِ الْيُمْنَى فَغَسَلَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ صَبَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى عَلَى قَدَمِهِ الْيُسْرَى فَغَسَلَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى فَمَلَأَ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ شَرِبَ مِنْهُ»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا طُهُورُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى طُهُورِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَهَذَا طُهُورُهُ»[1]، وحد الوجه من منبت الشعر بغض النظر عن الصلع إلى منتهى اللحية، والذقن، التي هي أسفل الوجه طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا، ثم تخليل اللحية إنْ كانت كثيفة ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ جُنُبًا﴾: في حال الحدث الأكبر، فيجب الغُسل لكلّ الجسم ﴿فَ﴾: حرف جواب، لهذا السبب وبدون تأخير ﴿اطَّهَّرُوا﴾: بسبب هذا عليكم أنْ تتطهروا، ودونَ تأخير؛ والطهارةُ نوعان، طهارةُ النفس من الآثام، وطهارةُ الجسد من الأوساخ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مَرْضَى﴾: تخافون مضاعفات المرض، من الوضوء أو الغسل، جاء لفظ المرض على أربعة أوجه، هنا بمعنى الجراح كما في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء–٤٣] ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ﴾: حرف يساوي بين متعاطفين ﴿جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ﴾: بعض ﴿الْغَائِطِ﴾: التخلص من البراز ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾: الملامسة فيها قولان، الأول: هو الجماع؛ الذي يستوجب الغُسل والوضوء، والقول الثاني: هو اللمس الظاهري باليد أو بغيرها ﴿النِّسَاءَ فَلَمْ﴾: حرف توكيد الخبر فعل الخبر ﴿تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: لهذا السبب اقصدوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: ما تقبله النفس وتستمتع به الحواس وهو هنا وجه الأرض، واضربوها بأيديكم، وامسحوا وجوهكم، وامسحوا أيديكم منه حتى ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا﴾: حرف نفي ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَجْعَلَ﴾: يفرض ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾: لا يريد أنْ يُضيّق عليكم في أحكامهِ التي جاءت بالماء أو التراب، أنْ يضرّكم في أبدانكم، أو يُضيّق عليكم في الدين ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف استدراك ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: ينقيكم من الذنوب، بطهارةِ البدن بعد طهارة النفس بالطاعة ﴿وَلِيُتِمَّ﴾: وعليه أيضًا أنْ يُكمل

---

[1] مسند أحمد ٣٥١/١١(١١٣٣) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح

﴿نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: بالترخيص لكم في التيمم عند غياب الماء، وبما شرّعه لكم التي عرّضكم بها للثواب ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف يُفيد التوقع والترجي عند البشر ﴿تَشْكُرُونَ﴾: والشكر واجبٌ.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧)

﴿وَاذْكُرُوا﴾: عطفًا على ما سبق هذا أمر ربّاني بدوام الذكر ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ولفظ النعم هي شرع الله ﷻ الذي شرّعه للمسلمين، ونعمة إرسال محمد ﷺ إليهم، أيضًا الرزق، والطعام، والشراب، وكلّ ما يتمناه الإنسان ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾: أيضًا عهده هو ﴿الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾: الذي عاهد بني آدم، مثل: ﴿**وإذ أخذ ربُّك من بني آدم**﴾ [الأعراف-١٧٢] عليه، مبايعة الرسول ﷺ ومناصرته، ومؤازرته، والقيام بدينه، والتبليغ عنه، وقبول الأوامر، والعمل بها، والنواهي، والنهي عنها، والعهد الذي أخذه محمد ﷺ ليلة العقبة عليهم، وهو السمع والطاعة في المنشط والمكره ﴿إِذْ﴾: ظرف يدلُّ على ما حدث في الماضي من الزمن ﴿قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: وهو العهد والميثاق. فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ[1]. هذا أيضًا تذكير لليهود بميثاقهم، والعهود، بضرورة اتباع دين محمد ﷺ، وهذا تذكير أيضًا بعهد ذرية آدم ﷺ حين استخرجهم، ﷻ من صلب آدم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: وعطفًا على هذا تأكيدٌ وتحريضٌ على اعتماد التقوى في كلّ حالٍ، الخوف من الله ﷻ بالعمل بما أمر والانتهاء عمّا حرّم ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الانكار والشكّ ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: صاحب العلم المطلق ﴿بِذَاتِ﴾: الصلة بجوهر ﴿الصُّدُورِ﴾: التي فيها القلوب والتي هي مركز الوعي والإدراك؛ الذي يقود إلى الإيمان أو الكفر، يُذّكر الله ﷻ المؤمنين أنّه مُطّلع على الأسرار والخواطر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: نداء أمر إلى المؤمنين بالله ورسوله

---

[1] صحيح البخاري /٩/٧٧(٧١٩٩).

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾: قائمين بالعدل متمسكين بتعاليم الله ﷻ، وليس للسمعة، أو للنّاس، أو لأحدٍ غير الله ﷻ ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: قائمين على العدل، لا على الجور، أو على الظلم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يحملنّكم، لا يدفعكم، ولا يحرككم ﴿شَنَآنُ﴾: درجةُ بغضٍ أو كرهٍ، أو ضغينةٍ، أو عداوةٍ ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿عَلَى أَلَّا﴾: حرف تخصيص ﴿تَعْدِلُوا﴾: أي لا يدفعكم كرهكم أو عداوة أحدٍ إلى الظلم والجور، وعدم الإنصاف ﴿اعْدِلُوا﴾: أمرٌ ربّانيّ موجب التنفيذ ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: العدل أقرب لتقوى الله من ترك العدل، جاء اللفظ أقرب للتفضيل، فقد قالت بعض الصحابيات لعمر ﵁: أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيهًا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفًا على ما سبق هنا تأكيدٌ على منهج الخوف من غضب الله ﷻ، بعد الإيمان به، ورجاء رحمته ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الانكار والشكّ ﴿اللَّهَ خَبِيرٌ﴾: صاحبُ العلم الكلّي ﴿بِمَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: وهو المعنى نفسه في خاتمة الآية السابقة، إن الله يعلم ما في أنفسكم، وسيجزيكم، خيرًا بخير، وشرًا بعذاب.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٩)

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: شرّع وقضى الله ﷻ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء من ﴿آمَنُوا وَ﴾: أيضًا آمنوا بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله والقيامة، إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، وعطفًا على إيمانهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: الذين قرنوا العمل الصالح بالإيمان الصادق ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: تكفيرُ الذنوب، والعفو عنهم، ومحو ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾: أيضًا لهم ثواب ﴿عَظِيمٌ﴾: هي الجنّة، لا ينالونها بعملهم، بل برحمته ﷻ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: من الرجال والنساء بعد ذكر الإيمان وفضله يأتي عكس ذلك: وهو الكفر، أي التغطية للحقائق بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، أو بعضها، وافتراء بعضها، والثاني ﴿وَكَذَّبُوا بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: التي أرسلناها للنّاس كأدلّةٍ، وبراهين على صدقِ الرسالة، وصدق عدلهِ ﷻ، ورحمتهِ، وحكمتهِ، وحُكمهِ، العدل الذي لا جور فيه ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد

---

[1] صحيح البخاري ٥/ ١١(٣٦٨٣)

﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون ﴿الْجَحِيمِ﴾: للنّار، المصاحبون لها، الخالدون فيها، مصاحبة الصاحب لصاحبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء الخامس كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿آَمَنُوا﴾: نداءٌ إلى الرجال والنساء؛ من شهد الله ﷻ لهم بالإيمان ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ذكرُ قلبٍ وجوارحِ بالعملِ، والقولِ، ذكر نعم الله ﷻ وفضله، وكرمه عليكم، ومنها توفير الأمن لكم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن وأيضًا تأتي هنا للتعليل ﴿هَمَّ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿قَوْمٌ﴾: قيلت في عدّيدين مواقف وأشخاص:

الموقف الأول: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: اللهُ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ، فَلَمَّا كَانَ الظُّهْرُ أَوِ الْعَصْرُ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَكَانَ النَّاسُ طَائِفَتَيْنِ طَائِفَةً بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَطَائِفَةً صَلَّوْا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَكَانُوا مَكَانَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَجَاءَ أُولَئِكَ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ، فَكَانَ لِلْقَوْمِ رَكْعَتَانِ رَكْعَتَانِ، وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ[1].

والموقف الثاني: قيل إنّها نزلت في شأن بني النضير، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: هَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ إِلَى بَنِى النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي عَقْلِ الْكِلَابِيَّيْنِ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بَنِى النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي عَقْلِ الْكِلَابِيَّيْنِ وَكَانُوا زَعَمُوا قَدْ دَسُّوا إِلَى قُرَيْشٍ حِينَ نَزَلُوا بِأُحُدٍ فِي قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَضُّوهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَدَلُّوهُمْ عَلَى الْعَوْرَةِ فَلَمَّا كَلَّمَهُمْ

[1] مسند أحمد /١٩٣/٢٣(١٤٩٢٩). وصححه الأرناؤوط.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَقْلِ الْكِلاَبِيَّيْنِ قَالُوا اجْلِسْ أَبَا الْقَاسِمِ حَتَّى تَطْعَمَ وَتَرْجِعَ بِحَاجَتِكَ وَنَقُومَ فَنَتَشَاوَرَ وَنُصْلِحَ أَمْرَنَا فِيمَا جِئْتَنَا لَهُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي ظِلِّ جِدَارٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُصْلِحُوا أَمْرَهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا وَالشَّيْطَانُ مَعَهُمْ لاَ يُفَارِقُهُمْ ائْتَمَرُوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: لَنْ تَجِدُوهُ أَقْرَبَ مِنْهُ الآنَ فَاسْتَرِيحُوا مِنْهُ تَأْمَنُوا فِي دِيَارِكُمْ وَيُرْفَعُ عَنْكُمُ الْبَلاَءُ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنْ شِئْتُمْ ظَهَرْتُ فَوْقَ الْبَيْتِ وَدَلَّيْتُ عَلَيْهِ حَجَرًا فَقَتَلْتُهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا ائْتَمَرُوا مِنْ شَأْنِهِ فَعَصَمَهُ اللَّهُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّهُ يُرِيدُ يَقْضِى حَاجَةً وَتَرَكَ أَصْحَابَهُ فِي مَجْلِسِهِمْ وَانْتَظَرَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ فَرَاثَ عَلَيْهِمْ وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: لَقِيتُهُ قَدْ دَخَلَ أَزِقَّةَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا لأَصْحَابِهِ: عَجِلَ أَبُو الْقَاسِمِ أَنْ نُقِيمَ أَمْرَنَا فِي حَاجَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا ثُمَّ قَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَجَعُوا وَنَزَلَ الْقُرْآنُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي جَاءَ أَعْدَاءُ اللَّهِ فَقَالَ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ فَلَمَّا أَظْهَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى مَا أَرَادُوا بِهِ وَعَلَى خِيَانَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ أَمَرَ بِإِجْلاَئِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا حَيْثُ شَاءُوا[1].

﴿**أَنْ**﴾: حرفٌ تأكيد الفعل ﴿**يَبْسُطُوا**﴾: كناية عن السوء من البطش والفتك، والضرب باليد، والأذى ﴿**إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**﴾: حاولوا قتلكم، وبسط اليد؛ أي مدها وتوسعها للبطش بكم ﴿**فَكَفَّ**﴾: في تتابعٍ سريعٍ منع وحفظكم مِنْ ﴿**أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ**﴾: منع الله ﷻ عدوانهم على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾: عطفًا على ما سبق؛ اعتمدوا على الله ﷻ، فمن اعتمد عليه كفاه ممّا أهمّه، وحفظه من شرّ النّاس ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**﴾: أيضًا يعتمد على الله ﷻ ﴿**الْمُؤْمِنُونَ**﴾: يسارعون في الاعتماد عليه ﷻ، بعد الأخذ بالأسباب.

﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (١٢)

كانت الآياتُ السابقةُ تأمر المؤمنين بالوفاء بعهد الله ﷻ، وميثاقه، وأمرهم بالحق، والشهادة العدل، وذكّرهم بنعمه ﷻ عليهم، وهنا أخذ الله ﷻ يُذكّر المؤمنين برسالة محمد ﷺ، وكيف تعامل اليهود مع العهود والمواثيق، وكذلك النصارى، كيف نقضوا عهدهم، وكيف كان عقابهم، وكيف أضلّهم، وأذلّهم ﴿**ولَقَدْ**﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق؛ لأنّه وقع على الفعل

[1] السنن الكبرى للبيهقي ٩/٢٠٠(١٩١٨٠) بإسناد مرسل.

الماضي ﴿أَخَذَ﴾: قَبِلَ ﴿اللَّهُ مِيثَاقَ﴾: عهد الله ﷻ ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أبناء يعقوب عليه السلام؛ لنصرةِ أنبيائهِ، ومبايعتهم، وخاصّة أبناء النبي يعقوب عليه السلام ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿بَعَثْنَا﴾: كلّفنا ﴿مِنْهُمُ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانية، بعضهم ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: هو الأمين على القوم رئيسًا، أو عريفًا، أو كفيلًا للقبيلة، هو الذي يُنقب عن شؤونهم ويتولى أمورهم، لكلّ واحدٍ منهم حقُ السمعِ والطاعةِ على قبائلهم، والسمع والطاعة لموسى عليه السلام، كان ذلك عندما توجه موسى عليه السلام؛ لقتال القوم الجبّارين، فوضع على رأسِ كلِّ سبطٍ نقيبًا، بعثهم للاطلاع على أحوال الجبارين؛ والنظر في قوتهم ومنعتهم، فذهبوا ليختبروا، وبعدها ظنّوا أنّهم لا قبل لهم بهم؛ فتعاقدوا بينهم أنْ يُخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأنْ يُخبروا موسى عليه السلام، فلمّا انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرةٌ؛ فأخبروا قرابتهم، فانتشر الخبرُ؛ حتى بطل أمر الغزو، وحينها قالوا لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا. ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿مَعَكُمْ﴾: بالحفظ، والنصر، والتأييد ﴿لَئِنْ﴾: بمعنى إذا، وهي أداة شرط وسبب ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: أدّيتم الصلاة على وجهها الصحيح ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾: أيضًا أدّيتم الزكاة من أغنياء المسلمين إلى فقرائهم ﴿وَآمَنْتُمْ بِـ﴾: حرف باء السببية ﴿رُسُلِي﴾: أيضًا آمنتم بكلّ الرسل، فيما نزل عليهم من الوحي، تصديقًا، وتسليمًا ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: أيضاً آزرتموهم، ونصرتموهم على الحقّ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: عطفًا على ما سبق أنفقتم في وجوهِ الخير، والقرض مقابلةُ الثواب من ﴿اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: بطيبِ نفسٍ أنفقتم في سبيل الله ﷻ، وابتغاء مرضاته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ﴾: لهذه الأسباب يقول ﷻ بلام ونون التوكيد إنّه يمحو، ويستر، ولا يؤاخذكم على ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: ذنوبكم التي اقترفتموها ويدفع عنكم المحذور ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾: وعطفًا على هذا وتخصيصًا وبكلّ تأكيدٍ تدخلون ﴿جَنَّاتٍ﴾: أحقق لكم المقصود، والمرجو، وهو دخول الجنّة ﴿تَجْرِي﴾: ليس فيها مياه راكدة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل ﴿كَفَرَ﴾: نكص عن هذا الاتفاق ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان ﴿ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ؛ الذي ارتد من الإيمان إلى الكفر، وأنكر حقيقة الإيمان ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾: أخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: طريق الحق الواضح؛ الموصل إلى رضوان الله ﷻ، وابتعد من الهدى إلى التيه.

التكليف: ما حدث مع موسى ﵇، هو منهجٌ اتّبعهُ محمدٌ ﷺ لمّا بايعهُ الأنصارُ ليلة العقبة، كان منهم اثنا عشر نقيبًا، ثلاثةُ من الأوس، وتسعة من الخزرج[1]، وهؤلاء الذين تولوا مبايعة الرسول ﷺ نيابةً عن قومهم، على السمع والطاعة، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا[2]، وفي هذا بشارةٌ باثني عشر رجلًا صالحًا، يُقيمون الحق والعدل، ولا يلزم من هذا تواليهم، وتتابع أيامهم، منهم الخلفاء الأربعة، ومنهم عمر بن عبد العزيز، وبعض بني العباس، والظاهر أنّ المهدي منهم، والبشارةُ تقول إنّهم من صلب إسماعيل ﵇، بعثهم للاطلاع على الجبارين.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣)

﴿فَبِمَا﴾: بسبب ونتيجة **﴿نَقْضِهِمْ﴾**: نُكوصهم، وتراجعهم، وهدم ما تم بناؤه من **﴿مِيثَاقَهُمْ﴾**: عهدهم مع الله ﷻ، أنْ يؤمنوا به، ويتبعوا دينه **﴿لَعَنَّاهُمْ﴾**: جاءت صيغة الجمع هنا لتفيد المبالغة في اللعنة، وهي إبعادهم عن الحق، وطردهم من الرحمة **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال **﴿جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾**: جعل قلوبهم، غليظة، فلا يتعظون بموعظةٍ **﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ﴾**: حرف جر يفيد المجاوزة **﴿مَوَاضِعِهِ﴾**: يبدلونه بغيره، ويتأولونه على غير تأويله، كأنّهم لم يفهموا آيات الله ﷻ، فتأولوا كتابه على غير ما أراد ﷻ، وبما افتروا عليه ما لم يقل **﴿وَنَسُوا﴾**: أيضًا تركوا **﴿حَظًّا﴾**: تركوا نصيبًا من أصول دينهم وشرع الله ﷻ **﴿مِمَّا﴾**: من الذي **﴿ذُكِّرُوا بِهِ﴾**: التي لا يُقبل العملُ إلّا بها، صار حالُهم: قلوبٌ مريضة، فطرةٌ غير مستقيمة، أعمالٌ ليست قويمة **﴿وَلَا تَزَالُ﴾**: ستبقى **﴿تَطَّلِعُ﴾**: تستطيع أنْ ترقُب، وترى **﴿عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾**: جاء لفظ خائنة في القرآن الكريم على خمسة أوجه؛ معناها هنا نقض العهد، كما في قوله ﷻ **﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾** [الأنفال-٥٨] هي الخيانة والكذب والفجور **﴿إِلَّا﴾**: حرف استثناء **﴿قَلِيلًا﴾**: باستثناء عددٍ قليلٍ **﴿مِنْهُمْ﴾**: بعضهم **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ﴾**: وسبب ما سبق أمره الله ﷻ أنْ

---

[1] دلائل النبوة . للبيهقي ٢/ ٤٥٣

[2] صحيح مسلم /٣/١٤٥٢(١٨٢١).

يعفوا عنهم ويسامحهم، ويترك قتالهم، ولكن تم نسخ هذا بقوله ﷻ: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ [التوبة–٢٩] ﴿**اصْفَحْ**﴾: المسامحة وهي صفات المؤمنين؛ فقد يُؤلّف ذلك ويجمع على الحق قلوبهم، وهذا من الإحسان، لعل الله ﷻ يهديهم ﴿**إِنَّ**﴾: حرف تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿**اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾: أي الإحسان لمن أساء إليك، قال قتادة: إنّ هذه الآية منسوخة بقوله ﷻ: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ**﴾ [التوبة–٢٩].

﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ **(١٤)**

﴿**وَ**﴾: عطفًا على ما سبق ﴿**مِنَ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بعض أو جزء ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَن ﴿**قَالُوا إِنَّا**﴾: نحن من الرجال والنساء بالتأكيد ﴿**نَصَارَى**﴾: بعض الذين ادعوا أنَّهم أنصارُ، وأتباعُ عيسى بن مريم ﵇، وليسوا كذلك ﴿**أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ**﴾: أخذنا عليهم العهد، تصديق محمد ﷺ، ونصرته، ومؤازرته، وتصديق ملّته ﴿**فَنَسُوا**﴾: لهذا السبب تركوا، وأهملوا من الميثاقِ المأخوذِ عليهم ﴿**حَظًّا**﴾: جزءًا، نصيبًا وافرًا ﴿**مِمَّا**﴾: من الذي ﴿**ذُكِّرُوا بِهِ**﴾: بعض أصول دينهم، وشرع الله ﷻ، كما فعل أسلافهم من اليهود ﴿**فأغْرَيْنَا**﴾: هيّجنا، وحرّشنا، وحرّضنا ﴿**بَيْنَهُمُ**﴾: بين اليهود والنصارى، وقد يكون بين النصارى فقط، والله أعلم ﴿**الْعَدَاوَةَ وَ**﴾: أيضًا ﴿**الْبَغْضَاءَ**﴾: ألقى الله ﷻ العداوة، والكره الشديد بينهم ﴿**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾: ستبقى طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم، مُتعادين، كارهين بعضهم، ويُكفّرُ بعضُهم بعضًا، ويلعنُ بعضُهم بعضًا، فطائفة الملكية تُكَفّر اليعقوبية، وكذلك النسطورية والآريوسية، كلّهم يُكفّر الآخر علنًا، واليوم نرى طوائف الكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس، والقبط، وغيرهم من الطوائف المسيحية التي ذبح بعضُها بعضًا في الحربين العالمية الأولى، والثانية من القرن التاسع عشر الميلادي ﴿**وَسَوْفَ**﴾: كلمةٌ تُفيد الوعد بعملٍ في المستقبل ﴿**يُنَبِّئُهُمُ**﴾: سيُخبرهم، ويُعلمهم ﴿**اللَّهُ**﴾: ﷻ بما عملوا، وما قالوا، هذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ ﴿**بِمَا**﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿**كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾: ما نسبوه إلى الله ﷻ ظُلمًا، وبخاصّة قضية الصاحبة، وهي مريم، والولد وهو عيسى ﵇.

﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾ **(١٥)**

﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: يخبر الله ﷻ عن نفسه الكريمة، مخاطبًا أهل الكتاب، اليهود والنصارى ﴿قَدْ﴾: حرف جزم دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التحقق ﴿جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾: يقول ﷻ إنّه أرسل إليهم رسولًا من عنده، هو محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، إلى أهل الأرض، وإلى كلِّ الأعراق ﴿يُبَيِّنُ﴾: يشرح ويوضح ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿كَثِيرًا مِمَّا﴾: من الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في السابق ﴿تُخْفُونَ﴾: تُغطّون، وتكتمون ما بدلتموه، وحرفتموه، وافتريتم فيه، وأوّلتموه بحسب أهوائكم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿الْكِتَابِ﴾: من جنس، الذي أنزله الله ﷻ عليكم، التوراة والإنجيل؛ فأخفيتم آية الرجم، وقصةّ أصحابَ السبتِ للممسوخين قردةً. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ كَفَرَ بالرجم، فَقَدْ كَفَرَ بِالرَّحْمَنِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ [المائدة-١٥] فكان مما أخفوا الرجم(١)، ﴿وَيَعْفُو﴾: عطفًا على ذلك يُسامح ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد هنا المجاوزة ﴿كَثِيرٍ﴾: ويتجاوز عن كثيرٍ مما غيرتموه؛ لأنّه لا فائدة من تبيانه، إلّا افتضاح أمركم، ومما أخفاه أهل الكتاب عقوبة الرجم؛ فمن كفر بها، كفر بالقرآن ﴿قَدْ﴾: حرف جزم دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿جَاءَكُمْ﴾: وصلكم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ يفيد بيان وتمييز النوع، يُفيد هنا ابتداء الغاية ﴿اللَّهِ نُورٌ﴾: قيل هو محمد ﷺ وقيل هو القرآن الكريم، هو النور الذي نزل على محمد ﷺ هاديًا للبشرية ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾: أيضًا هو واضحٌ، ظاهرٌ، قاطعُ الثبوت، والدلالة، وهذا من وصف القرآن الكريم، فهو هدىً، وشفاءٌ، ورحمةٌ، ومباركٌ، وبشرى، وعزيزٌ، ومجيدٌ، ونورٌ، وموعظة، وبشيرٌ، ونذيرٌ، ومحكمٌ ومفصّل الآيات.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦)

﴿يَهْدِي﴾: يدلُّ الله ﷻ ﴿بِهِ﴾: بالقرآن ﴿اللَّهُ مَنِ﴾: الإنسان وكلّ عاقلٍ ﴿اتَّبَعَ﴾: انقاد طواعية بمنهجِ الوصول إلى ﴿رِضْوَانَهُ﴾: ما يرضي الله ﷻ من تعاليمه ﴿سُبُلَ﴾: طرق ﴿السَّلَامِ﴾: جاء لفظ السلام في القرآن الكريم على خمسة أوجه، هنا يعني الخير كما في قوله ﷻ ﴿**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف-٨٩]، وفي قوله ﷻ ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان-٦٣]، وجاءت في قوله أيضًا ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا**

(١) صحيح ابن حبان ١٠/ ٢٧٧(٤٤٣٠) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود-٦٩] النجاةُ من العذاب، والوصول إلى الجنّةِ يوم القيامة، المُنزهةُ من كلِّ آفةٍ ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾: أيضًا يأخذهم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿الظُّلُمَاتِ﴾: من طرق الكفر المظلمة ﴿إِلَى النُّورِ﴾: وينجيهم من المهالك، إلى طريق الحياة ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بإرادة حرف جواب وجزاء من الله ﷻ، وتوفيقه، ورضاه ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾: يُدلّهم، ويأخذهم إلى المنهج الصحيح ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾: منهجٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: هو أفضل الحالات، وأفضل الطرق إلى النجاح في الدنيا، والفوز بالجنّة في الآخرة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿كَفَرَ﴾: غطّى، وأخفى، وأنكر ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يُفيد هنا جميع الرجال والنساء؛ مَنْ ﴿قَالُوا إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ هُوَ﴾: ضمير يفيد الغائب الفرد المذكر ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: وهذه طائفةُ اليعقوبيين، لقد كفر النصارى بادّعاء أنّ عيسى بن مريم هو الله، افتراءً، وزورًا ﴿قُلْ﴾: أمر ربّاني بوجوب القول الصحيح ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا الذي ﴿يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: يأمرُ الله ﷻ رسوله ﷺ أنْ يسأل النّاس: عن قدرتهم، أمام قدرة اللهِ ﷻ على المخلوقات، كونهم تحت إرادته وسلطانه، هل يستطيع أحدٌ من خلقه أن يمنع الله ﷻ من إهلاك المسيح عليه السلام إنْ شاء؟ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط؛ بمعنى إذا ﴿أَرَادَ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُهْلِكَ﴾: يُميت ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ﴾: أيضًا يُهلك ﴿أُمَّهُ﴾: بالموت عند نزوله بها ﴿وَمَنْ﴾: أيضًا يهلك كلّ جنس العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: من سيمنع الله ﷻ من أنْ يُهلك عيسى عليه السلام وأمّه مريم، وكلّ من على الأرض من البشر لو أراد ذلك؟! من يقدر أنْ يصرف عنهم هذا القرار؟! منْ يحميهم ويدفعُ عنهم؟! ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق يجب العلم أنّ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاوية الشكل ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: يُذكّر الله ﷻ النصارى بجزءٍ من خلقه، وهي السماوات، والأرض، وما بينهما، فجاءت "**ما**" فتصبح الآية أيضًا شاملةً لجنس المخلوقات من جنس غير العاقل مثل النجوم، والكواكب، والبحار، والدواب، فلا شيء في ملكوت السموات والأرض إلّا تحت أمره ﴿يَخْلُقُ﴾: يُوجِد من العدم، من غيرِ سابقِ وجودٍ ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَشَاءُ﴾: ما يريد، والذي جاء ذكره من غير العاقل ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: حرف يفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة

النكرة لتؤكد وتفيد عموم الخلق ﴿قَدِيرٌ﴾: صيغة القدرة المطلقة التي لا تحدّها حدودٌ، ولا يعادلها شيءٌ في الوجود.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾: ادَّعى اليهود والنصارى، كذبًا، وزورًا، وهم أهلُ الكتاب، حين قالوا ﴿نَحْنُ﴾: ضميرُ رفعٍ منفصلٍ يُفيدُ الجمع ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾: لقد أراد اليهود أنْ يُثبتوا لأنفسهم ما أثبتته للعزير حيث قالوا: عزيرٌ ابن الله وما ادّعاه النصارى لأنفسهم: أنّ المسيح ابن الله، وهي مجرد دعاوى باطلة وأماني عاطلة، ﴿قُلْ﴾: أمر ربّانِيّ بالقول ﴿فَلِمَ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾: الله ﷻ ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾: يأمر الله ﷻ محمدًا ﷺ أنْ يسألهم لماذا أعدّ اللهُ ﷻ لكم نار جهنّم، إذا كنتم تدعون أنّكم أبناؤه وأحباؤه، كفرتم، وكذبتم ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿بَشَرٌ﴾: من بني آدم ﴿مِمَّنْ﴾: من الذين من البشر ﴿خَلَقَ﴾: أوجدكم من أبناء آدم عليه السلام، والله ﷻ هو الحاكم في جميع خلقه ﴿يَغْفِرُ﴾: يسامح ﴿لِمَنْ﴾: تخصيصًا للذي هو من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: يفعل ما يريد، لا مُعقب لحكمه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾: كلّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا﴾: وكلّ الذي ﴿بَيْنَهُمَا﴾: أنتم في مُلك الله ﷻ الواسع، السماوات، والأرض، وما بينهما، أنتم تحت سلطانه، وقهره ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: عطفًا على هذا إليه المرجع والمآل؛ فيُدخل من يشاء في رحمته، والظالمون لهم عذاب عظيم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ من الله ﷻ على ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: خطاب من الله ﷻ إلى اليهود والنصارى، يذكّرهم أنّهم أهلُ كتابٍ سماويٍ ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد هنا التحقق؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾: يشهد الله ﷻ أنّه أرسل رسوله محمدًا ﷺ خاتمًا لسلسلة النبوة، لا نبي ولا رسول بعده ﴿يُبَيِّنُ﴾: يُوضح بالشرح والبرهان الساطع والقول الصادق ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا؛ السبيل السليم، ويُصحّحُ المسار بعد أنْ ذهبت البشريةُ في ظلماتٍ، ويُبشرُ بالثواب، ويُنذرُ بالعقاب ﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾: فتورٍ وانقطاعِ الرسلِ قبل بعثةِ محمدٍ ﷺ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، جزء أو بعض ﴿الرُّسُلِ﴾: بعد مدّةٍ طويلةٍ من بعد

عيسى بن مريم عليه السلام، قال قتادة: كانت ستمائة سنة، وقيل خمسمائة وستين (٥٦٠) سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضعٌ وثلاثون، والأقرب للصواب هي: ستمائة؛ لأنّها كانت سنة (٦١٠) ميلادي، وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ[1]. كان طول هذه المدة قد غيّر الأديان، وضلّ النّاس فيها السبيل، وكثرت عبادة الأوثان، وانتشرت عبادة النّار، وظهرت الصلبان ﴿أَنْ﴾: حرف يفيد توكيد القول ﴿تَقُولُوا مَا﴾: حرف نفي ﴿جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾: حتى لا تحتجوا، وتقولوا ما جاءنا رسولٌ يُبشرُّ بالخير، ويُنذرُ من الشرّ، وهذا معنى ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نَذِيرٍ﴾: محذّر ومُخوّف ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمْ بَشِيرٌ﴾: يبشر المؤمنين بالجنّة ﴿وَ﴾: أيضًا جاءكم ﴿نَذِيرٌ﴾: ينذر، ويخوّف، ويحذّر الكافرين بالنّار ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ بالقوة العظمى أنْ يُرسل إليكم رُسلًا، وقادرٌ أنْ يحاسبكم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلّ على حدث في الماضي ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: تخصيصًا للذين من أصلٍ وعرقٍ واحدٍ، مخاطبًا عقولهم ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: يُخبر الله سبحانه وتعالى عن نبيه موسى عليه السلام إذ نادى في قومه أنْ أذكروا ما أعطاكم الله سبحانه وتعالى من نعم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على حدث في الماضي ﴿جَعَلَ﴾: قد أرسل ﴿فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾: كلّما هلك نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ، من لدن أبيكم إبراهيم حتى ختم بعيسى بن مريم عليهم السلام ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾: أيضًا منح الإنسان منكم الزوجة والخادم، والبيت، هذه صفات إذا توافرت سُمي الرجل ملكًا، وقيل الملك مركب وخادم، وقيل يملك الرجل نفسه وماله وأهله بعد أن كانوا محكومين مستعبدين من فرعون، قال ﷺ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا[2]، ﴿وَآتَاكُمْ﴾: أيضًا أعطاكم ومنحكم، ووهب لكم ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل مثل الشجر والأنعام.. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُؤْتِ﴾: يمنح ﴿أَحَدًا﴾: واحدًا ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: الأمم السابقة لهم، لقد وهب اللهُ سبحانه وتعالى لبني إسرائيل شرفًا

---

[1] صحيح البخاري /١٦٧/٤(٣٤٤٢).

[2] سنن الترمذي /١٥٢/٤(٢٣٤٦). وحسنه الترمذي وقال: حسن غريب، وقال شعيب الأرناؤوط في تخريجه أحاديث سنن ابن ماجة /٢٥٣/٥: إسناده حسن بمجموع شواهده.

عظيمًا على الأمم التي عاصرتهم، من أهل اليونان، وسائر أصناف بني آدم، وجاء من بعدهم الأقباطُ المسيحيون، ثم جاءت أمّة محمد ﷺ أقوم منهاجًا، وأكرم نبيًّا، وأعظم ملوكًا، وأكثر أرزاقًا وأولادًا، وأوسع ملكًا، وأدوم عزًا قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة-١٤٣]، وقوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران-١١٠].

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١)

يُحرّض الله ﷻ قوم موسى على دخول فلسطين، الأرض المقدسة الطاهرة، والأرض المباركة، أي كثيرة الخيرات، التي عاشوا فيها زمن يعقوب ؏، ثم تركوها إلى مصر، وعاشوا فيها في زمن يوسف ؏، ومن بعده، ثم خرجوا مع موسى ؏، إلى الأرض المقدسة فلسطين، فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبارين، أمرهم موسى ؏؛ بمقاتلتهم، وبشّرهم بالنصر، فرفضوا، وعصوا، فعاقبهم اللهُ ﷻ بالتيه، يسيرون ولا يهتدون، ولا يعرفون أين يذهبون لمدّة أربعين سنة **﴿يَا﴾**: حرف نداء للقريب والبعيد **﴿قَوْمِ﴾**: يا بني إسرائيل **﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾**: الأرض المُطهّرة، المباركة، كثيرة الخيرات، بيت المقدس، وفلسطين **﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾**: قدّرها في سابق علمه، وجعلها مسكنًا لهم عندما كانوا صالحين، فلمّا فسدوا وأفسدوا أخرجهم منها. جاء لفظُ كلمة كتب في القرآن الكريم على أربعة أوجه، هنا بمعنى جعل كما في قوله ﷻ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ([المجادلة-٢٢]، وفي قوله ﷻ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران- ٥٣]، وجاء بمعنى فُرض كما في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة-١٧٨] وفي قوله أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة-١٨٣] وفي قوله أيضًا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة-٢١٦]، وبمعنى قضى وحكم كما في قوله ﷻ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة-٢١]، وفي قوله أيضًا ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة-٥١] أي وعدكم بها أبوكم إسرائيل ﵇ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا تَرْتَدُّوا﴾: أيضًا مُحرّمٌ عليكم أنْ ترجعوا، أو تنقلبوا ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾: ترجعوا عن أمري؛ وتتركوا طاعتي، وما أوجبتهُ عليكم من قتالِ الجبّارين؛ جُبنًا منكم وخوفًا؛ فتمتنعوا عن الجهاد ضدّ الكافرين الجبّارين ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾: لهذا السبب ترجعوا ﴿خَاسِرِينَ﴾: مهزومين، خاسرين لخيريّ الدنيا والآخرة، ولوعد الله ﷻ، ورضاه، وتأييده ﷻ.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢)

﴿قَالُوا يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿مُوسَى﴾: كان تبريرهم للرفض ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿فِيهَا قَوْمًا﴾: جماعةً من أصلٍ واحدٍ أو أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿جَبَّارِينَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**جبار**"، جبارين على أربعة وجوه؛ جاءت هنا بمعنى أنّ أجساد القوم ضخمة، وقوّتهم شديدة، لا يقدر أحدٌ على قتالهم، ولا مقارعتهم، وقيل لأنّهم يُجبرون الآخرين على طاعتهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت بصيغة الجمع من المؤمنين بموسى ﵇ ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿نَدْخُلَهَا﴾: لأنّنا لا نُريد قتالًا ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ ﴿يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية، وهي هنا دخول فلسطين ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾: هنا ظهرت درجةُ ضعفِ إيمانهم بالله ﷻ، ومدى ضعفِ إيمانهم بنصرهِ وتأييده ﷻ؛ لأنّهم قاسوا النصر والهزيمة بالقوّةِ الماديّةِ والجسدية، وليس بتأييد الله ﷻ ونصره، وتهيئته للأسباب ﴿فَإِنَّا﴾: نحن لهذه الأسباب بالتأكيد ﴿دَاخِلُونَ﴾: لأنّه لا طاقة لنا بهم؛ ففضلنا البقاء بعيدًا عن الأرض المقدسة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣)

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: هما يوشع بن نون وكالب بن يوحنا، وقيل أيضًا أحدهما هو "يحوطب" بن يوفنا من سبط يهوذا بن يعقوب، وكانا من الاثني عشر نقيبًا، كانا يعتقدان بنصرِ الله ﷻ، وهم من بقايا المؤمنين بموسى ﵇ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَخَافُونَ﴾: من الرجال والنساء الذين يخشون الله ﷻ ولا

يعصونه، ويخافون عقابه، أيضًا يخافون مِنْ ضعف بني إسرائيل؛ إذا رفضوا أمره، كانا من أصحاب الرأي والإيمان، قيل هما يوشع بن نون بن إسرائيل بن يوسف ﷺ، والثاني اسمه كالب بن يوحنا، ﴿أَنْعَمَ﴾: تفضل وتكرم ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: للإيمان واليقين بحصول ما وُعدوا به من النصر والظفر، ﴿ادْخُلُوا﴾: فعلُ أمرٍ بالدخول ﴿عَلَيْهِمُ﴾: القومُ الجبّارون ﴿الْبَابَ﴾: إذا توكلتم على الله ﷻ، واتبعتم أمره، ووافقتم رسله، فاقتحموا باب المدينة ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿دَخَلْتُمُوهُ فَ﴾: حرفٌ يفيد التتابع السريع والسبب ﴿إِنَّكُمْ﴾: بالتأكيد ﴿غَالِبُونَ﴾: بمجرد دخولكم عليهم، ومحاربتهم بقدر ما تستطيعون؛ طاعةً لله ﷻ، تنتصرون على أعدائكم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾: اعتمدوا على نصره، وتأييده ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: مقياس درجة الإيمان بالله ﷻ هو طاعته، مجرد التوجه إلى مشارف القدس، مزودين بالإيمان، وباليقين بالنصر واليقين بعون الله ﷻ فإنّ النصر حليفكم.

التكليف: هذه قواعدٌ ثابتةٌ، ربّانية، إنّ مقياس النصر ليس بالقوة؛ ويجب الأخذ بها، ولكنّ إخلاص النية، والتوكل على الله ﷻ، واليقين بالنصر، وبتنقية الصف، تتحرر القدس وفلسطين وبقية الدول والشعوب الإسلامية بإذن الله ﷻ من الاحتلال اليهودي، والصليبي ومن يخون من العرب والمسلمين.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤)

﴿قَالُوا﴾: تفيد أنهم قالوا جميعًا تقريبًا ﴿يَا مُوسَى إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿نَدْخُلَهَا﴾: الضمير يعود على المدينة وهي إمّا إلياء أو أريحا في فلسطين ﴿أَبَدًا﴾: قرروا عدم القتال قطعيًا، نكوصًا عن الجهاد، ومخالفةً لرسولهم، قالوا لنْ نحارب في سبيل الله، ﴿مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ﴾: لهذا السبب اذهب يا موسى ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا التخيير ﴿رَبُّكَ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون البديع من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو تعالى الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ هنا تتجلى قلّة حيائهم من رسول الله، ﷺ، ومن الله ﷻ، قالوا أنت وربُّك ولم يقولوا ربّنا، هذه الكلمات؛ تُظهر درجةَ الكفرِ التي وصلوا إليها ﴿فَقَاتِلَا إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿هَاهُنَا﴾: إشارة للدلالة على النوع والعدد في مكاننا هذا ﴿قَاعِدُونَ﴾: لا يبرحون مكانهم. كان منهم منْ يريد البقاء في سيناء، في التيه، ومنهم من

يريد العودة إلى مصر، حيث العبودية، والقتل، واستحياءِ النساءِ، فسجد موسى وهارون عليهما السلام، أمام ملأٍ من بني قومهم؛ خوفًا مما سمعوا منهم، وتجرؤهم على الله ﷻ، وقيل شقّ يوشع بن نون، وكالبُ بن يوفنا ثيابهما، ولاما قومهما، وقيل إنّ البقية من بني إسرائيل رجموا هؤلاء، وجرى بينهم أمرٌ عظيمٌ، وخطرٌ كبيرٌ.

التكليف: لو عقدنا مقارنةً في يوم بدر، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا[1]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ المِقْدَادُ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ**﴾ وَلَكِنِ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥)

﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام **﴿رَبِّ﴾**: هنا اللجوء إلى مالكِ الأمر كلّه ﷻ **﴿إِنِّي﴾**: أنا بالتأكيد **﴿لَا﴾**: حرف نفي **﴿أَمْلِكُ﴾**: بدأ بذكر عبوديتهم لله ﷻ، أنّ هؤلاء القوم لا يطيعوني، ولا يسمعون كلامي، ولا ينفذون أوامري، ولا أمرك، ولا يجيبون دعوتك **﴿إِلَّا﴾**: حرف استثناء منقطع **﴿نَفْسِي﴾**: لا أحد سواي، أنا أملك قرار نفسي **﴿وَأَخِي﴾**: أيضًا هارون، وأخي يملك قرار نفسه نحن نطيع ونسمع، ونحن الاثنان لا نقدر على بني إسرائيل **﴿فَافْرُقْ﴾**: لهذا السبب؛ ميّزنا عنهم، لا تُلحقنا بهم في العقوبة، وأقض، وافتح **﴿بَيْنَنَا﴾**: وبينهم، وقيل: افصل بيننا وبينهم، بين نيّاتنا ونيّاتهم، وبين طاعتنا وعصيانهم **﴿وَبَيْنَ الْقَوْمِ﴾**: هم من أصلٍ ومذهبٍ واحدٍ **﴿الْفَاسِقِينَ﴾**: الذين خرجوا عن طاعتك، وعصوا أمرك.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ **﴿فَإِنَّهَا﴾**: الأرض المقدسة بالتأكيد، فلسطين **﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾**: لن يدخلها هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم عن قتال الجبّارين **﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾**: لا زيادة عليها ولا يدخلها أحدٌ ممن قال: ﴿**إنّا لن ندخلها**﴾ عقابًا لهم على عصيانهم لله ﷻ ولرسوله، أيضًا

(١) صحيح مسلم /٣/١٤٠٣(١٧٧٩).

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٥١(٤٦٠٩)

﴿**يَتِيهُونَ**﴾: والتيه هو الحيرة يسيرون كلَّ يومٍ، ولا يعرفون أين يذهبون أو يجيئون؛ ليس لهم قرار، يسيرون ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾: ولا يهتدون، أربعين سنة، قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: سَارَ بِهِمْ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَخَذَ الأَلْوَاحَ بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ، فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوَظَائِفِ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِهَا، فَنَتَقَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ ﴿**كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ**﴾ وَدَنَا مِنْهُمْ، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذُوا الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ، وَهُمْ مُصْغُونَ إِلَى الْجَبَلِ وَالأَرْضِ، وَالْكِتَابُ بِأَيْدِيهِمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى أَتَوُا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَوَجَدُوا فِيهَا مَدِينَةً فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ، خَلْقُهُمْ خَلْقٌ مُنْكَرٌ، وَذَكَرُوا مِنْ ثِمَارِهِمْ أَمْرًا عَجِيبًا مِنْ عِظَمِهَا، فَقَالُوا: ﴿**يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ**﴾ لا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَلا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ مِنَ الْجَبَّارِينَ: إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعِدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ، فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ فَأَغْضَبُوا مُوسَى، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ؛ وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ، حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، فَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى: ﴿**فَاسِقِينَ**﴾، وَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ ﴿**أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لا تَبْلَى وَلا تَتَّسِخُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلاثَةُ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سِبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا لا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنْقَلَةٍ إِلَّا وُجِدَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فِيهِمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالأَمْسِ (١)، ﴿**فَلَا**﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿**تَأْسَ**﴾: تأسف أو تحزن ﴿**عَلَى الْقَوْمِ**﴾: الجماعة الذين من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ، وهم هنا اليهود ﴿**الْفَاسِقِينَ**﴾: قيلت لموسى عليه السلام، حتى لا يتأسف، أو يحزن لما سيصيبهم.

---

(١) مسند أبو يعلى ٥/١٠(٢٦١٨) قال حسين أسد: رجاله ثقات.

التكليف: هذه من آيات فضيحة أجداد اليهود، وتسلية المسلمين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وتبيان موروث اليهود الخُلُقي، المجبول على مخالفة الله ﷻ، وعصيان رسله، والجبن، وتحويل معاني الكلام، وسرقة الأموال، وما أصابهم من مسخٍ؛ كالخنازير والقرود.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق **﴿اتْلُ﴾**: أُقصص يا محمد ﷺ **﴿عَلَيْهِمْ﴾**: على المؤمنين **﴿نَبَأَ﴾**: قصة ابنيْ آدم، كما أمر الله ﷻ أنبياءه أنْ يقصوا قصة قابيل وهابيل على اليهود، وأمثالهم؛ قصة البغي والظلم **﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾**: قابيل، وهابيل **﴿بِالْحَقِّ﴾**: بالصدق، بكلامٍ لا لُبس فيه، ولا كذب، لا تبديل فيه أو نقصان **﴿إِذْ﴾**: حرفٌ يُفيد ما حدث في الماضي ويفيد التعليل **﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾**: قدّم هابيل جذعة سمينة من الغنم، أو البقر، أو الكبش، وقرّب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها، وأكلها؛ فنزلت النّار؛ فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل؛ فغضب، ولقد قيل: إنّ الكبش الذي قدمه هابيل هو الذي فدى اللهُ ﷻ به إسماعيل ﵇، والله أعلم، وقال **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يفيد السبب والتنفيذ السريع **﴿تُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾**: بسبب ما قدّم هابيل مما يملك من الماشية، أحسنها، وأفضلها **﴿وَلَمْ﴾**: حرف نفي **﴿يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾**: بمعنى لن تنالوا رضى الله ﷻ من البر حتى تنفقوا مما تُحبون، من قابيل الذي لم يخلص النّية في تقديم القربان؛ لأنّه ضنّ بسنبلةٍ، وأكلها، **﴿قَالَ لَـ﴾**: حرف علّة وسبب **﴿أَقْتُلَنَّكَ﴾**: أزهق روحك بكلّ تأكيد حتى لا تنكح أختي **﴿قَالَ﴾**: هابيل **﴿إِنَّمَا﴾**: أداة تحديد وتخصيص **﴿يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**: القائل؛ والله أعلم، هو: هابيل؛ لأنّ الآية التي تليها تُؤكد سياق القول.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨)

القائل: هنا الأخ الصالح، الذي تُقبل منه ما قرّبه، وهو هابيل **﴿لَئِنْ﴾**: حرفٌ يُفيد الشرط والسبب **﴿بَسَطْتَ﴾**: إذا قصدت، مددت، وتوسعت يداك، وقررت صنيعًا فاسدًا، **﴿إِلَيَّ﴾**: نحوي **﴿يَدَكَ﴾** إذا مددت يدك بالعدوان عليّ **﴿لِتَقْتُلَنِي﴾**: إذا أردت قتلي **﴿مَا﴾**: حرف نفي **﴿أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾**: لن أقصد قتلك، لن أقابل عملك الفاسد بمثله؛ فأكون وأنت سواءً في الجُرم، **﴿إِنِّي﴾**: أنا بالتأكيد **﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ﴾**: مالك أمرك كلّه **﴿الْعَالَمِينَ﴾**: عالم الإنس والجن والطيور والحيوانات وغيرها.. بسبب خوفي ومعرفتي بعقوبة جريمة القتل التي

حرّم الله إلّا بالحق، فلن أقتلك فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، وقد قيل إنّه كان الأقوى، ولكن منعه الورع والخوف من الله ﷻ، قال أَبُو بَكْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ[1]، إنّ أول من أخذ بهذه الآية؛ كان عثمان بن عفان رضي الله عنه.

التكليف: إنّ استسلام هابيل للقتل لم ولا يوجد في شريعةِ المسلمين، ففي الإسلام لا يجوز الاستسلام للقتل، بل يجوز دفعه عن نفسه؛ إجماعًا عند العلماء، بل هو مأمورٌ به، والأصحُّ هو وجوبُ الدفاع عن النفس لقوله ﷻ: ﴿**والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ [الشورى-٣٩].

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩)

﴿إِنِّي﴾: حرف يفيد التأكيد أنا **﴿أُرِيدُ﴾**: أرغب **﴿أَنْ﴾**: حرف تأكيد الفعل **﴿تَبُوءَ﴾**: ترجع بإثم قتلك لي، جاء اللفظ القرآني "**باؤوا**" على أربعة أوجه، بمعنى تعترف وتحتمل أنْ تجني وتحصُد، وتنال وتتحمل **﴿بِإِثْمِي﴾**: ذنب قتلي **﴿وَإِثْمِكَ﴾**: أيضًا تجني عقاب خطيئتي، وعقاب خطيئة قتلك لي، أنْ تكون خطيئتي ودمي عليك **﴿فَتَكُونَ مِنْ﴾**: حرفٌ يفيد التمييز بسبب ما فعلت تصبح في شرع الله تعالى من **﴿أَصْحَابِ﴾**: أهل **﴿النَّارِ﴾**: مصاحبًا لها، لا تُفارقها أبدًا **﴿وَذَلِكَ﴾**: عطفًا على كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ يكون **﴿جَزَاءُ﴾**: عقاب **﴿الظَّالِمِينَ﴾**: وهذا عقاب المعتدين.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠)

﴿فَـ﴾: حرف يفيد التتابع السريع والسبب **﴿طَوَّعَتْ﴾**: والطوع هو الانقياد بإرادته، ورغبته، وبحبٍ؛ حسّنت، وجمّلت، وزيّنت، وشجّعت **﴿لَهُ﴾**: تخصيصًا **﴿نَفْسُهُ﴾**: الأمارة بالسوء **﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾**: والأخ هنا الأخ الشقيق **﴿فَـ﴾**: عطفًا على ما سبق حقق القتل بسرعة **﴿قَتَلَهُ﴾**: أزهق روحه بعد موعظة أخيه هابيل له، لم تزجره الموعظة؛ فقتل أخاه، ومن المعلوم أنّ الموت هو خروج الروحُ يتبعها تلفُ الجسد، بينما القتل هو إتلاف الجسد؛ يتبعه خروجُ الروح، **﴿فَأَصْبَحَ﴾**: صار **﴿مِنَ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وبمعنى بعض **﴿الْخَاسِرِينَ﴾**: خسر قابيل الدنيا، وخسر الآخرة التي هي أعظم، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

---

[1] صحيح البخاري /١/١٥(٣١).

اللَّهِ ﷺ: لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ[1].

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣١)

﴿فَـ﴾: حرف يفيد السبب والتتابع السريع ﴿بَعَثَ﴾: أرسل ﴿اللَّهُ غُرَابًا﴾: قال السدي: لما مات هابيل تركه بالعراء، وهو لا يعرف كيف يدفنه؛ فبعث الله ﷻ غُرابين أخوين؛ فاقتتلا؛ فقتل أحدُهما الآخر، فحفر له، حتى حثى عليه، غطّاه بالتراب، فرآه ﴿يَبْحَثُ﴾: البحث هو الكشف، والطلب، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: ليعمل قبرًا لغرابٍ ميّتٍ ﴿لِيُرِيَهُ﴾: ليُعلّمه ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾: كيف يدفن الموتى ﴿سَوْءَةَ﴾: جيفة ﴿أَخِيهِ﴾: جثتهُ الميتة ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى﴾: كلمةُ جزعٍ وتحسرٍ وتأنيبٍ للنفس، يبّشرُ نفسه بالويل والعذاب ﴿أَعَجَزْتُ﴾: استفهام بغرض الإنكار والتوبيخ، هل عجزت وفشلت ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَكُونَ مِثْلَ هَذَا﴾: اسم إشارةٍ للمذكر ﴿الْغُرَابِ﴾: استصغر نفسه، فلم يسعفه عقله حتى يكون مثل الغراب، فيدفن جثة أخيه ﴿فَأُوَارِيَ﴾: والسبب أنْ أستر ﴿سَوْأَةَ﴾: جثةِ، جيفة ﴿أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: صار وكان من المُتحسرين.

التكليف: عن أبي بكرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: مَا مِن ذَنْبٍ أجدَرُ أنْ يُعجِّلَ اللهُ ﷻ لصاحِبِهِ العُقوبَةَ في الدُّنيا، مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرة، مثلُ البَغيِ، وقَطيعةِ الرحمِ[2].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (٣٢)

﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع وتفيد هنا التعليل ﴿أَجْلِ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، هنا بسبب قتل ابن آدم لأخيه ﴿كَتَبْنَا﴾: شرّع اللهُ ﷻ وأعلم وفرض ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هم اليهود أبناء يعقوب ﵇، ونسلهم؛ لأنّهم أوّل أُمّةٍ نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ولكثرة سفكهم للدماء وقتلهم الأنبياء ﴿أَنَّه﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفيٍ للشك ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿قَتَلَ نَفْسًا﴾: جاء اللفظ القرآني "**النفس**" على ستة أوجه، هنا بمعنى الإنسان أيضًا في قوله ﷻ **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ**

[1] صحيح البخاري /٤/١٣٣(٣٣٣٥).
[2] سنن أبي داود /٧/٢٦٣(٤٩٠٢). وصححه الأرناؤوط.

بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة-٤٥]، وانظر [البقرة-٨٥] **﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾**: بغير قتل نفس، لم يكن قصاصًا **﴿أَوْ﴾**: حرف عطف يفيد التسوية بين متعاطفين هنا الأول كان القتل والثاني **﴿فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾**: إفساد دين العباد، وإفساد الزرع، وإفساد التجارة بالربا، وتحريش المسيحيين على المسلمين، وغيرها من جرائم عصر احتلال اليهود لفلسطين وأراضٍ عربيةٍ أخرى، كمصر، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، وغيرها **﴿فَـ﴾**: حرف يفيد ربط جواب الشرط **﴿كَأَنَّمَا﴾**: حرفُ تأكيد؛ بمعنى كمثل الذي **﴿قَتَلَ النَّاسَ﴾**: بني آدم **﴿جَمِيعًا﴾**: كحكم الذي قتل كلّ النّاس، لا فرق عنده بين نفسٍ ونفسٍ **﴿وَمَنْ﴾**: أيضًا الذي **﴿أَحْيَاهَا﴾**: الذي حرّم قتلها، وأنقذها اعتقادًا وإيمانًا **﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾**: فأوجب على اللهِ ﷻ شكره، وكأجرِ من أحيا النّاس جميعًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ **﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾**[1]، كأنّما سَلِمَ النّاسُ كلُّهم بسبب هذا الاعتقاد. والحياة هنا البقاء على قيد الحياة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا ضِرَابٌ؟ فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَيَسُرُّكَ أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَإِيَّايَ مَعَهُمْ؟» فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتَ رَجُلًا وَاحِدًا، لَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا» (ص: ٣٨٧) فَرَجَعْتُ فَلَمْ أُقَاتِلْ[2]، **﴿وَلَقَدْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي **﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِـ﴾**: حرف باء التعددية **﴿الْبَيِّنَاتِ﴾**: لقد حمل الرسل عليهم السلام هذه الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة **﴿ثُمَّ﴾**: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي **﴿إِنَّ﴾**: حرف تأكيد، نفي الإنكار والشكّ **﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾**: ومع ذلك فإنّ كثيرًا منهم بعد هذا التوضيح **﴿فِي الْأَرْضِ لَـ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿مُسْرِفُونَ﴾**: مبالغون في ارتكاب الجرائم.

التكليف: ولم يكنْ القتلُ بسبب الفساد، بل قتلٌ دونَ سببٍ أو خيانةٍ، أيضًا ما اقترفوا من الفساد، الشركُ باللهِ ﷻ، وقطعُ الطريق، وسفكُ الدماء، ونهبِ الأموال، وقطعِ الأشجار، وهتكِ الأعراض، وتغويرِ الأنهار، والبغي على عبادِ الله بغير حقَ، وهدمُ البيوت، وهذا وغيرهُ مارسوه في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ولا يزالون.

---

[1] صحيح البخاري ٦/ ٥٠ باب سورة المائدة.

[2] سنن سعيد بن منصور ٣٨٦/٢(٢٩٣٧) جاء في تحقيق المطالب العالية: هذا إسناده صحيح، رجاله ثقات.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣)

نزلت هذه الآية فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق؛ ويسعى في الأرض بالفساد، وقيل إنّها نزلت في قومٍ من أهل الكتاب، كان بينهم وبين النبي ﷺ عهدٌ، فنقضوا عهدهم، وأفسدوا في الأرض، فخيّر الله ﷻ رسوله إنْ شاء أنْ يقتل، وإنْ شاء أنْ تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف. فعن أَنَسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَاسْتَوْخَمُوا الأَرْضَ فَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَفَلاَ تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا» قَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَطْرَدُوا النَّعَمَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا[1]. وقيل إنّهم قدموا من البحرين ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ وتحديدٍ وتخصيصٍ وتوكيدٍ ﴿جَزَاءُ﴾: عاقبة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم مستثنى من موجب، موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُحَارِبُونَ﴾: الذين يخرجون على أوامر الله ﷻ ورسوله ﷺ ويحملون السلاح على المؤمنين ويقتلون ويسرقون ويعتدون على الحُرمات ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: ﷺ يحاربون عباد الله ﷻ، جاء اللفظ القرآني "**الحرب**" في القرآن الكريم على وجهين، هنا بمعنى الكفرِ والمعارضةِ والمضادّةِ والمخالفةِ، وقطعِ الطريق، وإخافةِ النّاس، وجاءت بمعنى حمل السلاح؛ للقتال هنا وفي قوله ﷻ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة-٦٤]، وفي قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال-٧٥]، ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾: أيضًا ينتشرون، ويبذلون جهدهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في المجتمعات بجدٍ، وهمّةٍ، ونشاطٍ ﴿فَسَادًا﴾: الفساد هو كلّ أنواع الشرّ للإنسان، وإهلاك الحرث والنسل ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُقَتَّلُوا﴾: يتم تطبيق حكم الإعدام فيهم ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية بين متعاطفين الأول القتل والثاني ﴿يُصَلَّبُوا﴾: أو يُعلّقوا على الصلبان الخشبية، حتى

---

[1] صحيح البخاري /٩/٩(٦٨٩٩).

الموت ﴿أَوْ﴾: حرف تقسيم وتسوية مع ما سبق ﴿تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ﴾: أيضًا تقطع ﴿أَرْجُلُهُمْ﴾: قطع اليد وقطع الرجل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع وابتداء الغاية المكانيّة ﴿خِلَافٍ﴾: تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، وإنْ عاد تقطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى من المفصل ﴿أَوْ يُنْفَوْا﴾: إذا لم يقتلوا، ولم يأخذوا مال غيرهم، وقطعوا الطرق. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾: إمّا سجنهم وإمّا طردهم من البلاد، جاء اللفظ القرآنيّ الأرض على سبعة أوجه؛ هنا أيضًا بمعنى أرض الجنّة كما في قوله ﷻ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر-٧٤]، وفي قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء-١٠٥]، وبمعنى أرض الشام المقدسة في قوله ﷻ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف-١٣٧]، وفي قوله ﷻ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء-٧١]، وبمعنى أرض مكة في قوله ﷻ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء-٤٤]، و في قوله ﷻ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد-٤١]، وبمعنى أرض مصر خاصّة؛ في قوله ﷻ ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف-٥٥، ٥٦]، وجاءت بمعنى أرض الإسلام خاصّة في قوله ﷻ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة-٣٣]، وجاءت بمعنى أرض العرب والمسلمين في قوله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف-٩٤] وبمعنى كلّ الأرض في قوله ﷻ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام-٣٨]، أنْ يطلب الحاكم الرجل: إمّا أمرٌ يقام عليه الحد، أو يهرب، وقيل يُنفى من بلده لبلد آخر، أنْ يُخرجه السلطان أو نائبه في معاملاته تمامًا ﴿ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ عن العقاب ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿خِزْيٌ﴾: ذلٌ وفضيحةٌ

﴿فِي الدُّنْيَا﴾: القتل، والصلب، وقطع اليد، والرجم والنفي؛ خزي وعار في الدنيا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: شديدُ الوجع.

حكم المحاربة: يرى جُمهور العلماء أنّ حُكم المحاربة في الأمصار وفي السفر على حدٍ سواءٍ، قال ذلك مالك، والشافعي، وابن حنبل، وقال مالك في الذي يغتال الرجل؛ فيخدعه حتى يدخله بيتًا؛ فيقتله، ويأخذ ما معه، ودمه إلى السلطان لا إلى وليّ المقتول، ولا اعتبار لعفوه في إسقاط القتل، قال أبو حنيفة: المحاربة فقط في الطرقات، وليس في الأمصار؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، قَالَ: إِذَا حَارَبَ فَقَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، وَإِذَا حَارَبَ وَأَخَذَ الْمَالَ وَقَتَلَ فَعَلَيْهِ الصَّلْبُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، وَإِذَا حَارَبَ وَأَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ فَعَلَيْهِ قَطْعُ الْيَدِ وَالرِّجْلِ مِنْ خِلَافٍ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، وَإِذَا حَارَبَ وَأَخَافَ السَّبِيلَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ النَّفْيُ وَنَفْيُهُ أَنْ يُطْلَبَ، وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: إِنْ أَخَذَ وَقَدْ أَصَابَ الْمَالَ وَلَمْ يُصِبِ الدَّمَ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَإِنْ وُجِدَ وَقَدْ أَصَابَ الدَّمَ قُتِلَ وَصُلِبَ[1]، وقال ذلك غيره استنادً إلى أو للتخيير، وقال الشافعي عن ابن عباس: في قُطّاع الطرق: الأولى: إذا قتلوا وأخذوا المال؛ قُتلوا وصُلبوا، و الثانية: إذا قتلوا ولم يأخذوا المال؛ قُتلوا فقط، و الثالثة: وإذا أخذوا المال فقط، ولم يقتلوا؛ يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، و الرابعة: وإذا أرهبوا، وأخافوا الناس، ولم يأخذوا مالًا؛ نفوا من الأرض. جاء في صحيح مسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي مِنَ النُّقَبَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، وَلاَ نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَلاَ نَنْتَهِبَ، وَلاَ نَعْصِيَ، بِالْجَنَّةِ، إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ[2].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٤)

الواضح أنّ الآية نزلت في غير المسلمين المحاربين، الذين ارتكبوا جرائم في حق المسلمين ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء من مُوجب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَن ﴿تَابُوا﴾: فقال في المسلمين المحاربين الذين تابوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَقْدِرُوا﴾: تتغلبوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾: قبل أنْ يقعوا في يد المسلمين، وتظهر قوة المسلمين عليهم، وقد تعددت أمثلة الذين تابوا من قبل أنْ يقدر

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٤٩٢(١٧٣١٥) قال الألباني في إرواء الغليل ٨/٩٣ هذا سند ضعيف.

(٢) صحيح البخاري /٥/٥٥(٣٨٩٣).

عليهم المسلمون، فالحكم هنا هو سقوط القتل، والصلب، وقطع اليد، فإنْ كان صادقًا ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿اعْلَمُوا أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ونفي الإنكار والشك ﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: وإنْ كان كاذبًا أُخذ بذنوبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا هو النداء السادس: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامعِ لما سيأتي؛ وبيانِ الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، وبين المُنَادَى عليهم، ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع المؤمنين، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾: والمتقي كما جاءت في البقرة، هو الذي عمل ما أمر الله ﷻ بوعيٍ ويقينٍ، وطمعًا في رضوانه، والانتهاء عن المعاصي بوعيٍ وإدراكٍ وخوفٍ من غضب الله ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ﴾: ارغبوا في ﴿الْوَسِيلَةَ﴾: جاء تقديم الجار والمجرور "إليه" للتأكيد على إفراد الله ﷻ بالعبادات والطاعات دون غيره ﷻ، هي القربة، وكل ما يُقربكم من الله ﷻ، وتُصدق على التقوى، وغيرها من فعال الخير، والتي يتقربُ بها الإنسان إلى ما يريد، قال: ابن عباس: هي القُربى، وقال: قتادة: التقرب بها لله ويرضيه ﷻ، وهي أعلى منزلة في الجنّة، وهي منزلة الرسول ﷺ أقرب أمكنة الجنّة إلى العرش، قال ﷺ: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ[١]. وعن أَبِى هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ[٢]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾: بعد أنْ أمر الله بترك المحارم، وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفّار، والمشركين، والتاركين للدين الحق ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا جاءت من الله ﷻ، كما هي هنا، فهي إشفاقٌ وتتحققُ بإذن الله ﷻ، وإنْ جاءت من البشر فتفيد الطمع في الله ﷻ ﴿تُفْلِحُونَ﴾: هي السعادة الخالدة المستمرة، التي لا تزول، هي العيش في الغُرف العالية، الطيبة المسكن، من يحيا فيها لا تزول غُرفهُ، ولا يفنى شبابهُ، ولا يموت، ولا تبلى ثيابه.

---

[١] صحيح البخاري /١/١٢٦(٦١٤).

[٢] مسند أحمد /١١/١٢٨(٦٥٦٨) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: الذين غطّوا حقيقة الإيمان في نفوسهم، ولم يؤمنوا بالله ﷻ ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿لَهُمْ﴾: حرف تمليك ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: لو أنّ أحدهم ملك الأرض، وما عليها، وجاء يوم القيامة ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾: أيضًا يملك مثل الأرض، وما عليها بمثل هذا الحجم من الملك ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾: بهدف تقديمه فدية ليفلتوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: يوم الثواب والعقاب ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾: لن يقبلهُ اللهُ ﷻ منهم ﴿وَلَهُمْ﴾: عطفًا على ذلك سيصيبهم تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شديدُ الإيلام، موجعٌ، شديدُ الوجع.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٧)

﴿يُرِيدُونَ﴾: تكملة للآية السابقة، يريد الذين دخلوا في العذاب الأليم ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾: الحديث عن ظرف؛ تاركين أو مغادرين، يخبرهم اللهُ ﷻ أنّهم لنْ يخرجوا من النّار، تضربهم الزبانية بالمقامع الحديدية؛ فيردّوهم إلى أسفلها، وهي أشدُّ عذابًا ﴿وَلَهُمْ﴾: مخصصٌ ومعدٌ لهم ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: عذابٌ مستمرٌ، دائمٌ.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ بعد أن بيّن الله ﷻ حكمهُ فيمن أخذ المال جهارًا، وهو المحارب، جاء بعده ذكر ﴿السَّارِقُ﴾: الذي من الرجال يأخذُ المال خلسةً، وخفية عن الأعين ﴿وَالسَّارِقَةُ﴾: أيضًا من النساء اللائي يأخذن المال خفيةً، والحديث هنا عن عقوبة السرقة في الإسلام ﴿فَـ﴾: حرف جواب بهدف ترتيب الأمر ﴿اقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: ولأن يد الرجل والمرأة متشابهَان جاء الأمر بأيديهما، أمّا في حدّ الزنا لم يأمر الله ﷻ بجلد الفرج، قطع اليد اليمنى من كلّ واحدٍ منهما، تُقطع من الرُسغ، ويجب أنْ تكون من الحرز، من المحفوظة، وحدُّ السرقةِ هو ربعُ دينارٍ فصاعدًا، كان قطع يد السارق والقسامة والدّية والقراض، وغيرها معمولًا بها في الجاهلية؛ فقررها الإسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ،

يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ[١]. وقد اعتمد جمهورُ العلماء نصابًا في السرقة، قال: الإمام مالك ﷺ: ربع دينار، أو ما يساويه من الأثمان والفروض فصاعدًا، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تُقْطَعُ اليَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا[٢]، وحديث عَائِشَةَ قَالَتْ: قال رسول الله ﷺ: عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ لَمْ تُقْطَعْ يَدُ سَارِقٍ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَدْنَى مِنْ ثَمَنِ الْمِجَنِّ تُرْسٍ، أَوْ حَجَفَةٍ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَا ثَمَنٍ[٣]. وكان ثمنه عشرة دراهم، والحديث هو عن قطع يد السارق اليمنى ﴿جَزَاءً﴾: عقوبةٌ ومجازاةٌ لجريمة السرقة ﴿بِمَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي ﴿كَسَبَا﴾: أخذا من السرقة ﴿نَكَالًا﴾: عذابًا رادعًا للسارقين ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغايّة، من خالقهما ﷻ، لا تحزنوا عليهما؛ فأنتم لستم أشفق عليهما منه ﷻ، والحكم منه وليس حكم البشر، وهي عقاب ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ، وتعذيبًا على ارتكاب الجرائم ولتمنع من التكرار ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، وعطفًا على ما سبق فهو ﷻ يأمر بالقصاص، وفي الوقت نفسه يؤكد أنّ ﴿اللَّهُ عَزِيزٌ﴾: منيعٌ قويّ في انتقامه من المجرمين ﴿حَكِيمٌ﴾: في نهيه، وأمره، وشرعه؛ حفاظًا على المجتمع المسلم.

التكليف: تناسب هنا السياق القرآني مع قطع اليد، التي لها بديل وهو اليد الأخرى، بينما في حد الزنا لم يأمر ﷻ بقطع الجهاز التناسلي الخارجي؛ فجاءت نهاية الآية الكريمة بالعزّةِ والحكمة لله ﷻ بهذا الحكم في لصوص البيضة، وربع الدينار، فماذا عن سرقة الأوطان، وثرواتها، علمًا أن حدود الدنيا تُسقط عقوبة الآخرة، وهذا من رحمة الله ﷻ بخلقه؟

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩)

﴿فَ﴾: حرف يفيد التتابع السريع ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿تَابَ﴾: ندم وأقلع عمّا فعل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾: بعد ارتكابِ جريمةِ السرقة، وبعد أنْ قُطعت يده بسبب السرقة، وأسرع في التوبةِ وأناب إلى اللهِ ﷻ، ﴿وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾: يغفرُ، ويسامحُ ويمحو الذنب والسبب هو ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: كثيرُ الغفرانِ، والمسامحة ﴿رَحِيمٌ﴾: عظيمُ الرحمة بعباده، بعد قطع اليد، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ

---

[١] صحيح البخاري /٨/١٥٩(٦٧٨٣).
[٢] صحيح البخاري /٨/١٦٠(٦٧٨٩).
[٣] صحيح البخاري /٨/٢٠٠(٦٧٩٤).

الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا(١).

التكليف: في نهاية هذه الآية تناسبت التوبة والإصلاح مع المغفرة والرحمة من الله ﷻ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠)

﴿أَلَمْ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد الاستنكار ﴿تَعْلَمْ﴾: لقد علمت، لقد أخبر الله ﷻ رسوله، وهو أمرٌ بضرورة العلم بعد أنْ بانت حقيقة الإيمان ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ﴾: حرف تمليك ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَ﴾: أيضًا له ﷻ مُلك ﴿الْأَرْضِ﴾: هو المالك لكلّ موجودٍ، الحاكمُ في مُلكهِ، لا مُعقب لحكمهِ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: لا يعذّب دونَ جريمة، بل يُعذّب الذين خالفوا أمره ﷻ ﴿وَيَغْفِرُ﴾: يسامح، ويصفح، ويتوب ﴿لِمَنْ﴾: تخصيصًا للذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: يقبل توبة التائبين المنيبين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتأكيد الفعل، وتفيد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: لا يمنعه مانع، ولا يمنعه عائقٌ في تنفيذِ حكمهِ ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١)

أسباب النزول: نزلت في رجلٍ وامرأة من اليهود زنيا، وكانت اليهود قد حرّمت حكم الرجم، فعاقبوهما تخفيفًا بغيره، فجاؤوا النبي ﷺ ليحكم لهم كما كانوا يحكمون؛ ليحتجّوا بذلك عند الله ﷻ؛ فأمر برجمهما. وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---
(١) صحيح البخاري ٤/١٧٥(٣٤٧٥).

«اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ [المائدة-٤١] إِلَى قَوْلِهِ ﴿**إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ**﴾ [المائدة-٤١]، يَقُولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا[1]، وتكشف هذه الآية طبيعةَ المُسارعين في الكفر، أصحاب الأهواء المُفضّلة على شريعة الله ﷻ ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات من الخلق البعيد والقريب ﴿**الرَّسُولُ**﴾: نداءٌ من الله ﷻ إلى محمد ﷺ ولكلّ مؤمنٍ به ﴿**لَا**﴾: حرفُ نفي، وتعني هنا النهي عن أنْ ﴿**يَحْزُنْكَ**﴾: لا تحزن على هذا الصنف من الكفّار، الذين سيوضحُ الله ﷻ صفاتهم ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿**يُسَارِعُونَ**﴾: يذهبون بلا ترددٍ أو تأخيرٍ ﴿**فِي الْكُفْرِ**﴾: الذين يستهويهم سماعُ كلامِ الكفرِ، والعملِ به؛ فيذهبون مسرعين، ليغيظوا الرسول ﷺ ويغيظوا المؤمنين ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِ**﴾: حرف باء الصلة والالتصاق ﴿**أَفْوَاهِهِمْ**﴾: من الذين يقولون صراحةً وعلنًا أمام النّاس أنّهم مؤمنون ﴿**وَ**﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، يقولون آمنّا وفي الوقت نفسه ﴿**لَمْ**﴾: حرف نفي ﴿**تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾: وقلوبُهم فارغةٌ من الإيمان، ومن الاطمئنانِ بالله ﷻ، وملائكتهِ وكتبهِ، ورسلهِ، واليوم الآخرِ، وهؤلاء هم المنافقون الذين يُظهرون ما لا يُبطنون ﴿**وَمِنَ**﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿**الَّذِينَ هَادُوا**﴾: هم اليهود الذين هم ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾: قابلون للكذبِ من رؤسائهم الذين حرّفوا التوراة، الذين يسمعون كلامك؛ ليغيّروه ﴿**لِلْكَذِبِ**﴾: يُصغون بشغفٍ، ويؤمنون بقول كبارهم ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾: يُحبون الاستماع ﴿**لِقَوْمٍ آخَرِينَ**﴾: ويُحبون بشدّة سماع مجموعة أخرى من كبار اليهود ﴿**لَمْ**﴾: حرف نفي ﴿**يَأْتُوكَ**﴾: تكبرًا ﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾: يبدلون ويؤولون ﴿**الْكَلِمَ**﴾: كلام الله ﷻ ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرّ ليفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿**بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾: في معناه، وحكمه، في كتابهم التوراة، بما يوافق أهواءهم ﴿**يَقُولُونَ**﴾: للأتباع والمريدين فاتبعوه ﴿**إِنْ**﴾: حرف شرط ﴿**أُوتِيتُمْ هَذَا**﴾: إذا وافق كلامُ محمدٍ أهواءكم وحققَّ مصالحكم ﴿**فَخُذُوهُ**﴾: طبقوه بسرعة ﴿**وَإِنْ**﴾: حرف شرط، بمعنى إذا ﴿**لَمْ**﴾: حرف نفي ﴿**تُؤْتَوْهُ**﴾: إذا لم يوافق مصالحكم ﴿**فَ**﴾: حرف يفيد السبب ﴿**احْذَرُوا**﴾: من اتّباعه وتطبيقه ﴿**وَمَنْ**﴾: الذي من بني

---

[1] صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٧(١٧٠٠).

آدم ﴿يُرِدِ﴾: يشأ ﴿اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾: من كَتَبَ اللهُ ﷻ عليه الضلال والكفر من البشر ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَمْلِكَ﴾: لن تجد ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾: لن تجد من الخلق من يدله على الحق، ويمنع ضلاله ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿الَّذِينَ لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُرِدِ اللَّهُ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُطَهِّرَ﴾: والطهارة نوعان طهارة النفس من الآثام وطهارة الجسد من الأوساخ ﴿قُلُوبَهُمْ﴾: الذين كتب الله ﷻ عليهم من اليهود، والمنافقين عدم طهارة القلب من الكفر والنفاق ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: جاء اللفظ القرآني "خزي" على أربعة أوجه، بمعنى القتل والجلاء، كما في قوله ﷻ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة-٨٥]، بتنفيذ عقوبة الرجم، أو فضحهم، وسواد وجوههم ﴿وَلَهُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: لهم ما يستحقه القاتل الكافر، الظالم، والفاسق، وهي جهنّم.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢)

يضيف الحق ﷻ المزيد من صفات وأخلاق اليهود والمنافقين ﴿سَمَّاعُونَ﴾: هنا صيغة مبالغة بمعنى يُحبون، ويقبلون، ويطربُون، ويُكثرون من سماعهم لرؤسائهم الذين حرّفوا التوراة ﴿لِلْكَذِبِ﴾: الكلام غير الصحيح، والجلوس إلى رؤسائهم المُحرّفين للتوراة، الكذّابين، ومن صفاتهم ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾: والسحت هو سبب الهلاك والشدّة؛ هم الذين يُكثرون من أكل المال الحرام؛ مثل الربا، ويأخذون الرشوة، ويجمعون المال الحرام من القروض، بالربا، وبالفوائد، وهي ظاهرةٌ متجددةٌ في كلّ بنوكٍ وبيوتِ المال العالمية ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد ﴿جَاءُوكَ﴾: إذا طلبوا التحاكم عندك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين متعاطفين ولقد نسختها الآية الكريمة **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ﴾**، ﴿أَعْرِضْ﴾: أرفض وابتعد ﴿عَنْهُمْ﴾: لك الخيار أنْ تحكم بما أراك الله ﷻ، أو لا تحكم بينهم لأنّهم لن يستمعوا اليك، إنّهم يريدون أنْ تحكم لهم على كل الأحوال ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: إذا امتنعت عن الفصل بينهم لا ملامة عليك؛ لأنّهم ما

لجؤا لحكمك طلبًا لشرع الله ﷻ، بل يبحثون عمّا يلبي أهواءهم ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾: ليس في مقدورهم إيذاؤك بشيءٍ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿حَكَمْتَ فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل هذه الكلمات نسخت ما سبقها، فجاءت ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: يؤكد الحق ﷻ حبّه لأهل العدل والحاكمين به.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿كَيْفَ﴾: استفهامٌ مع استنكارٍ وتعجبٍ، إنّ أمرهم عجيب ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾: لماذا يحتكم هؤلاء إلى شريعتك، وهم يكفرون برسالتك ﴿وَعِنْدَهُمُ﴾: أيضًا نزلت فيهم ﴿التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾: في التوراة شرعُ الله ﷻ، ففيه الإجابة الشافية، ولكنّهم جاؤوا يبحثون عن تحايلٍ على شريعتهم التي في كتابهم التوراة التي أبطلوها وعطلوها ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني على التراخي ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: يُعرضون عنك ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية الزمنيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، بعد أنْ تجاهلوا حكم الله ﷻ في كتابهم يُعرضون وينكصون عن حكمك يا محمد بحسب شرع الله ﷻ، إنْ لم يوافق أهواءهم؛ هذه جريمةٌ مركبةٌ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للجمع القريب أو البعيد من الذكور ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: بمعنى هؤلاء هم الكافرون.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)

أسباب النزول: كان اليهود من بني النضير، وقريظة إذا قُتل رجلٌ من بني النضير قتُل به واحدٌ في مقابلِ واحدٍ، وإذا قَتَل النضيريُّ رجلًا من قريظة دفع دية مئة وسبعة من التمر، فاحتكموا إلى رسول ﷺ؛ قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ أَسْلَمُوا وَنَافَقَ بَعْضُهُمْ، وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ بَنِي قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قُتِلَ بِهِ وَأُخِذَ دِيَتُهُ مِائَةُ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، وَإِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ لَمْ يُقْتَلْ بِهِ وَأُعْطِيَ دِيَتَهُ سِتِّينَ وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ، وَكَانَتِ النَّضِيرُ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ وَكَانُوا أَكْبَرَ وَأَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَهُمْ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ، فَقَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ وَاخْتَصَمُوا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ بَنُو النَّضِيرِ: إِنَّا وَأَنْتُمْ كُنَّا اصْطَلَحْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَنْ نَقْتُلَ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا مِنَّا، وَعَلَى أَنَّ دِيَتَكُمْ

سِتُّونَ وَسْقًا، وَالْوَسْقُ سِتُّونَ صَاعًا، وَدِيَتُنَا مِائَةُ وَسْقٍ فَنَحْنُ نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَتِ: الْخَزْرَجُ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِأَنَّكُمْ كَثُرْتُمْ وَقَلَلْنَا فَقَهَرْتُمُونَا، وَنَحْنُ وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ إِخْوَةٌ وَدِينُنَا وَدِينُكُمْ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ لَكُمْ عَلَيْنَا فَضْلٌ؛ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: انْطَلِقُوا إِلَى أَبِي بُرْدَةَ الْكَاهِنِ الْأَسْلَمِيِّ؛ وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَا بَلْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَبَى الْمُنَافِقُونَ وَانْطَلَقُوا إِلَى أَبِي بُرْدَةَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: أَعْظِمُوا اللُّقْمَةَ: يَعْنِي الرِّشْوَةَ، فَقَالُوا: لَكَ عَشَرَةُ أَوْسُقٍ، قَالَ: لَا، بَلْ مِائَةُ وَسْقٍ دِيَتِي، فَإِنِّي أَخَافُ إِنْ نَفَّرْتُ النَّضِيرِيَّ قَتَلَتْنِي قُرَيْظَةُ، وَإِنْ نَفَّرْتُ الْقُرَيْظِيَّ قَتَلَتْنِي النَّضِيرُ، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ فَوْقَ عَشْرِ أَوْسُقٍ وَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ كَاهِنَ أَسْلَمَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَى فَانْصَرَفَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنَيْهِ: أَدْرِكَا أَبَاكُمَا، فَإِنَّهُ إِنْ جَاوَزَ عَقَبَةَ كَذَا لَمْ يُسْلِمْ أَبَدًا، فَأَدْرَكَاهُ فَلَمْ يَزَالَا بِهِ حَتَّى انْصَرَفَ وَأَسْلَمَ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُنَادِيًا فَنَادَى: أَلَا إِنَّ كَاهِنَ أَسْلَمَ قَدْ أَسْلَمَ. قَوْلُهُ ﷻ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء-٦٥](١). وقال ابن عباس أنّها نزلت في اليهوديين الذين زنيا، عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، أَخْبَرَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟ قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا، قَالَ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرُجِمَا، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ(٢).

﴿**إِنَّا**﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الله ﷻ بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿**أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ**﴾: يقول الحقُّ ﷻ بصيغة الجمع، لتعظيم الحدث إنّ التوراة من عند الله ﷻ، أنزلها على موسى ﵇ ﴿**فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾: تبيانُ الحلال والحرام، والآياتُ تهدي، وتنير للإنسان سبيله ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ**﴾: أنبياءُ بني إسرائيل ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿**أَسْلَمُوا**﴾: انقادوا لله ﷻ، لا يُبدلون الأحكام، ولا يخرجون عليها، ولا يحرفونها، وهم العلماء، والأحبار، والعُبّاد، ولا يقال لنبيّ لهم يهوديًا أو نصرانيًا، ﴿**لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾: تخصيصًا للذين انقادوا للإسلام، وهو شرع اللهِ ﷻ، وقالوا إنّا هُدنا؛ أي اليهود ﴿**وَ**﴾: أيضًا

---

(١) أسباب النزول ص١٦٦(٣٣٢). وحكم عليه المحقق: كمال بسيوني زغلول المحقق فقال: مرسل.

(٢) صحيح مسلم /٣/١٣٢٦(١٦٩٩).

يحكم بها ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: جمع ربّانيّ وهو العالم المُربي الحكيم هم عبّاد من اليهود أو العلماء الفقهاء ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾: جمع حبر وهو العالم من أهل الكتاب، من علماء اليهود ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي كتاب الله ﷻ ﴿اسْتُحْفِظُوا﴾: أي أمرهم الأنبياءُ بحفظِ التوراةِ من التغييرِ والتبديل، بما استُودعوا، وكانوا عليه أمناء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾: الذي وجب عليهم حفظه، وإظهاره، والعمل به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾: على كتاب الله ﷻ ﴿شُهَدَاءَ﴾: هؤلاء العلماءُ كانوا رقباءَ، وحماةً بهذه المراقبة من التحريف والتزييف والتغيير، شهودًا على كتاب اللهِ ﷻ؛ بما يأمر به، وينهى عنه ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهيٌ وحثٌ لرؤساء اليهود على النهي ﴿تَخْشَوُا﴾: تخافوا ﴿النَّاسَ﴾: أمر ربّانيّ للمؤمنين ألّا يخافوا من عموم النّاس ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿اخْشَوْنِ﴾: الخوف فقط من الله ﷻ؛ أمر ربّاني، رحمة بالنّاس، حتى لا يقعوا في المعصية ﴿وَلَا﴾: أيضًا تحريم ونهي ﴿تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾: الأدلة والبراهين ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: لا تتركوا الحكم بما أنزل الله ﷻ خوفًا من أحدٍ، أو رغبةً في مصلحةٍ، أو رشوةٍ، ولا تُبدّلوا حكم الله ﷻ بثمنٍ قليلٍ أو كثيرٍ، والآية للعموم؛ لتنفيذ حكم الله ﷻ ﴿وَمَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَحْكُمْ بِمَا﴾: بالذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ﴾: هؤلاء ﴿هُمُ﴾: ضمير رفع للجمع المذكر الغائب وهي للتخصيص ﴿الْكَافِرُونَ﴾: نزلت في أهل الكتاب، وهي على المسلمين واجبة، وهذه الحالة من حالات هجر التحاكم بالقرآن، ومن هنا يأتي الحذرُ من الحكم بما لم يُنزِّلُ الله ﷻ؛ فهنا الخسارة الكبرى.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: فرض الله ﷻ على اليهود في التوراة القصاص، شريعةً واجبةَ التنفيذ ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾: من باب المقابلة بالمثل، والمقصود بالنفس هي الإنسان بعينه، وهذا عكس ما فعله اليهود في التفريق بين النضيري، والقرظي ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِ﴾: حرف باء المقابلة ﴿الْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾: العقاب من جنس الضرر ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: قال ابن عباس: تُقتل النفس بالنفس، وتُفقأ العين بالعين، ويُقطع الأنف بالأنف، وتُنزع السن بالسن، وتُقتص الجراح بالجراح يستوي فيه ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا ﴿تَصَدَّقَ﴾: سامح وعفا ﴿بِهِ﴾: بما أصابه من ضُرٍّ ﴿فَهُوَ﴾: ضمير

للغائب الفرد المذكر ﴿كَفَّارَةٌ لَهُ﴾: يحطُّ اللهُ ﷻ به من خطاياه، ويمحو عنه ذنوبه ﴿وَمَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَحْكُمْ﴾: يقضي ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: ما شرّعه ﷻ في كتبه السماوية وآخرها القرآن الكريم ﴿فَأُولَئِكَ﴾: إشارة يشار به للجماعة للقريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الظَّالِمُونَ﴾: المعتدون على حدود الله ﷻ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ[1].

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، ينتقل السياق القرآني من الحديثِ عن بني إسرائيل إلى الحديثِ عن النصارى ﴿قَفَّيْنَا﴾: أتبع اللهُ ﷻ على آثارِ النبيين من بني إسرائيل إلى تكليف أنبياء ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾: بعد أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾: يأتي أي يقفوا على آثار النبيين الذين أسلموا قبل البعثةِ المحمديّة، ذكر عيسى بن مريم، نُسب لأمه؛ لأنّه جاء بغيرِ أبٍ ﴿مُصَدِّقًا﴾: مؤكدًا بصورة عمليّة ﴿لِمَا﴾: حرفٌ يُفيد حدوث شيءٍ في الماضي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿التَّوْرَاةِ﴾: مؤمنًا بها، حاكمًا بما فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ﴾: أيضًا أنزلنا عليه من الآيات والأحكام والشرائع ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾: أعطيناه الإنجيل يهدي للحق، ونورًا لإزالة الشبهات، وحلّ المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: مؤكدًا ﴿لِمَا﴾: حدث في الماضي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: من قبله ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿التَّوْرَاةِ﴾: تابعًا وموافقًا غير مخالفٍ لها، إلّا قليلًا كان يختلف فيه بنو إسرائيل، وقد جاء في الكتاب أنّ الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة ﴿وَهُدًى﴾: دليل ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: نصيحة لتكون عبرة ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيصٍ وتمليكٍ ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: يهدي الله ﷻ النّاس إلى فعل ما أمر الله ﷻ، والموعظة هي الزاجرة لكلِّ من يريد ارتكاب المُحرّمات والآثام.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤٧)

نزلت في النصارى ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾: يكون مرجعهُ في كلِّ حكمٍ ﴿أَهْلُ﴾: أصحابُ، هم النصارى، الذين نزل فيهم ﴿الْإِنْجِيلِ﴾ أهل ملّتهِ والحكم به في زمانهم، أي يجب أنْ يؤمنوا ﴿بِمَا﴾: اسم

---

[1] صحيح البخاري ٩/ ٥(٦٨٧٨).

موصول هنا بمعنى الذي، بكلِّ الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾: بما فيه، من بشارةِ محمدٍ ﷺ، والأمرِ باتباعهِ، وتصديقهِ عندما يُبعث، وتطبيق شريعته ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَحْكُمْ بِمَا﴾: بالذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: هؤلاء هم الذين يُشرّعون بأهوائهم، ويتركون أوامر الله ﷻ ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسم يشار به للجماعة للمفرد والمذكر القريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضمير رفع للجمع المذكر الغائب وهي للتخصيص ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة اللهِ ﷻ، المنحازون للباطل، التاركون للحق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿أَنْزَلْنَا﴾: هنا جاء الخطابُ لمحمدٍ ﷺ جاءت بصيغةِ الجمعِ لعظم الحدث ﴿إِلَيْكَ﴾: جاء على محمد ﷺ ذكر القرآن الكريم بلفظ ﴿الْكِتَابَ﴾: بعد أنْ ذكر الله ﷻ التوراة والإنجيل، ومدحهما، وأمر باتباعهما قبل رسالة محمد ﷺ ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: بالصدق، والعدل لا ريب أنّه من عند الله ﷻ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾: حرفٌ يدلُّ على شيءٍ في الماضي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ﴾: مصدره كالذي كان قبلهُ من جنس الكُتب؛ كونهُ مُشتملًا على الدعوةِ إلى اللهِ ﷻ، ومشتملًا على فعلِ الخير، والنهي عن الشرِّ، كما كان في الكتب السابقةِ ﴿الْكِتَابِ﴾: مُصدقًا لما سبق من كتب التوراة، والإنجيل؛ فقد جاء ذكر هذا النبي الخاتم ﷺ على ألسنةِ من سبق من الأنبياء والرسل ﴿وَ﴾: أيضًا جاء ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: رقيبًا أو شاهدًا مؤتمنًا، فالمهيمن هو الأمين على كل كتابٍ قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل، وقيل المهيمن أيضًا الشاهد، وقيل حاكمًا على ما قبله من الكتب، أيضًا هو أمينٌ، وشاهدٌ، وحاكمٌ على كلّ كتاب قبله، هو الأشمل والأكمل، فقد جمع محاسن ما قبله، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: المُهَيْمِنُ: الأَمِينُ، القُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ[1]، ﴿فَ﴾: حرفٌ جواب يفيد السبب ﴿احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾: فيكون فيه استعارة الخطاب إلى محمد ﷺ بالحكم بين النّاس ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: بما شرّعه الله ﷻ في كتابه ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: نهى اللهُ ﷻ نبيّهُ ﷺ أنْ يستجيب لآرائهم التي كانت سببًا في تركهم ما أنزل الله ﷻ على رسله ﴿عَمَّا﴾: عادلًا عن الذي ﴿جَاءَكَ مِنَ﴾:

---

[1] صحيح البخاري ٦/ ١٨١ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل.

حرف يفيد التمييز ﴿الْحَقِّ﴾: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله ﷻ به ﴿لِكُلٍّ﴾: تخصيصًا لكلِّ قومٍ أو أمّةٍ ﴿جَعَلْنَا﴾: قدّر الله ﷻ ﴿مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾: الشرعة هي المبادئ التي توضحُ السبيل، لقد اتفقت كلُّ الشرائعِ السماويّةِ الصحيحةِ على التوحيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ[1] ﴿وَمِنْهَاجًا﴾: أيضًا هي السُنّة، فالسنن اختلفت في عهد الأنبياء، والتوحيد بقي واحدًا ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة على الخلق ﴿شَاءَ اللَّهُ لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿جَعَلَكُمْ أُمَّةً﴾: على مذهب وملّة ﴿وَاحِدَةً﴾: هذا خطابٌ لكلّ الأمم، تفيد قدرته ﷻ التي لو شاء لجمع النّاس كلّهم على دينٍ واحدٍ، وشريعةٍ واحدةٍ، دونَ نسخٍ، وانتهى بنسخ الجميع، وأبقى بعثة محمدٍ ﷺ إلى أهل الأرض جميعًا ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف استدراك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: والسبب يختبركم وهو أعلم بأمركم ﴿فِي مَا﴾: الذي ﴿آتَاكُمْ﴾: لقد شرّع ﷻ لكم الشرائع المختلفة؛ ليختبر عباده؛ فيُثيب على طاعته، ويُعاقب على معصيته في الذي أعطاكم وهو القرآن الكريم ﴿فَ﴾: دونَ تأخيرٍ، دخل هنا حرف الفاء على فعل الأمر ﴿اسْتَبِقُوا﴾: ففيه استعارة، فشبههم الله ﷻ بالمتسابقين على ظهور الخيل لينافس الشخص صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المرجوة؛ سارعوا لتنالوا ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: رأس الخيرات هي طاعة الله ﷻ، واتباع شرعه، الناسخ لما قبله، والمهيمن عليه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: عودتكم من الحياة إلى القبر، ومن القبر إلى يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾: أنّ مصيركم أيها النّاس إلى الله ﷻ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾: يخبركم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: يعلمكم ﷻ بالذي اختلفتم فيه من الحق والتصديق؛ فيجزي الصادقين، ويُعذّب الكافرين.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩)

أسباب النزول: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ أُسَيْدٍ، وَابْنُ صَلُوبَا، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ صُورَى وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ فَإِنَّمَا هُوَ بَشَرٌ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَتُهُمْ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَكَ يَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِ قَوْمِنَا خُصُومَةً فَنُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَنُؤْمِنُ بِكَ

[1] صحيح البخاري /٤/١٦٧(٣٤٤٣).

وَنُصَدِّقُكَ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة-٤٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يُوقِنُونَ﴾ [المائدة-٥٠][1].

﴿وَأَنِ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾: استمرار الأمر الرباني لنبيه محمد ﷺ ومن خلفه أنْ يحكم بين اليهود والنصارى وغيرهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: شريعةِ الله فيهم، التي لا تُحابي أحدًا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، يجمع هنا بين الحكم بما أنزل الله ﷻ وبين ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَتَّبِعْ﴾: تسلك منهاج ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: لأنّ اليهود سيبقون على رغباتهم ومصالحهم ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾: عطفًا على ما جاء خُذ الحيطة ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يفيد تأكيد الفعل ﴿يَفْتِنُوكَ﴾: احذر أعداءك اليهود أنْ يُدلّسوا عليك الحق، ويزينوه لك، يصرفوك؛ فيضلوك، فتتغافل ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد هنا المجاوزة ﴿بَعْضِ﴾: جزء ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾: يُحذّر الحق ﷻ رسوله ﷺ من مطاوعة اليهود؛ لأنّهم خونة، كفرة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: آيَتَانِ مَنْسُوخَتَانِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة-٤٢] فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[2]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: جاء لفظ "التولي" في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه، هنا بمعنى رفضوا وامتنعوا، وبمعنى رفض الهجرة وجاءت بمعنى انهزموا وهربوا في قوله ﷻ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال-١٦]، وبمعنى أعرضوا وامتنعوا في قوله ﷻ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور-٥٤]، وبمعنى انصرفوا في قوله ﷻ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص-٢٤] وفي قوله ﷻ ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل-٢٨]، يبين الله ﷻ كيف يتصرف اليهود، البحث دائمًا عن ثغراتٍ فإنْ لم يحصلوا على ما يريدون خالفوا صراحة شرع الله ﷻ، ورفضوا حكم رسوله ﷺ ﴿فَ﴾: حرفٌ استئناف ﴿اعْلَمْ أَنَّمَا﴾: حرف يفيد التخصيص والتحديد ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُصِيبَهُمْ﴾: ينالُهم بعقابٍ ﴿بِبَعْضِ﴾: على جزءٍ مِنْ ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾: يُخبر الله ﷻ رسوله ﷺ أنه يمد لهم؛ ليصيبهم بعذابٍ، ببعض ذنوبهم السالفة، التي أدّت إلى ضلالهم، ونكوصهم ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿كَثِيرًا مِنَ﴾:

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي /٥٣٦/٢. وضعفه سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر.

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٤١/٢(٣٢١٧) وقال: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. قال الذهبي: صحيح.

بعض أو جزء مِنْ ﴿النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾: شهادة الخالق أنّ السبب هو أكثر النّاس يخرجون عن طاعة الله، ويخالفون الحق.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٥٠)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ قُرَيْظَةُ، وَالنَّضِيرُ، وَكَانَتِ النَّضِيرُ أَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَةَ، قَالَ: وَكَانَ إِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنَ النَّضِيرِ قُتِلَ بِهِ، وَإِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ، وَدَى مِائَةَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ، رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ، فَقَالُوا: ادْفَعُوهُ إِلَيْنَا نَقْتُلُهُ، فَقَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَوْهُ، فَنَزَلَتْ **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾** [المائدة-٤٢]، وَالْقِسْطُ النَّفْسُ، بِالنَّفْسِ، ثُمَّ نَزَلَتْ **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**[1].

﴿أَفَحُكْمَ﴾: حرف الألف للاستفهامٍ بغرض الاستنكار؛ هل يريدون أن يتحاكموا بشرائع ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: حكم الأهواء والضلال، وعدم المعرفة، حُكم عبادة الأوثان الذين ﴿يَبْغُونَ﴾: هل هذا ما يريدون؟ المعنى هل هؤلاء الكفّار يريدون الاحتكام إلى غير شرع الله ﷻ؛ وهو العدل المطلق، إلى غير الحكم بالخير والنهي عن كلّ شرّ، غير حكمِ صاحبِ الخلقةِ لخلقهِ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل الذي ﴿أَحْسَنُ﴾: هنا استفهام إنكاري، أي ينكر أن يكون هناك حكم أفضل وأحسن من حكم الله ﷻ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿اللَّهِ حُكْمًا﴾: سؤال تعجيز: من أعدل من الله ﷻ في حكمه؟ وهو العدل، من الذي هو أرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟ والإجابة لا أحد أحسن حكمًا، ولا أرحم من الله ﷻ ﴿لِقَوْمٍ﴾: هم شعبٌ من جنسٍ واحدٍ، أو أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿يُوقِنُونَ﴾: لأُناسٍ متأكدين من إيمانهم، مقتنعين بكلّ وسائلِ الإدراكِ بحكمِ اللهِ ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١)

وهنا النداءُ السابعُ من اللهِ ﷻ للمسلمين ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال

---

[1] صحيح ابن حبان ١١/ ٤٤٢(٥٠٥٧) قال الأرناؤوط: حديث قوي.

والنساء ممَنْ ﴿آَمَنُوا﴾: نداء من ربّ السموات والأرض إلى الذين آمنوا به، وبكتبه، وبرسله مضمونه ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: لا ناهية، إياكم أنْ تجعلوا أو تعُدّوا ﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**الولاء**" على أحد عشر وجهًا، جاء هنا بمعنى الحب في الله؛ أي الاعتقاد، ولذلك قالت الآية الكريمة لا تحبوا اليهود، ولا تحبوا النصارى، ولا تنصروهم، ولا تؤيدوهم، ولا تمكنوهم منكم، ولا من أحوالكم ولا من أولادكم، لقد رفض عمر بن الخطاب ﷺ ولام؛ أي من اللّوم، أبا موسى الأشعري لاتخاذهِ نصرانيًا في إعداد تقريرٍ عن مدخولات ومصروفاتِ الشامِ، وسبب النهي والتحريم لأنّ ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿أَوْلِيَاءُ﴾: أحباب، وأنصار، ومؤيدون، وحلفاء ﴿بَعْضٍ﴾: يُخبر الله ﷻ المسلمين عن حال التحالف الدائم بين بعض اليهود، وبعض النصارى، وهذا ما نشهده اليوم في دعم الاحتلال اليهودي لفلسطين من قبل نصارى الغرب ﴿وَمَنْ﴾: وعطفاً على هذا فإنّ الذي ﴿يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَـ﴾: لهذا السبب ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد في شرع الله ﷻ هو ﴿مِنْهُمْ﴾: وهذه قضيةُ كلّ زمانٍ، وكلّ مكانٍ، إنّ التعاون بأيّ شكلٍ معهم، إنّ حبّهم، ونصرتهم، وتأييدهم في المحافل الدولية من بعض جهات مسلمة رسمية أو شعبية يُخرج هؤلاء الموالين لهم من ملّة المسلمين، فيصبحون بحكم الشرع من اليهود ومن النصارى وتكون المصيبة ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد، ونفي الإنكار والشكّ ﴿اللَّهَ﴾: ﷻ فيه أنّه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يُصلح للصواب، بل يُضلّ ﴿الْقَوْمَ﴾: هم جماعةٌ أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: ظلموا أنفسهم بكفرهم؛ فأوردوها النّار.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٥٢)

﴿فَـ﴾: بسبب هذا ﴿تَرَى﴾: ستعرف معرفة مشاهدة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، ممَنْ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: في مراكز الوعي والإيمان ﴿مَرَضٌ﴾: هم المنافقون، المتشككون في دينهم، والمنكرون لوعد الله لهم ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾: يُبادرون في التحالف، والاصطفاف مع اليهود والنصارى، ومودتهم في الباطن، والظاهر ﴿يَقُولُونَ﴾: يُبررون موقفهم، ﴿نَخْشَى﴾: نخاف ونحذر ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُصِيبَنَا﴾: نخشى من أنْ يظفر الكفّار بمحمدٍ؛ فتكون الدولةُ لهم؛ فيصيبنا منها مكروه؛ يلمّ بنا ﴿دَائِرَةٌ﴾: هي تغيّرُ الحال خاصّة من خيرٍ إلى شرّ ومن غنى إلى فقرٍ، أي مكروه أو مصيبةٌ؛ تشيرُ هذه الآيةُ إلى واقعِ معاشٍ، حيثُ يمتلكُ اليهودُ والنّصارى القوةَ العسكريةَ الغاشمةَ، والأموالَ الطائلة؛

فيُسقطون حكّامًا؛ ويرفعون آخرين، ويشنُون الحروب على أعدائهم وخاصّة المسلمين، الذين يقولون نخافُ ونتحرّزُ من ضيقٍ ماليّ، أو ضعفٍ سياسي، أو عدوانٍ عسكري، أو ينتصر الكفّار من اليهود والنصارى على المسلمين؛ فنريد أنْ تكون بيننا وبين الكفّار علاقة، ننتفع بهذه العلاقة ﴿فَعَسَى﴾: فعل ماضٍ جامد جاء هنا للترجي في الأمر المحبوب للبشر ﴿اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾: ظهورُ النبيّ محمدٍ ﷺ على الكافرين، كقتل بني قريظة وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير، كان ذلك في فتحِ مكّة، وقيل هو النصرُ، والقضاءُ، والفصلُ؛ انظر [النساء-١٤١] وهو أيضًا في فتحِ بلادِ المشركينِ على يدِ المسلمين ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين متعاطفين، الفتح أو ﴿أَمْرٍ مِنْ﴾: يفيد بداية الغاية الزمانية والمكانية ﴿عِنْدِهِ﴾: من عند الله ﷻ؛ فرض الجزية على اليهود والنصارى، وتعني في كلّ زمانٍ انتصار المسلمين على اليهود أو النصارى؛ برفع شأن المسلمين في العالم ﴿فَ﴾: حرف يفيد التتابع السريع والسبب ﴿يُصْبِحُوا﴾: يصيروا ﴿عَلَى مَا﴾: الذي ﴿أَسَرُّوا﴾: أخفوا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: في جوهرهم البشري والعقدي، المقصود المنافقون، أحباب اليهود والنصارى، الذين فضحهم الله ﷻ، الذين أخفوا حبهم، وتأييدهم لليهود والنصارى ﴿نَادِمِينَ﴾: مُتحسرين، خائبين على فشلهم في إخفاء أسرارهم، أو الاستفادة من اليهود والنصارى، فلم يدفعوا عنهم مكروه، ولا محذور، بل انكشفوا في الدنيا لعباد الله ﷻ المؤمنين.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: الرجال والنساء أصحاب النفوس المؤمنة مخاطبين اليهود مشيرين إلى المنافقين، كان المؤمنون يتعجبون من المنافقين، الذين كانوا يقسمون بالله؛ أنّهم مع المسلمين، وهم يوالون اليهود والنصارى، يحلفون ويؤكدون بكلِّ وسيلةٍ ﴿أَ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستفهام من المؤمنين يخاطبون اليهود، مشيرين وقاصدين المنافقين؛ سؤالٌ بغرضِ الاستنكار ﴿هَؤُلَاءِ﴾: إشارةٌ للبعيد ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾: حلفوا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ﴾: مجتهدين في ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾: هم المنافقون الذين أكّدوا بكلّ أدواتِ التوكيد ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مَعَكُمْ﴾: إنّهم مؤمنون، ومناصرون، وموالون لكم أيّها المسلمون، والنتيجة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: انتفخ عملُهم كالأورام والتقيح، زاد حجمُها مرضًا، وليس قوّة؛ فبطلت وظائفها ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب

﴿أَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾: انكشف نفاقهم في الدنيا، فخسروا المسلمين، وتوعدهم الله ﷻ بالعذاب مع من والاهم، وخسروا الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤)

هذه الآيات تتحدث عن صنفِ المرتدين، وحكم الشرع فيهم. عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿**يَا آيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ الْآيَةِ كُلِّهَا، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ سَيَرْتَدُّ مُرْتَدُّونَ مِنَ النَّاسِ، فَلَمَّا قَبَضَ اللهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ارْتَدَّ النَّاسُ عَنِ الْإِسْلَامِ، إِلَّا ثَلَاثَةَ مَسَاجِدَ، أَهْلَ الْمَدِينَةِ، وَأَهْلَ مَكَّةَ، وَأَهْلَ جَوَاثَا مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَقَالَتِ الْعَرَبُ: أَمَا الصَّلَاةُ فَنُصَلِّي، وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَوَاللهِ لَا نُغْصَبُ أَمْوَالَنَا، فَكُلِّمَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَتُخْلَى عَنْهُمْ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَوْ قَدْ فَقِهُوا لَأَعْطُوا الزَّكَاةَ طَائِعِينَ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ﷺ قَالَ: وَاللهِ لَا أُفَرِّقُ بَيْنَ شَيْءٍ جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا مِمَّا فَرَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَصَائِبَ فَقَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى أَقَرُّوا بِالْمَاعُونِ، وَهِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ، ثُمَّ إِنَّ وَفْدَ الْعَرَبِ قَدِمُوا عَلَيْهِ فَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ خُطَّةٍ مُخْزِيَةٍ أَوْ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، فَاخْتَارُوا الْخُطَّةَ، وَكَانَتْ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْهَدُوا أَنَّ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ وَقَتْلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَمَا أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدُّوهُ عَلَيْهِمْ، وهنا يأتي النداء السابع من الله ﷻ للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿آمَنُوا﴾: حقًّا بالله ﷻ، وكتبه، ورسله ﴿مَنْ﴾: إنّ الذي، من البشر ﴿يَرْتَدَّ﴾: يرجع عن دينهِ كفرًا وعنادًا ﴿مِنْكُمْ﴾: بعضكم ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿دِينِهِ﴾: من يرجع من المسلمين عن الإسلام، وهم الكفار، والمنافقون، الذين تولوا عن شريعته ﷻ ونصرة دينه ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد ربط جواب الشرط ﴿سَوْفَ﴾: كلمةٌ تعني الوعد في المستقبل ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾: جماعةٍ أصحابِ مذهبٍ واحدٍ، أو من أصلٍ واحدٍ، يستبدلهم الله ﷻ بخيرٍ منهم ﴿يُحِبُّهُمْ﴾: فيُكرمهم في الدنيا والآخرة بمحبته ورضاه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على حبّ اللهِ ﷻ لهم ﴿يُحِبُّونَهُ﴾: حبّ المخلوق للخالق ﴿أَذِلَّةٍ﴾: هينون، ليّنون عاطفون ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: يُبيّن الله ﷻ صفات

المتذللين لله ﷻ والمتذللين للمؤمنين: أصحاب التواضع للإخوة، هم بوصف اللّين الهيّن لإخوانهم ﴿أَعِزَّةٍ﴾: أقوياء أعزّاء على خصومهم وأعدائهم ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقد جاء في المعنى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح-٢٩]، هؤلاء هم الذين أكثرُ رحمةً مع إخوانهم ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يُضحون بالأموال، والأنفس، لرفعة راية الإسلام، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ، وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ[1]. ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَخَافُونَ﴾: يخشون ويتحرزون ﴿لَوْمَةَ﴾: اعتراض ﴿لَائِمٍ﴾: مُعترضٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، هذه الصفات ﴿فَضْلُ﴾: كرمٌ ومنّة وتفضُّل ﴿اللَّهِ يُؤْتِيهِ﴾: يمنحهُ ويهبهُ ﴿مَن﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿يَشَاءُ﴾: من اتصف بهذه الصفات فقد تفضل الله ﷻ عليه بها ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: صاحبُ الفضلِ والمنّةِ والعطاء ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلمُ من يستحق هذا الفضل؛ فيعطيه، ومن لا يستحق فيحرمه.

التكليف: إنّ قانون الاستبدال الربّانيّ قائمٌ في كلّ وقتٍ، قاعدةٌ ثابتةٌ وعامّة في المرتدين.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ؛ تُفيدُ التحديد والتخصيص ﴿وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾: يعني الولاء هنا الحب والنصرة في الله ﷻ، حبيبكم وناصركم، ومؤيدكم ﴿وَ﴾: أيضًا وليّكم ﴿رَسُولُهُ وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: ومؤيدكم أيضًا الرسول ﷺ والذين آمنوا، والمؤمنون وليس اليهود أو النصارى ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾: الذين يؤدون ﴿الصَّلَاةَ﴾: على وجهها الصحيح، وهي من أكبر أركان الإسلام، طاعة لله ﷻ وحده، لا شريك له ﴿وَيُؤْتُونَ﴾: يدفعون ﴿الزَّكَاةَ﴾: يؤتون الزكاة عن حبٍّ راضين مطمئنين، من أموالهم، حق النّاس المحتاجين من الضعفاء والمساكين ﴿وَهُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوع للجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿رَاكِعُونَ﴾: خاشعون، خاضعون، متذللون لله ﷻ في صلاتهم، لا يتكبرون على أحدٍ.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)

---

[1] مسند أحمد /٣٥/٣٢٧(٢١٤١٥). وصححه الأرناؤوط.

كلُّ من أحبَّ ونصرَ الله ﷻ ورسوله، والذين آمنوا؛ فهو فالحٌ في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَتَوَلَّ﴾: يُحبُّ، وينصرُ، ويؤيدُ ﴿اللَّهَ﴾: ربًّا، وبالإسلام دينًا ﴿وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: إيمان تصديقٍ ويقينٍ ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾: هم المؤمنون القائمون بنصر شريعته ﷻ، هم الذين يُحبّون وينتصرون لله ﷻ ولرسوله ﷺ والذين وآمنوا ﴿هُمُ﴾: ضمير رفع للجمع المذكر الغائب؛ وهي للتخصيص ﴿الْغَالِبُونَ﴾: إذا واجهوا عدوهم، انتصروا، وإذا قضوا عدلوا، وإذا ماتوا؛ فازوا بالجنّة؛ فكان انتصارًا لهم في كلّ الأحوال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

وهنا يأتي النداءُ الثامن، ينهى اللهُ ﷻ عن موالاةِ هذه الأصناف من البشر، فيقول ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، وبين المُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات، البعيد، والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، ممَنْ ﴿آمَنُوا﴾: تكليفٌ خاصٌ بالمؤمنين ﴿لَا﴾: حرف نهي، يعني التحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تعتمدوا وتختاروا ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾: جعلوا ﴿دِينَكُمْ﴾: الإسلام ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾: الذين يسخرون، ويهزؤون بأركان دينكم، القرآن الكريم، أو بأركان الإسلام من الصلاةِ، والصومِ، والجهادِ، والعدلِ، وغيرها، ويصفون هذه الأعمال بالألعاب ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الَّذِينَ أُوتُوا﴾: منحهم اللهُ ﷻ من قبل ﴿الْكِتَابَ﴾: جنس الكُتب السماوية ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكُمْ﴾: الذين أعطاهم الله ﷻ التوراة والإنجيل، هم اليهود والنصارى ﴿وَالْكُفَّارَ﴾: أيضًا المشركون الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، كالملحدين، والعلمانيين، والشيوعيين، وأمثالهم، لا تتخذونهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: تحبونهم، وتنصرونهم، ولا تتخذونهم أقرانًا، وحلفاء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفًا على ما سبق اخشوه بوعيٍ وإدراكٍ؛ طمعًا في رحمته، وخوفًا من عذابه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، إذا ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إذا أردتم أنْ تكونوا مؤمنين حقًّا، وخاصّة عدم موالاة من يوالي اليهود والنّصارى.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿نَادَيْتُمْ﴾: رفعتم الأذان ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾: يصف اللهُ ﷻ حال

اليهود، والنصارى، والكافرين الذين يسخرون من الأذان، الذي يدعو إلى الصلاة، وهي من أفضلِ الأعمال ﴿اتَّخَذُوهَا﴾: جعلوا منها ﴿هُزُوًا﴾: كان بعض اليهود إذا سمعوا الأذان سخروا به، وقالوا لعن اللهُ الكاذب، فإذا قام المسلمون فركعوا وسجدوا؛ ضحكوا منهم؛ وسخروا بهم ﴿وَلَعِبًا﴾: أيضًا اتخذوها أداةَ تندّرٍ، واستهزاءٍ، هذه صفات أتباع الشيطان، الذين إذا سمعوا نداء الصلاة، أدبروا، فإذا فرغ المؤذن، أقبلوا حتى يوسوس الشيطان بين المرء وقلبه؛ فيذكّره بأمور دنياه، أو يقول له قل كذا وكذا، حتى يصير الرجلُ لا يعرف كم ركعةٍ صلّى. فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، قَالَ « إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا. لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لاَ يَدْرِى كَمْ صَلَّى»[1]، ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾: بسبب أنهم جماعةُ اليهود الذين يستهزئون بالمسلمين ومن شعائرهم هم أهل السفه، والخفّةِ والطيش؛ لأنهم لا يدركون ما يقولونه في حقّ شعائرِ دينِ اللهِ ﷻ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: لا يُدركون حقيقة الشيء، لقلّةِ فهمهم وعلمهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩)

﴿قُلْ﴾: أمر من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ، يسري على أتباعه من بعده ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: من اليهود والنصارى الذين اتخذوا الإسلام هزوًا ولعبًا ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام ﴿تَنْقِمُونَ﴾: تحقدون ﴿مِنَّا﴾: هل تكرهوننا، وتطعنون فينا، وتعيبون علينا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع بمعنى بسبب ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿آمَنَّا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: ربًّا واحدًا، لا إله غيره ﴿وَ﴾: أيضًا الذي آمنّا بـ ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: آمنّا بالقرآن الكريم، وسنّة محمد ﷺ ﴿وَمَا﴾: والذي آمنّا أيضًا بمَا ﴿أُنْزِلَ مِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة، أي في الماضي ﴿قَبْلُ﴾: وهي الكُتب المُنزّلة على الأنبياء، مثل التوراة، والإنجيل، هل لأننا آمنّا بكلّ هذا، تطعنون وتعيبون علينا، وهذا ليس بعيبٍ أو مذّمةٍ، يقول الله ﷻ: **﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾** [البروج–٨]، وجاء أيضًا: **﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾** [التوبة–٧٤]، والحقيقة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾: الضمير

[1] صحيح البخاري ٢/٦٩(١٢٣١).

يعود على المشركين، في كلِّ عهدٍ ومنهم أهل الكتاب، أي آمنّا بأنَّ أكثركم فاسقون، أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ وكلُّ من بعده من أتباعه ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾: أخبركم بنبأٍ، أي بما لا تعرفونه ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿شَرٍّ﴾: ما يسبب الضرر والأذى وكل مكروه ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ؛ من هو أكثرُ عيبًا، وأشدُّ عذابًا من عند الله ﷻ يوم القيامة مما تظنون بنا، وصفات أصحابكم، وأخبركم ما هو جزاؤكم، وهم أشدُّ عقابًا من هؤلاء الذين سبقوكم ﴿مَثُوبَةً﴾: جزاءً ثابتًا، وعقوبة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهِ﴾: طرده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾: الذي طرده من رحمته أبدًا ﴿وَجَعَلَ﴾: وقدّر أنْ يكون ﴿مِنْهُمُ﴾: ومسخ أصحاب السبت ﴿الْقِرَدَةَ وَ﴾: أيضًا مسخ من النصارى أصحابَ مائدةِ عيسى ﵇، ﴿الْخَنَازِيرَ﴾: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، أَهِيَ مِنْ نَسْلِ الْيَهُودِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَلْعَنْ قَوْمًا قَطُّ، فَمَسَخَهُمْ، فَكَانَ لَهُمْ نَسْلٌ حِينَ يُهْلِكُهُمْ، وَلَكِنْ هَذَا خَلْقٌ كَانَ، فَلَمَّا غَضِبَ اللهُ عَلَى الْيَهُودِ، مَسَخَهُمْ فَجَعَلَهُمْ مِثْلَهُمْ[1]. ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، أيضًا جعل منهم ﴿عَبَدَ﴾: فعل ماضٍ، أي جعل منهم من عَبَدَ أي أطاع ﴿الطَّاغُوتَ﴾: الشيطان أيضًا عبدوا كلّ ما يُعبد من دون الله ﷻ، فكانوا خدّامه، وعبيده، وقيل عبدِ هنا مضاف؛ أي جعل هؤلاء خدمًا وعبّادًا، كيف تذمون ديننا تذكرون المساوئ وهو عكس المدح، وفيكم كلّ هذه الصفات الرذيلة؟ ﴿أولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾: هؤلاء أصحابُ شرِّ منزلةٍ يوم القيامة ﴿وَأَضَلُّ﴾: أكثر الخلق ضلالًا، وتيهًا، وزيغًا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿سَوَاءِ﴾: المعتدل ﴿السَّبِيلِ﴾: معنى السبيل هنا طريق الهدى أي هم أكثر ضلالًا عن الطريق المستقيم، الذي هو الإسلام.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١)

﴿وإِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها على ما قبلها ﴿جَاءُوكُمْ﴾: يقصد المنافقين، وتأتي هنا صفاتهم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾: يكذبون على المؤمنين، ويقولون آمنّا مثلكم، وقلوبهم تُبطن الكفر

[1] مسند أحمد /٦/٢٩٢(٣٧٤٧). قال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

﴿وَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾: حرف باء المصاحبة، أي دخلوا عند النبي محمد ﷺ، وهم متلبسين بالكفار، هم أصحابُ الكفر، دخلوا، واستمعوا، ولم ينتفعوا بما سمعوا من الرسول ﷺ ﴿وَهُمْ﴾: بالتأكيد ﴿قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾: دخلوا كفّارًا، وخرجوا من عند الرسول ﷺ متلبسين بالكفر ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: جاءت أعلم، أي يعلم كلّ شيء، كلّ ما انطوت عليه نفوسهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾: ما كانوا يُخفون من كفرٍ، إنّ كلَّ عصرٍ قد عرف الكافرين الذين يسمعون ولا يعقلون، وهم يكذبون ويدّعون الإيمان، ومنهم زعماءُ دولٍ، ورجالُ دينٍ، ووعّاظٌ.

التكليف: لقد دخلوا عند رسول الله ﷺ وهم متلبسين بالكفر، وسمعوا ما عنده متلبسين به، فلم يؤثر فيهم ما سمعوا منهﷺ.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢)

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: كان الرسول ﷺ يرى كثيرًا من المنافقين واليهود ﴿يُسَارِعُونَ﴾: يُبادرون دونَ تأخيرٍ أو ترددٍ ﴿فِي الْإِثْمِ﴾: ارتكاب ما لا يحلُّ عمله، أو قوله مثل الكذب، أو الشرك، أو كلِّ الحرام؛ الذي يستحق العقوبة عليه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾: أيضًا ارتكاب جرائم الاعتداء على النّاس، بالقول، والفعل ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾: أكل أموال النّاس بالحرام، وأكثر أنواع الربا فُحشًا ﴿لَ﴾: حرف اللام هنا للقسم والتأكيد ﴿بِئْسَ﴾: ساءت أعمال وشرور قادتهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أسوأ العمل عملُهم، وأسوأ الاعتداء اعتداؤهم.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣)

﴿لَوْلَا﴾: حرفٌ يفيدُ امتناع ما بعدها لوجود ما قبلها، لقد امتنع علماؤهم عن نهيهم عن المنكر الذي يقولونه بألسنتهم، وما يأكلونه من الحرام، وما يأخذونهُ من الرشا والظلم ﴿يَنْهَاهُمُ﴾: لقد ترك، كان الربّانيون من أحبارهم وعلمائهم ينهونهم عن تعاطي هذه الأعمال ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: العلماءُ الفقهاء والذين كانوا يعبدون الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ينهاهم ﴿الْأَحْبَارُ﴾: كبارُ علماءِ اليهود ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد هنا المجاوزة ﴿قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، جاء اللفظ القرآني الإثم على أربعة أوجه هنا بمعنى الشرك بالله ﷻ، وقد جاءت أيضًا بمعنى المعصية في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ

وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة-٢، ٣] وفي قوله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف-٣٣]، وجاءت بمعنى الزنا في قوله ﷻ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام-١٢٠] وجاءت بمعنى الخطأ في قوله ﷻ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة-١٨٢] ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾: كسب المال الحرام ﴿لَبِئْسَ﴾: كلمة توبيخ، بمعنى ساء من السوء، هذا ما كان يصنعه علماؤهم من التهاون في إبقائهم واقعين في الحرام؛ دون إنكارٍ أو توبيخ. قال ابن عباس: إن أشدّ كلمةٍ في القرآن توبيخًا لهم، في الآية لولا ينهاهم الربانيون، عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، قَالَ: «وَاللَّهِ مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَخْوَفَ عِنْدِي مِنْهَا»، عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا[1]، ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في السابق ﴿يَصْنَعُونَ﴾: يعملون ويبتكرون من وسائل الكفر.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٤)

سبب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ النَّبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ: إِنَّ رَبَّكَ بَخِيلٌ لَا يُنْفِقُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: **﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**[1].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: كناية عن البخل، كما أن بسط اليد كنايةً عن الكرم والجود، أي أنّه لا يُعطي، ﷻ عمّا يقولون، لعنة الله على اليهود، الذين قالوا بأنّ الله بخيل، ووصفوه أنّه فقير، وهم أغنياء، قال ابن عباس: مغلولة تعني بخيلة، ليست موثقة أي مربوطة بل بخيل؛ ﷻ الله علوًا كبيرًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ(٢)، قال الإمام الترمذي رحمه الله: وَهَذَا حَدِيثٌ قَدْ رَوَتْهُ الأَئِمَّةُ، نُؤْمِنُ بِهِ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَسَّرَ أَوْ يُتَوَهَّمَ، هَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ: الثَّوْرِيُّ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ، وَابْنُ المُبَارَكِ أَنَّهُ تُرْوَى هَذِهِ الأَشْيَاءُ وَيُؤْمَنُ بِهَا وَلَا يُقَالُ كَيْفَ(٣)، ﴿غُلَّتْ﴾: دعاء من الله ﷻ عليهم تحقق فيهم ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: فوقع عليهم غضبُ الله ﷻ، فهم أبخل البشر، وأكثر النَّاس للحسد، والجبن، والذلة، وما كان عن قهرٍ، جاء في المعنى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران-١١٢] ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لُعِنُوا بِمَا﴾: بالذي، بسبب ما ﴿قَالُوا﴾: هذه الصفات من لعنة الله ﷻ عليهم، طُردوا من رحمته، وطردتهم الشعوبُ، وأساءت معاملتهم، فقد طردتهم أوروبا أكثر من مئة مرة ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿يَدَاهُ﴾: جاء الفظ القرآني يداه؛ لتفيد الكرم ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: مفتوحة كناية عن غاية ما يكون العطاء الجود ﴿يُنْفِقُ﴾: يُعطي ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: إن إنفاقه ﷻ، فإن شاء وسّع، وإن شاء ضيّق حسب ما تقتضي مشيئتهُ، هو الواسع، المعطي، ما من شيءٍ إلّا عنده خزائنه، وخلق لنا كلّ شيء نحتاج إليه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: يضاعف بالتأكيد والتحديد ﴿كَثِيرًا﴾: أعدادًا كبيرة ﴿مِنْهُمْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: هو الوحي يحمل أوامر الله ﷻ ونواهيه ﴿طُغْيَانًا﴾: المبالغة والمجاوزة للحد في الأعمال الظالمة ﴿وَكُفْرًا﴾: إنّ ما أعطاك الله يا محمد من النعم هي نقم على اليهود والنصارى، مفردها نقمة في حق أعدائك من اليهود وأمثالهم، كما يزداد المؤمن تصديقًا بالله ﷻ إذا عمل عملًا صالحًا، وعملًا نافعًا، يزداد الكافرون حسدًا لأمّتك ﴿طُغْيَانًا﴾: تغطيةً للحق وتكذيبًا به، يقول الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء-٨٢] ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: وضعنا ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾: معاداة بعضِهم بعضًا ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾: فرّق الله ﷻ بين قلوبهم، فهي لن تجتمع، ستبقى العداوة بينهم، في جماعتهم، بعضُهم من بعض، ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ولن يجتمعوا على حق لأنّهم كذبوا بمحمدٍ ﷺ ﴿كُلَّمَا﴾: تفيد التكرار والتعميم ﴿أَوْقَدُوا﴾: أشعلوا

﴿نَارًا﴾: هنا استعارة لأن الحرب لا نار لها، ولكنها تأكل المتحاربين كما تأكل النار الحطب، يأتي اللفظ القرآني النّار على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى اجتماع الكفّار على عداوة الرسول ﷺ لمحاربته انظر [البقرة-٢٤]، كلّما رتبوا أسبابًا للحرب وكادوا، وكلّما أبرموا أمرًا للعدوان أي أحكموا الاتفاق، أبطلها الله ﷻ، وردّ كيدهم، وحاق بهم مكرُهم السيئ ﴿لِلْحَرْبِ﴾: أي بسبب ذهابهم أو نزوعهم للقتال ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾: منع حدوثها وإن صارت أخمدها ﷻ ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾: يبذلون جهدًا ومالًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: يبغون ﴿فَسَادًا﴾: من طباعهم الخسيسة: الإفساد في الأرض، إفسادُ كلّ شيءٍ، وتغيير طبيعته، وجوهره، وهدفه، ووسائله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾: لا يُصلح عملهم ولا يُحسن عاقبتهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦٥)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي للشك ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: جنس الكتاب الربّانيّ وهم اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾: صدقوا بالله ورسوله بحق ﴿وَاتَّقَوْا﴾: أيضًا أقلعوا عمّا كانوا يقترفون من الإثم، والمُحرّم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿كَفَّرْنَا﴾: لأزلنا ومحونا ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: ما اقترفوا من سوء، وما ارتكبوا من شر المحذور، ونالوا المقصود ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾: جاءت بصيغةِ الجمع لتعظيم الفعل يوم القيامة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: التي يُنعّمون فيها بالعيش الطيب والأكل والشرب الكريم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦)

﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك، وافتراضًا ﴿أَقَامُوا﴾: يقول ابن عباس: لو أنّهم عملوا بما جاء في ﴿التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: ولم يحرّفوه، ولم يغيّروه؛ لعاشوا وفق تعاليم الله ﷻ، لقادهم إلى الإيمان؛ وصدّقوا بمحمد ﷺ، واتبعوه حتمًا، ولو أنّهم طبقوا ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغايّة الكليّة ﴿رَبِّهِمْ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للشيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو ﷻ الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿لَ﴾: حرف سببٍ ﴿أَكَلُوا﴾: لجاءتهم بركةُ الطعام ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا ابتداء الغاية المكانية ﴿فَوْقِهِمْ﴾: بنزول الغيث ﴿وَ﴾: أيضًا أكلوا ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: الأرض الخصبة، لكان رزقُهم كثيرًا، ينزل عليهم من السماء، الغيث، وينبت لهم من الأرض الزرع، وقيل لأكلوا دونَ عناءٍ وتعبٍ ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يفيد التمييز ﴿أُمَّةٌ﴾:

جماعةٌ، أصحابُ مذهبٍ واحدٍ، أو من أصلٍ عرقيٍ واحدٍ هم المؤمنون، كعبد الله بن سلام ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾: هم المعتدلون الثابتون على الحقوق، إنّ من رُتب أهل الجنّة أعلاها، رتبةَ السابقين وهي عند المسلمين، وأمّة مقتصدة وهي أوسط الرتب عند المسلمين، وهي أعلاها عند أهل الكتاب، والرُتبةُ الثالثةُ هي السابقون بالخيرات، وكلُّ هؤلاء يدخلون الجنّة، والله أعلم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾: أغلبهم وأكثرهم ﴿سَاءَ﴾: من أصحاب الشر والضرر ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: أعمالهم سيئة، ضارة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء التاسع في هذه السورة المباركة، نداءٌ لتنبيهِ السامع لما سيأتي؛ وبيانُ الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الرَّسُولُ﴾: هذا هو النداء التاسع في هذه السورة الكريمة، هذا النداء موجّه من الله ﷻ إلى محمد ﷺ أنْ ﴿بَلِّغْ﴾: تبليغ دعوة الله ﷻ، هنا أمرٌ ربّاني واجبُ التنفيذ ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: وحيًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع؛ يفيد هنا ابتداء الغاية الكليّة التي لا يحدها زمانٌ أو مكانٌ؛ أي المصدر ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرك كلّه، وقد بلّغ ﷺ امتثالًا لأمر الله ﷻ، مالك أمره كلّه، ولم يكتم منه شيئًا، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الوَحْيِ فَلاَ تُصَدِّقْهُ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ»: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾** [المائدة-٦٧][1]، وقال الزهري: من الله ﷻ الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم، وقد شهدت لمحمدٍ ﷺ أمّتهُ بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، وقد استنطقهم بذلك في أعظم اللقاءات في خطبته يوم حجّة الوداع، وقد كان من أصحابه أكثر من أربعين ألفًا، وعن النبي ﷺ قال: وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[2]. ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَفْعَلْ﴾: إذا لم تؤد إلى النّاس ما أرسلتك به ﴿فَمَا﴾: حرف يفيد النفي ﴿بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قال ابن عباس إنْ كتمت آيةً مما أُنزل إليك من ربّك لم

---

(١) صحيح البخاري /٩/١٥٥(٧٥٣١).

(٢) صحيح مسلم /٢/٨٨٦(١٢١٨).

تبلغ رسالته ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾: يحفظُك ويحميك بعد اليوم ممن يريدك منهم بسوءٍ، من يريد قتلك، ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويفيد هنا ﴿النَّاسِ﴾: قال مجاهد بعد نزول هذه الآية: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة–٦٧] فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ القُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ[1]. أي يحفظك، وينصرك، ويؤيدك على أعدائك؛ فلا تخف؛ ولا تحزن؛ فلن يصل إليك أحدٌ منهم بسوءٍ. ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: يدلُّ على الحق ﴿الْقَوْمَ﴾: الجماعة الذين من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: بعد نزول هذه الآية، ولقد حفظ الله ﷻ رسوله ﷺ في بداية الرسالة، بعمّه أبي طالب، فقد كان رئيسًا مطاعًا، في قريش، ولأنّه لم يُسلم لم يتجرأ عليه أحد، وقد كان يُحبّ رسول الله حبًّا جمًّا، وبعد موت عمّه، سخّر الله ﷻ الأنصار، فبايعوه ﷺ على الإسلام، وطالبوه أنْ يهاجر إليهم، وفي المدينة منعوه من الأحمر والأسود، وردّ الله ﷻ كيد كفار المدينة عنه، ولما سحره اليهود، حماه الله ﷻ منهم، وكانت سورتا المعوذتين دواءً لهذا الداء، وحماه الله ﷻ من السمّ الذي دسوه له في ذراع الشاة وهو الطرف الأمامي في الدواب.

التكليف: نخلص من هذه التجربة النبوية أنّه ستبقى الاغتيالات من كيد اليهود والكفّار، والله يحفظ من يشاء، وفي هذا طمأنة الرسول ﷺ حتى يبلّغ دعوته دون وجلٍ أو ترددٍ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)

﴿قُلْ﴾: فعلُ أمرٍ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ليقول: ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب، والذين نزل فيهم ﴿الْكِتَابِ﴾: يا أيها اليهود والنصارى ﴿لَسْتُمْ﴾: فعلٌ يُفيد النفي ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد العموم، ليس عندكم شيءٌ من الدين المعتمد، الذي في الكتاب، الذي بين أيدكم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ ﴿تُقِيمُوا﴾: أيضًا تطبقوا تعاليم ﴿التَّوْرَاةَ وَ﴾: أيضًا تقيموا تعاليم ﴿الْإِنْجِيلَ﴾: حتى تعملوا بهما ﴿وَ﴾: أيضًا تقيموا وتحققوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: وحيًّا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد ابتداء الغاية الكلّية التي لا يحدها زمانٌ أو مكانٌ ﴿رَبِّكُمْ﴾: من مالك أمركم كلّه، وتصدّقوا رسالة محمد ﷺ، وإتّباعه، والعمل بشريعة ربكم؛ مالك أمركم كلّه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: يُكثّر ويُضاعف بالتأكيد ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ

[1] سنن الترمذي /٥/٢٥١(٣٠٤٦). وقال: هذا حديث غريب، وقال الألباني: حديث صحيح.

﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿طُغْيَانًا﴾: مجاوزة للمسموح ﴿وَكُفْرًا﴾: أيضًا تغطيةً، لقد خلط اليهود والنصارى دينهم، بين زيادة ونقص، في الأوامر والنواهي، وهم يعلمون أنّ هذا كفرٌ على كفرٍ، وظلمٍ، وزيادةِ تجنّي، بسبب مكرهم على المسلمين ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَأْسَ﴾: لا تأسف ولا تحزن من ذلك ﴿عَلَى الْقَوْمِ﴾: الجماعةِ التي من أصلٍ واحدٍ، وأصحابِ عقيدةٍ واحدةٍ؛ وهم ﴿الْكَافِرِينَ﴾: ولا تحزن عليهم، فهم كفّارٌ بشهادة اللهِ ﷻ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، ممَّن ﴿آمَنُوا﴾: أيضاً هم المسلمون ﴿وَ﴾: أيضًا إنّ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: اليهود الذين نزلت فيهم التوراة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾: أيضًا عبدةُ الكواكب، قال مجاهد: هي طائفةٌ من النصارى والمجوس، وقال قَتَادَةُ: «الصَّابِئُونَ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْقِبْلَةِ، وَيَقْرَءُونَ الزَّبُورَ»[1]، وقيل غير ذلك ﴿وَالنَّصَارَى﴾: أيضًا حملةُ الإنجيل ﴿مَنْ﴾: الذين من جنس العاقل ﴿آمَنَ بِاللَّهِ وَ﴾: أيضًا آمنوا بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: كلّ أمّة من هؤلاء آمنت بالله ﷻ، وبيوم القيامة، اليوم الآخر ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾: وعملت عملًا صالحًا وفق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى الإنس والجن ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: من عمل بذلك لا خوف عليه يوم القيامة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَحْزَنُونَ﴾: على ما تركوا خلفهم، لكلِّ أمّةٍ رسولٌ، فإنْ آمنت به؛ أمِنت يوم العذاب، يوم القيامة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَخَذْنَا﴾: يقول الله ﷻ قطعنا، وأنزلنا، وقررنا ﴿مِيثَاقَ﴾: عهد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: قطعنا على بني إسرائيل العهود، والمواثيق، بالسمع، والطاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾: جاء شرحها في سورة البقرة، ﴿كُلَّمَا﴾: تُفيد التكرار والتعميم ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ

---

[1] مصنف عبد الرزاق ٦/ ١٢٤(١٠٢٠٦)

﴿بِمَا﴾: بالذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَهْوَى﴾: ترغب وتريد ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾: الذي يخالف آراءهم، ولا يخدم مصالحهم الفانية، انقسموا إلى فريقين ﴿فَرِيقًا﴾: جماعةً منهم ﴿كَذَّبُوا﴾: هؤلاء الذين كذّبوا رسلهم، واتبعوا أهواءهم ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: جاء الفعل المضارع **يقتلون** ليفيد الطبيعة وصفات اليهود الذين جُبلوا على قتل كلّ من يُرسل إليهم فالقتل من شرائعهم المحرّفة وزادوا من جرائمهم، ليس فقط عدم الطاعة، بل وقتل الآلاف من الأنبياء.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على كذبهم وجرائمهم ﴿حَسِبُوا﴾: اعتقدوا، واطمأنوا لاعتقادهم ﴿أَلَّا﴾: حرف تخصيص يفيد الانتباه، بمعنى أنْ لا ﴿تَكُونَ﴾: تقع كان هنا تامّة بمعنى الوجود ﴿فِتْنَةٌ﴾: بلاءٌ وعذابٌ، ظنوا أنّه لن يترتب على ما اقترفوا من جرائم من عدم الطاعة، وقتل الأنبياء، أنّهم في مأمن من عاقبة شرِّ ما صنعوا ﴿فَ﴾: حرف عطف يفيد السبب ﴿عَمُوا﴾: أي لم يروا الحق، كأنّهم فقدوا بصرهم ﴿وَ﴾: أيضًا جاء بعد العمى ﴿صَمُّوا﴾: لم يسمعوا الحقّ والصدق بعد التوبة من قتلٍ ليحي بن زكريا، كان قصدهم قتل عيسى عليهما السلام، وهذا يؤكد أنّ بني إسرائيل عميت عيونهم، وصُمّت آذانهم عن سماع الحق؛ فلم يهتدوا، ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿تَابَ﴾: غفر وسامح ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: ومن لطف الله ﷻ بعباده؛ أنْ غفر لهم ذنوبَهم، وتاب عليهم، ليتوبوا ﴿ثُمَّ﴾: تراخوا في الطاعة ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾: كرروا كفرهم بعد مغفرة الله ﷻ مرّة أخرى، وقد حدث هذا في ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾: هم الذين عموا وصموا ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا﴾: بالذي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: اختار اللهُ ﷻ هنا صفةً من صفاته (بصير) في مقابل الذين كفروا؛ فكانوا كالعُمي، وفقدوا الاستجابة للنصح، فكانوا كالصم؛ ليبيّن لهم أنّ كلّ ما عملوا مسجلٌ عنده ﷻ.

التكليف: عندما يفقد الإنسان البصر، والسمع وهي أدوات الإدراك؛ لا يؤدي القلب دوره.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿كَفَرَ﴾: هذا حكمُ الله ﷻ بتكفير فرقٍ من النصارى ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿قَالُوا إِنَّ﴾: بالتأكيد الله قد حلَّ في ذات عيسى؛ فرد الله ﷻ عليهم ﴿اللَّهَ هُوَ﴾: ضمير منفصل مرفوع

للمفرد الغائب، يقصدون ﴿الْمَسِيحُ﴾: عيسى ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾: الذين قالوا إنّ المسيح هو الله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾: عطفًا على هذا يشهد المسيح عليه السلام فيقول ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: يا أبناء النبي يعقوب، يُذكرهم بفضل أبيهم ﴿اعْبُدُوا﴾: أي أطيعوا ﴿اللَّهَ﴾: ﷻ، ولم يقل أطيعونِ؛ لأنني عبد الله وهو الله سبحانه ﴿رَبِّي﴾: هو المنشئ لنا جميعًا وهو ﷻ المربي لنا إلى حدّ التمام، هو ﷻ مالك أمرنا كلّه، ولقد جاء لفظ "رب" أبلغ؛ لأنّه المالك للأمر كلّه، بينما الإله هو المعبود ﴿وَرَبَّكُمْ﴾: أيضًا هو سبحانه مالك أمركم كلّه، لأنّ الله ﷻ هو ربّي وربّكم، وليس أبي، ولست ابنه. فكيف يدّعون لعيسى بالربوبية وهو يعترف لهم على نفسه بأنّه بشر مثلهم، وجاء في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم-٣٠]، وقال عليه السلام: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم-٣٠]، ويخوفهم ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم الذي ﴿يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: جاء اللفظ القرآني "**الشرك**" في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى الشرك بالله ﷻ كما في قوله ﷻ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء-٣٦] وجاء أيضًا في قوله ﷻ: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء-٤٦] وجاء أيضًا في قوله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء-٤٨]، وجاء قوله ﷻ بمعنى: الشرك في الطاعة من غير عبادة ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف-١٩٠] وجاء أيضًا ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم-٢٢]، وجاء قوله ﷻ بمعنى الرياء في العمل في ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف–١١٠] ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾: أوجب اللهُ ﷻ عليه عدم دخول الجنّة ﴿وَمَأْوَاهُ﴾: مقامه ومثواه الدائم ﴿النَّارُ﴾: وحدد الله ﷻ مصير ومأوى المشركين جهنّم وبئس المصير ﴿وَمَا﴾: وليس ﴿لِلظَّالِمِينَ مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿أَنْصَارٍ﴾: ليس لهم نصير ولا شفيع، ولا منقذ مما هو واقعٌ بهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣)

نزلت هذه الآية في النصارى خصوصًا ﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿كَفَرَ﴾: غطى الحقائق ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع النصارى ﴿قَالُوا إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: فيها أقوال: الأول: طائفة الملكافية قالوا إنّ الله إله، وعيسى إله، ومريم إله، هم الذين قالوا بالأقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، والثاني: الطوائف الثلاثة: الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، والثالث: قال السدي فيه: هم الذين جعلوا المسيح وأمّه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا القول هو الأظهر؛ والله أعلم ﴿وَمَا﴾: وقالوا أيضًا ليس ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿إِلَهٍ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿إِلَهٌ﴾: معبود ﴿وَاحِدٌ﴾: يقرر الحق ﷻ كذب هذه المقولة، فلا إله إلّا الله ﷻ، لا شريك له ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَنْتَهُوا﴾: يكفّوا ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿يَقُولُونَ﴾: تهديد، ووعيد: إنْ لم يكفّوا عن كفرهم، وأكاذيبهم ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: بسبب هذا ليصيبنّهم في أعماقهم، فالمسُّ أشدُّ وأكثرُ وجعًا من اللمس، وجاءت الكلمةُ هنا بأدوات التوكيد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أنكروا وأخفوا حقيقة الإيمان ﴿مِنْهُمْ﴾: حرف يفيد التمييز تحديدًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الأغلال، والعذاب، والنكال وكلُّ صنوفِ العذابِ الموجعة في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤)

﴿أَفَلَا﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار ﴿يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾: من لطف الله ﷻ وكرمه أنّه يأمرهم بالتوبة، وهي الإقلاع عن الأقوال التي قالوها، توبةً صادقةً، ثم يُتبعون التوبة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ يجمعون هنا بين التوبة وطلب الغفران ﴿وَ﴾: أيضًا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فكلُّ من تاب إليه؛ تاب عليه مهما كان حجم الكفر.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: يتكرر اللفظ القرآني "**ابن مريم**" لأنّ عيسى ﷺ، لم يكن له أبّ ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناء، هنا تم قصر موصوفٍ على صفةٍ، فتم قصر عيسى ﷺ على الرسالة لا يتعداها إلى الألوهية ﴿رَسُولٌ﴾: يقرر صاحب الخلق، ﷻ، قوله في عيسى بن مريم ما هو إلّا رسولٌ كسائر الرسل الذين مضوا، لا يجاوز رسالته كما زعمتم لأن يكون إلهًا أو ابنًا لإله، أو ابنًا لله ﷻ هو عبدٌ من عباد الله ﷻ، قال فيه ﷻ: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الزخرف-٥٩] ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿خَلَتْ﴾: مضت، وانقضت ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ﴾: أيضًا ﴿أُمُّهُ﴾: مريم ابنة عمران ﴿صِدِّيقَةٌ﴾: صادقةٌ، أو مصدقة بالله ﷻ، وبما جاء من ولدها من الرسالة وهذا من أعلى المقامات، هي ليست من الأنبياء أو الرسل، وهذا لا يستلزم أنْ تكون إلهًا؛ فالله ﷻ لم يبعث نبيًا من النساء، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء ﴿كَانَا﴾: المسيح وأمّه مريم ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾: يحتاجان إلى الغذاء، ويحتاجان إلى خروج الفضلات، فهما كسائر عباد الله ﷻ، ليسا إلهين كما يزعم النصارى الجاهلون ﴿انْظُرْ﴾: تأمّل وفكّر واستخلص، وهذا من حب الله ﷻ لعبده، الذي وهبه العقل، ليصل إلى الحقيقة ﴿كَيْفَ﴾: استفهامٌ يُفيد التعجب ﴿نُبَيِّنُ﴾: نُوضّح ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الْآيَاتِ﴾: نُظهر، ونوضح الأدلّة، والبراهين ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التباعد والتراخي الزمني ﴿انْظُرْ﴾: تأمّل وفكّر واستخلص ﴿أَنَّى﴾: حرف استنكاري ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: تفكر وتدبر بعد هذا البيان والوضوح أين يذهبون، بأيّ قولٍ يتمسكون، وإلى أيّ مذهبٍ من الضلال يذهبون، والإفك: هو كلَّ مصروفٍ عن وجهه الصحيح.

التكليف: إن المعجزات التي وهبها اللهُ ﷻ لعيسى ﷺ، لا تُوجب أنْ يكون إلها؛ فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ولكلّ أتباعه من بعده ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾: استفهام، تتبعون وتطيعون ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، يفيد التمييز ﴿دُونِ اللَّهِ﴾: غير الله ﷻ تُطيعون، وتعبدون أصنامًا، وتصنعون أندادًا، وأوثانًا ﴿مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَمْلِكُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿ضَرًّا﴾: كيف تطيعون ما لا يضركم إذا خالفتموه، ولا

يدفع عنكم ضررًا ﴿وَلَا﴾: أسلوب استنكاري لا ينفعكم هو بشيء، ولا يجلب لكم نفعًا إذا أطعتموه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: يسمع كلام عباده، ويعلم ما في أنفسهم، ثم تذهبون إلى ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنكم شيئًا.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: هم اليهود والنصارى ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَغْلُوا﴾: تُجاوزوا الحدّ المسموح ﴿فِي دِينِكُمْ غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿الْحَقِّ﴾: هو الغلو وتجاوز الحدود، لا تمدحوا الذين أردتم تعظيمهم، كما فعلتم مع عيسى بن مريم، اعتقدتم أنّه إله، وهو رسول الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ﴾: تجرون وراء رغبات ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ، هم أسلاف طائفتي اليهود والنصارى، الذين كانوا قبل بعثةِ محمدٍ ﷺ ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿ضَلُّوا﴾: تاهوا عن الحق، هم شيوخ الضلال الذين سبقوكم، الذين تاهوا عن الحق ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع يُفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: من قبلكم ﴿وَأَضَلُّوا﴾: أيضًا جعلوا غيرهم يبتعد عن الحق ﴿كَثِيرًا﴾: أي كانوا سببًا في ضلال كثير من النّاس ﴿وَضَلُّوا عَنْ﴾: حرف جر يفيد المجاوزة ﴿سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: تاهوا عمدًا، وخرجوا عن الطريق المستقيم، من الاعتدال إلى الضلال. لقد كان التشديد والتفريط في الدين سببين في الكفر، عَنْ عُبَادَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»[1].

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨)

﴿لُعِنَ﴾: لقد طُرد من رحمة الله ﷻ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع اليهود والنصارى من الرجال والنساء ممّنْ ﴿كَفَرُوا﴾: يخبر الله ﷻ أنّه كتب اللعنة على الذين كفروا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا الغاية المكانيّة وهم ﴿بَنِي﴾: أبناء ﴿إِسْرَائِيلَ﴾:

---

[1] صحيح البخاري ٤/ ١٦٥(٣٤٣٥).

يعقوب عليه السلام، ﴿عَلَى لِسَانِ﴾: جاء دعاء عليهم من الزبور والإنجيل بما فعلوه من المعاصي، كاعتدائهم في السبت، وكفرهم بعيسى، وكل معصيةٍ واعتداءٍ ﴿دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾: عليهما السلام، من قلب الأنبياء الذين أرسلهم اللهُ سبحانه وتعالى في اليهود، اللعنة الربانيّة من رحمة الله سبحانه وتعالى، على الذين كفروا في التوراة، وفي الإنجيل، وفي الزبور، وفي القرآن الكريم من رحمته سبحانه وتعالى، وهذا ما جاء في الكُتب التي أُنزلت على عيسى بن مريم، وعلى داود عليهما السلام ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى بسبب أنّهم ﴿عَصَوْا﴾: بسبب أنّهم رفضوا طاعة الله سبحانه وتعالى، واتباع رسالة الأنبياء ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: بالقتل، والطرد، والأذى للأنبياءِ والرسلِ وعمومِ النّاسِ والمؤمنين: دعاء عليهم من القلب.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩)

﴿كَانُوا﴾: الذين كفروا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾: كانوا لا ينهون بعضهم بعضًا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة والسبب، وهي جرائم متعددة، ومتكررةٍ؛ يرتكبونها، واحدةً بعد الأخرى؛ مخالفةً للدين؛ فذمّهم اللهُ سبحانه وتعالى بذكر مساوئهم، وهو عكس المدح بأعمالهم ﴿مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾: المنكر هو كلّ ما حرّمه الله سبحانه وتعالى، ومنع ارتكابه، هو ما لا يقرّه الله سبحانه وتعالى، ولا يقره المؤمنون ﴿لَبِئْسَ﴾: ساء، فيه شرٌّ وضررٌ، هذا ذمٌّ من الله سبحانه وتعالى للذين كانوا يكررونه، معصيةً أخرى، من القول والعمل.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهِ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ[1]. ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الماضي ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

التكليف: الخلاصةُ من تجربةِ بني إسرائيل مع أنبيائهم: عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ[2]. عن أَبِي سَعِيدٍ الخدري قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ

---

[1] سنن أبي داود /٢١٣/٤(٤٣٣٨). الحديث ضعفه الألباني والأرناؤوط.

[2] سنن الترمذي /٣٨/٤(٢١٦٩). وحسنه الترمذي.

أَضْعَفُ الْإِيمَانِ[1]. قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ[2]. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا. وَقَالَ مَرَّةً أَنْكَرَهَا. كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا[3]. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى نَتْرُكُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَنَا؟ قَالَ: الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالَتِكُمْ[4].

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠)

﴿تَرَى﴾: تُشاهد يا محمد ﷺ والخطاب لكل من يتبعه **﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾**: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة؛ وهم اليهود **﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾**: يحبون، وينصرون، ويؤيدون **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا الجميع، الذكور والإناث من اليهود، هم مَنْ **﴿كَفَرُوا﴾**: من المشركين الذين ليسوا على دين الحق **﴿لَ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿بِئْسَ﴾**: ساء، من السوء والشر، ذمٌّ، ذكر المساوئ وهو عكس المدح وتقريعٌ لهذا الصنف من النّاس، شرٌّ وبؤس **﴿مَا﴾**: الذي **﴿قَدَّمَتْ﴾** زيّنت **﴿لَهُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿أَنْفُسُهُمْ﴾**: من موالاة الكفّار، وعدم موالاة المؤمنين **﴿أَنْ سَخِطَ﴾**: سببت غضب **﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾**: غضبًا شديدًا، جزاء نفاقهم، وموالاة الكافرين **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على هذا هم **﴿فِي الْعَذَابِ هُمْ﴾**: تحديدًا **﴿خَالِدُونَ﴾**: بقاءٌ بلا انقطاع، هذا جزاؤهم يوم القيامة.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨١)

﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة **﴿كَانُوا﴾**: في السابق **﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾**: الإيمان بنبيّهم، وآمنوا بمحمدٍ ﷺ إيمانًا صادقًا، حق الإيمان **﴿وَمَا﴾**: أيضًا آمنوا بالذي **﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾**: وهو القرآن الكريم الذي أُنزل على محمدٍ ﷺ **﴿مَا﴾**: حرف نفي **﴿اتَّخَذُوهُمْ﴾**: رضوا بالمشركين

---

[1] صحيح مسلم /٦٩/١(٤٩).

[2] مسند أحمد /٢٥٨/٢٩(١٧٧٢٠). قال ابن حجر في فتح الباري /٤/١٣: حديث حسن، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره؛ وهذا إسناد ضعيف.

[3] سنن أبي داود /٢١٨/٤(٤٣٤٧). وحسنه الألباني والأرناؤوط.

[4] سنن ابن ماجه /١٤٧/٥(٤٠١٥). وحسنه الأرناؤوط وقال: إسناده قوي.

وتعودوا عليهم؛ واعتمدوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: ما نصروهم، ولا أيدوهم، وما عادوا المؤمنين، وما كفروا بالله ﷻ، ولا برسوله ﷺ، وما كفروا بما أُنزل عليه ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ إنّما الواقع أنّ ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾: يُقرر الله ﷻ أنّ أغلب هؤلاء هم من الخارجين عن طاعة الله ﷻ، وإتباع رسوله، مخالفين للوحي، وتنزيله، ولا يوالون المؤمنين.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ، الَّذِينَ حِينَ تَلَا عَلَيْهِمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْحَبَشَةِ الْقُرْآنَ بَكَوْا حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ. وعلمًا بأنّ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَقِصَّةُ جَعْفَرٍ مَعَ النَّجَاشِيِّ كانت قَبْلَ الْهِجْرَةِ. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: بَعَثَ النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفْدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ فَأَقَرُّوا وَأَسْلَمُوا، وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [المائدة–٨٢]، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ وَأَسْلَمَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَتْهُ وَفَاتُهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ كَمَا يُصَلِّي عَلَى الْمَيِّتِ[١]. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَى أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ فَصَفَّنَا وَرَاءَهُ فَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ[٢]، وعَنْ سَلْمَانَ، ﷺ فِي إِسْلَامِهِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ صَنَعْتُ طَعَامًا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟ قُلْتُ: صَدَقَةٌ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: كُلُوا، وَلَمْ يَأْكُلْ، ثُمَّ إِنِّي رَجَعْتُ حَتَّى جَمَعْتُ طَعَامًا فَأَتَيْتُهُ بِهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟ قُلْتُ: هَدِيَّةٌ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ فَأَكَلَ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: كُلُوا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ النَّصَارَى؟ قَالَ: لاَ خَيْرَ فِيهِمْ وَلاَ فِيمَنْ أَحَبَّهُمْ، فَقُمْتُ وَأَنَا مُثْقَلٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿**تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا سَلْمَانُ إِنَّ أَصْحَابَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ.[٣]، ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿تَجِدَنَّ﴾: الخطاب هنا لكلِّ من يصلح له، ستشاهد وتدرك بالتأكيد ﴿أَشَدَّ﴾: أكثرَ وأعنفَ، وأشرسَ، وأصلب ﴿النَّاسِ﴾: من بني آدم ﴿عَدَاوَةً﴾: هي بغضٌ نفسيّ تجعل صاحبها بعيدًا عمّن يعاديه فلا يصله بخيرٍ ولا يُريدُ له خيرًا، هم أصحابُ الكُرهِ والحقدِ ﴿لِلَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع

---

[١] مسند الحارث، انظر بغية الحارث /٢/٩٣٩(١٠٣٥).

[٢] صحيح البخاري /٢/١٠٨(١٣١٧).

[٣] المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٢٤٩(٦١٢١) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٤/٤٧٣: قال الحافظ والأحاديث في ذلك شهيرة.

الرجال والنساء ممنْ ﴿آمَنُوا﴾: هم مؤمنون زمانهم، والمؤمنون بمحمد ﷺ هم ﴿الْيَهُودَ وَ﴾: أيضًا هم ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: بسبب كفر اليهود، وعنادهم، والبهتان، وظلم النّاس، وقتلهم الأنبياء، حتى همّوا بقتل رسول الله ﷺ، وسمموه، وسحروه، وحرّضوا على قتله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا خَلا يَهُودِيٌّ بِمُسْلِمٍ قَطُّ إلا حَدَّثَ نَفسه بقتْله[1]. ومنهم الذين عبدوا الأصنام، وأمثالهم من البوذيين، والشيوعيين، وأمثالهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: قُربًا ومحبةً؛ لأنّ فيهم مودّة للإسلام وأهله هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿نَصَارَى﴾: من القساوسة والرهبان وهم أتباع عيسى عليه السلام، يعلمون النّاس التواضع لله ﷻ، والرحمة والنفع للنّاس، والتماس الحق، فإنّ الرأفة والرقة من تعاليم دينهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد-٢٧] ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ﴿بِأَنَّ﴾: بسبب هذا و لتأكيد الفعل ونفي الشك ﴿مِنْهُمْ﴾: وليس كلّهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾: هم الخُطباءُ والعُلماءُ الذين في الأديرة والصوامع ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿رُهْبَانًا﴾: هم العُبّاد من الرهبة وهي الخوف ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: حرف توكيد الفعل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: جمعوا العلم، والعبادة، والتواضع، وانقيادهم للحق، والإنصاف؛ فالمُتكبرُ قلْبهُ مغلقٌ عن الخير، كان هذا في الماضي واليوم أصبح معظم المسيحيين أنصارًا لليهود.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣)

﴿وَإِذَا﴾: حرفُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿سَمِعُوا﴾: وهذه أهم وسائل الإدراك للفهم والتعقل ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾: هو الذي نزل على محمد ﷺ، وفيما كان عندهم من البشارة بمحمدٍ ﷺ ﴿تَرَى﴾: تُشاهد بوضوحٍ ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾: تمتلئ عيونُهم بالدمع؛ فتسيل الدموع غزيرة؛ عند سماع القرآن الكريم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية المكانية ﴿الدَّمْعِ﴾: من عيونهم ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء من الذي ﴿عَرَفُوا﴾: لأنّهم عرفوا أنّ القرآن هو الكتاب ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: قد جاء ذلك على عيسى بن مريم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾: يا مالك كلِّ أمرنا ﴿آمَنَّا فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ؛ قالوا آمنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمدٍ ﷺ ﴿اكْتُبْنَا﴾: بمعنى اجعلنا ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: مع من يشهد بدايةً لله ﷻ بالوحدانية وبصحة رسالة محمد ﷺ ويؤمن به، ويشهدون له ﷺ أنّه

---

[1] المجروحين لابن حبان /٣/ ١٢٢. ومعجم ابن الأعرابي /٣/١٠٩٠(٢٣٤٦) حديث ضعيف جدًا، في إسناده يحيى بن عبيد الله، قال فيه الإمام أحمد: يروي المناكير. وضعفه الألباني.

بلّغ الرسالة، وأنّهم بلّغوا، اكتبنا مع الشاهدين على النّاس من أمّةِ محمد ﷺ وأنّه رسول الله ﷻ إلى النّاس.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤)

﴿وَمَا﴾: حرفُ استفهامٍ عن العاقل وغير العاقل ﴿لَنَا﴾: لماذا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿نُؤْمِنُ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَمَا﴾: أيضًا نؤمن بالذي ﴿جَاءَنَا مِنَ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية ﴿الْحَقِّ﴾: لماذا لا نؤمن بالله ﷻ وقد جاءنا في كتابنا من الحق ببعثة محمد ﷺ وهي حقٌ من الحق ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿نَطْمَعُ﴾: والطمعُ هو نزوعُ النفس؛ شهوةً له، نرغب بشدّة في كرم الله ﷻ بدخول الجنّةِ بصحبة الصالحين من الأنبياء وأتباعهم، المطيعين لله ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾: مالك أمرنا كلّه ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: وقيل إنّ هؤلاء هم الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران-١٩٩].

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥)

﴿فَ﴾: حرف يفيد الجواب ﴿أَثَابَهُمُ﴾: جازاهم وكافأهم ﴿اللَّهُ بِمَا﴾: بالذي ﴿قَالُوا﴾: لأنّهم قالوا كلمةَ الإيمان، والتصديق والاعتراف بالحق ﴿جَنَّاتٍ﴾: جاءت بصيغة الجمع دلالة على الكثرة يوم القيامة ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أنهار الجنّة تجري من تحت منازلهم وأشجارهم؛ لمزيدٍ من المتعة ﴿خَالِدِينَ﴾: ماكثين ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة أبدًا، لا يزولون، ولا يحولون ﴿وَذَلِكَ﴾: أيضًا كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، المقصود هذا النعيم ﴿جَزَاءُ﴾: ثواب، وجائزة ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: العابدين لله ﷻ بحقٍ كأنّهم يرونه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦)

في هذه الآية تُستكمل دورة الثواب والعقاب يوم القيامة، فبعد ثواب المؤمنين جاء ذكر عقاب الكافرين ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع الذكور والإناث، مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: غطّوا حقيقة العلاقة بين الخالق ﷻ والمخلوق، والذين جمعوا الكفر والتكذيب ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا، ورفضوا، وجحدوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾: بآيات الله ﷻ التي أنزلها على رسله، وخالفوها، كان

عقابهم ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة إلى البعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: أهلٌ لا يفارقون ﴿الْجَحِيمِ﴾: أهلُ النّار، الملازمين لها، هم أهلُها الماكثون فيها أبدًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧)

أسباب النزول: نزلت في رهطٍ من المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فمنهم من حرّم على نفسه أكل اللحم، ولمّا علم الرسول ﷺ بأمرهم؛ أرسل إليهم، فسألهم وأقروا بذلك؛ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا هو النداء الحادي عشر في هذه السورة الكريمة، كلمةُ نداءٍ لتنبيهِ السامعِ لما سيأتي؛ وبيانِ الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات من البشر، البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع، الذكور والإناث ممن ﴿آمَنُوا لَا﴾: حرف يفيد التحريم ﴿تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ﴾: ما يتلذذ به الإنسان مما تقبلهُ النفسُ؛ وتستمتع به الحواس ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾: مما أحلّه اللهُ ﷻ لعباده، من معاشرة الناس بالمعروف، والأكل، والشرب والملبس، والذي نهاهم ولم يُحرموه، واختلف الفقهاء في كفّارة منْ حرّم على نفسه شيئًا لم يُحرّمه الله ﷻ: قال الإمام أحمد: بكفّارةِ يمين، وإذا التزم تركه باليمين وجاء في هذا: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم-٢]، وقد جاءت آية اليمين بعد هذه الآية ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَعْتَدُوا﴾: لا تتجاوزوا، واحذروا ما حرّم الله ﷻ ولا تعملوا بسننٍ ليست من سنن المسلمين، وقيل معناها لا تُضيّقوا على أنفسكم، بتحريمِ المُباح، وقيل كما لا تحرّموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا بقدر حاجتكم، كقوله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف-٣١] ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: إنّه ﷻ يكره المتجاوزين لشرعٍ بظلم الآخرين.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

---

[1] صحيح مسلم ٢/ ١٠٢٠(١٤٠١).

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿كُلُوا﴾: ليكن طعامُكم ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: ساقه الله ﷻ لكم من الرزق ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾: ما تقبله النفس، وتستمتع به الحواس إذا كان حلالًا طيبًا، هذا أمرٌ واضحُ الدلالة، الأكلُ من كلّ شيءٍ لم يُحرّمه الله ﷻ، وقد أحلّه ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا غضبه، واحذروا عصيانه في جميع أموركم، واتّبعوا رضوانه، واتركوا مخالفة أمره، ولا تعصوه ﴿الَّذِي أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿بِهِ﴾: حرف باء الصلة، المقصود هو الله ﷻ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾: الذي وصلتم بيقينٍ واطمئنانٍ أنّه ربّكم، وخالقكم، ورازقكم، وهو صاحب الأمر والنهي في عباده، وأنتم منهم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿**لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة-٢٢٥] فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لاَ وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ[1].

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: لا يُحاسبكم اللهُ ﷻ ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: أنْ يحلف الشخصُ على الشيءِ مُعتقدًا صدقهُ والأمر الصحيح هو بخلافه، أو ما يجري على اللسان مما لا يُقصد به اليمين، مثل قول الشافعي: أنْ يقول الإنسان في الكلام من غير قصدٍ مثل لا والله، وقال: أبو حنيفة وأحمد: الكلام في الهزل، المزاح، وعلى غلبة الظن، وقيل في اليمين في الغضب، وفي النسيان، وقيل هو الحلف على ترك المأكل، والمشرب، والملبس، ونحو ذلك، وخلاصة القول هو: هو اليمينُ بغير قصدٍ؛ بدليلِ قوله ﷻ ﴿**بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستدراك ﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾: يحاسبكم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾: وهو الأيمان المعقودة بالقصد والنيّةِ، إذا حنثتم في التي تأتي بالتصميم عليها، والقصد والنيّة، وهنا الكفّارة ثلاثة أشياء: ولك أنْ تختار ﴿فَـ﴾: حرف يفيد هنا جواب الشرط بهدف ترتيب الأمر ﴿كَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾: إطعامُ عشرةٍ من الفقراء المحتاجين، الذين لا يجدون كفايتهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، جزءًا أو بعضًا ﴿أَوْسَطِ﴾: إطعام ما تعتادون تناوله، وما تطعمونه أهليكم، لا يجب عليكم أعلاه أكثر ثمنًا منه ولا يجوز لكم أدناه. قيل الخبز والسمن، والخبز واللبن، وقيل الخبز والزيت، والخبز

---

[1] صحيح البخاري ٦/ ٥٢ (٤٦١٣)

والتمر، وقيل من أفضل ما تطعمونه أهليكم الخبز واللحم، وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، يُغَدِّيهِمْ، وَيُعَشِّيهِمْ خُبْزًا وَلَحْمًا، خُبْزًا وَزَيْتًا، خُبْزًا وَسَمْنًا[1]، وقيل إطعام عشرة مساكين أكلةً واحدةً، خبزًا ولحمًا، فإنْ لم يجد؛ فخبزًا وسمنًا ولبنًا، فإن لم يجد فخبزًا وزيتًا وخلًا، حتى يشبعوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾: فإنْ كان الرجلُ يُقلّل أو يُكثّر في الطعام؛ فجاء الأمر ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين شيئين ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾: قيل ما يكسو البدن ولو كان ثوبًا واحدًا، وقيل ما تُجزئ به الصلاة، قال الشافعي: لو دفع إلى كلّ واحدٍ من العشرة ما يمكن تسميته الكسوة من قميص، أو سروال، أو أزار، أو عمامة، أو مقنعة، أجزأه ذلك، وقال مالك وابن حنبل: لا بد أنْ يدفع إلى كلّ واحدٍ منهم من الكسوة ما يصح أنْ يُصلي فيه إنْ كان رجلًا، أو امرأة، كلٌّ بحسبه، والله أعلم ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: جاء في كفارة الظهار واليمين إطلاق الرقبة المُحررةِ دونَ بيانٍ لهذا المُحرر، هل هو مؤمن أو كافر، قال أبو حنيفة: تجزئ النفس الكافرة أو المؤمنة، قال الشافعي: يجب أنْ تكون مؤمنة، ونلحظ في كفّارة اليمين أنّ فعل أيٍّ منها أجزأ عنه، وهذا إجماع، وقد بدأ التشريع بالأسهل فالأسهل، الإطعام أسهلُ وأيسرُ من الكُسوة، وهذه أيسرُ من العتق، والإطلاق تم تقييده في كفارة القتل الخطأ ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي، يفيد: بسبب هذا الذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَجِدْ﴾: ليس في مقدوره ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾: متتالية، أو متفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لأنّ النص: فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [البقرة–١٨٤]، ولكنّ نصّ الشافعي: على وجوب تتابعها، فقد كانوا يقرؤونها، فصيام ثلاثة أيامٍ متتابعات ﴿ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، هذا الذي جاء ذكره هو ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾: إذا حلفتم فهذه كفّارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: صونوا أيمانكم عن الحلف، ولا تتركوها بغير تكفير عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أَبَاهَا كَانَ لاَ يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ كَفَّارَةَ اليَمِينِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «لاَ أَرَى يَمِينًا أُرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا قَبِلْتُ رُخْصَةَ اللَّهِ وَفَعَلْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[2]، قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[3] ﴿كَ﴾: حرف يفيد مثل وحال ﴿ذَٰلِكَ﴾: كل ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾: يُوضّح الله ﷻ ويُفسّر ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا أيها المسلمون ﴿آيَاتِهِ﴾: أحكامه وشريعته ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا جاء اللفظ لعلّ من النّاس فهي تقصد

---

[1] التفسير من سنن سعيد بن منصور ٤/ ١٥٤٧(٧٩٥). قال د. سعد آل حميد: إسناده ضعيف.

[2] صحيح البخاري ٦/ ٥٣(٤٦١٤).

[3] صحيح البخاري ٨/ ١٢٧(٦٦٢٢).

طمعًا ورغبة، وإذا جاءت من الله فهي تعني إشفاق ﴿تَشْكُرُونَ﴾: تحمدون الله ﷻ على عطائه ورحمته وتشريعه.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠)

هذا النداء الثاني عشر في هذه السورة الكريمة، وهي من آيات تحريم الخمر: حُرّمت الخمر ثلاث مرات: الأولى: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ التي فِى الْبَقَرَةِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآيَةَ قَالَ فدعي عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى النِّسَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فَكَانَ مُنَادِى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ يُنَادِى أَلاَ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانُ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا[١]. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميعَ مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: نداء من الله ﷻ للمؤمنين حقًا ﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ حصرٍ يفيد التحديد والتخصيص ﴿الْخَمْرُ﴾: هو كلُّ ما خامر العقل؛ أي غطّاه؛ فأصبح المخمور يهذي، والخمر هو كلُّ مشروبٍ يذهب بالعقل ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾: وأيضًا القمار، حيث المكسب، والمخسر بغير عمل، هو الذي يشمل على عوضٍ من الجانبين، كلُّ شيءٍ من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والبيض، وكان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين، والضرب بالقداح على الأموال والثمار، وقيل كلُّ ما ألهى عن ذكر الله ﷻ وعن الصلاة فهو من الميسر، وعن النرد: قال ﷺ: مَن لَعِبَ بالنَّردَ شِيرِ فكأنَّما غمَس يَدَه في لحمِ خنزيرٍ ودَمِه[٢]. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الشِّطْرَنْجِ، فَقَالَ: هُوَ شَرٌّ مِنَ النَّرْدِ[٣] ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾: أيضاً الأصنام المصنوعة من الحجارة، المنصوبة للعبادة، التي كانت حول الكعبة للعبادة ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾: أيضاً قداحٌ كانوا يستقسمون بها، ويطلبون ما قسم لهم في الغيب ﴿رِجْسٌ﴾: هو الشيء الخبيث القذر، والرجس يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو

---

[١] سنن أبي داود /٣/٣٦٤(٣٦٧٢) وصححه الألباني.

[٢] سنن أبي داود /٧/٢٩٦(٤٩٣٩). وصححه الأرناؤوط.

[٣] السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٣٥٩(٢٠٩٣٤). قال محقق تحريم النرد والشطرنج للآجري محمد سعيد إدريس ص١٣٨: إسناده صحيح.

جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بعضًا أو جزءًا ﴿عَمَلِ﴾: وسائل غواية ﴿الشَّيْطَانِ﴾: للمسلم عن واجباته ﴿فَ﴾: حرف يفيد العلّة والسبب ﴿اجْتَنِبُوهُ﴾: يأتي تحريم الخمر من خمسة مصادر: العنب، والعسل والتمر والحنطة والشعير لهذا السبب يقصد الرجس، أي اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف يفيد الترجي إذا جاءت من عند الإنسان وتفيد هنا الإشفاق؛ لأنّها جاءت من الله ﷻ ﴿تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون بمالٍ حلالٍ، وحياةٍ هانئةٍ، وثوابِ العمل بأوامر الله ﷻ في الآخرة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)

﴿إِنَّمَا﴾: حرفٌ يُفيد التحديد والتخصيص ﴿يُرِيدُ﴾: يرغب ﴿الشَّيْطَانُ﴾: يستغل الشيطان الخمر والقمار حتى ﴿أَنْ يُوقِعَ﴾: يضع ويحقق ﴿بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ﴾: ليجعل المسلمين أعداءً، يكره بعضُهم بعضًا ﴿وَ﴾: أيضًا، حتى تكون ﴿الْبَغْضَاءَ﴾: الكراهية الشديدة ﴿فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: بسبب الخلافات التي تنشأ عن ذهاب العقل، وضياع الصلاة، والاقتتال، والغنى الفاحش، والفقر المدقع، الذي تجلبه الخمر والقمار، والكذب، والغش ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال حرف يجمع هنا بين العداوة والبغضاء، والصدّ عن ذكر الله ﷻ ﴿يَصُدَّكُمْ﴾: يمنعكم ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد المجاوزة ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾: يُؤخر المسلمين عن ذكر الله ﷻ، وقراءة القرآن ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾: يؤخركم أو ينسيكم الصلاة ﴿فَهَلْ﴾: حرف استفهام ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿مُنْتَهُونَ﴾: جاء هنا وجوب النهي والتحريم، والأمرُ بالانتهاء عن الخمر والقمار.

التكليف: جاء الاستفهام هنا ليفيد الأمر؛ بمعنى انتهوا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: لقد أطاعوا الله ﷻ عندما حرّم عليهم الخمر، وأمر ﷻ بطاعة الرسول ﷺ الذي بلّغ وأمر بطاعة الله ﷻ والانتهاء من الخمر والميسر ﴿وَاحْذَرُوا﴾: انتبهوا أن تخالفوا الله ﷻ ورسوله ﷺ ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: إذا رفضتم التحريم، وأعرضتم، وذهبتم بعيدًا عن الشرع ﴿فَاعْلَمُوا﴾: بسبب هذا تأكدوا ﴿أَنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التأكيد أنّ الذي ﴿عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: إنّ دور الرسول ﷺ التبليغ، وهو أمرٌ ربّاني، فإنْ أطعتم اهتديتم؛ لأنّ بلاغ الرسول ﷺ واضح قاطع لا لبس فيه، مبين للجميع.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣)

أسباب النزول: عَنْ البَرَاءِ، قَالَ: مَاتَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الخَمْرُ، فَلَمَّا حُرِّمَتِ الخَمْرُ، قَالَ رِجَالٌ: كَيْفَ بِأَصْحَابِنَا وَقَدْ مَاتُوا يَشْرَبُونَ الخَمْرَ، فَنَزَلَتْ: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾[١]، عن أنس بن مالك: أن أبا طلحةَ سأل النبيَّ ﷺ عن أيتامٍ ورِثوا خمرًا، قال: أهْرِقْها قال: أفلا أجعلُها خَلًّا؟ قال: لا[٢]

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء ممنْ ﴿آمَنُوا وَ﴾: إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، وعطفًا على إيمانهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: الذين عملوا ما أمرهم الله ﷻ تقرّبًا وطاعةً له ﷻ ﴿جُنَاحٌ﴾: إثمٌ، وحرجٌ، وذنبٌ، مترتبًا عن الجنح الذي هو الميل إلى المعصية وعدم الطاعة، ليس على المسلمين ذنبٌ في الحالات المذكورة ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿طَعِمُوا﴾: أكلوا من المحرّم أو شربوا من الخمر قبل التحريم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿مَا اتَّقَوْا﴾: التزموا بالأوامر والنواهي، بالإيمان الصافي الذي لا غشّ فيه ﴿وَآمَنُوا﴾: بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله والقيامة كلّها حق، إيمانًا صادقًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أتبعوا إيمانهم بما أمر اللهُ ﷻ به من صلاةٍ، وزكاةٍ، وغيرها ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التباعد الزمني والتراخي؛ حتى ولو مرّ زمنٌ وضعفت الهمم ﴿اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا﴾: هي العملُ بما أنزل اللهُ خوفًا من عقابه ﷻ ﴿وَأَحْسَنُوا﴾: الإحسان هو أعلى درجات الإيمان، قال ﷺ أنْ تعبد الله ﷻ كأنّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فهو يراك. إنّها خشية الله في السر والعلن ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يعبدون الله كأنّهم يشاهدونه ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء الثالث عشر من الله ﷻ للمؤمنين كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي

---

[١] سنن الترمذي /٥/٢٥٤(٣٠٥٠) وقال: حديث حسن صحيح.

[٢] سنن أبي داود٥/٥١٨(٣٦٧٥) قال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾: يختبركم مدةَ الإحرام في الحج، ونزلت هذه في عُمرةِ الحديبية ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد العموم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويفيد هنا جزء أو بعض ﴿الصَّيْدِ﴾: هي صيدٌ برّي ضعيف، وفيه الصغير، الذي يسهل الإمساك به أو صيده ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾: يسهل صيده بالرماح من كثرته، أو الإمساك به بأيديهم من الصيد الصغير أو البيض ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ﴾: الذي هو من جنس العاقل ﴿يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ الأمور غير المعلومة، وغير المرئية، وغير المسموعة لك، لن يقول الله ﷻ لك ما في الغيب في خلقه إلّا ما يريدُ بالأسباب الكاشفة ﴿فَمَنِ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا ﴿اعْتَدَى بَعْدَ﴾: حرف يفيد الزمن ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، هنا من اعتدى على ما حرّم الله ﷻ بعد هذا الإعلان بالتحريم والإنذار ﴿فَلَهُ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جزاؤه على هذه المخالفة عذابٌ شديدٌ.

التكليف: تهدف هذه الآيات إلى: تقوية عزيمة الإنسان المسلم ضد غرائزه، ومصالحه الدنيوية، وأيضًا هي حكمةٌ يعلمها الله ﷻ؛ لحماية المخلوقات الأخرى، مسخّرة لحكمةٍ يعلمها الله ﷻ؛ في قضية البيئة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٩٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهم المؤمنين من خلقه، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ومن ﴿آمَنُوا﴾: هذا النداء الرابع عشر في هذه السورة الكريمة، جاء للتنبيه بتكليفٍ للمؤمنين ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾: والمقصود هنا في حالة الإحرام، والصيد نوعان: الأول ما يُؤكل، حتى وإنْ تولّد من غيره، وحيوانات البر غير المأكولة، وهذه يقول فيها الشافعي: يجوز للمحرم قتلُها، غير أنّ الجمهور: يُحرّم قتلها، ولا يستثني من ذلك إلّا ما ثبت في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ،

وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا[1]، أما الحيّة فلا شك فيها، ولا يُختلف على قتلها، وعن الكلب العقور: تشمل: الذئب، والسبع، والفهد، وقيل السباع العادية كلّها ﴿وَمَنْ﴾: الإنسان الذي ﴿قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿جَزَاءٌ﴾: عقوبته وكفارته، وقيل لا كفّارة على غير المتعمد، وقيل عليه كفارة ﴿مِثْلُ مَا﴾: الذي ﴿قَتَلَ مِنَ﴾: حرف يفيد جزء أو بعض ﴿النَّعَمِ﴾: والمقصود الإبل، والبقر، والضأن، والمعز الجزاء هنا على المتعمد، والذي نسي، فالقرآن قرّر على المتعمد، والرسول ﷺ في السُنّة دلّت على النّاسي؛ لأنّ القتل إتلاف، والحكم في الإتلاف على العمد والنسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ لا لوم عليه: فيه قولان: الأول: إذا كان المُحرمُ له ويملك مثل ما قتله فعليه أنْ يعتق من الحيوانات المستأنسة، وهذا رأي الجمهور، و الثاني: وجوب دفع القيمة المادية سواءٌ كان الصيد المقتول مثليًا عنده مثله أو غير مثلي ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا﴾: أصحاب ﴿عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: الذي سيحكم في المثل أو بالقيمة في غير المثل اثنان من المسلمين العدول.

هل يجوز للقاتل أنْ يكون حكمًا من الاثنين؟ فيه قولان: **الأول**: يقول مالك: لا؛ لأنّه قد يشكّ بعضُهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب، **والثاني**: يقول الشافعي، وابن حنبل: نعم يجوز؛ لأنّ عموم الآية لا تُفرّق ﴿هَدْيًا﴾: موهوبًا ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾: يصل إلى الكعبة، من الإرسال إلى مكّة والنحر هنالك، ولم يرد الكعبة بعينها، فإن الهدي لا يبلغ الكعبة، وإنما المقصود هو الحرم، ولا خلاف في هذا، أي يُفعل به ما يُفعل بالهدي يؤخذ إلى الحرم، ويُذبح هناك، ويُوزّع لحمه على مساكين الحرم ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية بين ما بعده بما قبله ﴿كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾: إذا لم يجد المُحْرِم مثل ما قتل من النعم والصيد ليس من ذوات الأمثال؛ فإنّ التخيير بين الجزاء والإطعام والصيام، وهذا قول الجمهور، ويقول مالك وأبو حنيفة وأصحابه: الترتيب أنْ يُحدد القيمة للصيد المقتول ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، هنا معادل الطعام ومقابله ﴿صِيَامًا لِيَذُوقَ﴾: حرف يفيد المعاناة بسبب كفره، والذوق أصله بوجود قليل من الطعام في الفم لمعرفة الطعم، هنا المقصود يشعر بقليل من العقوبة على ما أذنب ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾: ثقل فعله وسوءَ عاقبة ذنبه، جاءت كلمة الأمر هنا بمعنى الذنب ﴿عَفَا﴾: سامح وغفر ﴿اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾: العفو على الذي حدث في زمن الجاهلية، للذين أسلموا وحسُن إسلامهم ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم العاقل ﴿عَادَ﴾: إلى ارتكاب هذه المخالفة ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي يفيد هنا الجواب ﴿يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾: من عاد للقتل في

---

[1] صحيح مسلم /٢/٨٥٦(١١٩٨).

الإسلام، فينتقم الله ﷻ منه، وعليه كذلك كفّارة، هذا ذنبٌ بين العبد وربّه، يحتاج إلى فدية، ولكن لا دخل للإمام في عقابه، وإذا تكرر القتل وجب الجزاء، لا فرق بين الأولى والثانية ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فاعلموا أنّ ﴿اللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يُعجزهُ شيءٌ ﴿ذُو﴾: صاحب الوصف بالأسماء والصفات صاحب ﴿انْتِقَامٍ﴾: إنّ الله منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن خالفه أحدٌ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦)

﴿أُحِلَّ﴾: حلال ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾: ما يتم صيده من البحر طريًا من الحيوانات المائية مثل السمك والحيتان وغيرها، والبحر هو كلُّ مكان واسع جامع للماءِ الوفير، فيه صيدٌ بحريّ مثل النهر والغدير ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى حال ﴿طَعَامُهُ﴾: ما يتم تمليحه أو تجفيفه، وقيل كلُّ ما فيه، وقيل كلّ ما يخرج منه، وإنْ كان ميتًا ﴿مَتَاعًا﴾: جاء اللفظ القرآني متاع على أربعة وجوه، هنا بمعنى منفعة لكم. انظر [البقرة-٣٦] ﴿لَكُمْ﴾: تمتيعًا لمن كان مُقيمًا منكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: وأيضًا متاعًا للذين كانوا في حضرة البحر أو مسافرين عليه، وقيل لمن يصطاده من البحر، وزاد المسافرين النائين، أي المبتعدين عن البحر، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النبي ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ فَنَهَاهُ النبي ﷺ عَنْ قَتْلِهَا[1]. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَا تَقْتُلُوا الضَّفَادِعَ فَإِنَّ نَقِيقَهَا تَسْبِيحٌ[2]، ولقد أجمع العلماء على عدم تحريم أكل السمك الميت، للحديث الصحيح عن النبيﷺ قال: هو الطَّهورُ ماؤُهُ، الحلُّ مَيتَتُه[3]، وعن النبي ﷺ: أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ، فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ، فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ[4]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿حُرِّمَ﴾: تم تحريم ﴿عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾: ما يعيش على اليابسة ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾: وأنتم محرمين في وقت وحالة الإحرام، ويحرم صيد غير المحرم على المحرم إن صاده لأجله ﴿واتَّقُوا﴾: تجنبوا عذاب الله ﷻ ﴿اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ﴾: تعودون بالموت والبعث ﴿تُحْشَرُونَ﴾: يوم الحشر، يوم القيامة.

---

[1] سنن أبي داود /٤/٦(٣٨٧٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

[2] السنن الكبرى للبيهقي /٩/٥٣٤(١٩٣٨٢). وقال البيهقي: فَهَذَانِ مَوْقُوفَانِ فِي الْخُفَّاشِ وَإِسْنَادُهُمَا صحيح. أورده ابن حجر /٩/٦١٩ وقد ذكر حكم البيهقي على الحديث وسكت عنه.

[3] سنن أبي داود /١/٦٢(٨٣) وصححه الأرناؤوط.

[4] سنن ابن ماجت /٢/١١٠٢(٣٣١٤). صححه الألباني.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧)

﴿جَعَلَ﴾: خلق، وخصّص وصيّر **﴿اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾**: وفيه معانٍ عدّة، سُمّيت كعبة لأنّها مُربعة، وقد كانت معظم بيوت العرب مدّورة، وسميت كعبة لأنّها بارزة، فكل نُتوءٍ أو بروزٍ هو كعب، كان مستديرًا أو غير مستدير، ومنه كعب القدم، وثوب الفتاة إذا برز، ثم كعب ثديها **﴿الْبَيْتَ﴾**: سُمّيت بيتًا لأنّ للكعبة جدرانَ وسقفًا، وهذه حقيقة كلِّ بيتٍ، حتى وإنْ لم يسكنه أحدٌ، هذه صفة البيوت كلّها **﴿الْحَرَامَ﴾**: إنّ الذي حرّم الكعبة هو الله ﷻ، كما قال رسول الله ﷺ وليس النّاس، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا[١]، **﴿قِيَامًا﴾**: يقوم بالبيت أمر دينهم بالحج إليه والاعتمار ويقوم به أمر دنياهم بالأمن لمن دخله وجبي ثمرات ذلك، المقصود هنا لا يهتكون فيها حُرمةً؛ فكانت من هنا قيامًا للناس، قوامًا وإصلاحًا **﴿لِ﴾**: حرف تخصيص **﴿النَّاسِ﴾**: وإحياءً لدين البشر ودنياهم، فهي في أمور الدنيا، أيضًا في أمر الآخرة، وهي عبادةٌ، وتجارةٌ، يقوم النّاس فيها بالأعمال النافعة، ويقومون فيها بشرائعه وأحكامه ﷻ **﴿وَ﴾**: أيضًا جعل الله ﷻ **﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾**: والأشهر الأربعة الحُرُم هي ذو القعدة، وذو الحجّة، والمُحرّم، ورجب، كان العرب قد أجمعوا على حُرمة الأشهر الثلاثة، فقرر الله ﷻ حرمتها في قلوبهم، كانوا لا يُخيفون فيها نفسًا، ولا يطلبون فيها دمًا قُتل، ولا يتوقعون فيها ثأرًا، حيث كان الرجلُ يرى في الكعبة قاتلَ أبيه فلا يُؤذيه، كانت هذه الأشهر ثلث السنة، وهي أشهرٌ متتالية، فسحةً وراحةً، ومجالًا للسياحة، والتجارة، والأمن الذي هو طمأنينة النفس وزوال الخوف، والراحة، وكان شهر رجب يُعرف بشهر قريش، وكانوا يسمونه رجب الأصم لأنه لا يُسمع فيه صوتُ مديد السيوف، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: شَهْرُ اللَّهِ الْأَصَمُّ رَجَبٌ[٢]، **﴿وَالْهَدْيَ﴾**: هو ما يهديه النّاس من الأنعام إلى بيت الله الحرام، فيُذبح هناك، ويتمُّ التصدق بلحمه على الفقراء، وعلى أهل مكّة، وعلى القادمين إليها، كان هذا مألوفًا قبل الإسلام، فكان الرجل إذا نوى أنْ يحج للكعبة فَرَزَ من الإبل أو من الغنم قطعةً واحدةً أو أكثر، وقلدها، وضع فيها قلادة وسار بها إلى أنْ يصل إلى مكّة، ثم جعلها بين المساكين، فذبحها، ليأكلوا من لحمها، وقد استمر المسلمون على هذه العادة الحميدة؛ كانوا

---

[١] صحيح البخاري /٢/١٤٧(١٥٨٧).

[٢] مصنف عبد الرزاق الصنعاني /٩/٣٠٢(١٧٣٠١).

يُحددون الهَدي ثم إذا طافوا وسعوا نحروا ذبائحهم، ووزعوها على المستحقين، ولا يتحللون إلّا بعد ذبحها ﴿وَالْقَلَائِدَ﴾: يوجد اختلاف في تفسيرها: قيل إنّها القلائد التي تُوضع في أعناق البهائم المُهداة؛ لتحمي هذه البهائم من الاعتداء عليها وذبحها، فكان النّاس إذا رأوا القلائد؛ عرفوا أنّها مُهداةٌ إلى بيت الله الحرام، وهذا هو الرأي الأرجح، ومن الواضح أنّه لا تخلو النفس البشرية حتى في الجاهلية من الأخلاق الإنسانية ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، إشارة للبعيد ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَعْلَمُوا﴾: تعرفوا الحقيقة ﴿أَنَّ﴾: حرفٌ يفيد التأكيد ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: علم صاحب الكون ﴿مَا﴾: الذي من غير العاقل مثل الكواكب والنجوم ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَ مَا﴾: الذي ﴿فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ﴾: حرف يفيد التأكيد ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ بِكُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد التأكيد على العموم ﴿عَلِيمٌ﴾: ما من شيء في الكون إلّا يعلمه ﷻ.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨)

﴿اعْلَمُوا﴾: فعلُ أمرٍ بضرورةِ العلم وهذا تخويفٌ للنّاس، بلاغ للنّاس، ليعلموا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: إنّ عقاب الله ﷻ شديدٌ في الدنيا والآخرة، لمن خالف أمره، وتعدّى حدود دينه، وانتهك محارمه، ولم يتُب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾: يسامح ويعفو ﴿رَحِيمٌ﴾: يُشيع الله ﷻ الرجاء منه، والأمل، ليغفر ويرحم من يتوب؛ حيث إنّ جوهر العدل هو الإحسان لمن أحسن، والعقاب لمن أساء.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿عَلَى الرَّسُولِ﴾: ليس على محمدٍ رسول الله ﷺ، الهداية، ولا التوفيق، ولا الثواب ولا الجزاء ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء، وإنّما فقط عليه ﷺ ﴿الْبَلَاغُ﴾: وهو التوصيل ومن مصطلح البلاغة، هي إيصال المعنى، هو أمر الله ﷻ المقصود إلى النفس، في أحسنِ صورةٍ من اللفظ، وعندما يقول ﷻ: هَذَا بَلَاغ: فهي كافية؛ لأنّه يُبلّغ مقدار الحاجة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، إنّ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿تُبْدُونَ﴾: من بدا يبدو؛ أي يظهر، أنّه ﷻ مطّلعٌ على ما تظهرونه ﴿وَمَا﴾: أيضًا مُطّلع على الذي ﴿تَكْتُمُونَ﴾: ما تحتفظون في أنفسكم، وفي قلوبكم من كفرٍ، ونفاقٍ، فإن لم يمتثلوا ويطيعوا فما ضرّوا إلّا أنفسهم، وما جنوا إلّا عليها، أمّا الرسول ﷺ فقد فعل ما يجب عليه، وقام بما أمرهُ الله ﷻ به.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ أنْ يقول: ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَوِي﴾: لا يتساوى في الحكم والثواب والانتفاع به من العقلاء ﴿الْخَبِيثُ﴾: الفاسد، الضار، الكافر، العاصي، الرديء، الحرام ومصيرهُ إلى النّار ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال هنا، لا يتساوى مع ﴿الطَّيِّبُ﴾: الحلالُ، المؤمنُ، المُطيع، الجيّد، ما تقبله النفس وتستمتع به الحواس، النافع والمفيد والحلال، ومصيره إلى الجنّة ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد النفي ﴿أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: اخشوه، وتجنبوا غضبه ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول التي تعقل، وتفهم، وتقيّم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ولعل من الله تعني تأكيدًا إشفاقًا أنّكم ﴿تُفْلِحُونَ﴾: في الدنيا بالعيش الحلال، وفي الآخرة بالجنّة.

التكليف: إن خبيث الشيء يُبطل فائدته، ويمحق بركته، ويُذهب منفعته، عكس ما يُسببه الطيب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠١)

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ المِنْبَرَ فَقَالَ: «لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ» فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لاَفٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ، كَانَ إِذَا لاَحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الفِتَنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا رَأَيْتُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَاليَوْمِ قَطُّ، إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِي الجَنَّةُ وَالنَّارُ، حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الحَائِطِ فَكَانَ قَتَادَةُ يَذْكُرُ هَذَا الحَدِيثَ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة– ١٠١][1].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء الربّاني الخامس عشر للمؤمنين في هذه السورة، كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: أمر من الله ﷻ لعباده المؤمنين ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَسْأَلُوا﴾: تستفسروا من النبي ﷺ ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾: هذا من التأديب الربّانيّ، الذي يُخاطب الذين آمنوا، لا

---

[1] صحيح البخاري ٩/٥٣(٧٠٨٩).

تسألوا رسولكم عن أمورٍ لا تنفعكم، ولا تُغنيكم في أمر دينكم، ولا حاجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يُعينُكم في أمر دينكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُبْدَ﴾: تتضح حقيقتها وتعرفونها ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿تَسُؤْكُمْ﴾: أشياء لا فائدة لكم في معرفتها؛ لأنّ ذلك قد يؤذيكم، ويشق عليكم، وقد يسبب لكم الضرر، وعن عبدِ الله بنِ مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا يُبَلِّغني أحَد من أصحابي عن أحدٍ شيئًا، فإني أُحِبُّ أن أخرُجَ إليكُم وأنا سليمُ الصَّدرِ[1]. فقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن مصير آبائهم؛ فقال لهم في النّار؛ فشقّ ذلك عليهم، وكان قومٌ يسألون استهزاءً، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة-١٠١] حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا[2]، والله على ذلك قدير ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ﴾: في الوقت ﴿يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾: وحيًا ﴿تُبْدَ﴾: تتضح ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾: أي غفر الله ﷻ ما كان منكم قبل ذلك، لم يذكرها الله ﷻ، فاسكتوا عمّا سكت ﷻ عنها ﴿أو﴾: عطفًا على ما سبق يجب العلم يقينًا أنّ ﴿اللَّهُ غَفُور﴾: واسع العفو والمسامحة ﴿حَلِيمٌ﴾: صبورٌ عطوف.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢)

﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿سَأَلَهَا﴾: سأل عن هذه المسائل التي تسألون عنها، مما لا حاجة إليه، ولا تُوجبه الضرورة الدينية، ولكن عندما تم تكليفهم بها لم يطبقوها وما عملوا بها ﴿قَوْمٌ﴾: جماعةٌ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد بداية الغاية الزمانيّة، أي في الماضي ﴿قَبْلِكُمْ﴾: قبل بعثة محمد ﷺ؛ فأجابهم الله ﷻ، ثم لم يؤمنوا بها؛ لأنّهم لم يسألوا على سبيل الاسترشاد، بل على سبيل الاستهزاء، وهم النصارى، كما في حادث المائدة ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التباعد والتراخي ﴿أَصْبَحُوا بِهَا﴾: بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾: لما سألوا الله ﷻ وكلّفهم بها، لم يُطبقوها، فلم ينتفعوا بها، وبذلك عصوا الله ﷻ وكفروا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، ثُمَّ إِذًا لَا تَسْمَعُونَ، وَلَا تُطِيعُونَ، وَلَكِنَّهُ حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ[3].

---

[1] سنن أبي داود /٧/٢٢٤(٤٨٦٠) وضعفه الأرناؤوط والألباني.

[2] صحيح البخاري /٦/٥٤(٤٦٢٢).

[3] سنن النسائي /٥/١١١(٢٦٢٠). صححه الألباني.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿جَعَلَ﴾: لم يُشرّع ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ هذه الحالات التالية للمشركين ما ابتدعوه ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع؛ وهي الغاية المكانيّة ﴿بَحِيرَةٍ﴾: هي من الأنعام التي يتم قطع أذنها، ممن تُرك الانتفاع ببعضه، هي الناقة التي إذا ولدت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإنْ كان ذكرًا ذبحوه، وأكل منه الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى جدعوا أذنها، وسموها **بحيرة**، وقيل هي التي يهبون درّها لبنها للطواغيت، فلا يحلبُها أحدٌ من النّاس ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ونهي ﴿سَائِبَةٍ﴾: هي الناقة التي إذا ولدت عشر إناثٍ ليس بينهن ذكرٌ يتركوها، لا يقصّون وبرها، ولا يحلبوا لبنها إلّا للضيف، وقيل تُترك للآلهة، ولا يُحمل عليها أحد، فعَنْ أَبُي هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَالوَصِيلَةَ: النَّاقَةُ البِكْرُ، تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ، إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، وَالحَامِ: فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ المَعْدُودَ، فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَعْفَوْهُ مِنَ الحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الحَامِيَ[١]، ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ونهي ﴿وَصِيلَةٍ﴾: الناقةِ إذا أنجبت سبعةَ أبطنٍ، أنثى بعد أنثى نظروا إلى السابع؛ فإن كان ذكرًا فهو لآلهتهم وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإنْ كانت أنثى تركوها حيّة، وإنْ كان ذكرًا وأنثى توأم في بطنٍ واحدةٍ أبقوها حيّة، وقالوا وصلته أخته؛ فحرّمته علينا، وقيل الوصيلة من الغنم التي حملت عشر إناث في خمس أبطن توأمين توأمين، وقيل هي الناقةُ البكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بأنثى، يسيبونها للطواغيت، إنْ وصلت إحداها بالأخرى أنثى بعد أنثى ليس بينهما ذكر ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿حَامٍ﴾: هو فحلُ ذكر الإبل، إذا وُلد من صلبه عددٌ من الإبل، قيل عشرة؛ قالوا قد حمي ظهره؛ فلا يُركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء، أي يضرب الضراب المعدود عشرة، فإذا قضى ضرابه، تركوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلا يُحمل عليه شيء، وقد سموه الحامي ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: هم كفّار مكة، الذين أنكروا وغطّوا حقيقة الدين ﴿يَفْتَرُونَ﴾: يدّعون غير الحقيقة ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: هؤلاء يُشرّعون ما لم يشرّعه الله ﷻ؛ حيث حرّموا هذه الاشياء تدينًا وتعبدًا، والتي لم يُحرّمها عليهم الله ﷻ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾: أغلبيتهم العددية ﴿لَا﴾:

---

[١] صحيح البخاري /٦/٥٤(٤٦٢٣).

حرف نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: كلُّ أحكامهم باطلة، وتصوراتهم خاطئة، وحُجتهم داحضة، لا فائدة فيها.

التكليف: لقد ضيّق الكافرُ على نفسه خير الله ﷻ، فخسر خير الدنيا، وخسر ثواب الآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤)

﴿وَإِذَا﴾: حرفُ ربطِ ما بعدها مع ما قبلها ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾: إذا دعاهم أحدٌ من المسلمين تخصيصًا ﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا ﴿إِلَى مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: اسمعوا، واستوعبوا ما حرّم الله ﷻ في القرآن الكريم، سمعًا، وفهمًا، وتدبرًا، وتطبيقًا ﴿وَ﴾: أيضًا تعالوا ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾: إلى محمد ﷺ واسمعوا دين الله ﷻ، وشرعه، وما أوجبه، وما نهى عنه؛ حتى يستقيم فهمكم؛ وتنالوا ثواب الدنيا، وحُسن ثواب الآخرة ﴿قَالُوا﴾: كان ردُّهم ﴿حَسْبُنَا﴾: يكفينا ﴿مَا﴾: الذي ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: قالوا لن نؤمن بالقرآن، ولا بالرسول، ويكفينا دين الآباء والأجداد ﴿أَوَلَوْ﴾: حرف يفيد استحالة حدوث الفعل ﴿كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾: كيف يكفيكم شرع دين آبائكم الذين كانوا يجهلون، ولا يعلمون شيئًا، والوصف يعني أنّهم لا يعرفون أيّ شيء ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: لا يعرفون كيف يتبّعون الحق، أو يهتدون إلى الصواب؛ ويبقون على اتباع أهل الجهل، والضالين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصديق ﷺ: بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: **﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** [المائدة–١٠٥]، قَالَ: عَنْ خَالِدٍ، وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» وَقَالَ عَمْرٌو: عَنْ هُشَيْمٍ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»(١)، ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: هذا النداء السادس عشر للمؤمنين، حرفُ نداءٍ للتنبيه بتكليف للمؤمنين

---

(١) سنن أبي داود ٦/ ٣٢٤–٣٢٥(٤٣٣٨)

﴿عَلَيْكُمْ﴾: طاعة الله ﷻ، ألزموا ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾: أي ألزِموا أنفسكم الحق، تحفظوها من المعاصي وتهتدوا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّكُمْ﴾: لا يؤذيكم ضلال من ضلّ من الناس ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿ضَلَّ﴾: تاه وتنكب الطريق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿اهْتَدَيْتُمْ﴾: إذا اهتديتم للحق، أنتم من أنفسكم لن يضركم من بقي على الضلال ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: عودتُكم موتًا وبعثًا يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾: أنّ الذي اهتدى، والذي ضلّ، كلهّم عائدٌ إلى الله ﷻ؛ وستُعرض أعمالهُم عليه ﷻ؛ فيجازي خيرًا المهتدين، وشرًا الكافرين ﴿فَ﴾: حرفُ عطف يفيد هنا الجواب ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: يخبركم الخبر اليقين ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في حياتكم الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾: سيعرف كلُّ إنسانٍ صحيفة أعماله كاملةً.

التكليف: لا يعني هذا أنْ يتوقف المؤمن عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، في حدود الممكن، فلا يُكلّف الله ﷻ نفسًا إلّا وسعها، يقول ﷺ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِهِ[1]. والخلاصة أنّه إذا أمر المؤمن بالمعروف ونهى عن المنكر؛ فلن يَضرُّه الكافرُ أو المنافق بشيء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ (١٠٦)

سبب النزول: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ، «فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، ثُمَّ وُجِدَ الجَامُ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَحَلَفَا لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا، وَإِنَّ الجَامَ لِصَاحِبِهِمْ، قَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[2]، قال بعضهم إنّ هذه الآية منسوخة، والأغلب يقولون لم تُنسخ ﴿يَا أَيُّهَا﴾: هذا النداء الربّاني السابع عشر للمؤمنين في هذه السورة المباركة، كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم،

---

[1] سنن ابن ماجه /١٣٩/٥(٤٠٠٥). وصححه الأرناؤوط.

[2] صحيح البخاري ٤/ ١٣(٢٧٨٠).

وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ، نداء للتنبيه يشمل جميع الذكور والإناث مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: تكليفٍ للمؤمنين، وهو أمرٌ من الله ﷻ للمؤمنين ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشهادةُ هي قولٌ صادرٌ عن علمٍ حاصلٍ بالبصر أو بالبصيرة والمعنى شهادةُ بعضكم على بعض؛ المقصود هو شهادة اثنين، وقيل في الحضر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿حَضَرَ﴾: أوشك ﴿أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾: حانت لحظةُ موتِ الإنسان المسلم، وظهرت عليه علامات الموت، فليُشهد على وصيته ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾: في الوقت الذي يوصي فيه الذي هو على حافّة الموت ﴿اثْنَانِ ذَوَا﴾: اثنان، صاحبا الوصف بالأسماء والصفات ﴿عَدْلٍ﴾: أنْ يكونا من العُدُول، أهل دينٍ وإيمانٍ ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين، وقيل من أهل الذي سيُوصي ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية في الحكم ﴿آخَرَانِ مِنْ﴾: حرف يفيد التمييز ﴿غَيْرِكُمْ﴾: من غير المسلمين، من أهل الكتاب أو من قبيلةِ غير الموصي ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾: ضرب الأقدام في الأرض كناية عن المشي في السفر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في السفر ﴿فَ﴾: حرفٌ عطف على ما سبق، بسبب هذا ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾: حلّت بكم ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾: أوشك الإنسان على الموت، وهذا شرطُ أخذ شهادة الذميين؛ عندما لا يتوافر اثنان من الشهداء المسلمين، أو يكون ذلك في وصيّة، ومن الملاحظ أنّ الأئمة الثلاثة باستثناء بن حنبل قالوا لا تجوز شهادة أهل الذّمة على المسلمين، وهنا نناقش موقفين: الأول: رجلٌ معه مالٌ في سفرٍ ويوشك على الموت، فإنْ وجد رجلين مسلمين دفع إليهما ماله، وأشهد عليهما رجلين من المسلمين، و الثاني: أنْ يكونا شاهدين كما في الآية فإنْ لم يكن وصّيٌ ثالث، دفع إليهما المال، وتحقق فيهما الوصفان الوصية والشهادة ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾: فيها أقوال: من بعد صلاة العصر، صلاة المسلمين، وقيل صلاة أهل دينهما، يجتمع النّاس في الصلاة، ويقوم الاثنان ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾: يحلفان بالله ﷻ دون تأخيرٍ، وتوضيح السبب ﴿إِنِ﴾: حرف شرط ﴿ارْتَبْتُمْ﴾: إذا توجس وشكّ المسلمون فيهما، أنّهما خانا أو غلّا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿نَشْتَرِي بِهِ﴾: لا نبيع، فالبيع والشراء بمعنى واحد هنا؛ أي لا نبيع بإيماننا ﴿ثَمَنًا﴾: لا نقبل بعوضٍ قليلٍ من الدنيا الفانية المقصود مال الوصي والله أعلم ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد النفي ﴿كَانَ ذَا﴾: من أصحاب ﴿قُرْبَى﴾: أي كان المشهود عليه قريبًا لنا؛ فإنّنا لا نحابيه ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نَكْتُمُ﴾: نخفي عمدًا ﴿شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضيف اسم الله ﷻ تشريفًا وتعظيمًا لأمر الشهادة ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت بصيغة الجمع من

المؤمنين؛ للتعظيم ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء؛ أي نكون ﴿لَمِنَ﴾: تخصيصًا ﴿الْآثِمِينَ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، هنا بمعنى إذا حرّفنا الشهادة عن الشاهديْن الوصييْن أنّهما خانا، أو أخذا شيئًا من المال المُوصى به إليهما.

التكليف: تحضُّ هذه الآية الكريمة على الوصية، والاهتمام بها في السفر، وفي الإقامة.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٧)

﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿عُثِرَ﴾: تم التأكد ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: إذا تحقق وتيقن النّاس عن الشاهدين الوصيين أنّهما خانا، أو أخذا شيئًا من المُال المُوصي به إليهما ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا رابط لجواب الشرط ﴿آخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾: يُؤدّيان ﴿مِنَ﴾: حرف جرِّ لبيان وتمييز النوع يفيد بعض ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾: إذا تحققوا من خيانتهما إمّا بكذب في الشهادة، أو في اليمين، أو بظهور خيانة فليقم اثنان من أقرب الناس إلى الميت، من الورثة المستحقين للتركة ليكونا أول من يرث المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ﴾: أصدقُ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا التعليل أي السبب ﴿شَهَادَتِهِمَا﴾: يُقسمان فورًا، فيحلفان إنّ شهادتنا أصدقُ وأحقُ من شهادة الاثنين المتقدمة ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اعْتَدَيْنَا﴾: لم نعتد على أحدٍ في شهادتنا ﴿إِنَّا﴾: ضمير للاثنين الحاضرين المتكلميّن، وجاءت بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿إِذًا﴾: حرف جزاء ﴿لَ﴾: حرف تخصيص وجواب ﴿مِنَ﴾: حرف جرِّ لبيان وتمييز النوع ﴿الظَّالِمِينَ﴾: إذا ظهر أنّنَا افترينا على شهادة الأولين، وحلفنا زورًا، فنكون من المتجاوزين لحدود الله ﷻ.

التكليف: هذه الآية من الآيات التي تؤكد اهتمام القرآن الكريم بتفاصيل حقوق البشر.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٠٨)

هذه من الآيات التي توضح الحكم الشرعي لشهادة الشهود عند الوصية ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، ﴿أَدْنَى﴾: أقربُ، وأصحُّ، أي أنّ حلف الشاهديْن بعد الصلاة عند الشك في شهادتهما ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾: ذلك أقربُ إلى إقامة الشهادة على الوجه الصحيح، المقبول شرعًا ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية

في الحكم ﴿يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: الدافع عندهما للشهادة على وجهها الحق، هو الخوف من الحلف بالله ﷻ، مراعاةً لجلال وجهه ﷻ؛ والخوف من افتضاح أمرهم بين النّاس، إنْ رُدّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يقولون ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا من الله ﷻ، وأطيعوه في جميع الأمور ﴿وَاسْمَعُوا﴾: تأكيدٌ على ضرورة الطاعة، وسماع الحكم، والموعظة؛ ثم التنفيذ ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: يدلُّ على القول الحق، والفعل الصواب ﴿الْقَوْمَ﴾: جماعةً، أصحابَ مذهبٍ واحدٍ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين عن طاعته.

التكليف: تحدد الآيات الثلاث الأخيرة أحكام الوصية، الأولى الحض على الوصية في السفر وفي الإقامة، والإشهاد عليها؛ لإثباتها وتنفيذها، والأصل في الشاهدين أن يكونا مسلمين عدلين، جواز شهادة غير المسلم؛ للضرورة أو الحاجة، جاءت الكتابة في هذا العصر الحديث لتكون الوصية مكتوبةً وموقعًا عليها من أطرافها، وبتوقيع الشهود، أيضًا بتسجيلها في مكاتب رسمية متخصصة لتُحققها، إضافةً إل سهولة تصويرها والاحتفاظ بها.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩)

﴿يَوْمَ﴾: جاءت الكلمةُ منصوبةً على الظرفية لفعلٍ محذوفٍ تقديرهُ اذكروا أو احذروا يوم القيامة ﴿يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾: هنا تذكيرٌ للخلق بيوم القيامة، حيث يجمع الله ﷻ الرسل عليهم السلام ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿يَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: ماذا قالت لكم الأمم التي أُرسلتم فيها، هنا طلب شهادة، وليس طلب علم ﴿قَالُوا لَا﴾: حرف نفي ﴿عِلْمَ لَنَا﴾: نحن لا نعلم شيئًا؛ من هول ذلك اليوم، حيث ذهلت العقول، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾: وفوضوا الأمر إلى الله ﷻ؛ لأنّه علّام الغيوب، وقيل إنّه بعد إنزالهم منزلًا آخرَ قالوا أنت أعلم به منّا، من باب التأدب مع الله ﷻ، إنّ علمنا قاصرٌ أمام علمك المحيط بكلّ شيء، فأنت ﴿عَلَّامُ﴾: صيغة تفيد الإحاطة الكاملة بالعلم ﴿الْغُيُوبِ﴾، جمع غيب، وهي الأمور غير المعلومة، وغير المرئية، وغير المسموعة لك، لن يقول الله ﷻ لكم ما في الغيب في خلقه إلّا ما يريدُ بالأسباب الكاشفة.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ

﴿الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١١٠)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى بمعنى حين ﴿قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ﴾: في نفسك وللنّاس ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾: ذكّره الله ﷻ نعمته عليه وعلى أمّه؛ بما خصّهما ﷻ من الكرامة، وميزهما من علو المقام، نعمة خلقك من أمٍّ بلا أب، آيةٌ ودليلٌ قاطعٌ على كمال القدرة ﴿وَ﴾: أيضًا أذكر نعمتي ﴿عَلَى وَالِدَتِكَ﴾: واذكر نعمتي على أمّك إذ أنطقْتك لتبرّئها مما نسبه الظالمون لها من فاحشةٍ، ونعمة اصطفائها على نساء العالمين في زمانها، وفي هذ توبيخُ لمن اتخذهما إلهين، وفي ذلك دليل قاطع على كمال قدرة الله ﷻ في خلقه ﴿إِذْ﴾: حدث في الماضي بمعنى حين ﴿أَيَّدْتُكَ﴾: ساندتك ودعمتك، وتعني أنك فعلتها باليد؛ أي بالقوة الشديدة ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: شددت أزرك بجبريل، ﵇، فجعلتك نبيًّا في صغرك وكبرك ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾: عموم بني آدم ﴿فِي الْمَهْدِ﴾: وكلّمت النّاس وأنت رضيعٌ صغيرٌ، أنطقتك في المهد ﴿وَكَهْلًا﴾: في زمن اكتمال قوتك، وفيها تُبلّغ رسالة ربّك ﴿وَإِذْ﴾: تحقق في الماضي ﴿عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾: تعلمت الكتابة، تكتب، وتحفظ، وتفهم الإنجيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: هي الكلام المحكم ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾: الكتاب الذي نزل على موسى ﵇ من قبل، وهم من نسل آل عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: تكريمًا لك وللمؤمنين بك ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾: تُصوّر وتُشكّل وتقدر ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، و يفيد هنا جزء أو بعض ﴿الطِّينِ﴾: وهو اختلاط التراب بالماء، بإذن الله ﷻ، جاء اللفظ القرآني الخلق على سبعة أوجه، هنا بمعنى التصوير كما في [النحل–٢٠] ﴿كَهَيْئَةِ﴾: شكل، وجسم، وأعضاء ﴿الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾: تفيد الجواب والجزاء هي كلمةٌ من الله ﷻ، ليس لعيسى ﵇ فيه فعلٌ إلا مجرد الامتثال لأمر الله ﷻ ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾: في الهيئة المصورة على شكل الطير ﴿فَـ﴾ حرف يفيد هنا الجواب ﴿تَكُونُ﴾: تصير ﴿طَيْرًا﴾: يطير كالطيور ﴿بِـ﴾: حرف باء السبب ﴿إِذْنِي﴾: تفيد الجواب والجزاء بأمري ﴿وَتُبْرِئُ﴾: تشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾: تجعل الذي ولد أعمى مُبصرًا ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾: الذي يُصاب بأمراضٍ في جلده؛ يصير فيه الجلدُ أبيضًا؛ فيعيده إلى لونه الطبيعي ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾: تفيد الجواب والجزاء تدعوهم، فيقومون من قبورهم بإذن الله وإرادته ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾: أبعدتهم عنك، حفظتك وحميتك منهم حين همّوا بقتلك ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: اليهود وقد أبعدتهم ﴿عَنْكَ﴾: حرف يفيد المجاوزة ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِـ﴾: حرف باء التعددية ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: بالمعجزات الواضحات، حين كذّبوا رسالتك، ولم يؤمنوا بالحُجج القاطعة على نبوتك وهموا بقتلك في

الماضي ﴿فَ﴾: حرفُ يفيد هنا الاستئناف ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾: الذين غطّوا وأنكروا الحقائق حولك، وكفروا بالله ﷻ، وبرسالة عيسى ﵇، كذبوا وقالوا ﴿إِنْ﴾: ما ﴿هَذَا إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: تهموك أنّك ساحرٌ، وشرعوا في قتلك؛ فنجيتُك، ورفعتُك إليّ، وطهرّتُك من دنسهم، وقد تكون هذه المنّة الربّانيّة على عيسى ﵇ وهو في الدنيا، وقد تكون هذه المنّة يوم القيامة، جاءت بصيغة الماضي؛ دلالةّ على صدق وقوعها.

التكليف: هذه دعوةٌ ربّانيةٌ في مناسبة ذكر عيسى ﵇، يجب أنْ يشعر بها كلُّ إنسانٍ، فيرى ما فيها من نعمةِ العافيةِ، والمال، والأسرة وغيرها، فليتذكر الإنسان دائمًا نعم الله ﷻ عليه.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (١١١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلّ على ما مضى بمعنى عندما ﴿أَوْحَيْتُ﴾: هو وحي إلهام، كما جاء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص-٧]، وجاء أيضًا: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل-٦٨]، حيث وضع الله ﷻ فيهم فطرة العيش في الجبال ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: أنصار وتلاميذ عيسى ﵇ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿آمِنُوا بِي﴾: ألهمهم اللهُ ﷻ بذلك؛ فاستجابوا لما ألهمهم الله ﷻ، بما ألقى في قلوبهم ﴿وَ﴾: أيضًا آمنوا ﴿بِرَسُولِي﴾: يؤمنوا بعيسى ﵇، رسولًا من عندي ﴿قَالُوا آمَنَّا وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اشْهَدْ بِأَنَّنَا﴾: نحن بالتأكيد ﴿مُسْلِمُونَ﴾: قد أوحى الله ﷻ إلى عيسى ﵇ أنْ يقول لقومه ما علم، وألهم قومه؛ فاتبعوه.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

﴿إِذْ﴾: ظرف يدلُّ على ما حدث في الماضي من الزمن ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾: هم أتباع عيسى عليهم السلام ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب، هنا ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ﴾: حرف استفهام بغرض التشكيك ﴿يَسْتَطِيعُ﴾: قيل هي بمعنى هل يرضى وفي هذا أدبٌ وفيها إقرارٌ بقدرة الله ﷻ، وقد يكون المعنى غير ذلك إذا جاءت من بعض المتشككين عندما يسألون عن استطاعة الله ﷻ، ولفظ ربّك وكأنّ لهم ربًّا آخر، وهو الذي إذا أراد شيئًا قال له كنْ؛ فيكون، فهي الكلمة التي قيلت لموسى ﵇ ﴿رَبُّكَ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لهذا لكون البديع من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو ﷻ الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، وفي الخطاب استخدامُ

كلمةٍ تدلُّ على ضعف إيمانهم، وقلّة فهمهم لحقيقة العبودية لله ﷻ، الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فيها سوءُ لفظٍ، وسوءُ أدبٍ؛ وهذا من ضعف إيمانهم، ولم يقولوا ربّنا، وقيل سألوها من فقرٍ، والله أعلم ﴿أَنْ﴾: حرف يفيد تأكيد الفعل ﴿يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾: هي وعاءٌ كبيرٌ خوان عليه طعام، صينية أو طبلية، لم يطلبوا رزقًا من الأرض، بل طلبوا؛ تعجيزًا أنْ يُنزّل عليهم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿السَّمَاءِ﴾: هو كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها لكونها بيضاوية الشكل ﴿قَالَ﴾: عيسى ؑ، متأذيًا من سوءِ أدبهم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: تجنبوا غضب الله ﷻ ولا تسألوه هكذا، فقد تكون استجابته لكم فتنة لكم، فتُحاسبون عليها إذا عصيتم بعدها، طالبهم مخافة الله ﷻ بوعي؛ طمعًا في رحمته، وانتهاءً لهم عن معصيته بوعي، خوفًا من عذابه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: معيار إيمانكم هي تقوى الله ﷻ، فاظهروا التقوى خيرًا لكم، هذه صورةٌ جليّةٌ من صفات المنافقين والكافرين، قلّة الأدب في المخاطبة.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣)

﴿قَالُوا﴾: أفصحوا عن نيات جديدة ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾: حرف تأكيد، نحن محتاجون إلى الطعام بعد السير في الطريق الطويل، لا يريدون تعميق الإيمان بل ملأ البطون ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: هذه ثانيًا: لزيادة اليقين؛ ستثبت كمال إيماننًا بكمال قدرة الله ﷻ عندما نراها تنزل من السماء في آيةٍ، مُعجزةٍ ﴿وَنَعْلَمَ﴾: أيضًا نعلم علم يقين ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿صَدَقْتَنَا﴾: فيما قلت سابقًا، وهذا ما يُدلّل حتى هذه اللحظة على شكّهم في رسالة عيسى ؑ، ونبوته رغم المعجزات التي عرفوها في خلقه من أمٍّ بلا أبٍ، وكلامه وهو في المهد، وغيرها ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾: في المستقبل ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿الشَّاهِدِينَ﴾: نشهد أنّه ﷻ استجاب لك، ونشهد أنّ الله ﷻ أرسل إلينا آيةً من عنده على نبوتك، ونقول بصدقٍ ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤)

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ﴾: معنى اللهم: اسم بصيغةِ نداءٍ ودعاءٍ، مثل يا الله، حذف منها حرف النداء، واستُبدل بحرف ميم مُشدّدة ﴿رَبَّنَا﴾: تعني كلمةُ الرب: هو الخالق، والرازق،

والمربي ومالك الأمر كلّه ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل؛ استجاب عيسى عليه السلام لطلب النّاس وقد استخدم لفظ ﴿رَبَّنَا﴾؛ تقربًا وتذللًا لله سبحانه وتعالى، وطالبًا من الله سبحانه وتعالى ما طلبه قومه أنْ تنزّل مائدةٌ الطعام من السماء ﴿تَكُونُ لَنَا﴾: حرف تخصيص ﴿عِيدًا﴾: جاء الاسم العيد؛ لأنّه يعودُ في كلِّ عامٍ؛ يوم سرورٍ وفرحٍ، يومًا نعظّمه، قال السدي: يكون يوم نزولها عيدًا نعظّمه نحن، قال سفيان الثوري: يكون يومًا نصلّي فيه ﴿لِأَوَّلِنَا﴾: لآبائنا ولنا ﴿وَآَخِرِنَا﴾: ولمن بعدنا، وقيل كافيًا لأولنا وآخرنا ﴿وَ﴾: أيضًا تكون ﴿آَيَةً﴾: دليلًا، وبرهانًا وحجّةً واضحةً على كمال قدرتك، وصدق إرسالك للرسل ﴿مِنْكَ﴾: لنا، يدلُّ على قدرتك على فعلِ كلِّ شيءٍ، ويؤمنوا أنّي رسولك؛ فيصدقوني فيما أبلغهم به بعد ذلك ﴿وَارْزُقْنَا﴾: أيضًا أكرمنا بكلّ ما يحتاج إليه الإنسانُ لبدنه، وحياته، وأهله ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: وأنت خير من يرزق، رزقًا من عندك بلا تكلفةٍ، ولا تعبٍ.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥)

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾: استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء عيسى عليه السلام، وقيل إنّها نزلت يوم الأحد، فاتخذوا اليوم عيدًا لهم ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا الذي ﴿يَكْفُرْ﴾: يُنكر ويُغطي ﴿بَعْدُ﴾: نزول المائدة ﴿مِنْكُمْ﴾: من سينكر ويُغطي حقيقة أنّ الله هو الربُّ سبحانه وتعالى وأنّ عيسى نبيٌّ بعد هذه الحادثة ﴿فَ﴾: حرف عطف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا﴾: حرف نفي ﴿أُعَذِّبُهُ أَحَدًا﴾: سيكون الجزاءُ من جنسِ العمل، الطلب بنزول مائدة عمل خارق للبشر، وإذا تم إنكاره سيكون العقاب قاسيًا، لم يشهده أحدٌ من خلق الله سبحانه وتعالى من قلبكم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْعَالَمِينَ﴾: قيل من زمان عيسى عليه السلام، الدليل على ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر-٤٦]، أيضًا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء-١٤٥]، وعزز هذا المعنى الحديث الموقوف: عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، أُنْزِلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا، وَأُمِرُوا أَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا لِغَدٍ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ[1]، وعَنْ عَبْدِ

---

[1] سنن الترمذي /٥/٢٦٠(٣٠٦١) وقال حديث غريب. رواه مرفوعًا ورجح رواية الموقوف على المرفوع.

اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا ثَلاثَةٌ: الْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَآلُ فِرْعَوْنَ[1].

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: يُلَقَّى عِيسَى حُجَّتَهُ وَلَقَّاهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة-١١٦] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقَّاهُ اللَّهُ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة-١١٦] الآيَةَ كُلَّهَا[2]، ستقف الخلائق أمام الله ﷻ، ويُخاطب ربُّنا ﷻ عبده ورسوله عيسى بن مريم ﵇ بحضرة الذين اتخذوه وأمّه إلهين من دون الله ﷻ، وهذا هو الأرجح ﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يُدلُّ على ما مضى ﴿قَالَ اللَّهُ﴾: ﷻ مخاطبًا نبيّه ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ مُخصصٍ للقريب هنا هو ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ﴾: حرف الألف يفيد الاستفهام بغرض الاستنكار ﴿أَنْتَ قُلْتَ﴾: هل أنت قلت؟ يسأل الله ﷻ وهو ﷻ يعلم، هل قال عيسى ﵇ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿اتَّخِذُونِي﴾: آمنوا وجعلوني ﴿وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾: معبودين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: يسأل الله ﷻ وهو أعلم بقصد توبيخ النصارى الذين سالوا نتيجة شكّهم وشركهم؛ هذا تهديدٌ، وتوبيخٌ، وتقريعٌ على رؤوس الخلائق أجمعين، قال السدي، وابن جرير: هذا السؤال والجواب في الدنيا حين رفعه الله ﷻ إلى السماء، سواءٌ أكان ذلك في الدنيا أو في الآخرة؟ فالله أعلم ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾: والقائل عيسى ﵇، مُنزهًا الله ﷻ عن النقائص، مُنكرًا أنْ يدعى أنّه وأمّه إلهين من دون الله ﷻ، بل هما من عباده، وهو رسوله، وأكمل عيسى قائلًا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿يَكُونُ لِي﴾: لا يجوز ولا يجب ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿أَقُولَ مَا﴾: الذي ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿لِي﴾: تخصيصًا ﴿بِحَقٍّ﴾: لا يجب أنْ أقول هذا الادعاء الذي هو غير صحيح، وهذا من أدب عيسى ﵇، وإقراره بالحق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه

---

[1] تفسير الطبري /٩/١٣٢(١٣٠٧٧) موقوفًا.

[2] سنن الترمذي ٥/ ٢٦٠(٣٠٦٢) وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقع على الفعل الماضي ﴿عَلِمْتَهُ﴾: إذا صدر منّي هذا القول فأنت علمته؛ لأنّك لا يخفى عليك شيءٌ في الأرض، ولا في السماء، ما قلته، ولا حدّثت به نفسي، ولا أضمرته؛ لأنّك ﴿تَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿فِي نَفْسِي﴾: إنْ كُنت حدّثت بها، فأنت تعلم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا أنا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿فِي نَفْسِكَ﴾: سبحانك أنْ يعلم ما في نفسك بشرٌ، وهذا من وسائل دحض أكاذيبهم. **تعريف النفس:** والنفس هي الذات، هي كائنٌ ماديٌّ محسوسٌ يسري عليه الإمساك ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الزمر-٤٢]، والإرسال، وليس في هذا مجاز، إنّ النفس تُقبض حين النوم، ويصعد بها الملائكة، ويؤخذ منها عملها، ثم ترد إلى الأجساد فتستيقظ، إنّ النفس هي الإنسان، وليس الجسد المادي، وللعقل قوامة على النفس؛ قال ﷻ ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس-٩، ١٠]. وهنا نذكر أنواع النفوس: منها: ﴿**النفس المطمئنة**﴾: في قوله ﷻ ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر-٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠]. ﴿**النفس اللوامة**﴾: في قوله ﷻ ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة-١، ٢]. ﴿**النفس الأمارة بالسوء**﴾: في قوله ﷻ ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [يوسف-٥٣]. **النفس التي تسوّل، وتزين:** في قوله ﷻ ﴿**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**﴾ [طه-٩٦]. **النفس التي تتبع الهوى:** في قوله ﷻ ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم-٢٣]، في قوله أيضًا ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ**﴾ [النازعات-٤٠]. إنّ مصير النفس أنّها تهلك وتموت، وفي النفوس كلُّ صفات الإنسان: الفجور، والتقوى، والشُح، والهوى، واللوامة، والمطمئنة، والأمارة بالسوء ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بكلِّ تأكيد ﴿أَنْتَ﴾: بالتحديد والتأكيد ﴿عَلَّامُ﴾: صاحب العلم الكامل ومن أدب عيسى ﷺ، أنْ يُخاطب الله ﷻ باسمٍ من أسمائه الدالّة على الحدث، **علّام** وهي صيغة المبالغة في العلم؛ فهو الأعلم، إنّ

الآية توضح سفه عقول القوم، بادعاءات منهم ليس لها دليل ﴿الْغُيُوبِ﴾: وهو كل ما غاب عن وسائل الإدراك في الحاضر والمستقبل.

التكليف: والتقدير حول القول أنْ يكون يوم القيامة لعيسى ﵇، وقد يكون القول عند رفعه إلى السماء، لمّا قالت النصارى فيه ما قالت، وقد يكون القولُ بقصد تعريف المسيح، ﵇، بأنّ قومهُ قد غيّروا بعده وبدلوا، والله أعلم.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿قُلْتُ لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: حرف يفيد المصدر؛ بمعنى الذي ﴿أَمَرْتَنِي بِهِ﴾: قلت لهم فقط ما أبلغتني أنْ أقول لهم ﴿أَنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أطيعوا الله ﷻ، واعملوا على تحقيق أوامره، وانتهوا عن نواهيه لأنّه ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري كلّه ﴿وَرَبَّكُمْ﴾: هو مالككم، ومالك كلّ شيءٍ ﴿وَكُنْتُ﴾: أنا ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾: كنت عليهم رقيبًا ﴿مَا دُمْتُ﴾: ما بقيت ﴿فِيهِمْ﴾: مدة حياتي معهم ﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع والسبب ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾: معنى الوفاة هنا(١) رفعتني إلى السماء وليست الوفاة بمعنى الموت، بل عيسى ﵇ باقٍ في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا؛ حتى ينزل الأرض آخر الزمان.(٢) وقيل هي الموت الحقيقي، القبض للروح وبعدها رفعهُ اللهُ ﷻ إليه؛ تكريمًا، ورفعًا لشأنه. القبض للروح ﴿كُنْتَ أَنْتَ﴾: سبحانك ﴿الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: وهو ما فسره محمد ﷺ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء-١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: **﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾** [المائدة-١١٧] إِلَى قَوْلِهِ **﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [البقرة-١٢٩](١). ﴿وَأَنْتَ﴾: سبحانك ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد عموم الأشياء ﴿شَهِيدٌ﴾: تشهد أعمالهم، وأقوالهم إنْ تعذبهم؛ فإنّهم عبادك، وإنْ تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

التكليف: هذا المشهد يجب أنْ يُمارس في الحياة، قولُ الحق، ونفي أكاذيب المجرمين.

---

(١) صحيح البخاري /٤/١٣٩(٣٣٤٩).

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨)

يرد عيسى عليه السلام، المشيئة لله ﷻ، ويتبرأ عليه السلام من النصارى؛ فيقول ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُعَذِّبْهُمْ﴾: إن تُعذّبْ من مات على الشرك ﴿فَـ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿إِنَّهُمْ﴾: فهم بالتأكيد ﴿عِبَادُكَ﴾: ملك يمينك، يقول عيسى عليه السلام لله ﷻ: إنْ أردت عذابهم فهم عبادك، وأنت العدل ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَغْفِرْ﴾: تعفو وتسامح ﴿لَهُمْ﴾: إنْ تسامحهم وتتجاوز عن سيئاتهم وتدخلهم الجنّة ﴿فَإِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتحديد ﴿أَنْتَ﴾: بالتأكيد، تُؤكد الكلمات إنّك، أنت، متتالية أنّه لا أحد غيرك ﴿الْعَزِيزُ﴾: الغالب الذي لا يغلبه أحدٌ، صاحب الجاه، والعظمة، الذي لا تطاله كلمات الكفّار، تصنع في عبادك ما تشاء، وتحكم فيهم ما تريد، القادر على ذلك ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يفعل الصواب في كلّ أحكامه، وكلّ أقواله ﷻ، هذه الآية لها شأنٌ عظيم، ونبأٌ عجيب: قام بها رسول الله ﷺ ليلةً حتى الصباح يُرددها، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة-١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ، تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا قَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا[١]. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم-٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة-١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ[٢]. وفي حديثٍ آخرٍ، وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سبعين أَلْفًا وَثَلَاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي[٣].

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩)

---

[١] مسند أحمد /٣٥/٢٥٦(٢١٣٢٨). وحسنه الأرناؤوط

[٢] صحيح مسلم /١/١٩١(٣٤٦).

[٣] مسند أحمد /٣٦/٦٣٩(٢٢٣٠٣). قال الأرناؤوط: صحيح؛ وهذا إسناد حسن، وكذلك الترمذي حسنه فقال في سننه: /٤/٢٠٤(٢٤٣٧) حسن غريب.

أسباب النزول: يُجيب الله ﷻ عبده ورسوله عيسى بن مريم بعد أن تبرأ عيسى من النصارى الملحدين الذين كذبوا على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ، وبعد أنْ رد عيسى عليه السلام، المشيئة لله ﷻ في شأنهم ﴿قَالَ اللَّهُ﴾: ﷻ ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب ﴿يَوْمُ﴾: يوم القيامة ﴿يَنْفَعُ﴾: يُفيد ﴿الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: ينفع الموحدين توحيدُهم، وتنفع المخلصين نياتهمُ، وأعمالُهم، وأقوالُهم لله ﷻ ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: من نعم الله ﷻ، فيها كلُّ مظاهر الجمال من الجنّات والمياه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: الأبد عبارة عن مُدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان؛ أي ماكثين فيها بلا زوال ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: بما عملوا من الطاعات الخالصة لله ﷻ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما جزاهم به مما لم يخطر لهم على بالٍ، ولم تتصوره عقولهم. عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثُمَّ يَقُولُ: سَلُونِي أُعْطِكُمْ قَالَ: فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَى، فَيَقُولُ: رِضَائِي أُحِلُّكُمْ دَارِي، وَأُنِيلُكُمْ كَرَاسِيَّ، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ قَالَ: فَيَسْأَلُونَهُ قَالَ: فَيُشْهِدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَا يَخْطِرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ: وَذَلِكُمْ مِقْدَارُ انْصِرَافِكُمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ثُمَّ قَالَ: يَرْتَفِعُ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ، وَهِيَ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ لَيْسَ فِيهَا فَصْمٌ وَلَا قَصْمٌ، أَوْ دُرَّةٌ حَمْرَاءُ، أَوْ زَبَرْجَدَةٌ خَضْرَاءُ فِيهَا غُرَفُهَا وَأَبْوَابُهَا مُطَرَّزَةٌ، وَفِيهَا أَنْهَارُهَا وَثِمَارُهَا مُتَدَلِّيَةٌ قَالَ: فَلَيْسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا إِلَى رَبِّهِمْ نَظَرًا، وَلِيَزْدَادُوا مِنْهُ كَرَامَةً[1]. ﴿ذَلِكَ﴾: اسم للمفرد المذكر البعيد، كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، إشارة للبعيد القادم ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: هذا الفوز والنجاح الذي لا أكبر منه فوز ولا أعظم: وجاء في المعنى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات-٦١]، وقال ﷻ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين-٢٦].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢٠)

﴿لِلَّهِ مُلْكُ﴾: هو ﷻ صاحب ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا هو ﷻ صاحب ومالك ﴿الْأَرْضِ﴾: لأنّه الخالق لها، المالك لها، المُتصرفُ فيها، القادرُ عليها، الجميع ملكه، وتحت قهره، وقدرته، ومشيئته، لا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد، ولا ولد، ولا صاحبة، لا إله غيره، ولا ربّ سواه ﴿وَمَا﴾: والذي من جنس غير العاقل، كالنجوم، والأجرام، والكواكب ﴿فِيهِنَّ﴾: من كلِّ ما فيها من المخلوقات،

[1] مصنف ابن أبي شيبة /٤٧٧/١(٥٥١٧). قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء/٤١٥/١(٤٧١): فيه ليث ويزيد ضعيفان.

كلّهن ملك له ﷻ، وليس له والدٌ ولا ولد ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: لن يحتاج من الخلق إلى نصير ينصره ﷻ. جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: قدرته بلا حدود ولا سدود. قال ابن وهب: كانت المائدة آخر سورة نزلت.

التكليف: هذه الآية الأخيرة تبرهن بما لا يدعُ مجالًا للشكّ على ألوهية وربوبية الله ﷻ أنّه المستحق بالعبادة دون سواه، وهذا من مجمل السورة المباركة.

ترتيبها 6 — **سُورَةُ الأَنْعَامِ** — آياتها 165

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ليس لهذه السورة إلّا هذا الاسم من عهد رسول الله ﷺ، وكذلك ثبتت تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة. نزلت سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفًا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد، ووجه التسمية: وسميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ (الأنعام) ست مرات، وهي مكّية بالاتفاق إلّا ستّ آيات منها، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ نزلت على سورةُ الأنعام جملةً واحدةً، يُشيّعها سبعون ألف ملك، لهم زجلٌ بالتسبيح والتحميد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١)

﴿الْحَمْدُ﴾: صيغة الحمد هنا تفيد أنّ الثناء والشكر باللسان على المحمود بصفات الجمال والكمال مقصورٌ على الله ﷻ؛ فكان في هذه السورة الحمد لله؛ للدلالة على أنّ الحمد كلّه لله، ولإقامة الحُجة على الذين هم بربهم يعدلون ﴿لِلَّهِ﴾: يمدحُ اللهُ ﷻ نفسه الكريمة؛ بالكمال المُطلق، والثناء الأحسن ﴿الَّذِي﴾: أسمٌ موصولٌ بالمفرد، وهو هنا الله الواحدُ الأحدُ ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غيرِ سابقِ وجود ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَالْأَرْضَ﴾: وحمده أيضًا على خلق الأرض؛ لتكون قرارًا لعباده ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿جَعَلَ﴾: سخّرَ وأبدعَ وأنشأ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾: جعل الظلمات هي سواد الليل، وظلمة الكفر ﴿وَالنُّورَ﴾: ونور الإيمان، وضياء النهار، وهو بسبب ضياء الشمس، ولم تكن من قبل، جعل النور ومصدره الشمس منفعةً للشجر، والإنسان، وجعل ﷻ الليل سكنًا وراحةً للخلق، قال ﷻ الظلمات بالجمع، ووحّد لفظ النور؛ لأنّه أشرف وأكرم، وأنفع، وفي الكلمتين طباق ﴿ثُمَّ﴾:

حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي، خبرًا بعد خبر، وليس الترتيب الزماني، ومع ذلك فإنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: غطّوا وأنكروا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿رَبِّهِمْ﴾: هو المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمر الخلق كلّه، رغم هذا يكفرُ بعضُ العباد بربهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يُساوون به ﷻ غيره فيعبدونهم معه ﷻ؛ يكذبون عندما يجعلون معه ﷻ شريكًا، ومساويًا.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (٢)

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا الله ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول بالفرد الواحد الأحد، هو الله ﷻ ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من غير سابق وجود، خلق أباكم آدم عليه السلام، ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿طِينٍ﴾: وهو اختلاط التراب بالماء، الذي هو أصلكم، ثم انتشرتم في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي؛ للدلالة على خبرٍ يأتي بعد خبر، وليس ترتيب زمان بعد زمان ﴿قَضَى﴾: قدّر وقرّر ﴿أَجَلًا﴾: الأجل الأول هو أجلُ الإنسان، موعدًا ونهاية ﴿وَ﴾: أيضًا قضى ﴿أَجَلٌ﴾: الأجلُ الثاني هو أجل الحياة الدنيا، وهو يوم القيامة، هو المدّةُ الزمنيةُ المُحددةُ لها، ويقال للمدة المحددة لحياة الإنسان أجل، فيقال دنا أجله؛ عبارة عن دنو الموت، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام-٢] قَالَ: هُمَا أَجَلَانِ أَجَلُ الدُّنْيَا، وَأَجَلٌ فِي الْآخِرَةِ مُسَمًّى عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ،[(١)]، وقال: الحسن: ما بين أنْ يُخلق إلى أنْ يموت عمره، أي حياته، أي عمر الإنسان موعدُ مصير، فالأول هو البقاء في الدنيا أجلًا، والثاني البقاء في الآخرة أجلٌ ﴿مُسَمًّى﴾: يعني ما بين أنّ يموت إلى أنْ يُبعث يوم القيامة؛ أي حدّد عمر الدنيا ﴿عِنْدَهُ﴾: عند الله ﷻ لا يعلمه غيره ﷻ ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير السريع؛ بتقديم الخبر الثاني على الخبر الأول ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَمْتَرُونَ﴾: ومع كل هذا أنتم تشكّون في قدرته ﷻ على بعثكم يوم القيامة مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتهاء، فيمكن القول إن الأجل الأول هو من يوم المولد في الدنيا إلى الموت، والأجل الثاني ما بين موته إلى يوم بعثه من القبر.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٣٤٤(٣٢٢٧) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم. والحديث موقوف.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر وهنا المقصود هو الواحد الأحد ﴿اللَّهُ﴾: المعبود والإله المالك المتصرف، يعبده كلُّ مَنْ وما ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَ﴾: أيضًا هو تعالى المتصرف ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: يعلم سرّكم، وجهركم، هو الذي يعبده ويدعوه كلُّ الخلق، ويوحدونه، ويقرون به، هو الإله في السموات والأرض، ويعرفونه بأنه الله، وهو الذي سمّى نفسه الشريفة ﷻ، إلّا من كفر من الإنس والجن، جاء في المعنى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف-٨٤]، وتعني هو إلهُ كلِّ مَنْ في السموات وكلِّ من في الأرض ﴿يَعْلَمُ﴾: لا يغيب عن علمه شيءٌ في السموات وفي الأرض مِن ﴿سِرَّكُمْ﴾: ما تخفون ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: وما تقولون، وما تفعلون في العلن ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿تَكْسِبُونَ﴾: يعلم ما تجنون وتجمعون من خيرٍ أو من إثمٍ.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿تَأْتِيهِمْ﴾: تصلهم أو يصيبهم، يعود الضمير على المشركين، المُكذّبين، المُعاندين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بمعنى بعض؛ جاءت هنا لتفيد استغراق الجنس ﴿آيَةٍ﴾: كلّ دليلٍ، يأتي، وكلّ حُجّةٍ، وكلّ معجزةٍ، تدل على وحدانية الله ﷻ، وصدق رسله الكرام صغيرة أو كبيرة ﴿مِنْ آيَاتِ﴾: الدّالّة على صدق ما قاله ﴿رَبِّهِمْ﴾: هو المربي، المنشئ للشيءِ من حالٍ إلى حالٍ حتى التمام ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: كانوا يتجاهلون، ويبتعدون، لا ينظرون، ولا يتفكرون فيها.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٥)

﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي، يشهد الله ﷻ أنّهم ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْحَقِّ﴾: الحُجج، والأدلّة الواضحة، والبراهين الظاهرة، من ربّهم ﴿لَمَّا﴾ بمعنى حين حدث في الماضي ﴿جَاءَهُمْ﴾: وهو القرآن الكريم، وقيل مجيء محمد ﷺ ﴿فَسَوْفَ﴾: كلمةُ وعدٍ لعملٍ يكون في المستقبل القريب ﴿يَأْتِيهِمْ﴾: ينزل عليهم، يحيط بهم، هذا تهديدٌ ووعيدٌ من الله ﷻ ﴿أَنْبَاءُ﴾: يرون ويعلمون حقيقة وخبر وعقاب ﴿مَا﴾: الشيء الذي ﴿كَانُوا بِهِ﴾: ضمير منفصل للفرد ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: يسخرون، وهو ليس بموضع الاستهزاء، سوف يذوقون عذابه، سوف يرون عاقبة استهزائهم، هو عذابُ الله ﷻ لهم في الدنيا، وعذابُ جهنّم لهم في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٦)

﴿أَلَمْ﴾: أداة استفهام بغرض الاستنكار ﴿يَرَوْا﴾: ألم يعلموا علم مشاهدة ﴿كَمْ﴾: تفيد الكثرة، الحديث عن أممٍ كبيرةٍ، وأقوامٍ عديدةٍ من الكفّار ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جاء دمارهم وزوالهم بصيغة الجمع للتفخيم والتعظيم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ مِنْ﴾: سبقوهم في الزمن ﴿قَرْنٍ﴾: يُطلق على أهل كل عصرٍ، وهذا من المجاز المرسل، ويشمل الأموال والأولاد، والعمران، والجاه، والسعة في المال ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: جاءت بصيغة الجمع لتفيد الكثرة، جعل الله ﷻ لهم قوةً ونفوذًا وتحكمًا، وطول الأعمار وقوة الأبدان، وما لم نعطكم في الدنيا، فأهلكناهم جميعًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿نُمَكِّنْ﴾: فهلاككم وأنتم دونهم أهون على الله ﷻ، فقد كان لهم نفوذ، وجاه، وسلطان ﴿لَكُمْ﴾: تمليكًا أكثر منكم ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾: أيضًا قدّرنا أمرًا من ﴿السَّمَاءَ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، والمقصود هنا من السحاب المُحمّل ببخار الماء بلفظ السماء ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾: رزقناهم الأمطار؛ تنزل بعضها خلف بعض، استمرار نزول الغيث ﴿وَجَعَلْنَا﴾: أيضًا سخّرنا ﴿الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية ﴿تَحْتِهِمْ﴾: فكان بوفرة الماء الشرابِ، والزراعةِ، والخصبِ، والثراءِ؛ من الأنهارِ، والعيونِ، والينابيعِ بوفرةٍ وكثرةٍ من تحت أشجارهم ومنازلهم ﴿فَـ﴾: حرف علّة يفيد هنا السبب ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع لتعظيم الهلاك ﴿بِـ﴾: حرف باء السببية ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾: إنّ الخطايا تمحو الرزق، وإنّ الذنوب تذهب بالجاه والسلطان ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾: أيضًا خلقنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِمْ قَرْنًا﴾: أمّة تعيش مدة طويلة ﴿آخَرِينَ﴾: جاءت بعدهم أُممٌ جديدةٌ كبيرةٌ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

يأتي الحديث هنا عن المشركين وصفاتهم، وهذا إعلامٌ ربّانيّ لمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستفهام والنفي ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾: مثل القرآن، فيه تعاليم الله ﷻ ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾: وهو ما يُكتب عليه من الجلد، أو الورق ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿لَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: أمسكوا به؛ هذا أبلغ في التأكيد ممن عاينوه ببصرهم، وأدركوا أنّه ليس وهمًا، ولا سحرًا، ورأوا نزوله ﴿لَـ﴾: حرف علّة وسبب ﴿قَالَ

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: وصف الله ﷻ قول هؤلاء الذين كفروا من الرجال والنساء؛ الذين ينكرون الحقائق الكونية كدليلٍ على عظمةِ الخالقِ سبحانه ﴿إِنْ﴾: ما ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر البعيد الذي نزل من السماء ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء؛ يعني هنا: بل هو ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: هذا سحرٌ واضحٌ؛ قالوه مكابرةً، وتغطيةً للحقيقة، جاء في المعنى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور-٤٤]، وجاء أيضًا: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر-١٤].

التكليف: إنّ عناد الكافرين في المرئي والمحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحيٍ إلى رسولِ الله ﷺ بواسطة ملكٍ لا يرونه، إن عنادهم لا يتغير مهما قدّم المؤمنون لهم من أدلّةٍ وبراهين.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾: حرف امتناع ما بعدها بسبب ما قبلها ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾: من باب المُكابرة، طلب الكافرون أنْ يُنزّل الله ﷻ على رسوله ﷺ ملكًا من السماء؛ لينذرهم؛ وليتأكدوا أنّ الرسول صادق ﴿وَلَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع ﴿أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: لو نزل الملائكة عليهم وهم على حالة الكفر والعناد؛ لجئناهم بالعذاب؛ فأهلكناهم إذا لم يؤمنوا عند نزوله، وبعد رؤيتهم له ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُنْظَرُونَ﴾: إذا نزل الملائكة لا تأخير لوجودهم، ولا تعطيل للعذاب المكتوب؛ جاء في السياق: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان-٢٢].

التكليف: جاء اللفظ القرآني على رسوله، ولم يأت لفظ على رسولهم؛ لأنّهم لم يؤمنوا به.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩)

﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستفهام والنفي ﴿جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾: لو أنزل الله ﷻ الرسول المُبّشر والمنذر ملكًا من الملائكة؛ يشاهدونه ويُخاطبونه ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿جَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾: كان سينزل على هيئة البشر، هيئة الرجل؛ فلم يُرسل ﷻ رسولًا رجلًا، حتى يتمكنوا من مخاطبته؛ لأنّهم لنْ يستمعوا إلى الملك في صورته الحقيقية ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿لَلَبَسْنَا﴾: خلطنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾: عندها سيلتبس عليهم الأمر حتمًا، كما التبس عليهم في قبول الرسول الآدمي ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَلْبِسُونَ﴾: اللبس: هو الخلط؛ اختلط عليهم الأمرُ، واشتبه عليهم؛ من الشبهة، لو نزل مَلَكٌ ما استطاعوا النظر إليه؛ إلّا بإذن الله ﷻ.

التكليف: هذه من الآيات التي يُسلي بها الله ﷻ رسوله ﷺ؛ بسبب حزنه؛ من تكذيب قومه لرسالته؛ فإذا أصابك حزن فاقرأ القرآن.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٠)

﴿وَلَقَدِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿اسْتُهْزِئَ﴾: تم الاستهزاء ﴿بِـ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿رُسُلٍ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمنية ﴿قَبْلِكَ﴾: في الذين بعثهم الله ﷻ في أقوامهم، فلا تحزن ولا تقنط ﴿فَـ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿حَاقَ﴾: أصاب ونزل وأحاط بهم العذاب ﴿بِالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿سَخِرُوا﴾: استهزؤوا واستخفوا ﴿مِنْهُمْ﴾: بعضهم أو جزء من هذه الأقوام المستهزئة بالرسل ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: من الكذب والسخرية، فأصابهم ما مارسوه مع أنبيائهم وأشد. فالجزاء من جنس العمل، مع فارق الشدّة والأثر.

التكليف: هذه الآية تعزيةٌ وتسليةٌ للرسول ﷺ ليزداد صبرًا على ما يلاقيه من قومه من عذابٍ واستهزاءٍ ومكابرةٍ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ لهؤلاء المكذبين ﴿سِيرُوا﴾: تعني دراسة تاريخ هؤلاء، وبمعنى سافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: فعلُ أمرٍ بالتحدي؛ اذكروا ما حدث على الأرض، وتفكّروا ماذا حدث في الأمم السابقة؟ وفي حالكم اليوم، عندما عاند الكفّار رسلهم وكذبوهم ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع والتراخي الزمني ﴿انْظُرُوا﴾: ادرسوا، وتأملوا وتفكروا، برويّة ﴿كَيْفَ﴾: أداة استفهام ﴿كَانَ عَاقِبَةُ﴾: مصير ومآل ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾: كيف كانت عقوبة الله ﷻ للمكذبين من قبلكم، كيف تم إهلاكهم في الدنيا، مع ما ادّخر اللهُ ﷻ لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وقد حذّرتهم وأخبرتهم رسلهم بهذا.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ لهؤلاء المكذبين ﴿لِـ﴾: حرف تمليك ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لبيضاويّة شكلها ﴿وَالْأَرْضِ﴾: أيضًا يسأل الله ﷻ رسوله ﷺ وهو أعلم، ورسوله يعلم: من مالك السموات والأرض؟ سؤالٌ يثير انتباه السامع من الكافرين ومن المؤمنين ﴿قُلْ﴾: أخبرهم يا محمد بوضوح: ﴿لِلَّهِ﴾: يجيب

الله ﷻ أنّه المالك، ويُعلّم رسوله أنْ يقول ذلك، ويُعلّمُ المؤمنين أنْ يقولوا: ﴿كَتَبَ﴾: قدّر وأوجب ﷻ بإرادته تفضلًا وإحسانًا ﴿عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: إنّه لا يُعاجلكم بالعقوبة؛ بل يقبل منهم التوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتوضيح الأدلّةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ[2]، ﴿لَ﴾: حرف يفيد جواب القسم بمعنى حتّى، أيضًا بمعنى في. واللام هي المُوطّئ للقسم، فأقسم الله ﷻ بنفسه الكريمة ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ليجمعن بالتأكيد العباد كلّهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: لقد أمهلهم الله ﷻ في القبور إلى اليوم الذي انكروه فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل يقبل التوبة والإنابة، ومن رحمته في الميقات المعلوم يوم القيامة ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿رَيْبَ﴾: لاشكّ ﴿فِيهِ﴾: في وقوعه يؤمن بذلك المؤمنون، وأمّا المتشككون فهم في شكّهم يعمهون، يترددون، عَنْ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً.[3]. ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: من الرجال والنساء، أوردوها العذاب الأبدي، يوم القيامة، هم الكفّار ﴿فَهُمْ﴾: بسبب هذا وتحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: لا يُصدقون، ولا يخشون شرّ هذا اليوم.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَهُ﴾: حرف يفيد هنا التمليك لله ﷻ ﴿مَا سَكَنَ﴾: الذي خضع، وصمت، واستقر طوال الوقت ﴿فِي اللَّيْلِ﴾: مثل أغلب الحيوانات ﴿والنَّهَارِ﴾: أيضًا مثل بعض الطيور والحشرات والسباع. إنّ كلَّ المخلوقات الساكنة طول الوقت كالجمادات وكلّ دابّة في السموات والأرض أيضًا كل ما تحرك فيها؛ هي ملك لله ﷻ، الجميع عبيده، وخلقه، وتحت قهره، وتدبيره، والإنس حين تستيقظ وحين تنام، كلّها بأمره، ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿السَّمِيعُ﴾:

---

[1] صحيح البخاري /١٢٥/٩(٧٤٢٢).

[2] صحيح البخاري ٨/ ٩٩(٦٤٦٩).

[3] سنن الترمذي /٢٠٨/٤(٢٤٤٣). وقال: هذا حديث غريب وَقَدْ رَوَى الأَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، هَذَا الحَدِيثَ عَنِ الحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ سَمُرَةَ وَهُوَ أَصَحُّ. وصححه الألباني.

الذي يسمع كلّ أقوال الخلق والعباد ﴿الْعَلِيمُ﴾: الذي يعلم حركاتهم في السر والعلن، ويعرف ما في ضمائرهم، والسميع والعليم من صيغ المبالغة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤)

﴿قُلْ﴾: فعلُ أمرٍ لمحمدٍ ﷺ، ومن بعده لكلّ أتباعه ﴿أَ﴾: حرف استفهام إنكاري تم تقديم المفعول الأول وهو ﴿غَيْرَ﴾: بمعنى سوى ﴿اللَّهِ﴾: هل غير الله ﷻ ﴿أَتَّخِذُ﴾: أعتمد ﴿وَلِيًّا﴾: معبودًا، أحب، أو ناصرًا، جاء اللفظ القرآني "**الولاء**" على أحد عشر وجهًا؛ هنا بمعنى الولاء للرّب؛ أي قل يا محمد هل أتخذ غير الله ﷻ معبودًا أُحبه وأنصره؟ أؤيد دعوته، وأحب أحبابه، وأكره وأعادي أعداءه ﴿فَاطِرِ﴾: الذي خلق وأبدع السموات والأرض وزينها من العدم على غير مثال سابق ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَالْأَرْضِ وَهُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿يُطْعِمُ﴾: ومعنى الطعام هنا ما يأكله النّاس فالله ﷻ هو الذي يرزق خلقه بالطعام والشراب، دون أنْ يحتاج إليهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُطْعَمُ﴾: لا يرزقه ﷻ أحدٌ من الخلق، وإذا قُرئت لا يَطعمَ أي لا يأكل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ قُبَاءٍ النَّبِيَّ ﷺ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَهُ، أَوْ يَدَيْهِ عَلَيْنَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[1]. وهذا من آداب الفراغ من الطعام أنّ تشكر المُنعم ﴿قُلْ﴾: أمرٌ بالقول ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أُمِرْتُ﴾: أمرني ربّي ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَكُونَ﴾: أصير ﴿أَوَّلَ مَنْ﴾: الذي حرف يفيد التمايز ﴿أَسْلَمَ﴾: آمن بحقٍ وأعلن إسلامه ﴿وَلَا﴾: أيضًا لا ﴿تَكُونَنَّ﴾: تصير بالتأكيد ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين يعبدون مع الله ﷻ آخرين.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

﴿قُلْ﴾: فعلُ أمرٍ لمحمدٍ ﷺ، وأتباعه من المؤمنين أنْ يقولوا ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أَخَافُ﴾: الله ﷻ، وهذا من التقوى، وفيه عزّة وكرامة، أخاف ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عَصَيْتُ﴾: إنْ خالفت ﴿رَبِّي﴾: جاء اسم الرب هنا عوضًا عن اسم الجلالة "الله" في إشارةٍ إلى أنّ عصيان

---

[1] عمل اليوم والليلة للنسائي ص٢٦٩(٣٠٠) قال الأرناؤوط في حاشية الإحسان ٢٣/١٢: إسناده صحيح على شرط مسلم.

الرب ﷻ قبيحٌ قبحًا أشدُّ من عصيان المعبود فالربُّ هو المربي، والمنشئ للكون البديع من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام إن لم أطع ربيّ، وعصيته، بعبادة غيره، أو مخالفة أمره، وعملت بنواهيه، وارتكبت ما حرّم؛ أنْ يصيبني بـ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: وهو عذاب يوم القيامة، فليس بعده عذابٌ في الشدّة، حين يحاسب العصاة على أعمالهم.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

﴿مَنْ﴾: إنّ الذي من البشر ﴿يُصْرَفْ﴾: من يُبعد الله ﷻ ﴿عَنْهُ﴾: يحفظه ويحميه من العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم القيامة ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿رَحِمَهُ﴾: أي علم أنه من أهل الرحمة وسيدخله الله ﷻ الجنّة ﴿وذَلِكَ﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر البعيد، والمقصود هو ﴿الْفَوْزُ﴾: هو حصول النجاح والظفر ﴿الْمُبِينُ﴾: الواضح.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَمْسَسْكَ﴾: ينالك أمرٌ يصيبك في العمق، في النفس والجسد، والمسّ غير اللمس الذي يصيب في الظاهر من الجسم ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿ضُرٍّ﴾: بضررٍ في المال أو النفس ﴿فَلَا﴾: حرف يفيد تخصيص عدم الفعل ﴿كَاشِفَ﴾: لا يرفع ولا يزيل ﴿لَهُ﴾: لهذا الضرر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ بمعنى لا يرفعه إلّا اللّهُ ﷻ، عن المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قال كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ[1]، ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَمْسَسْكَ﴾: يهبك بكثرة ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿خَيْرٍ﴾: الخير هنا بمعنى العافية أي يهبك الله ﷻ صحةً وعافيةً ﴿فَهُوَ﴾: ضمير رفع منفصل للغائب الفرد ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: يصل الخير العميم لصاحبه؛ لأنّه لا رادّ لقضاء الله وحكمه ﷻ.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١٨)

---

[1] صحيح البخاري /١٦٨/١(٨٤٤).

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على ما سبق ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الْقَاهِرُ﴾: الغالب ﴿فَوْقَ﴾: الاستعلاء بالقهر والغلبة على ﴿عِبَادِهِ﴾: الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، ودانت كلُّ الخلائق لطاعته، وتواضع كلُّ شيءٍ لقدرتهِ، وعظمتهِ، وجلالهِ، وكبريائهِ، وعُلوّه، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: الذي يفعل الصواب في كلّ شيءٍ ﴿الْخَبِيرُ﴾: العالم بمواضع الأشياء، يُعطي من يستحق، ومن لا يستحق لحكمةٍ أرادها ﷻ.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩)

﴿قُلْ﴾: يا محمد للمشركين ﴿أَيُّ﴾: حرف استفسار غرضه الاستغراب ﴿شَيْءٍ﴾: تفيد عموم الأشياء، قال البخاري: بَابُ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام-١٩]، فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ شَيْئًا، وَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ القُرْآنَ شَيْئًا، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص-٨٨][1] ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾: ما هو أعظم الأشياء التي وجودها يكون شهادةً على صدق رسالتي بيني وبينكم ﴿قُلِ﴾: هذا أمرٌ ربّانيٌ بالقول بلا تردد ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: يشهد الله ﷻ بعلمه وإرادته بيني وبينكم بما جئتكم به، إنّه يعلم ما جئتكم به؛ فهو من عنده، ويعلم كيف سيكون ردّكم على دعوتي، طاعةً أم معصيةً ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿أُوحِيَ﴾: وصلني عن طريق الملك الكريم جبريل ﵇ ﴿إِلَيَّ﴾: لي تحديدًا ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر البعيد ﴿الْقُرْآنُ﴾: نزل الوحي من الله إليّ بهذا القرآن ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿أُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾: لأحذّركم من مخالفتي، وأخوّفكم من مخالفة الله ﷻ ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً ابن آدم الذي ﴿بَلَغَ﴾: وأخوّف وأنذر كلّ من بلغه هذا القرآن الكريم، من الإنس والجنّ إلى قيام الساعة ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾: أيها المشركون أنكّم تؤمنون ﴿أَنَّ﴾: حرف يفيد التأكيد ونفي الإنكار ﴿مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾: على ما اعترفتم من الشرك، وقد جعلتم مع الله ﷻ معبودات أخرى، جاء اللفظ **آلهة** أخرى، ولم يأت آخر؛ لأنّ الآلهة جمع؛ والجمع يقع عليه التأنيث، مثل ولله الأسماء الحسنى ﴿قُلْ﴾: ردًا قاطعًا عليهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَشْهَدُ﴾: أعترف وأقر بما أقررتم؛ آية تعزز: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

[1] صحيح البخاري ٩/ ١٢٤ باب قل أي شيء أكبر شهادة.

مَعَهُمْ﴾ [الأنعام-١٥٠]، لا أشهد أنّ مع الله ﷻ آلهة أخرى ﴿قُلْ﴾: فعل أمرٍ من الله ﷻ ﴿إِنَّمَا﴾: حرف يفيد التحديد والتخصيص ﴿هُو إِلَه﴾: معبود يستحق العبادة ﴿وَاحِدٌ﴾: هنا ضرورة ظهور توحيد الألوهية بوضوح ﴿وَ﴾: عطفًا على هذه الشهادة والاعتراف ﴿إِنَّنِي﴾: أنا بكلّ تأكيد ﴿بَرِيءٌ﴾: متبرئٌ من، ولا ذنب لي ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿تُشْرِكُونَ﴾: وأنا أعُلن التبرؤ من المشركين، وما يعبدون من أوثان، والإعلان عن ذلك قولًا وعملًا.

التكليف: من بلغه هذا القرآن؛ فكأنّما أبلغه به محمد ﷺ، وقيل من بلغه هذا القرآن فقد بلّغه الله ﷻ بأمره، وقيل حَقّ على كلِّ من اتبع رسول الله ﷺ أنْ يدعو النّاس كما دعا ﷺ.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾: أنزلنا لهم وفيهم، وهم اليهود والنصارى ﴿الْكِتَابَ﴾: هم علماء بني إسرائيل والنصارى الذين نزل إليهم التوراة، والإنجيل، وغيرهما ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: يعرفون الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ، ويعرفون محمدًا ﷺ ﴿كَمَا﴾: مثلما، وهذا من التشبيه المرسل المُجمل ﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾: يُميزونه عن غيره، كما يُميزون أبناءهم عن غيرهم؛ لأنّه واضحٌ عندهم في كتبهم من الأخبار عن المرسلين والأنبياء وقد تم تبشيرهم جميعًا بحقيقة محمد ﷺ صفاته، ونعته ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾: أوردوها الضلال في الدنيا، وأوردوها النّار في الآخرة ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: إنّ أعظم خسارة، هي خسارة النفس، يوم يوردها صاحبها النّار ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد بالذات ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: لن يؤمنوا بهذا الأمر الواضح الجليّ؛ الذي بشّر به الأنبياء، وجاء ذكره في قديم الزمان وحديثه، فهؤلاء الذين خسروا أنفسهم بعنادهم، وتمردهم، هم الذين لا يؤمنون بما جاء على محمد ﷺ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢١)

﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل ﴿أَظْلَمُ﴾: صيغة مبالغة؛ تقول لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ﴾: من الذي ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: أي اختلق على الله ﷻ الكذب، وادعى أنّ الله أرسله، ولم يكن أرسله ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿كَذَّبَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿آيَاتِهِ﴾: ليس هناك أظلم من الذي كذّب بآيات الله ﷻ، وحُججه، وبراهينه، ودلالاته، وعقابه، وثوابه في الآخرة ﴿إِنَّهُ﴾: بكلّ تأكيد، ومن معجزاتٍ واضحةِ البينة، ومن آيات القرآن العظيم الذي جمع بين كونه كشف المشرك ككاذبٍ على الله ﷻ، ومكذبًا بما أمره الله بالإيمان به ﴿لَا﴾:

حرف نفي ﴿يُفْلِحُ﴾: ينجح أو يُنتج خيرًا ﴿الظَّالِمُونَ﴾: لن يفلح الذي كذب فقال: إنّ الله ﷻ أوحى إليه، ولنْ يُفلح الكذّاب الذي كذّب بآيات الله ﷻ.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢)

﴿وَيَوْمَ﴾: كلمةُ **يوم** تفيد ظرف زمان منوب مفعول لفعلٍ محذوفٍ، تقديره اذكر لقومك اليوم الذي يجري فيه استنطاق كلِّ نفسٍ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: أخبرهم يا محمد خبر يوم القيامة، يوم يجمع اللهُ عنده بين العابدين والمعبودين من دون الله ﷻ؛ ثم يسألهم تقريعًا وتوبيخًا ﴿جَمِيعًا﴾: بلا استثناء؛ قويًا أو ضعيفًا، فقيرًا أو غنيًا ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿نَقُولُ﴾: والقائل هو الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿أَشْرَكُوا﴾: يسأل ﷻ وهو يعلم؛ تقريعًا وتوبيخًا لهم ﴿أَيْنَ﴾: في أيّ مكانٍ أو موقعٍ؛ وهذا للتوبيخ والتقريع ﴿شُرَكَاؤُكُمُ﴾: في الذلّ والهوان، نسب الله ﷻ إليهم الشركاء؛ لأنّهم لم يكونوا شركاء لله ﷻ ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: جاء الإيجاز هنا بالحذف؛ الذين كذبّتم في الماضي، وقلتم في الحياة الدنيا بأنّهم شركاؤكم؟!

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣)

﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾: إنّ اعتذارهم وحُجّتهم، ومعذرتهم، ومصيبتهم، وعاقبةَ كفرهم الذي تفاخروا به وقاتلوا عليه ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿قَالُوا وَاللَّهِ﴾: لفظ الجلالة مُقسمٌ به ﴿رَبِّنَا﴾: هو المربي، المنشئ للكونِ من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، مالك كلّ أمرنا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: يحلفون، ويتبرؤون مما عبدوا، وكذّبوا، وقالوا ما كنّا بك مشركين، عَنِ ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عَبَّاسٍ، سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ **﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾**: قَالَ أَمَّا قَوْلُهُ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، إِلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ، فَقَالُوا: تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ فَيَجْحَدُونَ، فَيَخْتِمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا، فَهَلْ فِي قَلْبِكَ الْآنَ شَيْءٌ؟ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ القرآن إلا ونزل فِيهِ شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَجْهَهُ[1].

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤)

﴿انْظُرْ﴾: تأمل يا محمد ﷺ وسوف تتعجب ﴿كَيْفَ﴾: أداة استفهام تفيد التعجب ﴿كَذَبُوا﴾: دقّق كيف كذبوا على أنفسهم، وأوهموها أنّهم ليسوا مشركين، وأنكروا ما وقع منهم في الدنيا

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/٣٣٦(٣١٩٨) وقال صحيح الإسناد، ووافقه االذهبي.

من الشركِ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿ضَلَّ﴾: تاه وغاب وزال وذهب افتراؤهم، بطل ما كانوا يظنونه ﴿عَنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد انتهاء الغاية منهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾: ما كانوا يختلقون من شركاءَ مثل الأصنام، ويدعون زورًا وبهتانًا في الحياة الدنيا. وفي الآخرة سوف يعترفون ساعتها بما كانوا فيه من الضلال.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥)

﴿وَمِنْهُمْ﴾: من الكفّار والمشركين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس الإنسان ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: والحديث إلى محمدٍ ﷺ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا؛ يستمع إليك حين تتلو القرآن، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿جَعَلْنَا﴾: قدّر الله ﷻ ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع كنان، وهو الغطاء؛ وضعنا أغطيةً كثيرةً من الكراهية، تمنع وصول الكلام إلى القلب، الذي هو مركز الفهم، والإدراك، فهم يستمعون؛ ولا يعقلون ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: إنّ الأغطية منعت قلوبهم من فهم ما استمعوا إليه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: جعل اللهُ ﷻ الوقر في آذانهم؛ لتكون صمّاء؛ لا تسمع الكلام النافع لهم، وهي مصدر من مصادر الفهم والإدراك، فكأنّ آذانهم لا تسمع؛ كأنّ فيها صمغًا، وهذا تمثيلٌ بطريق الاستعارة بسبب إعراضهم عن كتاب الله ﷻ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَرَوْا﴾: يشاهدوا ﴿كُلَّ﴾: تفيد العموم ﴿آيَةٍ﴾: دليلٍ وبرهانٍ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: مهما كانت الآيات واضحة، ومهما كانت الحُجج والبراهين مقنعة؛ لا يؤمنون بها، وفي المعنى نفسه جاء: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾** [الأنفال-٢٣] ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾: وإذا التقيت بهم فسوف يحاجّون، ويناظرون، ويُخاصمون بالباطل؛ لدحض الحقّ، إنّ هذا الطراز من النّاس يُجادل، لا ليفهم، ولكن لُيشكك في الآيات البيّنات؛ فإن عجزوا ﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾: هنا اسم موصول للجمع المذكر والمؤنث؛ لتسجيل الكفر عليهم ﴿كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر البعيد، بمعنى **ما** هذا ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع ﴿أَسَاطِيرُ﴾: قصص وأكاذيب قديمة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: يقولون إنّ الذي جئت به قديمٌ، مأخوذٌ من كتب الذين سبقوك، ومنقولٌ عنهم، كان القائل الأول هو النضر بن الحارث بن

كلدة: أنا أحدثكم بأحسن مما يحدثكم به محمد، فهذا القرآن هو أساطير الأولين، ومنقول عنهم. وهذا زعمٌ منهم أنّ محمدًا أخذ القرآن من هذه القصص وروايات الأولين.

﴿وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

﴿وَهُمْ﴾: الكفّار والمجادلون بالباطل ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: قولان: الأول، ينهون النّاس عن اتباع الحق، وعن تصديق الرسول والإيمان بالقرآن، والثاني، كان أبو طالب ينهى الكُفار عن إيذاء النبي ﷺ، وكان عمومة النبي عشرة، كانوا أشدّ النّاس معه في العلن، وأشدّ النّاس عليه في السر ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾: يُبعدون النّاس عنه ﷺ، ويبتعدون عن الرسول ﷺ فلا ينتفعون به، ولا يتركون غيرهم ينتفع ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط؛ بمعنى إنّما ﴿يُهْلِكُونَ﴾: يُدمّرون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: ذاتهم وجوهرهم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَشْعُرُونَ﴾: يدمّرون حياتهم بصنيعهم دون أنْ يشعروا بالخطر الذي سيصيبهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد هنا الشرط ﴿تَرَى﴾: لو شاهدت يوم القيامة يا محمد ﷺ ﴿إِذْ﴾: ظرفٌ استعمل للمستقبل؛ لأنه في حكم المُحقق وتفيد السبب حين ﴿وُقِفُوا﴾: هذا حال الكفّار يوم القيامة، تم توقيفهم، أو حُبسوا على متنها، إذا عاهدوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾: وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب والتتابع السريع على الفور ﴿قَالُوا﴾: جاء بصيغة الماضي؛ لأنّها حادثة واقعة لاشك في ذلك ﴿يا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿لَيْتَنَا﴾: كلمةٌ للتمني، وهي بلا استجابة يوم القيامة: عطفًا على رجوعنا للدنيا ﴿نُرَدُّ﴾: نرجع ويعيدنا ربُّنا إلى الدار الدنيا ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نُكَذِّبَ بِآيَاتِ﴾: أدلّة وبراهين ﴿رَبِّنَا﴾: هو المربي، المنشئ للكون كلّهِ من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، مالك كلّ أمرنا، يعدون أنّهم لنْ يُكذّبوا بما كذّبوا من قبل ﴿وَنَكُونَ﴾: نصير ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بعض ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: شهادة من أنفسهم أنّهم كانوا من قبل من الكافرين، ويتمنّون العودة للدنيا؛ ليكونوا من المؤمنين، وهذا حال اليهود والنصارى؛ الجحود والإنكار؛ ثم الندم.

﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨)

﴿بَلْ﴾: حرفُ إثبات ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿بَدَا﴾: ظهر ﴿لَهُمْ﴾: حرف تخصيص ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يُخْفُونَ﴾: من النفاق والكفر وسيئ الأعمال، فقد

ظهر لهم درجة كفرهم، وما كانوا يخفونه من الحقائق، والتكذيب، والكيد للمؤمنين، وما كانوا ينكرونه في الحياة الدنيا، وهم كانوا يعلمون أنّه الحق ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: في الحياة الدنيا ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستجابة ﴿رُدُّوا﴾: رجعوا إلى الدنيا مرّة أخرى ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿عَادُوا لِمَا﴾: للذي ﴿نُهُوا عَنْهُ﴾: سيعودون للكفر، وينطبق القول على المنافقين، الذين أظهروا الإيمان في الدنيا، وهم يُبطنون الكفر في مكّة، وفي المدينة، والقضيةُ مستمرةٌ إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تأكيد ﴿كَاذِبُونَ﴾: شهادةٌ من الله ﷻ على كذبهم، بحرفيّ اللام والنون؛ لم يطلب الكفّارُ والمنافقون العودة إلى الدنيا، رغبة في الإيمان، بل هروبًا من العذاب، وهذا حال المجرمين في لحظةِ مواجهةِ القضاء العادل.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩)

يخبر الله ﷻ، وهو أعلم، بما في نفوس الخلق: أنّ هؤلاء الكفّار ﴿وَقَالُوا﴾: أيضًا قال المشركون ﴿إِنْ هِيَ﴾: ما هي ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾: يعتقدون أنّه لا حياة إلّا الحياة الدنيا ﴿وَمَا﴾: حرف نفي، وعطفًا على هذا ﴿نَحْنُ﴾: هنا ضميرٌ منفصل يُعبّر عن الإثنين أو أكثر ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿مَبْعُوثِينَ﴾: يُنكرون يوم القيامة؛ وهم لا يعلمون ما ينتظرهم فيها من عذاب، كما أخبرهم رُسُلُهم عليهم السلام من قبل.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٠)

﴿وَلَوْ تَرَى﴾: لو رأيت يا محمد ﷺ هؤلاء الكفّار؛ وهذا غيرُ واردٍ في الدنيا ﴿إِذْ﴾: ظرفٌ استُعمل ليدلّ على المستقبل؛ لأنّه في حكم المتحقق ﴿وُقِفُوا﴾: جيء بهم ووقفوا على قضاء الله ﷻ وحكمه والقاضي بأنّهم على الصراط والنار تتلظى من تحتهم أو أنّهم يعاونونها، وجواب " لو" محذوف، تقديره لرأوا أمرًا مرعبًا، يوم حبسهم على النّار ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾: هو المُعبود، والمُربي، والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿أَلَيْسَ﴾: حرف الألف يفيد استفسار استنكاري وفعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي؛ يفيد هنا التقريع والتوبيخ ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر البعيد ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْحَقِّ﴾: يسأل ﷻ تقريعًا للمجرمين، أليس هذا المعاد الذي وعدتكم؟ أحقٌ هو أم باطلٌ؟ ألا تشاهدونه اليوم؟ الاستفهام هنا تقريري بدليل الإجابة في الآية ﴿قَالُوا بَلَى﴾: بمعنى نعم ﴿وَ﴾: واو القسم ﴿رَبِّنَا﴾: اعترفوا بأنّ الله

ﷻ مالك أمرهم كلّه، ويقسمون اليوم على صدق البعث والقيامة ﴿قَالَ﴾: ﷻ ﴿فَذُوقُوا﴾: والذوق أصلهُ بوجود قليل من الطعام في الفم لمعرفة الطعم جاء هنا اصلوا، وعانوا قليلًا من ﴿الْعَذَابَ بِمَا﴾: بالذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾: أمر الله ﷻ لهم بالعذاب، وهو يقول لهم هذا جزاء كفركم، هل عذابكم حقيقة أم كذب؟

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (٣١)

﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿خَسِرَ﴾: بعد مشاهدة الآيات السابقة أدرك الكفّار، والمنافقون، واليهود، والنصارى خسارتهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾: المراد تكذيبهم بالبعث والجزاء، بدايتها موتهم، ثم يوم البعث، يوم القيامة ﴿حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيد الغاية، هنا جاء للتكذيب ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾: سمّيت الساعة لسرعة الحساب فيها، أو لأنّها تُفاجئ الناس؛ قامت ووقعت يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة، وعلى غير توقع، وهم لم يكسبوا سوى جزاء كفرهم، ونفاقهم، وقُبح أعمالهم؛ فقالوا غُرمًا وحسرة ﴿قَالُوا يَا﴾: حرف للتمني ﴿حَسْرَتَنَا﴾: شدّة ندمنا فهذا أوان الندم والألم ﴿عَلَى مَا﴾: الذي ﴿فَرَّطْنَا﴾: تقصيرنا، وتخلينا، وتنازلنا ﴿فِيهَا﴾: يعودُ الضميرُ فيها على التفريط في الأعمال في الدنيا، وهي زراعة الآخرة، والتفريط في ثواب الدّار الآخرة ﴿وَهُمْ﴾: الكفّار ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾: ذنوبهم، وسيئاتهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾: رغم أنّ الظهر أكثر قدرة على الحمل؛ ويطيق ما لا تطيقه سائر الأعضاء كالذراع والرأس، هنا تمثيل ومجاز يدلّ على ما يقاسونه من شدّة العذاب، إذ يحملون سيئاتهم وخطاياهم، وأعمالهم، كمن يحملون الصخور على ظهورهم، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عن النبي ﷺ: قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ،

فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ[1]، ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿سَاءَ﴾: فيه شرٌ وضرر ﴿مَا يَزِرُونَ﴾: عاقبة ما ارتكبوا من أوزار، حملوها ثقيلة خبيثة، الله ﷻ أعلم بها؛ طوبى لمن تفاداها.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق حرفُ عطفٍ هنا يفيد الحال ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: إنّ الحياة الدنيا أي العيش فوق الأرض غرور في غالبها ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾: عمل وقول لا ينفع في الدار الآخرة ﴿وَلَهْوٌ﴾: أيضًا يصرف الفعل بلا فائدة، هنا تشبيه بليغ حيث جعل الدنيا لعبًا ولهوًا، وهما من وسائل المبالغة في ضياع الوقت والجهد ﴿و﴾: عطفًا على هذه الحقيقة يجب الإقرار ﴿لَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: هي النشأة الثانية في مقابل النشأة الأولى إنّ العمل ليوم القيامة هو الذي يجلب ﴿خَيْرٌ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: تخصيصًا، جميع الرجال والنساء ﴿يَتَّقُونَ﴾: والتقوى هي؛ عبادة الله كأنك تراه؛ لتجني الخير الذي هو فضل الله ﷻ على النّاس في يوم القيامة، من جنّة ربّهم ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفهام بغرض التوبيخ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: دعوة الله ﷻ للنّاس إلى إدراك الحقائق بالفعل، والوسيلة، هي تقوى الله ﷻ، والعمل بما أوجب بقناعة ووعي؛ طمعًا في الجنّة، وانتهاءً عن المحرّمات؛ بقناعةٍ ووعيٍ، خوفًا من عذاب الله ﷻ.

التكليف: يوم تكذيب الكفار، في قولهم ما الحياة الدنيا فالحقيقة التي يجب العمل بها هي دار الآخرة؛ لأنها الدائمة، بلا انقطاع.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣)

أسباب النزول: عَنْ عَلِيٍّ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2]، والأمثلة كثيرة عن تصديق كبار قريش لمحمدٍ ﷺ ولكنّها حميّة العائلات ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿نَعْلَمُ﴾: إنّ الله يعلم ﴿إِنَّهُ﴾: هو ﷻ بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَحْزُنُكَ الَّذِي﴾: ما ﴿يَقُولُونَ﴾: لا تحزن يا محمد ﷺ لأنهم يُسببون لك

---

[1] مسند أحمد ٣٠/ ٥٠٢-٥٠٣(١٨٥٣٤) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، قال البيهقي في الشعب: هذا حديث صحيح الإسناد.

[2] سنن الترمذي ٥/٢٦١(٣٠٦٤). قال المقدسي: إِسْنَاده حسن. انظر المستخرج من الأحاديث المختارة ٢/٣٦٥.

حُزنًا، بسبب تكذيبهم في العلن ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا السبب ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾: إنّ الكفّار لا يتهمون النبيّ بالكذب، فقد عرفوه ووصفوه بالصادق الأمين قبل بعثته، وهذا تسليةٌ لنفس رسول الله ﷺ، إنّ النبي لا ينتصر لنفسه ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بكفرهم، يكذبونه ﷺ فيما جاء به من الغيب ﴿بِآيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين ﴿اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: إنّ الكفّار يجحدون ويُعاندون الحق في العلن، ولكنّهم يعلمون صدقه في أنفسهم.

التكليف: مما سبق يمكن استخلاص موقف الكافرين في الآتي: (١) كانوا لا يكذبونه في السر، ولكن يكذبوه في العلن (٢) لم يتهموه ﷺ بالكذب ولكن جحدوا النبوة والرسالة (٣) لم يكذبوه ولكن أنكروا دلالة المعجزة على صدقه المطلق؛ فاتهموه ﷺ بالسحر.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: هذه تعزية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه لدعوته، فتكذيبُهم ليس خاصًّا به، ولكنّه كان منهج الكافرين مع الرسل، عليهم السلام، أجمعين، وكان ذلك سببًا في إيذاء أنبيائهم ﴿فَصَبَرُوا﴾: هذا دواء تكذيب الكفّار للدعوات الربّانيّة، فاصبر يا محمد كما صبر أولو العزم من الرسل ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ يجمع هنا بين الصبر والأذى ﴿أُوذُوا﴾: أصابهم الضرُّ في أجسادهم، وأموالهم، وأولادهم؛ فصبروا على هذا الإيذاء ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿أَتَاهُمْ﴾: جاءهم ﴿نَصْرُنَا﴾: هنا ندرك ظاهرتين؛ الأولى: أن صبر الأنبياء والرسل لم ينفذ، و الثانية: أنّ النصر آتٍ لا محالة في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿مُبَدِّلَ﴾: مغيّر ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: هي كلمات حدّدت تخصيصًا مصير عباد الله المؤمنين، النصر في الدنيا، والجنّة في الآخرة، وفي ذلك جاء قوله ﷻ: **﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾** [الصافات-١٧١، ١٧٢، ١٧٣] وقوله ﷻ: **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [المجادلة-٢١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾: أوصلنا لك صدقًا وعدلًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان بعض ﴿نَبَإِ﴾: خبر وقصص ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: أخبرناك يا محمد ﷺ ببعض أخبارهم وكيفية النجاة من الله ﷻ لهم ومن معهم من الأنبياء والمؤمنين الذين خلوا من قبلك، وكيف أهلك اللهُ ﷻ الكاذبين.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانَ﴾: في السابق ﴿كَبُرَ﴾: شقّ، وثقلُ، وصعُب ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: تجاهلهم، وعدم استجابتهم، وتكذيبهم لك ﴿فَإِنِ﴾: حرف شرط ﴿اسْتَطَعْتَ﴾: وهذا ليس في استطاعتك ولا قدرتك إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله ﷻ بذلك ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾: تجد ممرًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: تحت الأرض؛ وهو ما يعرف بالسرداب ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسوية بين متعاطفين هنا بين النفق وبين ﴿سُلَّمًا﴾: الدرج الذي يرتقي عليه وهو سبيل صعود ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض؛ فتصعد فيه، ويدخل في هذا اليوم الطائرات، والصواريخ ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾: بسبب هذا تُحضر لهم بسرعة ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَةٍ﴾: برهانٍ ودليلٍ على دعوتك، ورسالتك؛ غير الذي أعطيناك، وأيّدناك بها، فافعل ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الامتناع ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿اللَّهُ لَ﴾: حرف تخصيص ﴿جَمَعَهُمْ﴾: لو أراد الله هدايتهم؛ لجمعهم، ولكن لم يشأ وهم الذين قرروا مصيرهم، فهم مخيّرون، ولكن قدرة الله أكبر، لو أراد الله بهم خيرًا لهداهم، وجمعهم ﴿عَلَى الْهُدَى﴾: الإيمان والتقوى ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿تَكُونَنَّ﴾: بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وبهدف التمايز عن ﴿الْجَاهِلِينَ﴾: لا تجهل ما نقوله لك؛ فتحزن عليهم.

التكليف: عليك العلم أن شدّة الحرص والحزن بسبب إعراض الكفار قبل إن يأذن الله ﷻ هو صنيع أهل الجاهلية، ولست منهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةٌ تُفيد الحصر، والتحديد، والتخصيص ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: إنّ الذي يستجيب بالقبول لدعوة الحق التي دعا بها رسول الله ﷺ فيؤمن ويهتدي، هم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿يَسْمَعُونَ﴾: ذكر حاسّة السمع هنا تشريفٌ من الخالق على سائر الحواس، حيث يستمع للرسول ﷺ ويفهم، ويقتنع، ويؤمن، فوظائف الإدراك عنده السمع، والبصر، والقلب سليمة؛ حتى يفهموا ويعقلوا ما جاء به الرسول ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الْمَوْتَى﴾: هم الكفّار، بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ فقلوبهم في الدنيا لا تعقل؛ ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾: يحييهم من قبورهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع

التراخي ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿يُرْجَعُونَ﴾: موعد عودة الخلق جميعًا يوم القيامة لله ﷻ، حيث الثواب والعقاب.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧)

﴿وَقَالُوا﴾: الكفّار ﴿لَوْلَا﴾: حرفُ شرطٍ يفيد امتناع شيءٍ لوجود غيره ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾: كان هذا من باب تعجيز الرسول ﷺ بطلب أمرٍ خارقٍ من باب التعنت، وقد قال غيرهم ما جاء في المعنى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء-٩٠] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا المصدر الذي لا يحدّه مكانٌ أو زمانٌ ﴿رَبِّهِ قُلْ﴾: أمر ربّاني لرسوله ﷺ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾: ولو أنزلها ﷻ لمسّهم عذابٌ أليم، ولعجّل لهم العقاب، كما جرى في سنن الأولين، الذين كانوا قبلهم ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفٌ يفيد الاستدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: الأكثرية منهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: إنّ حقيقة خلق الكون من الله ﷻ، وهو ﷻ من يدبره، ومن يُنظّمه، ومن يُحاسب من يخالفه ﷻ.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع للتمايز ﴿دَابَّةٍ﴾: ما من مخلوق يدب، يتحرك ﴿فِي﴾: على ﴿الْأَرْضِ﴾: يمشي عليها ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿طَائِرٍ﴾: كلّ ذي أجنحة يطير في الهواء ﴿يَطِيرُ﴾: في الهواء ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿جَنَاحَيْهِ﴾: هنا ذكر الجناحين للتأكيد على أنّه طائرٌ، وهناك معانٍ أُخرى منها السرعة مثل طر في حاجتي أي أسرع في تحقيقها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أُمَمٌ﴾: جماعات من أصلٍ واحدٍ، ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾: في ذكر الله ﷻ، معنى الأمّة هنا الجماعة من الخلق، جماعات، وأجناس، وأنواع، وأصناف تُعرف بأسمائها، الطيرُ أمّة، والإنسانُ أمّة، والجنُّ أمّة، أممٌ من خلق الله ﷻ مثلكم يا بني آدم ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿فَرَّطْنَا﴾: ضيّعنا سدىً، ولا أغفلنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ الذي يسجل فيه كل شيء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، تفيد بعض ﴿شَيْءٍ﴾: من شئونكم وشئون تلك الأمم، كل ذلك مُسجّل في اللوح المحفوظ، إنّ الله ﷻ يعلم الجميع، لا ينسى واحدًا من رزقه، وتدبيره، كان في الجو، أو في البحر، أو في البر، جاء في هذا السياق: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا**

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود-٦]، فيه أسماؤها، وأعدادها، يعرف ما يُسرّون وما يعلنون، ويعلم حركاتهم، وسكناتهم ﴿ثُمَّ﴾: مالك أمرهم ﴿يُحْشَرُونَ﴾: فيها قولان: قال ابن عباس: الحشر هنا الموت، وقيل الحشر يوم القيامة، جاء في هذا السياق ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير-٥] حرف الأمم المذكورة، فيها دلالة على أنها تُحشر كم يُحشر بنو آدم. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ ﷺ: مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ، وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلّا سَيُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، حَتَّى يُقْتَصَّ لِلْجَمَّاءِ مِنْ ذَاتِ الْقَرْنِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ وعطفًا على ما سبق فإنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بأدلّة وبراهين الدين الحق، يصف الله ﷻ الذين كفروا أو نافقوا بالمكذبين بآيات الله ﷻ هم ﴿صُمٌّ﴾: لا يسمعون بوسائل السمع وهي الأذن ﴿وَبُكْمٌ﴾: أيضًا الذين لا ينطقون بألسنتهم، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾: ظلمات الكفر والجهل والحيرة مثلهم في جهلهم، وعدم فهمهم، كمثل الذي لا يسمع، ولا يتكلّم، ولا يفهم كالذي في العتمة، عتمةُ العمى فهو أعمى، لا يسمع، لا يتكلم، فكيف يستوعب الإسلام. وجاء قوله ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة-١٧، ١٨] ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَأِ﴾: يرغب ﴿اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾: يجعله بعيدًا تائهًا ﴿وَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿يَشَأْ﴾: يرغب ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ﴾: طريقٍ ومنهج ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: مع الدين الصحيح.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ وأتباعه: أنْ يقولوا ما أمر الله ﷻ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: استفهام بمعنى أخبروني عن عجيب أمركم؛ كأنّه خطابٌ من النبي ﷺ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَتَاكُمْ﴾: الإتيان هو المجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه، والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبر، ويقال في الخير وفي الشر، وفي الأعيان والأعراض؛ أي حلّ ونزل بكم ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾: إذا جاءكم عذابٌ من الله ﷻ في العصور ﴿أَوْ﴾: حرف مساواة بين

---

[1] مسند إسحاق بن راهويه /٣٣٢/١(٣٢٢). صححه الحاكم في المستدرك ٣٤٥/٢(٣٢٣١) وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ والذهبي قال على شرط مسلم. وأخرج مسلم في صحيحه ١٩٩٧/٤(٢٥٨٢) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ.

متعاطفين ﴿أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾: حلّت بكم القيامة ﴿أَغَيْرَ﴾: استفهام بغرض الاستنكار ﴿اللَّهِ تَدْعُونَ﴾: هل إلى غير الله ﷻ تلجؤون؛ ليدفع عنهم العذاب؟ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إذا اتخذتم إلهًا؛ غير الله ﷻ هل تكونوا صادقين في دعوة غيره؛ ليرفع عنكم العذاب.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١)

﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿إِيَّاهُ﴾: الله ﷻ وحده ﴿تَدْعُونَ﴾: لن تجدوا غير الله ﷻ تدعون، ولا تلوذون بغيره ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب وبدون تأخير ﴿يَكْشِفُ﴾: ليصرف ويبعد عنكم ﴿مَا﴾: الذي ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾: ما يأتيكم من عذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾: إنّ إرادة الله نافذة؛ إنْ أراد أن يرفع عنكم، أو يبتليكم، فالأمر لله ﷻ وحده ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿تَنْسَوْنَ﴾: يغيب من ذاكرتكم ﴿مَاتُشْرِكُونَ﴾: في هذا الكرب، تلجؤون إلى الله ﷻ، ولا تطلبون عونًا من أصنامكم وأندادكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٢)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾: بعث الله ﷻ رسلًا ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾: شعوبٍ وقبائل ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع يفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، ومن غيرهم كعادٍ، وثمود، وقوم نوح ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾: بهذا السبب ابتليناهم، واختبرناهم ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْبَأْسَاءِ﴾: البؤس، والفقر، والسقم، وضيق العيش، والمصائب في الأموال ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أيضاً أخذناهم بالأمراض، والأوجاع، والمصائب في الأبدان ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: هنا جاءت من عند الله ﷻ؛ فتعني إشفاقًا ورحمة بهم، وتشمل المصائب في الأموال ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: حتى يعودوا إلى الله ﷻ يدعونه، ويسألونه، ويخشعون، ويتذللون.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

﴿فَلَوْلَا﴾: حرفٌ يُفيد الدلالة على منع أمر؛ لوجود غيره وبمعنى هلّا ﴿إِذْ﴾: ظرفٌ يتم استعمالهُ للمستقبل؛ لأنّه في حكم المُتحقق ﴿جَاءَهُمْ﴾: حلّ بهم ﴿بَأْسُنَا﴾: قوتنا وعذابُنا، لو أنّهم يوم أصابهم الفقر، والجوع، والمرض ﴿تَضَرَّعُوا﴾: لجأ الجميع إلى الله ﷻ؛ وسألوه، وتذللوا له؛ لكشف عنهم البلاء ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ استدراك ﴿قَسَتْ﴾: جمدت ولم تخشع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: يصف الله ﷻ حالة هؤلاء السابقين؛ الذين قست قلوبهم؛ بالكفر، ولم ترقّ، أو

تخشع ﴿وَزَيَّنَ﴾: أيضًا جمّل ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الشَّيْطَانُ﴾: هذا هو السبب: أنّ الشيطان حسّن وحببّ إليهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الشرك، والعصيان، والفساد، والعناد، وطاعة الطاغوت.

التكليف: في هذا دعوةٌ أنْ يلجؤوا إلى الله ﷻ في وقت الشدّةِ؛ بالدعاء والتضرع إليه، ولكنّهم لم يفعلوا لأنّ الشيطان أغواهم بالتصميم على الكفر.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يفيد التتابع والسبب ﴿نَسُوا﴾: تركوا الاتعاظ وأعرضوا عنه، وتناسوه عمدًا، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿ذُكِّرُوا بِهِ﴾: جاء "**الذكر**" في القرآن الكريم على ستة عشر وجهًا، معناه هنا الوعظ الذي سمعوه ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾: رزقناهم بكثرة ﴿أَبْوَابَ﴾: مصادر ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتفيد العموم، كلّ أبواب الرزق والخير من كلّ ما يريدونه؛ نستدرجهم، ونملي لهم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿فَرِحُوا بِمَا﴾: بالذي ﴿أُوتُوا﴾: إذا سرّهم ما عندهم من الأموال، والأولاد، والخير ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾: أنزلنا وألحقنا بهم ﴿بَغْتَةً﴾: جاء اللفظ بالجمع دلالة على عظم عذابهم، والفجأة، وهم غافلون

حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد السبب والسرعة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿هُمْ﴾: تحديدًا ﴿مُبْلِسُونَ﴾: هم في حال الحزين المعترض، وقد وضّح ابن عباس؛ فقال: يائسون آيسون من كلِّ خير، وقال الحسن البصري: المُبلس: من وسّع الله عليه فلم ير أنّ الله يمكر به، ومن قتر الله عليه لا رأي له، لقد أعطاهم الله ﷻ حاجتهم؛ ثم أخذها منهم، وقال قتادة: بغتَ القوم أمْر اللّه ﷻ، وما أخذ اللّه قومًا قط إلّا عند سكرتهم، وغرّتهم، ونعمتهم، فلا تغتروا باللّه، فإنّه لا يغتر باللّه إلّا القوم الفاسقون، ولا شك أنّ الغرب المسيحي واليهودي الصهيوني اليوم في قمّة التقدم والقوة، وهؤلاء تسري عليهم سنن: ما جاء في هذه الآية الكريمة. عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ

اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[1].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥)

﴿فَ﴾: حرفُ سبب استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿قُطِعَ﴾: انفصم بعضُه عن بعض، وتم استئصالهم كلّهم، وهلكوا جميعًا حتى آخرهم ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ﴾: الدابر هو الآخر، بمعنى تم قطع أولهم وآخرهم، بمعنى جميع ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿ظَلَمُوا﴾: جاروا وقسوا على أنفسهم عندما أوردوها النّار؛ بكفرهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الْحَمْدُ﴾: الشكر والثناء ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: تخصيصًا مالك أمر الإنس، والجن، والجماد، والحيوان، وكل المخلوقات، ولقد جاء تفسيرها في [الفاتحة-١].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦)

﴿قُلْ﴾: أمر من عند الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ وكلّ المسلمين من بعده ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿رَأَيْتُمْ﴾: يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ أنْ يُذكّر المُكذّبين المُعاندين مستنكرًا فيقول لهم: هل علمتم، أخبروني، قولوا لي ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَخَذَ﴾: ذهب ﴿اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾: إذا أفقدكم الله ﷻ السمع ﴿وَ﴾: أيضًا أخذ ﴿أَبْصَارَكُمْ﴾: أعماكم وذهب أيضًا ببصرهم ﴿وَخَتَمَ﴾: طبع فلم تعد تقوم بوظيفتها ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: فقدت وسائل الإدراك في الإنسان، والقدرة على معرفة وإدراك ما تظهره الحواس من السمع، والبصر؛ وهي حالة الأعمى الأصم؛ الذي لا يفقه شيئًا ﴿مَنْ﴾: حرف استفهام للعاقل ﴿إِلَهٌ﴾: معبود يستحق العبادة ﴿غَيْرُ﴾: حرف نفي واستثناء بمعنى سوى ﴿اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾: من سيعوّضكم غير الله ﷻ عن فقدانكم السمع، والبصر، والإدراك، والوعي؟ والإجابة: لا أحد ﴿انْظُرْ﴾: تأمل، وتدبّر يا محمد ﴿كَيْفَ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد العجب والاستنكار ﴿نُصَرِّفُ﴾: كيف نكرر على وجوهٍ عدّة؛ لنبيّن ونوضّح ونفسّر ﴿الْآَيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين على أنّه لا إله إلّا الله ﴿ثُمَّ﴾: يفيد هنا الترتيب والتراخي، والنكوص ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يُعرضون ولا يلتفتون، ويعدلون عن الحق، ويصدّون من آمن من النّاس، وقيل يعدلون.

---

[1] مسند أحمد ٢٨/ ٥٤٧(١٧٣١١) قال الأرناؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧)

﴿قُلْ﴾: أمر من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: هل علمتم أخبروني عن ذلك إذا أتاكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَتَاكُمْ﴾: حلَّ بكم ﴿عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾: إذا جاء عذاب الله ﷻ فجأة، إذا باغتكم دون أن تشعروا به ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يساوي ما بعدها بما قبلها، جاءكم العذاب ﴿جَهْرَةً﴾: إنْ جاءكم عذابُ الله ﷻ جهرةً، ظاهرًا عيانًا مثل الأمطار، والأعاصير، والحروق ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفسار والتشكيك هنا بمعنى ما ﴿يُهْلَكُ﴾: يُباد ويفنى ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿الْقَوْمُ﴾: الجماعة التي من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمُونَ﴾: يصيب الله ﷻ الظالمين عذابًا بظلمهم وشركهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿نُرْسِلُ﴾: نحن نبعث ونكلّف فقط ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: الرسل والأنبياء ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾: يخبرون عباد الله المؤمنين بما يسرّهم من نعيمٍ مقيمٍ، هو ما وعدهم الله ﷻ من الجزاء العظيم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مُنْذِرِينَ﴾: مُحذّرين، ومخوّفين الكفّار ومن عصاه من غضب الله ﷻ وعقابه، وما لهم عند الله ﷻ من العذاب ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا الذي ﴿آمَنَ﴾: بما نزل على رسل الله ﷻ ﴿وَأَصْلَحَ﴾: من الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان، وأصلحوا عملهم؛ باتباع الرسل ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: هؤلاء يأمنون الخوف من المستقبل، فالله ﷻ حافظهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَحْزَنُونَ﴾: يربط الله ﷻ على قلوبهم؛ فلا يتحسرون، ولا يندمون على ما فاتهم، وعلى ما تركوه وراء ظهورهم، من أمر الدنيا وزينتها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء مَمَنْ ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: لم يصدقوا بالأدلّة والبراهين على صدق الأنبياء والرسل ﴿يَمَسُّهُمُ﴾: يُصيبهم في العمق منهم ﴿الْعَذَابُ﴾: في أنفسهم، وأجسادهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي، بسبب أنهم ﴿كَانُوا﴾: في الماضي ﴿يَفْسُقُونَ﴾: يخرجون عن الحدود، ويتجاوزون أوامر الله ﷻ ونواهيه، ويقترفون ما حرّم الله ﷻ.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ هو أمرٌ ربّانيّ لكلّ مؤمن ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَقُولُ لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿عِنْدِي﴾: في الذي أملك ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾: جمع خزينة وهي ما يُخزن فيه الشيء ويُحفظ، من رزقه ﷻ. قل يا محمد للمشركين: لا أملك من مُلكِ، ورزقِ الله ﷻ، ولا أتصرف فيها، وقل ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾: لا أعرف أو أطّلع على ﴿الْغَيْبَ﴾: الذي هو كلُّ ما غاب عن علم الإنسان، قل لهم ما أعلمه هو ما يخبرني به الله ﷻ، ولكنّي لا أعلم الغيب، وقل ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿مَلَكٌ﴾: من الملائكة إنّما أنا بشر، يُوحِي إليّ ربّي، ولست من الملائكة حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة، ما لا يطيقه البشر ﴿إِنْ﴾: حرف تأكيد أنا لا ﴿أَتَّبِعُ﴾: أطيع ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾: لا أتبع إلّا أوامر الله ﷻ من الوحي ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ وكل مسلم ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهام؛ بغرض النفي ﴿يَسْتَوِي﴾: يتساوى في الحكم، والقوة، والعزم ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾: قل لا يستوي المؤمن البصير الذي يتبع الحق، مع الكافر الأعمى الذي يتّبع الباطل، والفرق بين المؤمن والكافر كالبصير والأعمى ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: ألا يدفعكم هذا إلى التدبر والتفكر؛ حتى تهتدوا، وجاء في هذا السياق: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد–١٩].

التكليف: نستخلص أنّ أهل الشرك عُميٌ وأهل الإيمان مبصرون، والفرق بينهما عظيم.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَنْذِرْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ حذّر وخوّف لأنّ الإنذار يؤثر فيهم لأنَّه الخوف من الله ﷻ؛ بخلاف من لا يخاف الحشر مع طوائف الكفر؛ لإنكارهم وجحودهم ﴿بِهِ﴾: بالقرآن ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَخَافُونَ﴾: ومعنى الخوف هنا العلم، هو ما أخبر الله ﷻ عنه يوم القيامة ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُحْشَرُوا﴾: هو الجمع الغفير، والزحام الشديد ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾: والرب هو المنشئُ للشيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، فهو تعالى مالك أمرهم كلّه ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقصٍ يفيد النفي ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا لا يملكون يومها شيئًا، ولا يساندهم أحدٌ، ولا يمنعهم أحدٌ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِهِ﴾: من غير الله ﷻ ﴿وَلِيٌّ﴾: لا نصير، ولا

معين، ولا قريب، ولا مُحبّ ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: ليس لهم شفعاء؛ يسألون الله ﷻ أنْ يكشف عنهم عذاب الله ﷻ الذي كتبه عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف إشفاقٍ من الله ﷻ، احتمال أنّهم ﴿يَتَّقُونَ﴾: وتذكير الذين يؤمنون بالله ﷻ؛ يعملون بأوامره، وينتهون عن نواهيه؛ طمعًا في رحمته، وخوفًا من عذابه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢)

عَنْ خَبَّابٍ، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام-٥٢] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام-٥٢]، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: **﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنعام-٥٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، فَقَالَ: **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾** [الأنعام-٥٣]، ثُمَّ قَالَ: **﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾** [الأنعام-٥٤]، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾** [الكهف-٢٨] وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: **﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾** [الكهف-٢٨] يَعْنِي عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعَ **﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾** [الكهف-٢٨] قَالَ: هَلَاكًا، قَالَ: أَمْرُ عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعِ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ خَبَّابٌ: فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ[1]. ﴿ولَا﴾: أيضًا ينهى الله ﷻ رسوله ﷺ ﴿تَطْرُدِ﴾: لا تُبعد، بل اجعلهم جلساءك، ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ

---

[1] سنن ابن ماجة /٢/١٣٨٢(٤١٢٧). وصححه الألباني.

﴿يَدْعُونَ﴾: هم المؤمنون الذين يُصلّون لله ﷻ في الصباح والمساء يعبدون ويسألون ﴿رَبَّهُمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْغَدَاةِ﴾: أول النّهار ﴿وَالْعَشِيِّ﴾: أيضًا آخر النّهار ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: مخلصون في عبادتهم، يريدون فقط رضا الله ﷻ، وهم مخلصون في طاعتهم وعبادتهم ﴿مَا﴾: حرف نفي، ليس ﴿عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿شَيْءٍ﴾: إنْ حسابهم إلّا على الله ﷻ، وليس عليك منه شيءٌ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ﴾: حرف يفيد التبعيض ﴿شَيْءٍ﴾: ليس عليهم من حسابك مِنْ شيء ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿تَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ﴾: في شرع الله ﷻ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: إنْ طردتهم، تُصبح بطردهم من الظالمين؛ لأنّك تجاوزت أمر الله ﷻ، الذين يضعون الشيء في غير موضعه.

التكليف: إنّ المؤمن هو جليسُ ورفيقُ المؤمن وليس على أساس الغنى والفقر أو السيد والعبد.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل هذا ﴿فَتَنَّا﴾: ابتلينا، واختبرنا، وامتحنّا ﴿بَعْضَهُمْ﴾: جزءًا منهم ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿بَعْضٍ﴾: الفقراء، والأغنياء، والمؤمنين والكافرين، فجعلناهم غير متساوين في رزق الدنيا ﴿لِ﴾: حرفٌ يفيد العلّة والسبب ﴿يَقُولُوا أَ﴾: استفهام واستنكار بغرض التكذيب ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾: الفقراء إشارة للبعيد ﴿مَنَّ﴾: تفضّل ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: بالهداية والرشاد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، تفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿بَيْنِنَا﴾: ليقول الأغنياء أهؤلاء الفقراء أفضلُ منّا؛ لأنّ غالب من اتبع الرسول ﷺ في بداية دعوته كانوا من ضعفاء النّاس، من الرجال، والنساء، والإماء؛ ولم يتّبعه من الأشراف إلّا قليل، عندما سُأل هرقل ملك الروم قَالَ: (أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ أبو سفيان: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قال هرقل: وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ، فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ)[١]. فظهرت الحقيقة من فيه من غير أن يشعر[٢]، ﴿أَلَيْسَ﴾: استفهامٌ للتوكيد ﴿اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِ﴾: حرفُ باء الصلة والتوكيد ﴿الشَّاكِرِينَ﴾: القضية ليست غنى وفقرًا ولا أفضل جاهًا ولا سلطانًا، ولكنّ الله أعلم بالشاكرين؛ بأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم.

---

[١] صحيح البخاري ٦/٣٥(٤٥٥٣).

[٢] في سبيل العقيدة الإسلامية (ص: ٢٥٥).

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٤)

هذه من آيات تأديب المسلمين، وتنظيم العلاقات بينهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَكَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ نهاهم اللهُ عن طردهم، وهم المستضعفون من المؤمنين ﴿يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِنَا﴾: هذا نمط المسلمين في لقاء بعضهم بعضًا، يقولون السلام عليكم، فيأمر الله الرسول ﷺ ﴿فَ﴾: حرفُ يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: هذا دعاءٌ بالسلامة من كلِّ مكروهٍ كما أنّها تحيّةٌ للمؤمنين في الدنيا والآخرة. إنّ من أعظم نعم الله ﷻ على الفرد والمجتمع أنْ يعيش في سلامٍ وأمنٍ؛ تطيبًا لخواطرهم وإكرامًا لهم ﴿كَتَبَ﴾: شاء، وقضى، وأوجب ﴿رَبُّكُمْ﴾: هو المنشئُ للكون كلّه من طورٍ إلى طورٍ إلى حدِّ التمام، مالك أمرهم كلّه ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾: الكريمة ﴿الرَّحْمَةَ﴾: وهنا كان الرد: وعليكم السلام ورحمة الله، بشارة من الرسول ﷺ فأوجب على نفسه الكريمة الرحمة إيجاب فض وإحسان، وقيل كتب ذلك في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّهُ مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿عَمِلَ مِنْكُمْ﴾: حرفٌ يفيد فعل الجاهلية لا فعل أهل الحكمة والتدبر ﴿سُوءًا﴾: هو: كلّ من عصى الله ﷻ؛ وسبّب الشر والضرر ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: بسفاهةٍ فهو في حالةِ جهلٍ أو سفهٍ، وقيل: الدنيا كلّها جهالة ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿تَابَ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِ وَ﴾: عطفًا على توبته من بعد عمله ﴿أَصْلَحَ﴾: أقلع عن المعاصي وعزم ألّا يعود، وأصلح في المستقبل ﴿فَأَنَّهُ﴾: حرف تأكيد، ونفي للشك ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي[١].

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ﴾: توضيح أمر الدين وتبيان الحكمة لكل طائفةٍ، لقد قدّم الله ﷻ في كتابه الكريم البيّنات، والحُجج، والأدلّة لكلّ من يرغب في الهداية والرشاد، وذمّ الله ﷻ المُجادلة، والعناد، وهذا الأول ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَسْتَبِينَ﴾: حتى يتبين لك، لتعرف ﴿سَبِيلُ﴾: طريق، ونهج، وأسلوب ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: ووسائل الكافرين، والمعاندين الذين يأمرونك بطرد المستضعفين من سبيل

---

[١] صحيح البخاري /١٠٦/٤(٣١٩٤).

المؤمنين، حتى يعرف المؤمن نمط وسلوك الكافرين، فيدرك ما فيه من شرٍ؛ فيقلع عنه بقناعةٍ ورضا.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

﴿قُلْ﴾: أمر ربّاني للرسول ﷺ وللمؤمنين من بعده أنْ يقولوا بوضوح ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿نُهِيتُ﴾: منعني، نهاني ربّي، والنهي من الانتهاء، أي أنّني انتهيت وكففت ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَعْبُدَ﴾: أطيع ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿تَدْعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: نهاني ربّي أنْ أعبد، أي أطيع ما تعبدون غير الله ﷻ، فكل معبود غير الله ﷻ لا أعبده، ولا أطيعه ﴿قُلْ لَا﴾: حرف نفي ﴿أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾: ما تريدون، وما تحبون، فإنْ فعلت ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿ضَلَلْتُ﴾: إنْ اتبعت أهواءكم أكون قد ضللت الطريق الصحيح، وتركت سبيل الحق، فصرت ضالًا مثلكم، والضالُّ هو الذي على غير استقامة ﴿إِذًا﴾: حرفٌ يُفيد جواب وجزاء ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿مَا﴾: حرف نفي أي لست ﴿أَنَا مِنَ﴾: بعض، حرف يفيد التمايز ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾: أكون من غير الذين يهديهم ربُّهم سبل النجاح والفوز في الآخرة.

التكليف: وصف الله ﷻ اتباع الهوى للكفّار بالضلال، فكل من يتبع الهوى فهو ضال، ولا شك أنّ مشاكل الدنيا نابعة من الهوى والضلال في كل جوانب الحياة.

إنّ مشاكل الأمّة الإسلامية التي لا تحلها مشاريع الهوى، والرغبات ولا حل لها إلا باتباع منهاج ربها ﷻ.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٥٧)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ بالقول لكلّ مسلمٍ ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾: علمٍ تامٍ وصحيحٍ وبرهان ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان بداية الغاية الت لا يحدّها زمانٌ أو مكانٌ ﴿رَبِّي﴾: تعني: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون حالًا فحال إلى حدّ التمام وهو تعالى الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، إنّ على الرسول ﷺ أنْ يقول بوضوح إنّه بالتأكيد يعرف الطريق، ويسير على بصيرةٍ ورؤيةٍ من شريعة مالك أمره كلّه ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق أنتم ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

وأنتم كذّبتم بالحق، أنا أؤمن وأصدق وأنتم تكذبون، هذه هي المعادلة، ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿عِنْدِي﴾: لست أملك ﴿مَا﴾: الذي ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾: أنتم أيّها الكفار الذين تطلبون أنْ يُنزل الله ﷻ بكم العذاب في الدنيا؛ كتحدٍ وتكذيبٍ للرسل وللمؤمنين، أنا كرسولٍ ليس عندي قرارُ عذابكم في الدنيا ﴿إِنِ﴾: بمعنى ما ﴿الْحُكْمُ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿لِلَّهِ﴾: إنّ قرار عذابكم في الدنيا أو الصبر عليكم هو من عنده وحده ﷻ، إنْ شاء عجّل لكم، وإنْ شاء أخرّه لحكمة هو ﷻ يعلمها ﴿يَقُصُّ﴾: يقول ﴿الْحَقَّ﴾: هو ﷻ خيرُ منْ يفصل في القضايا فصل الحق ويميزه عن الباطل ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ أيضًا ﴿خَيْرُ﴾: أفضل، وأكرم ﴿الْفَاصِلِينَ﴾: وهو خير العادلين الحاكمين بين عباده صاحب الفصل التام في الحكم.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿عِنْدِي﴾: ما تطلبون تعجيله بأنْ يكون إنزالهُ بكم مقدورًا لي ﴿مَا﴾: الذي ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾: هو القصاص، والعقاب في الدنيا، والفصل في أمركم، وإنزال العذاب بكم ﴿لَقُضِيَ﴾: تم الفصل النهائي ﴿الْأَمْرُ﴾: الخلاف ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: جاء لفظ "**القضاء**" هنا بمعنى الفصل أي الحكم، وهو ما جاء في قوله ﷻ ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر-٦٩]، بمعنى لنزل العذابُ بكم؛ بما تستحقون، وانقضى الخلاف بيني وبينكم؛ بحلول هلاككم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: صاحب العلم المطلق ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾: يقول الحق ﷻ "**أَعْلَمُ**" على وزن أفعل، وهي كلمةٌ تدلُّ على علمه المطلق بكلّ شيءٍ عن عباده الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم، ولذلك كان العذاب عظيمًا لو حدث في الدنيا.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩)

﴿وَعِنْدَهُ﴾: في ملك الله ﷻ ﴿مَفَاتِحُ﴾: جمع مَفتح أي المخزن والمِفتاح بكسر الميم جمعه مفاتيح وهو ما يحلُّ مُغلقًا محسوسًا كالقفل للباب أو معقولًا كالنظر في الحديث؛ فمن النّاس مفاتيح خير مغاليق شرّ ﴿الْغَيْبِ﴾: مخازن الغيب، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام-٥٩] خَمْسٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُهَا﴾: ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف يفيد استثناء منقطع، وتقديره إلّا

---

[1] صحيح البخاري ٥٦/٦(٤٦٢٧).

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل كالنجوم والكواكب وغيرها ﴿فِي الْبَرِّ﴾: على اليابسة ﴿وَ﴾: أيضًا يعلم ما يدبُّ على الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ ويعلم الجماد، ويعلم ما في ﴿الْبَحْرِ﴾: من حيتان، ومخلوقات، ويعلم ما في السماء من الملائكةِ، والجنّ، والكواكبِ، كل شيء ولو مثقال ذرةٍ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية، بمعنى مهما قلّ عددُها وصغرُ حجمُها ﴿وَرَقَةٍ﴾: الأوراق الجافة التي انتهى أجلها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾: فوق الأرض وقت الظلام، أو في باطن الأرض ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾: يُطلق الرَطْب على الماء وما ينبت وعلى لسان المؤمن الرطب بذكر الله ﷻ، هو الشيء الليّن ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾: وهو عكس الرطب يُطلق على التراب وعلى ما لا ينبت، وعلى لسان الكافر الجامد كالصخور لعدم ذكر الله ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: في اللوح المحفوظ، واضحٍ معلومٍ، قال عبد الله بن الحارث: ما في الأرض من شجرة، ولا غرز إبرة إلّا وعليها ملكٌ مُوَكّل، يأتي الله ﷻ بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، وجفافها إذا يبست.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٠)

﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾: يقصد ﷻ بالنوم، وهي الوفاة الصغرى، فيقبض فيه نفوسكم التي بها تتميزون عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ[1] ﴿وَيَعْلَمُ﴾: أيضاً يعلم علم المُقدّر مُسبقًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿جَرَحْتُمْ﴾: كسبتم فيه بجوارحكم ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع غير السريع ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِ﴾: حرف علة وسبب ﴿يُقْضَى﴾: يحقق، جاء معنى القضاء هنا بمعنى تم واكتمل وجاء المعنى نفسه في قوله ﷻ **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾** [طه-١١٤]، وفي قوله ﷻ **﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾** [الأحزاب-٢٣]، ﴿أَجَلٌ﴾: موعدٌ ﴿مُسَمًّى﴾: لقضاء أجلِ كلِّ إنسان معين لكل فرد من العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله

---

[1] صحيح البخاري ٩/ ١١٩(٧٣٩٣).

ﷻ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: عودتكم جميعًا يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير الفوري ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: يُخبركم مسبقًا ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾: يخبركم ﷻ بما عملتم في الحياة الدنيا، ويأتي الجزاء إنْ كان خيرًا فخير، وإنْ كان شرًّا فشر.

التكليف: إنّ الكون منضبط بالإرادة الربّانيّة، أساسها الثواب والعقاب.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الْقَاهِرُ﴾: اسم فاعل بمعنى ذو القهر التّام، والسلطان الكامل على الخلق جميعًا؛ قهر وأخضع الكون كلّه، الغالبُ ﴿فَوْقَ﴾: تفيد العلو والارتفاع والسمو ﴿عِبَادِهِ﴾: كلُّ شيءٍ لجلاله، وعظمته، وكبريائه، ليس خضوع ظلم، ولكن خضوع ذلٍّ مُحبب، ومرغوبٍ، ومفيدٍ ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: هم الملائكةُ الكاتبون، وهم أربعة: ملكان بالليل وملكان بالنهار وخامسٌ لا يُفارقُ أبدًا، هم الذين يحفظون جسم الإنسان، ويسجلون قوله وعمله؛ وقال قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَفَظَةٌ يَا ابْنَ آدَمَ يَحْفَظُونَ عَلَيْكَ رِزْقَكَ وَعَمَلَكَ وَأَجَلَكَ، إِذَا تَوَفَّيْتَ ذَلِكَ قُبِضْتَ إِلَى رَبِّكَ ﷻ[1]، قال ﷻ: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** [الرعد-١١]، هم حفظة؛ يحفظون عمله، ويحصونه، وكذلك قال ﷻ **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾** [الانفطار-١٧] ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدق إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَ﴾: حق تنفيذ ﴿أَحَدَكُمُ﴾: واحد منكم ﴿الْمَوْتُ﴾: إذا جاء الأجل، وكان الإنسان يحتضر ﴿تَوَفَّتْهُ﴾: قبضت روحه ﴿رُسُلُنَا﴾: ملائكة، مكلّفون، وموكلون بذلك، قال ابن عباس: لملك الموت أعوان من الملائكة، يُخرجون الروح من الجسد؛ فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ﴿وَهُمْ﴾: الملائكة المساعدون أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُفَرِّطُونَ﴾: لا يقصّرون، ولا يضيّعون روح المتوفى، بل يحفظونها، وينزلونها حيث شاء الله ﷻ، وقيل لا يُضيّعون فيما أُمروا به من الإكرام أو الإهانة.

التكليف: وإذا جاء الموت وانتزع ملكُ الموت الروح من النفس، قبضت الملائكة النفس وأخرجتها كاملةً من الجسد دون تفريط، وها هو ربنا ﷻ يبين لنا الفرق بين النوم والموت فإن

---

[1] المجالسة وجواهر العلم للدينوري ٢٩٢/٤(١٤٥٠). قال مشهور آل حسن: إسناده صحيح.

كانت النفس تقبض عند الموت دون تفريط، فإنها تُقبض حين النوم بتفريط، أي أنّها لا تزال متصلة بالجسد بحياتها يحيا، وبها يتقلب، ويتنفس، ثم يُبعث أسرع من طرفة عين، فيستيقظ دون أنْ يدرى أين كان، ودون أن يدرى ماذا أُخذ منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو القاهر فوق عباده.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿رُدُّوا﴾: الآية هي استكمال لما سبقها، إنّ الذين ردّوا الموت هم الملائكة، برد أرواح العباد بعد قبضها إلى الله ﷻ، وكلمة الحق هنا تعني الحق بعينه، وهناك قول الخلائق كلّهم يوم القيامة؛ فيتم الحكم بين الجميع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا، قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ قَالَ: وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى الله عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ﷻ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ، قَالَ: وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ، قَالَ حَمَّادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا، وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ. قَالَ فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ[1]. ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾: المحب، والنصير، والمؤيد ﴿الْحَقِّ أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿لَهُ﴾: تمليكًا ﴿الْحُكْمُ﴾: القضاء في كلّ أمرٍ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿أَسْرَعُ﴾: صيغة مبالغة للسرعة وعدم التأخير ﴿الْحَاسِبِينَ﴾: لا يُعجزه حسابُ شيءٍ عن أيّ شيءٍ فعله واحدٌ من خلقه، أي لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الكفر من شيء.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾: ينقذكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿ظُلُمَاتِ﴾: شدائدها العظيمة، وكأنّها عتمةٍ بعضُها فوق بعض ﴿الْبَرِّ﴾: شدائد الأرض، من الزلازل والبراكين والأمطار الغزيرة والطوفان وغيرها ﴿و﴾: أيضًا عتمات ﴿الْبَحْرِ﴾: قل يا محمد ﷺ للمشركين من يُنقذكم من المهالك التي تواجهون في البر، وفي البحر ﴿تَدْعُونَهُ﴾: عندما يأتي الخطر تدعون الله ﷻ علنًا ﴿تَضَرُّعًا﴾: دعاءكم له ﷻ مُتذللين مُتضرعين جهرًا وفي العلن ﴿وَخُفْيَةً﴾: وتدعونه متذللين سرًا تقولون ﴿لَئِنْ﴾: حرفٌ يفيد شرط وسبب

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢٢٠٢(٢٨٧٢).

﴿أَنْجَانَا﴾: إذا أنجانا اللهُ ﷻ ﴿مِنْ هَذِهِ﴾: الضائقة؛ وخرجنا منها سالمين ﴿لَ﴾: لهذا السبب ﴿نَكُونَنَّ﴾: سنصير نحنُ بكلّ تأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الشَّاكِرِينَ﴾: يستخدمون التأكيد لنكونن من الشاكرين بعد النجاة؛ لغة القائلين هنا تنطبق على الكافرين، إنّهم يشترطون شكرهم لله ﷻ بالنجاة، ولسان حالهم يقول إذا لم يُنَجِّنا اللهُ لا نكون من الشاكرين؛ ولأنّ المؤمنين يعلمون أنّ الله ﷻ هو الذي يُنجيهم من كلّ كرب، في البحر والبر، ولا يربطون شكرهم لله ﷻ بالنجاة، وهذا ما جاء في الآية التالية.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٤)

﴿قُلِ﴾: قل يا محمد ﷺ: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾: ﷻ هو الذي يكتب النجاة لكلّ النّاس، بإرادته ﷻ ﴿مِنْهَا﴾: من غرق البحر ﴿وَ﴾: أيضًا يُنجّي ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿كُلِّ﴾: جميع ﴿كَرْبٍ﴾: خطر البر، من كلّ مكروه ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع، أي على فترة زمنية طويلة ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تُشْرِكُونَ﴾: بعد زوال الكرب تُشركون مع الله ﷻ معبودات أُخرى.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

تستكمل هذه الآية الكريمة إضافات إلى الآيات التي سبقت، فبعد نجاة الكفّار من ظُلمات البر والبحر، حيث دعوا الله ﷻ في الكرب مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء-٦٧] ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكرِ، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الْقَادِرُ عَلَى﴾: ﷻ، صاحبُ القدرة التي بلا حدود، والتي لا تمنعها سدود ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَبْعَثَ﴾: أنْ يصيبكم بأنْ يُسلّط ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾: بعذابٍ جديدٍ بعد نجاتكم من العذاب الأول يأتيكم من كلّ جانب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يُفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿فَوْقِكُمْ﴾: من أعلى منكم، من أمرائكم؛ أو من السماء كالمطر، والريح، والصواعق، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام-٦٥]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فَقَالَ: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام-٦٥]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام-٦٥]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَذَا أَيْسَرُ[1]، ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: من عبيدكم، وسفلتكم، وسفهائكم، أو من مخلوقاتٍ

---

[1] صحيح البخاري /٩/١٢١(٧٤٠٦).

أخرى، مثل الغرق والزلازل، والبراكين، والخسف. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾: يجعلكم ويخلطكم في ملاحم القتال ﴿شِيَعًا﴾: مختلطي الأهواء، جاء لفظ شيع في القرآن الكريم على خمسةِ أوجه؛ هنا بمعنى الأهواء المختلفة، وجاءت بمعنى الجنس من البشر في قوله ﷻ ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[القصص–١٥]، وبمعنى الدين والملّة في قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر–٥١]، وبمعنى التفشي والانتشار في قوله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور–١٩]، فعن سعد بن أبي وقاص، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا[1]. وعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا[2]. وقال رسول الله ﷺ: وإنما أخافُ على أُمَّتي الأئمةَ المُضِلّين، فإذا وُضِعَ السيفُ في أُمتي لم يُرفعْ عنها إلى يومِ القيامةِ[3]. ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يُذِيقَ﴾: يجعلكم تحسون وتشعرون وتعانون ﴿بَعْضَكُمْ﴾: قسمًا منكم ﴿بَأْسَ﴾: وتطلق على القتل والأسر والنهب، بقوةٍ وجبروتٍ وطغيانٍ ﴿بَعْضٍ﴾: جزء آخر ﴿انْظُرْ﴾: تأمَّل واتَّعظ ﴿كَيْفَ﴾: حرف استفهام يفيد التعجب والاستنكار ﴿نُصَرِّفُ﴾: نكررُ بصورٍ مختلفة ﴿الْآيَاتِ﴾: الأدلّة، والبراهين، والحُجج الصحيحة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف يفيد الإشفاق؛ لأنّه

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢٢١٦(٢٨٩٠).

[2] صحيح مسلم /٤/٢٢١٥(٢٨٨٩).

[3] سنن أبي داود /٦/٣٠٥(٤٢٥٢). قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

جاء من الله ﷻ؛ فإنْ جاء اللفظ مِنْ الخلق فيعني الرجاء ﴿يَفْقَهُونَ﴾: يُدركون بعقولهم الحقيقة الواضحة.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾: كذبوا بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ من ربّه ﷻ ﴿قَوْمُكَ﴾: هم من كذب من قريش ﴿وَهُوَ﴾: أيضًا القرآن الكريم ﴿الْحَقُّ﴾: الصدق والعدل المطلق ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿لَسْتُ﴾: حرف نفي ﴿عَلَيْكُمْ بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿وَكِيلٍ﴾: لست عليكم بحفيظ على أعمالكم فأجازيكم بها، ولست مُتوكلًا بالرقابة عليكم.

﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧)

﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿كُلِّ﴾: جميع ﴿نَبَإٍ﴾: لكلِ خبرٍ عظيمٍ صادقٍ، وخبره أنْ يقع، في المستقبل أي يحدث ولو بعد حين، جاء في المعنى نفسه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص-٨٨]، وقال ﷻ: مهددًا ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد-٣٨] يؤكد وقوعه ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: جاء نص المستقر بمعنى النهاية كلُّ نفسٍ من الخلق تموت ﴿وَسَوْفَ﴾: أيضًا تفيد وعدًا لعملٍ في المستقبل ﴿تَعْلَمُونَ﴾: عندما تأتي النهاية ويتحقق الموت ستتأكدون وتعلمون علم اليقين نهاية ما اخبرتكم بنزوله وحصوله بكم، هل هو حقٌ أم باطلٌ.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨)

﴿وَإِذَا﴾: حرفٌ يربط بين ما بعدها مع ما قبلها ﴿رَأَيْتَ﴾: قابلت أو جلست وشاهدت ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَخُوضُونَ﴾: الخوض هو الطعن؛ يتكلمون، ويكذبون، أو يستهزئون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾: في الذي جاء في القرآن الكريم وما يشاهده النّاس من حولهم ﴿فَ﴾: حرفُ يفيد هنا جواب ﴿أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التمييز ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أنْ ﴿يَخُوضُوا﴾: يستغرقوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾: كلام ﴿غَيْرِهِ﴾: لم يقل ﷻ فأعرض عنهم، وكفى وإلّا كانت قطيعة الابتعاد عنهم؛ حتى يتحدثوا في كلام غير التكذيب، أو الاستهزاء بآيات الله ﷻ ولقد نسختها الآية الكريمة ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ ﴿وَإِمَّا﴾: وعندما، حين ﴿يُنْسِيَنَّكَ﴾: يجعلك تنسى بالتأكيد ﴿الشَّيْطَانُ﴾: تعني هذه الآية أمرًا واجبًا على كلّ فردٍ من الأمّة: يجب ألّا يجلس مع المكذبين، فإنْ جلس أحدٌ معهم ناسيًا؛ فإذا نسيت ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾: وتذكرت،

فلا تقعد معهم بعد التذكر أو بعد التذكير ﴿مَعَ الْقَوْمِ﴾: أصحاب المذهب الواحد ﴿الظَّالِمِينَ﴾: المكذبين المستهزئين بآيات الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ[1].

التكليف: ضرورة عدم القعود ومغادرة المجالس التي يُذكر فيها ما يُسيء للإسلام والمسلمين، وتجنب مجالس أهل البدع الضالّة، أو التي يُفعل فيها أو يُقال فيها المحرمات، ويدخل في هذا الاستماع أو مشاهدة البرامج من وسائل الإعلام الحديثة، مثل المذياع والتلفزيون، والمنتديات.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦٩)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي، ليس ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممّنْ ﴿يَتَّقُونَ﴾: ليس هناك ذنبٌ على المتقين إذا تجنبوهم، ولم يجلسوا معهم، فلن ينالهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد بعض ﴿حِسَابِهِمْ﴾: من إثمهم، وذنوبهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد عموم الأشياء، من ذنبٍ أو خطيئةٍ ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿ذِكْرَى﴾: هي الموعظة والعبرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف يفيد الترجي إنْ جاءت من الخلق أمّا إذا جاءت من الله ﷻ فتعني الإشفاق ﴿يَتَّقُونَ﴾: أمر الله ﷻ المؤمنين أنْ يُعرضوا عن المجرمين؛ تذكيرًا لهم عمّا يقترفونه من حديث؛ لعلهم يكفّون، ويتقون؛ ولا يعودون إليه. ومن آداب المجالسة لا يجب مجالسة الذين يخوضون فيما يغضب الله ﷻ من الكفّار والملحدين، وأمثالهم إذا خاضوا فيما يغضبه ﷻ.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿ذَرِ﴾: دع واترك وأعرض عن ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿اتَّخَذُوا﴾: اعتمدوا وجعلوا مِنْ ﴿دِينَهُمْ﴾: دين الحق والعقيدة الصحيحة ﴿لَعِبًا﴾: وسيلة تسلية، فلا يتعلق قلب المؤمن بهم فإنهم أهل تعنت ﴿وَلَهْوًا﴾: ولا تجلس مضيعةً للجهد والوقت ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أيضًا خدعتهم مظاهر ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: من المال، والجاه، والسلطان ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾: حذّر النّاس من نقمة الله ﷻ، وعذابه الأليم يوم القيامة ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُبْسَلَ﴾: من البسل الذي هو في اللغة التحريم والمنع ﴿نَفْسٌ بِمَا

---

[1] صحيح البخاري ٨/١٠١(٦٤٧٨).

﴿كَسَبَتْ﴾: تُستسلم تُفتضح، تُحبس في النّار، تؤاخذ، تُجزى بما ارتكبت من جرائمٍ في حقِ نفسها، وغيرها، ودينها، كلّها قالها الصحابة، وهي متقاربة في المعنى، الاستسلام للتهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يُفيد النفي ﴿لَهَا﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ وَلِيٌّ﴾: ليس لها قريب، أو نصير، أو مؤيد ﴿وَلَا﴾: ليس لها ﴿شَفِيعٌ﴾: ولا صاحب حُظوةٍ عند الله ﷻ؛ فيشفع فيها ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَعْدِلْ﴾: تفتدي ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾: بكلِّ فدية، لو بذلت كلّ جهدٍ، وعملت أيّ عمل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾: لا يُقبل منها ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد هؤلاء الذين جاء ذكرهم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا﴾: بالذي ﴿كَسَبُوا﴾: حُبسوا في النار هؤلاء الذين افتضح أمرهم، وأسلموه، وحبسوا أنفسهم فيما فعلوا ﴿لَهُمْ﴾: سينالهم تخصيصًا ﴿شَرَابٌ مِنْ﴾: حرف يفيد التمييز ﴿حَمِيمٍ﴾: شرابُ أهل النّار، الماء المغلي، الحميم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أيضًا شديدُ الوجع ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: النّار التي وعدهم الله ﷻ جزاء كفرهم؛ فلا جلوس مع المستهزئين بدينهم.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١)

أسباب النزول: قال المشركون للذين أسلموا ارجعوا إلينا؛ واتركوا محمدًا ودعوته نُعطكم ما تطلبون؛ فأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ﴾: أمر للرسول ﷺ ﴿أَنَدْعُواْ﴾ حرفُ الألف للاستفهامِ بغرض الاستنكار والتكذيب، ومعنى الدعاء هنا العبادة وقد جاءت بالمعنى نفسه في قوله ﷻ **﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾** [الشعراء-٢١٣] وفي قوله ﷻ **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [العنكبوت-٤٢] كيف نطلب ونتوسل بأي وجه من الوجوه النافعة نطلب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يُفيد بداية الغاية، أي المصدر ﴿دُونِ﴾: مما هم غير ﴿اللَّهِ﴾: هل نعبد أصنامًا وحجارة ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَا يَنْفَعُنَا وَ﴾: أيضًا ليس لنا منها أيّ منفعةٍ في أي وجهٍ من الوجوه، أيضًا ﴿لَا يَضُرُّنَا وَ﴾: أيضاً لا تملك لنا ضررًا؛ عطفًا على هذا ﴿نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾: كالذي انقلب على ظهره، أي العودة إلى الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما حدث في الماضي ﴿هَدَانَا اللَّهُ﴾: يُنسبون ما هم فيه من إيمان وهدى لله ﷻ، فهو الذي سهّل لهم، وقبلهم ﴿كَ﴾: حال ومثل ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد المُذكر ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾: سيّرته؛ فأضلته فهوت به ﴿الشَّيَاطِينُ فِي

﴿الْأَرْضِ﴾: هذا مثل رجلٍ ضلّ السبيل منهجًا أو طريقًا؛ فجاءه مردة الجنّ، يدعونه باسمه واسم أبيه وجدّه، ﴿حَيْرَانَ﴾: لا يعرف أين يذهب ﴿لَه أَصْحَابٌ﴾؛ فدعاه بعضُ رفاقه مدّعين أنّهم يعرفون الطريق، دعته الشياطين باسمه واسم أبيه وجده، أنْ يتّبعهم كرجلٍ حيرانٍ يدعوه أصحابه إلى الطريق الذي يريده، هو الذي لا يستجيب لهدى الله ﷻ، رجلٌ أطاع الشيطان، وأطاع الجن فهم ﴿يَدْعُونَهُ﴾: كذبًا وبهتانًا ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى معرفة الطريق الصحيح والمنهج الحق الصواب ﴿ائْتِنَا﴾: يطلبون منه أنْ يتبعهم حتى لا يتيه، ولا يضيع، وهو في حيرةٍ من أمره، فيتبعهم ويطيعهم ﴿قُلْ﴾: أرشدهم يا محمد ﷺ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿هُدَى اللَّهِ هُوَ﴾: ضميرٌ يُفيدُ المفرد الغائب المذكر ﴿الْهُدَى﴾: يأمر الله ﷻ محمدًا ﷺ أنْ يأمر عباد الله أنْ يقولوا: إنّ من هداهُ اللهُ ﷻ فقد اهتدى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّهُ الله ﴿وَأُمِرْنَا﴾: من الله ورسوله ﷺ ﴿لِنُسْلِمَ﴾: نُخلص العبادة تخصيصًا ﴿لِ﴾: حرف تمليك ﴿رَبِّ﴾: هو المنشئُ لكلّ شيءٍ من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، مالك أمرهم كلّه ﴿الْعَالَمِينَ﴾: نسلم أمرنا لله وحده؛ فإنّ طريقهُ هو طريق الهدى، وما عداه فهو باطل.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢)

يأتي توجيه الله ﷻ للحيارى، والذين تنازعهم دعوات الكفّار، ويتحيّرون، فيقول لهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَقِيمُوا﴾: أدّوا ﴿الصَّلَاةَ﴾: على الوجه الصحيح: إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء، والمنكر، والبغي، فهي علاجُ الحيرة والتردد ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: أيضًا تجنبوا غضب الله ﷻ، بطاعته بقناعة؛ طمعًا في رضوانه، وانتهاءً عن معصيته، خوفًا من عذابه ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: يُذكّر الله ﷻ أنّ نهاية الخلق ومصيرهم ومآلهم عنده وحده ﷻ يوم الحشر، وما بعده له الحكم وحده يوم الفصل، ولا ينفعكم إلّا ما قدمتم من الصالحات.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣)

﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد الواحد ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق وجود ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿وَ﴾: أيضًا خلق ﴿الْأَرْضَ﴾: يُخبر الله ﷻ أنّه خالق، ومالك، ومدبّر السموات والأرض ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْحَقِّ﴾: ومعنى الحق هنا الصدق، يأمر ﷻ بالبعث والحشر؛ فتطيعه الخلائق، التي خلقها في أحسن خلق،

بقوانينٍ تُسيّرها بأفضلِ صورةٍ، وأحسنِ أداءٍ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾: ﷻ ﴿كُنْ﴾: فعل أمر يكون بلا تأخير وهو الوجود، الصيرورة ﴿فَـ﴾: حرفُ سببٍ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿يَكُونُ﴾: يصير يوم القيامة، يأمر الله ﷻ بأنْ يكون الشيء، فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: ما يقوله ﷻ هو الصدق والعدل ﴿وَلَهُ﴾: أيضًا له تخصيصًا وتمليكًا ﴿الْمُلْكُ﴾: ملك السموات والأرض، وما بينهم ﴿يَوْمَ﴾: القيامة ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾: يُنفخ في القرن النفخة الأولى للفناء، والنفخة الثانية للإنشاء: هو النفخ في القرن، والذي ينفخ فيه هو إسرافيل، عليه السلام، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا[١]. ﴿عَالِمُ﴾: صاحب مطلق العلم ﴿الْغَيْبِ﴾: يعلم علم اليقين غير المعروف، وغير المرئي، والذي هو في المستقبل ﴿وَ﴾: أيضًا هو عالم ﴿الشَّهَادَةِ﴾: وما يشاهده المخلوق ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: في جميع ما يصدر عنه، يأمر بالصدق، والحكمة البالغة ﴿الْخَبِيرُ﴾: عنده خبر كل مخلوق من الإنس، والجن، وما في السموات وما في الكون.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾: هذا لقبُ والد إبراهيم عليه السلام، كان اسمُ أبي إبراهيم هو "تارخ"، فقد قال مجاهد والسدي: آزر، هو اسمُ صنمٍ، لكثرة ما عبد أبو إبراهيم الصنم، غلب عليه، والله ﷻ أعلم، قال ابن جرير: معناه معوّج، وهي سبٌّ، وعيبٌ في كلامهم، وهي كلمةٌ شديدةٌ، قالها إبراهيم وقال ابن جرير: إن اسم أبيه آزر، وقد يكون له أسماء كما لكثيرٍ من النّاس، أو يكون أحدُهما لقبًا ﴿أَتَتَّخِذُ﴾: استفهام بغرض التوبيخ، أيُعقل أنْ تعتمد ﴿أَصْنَامًا﴾: والصنم هو شكلٌ مصنوعٌ من الحجارة ﴿آلِهَةً﴾: معبودات؟ وعظ إبراهيم عليه السلام أباه قائلًا أتعبد أصنامًا من دون الله ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أَرَاكَ﴾: في تقديري المؤكد الصحيح أنّك ﴿وَقَوْمَكَ﴾: أيضًا أرى عشيرتك ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: في تيهٍ وغفلةٍ عن طريق الحق؛ بعبادتكم للأصنام ﴿مُبِينٍ﴾: واضحٍ ومكشوفٍ، أنتم تسلكون طريق التائهين، أنتم في حيرةٍ وجهلٍ.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥)

---

[١] سنن الترمذي /٤/٦٢٠(٢٤٣١). وقال: هذا حديث حسن؛ وقد روي من غير وجه.

﴿وَكَذَلِكَ﴾: هكذا أيضًا ﴿نُرِي﴾: جعلناهُ يشاهد في الماضي ما فيهما من الخلق عيانًا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: نبيّن لإبراهيم عليه السلام ﴿مَلَكُوتَ﴾: تعني ملك وزيدت الواو والتاء للمبالغة في صفة الملك فقد كُشف له عليه السلام زيادة من السماوات والأرض حتى رأى العرش وأسفل الأرضين؛ آياتٌ وعجائبُ ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل، وقيل كشف اللهُ تعالى عن ذلك حتى رأى إبراهيم عليه السلام، العرش، وإلى أسفل الأرضين، وقيل رأي ملكوت السماوات والأرض ما قصّه الله تعالى في هذه الآية ﴿وَالْأَرْضِ﴾: أيضاً كلّ ما في الأرض من ماءٍ، وزرعٍ، وإنسانٍ، وحيوانٍ، وطيرٍ، وثرواتٍ؛ هذا الخلق البديع، من نجومٍ، وكواكبٍ، وشمسٍ، وقمرٍ، وأرضٍ، بما عليها من إنسٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ؛ البراهين الواضحة في خلق الله تعالى؛ التي تؤكد وحدانية الخالق، وأنّه المتصرف الوحيد في ملكه، وأنّه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه ﴿وَلِيَكُونَ﴾: عطفًا على هذا ليصبح ويصير ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، جزءٍ أو بعض ﴿الْمُوقِنِينَ﴾: المُصدقين بلا شك، هذا منهجٌ قرآنيٌّ عظيم، يُخاطب العقل، ويعرض له الحقائق؛ ليصل الإنسان إلى حقيقة ما أراد الله تعالى له؛ أنْ يُدرك بقناعةٍ؛ فيكون مُتيقنًا، مُدركًا، متأكدًا، واثقًا؛ لأنّ استخدام الحقائق، والأدلّة والبراهين الصحيحة يقود إلى الإيمان.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿جَنَّ﴾: لما غطّى ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾: غطى الظلام إبراهيم عليه السلام، وستره ﴿رَأَى﴾: شاهد إبراهيم عليه السلام ﴿كَوْكَبًا﴾: ولأنّ الإيمان يُنير بصيرة الإنسان ظنّ إبراهيمُ أنّ الكوكب ربًّا؛ ﴿قَالَ﴾: إبراهيم عليه السلام ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، وهو يعني هنا الكوكب ﴿رَبِّي﴾: لم يكن هذا القولُ إقرارًا من إبراهيم عليه السلام بربوبية القمر والشمس له ولكن المقصود على قولكم أو زعمكم هذا ربي؛ وهناك تفسيرٌ آخرُ وهو على حذف الاستفهام؛ أي: أهو ربّي هذا الذي أرى! كان هذا القول الحُجّة على قومه كالمحاكي لما هو عندهم، وما يعتقدون لأجل إلزامهم ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾: غاب الكوكب، واختفى، أي ذهب ضوؤه ﴿قَالَ﴾: إبراهيم عليه السلام بفطرته: ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾: علم إبراهيم عليه السلام أنّ الرّب لا يغيب، وهذا أسلوب تدرج الإيمان بالاستثناء.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿رَأَى﴾: شاهد إبراهيم عليه السلام ﴿الْقَمَرَ بَازِغًا﴾: طالعًا ومضيئًا ﴿قَالَ هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، وهو هنا القمر ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري، ومعبودي ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾: هو غياب ضوء النيران، هنا بمعنى غاب القمر عن الظهور ﴿قَالَ﴾: عليه السلام ﴿لَئِنْ﴾: حرفٌ يُفيد الشرط يتبع ما بعده ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِنِي﴾: يُرشدني ويدلّني على الصواب ﴿رَبِّي لَأَكُونَنَّ﴾: حرف اللام يفيد السبب؛ أصير بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، بعض ﴿الْقَوْمِ﴾: مجموعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿الضَّالِّينَ﴾: التائهين، الحيارى؛ البعيدين عن الصواب.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨)

﴿فَلَمَّا﴾: في تتابعٍ وبسبب أنْ ﴿رَأَى﴾: شاهد إبراهيم عليه السلام ﴿الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾: طالعةً، ومُنيرةً ﴿قَالَ﴾: إبراهيم ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري كلّه، الذي يدلّني على ما أبحث عنه والسبب أنّ ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾: الشمس هي ربي؛ لأنّها أكبرُ من القمر، وأكبر من الكوكب، وأكثرُ إضاءةً؛ فهو حريّ بأن يكون الإله ﴿فَلَمَّا﴾: وبسبب أنّ الشمس ﴿أَفَلَتْ﴾: غابت، الشمسُ التي هي موقدٌ عظيم من غاز الهليوم المشتعل ﴿قَالَ يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: نادى في أقاربه ﴿إِنِّي﴾: بالتأكيد وتحديدًا ﴿بَرِيءٌ﴾: تبرأ إبراهيم عليه السلام ﴿مِمَّا﴾: حرفٌ يُفيد بعض أو كلّ بمعنى من الذي ﴿تُشْرِكُونَ﴾: تبرأ من عبادة قومه لهذه المخلوقات، التي تحضر، وتغيب، لقد كان هذا أسلوب إقناع بغيرِ إساءةٍ للنّاس، وهو من الأساليب الدعوية الناجحة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩)

﴿إِنِّي﴾: هنا أخذ إبراهيم مهمة مواجهة قومه ليُبطل عقيدتهم؛ ويُوضّح أسباب بطلان معتقدهم المبني على عبادة غير الله ﷻ؛ ويحدّدُ موقفًا صحيحًا واضحًا بكلِّ تأكيد ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾: أسلمت أمري، كل ذاتي وعبادتي ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالمفرد هنا هو الواحد الأحد، الفرد، الصمد ﷻ ﴿فَطَرَ﴾: خلق وأبدع من غير مثال سابق ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لأنها كروية الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا فطر ﴿الْأَرْضَ حَنِيفًا﴾: مائلًا عن الشرك، متحيزًا للتوحيد ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أَنَا﴾: بالتحديد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: يتبرأ إبراهيم من المشركين؛ ومؤكدًا إخلاصه للدين الصحيح، وإفراده العبادة لله ﷻ، لقد كان إبراهيم عليه السلام، يعظ أباه، ويبيّن له

ولقومه خطأهم في عبادة الأصنام، التي صنعوها بأيديهم على شكل الملائكة؛ عبدوها لتشفع لهم عند الخالق العظيم، حيث سفّه إبراهيم عبادة هذه الكواكب، وتبرأ منها، وأكّد لقومه أنْ كوكب الشمس، أو الزهرة مُسخّرة، ومسيّرة، قال بعضهم إنّ إبراهيم كان ناظرًا في هذه الكواكب، متأملًا، والقرآن يشهد بعكس ذلك؛ جاء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء-٥١، ٥٢].

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على موقف إبراهيم عليه السلام وما قاله لقومه ﴿حَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾: خاصموه، وواجهوه بُحججهم؛ وجادلوه في التوحيد؛ لتبرير عبادتهم الملائكة والكواكب؛ وخوّفوه، وهددوه؛ فأوحى إليه ربُّه سبحانه وتعالى أنْ يسأل قومه: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾: أتجادلونني في حقيقة الله سبحانه وتعالى في كونه لا شريك له، ولا ندّ، ولا ضدّ ﴿وَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿هَدَانِ﴾: وقد بصّرني فيما سبق، وهداني للحق، وأنتم تريدون أنْ أكون مثلكم في الضلالة، والجهالة، وعدم الهداية ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَخَافُ مَا﴾: الذي ﴿تُشْرِكُونَ بِهِ﴾: أعلنها إبراهيم عليه السلام: لا أخاف آلهتكم؛ فكيدوني، ولا تتأخروا؛ لأنّي لا أبالي ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾: هذا استثناءٌ منقطعٌ: لا يضرُّ ولا ينفع إلّا الله عز وجل ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم ﴿عِلْمًا﴾: أحاط ربّي علمًا بكلِّ شيءٍ، وكلمة "**شيء**" نكرة تفيد العموم ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفهام للاستنكار ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾: ما قلته عن آلهتكم، وأبطلت به حُججكم؛ هكذا تحداهم، عليه السلام.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١)

﴿و﴾: عطفًا على ما سبق ﴿كَيْفَ﴾: حرف استفهام يفيد التعجب والاستنكار ﴿أَخَافُ مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾: كيف أخاف من أصنامكم؛ التي لا تنفع، ولا تضر، وهذا يقينٌ إيماني في مواجهة كفر ضعيف الحُجّة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تَخَافُونَ أَنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾: جعلتم مع الله سبحانه وتعالى آلهةً أخرى ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: وكيف لا تخافون أنْ أشركتم بالله سبحانه وتعالى، صاحب القوة التي لا تفتر ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾: أيُّ حُجّة لكم، وليس لكم حُجّة ولا سلطان ولا برهان ﴿فَ﴾:

حرفٌ جواب الشرط ﴿أَيُّ﴾: حرف استفسار يفيد الشرط ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾: المؤمنين والكافرين ﴿أَحَقُّ﴾: معنى أحق هنا أولى ﴿بِالْأَمْنِ﴾: الأمن الذي هو طمأنينة النفس وزوالُ الخوف، فَقَالَ ﷺ: وَكَيْفَ أَخَافُ وَأَرْهَبُ مَا أَشْرَكْتُمُوهُ فِي عِبَادَتِكُمْ رَبَّكُمْ فَعَبَدْتُمُوهُ مِنْ دُونِهِ وَهُوَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَوْ كَانَتْ تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ لَدَفَعَتْ عَنْ أَنْفُسِهَا كَسْرِي إِيَّاهَا وَضَرْبِي لَهَا بِالْفَأْسِ، وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى نَفْعِكُمْ وَضَرِّكُمْ فِي إِشْرَاكِكُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام-٨١] رُوي أنّهم هددوه: أما تخاف أن يُصيبك أن يُصيبك أذى من آلهتنا لسبّك إيّاها. وكأنّ حاله يقول: أربٌّ يبولُ الثُّعلُبانُ برأسه؟ لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالبُ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: وتأتي الإجابة في الآية التالية:

﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿آَمَنُوا﴾: تصديقًا وتسليمًا ﴿وَلَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَلْبِسُوا﴾: يخلطوا ويشوهوا ﴿إِيمَانَهُمْ﴾: الذين أخلصوا العبادة لله ﷻ وحده ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿ظُلْمٍ﴾: ولم يُخفوها ولم يشركوا به شيئًا، فيظلمون أنفسهم بهذا الشرك، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿الْأَمْنُ﴾: لأنّ أصنامهم لا تضرّهم، وأنّ الله ﷻ قادرٌ على أخذ المشركين أخذًا وبيلًا، فالأمن من نصيب المؤمنين بالله ﷻ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿مُهْتَدُونَ﴾: يصلون إلى أهدافهم في الدنيا، وينالون ثواب الآخرة؛ بسبب هداهم. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام-٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان-١٣][١]، وعَنْ سَخْبَرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ، ثُمَّ سَكَتَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَالَهُ؟ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٢].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣)

---

[١] صحيح البخاري ٦/ ١١٤(٤٧٧٦).

[٢] المعجم الكبير للطبراني /١٣٨/٧(٦٦١٣). قال ابن حجر في فتح الباري: ١٠٩/١٠: إسناده حسن.

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾: ما تقدم من الحجج التي أوردها إبراهيم عليه السلام، قولُنا الحق الداحضة لحُجج الكفّار ﴿آتَيْنَاهَا﴾: علمناها ﴿إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظمها؛ ليحاج إبراهيم عليه السلام قومه؛ فيدحض معتقداتهم، وهي ما جاء في الآية السابقة ﴿نَرْفَعُ﴾: نُعلي شأن ﴿دَرَجَاتٍ﴾: منزلة ومقام ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿نَشَاءُ﴾: يرفع الله بصيغ الجمع للتفخيم، منزلة من أراد الله سبحانه وتعالى لهم، وهم إبراهيم، والمؤمنين معه بالهداية والإرشاد إلى الحق ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾: يفعل ويقول الصواب في كلّ شيءٍ ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم ما في ملكه، يوجّه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليثبّت به فؤاده، إنّ مصدر دعوتك هو الله سبحانه وتعالى ومن صفاته، صاحب العلم الكامل بمن سيهتدي، ومن سيضل بعدما تُقام الحُجّة والبراهين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿وَهَبْنَا﴾: أعطينا تكرمًا منّا وإفضالًا بلا ثمن ﴿لَهُ﴾: حرف تخصيص لإبراهيم عليه السلام ﴿إِسْحَاقَ﴾: يذكر الله سبحانه وتعالى أنّه وهب لإبراهيم، وقد طعن في السن، ابنه إسحق، وكانت امرأته سارة عجوزًا، فبشّرته الملائكةُ أنّ إسحاق سيكون نبيًّا ﴿وَ﴾: أيضًا بشروا إبراهيم عليه السلام بولده ﴿يَعْقُوبَ﴾: وبشّروه أنّه بعد إسحاق سيكون يعقوب ولدًا حفيدًا في حياة إبراهيم، وزوجته سارة ﴿كُلًّا﴾: الاثنان ﴿هَدَيْنَا﴾: هداهم الله سبحانه وتعالى للإيمان، وكلّفهما بالنبوة ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: تذكير كيف هدى الله سبحانه وتعالى سيدنا نوحٍ، عليه السلام، وخصوصية هذا الحدث تحمل البشرى لإبراهيم، وولده، وحفيده، فقد أغرق الله سبحانه وتعالى كل من على الأرض إلّا من آمن مع نوح عليه، السلام، وكانوا معه في السفينة، وكأنها إشارة لإبراهيم ببقاء ذريته من بعده من الصالحين، لم يبعث اللهُ سبحانه وتعالى من بعد إبراهيم نبيًّا إلّا من ذريته عليه السلام، جاء في السياق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت-٢٧] ﴿وَمِنْ﴾: أيضًا بعض ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾: أيضًا هدينا من ذرية نوح ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾: والضمير يعود على نوحٍ؛ وكلّهم من ذريةِ إبراهيم عليه السلام ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق أعدّ الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الأنبياء من النعم التي عددها على إبراهيم عليه السلام؛ لأن شرف الأبناء متصلٌ بالآباء ﴿كَذَلِكَ﴾: تعني أيضًا وبمثل هذا ﴿نَجْزِي﴾: نُكافئ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: من يعبد الله كأنّه يراه، كانت النبوة والكتاب جزاءَ الذين يعبدون الله سبحانه وتعالى بصدق.

التكليف: هنا جاء وصف إبراهيم عليه السلام، بأنّهم محسنين، وسيأتي في الآية رقم (٨٥) بأنّهم صالحون، وفي الآية (٨٦) التفضيل على العالمين. فكما يُتوارث الكفرُ فإنّ الإيمان يُتوارث، فلتورث خلفك مؤمنين.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق من ذكر أسماء الأنبياء يأتي ذكر **﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَ﴾**: أيضًا جاء ذكر **﴿عِيسَى﴾**: عليه السلام هنا في ذرية إبراهيم أو نوح عليهما السلام؛ **﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى﴾** إِلَى قَوْلِهِ ﷻ **﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾** [الأنعام-٨٥] فَأَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ أَنَّ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بِأُمِّهِ وَالْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ مِنْ ذُرِّيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأُمِّهِ[1]، **﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾**: جميعهم **﴿مِنَ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع **﴿الصَّالِحِينَ﴾**: الذين يعملون ما يُعمِّر النفس والكون.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦)

وذكر الله سبحانه وتعالى تكريمًا **﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾** عليهم السلام **﴿وَ﴾**: عطفًا على ما سبق **﴿كُلًّا﴾**: حرف يفيد الردع والزجر والاستنكار **﴿فَضَّلْنَا﴾**: جعلناه أكثر خيرًا وأكرمَ منزلة **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**: ووصفهم بأصحاب الفضل على كلّ الخلائق، قيل هو الخضر، وقيل هو صاحب إلياس وكانوا قبل يحيى وعيسى عليهما السلام.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧)

ويكمل الحق سبحانه وتعالى ذكر التكريم والتذكير بأنبيائه الصالحين **﴿وَمِنْ﴾**: أيضًا تفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿آبَائِهِمْ﴾**: بذكر أصول الأنبياء **﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾**: وأيضًا فروعهم **﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾**: والأخ والأخت هم المشارك لآخرَ من الأب والأم أو أحدهما من الأب أو الأم الإخوة من الأنبياء كموسى وهارون، عليهما السلام، والاختيار الذي شملهم جميعًا **﴿وَ﴾**: وعطفًا على ما سبق **﴿اجْتَبَيْنَاهُمْ﴾**: اخترناهم واصطفيناهم بالنبوّة **﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾**: علّمناهم كيف العمل **﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾**: طريق **﴿مُسْتَقِيمٍ﴾**: الطريق المعتدل الذي لا اعوجاج فيه؛ وهو الدين الحنيف.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨)

﴿ذَلِكَ﴾: يقصد الهداية والتفضيل المفهومة مما تقدم **﴿هُدَى﴾**: معرفة الصواب من **﴿اللَّهِ﴾**: هذا حدث بفضل الله سبحانه وتعالى إذ هداهم بتوفيقه **﴿يَهْدِي بِهِ﴾**: يدلُّ ويُرشد بالدين وبالرسل **﴿مَنْ﴾**:

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/١٨٠(٤٧٧٢) سكت عنه الذهبي في التلخيص.

الذين من بني آدم ﴿يَشَاءُ مِنْ﴾: حرف يفيد بعض ﴿عِبَادِهِ﴾: يدلُّ ويسهّل، الرحمة، ويتمُ الفضل على من يشاء من عباده ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَشْرَكُوا﴾: بالله ﷻ ﴿لَ﴾: حرف علة وسبب ﴿حَبِطَ﴾: انتفخ مرضًا وفسادًا ﴿عَنْهُمْ مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: عبادتهم، الأمر مرتبطٌ باستمرارهم على عبادة الله ﷻ؛ حتى إذا أشرك أحدُهم أو كلُهم، وانتفخ عملُه حبط عنهم، ذهب، واختفى، وزال كلُّ عملٍ عملوه، هذه قاعدةٌ ممتدةٌ على كلّ الخلق، في كلّ زمانٍ وكلّ مكان.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

﴿أُولَئِكَ﴾: الأنبياء المذكورين سابقًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾: وهبنا لهم ﴿الْكِتَابَ﴾: بعثناهم أنبياءً ورسلًا، إنقاذًا للبشرية، وعلّمناهم دستورهم الذي من جنس الكتاب، وكُلّهم من مشكاةٍ واحدةٍ، كان آخره القرآن الكريم ﴿وَ﴾: أيضًا آتاهم الله ﷻ ﴿الْحُكْمَ﴾: جعل اللهُ ﷻ منهم ملوكًا، وقادةً، حكموا النّاس بما يرضى الله ﷻ ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾: كلُّ منهم كان نبيًّا يتلقى تعاليمه من الله ﷻ ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط وتأكيد ﴿يَكْفُرْ بِهَا﴾: من يكفر بالنبوة، وقد يُقصد بها الكتاب، والحكم، والنبوة ﴿هَؤُلَاءِ﴾: قال ابن عباس: أهل مكّة وغيرهم، أو العرب، أو أهل الأرض كلّهم ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿وَكَّلْنَا﴾: كلّفنا ﴿بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾: مثل المهاجرين، والأنصار، وأتباعهم إلى يوم القيامة؛ لا يخفونها ولا يجحدونها، ولا يُفرّطون بحرفٍ منها، أو كلمةٍ، يؤمنون بجميعها المُحكم، والمتشابه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للقريب والبعيد، الذين جاء ذكرهم من الأنبياء، إضافة إلى الآباء والأبناء، والإخوان، والأخ والأخت هم المشارك لآخر من الأب والأم أو أحدهما وغيرهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿هَدَى اللَّهُ﴾: الهُدى هنا بمعنى سنّة الله ﷻ، المُنعم عليهم بالهدى ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد ربط جواب الشرط مرتبط بالهدى ﴿بِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾: بمعنى اتبع وزيد هنا حرف الهاء للسكت. بهذا السبب ودونَ تأخير، السير على منهج هؤلاء القدوة، اقتد واتبع، وهو توجيه لأُمّةِ محمدٍ ﷺ، الاقتداء بهؤلاء، وآخرهم محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾: أمر ربّانيّ لمحمد ﷺ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾: أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: لا أريد ثمنًا لما أبلّغكم

به من القرآن، وما أعلّمكم من السُنّة، ولا ثمن الحروب، والآلام، والمتاعب ﴿إِنْ هُوَ﴾: القرآن الكريم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿ذِكْرَى﴾: تذكير وتحذير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: كلِّ المخلوقات من الإنس، والجن، والجماد، والحيوان، والسماء، والأرض، عن مُجَاهِد أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ: أَفِي ص سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام-٨٤] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام-٩٠]، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ[1].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿قَدَرُوا اللَّهَ﴾: ما عظّموا الله ﷻ ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾: حق تعظيمه، يعود الضمير على أهل قريش، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ يُخَاصِمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَمَا تَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ؟ وَكَانَ حَبْرًا سَمِينًا، فَغَضِبَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ: وَيْحَكَ، وَلاَ مُوسَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ الآيَةَ[2]. ﴿إِذْ﴾: حرف يفيد التحقيق في الماضي وهنا بمعنى التعليل ﴿قَالُوا مَا﴾: حرف نفي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ﴾: إنسان من بني آدم ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، جزءٍ أو بعض ﴿شَيْءٍ﴾: تفيد العموم أنّ اليهود يعترفون بنزول التوراة، ولكنّ قريش أنكرت تمامًا ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ لمحمد ﷺ ﴿مَنْ﴾: سؤال عن الجنس العاقل ﴿أَنْزَلَ﴾: وحيًا عبر الملائكة ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾: وهو التوراة، يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أنْ يُحاج من أنكروا نزول الكُتب السماوية؛ فأمره أنْ يسألهم: من أنزل التوراة؟ ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾: بني آدم، جاء معنى النور هنا تبيان الحلال والحرام، والمواعظ التي جاءت في التوراة، التي تجيب على كلّ سؤال، إنّ المصباح يضيء كلّ زاوية، ويكشف كلّ خفيّ ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾: هذا اسلوب التفات إلى خطاب اليهود، تقسّموا التوراة في قراطيس مفرّقة، قطعًا، أجزاءَ تُكتب من الكتاب

[1] صحيح البخاري ٦/٥٧(٤٦٣٢).

[2] تفسير الطبري /٩/٣٩٣(١٣٥٩١). بإسناده عن سعيد بن جبير مرسلًا.

الأصلي، كانت تجزئة الكتاب وسيلةً لكم ليتم التحريف، والتأويل، والتبديل، لما يشاؤون، وإخفاء صفة الرسول محمد ﷺ المذكورة فيه ما يشاؤون منها، ﴿تُبْدُونَهَا﴾: تُظهرون قليلًا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿تُخْفُونَ﴾: تحجبون عن عمدٍ ﴿كَثِيرًا﴾: غالبًا ما في الكتاب تم إخفاؤه ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿عُلِّمْتُمْ﴾: علّمناكم ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُوا﴾: من قبل ﴿أَنْتُمْ وَلَا﴾: حرف نفي لم يتعلمه ﴿آبَاؤُكُمْ﴾: أيها العرب، وهو ما جاء في القرآن الكريم، الذي فيه خبر من قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، قال قتادة: يعود الضمير هنا على مُشركي قريش، وقال مجاهد: على المسلمين عامّة، ﴿قُلِ﴾: أمرٌ ربّانيّ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول ﴿اللَّهُ﴾: أنزل التوراة؛ لأنّ الكلمة المفردة في لغة العرب لا تفيد ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾: في باطلهم، وجهلهم، وضلالهم، وغيّهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾: يتلهّون ويضيعون وقتهم وجهدهم وأموالهم وذراريهم.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

﴿وَهَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد ﴿كِتَابٌ﴾: إنّه القرآن الكريم ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: هو من عند الله ﷻ، جاء اللفظ "**أنزلناه**" بصيغة الجمع؛ تعظيمًا للحدث، وللكتاب ﴿مُبَارَكٌ﴾: كثير الخيرات والمنافع ﴿مُصَدِّقُ﴾: يُؤكدُ، ويعززُ، ويوافق لما أنزله اللهُ ﷻ من الكتب على الأنبياء من قبله ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول بالفرد المذكر ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: مؤكدًا على جنس الكُتب التي سبقت، ما في التوراة، والإنجيل ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾: أيضًا لتحذّر ﴿أُمَّ﴾: والأمّ هي أعلى الشيء؛ فيقال ضربه على أمّ رأسه، وهذا لمكّةَ المُكرّمة ﴿الْقُرَى﴾: مكّة، وأهلها ﴿وَمَنْ﴾: أيضًا من يسكنها من البشر، جنس العاقل ﴿حَوْلَهَا﴾: من أحياء العرب، وسائر سكان العالم، من عرب وعجم، عن جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً[1]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإن ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْآخِرَةِ﴾: بيوم القيامة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: كلُّ منْ آمن بالله ﷻ، وآمن أنّ بعد الحياة بعث، يوم القيامة؛ فإنّه

[1] صحيح البخاري /١/٧٤(٣٣٥).

يؤمن بالقرآن الكريم ﴿وَهُمْ﴾: أيضًا هؤلاء الذين يؤمنون بالقرآن، وبيوم القيامة ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: يقيمون الصلاة المفروضة في أوقاتها، وعلى الوجه المطلوب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء ﴿مَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل، يفيد النفي، بمعنى ليس هناك ﴿أَظْلَمُ﴾: أشدُّ ظُلمًا ﴿مِمَّنِ﴾: من الذي من جنس بني آدم ﴿افْتَرَى﴾: قال كذبًا ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: كيف تقولون ما أنزل الله ﷻ على بشرٍ من شيءٍ، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء، عليهم السلام، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله ﷻ الكذب؛ بادعائه أنّه نبيّ وهو ليس كذلك، والذي كذب على الله ﷻ؛ فجعل له شركاءَ أو ولدًا ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية ﴿قَالَ﴾: كذبًا ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: قال نزّله عليّ ملكٌ مرسلٌ من الله ﷻ ﴿وَلَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾: الذي ادّعى أنّ الله ﷻ أرسله للنّاس، وأوحى إليه، وهو كافرٌ به، ﴿وَ﴾: أيضًا ليس هناك أظلم ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿قَالَ سَ﴾: حرف يفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿أُنْزِلُ﴾: من السماء ﴿مِثْلَ﴾: مُشابه ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: كان يدّعي أنّه يُوحى إليه كما يُوحى إلى محمد ﷺ، ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿تَرَى﴾: تشاهد أو تعرف ﴿إِذِ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن ﴿الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: لحظة سكرات، وشدائد، وكربات الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾: مدّوا أيديهم؛ ليضربوا، وقيل باسطو أيديهم بالعذاب، قيل لهم والله أعلم بالقائل ﴿أَخْرِجُوا﴾: خلّصوا ﴿أَنْفُسَكُمُ﴾: جاء اللفظ القرآني "**أنفسكم**" هنا بمعنى أرواحكم التي هي جوهر الحياة، ذلك أنّ الكافر إذا حضره الموت بشّرته الملائكة بالعذاب، والنكال، والأغلال، والجحيم، وغضبِ الرحمن الرحيم، فتفرق روحه في جسده؛ وتعصي؛ وترفض الخروج؛ فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم ﴿الْيَوْمَ﴾: يوم القيامة ﴿تُجْزَوْنَ﴾: تنالون جزاءكم وهو ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾: يوم المذلة الأكبر ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في حياتكم الدنيا ﴿تَقُولُونَ﴾: تفترون وتختلقون ﴿عَلَى اللَّهِ غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿الْحَقِّ﴾: أي الكذب، بما كذبتم واستكبرتم؛ انظر أحاديث الموت ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا

﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ بمعنى على ﴿آيَاتِه﴾: الأدلّة والبراهين ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: تتعالون وتتشدون العظمة بالرفض.

التكليف: ويلٌ لشيوخ السلاطين الذين يفترون على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ الكذب، والذين يلوون آيات الله لصالح الظالم.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩٤)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جِئْتُمُونَا﴾: رجعتم إلينا، يُقال لهم يوم البعث: لقد جئتمونا بصيغة الجمع تعظيمًا لما سيصيبكم، كما خلقناكم أوّل مرّة؛ كما بدأناكم ﴿فُرَادَى﴾: تأتون إلينا واحدًا واحدًا، وكنتم تستبعدون ذلك، قال النضرُ بن الحارث: سوف تشفع لي اللّات والعُزّى؛ فنزلت هذه الآية ﴿كَمَا﴾: مثلما، أو مثل وحال ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: أوجدناكم من غير سابق وجود ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: يوم خلقنا أباكم آدم عليه السلام، عن القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ[١]، ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿تَرَكْتُمْ﴾: أهملتم عملًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾: ما أنعمنا به عليكم من المال، والنعم، وما جمعتم من النعيم ﴿وَرَاءَ﴾: بمعنى خلف؛ كنايةً عن إهمالهم له ﴿ظُهُورِكُمْ﴾: تركتم خلفكم؛ كنايةً عن الإهمال، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟[٢]، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركهُ للناس ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿نَرَى﴾: نجد ﴿مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾: من يطلب لهم العفو والمغفرة من الله ﷻ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿زَعَمْتُمْ﴾: قلتم كذبًا من هؤلاء الذين عبدتموهم، وقلتم ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ﴿فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: يقول الملائكة هؤلاء لا يستحقون العبادة، أين الأصنام والأوثان الذين ادعيتم أنّهم ينفعونكم في الحياة، هل ينفعونكم اليوم، يوم القيامة، أين الذين كنتم تعبدونهم؟ ﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل

---

[١] صحيح البخاري ١٠٩/٨(٦٥٢٧).

[٢] صحيح مسلم /٢٢٧٣/٤(٢٩٥٨).

الماضي ﴿تَقَطَّعَ﴾: تفرّق الاتصال بينكم، وحدثت القطيعة ﴿بَيْنَكُمْ﴾: لقد تقطع شملُكم، وتعني لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والصلات ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿ضَلَّ عَنْكُمْ﴾: ذهب وتاه عنكم ﴿مَا﴾: كلُّ ما هو غير عاقلٍ؛ الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾: تدعون كذبًا رجاؤكم للأصنام، ورجاء الأولياء، وقد جاء في السياق: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة-١٦٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ فَالِقُ﴾: يفصل شطريْ ﴿الْحَبِّ﴾: من جنس الحبوب كالقمح، والشعير، والذرة، وغيرها ﴿وَالنَّوَى﴾: مثل البلح عندما تُوضع البذور والنوى في التربة، فتنبت الزرع من الحبوب والثمار، وهذا بأمر الله ﷻ، أودعه في البذور؛ وبهذا ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾: النبات الذي ينمو، ويستطيل، وينتج، ويُخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة، وهي ميّتة ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمَيِّتِ﴾: من الحبوب ومن كلّ نواةٍ التي كانت جامدة؛ فيخرج منها النبات الحي؛ الذي ينمو، ويكبر، ويُثمر ﴿وَ﴾: هو ﷻ أيضًا ﴿مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية ﴿الْحَيِّ﴾: مثل إخراجِ الدجاجةِ من البيضة، وعكسه، ويُخرج الولد الصالح من الأبِ الفاجر، وعكسهُ، أي يُخرج الكافر من المؤمن كذلك ﴿ذَلِكُمُ﴾: اسم إشارة للبعيد، ما نهى عنها ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ عنها ﷻ الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب المذكور سابقًا ﴿فَأَنَّى﴾: كيف ولأيّ سبب ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: كيف تنصرفون عن الحق إلى الباطل؛ فتعبدون غير الله ﷻ.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩٦)

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾: فالقُ ظلمةِ الإصباح، وهي الغبش، أو العتمة، تعني هنا بياض النهار، ﷻ الذي خلق الضوء من الشمس ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾: ومعنى السكن هنا الاستقرار، والهدوء، والراحة، جعل الظلام؛ لتسكن فيه الأشياء ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: جاءت كلمةُ حُسبان من الحساب؛ هنا بمعنى العدد، فكلّ مخلوق في الكون الفسيح يجري بحسابٍ وقانونٍ لكل شيء لا يتغير ولا يضطرب؛ فيحدث الليل والنّهار، ويطول ويقصر قال ﷻ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس-٤٠] ﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارة للمفرد للبعيد ﴿تَقْدِيرُ﴾: هذا ما أراده وقدّره الله ﷻ، كلُّ شيءٍ

يسير بمقدار ﴿الْعَزِيزِ﴾: الذي لا يغالبه شيء ﴿الْعَلِيمِ﴾: الذي يعلم كلّ شيء، علم الخالق، صاحب الصنعة لصنعته.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّه ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المُذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾: خلق لكم ﴿النُّجُومَ﴾: وحدّد لها وظيفتها ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿تَهْتَدُوا بِهَا﴾: لقد حدّد الله ﷻ وظائف النجوم، ومن اعتقد غير ذلك فقد أخطأ، وكذب على الله ﷻ: زينة للسماء، رجومًا للشياطين، الاهتداء بها ﴿فِي ظُلُمَاتِ﴾: عتمة بعد عتمة ﴿الْبَرِّ﴾: على سطح الأرض ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿الْبَحْرِ﴾: ففي زمنٍ لم تكن فيه بوصلةٌ ولا أقمارٌ صناعية، كانت النجوم تدّل على الطريق ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿فَصَّلْنَا﴾: بيّنا ووضحنا، جاءت بالجمع؛ لعظمها، ودقّة عملها ﴿الْآيَاتِ﴾: بيّن اللهُ ﷻ هذه الأدلّة والبراهين، ووضّحها ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: تخصيصًا لجماعةٍ من أصلٍ واحدٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾: يعرفون الحق، وهي آيات أكّدتها الأبحاث الحديثة التي وصلت إلى القمر، وذهبت بعض الأقمار الصناعية لتصوّر بعض هذه الكواكب.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨)

﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾: خلقكم ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد بداية الغاية المكانيّة، أي المصدر ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: من آدم ﵇ وحده، لم يقل ﷻ من زوجين، وهذا يعنى أننا في التحام شديدٍ لأنّنا من مصدر واحدٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: من الفعل الماضي (قرّ)، أيْ ثَبَت وسكَن وتمكّن واستقر وجاءت كلمة مستقر في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه؛ هنا بمعنى النطفة الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، وجاءت بمعنى حيث تستقر الدواب نهارًا في قوله ﷻ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود-٦]، قال ابن مسعود: هي الأرحام؛ وهي الأصح، وجاءت بمعنى المنتهى في قوله ﷻ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس-٣٨] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾: من الفعل (وَدَع)، أيْ ترك، ونقول: أودَع

الرجل أمانة عند جاره، أيْ ترك أمانة عند جاره، ومعلوم أنّ المستودَع الذي تُركت عنده الأمانة لا يحق له ولا يستطيع التصرف في الأمانة (الوديعة) في باطن الأرض، قال ابن مسعود هي الأصلاب هي الأصح وجاءت بمعنى حين تموت الدواب في قوله ﷻ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود-٦] وبمعنى الموت، وبمعنى الدار الآخرة هي النشأة الثانية في مقابل النشأة الأولى ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي، وإذا ربطنا بين هذه الآية بالآية الكريمة التي تقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود-٦]، نجد أنّ المستقر واحد وهو مكانها على الأرض، ولنعد إلى قول الحق ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف-٢٤] والمستقر يشمل الحياة والموت والخروج، لقوله ﷻ في الآية التالية: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف-٢٥]، والمستودع واحد وهو المخزن، كقولنا مستودعات الغلال، ومستودعات الذخيرة وغيرها، ولنرجع إلى قوله ﷻ في الآية التالية: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر-٢١]، والمقصود بالمستودع هو الجسد ﴿فَصَّلْنَا﴾: لمزيدٍ من التوضيح ﴿الْآيَاتِ﴾: وضّح الله ﷻ هذه الأدلة بالتفصيل ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾: يفهمون تخصيصًا، وقد أثبت العلم الحديث إعجاز هذا الكون من حولنا، وهذا يقود مَن يهديه اللهُ ﷻ للإيمان؛ لأنّ العلم الحديث أقرّ بما جاء به محمد ﷺ من ربّه ﷻ.

التكليف: إنّ زيادة المعرفة في علوم الفلك الحديثة؛ تؤكد ما جاء على لسان النبي الأميّ ﷺ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّه ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المُذكرِ، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة، أي المصدر ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ كونها كروية الشكل ﴿مَاءً﴾: الله ﷻ الذي يُنزّل الماء من السماء بقدر؛ رزقًا للعباد؛ وإحياءً، وغيثًا للمخلوقات ﴿فَ﴾: حرف عطف يفيد هنا ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿أَخْرَجْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع لعظم الحدث ﴿بِهِ﴾: حرف الباء هنا للسبب، هنا التفاتًا من الغيبة إلى التكلم؛

إظهارًا للغاية بشأن هذا المخلوق، وما ترتب عليه، هنا جاء فضل الماء في حياةِ الخلق على الأرض ﴿نَبَاتَ﴾: أنتج وأثمر من ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم، كل النباتات تنبت بالماء، فالجامد يتحول إلى حيّ، جاء في المعنى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء–٣٠] ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع بسبب عظم الحدث ﴿مِنْهُ خَضِرًا﴾: أي أنّ الله ﷻ خلق من الماء كلّ شيء حيّ، هو الزرع، والشجر، الأخضر، الغضّ الطري ﴿نُخْرِجُ﴾: ننتج ﴿مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾: يركب بعضُه بعضًا، كالسنابل، والنخل، والعنب، وأمثالها ﴿وَمِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿النَّخْلِ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد الغاية المكانيّة ﴿طَلْعِهَا﴾: أول ما يطلع من النخل ﴿قِنْوَانٌ﴾: جمع قنو وهي عذق الرطب، ومراحل نضوج البلح، وما فيها من وقت الخروج، ثم فسخ الغلاف، ثم التلقيح، ثم نضج الثمر، ثم تكوّن الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾: قريبة من التناول في النخل القصير الذي يلامس قنوانه الأرض ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿أَعْنَابٍ﴾: جاء ذكر العنب في قوله ﷻ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة–٢٦٦]، وفي قوله ﷻ ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد–٤]، وفي قوله ﷻ ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل–١١]، وفي قوله ﷻ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء–٩١]، وفي قوله ﷻ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون–١٩]، وفي قوله ﷻ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس–٣٤]، وفي قوله ﷻ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس–٢٨]، وفي قوله ﷻ ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ–٣٢]، هي والنخل من أشرف النباتات عند أهل الحجاز، وربما أفضلهما على ثمار الدنيا، ومن المعلوم أنّ المواد الأساسية في البلح والعنب تشمل كلّ مقومات النمو والحياة وغيرها ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾: أيضًا من فوائد الزيتون أنّه مضاد للأكسدة فيمنع الالتهابات، ويحافظ على صحة القلب، ويحافظ على صلابة العظام، ومقاومة السرطانات، ويُفيد البكتريا النافعة في الجسم، ويحافظُ عل صحّة الجلد ويقلل الشهية؛ فيمنع السمنة ﴿وَالرُّمَّانَ﴾: وأيضًا من فوائد الرمّان: قيمته الغذائية العالية بكلّ المعادن المطلوبة للجسم ومقاومة السرطان، وبخاصة في

البروستاتا، والثدي، والقولون، والرئة، وأمراض القلب، والشرايين، ومقاومة الالتهابات وبخاصة الروماتيزم، والتهابات الأمعاء ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿مُتَشَابِهٍ﴾: متشابه في الورق، ومختلف في طعم ونكهة الثمار، شكلًا، ومذاقًا، وصفاتها ﴿انْظُرُوا﴾: تأملوا وتفكروا ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾: الثمر اسم لكل ما يتطعم من أعمال الشجر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿أَثْمَرَ﴾: أنتج ﴿وَيَنْعِهِ﴾: تأملوا مراحل نضجه، الذي جاء من عودٍ كالحطب، ثم نبت، ثم أثمر عنبًا، والنخل أثمر رطبًا جنيًّا لا شك أنّ هذا التفكر يقود إلى الإيمان ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿فِي ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، كلّ ما سبق من الأمور التي خلقها الله ﷻ ﴿لَآيَاتٍ﴾: أدلّة وبراهين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحد، أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: إنّ دراسة علم النبات ستقود إلى الإيمان، ليدركوا أنّ خلف هذه المخلوقات خالقًا، وأنّ لهذه الأرزاق رازقًا؛ فيصدّقون، ويتبعون الرسل.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٠٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق كان موقف الكفّار مغايرًا ﴿جَعَلُوا﴾: هم المشركون والكفّار ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾: الذين أشركوا في عبادتهم مع الله ﷻ غيره من ﴿الْجِنَّ﴾: عبدوا الشياطين؛ فجعلوهم شركاء الله ﷻ في العبادة والطاعة، فأمرهم الجن أنْ يعبدوا الأصنام؛ قال ﷻ: **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾** [الكهف–٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: **﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾** [مريم–٤٢] ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿خَلَقَهُمْ﴾: والله الذي خلق الجنّ، وخلق الإنس، وخلق كلّ شيء ﴿وَخَرَقُوا﴾: اختلقوا، واصطنعوا، وكذبوا ﴿لَهُ﴾: لله ﷻ ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء ﴿عِلْمٍ﴾: قال ابن عباس: وتخرّصوا، وكذبوا، وجعلوا له بنين وبنات، وقال السدي: قطعوا، وقال مجاهد: كذبوا، وقال الضحاك: وضعوا ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيهٌ لله ﷻ عن كلّ النواقص ﴿وَتَعَالَىٰ﴾: تقدّس وتعظّم ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿يَصِفُونَ﴾: عمّا وصفه الضالون؛ أنْ يقولوا له شركاء، أو أولاد، أو بنات، أو نظراء.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١)

﴿بَدِيعُ﴾: مبدع، وخالق، ومنشئ، ومُحدث على غير مثال سابق، ومنها جاءت البدعة، والإبداع هو إنشاء صنعةٍ بلا احتذاءٍ واقتداءٍ، وإذا استعمل في الله ﷻ؛ فهو إيجاد الشيء

بغير آلةٍ، ولا مادةٍ، ولا مكانٍ، ولا زمانٍ، وليس ذلك إلّا لله ﷻ ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لأنّها ﴿وَ﴾: أيضًا خلق ﴿الْأَرْضِ﴾: الذي أنشأ السموات وأنشأ الأرض، ولم يكن قبلهم شيء ﴿أَنَّى﴾: بمعنى كيف، حرفٌ يُفيدُ الاستنكار والاستحالة ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ و﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُنْ﴾: في الماضي والحاضر ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿صَاحِبَةٌ﴾: من المعلوم أنّ الولد يتولد من شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يُماثله ولا يشابهه شيءٌ، فهو خالقُ كلّ شيءٍ، فلا صاحبة، له، ولا ولد ﴿وَخَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق وجود ﴿كُلَّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكره لتؤكد العموم، أي هو الخالق لكلّ شيءٍ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد العموم ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم كلّ ما في السموات والأرض.

التكليف: إنّ دراسة علم الفلك توضح صنع الله ﷻ، وإبداعه في هذا الفضاء العظيم.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢)

﴿ذَلِكُمُ﴾: اسم إشارة للبعيد، ﷻ الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب المذكور ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكل شيءٍ في الكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، الذي خلق كلّ شيءٍ، ولا ولد له، ولا صاحبة، هو مالككم، وهو إلهكم؛ أطيعوا، واعبدوه، وأقرّوا له بالوحدانيّة، وأنّه لا إله غيره، ولا نظير يعدله ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود بحق ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد عموم الشيء ﴿فَ﴾: هنا ربط جواب الشرط ﴿اعْبُدُوهُ وهُوَ﴾: ﷻ ضمير رفع منفصل يفيد هنا المفرد الواحد الأحد ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: يؤكد عموم الشيء ﴿وَكِيلٌ﴾: حفيظ، ورقيب، ومتول، يدبر كلّ ما سواه، ويرعاهم بالليل والنّهار.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣)

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلاَثٍ، مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الأنعام-١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى-٥١]. وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

[لقمان-٣٤]. وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة-٦٧] الآيَةَ وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ ﷺ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ[1].

﴿لَا﴾: حرف نفي للإدراك والإحاطة به، ويراه ﷻ الإنسان المؤمن يوم القيامة، وقد ثبت هذا بالأحاديث المتواترة تواترًا لا شكّ فيه، ولا شُبهة ﴿تُدْرِكُهُ﴾: لا تُحيط به ولا تبلغ كنه حقيقته ﴿الْأَبْصَارُ﴾: فيها أقوال للأئمة والسلف: لا تدركه في الدنيا، وإنْ كانت تراه في الآخرة. ويعزز ذلك قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة-٢٣]، وقال ﷻ عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين-١٥]، واختلف العلماء في العلاقة بين الرؤية والإدراك، فالإدراك هو معرفة الحقيقة ﴿وَهُوَ﴾: ضميرٌ يُفيد في اللغة الغائب الفرد ﴿يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: وهو حاضرٌ لا يغيب؛ لا يعلمها إلّا الله ﷻ، مثلًا أنا أرى القمر، ولكن لا أدرك حقيقته وماهيته، ولله ﷻ المثل الأعلى، وقيل الإدراك هو الإحاطة، ولذلك يمكن الرؤية، ولا يمكن الإحاطة، جاء في المعنى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه-١١٠]، وقد جاءت آياتٌ تدّلُ على استحالة الرؤية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف-١٤٣]؛ إنّ نفي الإدراك لا ينفي الرؤية يوم القيامة ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾: شديدُ الرحمة والشفقة ﴿الْخَبِيرُ﴾: العليم علم الصانع بصناعته.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (١٠٤)

﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمْ﴾: وصلكم ﴿بَصَائِرُ﴾: علمتم البيّنات، والحُجج، والبراهين الواضحة، التي تبصرون بها الحقائق ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يُفيد بداية الغاية الكليّة التي لا يحدّها زمانٌ أو مكان ﴿رَبِّكُمْ﴾: هو ﷻ الجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿فَمَنْ﴾: حرف تفضيل ﴿أَبْصَرَ﴾: نفعهُ بصره؛ فآمن ﴿فَـ﴾: حرف ربط جواب الشرط ﴿لِ﴾: حرف يفيد العاقبة أو الصيرورة ﴿نَفْسِهِ﴾: فمن تعقّل الحُجة وأذعن لها بذلك نفع نفسه، وفي المقابل ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من بني آدم ﴿عَمِيَ﴾: لم يُدرك الإيمان فهو كالأعمى الذي لا يرى الأشياء، بمعنى لم يُبصر الحُجّة ﴿فَعَلَيْهَا﴾: أي يعود وباله عليه، قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦] ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿مَا﴾:

---

[1] صحيح البخاري ١٤٠/٦(٤٨٥٥).

حرف نفي ﴿أَنَا عَلَيْكُمْ﴾: هو النبي ﷺ ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿حَفِيظٍ﴾: حافظ ورقيب، فهو ﷺ يُبلّغ، والله ﷻ يهدي من يشاء.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٥)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: أيضًا مثل هذا، هكذا ﴿نُصَرِّفُ﴾: نُكررها بأساليب مختلفة ﴿الْآيَاتِ﴾: تُفصّلُ الآياتُ في هذه السورة، بيان التوحيد، وأنّه لا إله إلّا الله ﷻ، وتظهر مواضع الجهالة عند المشركين؛ وتفضح ما يقولون ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿يَقُولُوا﴾: هم المشركون، والكافرون، والمكذّبون ﴿دَرَسْتَ﴾: سوف يقول المشركون إذا سمعوا هذا البيان أنّك يا محمد لم تأت بهذا، إنما درست علم أهل الكتاب، وتعلمت من الذين من قبلك من أهل الكتاب، وقارأتهم، وتعلمت منهم، قال ابن عباس: دارست وتعني تلوت، وخاصمت، وجادلت، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان-٥]، جاء في القرآن الكريم عن زعيمهم: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر-١٨، ١٩، ٢٠] ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾: نُظهره ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب منهجٍ واحدٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾: الذين يعلمون أنّه الحق، فيتبعونه، ويتجنبون الباطل، وجاء أيضًا: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر-٣١].

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦)

﴿اتَّبِعْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنْ اقتف أثر، واقتد ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمانية والمكانيّة، أي المصدر ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرهم كلّه، بالوحي من الله ﷻ، اعمل به، لا تماري فيه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ لا إله غيره، ولا معبود سواه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَعْرِضْ﴾: أمره اللهُ ﷻ ألّا يشغل خاطره بهم، بل يشتغل باتباع ما أمره الله ﷻ، وأنْ يبتعد، ويتجنب، ولا يخالط وأنْ يتنحّى ﴿عَنِ﴾: حرف جرّ يُفيد المجاوزة ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: ولا تشغل نفسك بالكافرين، اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى ينصرك الله ﷻ عليهم، وأعلم أنّ ضلالهم حكمة الله ﷻ، فلو شاء لهدى النّاس جميعًا، ولقد نسختها الآية الكريمة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿شَاءَ﴾: أراد وقدّر ﴿اللَّهُ﴾: إذا أراد الله ﷻ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿أَشْرَكُوا﴾: ما كفروا وما أشركوا في عبادتهم مع الله ﷻ، آلهة أخرى ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿جَعَلْنَاكَ﴾: قدّرنا لك أنْ تكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: لم يجعلك الله ﷻ عليهم قيّمًا، تحفظ أقوالهم؛ وتسجل أعمالهم، هذه ليست مهمتك ﴿وَمَا﴾: وننفي أنّك ﴿أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾: هنا التأكيد أنّك لست ضامنًا لهم رزقهم، ولا أنت موكّلٌ بذلك، قال ﷻ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى-٤٨].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨)

أسباب النزول: اجتمع كُفّار مكّة بأبي طالب عمِّ الرسول ﷺ قبل موته، وطلبوا منه أنْ يمنع ابن أخيه من سبّ آلهتهم حتى لا يسبوا إلهه، فعرضوا على رسول الله ﷺ فرفض، جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وَمَسْجِدِنَا فَانْهَهُ عَنْ إِيذَائِنَا قَالَ: يَا عَقِيلُ ائْتِ مُحَمَّدًا فَادْعُهُ، فَذَهَبْتُ فَأَتَيْتُهُ بِهِ فَجَاءَ فِي نِصْفِ النَّهَارِ يَتَخَلَّلُ الْفَيْءَ، فَجَلَسَ عِنْدَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ وَقُرَيْشٌ عِنْدَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ بَنِي عَمِّكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَمَسْجِدِهِمْ فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي مِنْهَا شُعْلَةً قَالَ: فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي فَارْجِعُوا، قَالَ: فَرَجَعُوا[1]، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ[2]، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَسُبُّوا﴾: لا تشتموا، لا تسيئوا إلى ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: آلهة وهم المشركون حتى وإنْ كان فيه مصلحة، غير أنّ المفسدة المترتبة عليه أكبر ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿يَسُبُّوا﴾ يشتموا، ويسيئوا إلى ﴿اللَّهَ عَدْوًا﴾: اعتداءً وظُلمًا، أي يقابل المشركون سبّكم لآلهتهم بسبِّ الله لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم ﴿بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء ﴿عِلْمٍ﴾: بغير معرفةٍ بقدر الله ﷻ، إنّما يسبّون واحدةً بواحدةٍ ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل وأيضًا ﴿زَيَّنَّا﴾: جمّلنا، وحسّنا ﴿لِكُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿أُمَّةٍ﴾: جماعةٍ على منهجٍ واحدٍ ﴿عَمَلَهُمْ﴾: لقد زيّن الله ﷻ للكفّار

---

(١) مسند البزار /٦/١١٥(٢١٧٠). قال حسين سليم أسد: إسناده قوي. انظر مسند أبي يعلى الموصلي ١٢/ ١٧٦

(٢) صحيح مسلم /١/٩٢(٩٠).

حب أصنامهم، لحكمةٍ أرادها لكلّ أمّةٍ من الأمم السابقة ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾: مآلهم ومصيرهم، ولأنّ الثواب والعقاب هو عاقبةُ كلّ عملٍ، وأنّهم عائدون إلى ربّهم ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد الجواب ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾: يُخبرهم، ويجازيهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: بأعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩)

سبب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ، قَالَ: وَتَفْعَلُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدَعَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، قَالَ: بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ[(١)].

وفي رواية الطبري: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [الأنعام-١٠٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام-١١١][(٢)]، ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَقْسَمُوا﴾: حلفوا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: حلفوا أيمانًا مؤكّدة، أشدّ الأيمان وأغلظها ﴿لَئِنْ﴾: حرفٌ يُفيد الشرط والسبب ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: وصلهم من الله ﷻ ﴿آيَةٌ﴾: معجزةٌ خارقةٌ للعادة ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾: بسبب ما سبق يصدقون بكلّ تأكيد ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾: أداةٌ تفيد التحديد والتخصيص ﴿الْآيَاتُ عِنْدَ﴾: ظرف زمان ومكان ﴿اللَّهِ﴾: يأمر الله ﷻ محمدًا ﷺ أنْ يقول للذين يطلبون المعجزات، تعنتًا؛ وكفرًا، وعنادًا، إنّ الآيات ليست بيدي، إنّ الآيات من عند الله ﷻ، إنْ شاء جاءكم بها، أو ترككم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: الإشعار مصدر أشعر أي إذا أُعلم بأمر من شأنه أنْ يُخفي، لن تدركوا ﴿أَنَّهَا﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَتْ﴾: وقعت ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: قيل إنّ المخاطب هنا هم المؤمنون، والمعنى هو ما يدريكم أيّها المؤمنون أنّ الآيات إذا جاءت لا يؤمنون.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠)

---

(١) مسند أحمد ٤/٦٠(٢١٦٦) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) تفسير الطبري /٩/٤٨٥ قال ابن كثير في تفسيره ٣/٢٨٣: وَهَذَا مُرْسَلٌ، وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ.

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ يفيد الاستئناف ﴿نُقَلِّبُ﴾: وفي يوم القيامة نقلبهم على جمر جهنّم، نُغيّر المواقع من أسفل لأعلى والعكس، وفي الحياة الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم؛ فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله ﷻ فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن عند نزوله أوّل مرّة، ونترك قلوبهم في تمردهم على الله ﷻ متحيرين؛ لا يهتدون للحق والصواب ﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾: قلوبهم، وهي مراكز الإدراك الرئيسة، والتي تجري فيها أنشطةٌ عظيمةُ الأثر؛ فبدراسة هذه الكلمات المنيرة؛ تتحقق لدينا استنتاجات عدّة:

الاستنتاج الأول: أنّ القلب ليس مُجرد مضخّة لضخّ الدم فقط، إنّما القلب يفقه، ويعقل، ويتدبر، وهو المدرك الحقيقي، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أنْ يكون مجرد عضلة، ويتحقق.

الاستنتاج الثاني: إذا كان ما تدركهُ الحواسُ يتحوّل إلى إشاراتٍ عصبيةٍ، سمعيّةٍ، وبصريّةٍ وحسيّةٍ، تصل إلى المخ، وأنّ هناك مسارًا لتلك الإشارات من المخ إلى القلب، ولمّا كان القلب يفقه، والمخ هو المنفذ لرغبات الإنسان فكان لا بد أنْ تكون هناك عودة لتلك الإشارات إلى المخ؛ أي أنّ هناك دائرةَ حوار بين القلب والمخ، دورةً متكاملةً تربط الحواس بالمخ وبالقلب، ثم تعود إلى المخ، ومنه إلى أعضاء الجسم المعنية بالتنفيذ، وإنْ كنا قد أدركنا الشقّ الأول والأخير من هذه الدورة فها نحن قد استكملنا تلك الدورة من خلال الجهاز العصبي الذاتي والدورة الدموية، والتي يقوم الدمُ فيها بدورٍ أساس، ومن المعلوم أنّ كرات الدم الحمراء تتكون أساسًا من الحديد والبروتين الهيموجلوبين، وهنا نحن نرى ذرّات الحديد في جزيء الهيموجلوبين ينقل الإشارات الكهرومغناطيسية في دورةٍ رائعةٍ متكاملةٍ، وهنا أيضًا نرى ما يُعرف بمستقبِلات الضغط التي تستقبل الأعمال، وتختزنها في الصدور، ويعلمها الله ﷻ، وهنا نحن نرى أيضًا مستقبلات الضغط على جانبي الرقبة؛ تستقبل الأعمال الواردة من القلب، وتلتقط كلّ الإشارات الصادرة إلى اللسان؛ ليسجلها الملكان الكريمان، وليكتبا لكلٍ منّا كتابه، حتى نلقاه يوم القيامة منشورًا بالصورة التي أرادها الله ﷻ، وعن الدورة الكهربية المغناطيسية فمن المعلوم أن كلّ جسمٍ دوّارٍ يُحدث مجالًا مغناطيسيًا حول نفسه، ومثال ذلك: الأرض، وإذا كان الجسمُ الدوّار يحملُ شحنةً كهربائيةً؛ فإنّ المجال المغناطيسي المُصاحب له يكون أشدّ قوة، ومن المعلوم أنّه في الظروف الطبيعية تتوزع القوى المغناطيسية داخل جسم الإنسان توزيعًا عشوائيًا، وبالتالي تكون مُحصلةُ القوى المغناطيسية صفرًا ﴿وَ﴾: أيضًا نقلّب ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾: فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله ﷻ، قال ابن عباس: ﴿كَمَا﴾: مثلما

﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: لما جحد المشركون ما أنزل الله ﷻ؛ فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أوّل مرّة، ونتركهم في تمردهم على الله ﷻ متحيرين، لا يهتدون إلى الحق والصواب. لم تثبت قلوبهم على شيء؛ وبعُدت عن كلِّ أمرٍ، وقال مجاهد: حال اللهُ ﷻ بينهم وبين الإيمان مهما جاءت الآيات، كما حدث أول مرّة، وجاء في المعنى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام-٢٨] ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾: نتركهم، مُهملين ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: بسبب تجاوزهم للحدود في كفرهم، وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: والعمى يكون في البصر والعمه يكون في البصيرة، يعمون عن إدراك الحق، وقال ابن عباس، ومجاهد: يترددون، وقال الأعمش: يلعبون.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١)

استكمالًا للآية السابقة، يقول الحق ﷻ ﴿وَلَوْ﴾: حرفُ امتناعٍ لامتناع ﴿أَنَّنَا﴾: نحن بتأكيد الفعل ﴿نَزَّلْنَا﴾: وحيًا من السماء ﴿إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾: لو نزلت الملائكةُ تخبرهم برسالة محمدٍ ﷺ ولو كلّمهم الموتى، وأخبروا بصدقِ رسالةِ الرُسلِ جميعًا ﴿وَحَشَرْنَا﴾: أيضًا جمعنا جمعًا كبيرًا مما سألوه من الآيات ﴿عَلَيْهِمْ كُلّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد العموم ﴿قُبُلًا﴾: بضم حرف القاف: تعني المقابلة والمواجهة والمعاينة، وقِبلا بكسر حرف القاف، من المقابلة أيضًا، وقال مجاهد: أفواجًا قبيلًا قبيلًا، أي نفرض عليهم، أُمّةً بعد أمّةً فيُخبرون بصدق الرسالة ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: كان من المستحيل إيمانهم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَشَاءَ اللَّهُ﴾: يخبر الله ﷻ أن الهداية بيده ﷻ، يهدي من يشاء، ويُضلُ من يشاء فلا تكترث لعدم إيمانهم، بلّغهم كما أُمرت ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ استدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾: وهذا سبب تصلبهم، إنّه الجهل، مرض كلّ العصور.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿جَعَلْنَا﴾: حدّدنا، وخصّصنا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿كُلِّ﴾: تفيد جميع من جماعة ﴿نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾: كما لك الآن أعداءٌ يا محمد ﷺ فقد كان لكلِّ نبيٍّ أعداءٌ من جنس فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك؛ فجعلنا لكلِّ واحدٍ منهم عدوّا من كُفّار زمنهم ﴿شَيَاطِينَ﴾: الشيطان هو كلُّ من خرج عن نظيره مثله بالشر، ولا يعادي الرسل إلّا الشياطين، من هؤلاء

﴿الْإِنْسِ﴾: من بني آدم، عموم النّاس ﴿وَ﴾: من هؤلاء أيضًا ﴿الْجِنِّ﴾: قال قتادة: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين ﴿يُوحِي﴾: يُوسوس ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزءٌ منهم ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾: الجزءِ الآخر، يلتقي شيطان الإنس مع شيطان الجن فيُوحي بعضهم إلى بعض، وكذلك يلتقي شياطينُ الجنّ مع غيرهم من شياطين الجن، فيقول أحدهما، إنّي أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، ووسيلتهم ﴿زُخْرُفَ﴾: المزيّن المنسق المجمّل من ﴿الْقَوْلِ﴾: الكلام والذي هو رغبة السامع الذي يغترّ به سامعه ﴿غُرُورًا﴾: كذبًا وتضليلًا ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد النفي ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿رَبُّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿فَعَلُوهُ﴾: ما نفذوه وما حققوه ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿ذَرْهُمْ﴾: حرف الفاء يفيد السبب والتتابع دعهم، اتركهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق؛ اترك أيضًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣)

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾: أيضًا ومن أجل تسمع؛ فتميل إليه، تهوى وتحب من السمع ﴿أَفْئِدَةُ﴾: قلوب، يؤكد القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أنّ القلب هو مركز الإدراك ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿يَرْضَوْهُ﴾: ليحبّوه، ويريدوه ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَقْتَرِفُوا﴾: قال ابن عباس: ليكتسبوا ما هم مكتسبون، قال السدي: وليعملوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾: ما هم عاملون من آثام.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤)

يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ قل للكافرين: أنْ يسألهم ﴿أَ﴾: حرف الألف استفسار بغرض الإنكار والتوبيخ ﴿فَ﴾: أداة تخصيص ونهي افيد طلب عدم الفعل ﴿غَيْرَ﴾: تفيد الاستثناء بمعنى إلّا ﴿اللَّهِ﴾: هل غير الله ﷻ، هل أجد غيره ﴿أَبْتَغِي﴾: أطلب وأرغب وأحب ﴿حَكَمًا﴾: من نحتكم إليه من النّاس، أرضى وأرغب حكمًا بيني وبينكم ﴿وَهُوَ﴾: ضمير للمفرد الغائب الفرد ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ هنا بالفرد الواحد الأحد ﷻ ﴿أَنْزَلَ﴾: من السماء وحيًا عبر رسله ﴿إِلَيْكُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الْكِتَابَ﴾: الله ﷻ الذي أنزل جنس الكتاب، منها التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى ﴿مُفَصَّلًا﴾: يُبيّن ويوضّح كلَّ شيءٍ، مستوفيًا لكلّ شيءٍ ﴿وَ﴾: عطفًا على ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾: وهبناهم ﴿الْكِتَابَ﴾: المرسل من الله ﷻ فإنّهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك عن الكتاب ﴿مُنَزَّلٌ﴾:

وحيًّا نزل من السماء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يُفيد بداية الغاية الكليّة التي لا يحدّها زمانٌ أو مكان يفيد المصدر الأول ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْحَقِّ﴾: سلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم يعلمون أنّ الله ﷻ أنزل الكتاب في الأنبياء السابقين، وأنزل القرآن بعد ذلك ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَكُونَنَّ﴾: تصير بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: لا تكون من الذين يشكّون في الوحي، ولهذا قال عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَا أَشُكُّ، وَلَا أَسْأَلُ[1].

التكليف: لا تبحث عن بديلٍ عن كتاب الله ﷻ المُنزّل على رسوله ليُجيب لك بالحق على كلّ أمور الدنيا والآخرة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿تَمَّتْ﴾: اكتملت ﴿كَلِمَةُ﴾: جاء معنى "**كلمة**" هنا بمعنى المشيئة والإرادة، والقوة، والأمر وكذلك في [الأعراف-١٣٧] و[يونس-٩٦] و[هود-١١٩] و[التوبة-٤٠] و[النساء-١٧١]، وتعني كلمةُ ﴿رَبِّكَ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكل شيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمرك كلّه، وتمت إرادته ﷻ؛ بنزول هذا الكتاب، ورسالة محمد ﷺ ﴿صِدْقًا﴾: في مواعيده، إنّ كلّ ما قاله صدقٌ في الإخبار ﴿وَعَدْلًا﴾: فيما حكم، وعدلًا في الطلب، لقد أمر بالعدل، ونهى عن الظلم فقد أتمّ وعده ووعيده، وأنزل شرعه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿مُبَدِّلَ﴾: مغيّر أو محوّل، والبدل هو جعل شيءٍ مكان آخر، وهو أعمُّ من العوض، لا مُغيّر لما حكم به ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾: لا أحد يُعقّب على حكمه ﷻ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا تغيير ﴿وَهُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿السَّمِيعُ﴾: يسمع أقوال، عباده ويعلم ما

---

[1] مصنف عبد الرزاق الصنعاني ١٢٥/٦(١٠٢١١). قال علي الشحود في حاشية في ظلال القرآن ٤١٠/٥: صحيح مرسل، وقد أخرج أبو داود في سننه ٤٨٩/٤(٥١١٢) قال أَبُو زُمَيْلٍ قَالَ سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قَالَ: وَضَحِكَ. قَالَ مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) الآيَةَ قَالَ فَقَالَ لِي إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). حسنه الألباني.

توسوس به أنفُسهم ﴿الْعَلِيمُ﴾: الذي يعرف كلّ حركاتهم وسكناتهم؛ فظهر الحقد، وانطمس الباطل.

التكليف: لقد أتم القرآن الكريم كلمة الله ﷻ الحق بلا تبديل ولا تغيير.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦)

يخبر الله ﷻ أنّ أكثر سُكّان الأرض من بني آدم يعيشون في ضلال، جاء في المعنى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣] ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُطِعْ﴾: هذه قضية افتراضيه؛ لأنّ الرسول ﷺ لنْ يطيع إلّا الله ﷻ، والمعنى إنْ تستجب ﴿أَكْثَرَ﴾: غالبية ﴿مَنْ﴾: من جنس العاقل، وهو الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: الغالبية من سكان الأرض؛ لأنّ سنّة الله ﷻ جرت في خلقه أنْ يكون الحقُّ بيد الأقلّية، وأنّ أكثر النّاس يتبعون أهواءهم، بذلك ﴿يُضِلُّوكَ﴾: يقودوك إلى التيه، وهو الكفر ﴿عَنْ﴾: حرف جرٍّ يُفيد التعليل ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يُبعدونك عن الدين، ويأخذوك إلى الكفر لأنّهم ﴿إِنْ﴾: بمعنى ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: ينقادون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الظَّنَّ﴾: كلَّ ما يتبعونه مبنيٌّ على التخمين، وليس على اليقين؛ لأنّهم ظنّوا؛ أي حسبوا أنّ طاعة الشياطين وأعوانهم على الباطل تقرّبهم إلى الله ﷻ ﴿وَإِنْ هُمْ﴾: ما هم تحديدًا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿يَخْرُصُونَ﴾: يُحذّرون كالذي يقول أظن كذا، أو كذا أي يعتمدون على الحدس والتقدير؛ الذي يقود إلى الكذب والكفر.

التكليف: هذا حالُ العالم اليوم، فتحت مسميات حقوق الإنسان، يقتلون الإنسان، ويسرقون أرضه، ويدنسون مقدساته، ذلك وأكثر؛ لأنّ أكثر من في الأرض يتبعون ظنونهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ إنّ الله ﷻ ربّك يا محمد ﷺ ﴿أَعْلَمُ﴾: الأعلم على الإطلاق ﴿مَنْ﴾: بالذي من جنس العاقل ﴿يَضِلُّ﴾: يأخذ إلى الطريق أو المنج الخاطئ ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرّ يفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِهِ﴾: عن دين الله ﷻ، وعن الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: حرف باء الصلة؛ يفيد هو ﷻ الأعلم على الإطلاق بالذين اهتدوا إلى الدين الحق، ويسّره لهم، وكلٌّ مُيسّرٌ لما خُلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام-١١٨]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام-١٢١]، فَنُسِخَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة-٥][1].

﴿فَـ﴾: حرفُ جواب الشرط بهدف ترتيب الأمر ﴿كُلُوا مِمَّا﴾: بعضًا أو جزءًا من مباح الأكل، من الذبائح ﴿ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: الذي ذُكر اسم الله عليه عند الذبح، والذبح هو شقُّ الحلق وقطع الأوعية الدموية التي توصل الدم للمخ فيموت ويعني في المقابل غير مباح أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه، فقد كان كفّار قريش يأكلون الميتة، وما ذُبح على النصب، وغيرها ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ﴾: حرف باء السببية، وهي هنا البراهين ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: إنّ أكل الذبائح التي ذُكر اسم الله ﷻ عليها جزءٌ من الدين، فالأكل، والشرب، والملبس، وكلُّ رزق الله ﷻ يجب أنْ يكون حلالًا مباحًا، وما سواه حرام؛ إنّ طاعة الله ﷻ واجبةٌ في كلِّ شيءٍ، حتى في الذبح، والأكل، والشرب، والملبس.

التكليف: إن الله ﷻ لا يُحرّم على الإنسان نفسه من شيء تدينًا لأنّ كلّ ما جاء ذكر اسم الله عليه فهو حلال، مما أباح اللهُ ﷻ أكله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩)

سبب النزول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَتَى أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ وَلَا نَأْكُلُ مَا يَقْتُلُ اللَّهُ (أي الميتة)؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام-١١٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام-١٢١][2].

﴿وَمَا لَكُمْ﴾: أيّ شيء لكم ﴿أَلَّا﴾: حرف يفيد النهي بمعنى أنْ لا ﴿تَأْكُلُوا﴾: ما الذي يمنعكم أكله ﴿مِمَّا﴾: من بعض أو جزء ﴿ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: ما سمّيتم عليه بعد أنْ أذن الله ﷻ لكم بذلك عند ذبحه ﴿وَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿فَصّلَ﴾: شرح وبيّن لكم، دونَ اختصار ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: وقد بيّن الله ﷻ لكم الحلال الذي يُؤكل، وبيّن الحرام الذي لا يُؤكل، ووضّح ذلك تفصيلًا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: الذي ﴿اضْطُرِرْتُمْ﴾: ما أُجبرتم عليه

---

[1] سنن أبي داود ٣/ ١٠١(٢٨١٧) قال الألباني: حسن.

[2] سنن الترمذي ٥/٢٦٣(٣٠٦٩) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أيضًا. قال الألباني: صحيح.

﴿إِلَيْهِ﴾: فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه، مثل حالات المجاعات العامّة، والميتة في الصحراء، وغيرها ﴿وَإِنَّ﴾: أيضًا بالتأكيد ﴿كَثِيرًا﴾: المقصود هم الكفّار الذين كانوا يُحرّمون البحيرة والسائبة ونحوها، وكانوا يُضلّون النّاس فيتبعونهم، ولا يعلمون أنّ ذلك جهلٌ وضلالة. ﴿لَ﴾: حرف سبب ﴿يُضِلُّونَ﴾: ينحرفون ويتوهون ﴿بِأَهْوَائِهِمْ﴾: بسبب رغباتهم ومصالحهم ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿غَيْرِ﴾: حرف يفيد هنا النفي ﴿عِلْمٍ﴾: كثير من المشركين والكافرين يأخذون الأمور برغباتهم، وليس بتشريع الله ﷻ، ولذلك يُكذّبون، ويشرّعون تبعًا لأهوائهم ومصالحهم، بغير علمٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: مالك ما يخفون في صدورهم منْ أمرهم كلّه ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾: صاحب العلم المطلق ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾: إنّ الله يعلم بكذبهم، وبعدوانهم، وبافترائهم على حُرمات الله ﷻ، وعلى النّاس.

التكليف: هنا إباحة أكل ما تم ذبحه وُذكر اسم الله عليه، وتبدو قيمة هذا التشريع من العلوم الحديثة؛ التي تُظهر الأضرار التي تنجم عن أكل ما حرّم الله ﷻ من أسباب دينية.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٠)

﴿وَذَرُوا﴾: اتركوا ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: هو الذنب والعمل الحرام، الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، كأفعال الجوارح، مما لا يحلُّ عمله، كالزنا ﴿وَ﴾: أيضًا ما أعلنتم من قول، واتركوا ﴿بَاطِنَهُ﴾: ما أسررتم في نفوسكم، قال ﷺ: وَالإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ[1]، وفي معنى الإثم: المعصية الظاهرة، وباطنه في السر، وقال مجاهد: قليله وكثيره، وقال السدي: ظاهره هو الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه الزنا مع الخليلة، والصديقات، والأخدان، ظاهرهُ نكاح ذوات المحارم، والأرجح أنّ الآية عامّة، جاء في المعنى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف-٣٣] ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مِنْ ﴿يَكْسِبُونَ﴾: يقترفون ﴿الْإِثْمَ سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يُجْزَوْنَ﴾: يُعاقبون ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾: ما ارتكبوا من الإثم ظاهره وباطنه.

التكليف: من الواضح اهتمام الشرع الحنيف بحفظ حقوق الأنساب، وحفظ الأسرة، وأكل ما تم ذكر الله عليه، وما تم ذبحهُ.

---

[1] صحيح مسلم /٤/١٩٨٠(٢٥٥٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١)

﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُذْكَرِ﴾: عند ذبحه ﴿اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: فيه ثلاثة أقوال:

الأول: قال مالك، وأبو ثور، وداود الظاهري وغيرهم: لا تحلُّ الذبيحةُ التي لم يُذكر اسمُ الله ﷻ عليها، وإنْ كان الذابحُ مُسلمًا، سواءً ترك التسمية عمدًا أو سهوًا.

الثاني: مذهب الشافعي، وجميع أصحابه: لا يُشترط التسمية، بل هي مُستحبة، تُركت عمدًا أو نسيًا لا يضر.

الثالث: الإمام مالك، وأحمد، ويقول به أبو حنيفة: إذا ترك البسملة على الذبيحة ناسِيًا لم يضر، وإنْ تركها عمدًا لم تحل، وما يعزز منهج الشافعي: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: الْمُسْلِمُ يَكْفِيهِ اسْمُهُ فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ فَلْيُسَمِّ وَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ ثُمَّ لِيَأْكُلْ[1]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ نَسِيَ فَلاَ بَأْسَ وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام-١٢١] وَالنَّاسِي لاَ يُسَمَّى فَاسِقًا[2]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ[3]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿فِسْقٌ﴾: خروج عمّا شرّعه الله ﷻ تخصيصًا ﴿وَإِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾: حرف اللّام يفيد العلّة والسبب؛ يُلقون إليهم بالشبه، ويخبرونهم ما يستندون إليه في مجادلة المسلمين، والذين ينشرون الأخبار سرًّا ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾: إنّ الله ﷻ يوحي إلى محمدٍ ﷺ، والشياطين توحي إلى أوليائها، هي وسوسة الشياطين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾: مثل أنْ يقول أهلُ قريش ما ذبح الله فلا تأكلوه أي الميت، وما ذبحتم أنتم فكلوا منه ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: اتبعتم أوامرهم ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم التأكيد ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾: لهذا السبب، لأنّكم أطعتم مع الله ﷻ آخرين.

التكليف: قد أخذت قضية الذبح شوطًا كبيرًا بين المسلمين والمشركين، والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية التي تصل الدم للمخ فيموت.

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢).

---

[1] سنن الدارقطني/ ٥/٥٣٥(٤٨٠٨). قال العيني في عمدة القاري ١٣/٤٨: حديث ضعيف.

[2] صحيح البخاري ٧/ ٩١ باب التسمية على الذبيحة.

[3] سنن ابن ماجة /٦٥٩/١(٢٠٤٥). صححه الألباني، وقال الأرناؤوط ٣/٢٠١: حديث صحيح؛ وهذا إسناد منقطع.

﴿أَوَمَنْ﴾: اسم موصول بمعنى الذي ﴿كَانَ مَيْتًا﴾: كلمة "**ميّت**" هنا تعني لم يمت بعد ومن أمثلة ذلك قوله ﷻ: ﴿**أيحبُ أحدُكم أنْ يأكلَ لحم أخيهِ ميتًا فكرهتموه**﴾ [الحجرات-١٢] وجاء أيضًا ﴿إنّك ميّتٌ وإنّهم ميتون﴾ [سورة الزمر-٣٠] جاء لفظ "**الموت**" في القرآن الكريم على أوجه عدّة؛ هنا بمعنى الضلال عن التوحيد أيضًا في قوله ﷻ ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر-٢٢]، وبمعنى النطفة التي لم تُخلّق في قوله ﷻ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة-٢٨]، وفي قوله ﷻ ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ**﴾ [غافر-١١]، وبمعنى قحط الأرض في قوله ﷻ ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف-٥٧]، وبمعنى الإنسان الحي الذي يعيش في الضلالة والحيرة ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد السبب، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ يَعْنِي قَالَ: مَنْ كَانَ كَافِرًا ضَالًّا فَهَدَيْنَاهُ ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ [الأنعام-١٢٢] يَعْنِي بِالنُّورِ: الْقُرْآنَ، مَنْ صَدَّقَ بِهِ وَعَمِلَ بِهِ هل يكون كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ[1]، ﴿أَحْيَيْنَاهُ﴾: من كان كافرًا فهديناه إلى الإسلام، جاءت بصيغة الجمع للتعظيم، أحيا اللهُ ﷻ قلبه بالإيمان، وهداهُ لاتباع رسله ﴿وَجَعَلْنَا﴾: أيضًا هبنا وأعطينا ﴿لَه﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿نُورًا يَمْشِي﴾: المشي هنا الهُدى ﴿بِهِ﴾: بنور الله ﴿فِي النَّاسِ﴾: النور هو القرآن، وقيل الإسلام؛ والكلُّ صحيحٌ ﴿كَ﴾: حرف تشبيه ﴿مَنْ﴾: كالذي ﴿مَثَلُهُ﴾: حالهُ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾: كالذي يمشي في ظلمات الكفر والضلالة؛ لا يعرف طريق الحق، ولا يعرف الحلال والحرام، ويعيش في جهالاتٍ، وضلالاتٍ متفرقةٍ ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقصٍ يفيد النفي ﴿بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾: يبقى في الظلمات، يسير ولا يعرف كيف يخرج منها، لا منقذ ولا مُخلّص، قال الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ [البقرة-١٥٧] ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾: جمّلَ الشيطانُ وحسّنَ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: تخصيصًا المنكرين للدين ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: أعمالهم التي تصدّ عن الإسلام، كأكل الميتة، وأكل المحرّمات.

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/٦٠٤(٩٦٢).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: أيضًا كما حدث مع الأمم السابقة، وحدث مع أكابر مكّة المشركين ﴿جَعَلْنَا﴾: شاء الله ﷻ أنْ يكون ﴿فِي كُلِّ﴾: تفيد الجميع ﴿قَرْيَةٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة؛ لتفيد العموم، هي كلّ تجمع بشري سكني كبير ﴿أَكَابِرَ﴾: رؤساء العائلات، والوجهاء، ورؤساء الدول والوجهاء من النّاس؛ ولقد خصّهم اللهُ ﷻ بالذكر؛ لأنّهم أقدر النّاس على نشر الفساد ﴿مُجْرِمِيهَا﴾: كما تصدى لدعوة محمد ﷺ أكابر المشركين، ورؤساء الدعاة إلى الكفر، والمصممون على مخالفة الرسول، وعلى عداوته؛ أُبتلي الرُسل مِن قبلُ بذلك أيضًا من كبراء القوم، وأصحاب المال والسلطة، وهم المترفون فيها ﴿لِ﴾: حرف لام التعليل والسبب ﴿يَمْكُرُوا﴾: فعل المنكرات أو بالدعوة إلى اقترافها بمنهج الخداع والاحتيال وما أكثر الذين يكيد للإسلام والمسلمين ﴿فِيهَا﴾: الدعوة إلى الكفر، والتزيين، والتجميل، وزخرف القول والفعل، جاء في المعنى ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح–٢٢]، "**المكر**" في القرآن كما قال سفيان: هو عمل ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَمْكُرُونَ إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾: لا يعود مكرهم إلّا وبالًا على أنفسهم، جاء في المعنى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت–١٣]. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يدركون حجم ما سيحلُّ بهم مِنْ العذاب.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: أتتهم ﴿آيَةٌ﴾: على محمد ﷺ برهانًا وحجةً قاطعةً ﴿قَالُوا لَنْ﴾: حرف نفي ﴿نُؤْمِنَ﴾: نصدّق بنبوّته ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ ﴿نُؤْتَى﴾: يُعطينا الله، نأخذ ﴿مِثْلَ﴾: من النبوّةِ والمعجزات بالكم والقدر ﴿مَا﴾: مثل الذي ﴿أُوتِيَ﴾: أُعطي ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾: الرسل السابقون؛ كانوا يطلبون رؤية الملائكة، تنزل إليهم خاصّة؛ كما نزلت على الرسول ﷺ من قبل، وهذا ما شهد به القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان–٢١] ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾: ﷻ صاحب العلم المطلق ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمان والمكان ﴿يَجْعَلُ﴾: يضع ويكلّف ﴿رِسَالَتَهُ﴾: إن الله ﷻ يعلم من يصلح لحمل رسالته من خلقه، وتوجد أحاديث كثيرة في اصطفاء النبي ﷺ فعَنْ أَبِي عَمَّارٍ شَدَّادٍ، أَنَّهُ سَمِعَ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ،

وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ[١] وقال أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ[٢]. ﴿سَيُصِيبُ﴾: حرف السين يُفيد التحقق في المستقبل ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿أَجْرَمُوا﴾: كفروا ﴿صَغَارٌ﴾: ذلٌ عظيمٌ وهوانٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: وضع اللهُ ﷻ شرطين: الصَّغارُ هو الذلّة ما كان عن قهرٍ، الدائم، إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾: أيضًا سيصيبهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا﴾: وهنا الشرط الثاني لتحقيق الصغار، بالذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَمْكُرُونَ﴾: المكر هو الكيد الخفي، والحيل والخديعة، وجزاؤها جهنّم.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي للعاقل ﴿يُرِدِ﴾: يشأ، ويرغب ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَهدِيَهُ﴾: للإسلام والإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: قال ابن عباس: ييسر له، ويُسهّل؛ وينشط، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هَذَا الشَّرْحُ؟ قَالَ: نُورٌ يُقْذَفُ بِهِ فِي الْقَلْبِ فَيَنْفَسِحُ لَهُ الْقَلْبُ قَالَ: فَقِيلَ: فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ[٣]. ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُرِدْ﴾: يشأ ﴿أَنْ﴾: حرف يفيد تأكيد الفعل ﴿يُضِلَّهُ﴾: يُبعده، ويحجبه عن الصواب ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ والمقصود هو ما بداخل الصدر وهو القلب، مركز الوعي والإدراك ﴿ضَيِّقًا﴾: كالذي لا يتمدد بدخول الهواء، فهو كمن لا يتنفس ﴿حَرَجًا﴾: شديد الضيق، قال عمر بن الخطاب: كذلك قلب المنافقين؛ لا يصل إليه شيءٌ من الخير، لا تدخل قلبه لا إله إلّا الله، يجعل الكفر صدره ضيقًا، والإسلام واسع ومعنى الحرج أيضًا الشّك، من الشرك، ليس للخير فيه منفذ ﴿كَأَنَّمَا﴾: تفيد الحصر للتأكيد، كمثل الذي ﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾: الذي يتكلف بالصعود في ما علا الأرض؛ فلا يستطيع من شدّةِ الشيء عليه؛ كأنّه يحاول الصعود إلى السماء؛ ولا يستطيع، كما أنّ ابن آدم لا يستطيع أنّ يصعد في السماء، لا يستطيع أنْ يدخل التوحيدُ والإيمانُ قلبه، وتفسيرها العلمي: بعد اختراع الطائرات؛ أصبح الصعود في السماء صعبًا على أصحاب القلوب المريضة؛ بسبب اختلال

---

[١] صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢(٢٢٧٦).

[٢] صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢(٢٢٧٨).

[٣] مصنف ابن أبي شيبة /٧/٧٧(٣٤٣١٥). قال البيهقي في الأسماء والصفات ٢٤٨/١: هذا منقطع.

درجات ضغط الهواء، حيث تقل نسبة الأكسجين؛ فيضعف قلب المريض، وتتهدد حياته، ومن المعلوم أنّ للهواء وزن، وبالتالي فإنّ له ضغطًا، وكلما زاد الوزن زاد الضغط، فإذا ارتفع الإنسان إلى السماء؛ خفّ وزن الهواء وقلّ ضغطه، وهذا ما اكتشفه العالم تورشلي وقدّره بما يساوي وزن (٧٦) سنتيمترًا من الزئبق، فإذا صعد الإنسانُ لأعلى؛ نقص الضغط الجوي بينما يبقى ضغط الجسم كما هو، فإذا صعد أكثر؛ انفجرت الشرايين من الأنف والفم؛ وخفّ التنفس؛ وانفجرت طبلة الأذن، وحدث غيرها من الأضرار ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل هذا، أيضًا ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ﴾: يكتب، ﷻ ﴿الرِّجْسَ﴾: هو في اللغة بمعنى النتن والذي لا خير فيه؛ فيقبل كلَّ خبيثٍ نتنٍ من الأقوال والأفعال فكما يجعل صدر الكافر ضيقًا لأنّه لم يقبل الهُدى يجعل الله ﷻ عليه الرجس؛ فيقبل كلَّ خبيث، قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، وقيل الرجس كلّ ما لا خير فيه، والرجس هو الشيء الخبيث القذر، والرجس يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: وهم الكفّار.

التكليف: لقد جعل الله ﷻ الإسلام والإيمان صحّةً وعافيةً، وجعل الكفر والفجور كالموت السريري، يتنفس ولا يتحرك بفعل.

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦)

بعد أن فصّلت الآية السابقة طرق وصفات الضالّين ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿هَٰذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، هنا نبّه الحقُّ ﷻ على شرف الدين الحق ﴿صِرَاطُ﴾: جاء لفظ "**الصراط**" على وجهين في القرآن الكريم، هنا بمعنى الدين وكذا في قوله ﷻ ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة-٦]، وفي قوله ﷻ ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام-١٥٣]، الطريق إلى الله ﷻ شرف وهدى ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: ما عليه النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، لا عوج فيه، المُوصلُ إلى رضا ربك وجنّته ﷻ ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾: بالتعظيم وضّحنا، وبيّنا، وفسّرنا البيّنات ﴿لِ﴾: تخصيصًا ﴿قَوْمٍ﴾: تخصيصًا لأناسٍ من جنسٍ واحدٍ أو أصحاب دينٍ واحدٍ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: قوم يسمعون؛ فيفهمون؛ يعقلون.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

﴿لَهُمْ﴾: خصّص الله ﷻ للمسلمين المؤمنين ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾: الجنّة، هم فيها سالمون من كلّ سوءٍ ومكروهٍ، في صراطهم المستقيم، على أثر الأنبياء ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمانٍ وظرف مكانٍ ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه عند مالك أمرهم كلّه، يوم القيامة ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿وَلِيُّهُمْ﴾: الحافظ، والناصر، والمحب، والمؤيد لهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: جزاء أعمالهم الصالحات.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، يأمر الله ﷻ محمدًا ﷺ أنْ يذكّرهم بما قصّه عليهم، ويخوّفهم، وينذرهم ﴿يَوْمَ﴾: القيامة ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: يوم يجمع ويكدّس الجنّ، وأولياءهم من الأنس، الذين عبدوهم، وأطاعوهم؛ ويقول لهم ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿مَعْشَرَ﴾: قبائل وجماعات ﴿الْجِنِّ قَدِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿اسْتَكْثَرْتُمْ﴾: نشدتم، وأردتم إضلال كثرة الأتباع ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْإِنْسِ﴾: من بني آدم بإغوائهم؛ وضلالهم؛ فزاد عددهم كثيرًا، وقال الحسن: استكثرتم من أهل النّار يوم القيامة ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾: قالت الإنس الذين والوا الجنّ وأطاعوهم: ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا ﴿اسْتَمْتَعَ﴾: نشدنا وأردنا المتعة ﴿بَعْضُنَا﴾: جزءٌ منّا ﴿بِبَعْضٍ﴾: معناها أنّ الجنّ أمرت، وأنّ الإنس عملت؛ أي أنّ الجنّي تمتع بطاعة الإنسي له، والإنسي تمتع بالمُحرّمات التي زيّنها الشيطان له، ﴿وَبَلَغْنَا﴾: وأيضاً صلنا إلى ﴿أَجَلَنَا﴾: نهايتنا، الموت، نهاية العمر ﴿الَّذِي أَجَّلْتَ﴾: حدّدت ﴿لَنَا﴾: تخصيصًا ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿النَّارُ﴾: جهنّم ﴿مَثْوَاكُمْ﴾: مأواكم، ومنزلكم أنتم وأولياؤكم، حصريًّا ﴿خَالِدِينَ﴾: ما كثين مُخلّدين ﴿فِيهَا﴾: إلى ما شاء الله ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَا﴾: الذي ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿اللَّهُ﴾: أنْ لا أحد يتحكم في مصيرِ خلقهِ إلّا هو ﷻ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾: بالتأكيد هو ﷻ صاحبُ الصواب المطلق في القول والعمل ﴿عَلِيمٌ﴾: لا يغيب عن علمه شيءٌ في هذا الكون العظيم.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: أيضًا مثل هذا ﴿نُوَلِّي﴾: يُسلّطُ الله ﷻ ظلمةَ الجنّ على ظلمةِ الإنس، ويُسلّطُ بعض الظلمةِ على بعضٍ؛ فيُهلكهُم ويُذلّ ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾: قال قتادة: إنّما يُولّي الله

ﷻ النّاس بأعمالهم. المؤمنُ ولي وناصرُ ومؤيدُ أخاه المؤمن أينما كان، وحيثما حلّ، والكافر وليّ الكافر أينما كان، وحيثما حلَّ، عنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: قَرَأْتُ فِي الزَّبُورِ بِكِبْرِيَاءِ الْمُنَافِقِ يَحْتَرِقُ الْمِسْكِينُ، وَقَرَأْتُ فِي الزَّبُورِ إِنِّي لَأَنْتَقِمُ مِنَ الْمُنَافِقِ بِالْمُنَافِقِ ثُمَّ أَنْتَقِمُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ جَمِيعًا وَنَظِيرٌ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ: وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[1]، وقيل ظالمي الجنّ وظالمي الإنس وجاء في المعنى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف-٣٦] أي نسلّط ظَلَمَةَ الجنّ على ظَلَمةِ الإنس الظالمين. يُسلّط الله الظالمين بعضَهم على بعض، ويُهلك بعضَهم ببعض، وينتقم من بعضهم ببعض ﴿**بِمَا**﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿**كَانُوا**﴾: فيما مضى ﴿**يَكْسِبُونَ**﴾: يقترفون من الخطايا، والذنوب في دنياهم.

﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ **(١٣٠)**

يوم يحشرهم الله ﷻ يقول لهم ﴿**يَا**﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿**مَعْشَرَ**﴾: جماعةً من جنسٍ واحدٍ ﴿**الْجِنِّ و**﴾: أيضًا جماعة ﴿**الْإِنْسِ**﴾: الذين من نسل آدم وحوّاء عليهما السلام، تبدأ الآية الكريمة بتقريع كفّار الجنّ وكفّار الإنس يوم القيامة، ﴿**أَلَمْ**﴾: حرف استفهام تقريري بغرض التوبيخ والإنكار عليهم يفيد الاستفهام والاستنكار والتوبيخ والتقريع ﴿**يَأْتِكُمْ**﴾: يُرسل الله ﷻ فيكم ﴿**رُسُلٌ مِنْكُمْ**﴾: أي من الإنس يتلون كتب الله ﷻ على الإنس والجن ﴿**يَقُصُّونَ**﴾: يتلون قراءةً وبوضوحٍ ﴿**عَلَيْكُمْ آيَاتِي**﴾: يخوفوكم من عاقبة الكفر ﴿**وَ**﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿**يُنْذِرُونَكُمْ**﴾: يحذّرونكم ويخوفونكم ﴿**لِقَاءَ**﴾: اجتماع ﴿**يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، حشرُ يوم القيامة الذي أنتم فيه ﴿**قَالُوا**﴾: هؤلاء المشركون من الإنس والجنّ ﴿**شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا**﴾: بأنّ رسل الله ﷻ قد بلغونا آياتك وأنذرونا لقاء يومنا هذا، فكذبناهم ﴿**وَ**﴾: عطفًا على ﴿**غَرَّتْهُمُ**﴾: خدعتهم ببهرجةُ ﴿**الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾: انزلقوا إلى مفاسد الحياة الدنيا، ونسوا الآخرة، جاء في المعنى: ﴿**وَشَهِدُوا**﴾: اعترفوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿**أَنَّهُمْ كَانُوا**﴾: هم تحديدًا كانوا في الحياة الدنيا ﴿**كَافِرِينَ**﴾ أقروا وشهدوا أنّهم كفروا بالله ﷻ، وبالرسلِ الذين جاؤوهم، وغطوا، وأخفوا ما سمعوا.

---

[1] صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي ص٨٨(٤٥)، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٢/٣٧٦.

التكليف: جاء الاستفهام بعد (**أَلَمْ**) بغرض الاستفهام التقريري فحرف (**أ**) في **ألم** يفيد الإنكار وحرف (**لم**) تفيد النفي فدخل النفي على نفي؛ فأصبح تقريرًا وتثبيتًا بدليل إجابتهم "**شَهِدْنَا**".

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١)

﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارة للفرد البعيد، لا يُهلكُ اللهُ ﷻ جماعةً من خلقهِ ظلموا أنفسهم؛ إلّا بعد أنْ يبعث فيهم، من بينهم، من ينبههم من غفلتهم، وينذرهم عذاب الله ﷻ، لا يأخذهم الله غفلة، فيقولوا ما جاءنا من نذير **﴿أَنْ﴾**: حرف تأكيد الفعل **﴿لَمْ﴾**: حرف جزم ينفي المضارع **﴿يَكُنْ﴾**: لا يفعل **﴿رَبُّكَ﴾**: تعني كلمةُ الرّب: خمسة عشر معنى؛ وهي: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكلِّ شيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمرهم كلّه **﴿مُهْلِكَ﴾**: من الهلاك والفناء **﴿الْقُرَى﴾**: مُدمّر ومزيلُ الأمم والأقوام **﴿بِظُلْمٍ﴾**: يهلكهم الله بسبب ظلمهم، وفي ذلك جاء: **﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾** [فاطر-٢٤]، **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾** [الإسراء-١٥]، **﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾** [الملك-٨،٩] **﴿وَأَهْلُهَا﴾**: عطفاً على ما سبق كان سكّان وأصحاب هذه التجمعات السكانية **﴿غَافِلُونَ﴾**: ساهون، لاهون، إنّ التعامل مع من لم يعرف الإسلام كأنّه غافل، يجب إيقاظه، وإفهامه، وتعليمه، لأنّهم لا يعرفون.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢)

﴿وَلِكُلٍّ﴾: حرف اللام للتخصيص، تفيد الجميع من الكفّار: من الجنّ أو من الإنس، ولكلّ مؤمنٍ من الإنس أو من الجن **﴿دَرَجَاتٌ﴾**: لكلِّ عاملٍ من طاعة الله ﷻ أو كلِّ عاصٍ مراتب، ومنازل؛ **﴿مِمَّا﴾**: من الذي **﴿عَمِلُوا﴾**: من عمله يُبلّغه الله بها؛ فإمّا يثيبه خيرًا بخير، أو يعذّبه شرًا بشر **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا **﴿مَا﴾**: حرف نفي **﴿رَبُّكَ﴾**: مالك أمرهم كلّه **﴿بِ﴾**: حرف باء التأكيد **﴿غَافِلٍ﴾**: لاهٍ وبعيدٍ عن المعرفة **﴿عَمَّا﴾**: عن الذي **﴿يَعْمَلُونَ﴾**: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ ﷻ: **﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام-١٣٢] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلِكُلِّ عَامِلٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَنَازِلُ وَمَرَاتِبُ مِنْ عَمَلِهِ، يُبَلِّغُهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَيُثِيبُهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا. **﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام-١٣٢] يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِعِلْمٍ مِنْ رَبِّكَ يُحْصِيهَا وَيُثْبِتُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ إِيَّاهُ وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ[1].

---

[1] تفسير الطبري /٩/٥٦٤.

التكليف: من هنا كان ضرورة الحذر من الصغيرةِ والكبيرةِ فالكلُّ مرصود.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٣)

﴿وَرَبُّكَ﴾: عطفاً على ما سبق فإنّ مالك أمرك كلّه يا محمد ﷺ هو **﴿الْغَنِيُّ﴾**: الذي لا يحتاج من خلقه إلى شيء، الغني من كلّ الوجوه، والجميع من خلقه إليه فقير **﴿ذُو﴾**: صاحب الوصف بالأسماء والصفات ومنها **﴿الرَّحْمَةِ﴾**: صاحب الرحمة الواسعة بخلقه **﴿إِنْ﴾**: حرفُ شرطٍ وتأكيد **﴿يَشَأْ﴾**: إذا أراد الله ﷻ **﴿يُذْهِبْكُمْ﴾**: أنْ يزيلكم، ويمحوكم، بسبب معصيتكم **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال يجمع هنا بين متعاطفين؛ الأول: أنْ يذهب بالكافرين والثاني: **﴿يَسْتَخْلِفْ﴾**: يأتي بآخرين غيركم **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة **﴿بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا﴾**: مثلما **﴿أَنْشَأَكُمْ﴾**: خلقكم من غير سابق وجود **﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ﴾**: نسلٍ وتكاثر **﴿قَوْمٍ﴾**: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ **﴿آخَرِينَ﴾**: جاء اللفظ القرآني "**أنشأ**" على ثلاثة وجوه؛ هنا بمعنى خلق أيضًا في قوله ﷻ **﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾** [الواقعة-٣٥]، وفي قوله أيضًا **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** [الملك-٢٣]، وبمعنى اثبت في قوله ﷻ **﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** [الزخرف-١٨]، وفي قوله أيضًا **﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾** [الواقعة-٧٢]، وبمعنى قام في قوله ﷻ **﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾** [المزمل-٦]، كما ذهب بقرونٍ قبلكم فهو ﷻ قادرٌ أنْ يأتي بغيركم، خلقٍ يعملون بطاعته، ويطمعون في رضاه، جاء في المعنى نفسه: **﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾** [إبراهيم-١٩، ٢٠].

التكليف: الحذر من قانون الاستبدال على مستوى الفرد، والجماعة، والأمّة.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿مَا﴾**: الذي **﴿تُوعَدُونَ﴾**: ما وعد الله ﷻ الخلق في شأن يوم القيامة من البعث والجزاء **﴿لَآتٍ﴾**: يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أنْ يُخبر النّاس عن يوم المعاد، إنّ يوم القيامة آتٍ لا محالة **﴿وَمَا﴾**: حرف نفي **﴿أَنْتُمْ﴾**: تحديدًا **﴿بِمُعْجِزِينَ﴾**: حرف باء التوكيد، لن تهربوا، فنواصيكم بيده ﷻ، ولن تعجزوه أنْ يأتي بكم جميعًا؛ بعد أنْ تصيروا تُرابًا، وهو قادرٌ أنْ يعيدكم كما يشاء، ولا يعجزه شيء.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانّي لمحمدٍ ﷺ فيه تهديد أنْ يقول ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ، يأمر الله ﷻ نبيّه محمدًا ﷺ أنْ يهدد بشدة، ويتوعد الكفّار ﴿اعْمَلُوا﴾: استمروا واثبتوا على ما أنتم عليه فإنّي غير مبال بكم، ولا مكترث بكفركم، بل إنّي ثابت على ما أنا عليه ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾: هي غاية تمكنكم واستطاعتكم، بطريقتكم، وابقوا في ناصيتكم، من كفرٍ وعنادٍ ﴿إِنِّي﴾: أنا رسول الله بالتأكيد ﴿عَامِلٌ﴾: وأنا عاملٌ في دعوتي النّاس للحق والعدل ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿سَوْفَ﴾: تفيدُ وعدًا لعملٍ في المستقبل ﴿تَعْلَمُونَ﴾: علم إدراك ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، وهو الإنسان ﴿تَكُونُ﴾: تصير ﴿لَهُ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: عاقبة الأمر هي نهايته، وستعرفون نتيجة عملكم، ستعرفون لمن العاقبة؟ لمن الانتصار، ولمن الهزيمة، ومن سيرث الأرض، فقد أنجز الله ﷻ وعده، فحكّم نبيّه محمدًا ﷺ في نواصي المخالفين لله ﷻ من العباد، وفتح له مكّة، وأظهره على من كذّبوه، وعادوه من قومه، واستقر أمره في الجزيرة العربية، كلُّ ذلك في حياته ﷺ، واليوم يبلغ عدد سكان المسلمين ما يزيد عن ثلث سكان العالم تقريبًا، من شرق الدنيا في إندونيسيا إلى غربها في أمريكا؛ والعاقبةُ للمتقين، قال ﷻ في هذا المعنى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر-٥١]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء-١٠٥]، وقال أيضًا: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم-١٣، ١٤] ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُفْلِحُ﴾: ينجح ﴿الظَّالِمُونَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم فأوردوها النّار، وظلموا غيرهم في الحياة الدنيا بالمعاصي.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿جَعَلُوا﴾: اختلق واخترع كفّار العرب؛ فجعلوا لله ﷻ نصيبًا مما زرعوا ومن ثمارهم ومن نتاج دوابهم نصيبًا ﴿لِلَّهِ مِمَّا﴾: من الذي ﴿ذَرَأَ﴾: أنّ الله ﷻ اختصه مما خلق ﷻ على وجه الاختراع ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، من جزء أو بعض

﴿الْحَرْثِ﴾: من الزرع والثمار ﴿وَ﴾: أيضًا مِنْ ﴿الْأَنْعَامِ﴾: البقر، والغنم، والضأن، والمعز ﴿نَصِيبًا﴾: حصّةً، وابتدعوا أنّ من الأنعام جزءًا وقسمًا ﴿فَـ﴾: حرف عطف يفيد هنا السبب والتتابع بدون تأخير ﴿قَالُوا هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد ﴿لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾: بغير تشريعٍ من الله ﷻ ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾: كان أعداءُ الله ﷻ إذا حرثوا حرثًا وكانت لهم ثمار؛ جعلوا لله جزءًا، وللوثن جزءًا ﴿فَمَا﴾: حرف عطف يفيد الخبر الذي ﴿كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾: من الأوثان ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا لا ﴿يَصِلُ إِلَى﴾: ما حدّد وشرّع ﴿اللَّهِ وَمَا﴾: الذي ﴿كَانَ﴾: مخصصًا ﴿لِلَّهِ﴾ ﷻ ﴿فَهُوَ﴾: ضمير منفصل للغائب المفرد ﴿يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾: فلا يصل إلى ما شرّعه الله ﷻ، وما كان من نصيب الوثن حفظوه وأحصوه، وما كان لما سمّوه الصمد ردوه إلى نصيب الوثن؛ لزعمهم أنّ الوثن فقير، وكانوا يُحرّمون من أموالهم مثل البحيرة، والسائبة، والوصيلة ﴿سَاءَ﴾: كلَّ شرّ وضرر ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَحْكُمُونَ﴾: ما فعلوه بهذه القسمة الفاسدة، لم يحفظوها وظلموا فيها.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٧)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿زَيَّنَ﴾: وبهذه الطريقة جمّل، وحسّن الشيطان ﴿لِـ﴾: حرف تخصيص ﴿كَثِيرٍ مِنَ﴾: حرف يفيد التمايز، هم جزء أو بعض ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: قدّم الله ﷻ هنا الفعل على الفاعل، زينت الشياطين بعد عمل القسمة الظالمة في الزراعة والأنعام، تأتي الجريمة الثانية وهي أشد: ﴿قَتْلَ﴾: البنات فقط ﴿أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾: قام شركاءُ هؤلاء المجرمين، وهم الذين يخدمون الأوثان من الكهنة وسدنة الأصنام، زينوا لهم دفن البنات مخافة السبي والفقر، أمّا قتل الأولاد الذكور فكان من عادة بعض القبائل أنّ الرجل يحلف بالله لئن وُلد له كذا من الذكور لينحرنّ احدهم، كما أمرتهم الشياطين بقتل أولادهم ليحققوا غايتين ﴿لِـ﴾: حرف اللام هنا يفيد العاقبة ﴿يُرْدُوهُمْ﴾: أنْ يُهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: أيضًا يخلطوا عليهم دينهم، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ [النحل-٥٨]، كانوا يقتلون الأولاد من الفقر، وهذا من وسوسة الشياطين ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد النفي ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿اللَّهُ مَا﴾: حرف نفي ﴿فَعَلُوهُ﴾: كلُّ ذلك تم بحكمته ﷻ ﴿فَذَرْهُمْ﴾: اتركهم وابتعد عنهم ﴿وَ﴾: أيضًا اترك ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَفْتَرُونَ﴾: دعهم واجتنبهم فيما يختلقون من كذب، وسيحكم الله ﷻ بينكم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قَالُوا﴾: هم الكافرون ﴿هَذِهِ﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيه وإشارة هنا للمؤنث ﴿أَنْعَامٌ﴾: من البقر، والغنم، والضأن والإبل ﴿وَحَرْثٌ﴾: أيضًا زروع وثمار ﴿حِجْرٌ﴾: محجوزةٌ، وممنوعةٌ، لا يُؤكل منها، مثل الوصيلة، وهي ما حرّمه الشياطين على الكفّار في أموالهم، وممتلكاتهم، ولم يأت التحريم من الله ﷻ، فإنّ هذه الأموال والأنعام احتجزوها لآلهتهم ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾: حرّموا أكلها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿نَشَاءُ﴾: نرغب ونُريد ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: وافتروا وزعموا الحلال والحرام، هم الذين يُحددون من يأكل منها، ومن لا يأكل؛ افتراءً ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: حرّموا استخدامها؛ فلا يركبها أحدٌ، ولا تُحمل عليها أمتعةٌ، وهي البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام ﴿وَأَنْعَامٌ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾: لا في شيءٍ من شأنها، لا في حال ذبحها، ولا أثناء ركوبهم عليها، ولا إذا حلبوها، ولا إذا أنجبت، ولا إذا عملت عملًا ﴿افْتِرَاءً﴾: كذبوا ﴿عَلَيْهِ﴾: على الله ﷻ، وعلى النّاس يوم زعموا أنّ هذا دين الله وشريعته ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد وعدًا يتحقق في المستقبل ﴿يَجْزِيهِمْ﴾: يُعاقبهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾: سيعذبهم الله ﷻ ويعاقبهم على كذبهم والافتراء عليه؛ أنْ زعموا أنّ التحريم كان بأمرٍ منه.

التكليف: هذا نموذج فوضى التحليل والتحريم من الذين كفروا في كلّ المجالات، وكلّ الأزمان، والأماكن.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩)

﴿وَقَالُوا﴾: زعموا كذبًا ﴿مَا﴾: حرفٌ يفيد الذي من غير العاقل ﴿فِي بُطُونِ هَذِهِ﴾: حرفٌ للإشارةِ والتنبيه للمؤنث ﴿الْأَنْعَامِ﴾: اللبن، وما تنتجه الشاة، السائبة والبحيرة ﴿خَالِصَةٌ﴾: مُحددّة، أي فقط ﴿لِذُكُورِنَا﴾: حرف اللام للتمليك والتخصيص، كان اللبن يشربه الرجال ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾: ومحرّم على النساء، وكانت الشاةُ إذا ولدت ذكرًا ذبحوه؛ والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية التي توصل الدم للمخ فيموت يأكله الرجال فقط، وإذا ولدت شاة أنثى تركوها ولم تُذبح ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَكُنْ مَيْتَةً فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِيهِ

﴿شُرَكَاءُ﴾: إذا مات من البحيرة شيء؛ أكله الرجال والنساء من أجل ذلك ﴿سَ﴾: حرفُ السين تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يَجْزِيهِمْ﴾: سيحاسبهم الله ﷻ ﴿وَصْفَهُمْ﴾: على قولهم الكذب على الله ﷻ بالتحليل والتحريم في هذه التشريعات ﴿إِنَّهُ﴾: ﷻ ﴿حَكِيمٌ﴾: يكون منه الحقّ في أفعاله، وأقواله، وشرعه، وما قدّره ﴿عَلِيمٌ﴾: كامل العلم بأعمال عباده من خيرٍ وشرٍ.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿خَسِرَ﴾: ذهب ما يملكه دونَ ثمن ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿قَتَلُوا﴾: أنهوا حياة ﴿أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾: بسبب حماقتهم؛ وطيشهم؛ وجهلهم؛ خسر الذين قتلوا أولادهم في الدنيا ﴿بِغَيْرِ﴾: حرفٌ يفيد الاستثناء ﴿عِلْمٍ﴾: بغير سببٍ أو فائدة، الذين ضيّقوا عليهم المال، وخسروا الآخرة؛ لأنّهم في أسوأ المنازل؛ بكذبهم، وافترائهم على الله ﷻ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿حَرَّمُوا﴾: شرّعوا التحريم ﴿مَا﴾: الذي ﴿رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾: حرّموا ما رزقهم من الأنعام، وغيرها فحرموا، أنفسهم منها؛ بسفاهةٍ ﴿افْتِرَاءً﴾: زعمًا وكذبًا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: يوم قالوا إنّ الله حرّم هذه، وأحلّ هذه ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾: تحقق ضلالهم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي أنّهم ﴿كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: بل ضلّوا وبقوا في ضلالهم في الدنيا عن الطريق الصحيح، ولم يطيعوا الله ﷻ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١)

﴿وَهُوَ﴾: الله ﷻ ﴿الَّذِي أَنْشَأَ﴾: أوجد، وخلق، وصنع ﴿جَنَّاتٍ﴾: التي تنتج الزرع المفيد ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش النّاس، التي حمّلوها على عريش مثل الكروم والبطيخ ﴿وَ﴾: أيضًا أنشأ جناتٍ ﴿غَيْرَ﴾: حرف نفي ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما قام على ساق، التي لا تحتاج إلى عريش مثل النخيل والأشجار، ومثل ما نبت في الجبال من الثمرات ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾: ما يؤكل: طعمه، ومذاقه، وفي الشكل، والهيئة، والكيفية ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾: متشابةٌ في الشكل ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: ليس متشابه في الطعم ﴿كُلُوا﴾: حلالٌ لكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بعض ﴿ثَمَرِهِ﴾: ما أنتج، والثمر اسم لكل ما يؤكل من الشجر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿أَثْمَرَ﴾: إذا استوى ونضج ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿آتُوا﴾:

أعطوا ﴿حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾: جاء لفظ "يوم" هنا بمعنى زمن، وقت وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم-١٥] وفي قوله أيضًا ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم-٢٣]، وفي قوله ﷻ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل-٨٠]، وفي قوله أيضًا ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام-١٤١] هي دفع زكاة الورع والثمار المفروضة عليكم يوم تعرفون كيله وميزانه، وقيل من كلّ عشرة أوسق التمر بقنوٍ يُعلّق في المسجد للمساكين، وقيل هي الزكاة من الحب والثمار، وقيل هي حقٌ آخرُ غير الزكاة، هو ما يُعطى للمساكين؛ علمًا أنّ الزكاة هي العُشر ولقد نسختها الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم ﴿تُسْرِفُوا﴾: عدم الإسراف في العطاء، وقيل منع الإسراف في كلّ شيءٍ، لا تسرفوا في الأكل ملء البطن؛ فإنّه ضار، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَة[1] ﴿إِنَّهُ﴾: هو الله ﷻ بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ إنّه ﷻ يغضب عليهم ويكرههم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢).

ويستمر التشريع ﴿وَمِنَ﴾: أيضاً بعض ﴿الْأَنْعَامِ﴾: وهي الأصناف الأربعة، تشمل الذكور والإناث، وهي الإبل، والبقر، والمعز، والضأن ﴿حَمُولَةً﴾: أنشأ الله ﷻ لكم ما يُحمل عليها، وهو يختصُّ بالإبل، والخيل، والبغال، والحمير وغيرها؛ مما يُركب عليه ﴿وَفَرْشًا﴾: أيضًا ما يُؤخذ من الوبر، والصوف، والشعر فراشًا؛ يفترشه الناس، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَتَّبِعُوا﴾: تطيعوا وتنفذوا ﴿خُطُوَاتِ﴾: منهج وطريق ﴿الشَّيْطَانِ﴾: الذي يُحرّم ويحلل لكم. اتبعوا ما أباح الله لكم، ولا تتبعوا طريق الشيطان، وأوامر الشيطان، في تحليل ما حرّم الله ﷻ، أو تحريم ما أحلّ الله ﷻ ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد الشيطان ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا أيها النّاس ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: هو لكم ظاهرُ العداوة.

---

[1] صحيح البخاري /٧/١٤٠ كتاب اللباس باب قول الله تعالى: قل من حرم زينة الله.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣).

يُبين الله ﷻ للكفّار جهلهم وسفههم؛ فقد خلق لهم الأنعام؛ فحرّموا منها البحيرة، والسائبة، والوصيلة، وأنشأ الله ﷻ جنّاتٍ معروشاتٍ، وغيرِ معروشاتٍ، وأنشأ من الأنعام حمولةً، وفرشًا، ولم يُحرّم منها شيئًا؛ كلّها مخلوقة أكلًا، وركوبًا، وحمولة، وحلبًا ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾: أنزل لكم مِنْ الأنعام ثمانية أصناف أنواع ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾: الخراف، والغنم؛ من كلّ نوعٍ ذكرًا وأنثى ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾: حرف الألف هنا بغرض الاستنكار والتوبيخ، هل حرّم الله الذكرين لأنّهما ذكور؟ فإنْ قالوا نعم، فاسأل: ﴿أَمِ﴾ أو حرّم الله ﷻ ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾: لأنّها إناث؟ فإنْ قالوا نعم؛ فقل لماذا حرّم الذكرين ﴿أَمَّا﴾: أم الذي ﴿اشْتَمَلَتْ﴾: حوت وضمّت ﴿عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾: هل حرّمهما لأنّهما في الرحم يوم أحلّوها للذكور؛ وحرّموها على الإناث منهم؟ فمرّة يحرّمونها بسببٍ، وتارة يحلونها للسبب نفسه ﴿نَبِّئُونِي﴾: اذكروا لي ﴿بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: على أيّ أساسٍ حرّم الله هذه، والله ﷻ يقول كلّه حلال.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٤)

﴿وَمِنَ﴾: حرفٌ يفيد التمايز، جزء أو بعض ﴿الْإِبِلِ﴾: الجمال ﴿اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾: ويعرض القرآن الكريم سفه الكفّار في تحريمهم من الإبل ومن البقر اثنين ﴿قُلْ﴾: سلهم يا محمد ﷺ ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾: هل الله ﷻ ﴿حَرَّمَ﴾: الذكرين ﴿أَمِ﴾: هل حرّم الله ﷻ ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾: وهل حرّم الإناث؟ وكيف حرّموا الذي في أرحام الأنثيين ﴿أَمَّا﴾: أو الذي ﴿اشْتَمَلَتْ﴾: ضمّته وحوته ﴿عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾: وهل حرّم الذي في بطون الأنثيين ﴿أَمْ﴾: هل ﴿كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ﴾: حدث في الماضي أنْ ﴿وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ وتنبيهٍ للمذكرِ، المفرد البعيد، هاتوا شهودكم من الأنبياء، أو من الكتب غير المحرّفة؛ التي قالت لكم هذا ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي غرضه النفي أي لا يوجد ﴿أَظْلَمُ﴾: أعظم ظُلمًا ﴿مِمَّنِ﴾: من الذي ﴿افْتَرَى﴾: ممن قال ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: فقال حرّم الله كذا، وهو ﷻ لم يُحرّم، افتراءً وكذبًا عليه ﷻ ﴿لِ﴾: يفيد العاقبة ﴿يُضِلَّ﴾: يحرف عن الحق ﴿النَّاسَ﴾: عموم أبناء آدم ؈، لقد بيّن الله ﷻ أنّ نيات المجرمين الكافرين؛ هي ضلال النّاس،

وصرفهم عن تعاليم دينهم ﴿بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء ﴿عِلْمٍ﴾: بغير أمرٍ من صاحب الأمر ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يدلُّ على الصواب، والعمل الصادق الذين يعملون بغير بصيرة ﴿الْقَوْمَ﴾: الذين من أصلٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: هؤلاء لن يهتدوا إلى الحق، الظالمين لأنفسهم، ولغيرهم في الدنيا والآخرة.

التكليف: التحريم والتحليل في كلّ صغيرةٍ وكلِّ كبيرةٍ ليست قضية هيّنة عند الله ﷻ.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ إلى الرسول محمد ﷺ أنْ يقول ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَجِدُ﴾ لا أرى ولا أعرف ﴿فِي مَا﴾: الذي ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: من الذي جاءني من الله ﷻ عن طريق جبريل عليه السلام ﴿مُحَرَّمًا﴾: لا أجد شيئًا ممّا حرّمتم ﴿عَلَى طَاعِمٍ﴾: الذي يأكل ﴿يَطْعَمُهُ﴾: حرامًا سوى الآتي: ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَكُونَ مَيْتَةً﴾: الميت الذي لم يُذبح، ولم يُرقْ دمُه ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية بين متعاطفين الأول الميتة والثاني ﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾: الدم المُهراق السائل، حرّم الله ﷻ شرب الدم المسفوح، أمّا ما خالط اللحم من دمٍ فلا حرام فيه ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾: هذا محرّم ﴿فَ﴾: بسبب ﴿إِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﴿رِجْسٌ﴾: هو الشيء الخبيث القذر، والرجس يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿أَوْ فِسْقًا﴾: أي خروجًا عن الحلال ﴿أُهِلَّ﴾: الذي تم تخصيصه عند ذبحه ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: لغير ما أحلّ الله ﷻ ﴿فَمَنِ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا ﴿اضْطُرَّ﴾: فإذا أُجبر إنسان على أكل ما حرّم الله ﷻ ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿بَاغٍ﴾: لا يريد المحرّم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿عَادٍ﴾: غير ناوٍ ببغيٍ، ولا عدوانٍ ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿رَبَّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿غَفُورٌ﴾: يسامح الله ﷻ للمضطر غير المسرف، وغير المتلذذ، وغير المبالغ في الأكل ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع العطف، والشفقة لعباده ﷻ. ليس مُحرمًا استعمال صوف وجلود الحيوانات التي ماتت. وقد نزل بعد هذه الآية المكية في سورة المائدة هنا زيادة في المحرمات المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وصحّ أنّ النبي ﷺ حرّم كلّ ذي نابٍ من السباع وكلَّ ذي مخلبٍ من الطير، وتحريم الحُمر الأهلية، والكلاب.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿هَادُوا﴾: هم اليهود ﴿حَرَّمْنَا﴾: تم تأكيد التحريم، جاءت بصيغة الجمع؛ لتشديد التحريم ﴿كُلَّ﴾: تفيد عموم ﴿ذِي﴾: صاحب ﴿ظُفُرٍ﴾: حرّم الله عليهم ما له ظفر وهي: البهائم، والطيور، ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل، والنعام، والوز، والبط، وقيل البعير الجمال، أي التي ليست أصابعها منفرجة، وقيل النعامة، وقيل لا يأكلون الحمار الوحشي، بل يأكلون مما انفرجت قوائمه: مثل العصافير ﴿وَمِنَ﴾: حرفٌ يُفيد التمايز، جزء أو بعض ﴿الْبَقَرِ﴾: أيضًا العجول والجاموس ﴿وَالْغَنَمِ﴾: أيضًا الخراف، والماعز ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾: قال اليهود إنّ النبي يعقوب ﵇، المعروف بإسرائيل حرّمه، وهو الشحم الذي يحيط بالكليتين، والدهن الذي هو الشحم الذي على الكرش، ما يُعرف بمنديل البطن ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿مَا﴾: الذي ﴿حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾: اللحم الذي على الظهر، وقيل الإلية ﴿أَوِ﴾: حرف يفيد التسوية بين شيئين ﴿الْحَوَايَا﴾: ومفردها حاوياء، وحاوية، وحوية، وهو ما حوت البطن، وهي الأمعاء ﴿أَوْ مَا﴾: الذي ﴿اخْتَلَطَ﴾: اجتمع مع غيره ﴿بِعَظْمٍ﴾: يأكلون الشحوم الملاصقة بالعظم وقيل شحم الإلية المختلط بالعصعص، وهو آخر عظام العمود الفقري. وحلالٌ كلّ شيءٍ في القوائم، والجوانب، والرأس، والعين، وما اختلط بعظم ﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارة للمفرد البعيد ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾: كافأنهم بما يستحقون ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾: بسبب ظلمهم للنّاس؛ ضيّق الله ﷻ عليهم، وألزمهم جزاء بغيهم ومخالفة أوامر الله ﷻ ﴿وَإِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تأكيد ﴿صَادِقُونَ﴾: عادلون فيما جازيناهم به، صادقون فيما أخبرناك به يا محمد ﷺ من تحريمنا ذلك عليهم، وليس كما زعموا أنّ إسرائيل ﵇، حرّم على نفسه ذلك.

التكليف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ يَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا(١).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧)

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: إن كذّبك اليهودُ أو كذّبك المشركون الذين قسّموا الأنعام إلى تلك الأقسام؛ وحلّلوا بعضها، وحرّموا بعضها ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ؛ والعجلة في القول والعمل ﴿قُلْ﴾: لهم بوضوح ﴿رَبُّكُمْ﴾: مالك أمركم كلّه ﴿ذُو﴾:

---

(١) صحيح البخاري /٣/٨٢(٢٢٢٤).

صاحب الوصف بالأسماء والصفات ومنها ﴿رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾: يُعلّم الله ﷻ رسوله ﷺ الرحمة، أنْ يفتح للعاصين، حتى اليهود، باب الرحمة الواسعة، فأمره أنْ يقابل تكذيبهم بالتأكيد على رحمة الله الواسعة، وهذا ترغيبٌ لمن في قلبه بقيةٌ من خيرٍ ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُرَدُّ﴾: لا يمنع ﴿بَأْسُهُ﴾: قوتُهُ وبطشُه ﴿عَنِ﴾: حرف جرّ يفيد المجاوزة ﴿الْقَوْمِ﴾: الجماعة الذين من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: الذين اقترفوا جرائم الكفر والعدوان، ترهيبٌ وتخويفٌ لمخالفتهم الرسول ﷺ، وهو أسلوبٌ مُتّبع في بعض الآيات، مثل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾ [الحجر-٤٩، ٥٠]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد-٦]، وجاء أيضًا: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر-٣].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨)

﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل والقول ﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن ﴿أَشْرَكُوا﴾: جعلوا مع الله ﷻ إلهًا آخرَ ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿اللَّهُ مَا﴾: حرف نفي ﴿أَشْرَكْنَا﴾: هذه حُجّة استخدمها المشركون ليبرروا شركهم، هم وآباؤهم كأنّهم أشركوا بإرادة الله ﷻ؛ مثل الذي يقول لو يشاء اللهُ ألّا نكذب ما كذبنا ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿آبَاؤُنَا﴾: ولا أشرك آباؤنا وأجدادنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ﴾: جزءًا أو بعضًا ﴿شَيْءٍ﴾: واستكمالًا لحجّتهم الكاذبة أنّ آباءهم مثلهم أطاعوا الله ﷻ، وحرّموا ما حرّم الله ﷻ ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل وأيضًا ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ﴾: هذا نمط تكذيب السابقين من الكفّار، يُنسبون إلى الله ﷻ مسؤولية كذبهم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾: حتى جاءهم العذاب الأليم ﴿قُلْ هَلْ﴾: حرفُ استفهام إنكاري وتكذيبي ﴿عِنْدَكُمْ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بمعنى بعض أو جزء ﴿عِلْمٍ﴾: دليلٍ يدلُّ على أنّ الله ﷻ رضي منكم أن تشركوا به، وتحللوا وتحرموا من دونه، واذا مجرد وقوع الفساد منكم فلا يدل على رضاه ﷻ عليكم ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿تُخْرِجُوهُ لَنَا﴾: هل عندكم دليلٌ يثبت قولكم هذا بأنّ الله ﷻ راضٍ عنكم فيما أنتم عليه تظهرونه لنا، وتبرزونه، وتبينونه دون تأخير ﴿إِنْ﴾: ما ﴿تَتَّبِعُونَ﴾

﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿الظَّنَّ﴾: إنما تتبعون الوهم والخيال، وهو الاعتقاد الفاسد، ومحل الخطأ ومكان الجهل ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿تَخْرُصُونَ﴾: أنّكم تكذبون، وتتوهمون مجرد توهم.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٤٩)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول ﴿فَ﴾: هنا حرف ربط جواب الشرط ﴿لِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾: الحقيقةُ الدامغة، والقولُ الفصلُ ﴿الْبَالِغَةُ﴾: بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، إنّ الحكمة التامّة في هدى الله ﷻ التي تتوقف عندها ادعاءاتكم التي تنقطع عندها معاذيرهم، وتبطل شبههم، وظنونهم، وتوهمهم ﴿فَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿شَاءَ﴾: أراد ﷻ ﴿لَهَدَاكُمْ﴾: حرف اللام لعلّةٍ وسبب، لو أردتم الهداية لهداكم الله ﷻ ووفقكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾: كلُّ ذلك بمشيئته وقدرته، لا حُجّة لمخلوق عصى الله ﷻ، بل له الحُجّة البالغة.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني لمحمدٍ ﷺ وللمسلمين جميعًا ﴿هَلُمَّ﴾: هاتوا، أحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمُ﴾: الذين يُؤكّدون، ويُصدّقون شهادتكم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَشْهَدُونَ أَنَّ﴾: حرف تأكيد الخبر، ونفي الإنكار والشك ﴿اللَّهَ حَرَّمَ﴾: هاتوا دليلًا على تحريم الله ﷻ ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب، بل أنتم تكذبون ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿شَهِدُوا﴾: وهذا احتمال من الكاذبين، أنْ يشهدوا كذبًا ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي أنْ ﴿تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾: أي لا توافق شهادتهم، ولا تشهد بما شهدوا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾: رغبات وأمانيّ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: ولا تطع الذين كذّبوا ما جئت به من بيّنات ﴿وَ﴾: أيضًا لا تطع ﴿الَّذِينَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: وهم الكفّار ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: حرف باء الصلة لا يؤمنون بيوم القيامة، يوم الحكم بين العباد ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يُشركون به، ويجعلون له ندًا، أو مساويًا.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّ فِي الْأَنْعَامِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام-١٥١] الْآيَةُ(١) وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام-١٥١] حَتَّى خَتَمَ الثَّلَاثَ الْآيَاتِ، «فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهَا بِشَيْءٍ أَدْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، كَانَتْ تِلْكَ عُقُوبَتُهُ، وَمَنْ أُخِّرَ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ(٢).

وصف ابن مسعود الآيات [١٥١، ١٥٢، ١٥٣] فقال: من أراد أنْ ينظر إلى وصيّة رسول الله ﷺ فليقرأ الآيات: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، وقرأ الآيات، وعن عبادة بن الصامت قال: أيّكم يبايعني على ثلاث: وقرأ الآية ﴿قُلْ﴾: يأمر الله ﷻ نبيه محمد ﷺ أنْ يقول لهؤلاء المشركين ﴿تَعَالَوْا﴾: هلُمّ، أقبلوا ﴿أَتْلُ﴾: أقُصُّ وأقرأُ عليكم، وأخبركم ﴿مَا﴾: الذي ﴿حَرَّمَ﴾: ما جعله الله ﷻ مُحرّمًا ﴿رَبُّكُمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا﴾: حرف نهي جاءت هنا للتنبيه بمعنى لا ﴿تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: حرمّه الله ﷻ تحريمًا لا ظنّ فيه، بل وحيًا، وأمرًا من عنده ﷻ، وصّاكم ربُّكم أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا: ألّا تعبدوا مع الله أحدًا، يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً(٣). وعن أبي ذر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ذاكَ جِبْرِيلُ عَرَضَ لي في جانِبِ الحَرَّةِ، فقالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أنَّه مَن ماتَ لا يُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا، دَخَلَ الجَنَّةَ، فَقُلتُ: يا جِبْرِيلُ، وإنْ سَرَقَ وإنْ زَنَى؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ قُلتُ: وإنْ سَرَقَ وإنْ زَنَى؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ قُلتُ: وإنْ سَرَقَ وإنْ زَنَى؟ قالَ: نَعَمْ، وإنْ شَرِبَ الخَمْرَ(٤) ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾: الأب والأم والأجداد ﴿إِحْسَانًا﴾: يجب عليكم العطف، والرحمة، والإنفاق عليهم، والطاعة ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم ﴿تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ﴾: حرف يفيد العلّة أي السبب ﴿إِمْلَاقٍ﴾: لا تقتلوا البنات أو الأولاد بسبب الفقر، كما كان حال العرب

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٣٤٧ (٣١٣٨) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ قال الذهبي: صحيح

(٢) مسند الشاشي ١٥٣/٣(١٢٢٩) قال الحاكم في المستدرك ٣٤٨/٢: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ قال الذهبي: صحيح.

(٣) سنن الترمذي ٥٤٨/٥(٣٥٤٠): هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ. قال الألباني: صحيح.

(٤) صحيح البخاري /٩٤/٨(٦٤٤٣).

في الجاهلية ﴿نَحْنُ﴾: ضميرٌ منفصل يُعبّر عن الاثنين أو أكثر، ويُراد بالمفردِ التعظيم، كما في هذه الآية، هو الله ﷻ ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾: قال الله ﷻ بصيغة الجمع، وهو واحد أحد؛ ليبيّن كثرة الرزق، يرزق الأبوين والأولاد، وفي آية أخرى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء-٣١] ﴿وَلَا﴾: أيضًا محرّم أن ﴿تَقْرَبُوا﴾: ينهى عن مقدمات؛ لأنّها تقود إلى فعل ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: كبار المعاصي مثل فُحش القول، والعمل؛ وأخطرها الزنا وغيره ﴿مَا﴾: الذي ﴿ظَهَرَ﴾: ما بان وانكشف يراه النّاس ﴿مِنْهَا وَمَا﴾: الذي ﴿بَطَنَ﴾: والذي هو مخفيّ عن عيون النّاس ﴿وَلَا﴾: ومحرّم عليكم أنْ ﴿تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المؤنث ﴿حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بِالْحَقِّ﴾: حرف باء الصلة، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: التَّارِكُ الْإِسْلَامَ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ - أَوِ الْجَمَاعَةَ شَكَّ فِيهِ أَحْمَدُ - وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ[1] ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للمذكر البعيد، والمقصود هنا الأوامر والنواهي التي شرّعها ﷻ، الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب المذكور ﴿وَصَّاكُمْ﴾: إذا جاءت الوصية من الله ﷻ فهي أمر واجب التحقيق ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد الترجي إذا كانت من عند البشر وتفيد الإشفاق إنْ كانت من عند الله ﷻ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: هذا ما وصّاكم ﷻ ووصيته كائنة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)

﴿وَلَا﴾: حرف يفيد مُحرّم عليكم أنْ ﴿تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾: لا تأخذوا من مال اليتيم الذي فقد أباه، ولا تتعرضوا له بأي وجهٍ من الوجوه ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ يُفيد أنْ تأخذوا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد المؤنث ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالذي ينفعه، مثل التعليم، والتملك، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام-١٥٢] وأيضًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء-١٠]، الْآيَةَ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة-

[1] صحيح مسلم /١٣٠٣/٣(١٦٧٦).

٢٢٠]، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ[1]. ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدق إلّا بشرط أنْ ﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: بلوغه وإيناس رشده، وأهليته وقدرته على التصرف بماله سالكًا مسلك الراشدين، لا مسلك أهل السفه والتبذير، قال الشعبي ومالك: حتى يحتلم، وقال السدي: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل أربعين ﴿وَ﴾: أيضًا أنتم مأمورون أنْ ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: تحديد الوزن والحجم ﴿والْمِيزَانَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْقِسْطِ﴾: أمر الله ﷻ بالعدل في الأخذ، والعطاء، في الميزان، وحرّم التطفيف في الكيل بيعًا وشراءً ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿نُكَلِّفُ﴾: نطلب تحقيق أمرٍ من الله ﷻ ﴿نَفْسًا﴾: جوهر الإنسان ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿وُسْعَهَا﴾: ما تستطيع، لا نفرض على نفسٍ إلّا ما تستطيع ﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربطِ ما بعدها مع ما قبلها ﴿قُلْتُمْ﴾: شهدتم ﴿فَ﴾: حرفُ جواب الشرط ﴿اعْدِلُوا وَلَوْ﴾: حرف يفيد الامتناع ﴿كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: وحُرّم عليكم شهادة الزور، أو محاباة الأقارب والأصدقاء ﴿وَبِعَهْدِ﴾: ميثاق ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ على البشر ﴿أَوْفُوا﴾: الوفاء بالعهد، إنْ عاهدتم الله ﷻ مثل القسم بالله ﷻ ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، لما أمركم به ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾: وصية الله ﷻ أمرٌ هي تطبيق الأوامر، والانتهاء عن النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا جاءت من البشر فهي للترجي وإذا جاءت من الله ﷻ -كما هي هنا- فتفيد إشفاق الخالق سبحانه على الخلق ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: عسى أنْ تتعظوا.

التكليف: هذه أخلاق المسلمين التي تحافظ على وحدة المجتمع بحفظ وصيانة الحقوق.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣)

﴿وَأَنَّ﴾: أيضًا هنا تأكيد ونفي الإنكار ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب ﴿صِرَاطِي﴾: طريق الله ﷻ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: هو الدين الحق، **﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾** [الأنعام-١٢٦]، الدين الذي لا انحراف ولا اعوجاج فيه، السبيل الموصل لرضا الله ﷻ، وهو دين الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرف يفيد ربط جواب الشرط ﴿اتَّبِعُوهُ﴾: لهذا السبب جاء الأمرُ باتباع سبيل الله ﷻ دون تأخير ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: ينهى الله عن الفرقة، وينهى عن الخلاف في الجماعة، فسبل الله يسّرها لعباده، فما من سبيل غير سبيل الله ﷻ إلّا وعليها شيطان، أمّا سُبُلُ الشيطان، وسبل اليهود والنصارى، والمجوس، وسائر الملل والبدع، والضلالات، والأهواء، والشذوذ ﴿فَ﴾: حرفُ

---

[1] سنن أبي داود /٣/١١٤(٢٨٧١). حسنه الألباني.

سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿تَفَرَّقَ بِكُمْ﴾: تأخذكم وتميل بكم بعيدًا ﴿عَنْ﴾: حرف جر يفيد السبب ﴿سَبِيلِهِ﴾: تأخذكم سُبُلُ الشيطان بسرعةٍ عن دين الله ﷻ، فتتفرقون وتختلفون ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، هو ما أمر به ﷻ ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾: هذا ما أمركم به وأوجبه عليكم، فوصيّة الله أمر ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تفيد التوقع والترجّي من البشر، وتفيد هنا التحقق؛ لأنّها من عند الله ﷻ ﴿تَتَّقُونَ﴾: تقوى الله ﷻ أنْ تعبد الله ﷻ بوعي طمعًا في الجنّة، وتنتهي عن المحرّمات خوفًا من النّار.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤)

﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿آتَيْنَا﴾: وهبنا، وأعطينا، وهذه منّةٌ وفضلٌ على ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: المقصود هنا التوراة، وقد مدحها الله ﷻ في هذا المقام ﷻ، وكثيرًا ما يُقرن الله ﷻ القرآن بالتوراة، قبل نزول القرآن كاملًا ﴿تَمَامًا﴾: أي كاملًا جامعًا لكلّ من يُريد الشريعة، جاء في المعنى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف-١٤٥] وقيل تمام للنعمة، جزاءً ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾: لموسى ؏، على طاعته، وإحسانه في العمل، وطاعة الله ﷻ، وهذا أحسن ما أعطاه الله ﷻ ﴿وَتَفْصِيلًا﴾: أيضًا شاملًا شارحًا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: كل أصول الشريعة ﴿وَهُدًى﴾: ليهتدي بها النّاس ﴿وَرَحْمَةً﴾: من عمل بها رحمه الله ﷻ، وأدخله الجنّة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يفيد الإشفاق من البشر ﴿بِلِقَاءِ﴾: رجعوا إلى الله ﷻ يوم القيامة ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه، فهذا تقرير عقيدة البعث والجزاء لقومٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون ويقتنعون بالبعث والقيامة.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥)

﴿وَهَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب ﴿كِتَابٌ﴾: هو القرآن الكريم ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: جاء النزول بصيغة الجمع لعظم الكتاب، وعظم النزول، هو من عند الله ﷻ، ليس افتراءً من أحدٍ ﴿مُبَارَكٌ﴾: كثيرُ الخيرات في الدنيا والآخرة، وهذا من وصف القرآن أيضًا ﴿فَ﴾: لهذا السبب ودونَ تأخير ﴿اتَّبِعُوهُ﴾: هذا هو المنهج الخاتم، وعلى الجميع اتباعه، ﴿وَاتَّقُوا﴾: أيضًا تجنبوا بالامتثال لما جاء فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تفيد التحقق لأنها من عند الله ﷻ ﴿تُرْحَمُونَ﴾: تنالون رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولفظ لعل في القرآن الكريم معناه أنّه سيحدث، هذه الآية تطالب المسلم أن يشيد بكتاب الله؛ بما أودع فيه من خير للبشر في دنياهم.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٥٦)

﴿أَنْ﴾: حرف تحقيق الفعل ﴿تَقُولُوا﴾: لئلا، حتى، كيلا تقولوا ﴿إِنَّمَا﴾: بالتأكيد ﴿أُنْزِلَ الْكِتَابُ﴾: جنس الكتاب السماوي ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾: هم اليهود والنصارى ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا﴾: وقد كنَا في السابق ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يفيد العلّة والمجاوزة ﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾: وما كنّا نفهم ما يقولون، لأنّهما ليستا بلساننا، فلم ندرسهما ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿غَافِلِينَ﴾: بسبب أننا لا نفهم ما فيهما، وكنا في غفلةٍ، وشغلٍ عمّا كان فيهما.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧)

﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية ﴿تَقُولُوا﴾: حتى لا تقولوا ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا﴾: لهذا السبب صرنا ﴿أَهْدَى﴾: أكثر هدى ﴿مِنْهُمْ﴾: لو أُنزل علينا كتابٌ من الله ﷻ لكنّا أكثر هدى منهم، وأكثر طاعةً، وامتثالًا ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾: لقد نزل على نبيكم محمد ﷺ القرآن بلسانكم، فيه بيان الحلال والحرام، وهدى القلوب ورحمة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، أي المصدر الذي لا يحدّه زمانٌ أو مكان ﴿رَبِّكُمْ﴾: فهو مالك أمرهم كلّه من الله مالك أمر العالمين ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿هُدًى﴾: دليلًا ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: ومعنى الرحمة هنا القرآن الكريم ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي؛ يفيد النفي ﴿أَظْلَمُ﴾: الأكثر ظلمًا ﴿مِمَّنْ﴾: من الذي ﴿كَذَّبَ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: ليس هناك أظلم من الذي شك في رسالة محمد ﷺ، وآيات الله التي أيده بها ﴿وَ﴾: عطفًا على تكذيبه ﴿صَدَفَ﴾: انصرف ﴿عَنْهَا﴾: وصرف عنها النّاس وصدّهم، وأعرض هو عنها، أي لا آمن بها، ولا عمل بها، ولكن صرف وصدّ النّاس عن الإيمان والعمل بها ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد التحقق وتأكيد الفعل في المستقبل ﴿نَجْزِي﴾: نكافئ بالعقاب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَصْدِفُونَ﴾: ينصرفون ﴿عَنْ﴾: حرف جرٍ يُفيد السبب ﴿آيَاتِنَا﴾: سنعاقب الذين لم يؤمنوا بآياتنا، ومنعوا النّاس الإيمان ﴿سُوءَ﴾: هو كل شرّ وضرر ﴿الْعَذَابِ﴾: أسوأ أنواع العذاب ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ هنا بمعنى بالذي ﴿كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾: جزاء انصرافهم عنها، وجزاء صدّهم ومنع النّاس العمل بها.

التكليف: يستوجب ما سبق التنديد بالظلم، وإظهار جزاء الظالمين المكذبين بآيات الله ﷻ.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٥٨)

﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ هنا للنفي ﴿يَنْظُرُونَ إِلَّا﴾: هذا وعيدٌ من الله ﷻ هل ينتظرون عذاب الله ﷻ، وتقديرها لا ينتظروا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾: تصلهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: أنْ يأتي ملكُ الموت، وأعوانه؛ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين ما بعده بما قبله ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾: مالك أمرهم كلّه، وذلك يوم القيامة بالصورة التي تليق به ﷻ؛ لفصل القضاء بينهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ﴾: جزءٌ من ﴿آيَاتِ﴾: البراهين ﴿رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: قيل هي علامات الساعة الدالة على مجيئها، أو أتى الآيات التي اقترحها وهي التي تضطرهم إلى الإيمان، كطلوعِ الشمسِ من مغربها، أو خروج الدابة؛ هذا بين يدي القيامة، حيث أمارات الساعة، وأشراطها، بعد آيات الله ﷻ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام-١٥٨][(١)]. ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَنْفَعُ﴾: يشفع فيُفيد ﴿نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾: اليوم ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُنْ آمَنَتْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: إذا جاءت أشراط الساعة، لا ينفع الإيمان أيّ إنسانٍ إنْ لم يتحقق الإيمانُ مسبقًا ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية بين أمرين ﴿كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾: أي لم يُقبل منها عملُها في الدنيا؛ لضعف الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ[(٢)]. ﴿قُلِ﴾: أمرٌ ربّاني بالقول ﴿انْتَظِرُوا﴾: هنا تهديد صريحٌ، ماذا سيكون عذابكم يوم القيامة ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الرسول ﷺ ومن المسلمين بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾: تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيدٌ أكيدٌ لمن لم تنفعه توبته وإيمانه قبل ظهور علامات الساعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩)

---

(١) صحيح البخاري /١٠٦/٨(٦٥٠٦).

(٢) صحيح مسلم /١٣٧/١(١٥٨).

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: جعلوا دينهم متفرقًا؛ فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه، هم اليهود والنصارى، ومنهم المشركون الذين عبد بعضُهم الملائكة، حيث اختلفوا قبل بعثة محمد ﷺ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى حال تفرقهم ﴿كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿شِيَعًا﴾: جاءت كلمة شيعًا هنا بمعنى الفرق والأحزاب؛ انظر [الأنعام-٦٥]، قيل الخوارج، أصحاب البدع، وقيل هي عامّة في كلِّ من لا دين له؛ كأهل الأهواء، وأهل الملل، والنحل المنحرفة ﴿لَسْتَ﴾: حرف نفي ﴿مِنْهُمْ﴾: أنت بريء أيّها النبي من ضلالهم وكفرهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾: بريء منهم في كلِّ شيءٍ ﴿إِنَّمَا﴾: حرفٌ يُفيدُ التخصيص ﴿أَمْرُهُمْ﴾: شأنُهم ومصيرُهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: إنّ الله ﷻ سيفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي، أي ليس فورًا ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾: بما لا يعرفون، يُخبرهم الله ﷻ ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ما اقترفوا من جرائمهم، وكذبهم، وعنادهم.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٠)

﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿جَاءَ﴾: يوم القيامة ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْحَسَنَةِ﴾: جاء لفظُ الحسنة في القرآن الكريم على خمسة وجوه؛ هنا بمعنى التوحيد ﴿فَ﴾: حرف جواب ﴿لَهُ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: حيث يضاعف الله الحسنة بعشرة أمثالها، تُجملُ هذه الآيةُ كرم الله ﷻ ومغفرته، والأحاديث كثيرة تُبيّن هذه المعاني الجميلة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ[1]. ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿جَاءَ﴾: اقترف، وجاء ﴿بِ﴾: حرف باء المقابلة ﴿السَّيِّئَةِ﴾: المقصود هو عمل الأعمال السيئة، ﴿فَلَا﴾: حرف تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿يُجْزَى﴾: تكون مكافأته ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ بمعنى ﴿مِثْلَهَا﴾: ومن همّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة فإنْ عملها كُتبت له سيئة واحدة، أو يمحُوها اللهُ ﷻ ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: ولا يهلك على الله إلّا هالك، عن عبدِ الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: يَحضُرُ الجمعة ثلاثةُ نفرٍ: رجلٌ

---

[1] صحيح مسلم /١١٨/١(١٣٠).

حضرها يَلْغُو فهو حظّهُ منها، ورجلٌ حضرها يدعو، فهو رجلٌ دعا الله ﷻ: إنْ شاء أعطاه، وإنْ شاء منعه، ورجلٌ حضَرَهَا بإنصات وسكون ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدًا، فهي كفارةٌ إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك بأن الله ﷻ يقول: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾** [الأنعام-١٦٠][1].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١)

﴿قُلْ﴾: يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أنْ يقول: **﴿إِنَّنِي﴾**: أنا بالتأكيد **﴿هَدَانِي﴾**: أنعم الله ﷻ عليّ بالهداية، والرشاد، ومعرفة ما أراده الله منّي **﴿رَبِّي﴾**: مالك أمري كلّه **﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾**: طريقٍ ومنهجٍ **﴿مُسْتَقِيمٍ﴾**: سبيلِ دينهِ الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف عنه، هو الإسلام **﴿دِينًا قِيَمًا﴾**: عقيدةً قائمةً ثابتةً على مصالح النّاس في الدنيا والآخرة **﴿مِلَّةَ﴾**: دين وعقيدة التي كلّف اللهُ ﷻ بها **﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾**: متحيزًا للحق والسماحة، لا يعني تكليف الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ اتباع دين إبراهيم ﵇، أنْ يكون هذا الدين أكمل مما نزل على محمد ﷺ؛ لأنّ النبي محمد قام بهذا الدين قيامًا عظيمًا، وأكمل الله ﷻ له هذا الدين إكمالًا تامًا لم يسبقه أحدٌ في الكمال **﴿وَمَا﴾**: حرف نفي **﴿كَانَ﴾**: في الحياة الدنيا **﴿مِنَ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع **﴿الْمُشْرِكِينَ﴾**: الذين عبدوا آلهة غير الله ﷻ، أو أشركوا غيره ﷻ في العبادة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يُخبر المسلمين بالقول بوضوح عند قيام الصلاة **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿صَلَاتِي﴾**: كل أنواع الصلاة لله ﷻ، وليس لغيره **﴿وَنُسُكِي﴾**: جمع نسيكة وهي الذبيحة أيضاً، وقال مجاهد: هو كلّ ما أمرني به: أنْ أذبح في الحج والعمرة، والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية التي تصل الدم للمخ فيموت **﴿وَمَحْيَايَ﴾**: أيضاً كلّ ما أعمله وأقصده في حياتي من أعمال الخير، ومن أعمال الخير، ويستمر بعد مماتي، بالوصية وبالصدقات، وأنواع القربات **﴿وَمَمَاتِي﴾**: أيضًا ساعة أموت **﴿لِلَّهِ رَبِّ﴾**: مالك أمر كلِّ **﴿الْعَالَمِينَ﴾**: في سبيل الله ﷻ؛ ولرضاه، ونيل مغفرته، والفوز بجنّته، قال بذلك إبراهيم، ويوسف، ويعقوب وكل الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم في مواضع كثيرة؛ فالإكثار من ذكرها لأنّها: قليلةُ الكلمات، عظيمةُ البركات.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣)

---

[1] سنن أبي داود /٢/٣٣٠(١١١٣). وحسنه الألباني.

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿شَرِيكَ لَهُ﴾: لا أشرك في عبادة ربّي أحدًا ﴿وَبِذَلِكَ﴾: إشارة للبعيد ﴿أُمِرْتُ﴾: أمرني ربِّي بذلك، وأنا أطعت والتزمت ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: قال قتادة أنا أول من أسلم لله ﷻ من هذه الأمّة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤)

﴿قُلْ﴾: يا محمد أخبر المشركين واسألهم مُنكرًا عليهم ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿اللَّهِ أَبْغِي﴾: أريد وأقبل ﴿رَبًّا﴾: هل أرغب وأطلب أن يكون مالك أمري كلّه غير الله ﷻ ﴿وَهُوَ﴾: ضمير يفيد المفرد، أيضاً ﴿رَبُّ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد العموم، هو ربُّ ما يعبدون، وما لا يعبدون، وهو مالك كلِّ شيءٍ، هو الذي يعلّمني، ويطعمني، ويسقيني، ويحفظني، لا أتوكل إلّا عليه، ولا أرجع إلّا إليه، يقول ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة-٥]، وجاء أيضًا: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾ [المزمل-٩] ﴿وَلَا﴾: أيضاً هنا نفي ﴿تَكْسِبُ﴾: تجني وتربح ﴿كُلُّ﴾: تفيد العموم ﴿نَفْسٍ﴾: جوهر وذات الإنسان جاءت بصيغة نكرةِ لتؤكد عموم الأنفس، أي لا يقدر أحدٌ أنْ يكتسب لغيره ذنبًا ﴿إِلَّا﴾: أداةُ استثناء لا يقدرُ أحدٌ أنْ يكتسب لغيره ذنبًا ﴿عَلَيْهَا﴾: هذا من مشاهد يوم القيامة، فالنفوس البريئة لا تحمل ذنوب النفوس الكافرة، لا يُكتب لها إلّا بالنيّة الخالصة، والعمل الصادق، خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، ولا تحمل نفس خطيئة غيرها، ولا يهضم حق نفسٍ من حسناتها ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تَزِرُ﴾: لا تحمل نفسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾: آثمةٌ ﴿وِزْرَ﴾: ذنب ﴿أُخْرَى﴾: لا يحمل المؤمن البريء ذنب الكافر؛ مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر-٣٨] ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع الزمني والتراخي، أي ليس فورًا ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾: الجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمركم كلّه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مآل كلِّ الخلائق ستُعرض على الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: سيخبر الله ﷻ الخلق ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فيما اختلفوا فيه في الدنيا؛ إنّه ﷻ صاحب الكلمة الفصل؛ سيحكم بين العباد، ويخبرهم الصواب، فيما فيه يتنازعون.

التكليف: من هذه الآية الكريمة تتجلى عدالة الله ﷻ يوم القيامة، ثوابًا أو عقابًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿هُوَ الَّذِي﴾: الله ﷻ ﴿جَعَلَكُمْ﴾: خلقكم، وقدّركم، ﴿خَلَائِفَ﴾ تخلفون بعضكم بعضًا وتعمرون خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة؛ في عمارة ﴿الْأَرْضِ﴾: بجيلٍ يخلفه جيلٌ بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وجاء في السياق: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة-٣٠] وقال ﷻ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف-١٢٩]، وقيل: ﴿خَلَائِفَ﴾: يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَلَفُوا سَائِرَ الأُمَمِ: وَقِيلَ: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا[1]. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَتِ النَّصَارَى عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَعْمَلُونَ مِنْ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لاَ، فَقَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[2] ﴿وَرَفَعَ﴾: أعلى ﴿بَعْضَكُمْ﴾: جزءٌ منكم ﴿فَوْقَ﴾: أعلى مِنْ ﴿بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: جاءت كلمة فوق هنا بمعنى على لقد فاوت اللهُ ﷻ بينكم في الأرزاق، والأخلاق، والمحاسن، والمساوئ، والمناظر، والأشكال، والألوان، لحكمةٍ بالغةٍ عنده ﷻ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: يختبركم تخصيصًا فيما آتاكم من تلك الأمور، ﴿فِي مَا﴾: الذي ﴿آتَاكُمْ﴾: يختبركم في الذي أعطاكم من النّعم، يختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير في فقره، ويسأله على صبره ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: السيدُ، مالك أمرك كلِّه ﴿سَرِيعُ﴾: لا يُؤخّر ﴿الْعِقَابِ﴾: يُذكرّ اللهُ ﷻ الخلق أنّ عقابه سريع، لمن عصاه، وخالف رسله، وما أنزله من الهدى ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿إِنَّهُ﴾: هو ﷻ بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تأكيد ﴿غَفُورٌ﴾: كثير الغفران ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة لمن أطاعه، ووالاه.

التكليف: من هذه الآية تظهر درجاتُ التفاوت بين النّاس في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والبر والفجور، في كلّ مظهرٍ من مظاهر تدبير اللهِ ﷻ في خلقه، لقد تعددت آياتُ الترهيب والترغيب بين العذاب والمغفرة، جاء في المعنى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ﴾ [الحجر-٤٩، ٥٠]، لينتفع بها الذاكرون، غيرُ الغافلين.

---

[1] شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢١٨.

[2] صحيح البخاري ٣/٩٠(٢٢٦٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ[1]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا وَعِنْدَ اللهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً[2].

ترتيبها 7 — **سُورَةُ الأَعْرَافِ** — آياتها 206

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة، من عهد النبي ﷺ، ووجه تسميتها: أنّه جاء فيها لفظ (الأعراف)، ولم يذكر في غيرها من سور القرآن وأُطلق عليها سورة الطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام، وهي سورة مكية، وهي السورة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة "**ص**"، وقبل سورة الجن، وعدد آياتها (٢٠٦) في عدّ أهل المدينة والكوفة، و(٢٠٥) في عد أهل الشام والبصرة، قال في الإتقان: (٢٠٧)

﴿المص﴾ (١)

اعتمادًا على ما يقوله علماء النحو إنّ الضمائر في الكلام الأصل أنْ تعود على متقدمٍ في اللفظ والرتبة، ولا تعود على متأخرٍ في اللفظ والرتبة بمعنى ما هو الاسم الذي سبق؟ أي على ما أو على من يعود الضمير، وعليه أرى أنّ الحرفين **﴿ال﴾** يدلان – والله أعلم– على اسم الله ﷻ كما في سورة البقرة وأول سورة آل عمران، وهنا في سورة الأعراف جاء في أوّل الآية رقم (٢): **﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾** وهو القرآن، نزل من عند الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (٣): **﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾** والربُّ هو الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (٤): **﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾** والمُهلك هو الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (٥): **﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾** والضمير يعود على الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (٦): **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾** والسائل هو اللهُ ﷻ، وجاء في الآية رقم (١٠): **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾** ويعود الضمير على الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (١١): **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾**: والخالق هو الله ﷻ **﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾**، والمصور هو الله ﷻ.

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢١٠٩(٢٧٥٥).

[2] سنن الترمذي /٥/٤٤١(٣٥٤١). وحسنه الترمذي وقال: حسن صحيح.

حرف ﴿م﴾ يعني: اسم محمد ﷺ وإضافة إلى ما جاء في أول البقرة، وآل عمران، وغيرها جاء هنا في الآية رقم (٢): ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولم ينزل القرآن إلّا على محمدٍ ﷺ، وجاء في الآية (٣): ﴿اتبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكُم منْ ربّكُم﴾: وقد نزل على محمد ﷺ.

حرف ﴿ص﴾: أرى – والله أعلم – أنّه يعني صدر محمد ﷺ، وفي الصدر يوجد القلب، وهو مركز الوعي والإدراك، أي مستقر الإيمان أو الكفر، وما يعزز هذا ما جاء في الآية رقم (٢): ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾؛ وهو القرآن الكريم، وجاء في الآية رقم (٤): ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وهذا يعني بهلاكهم يزول الخوف من صدره، وقد تكرر المعنى في الآيات التالية.

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

﴿كِتَابٌ﴾: هو القرآن الكريم **﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾**: وحيٌ نزل من الله ﷻ، عليك يا محمد ﷺ **﴿فَلَا﴾**: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، وحثّ على ألّا **﴿يَكُنْ فِي صَدْرِكَ﴾**: في قلبك، الذي في صدرك، وهو مركز الوعي والإدراك **﴿حَرَجٌ﴾**: شكٌّ، ولا لُبس، ولا ضيق **﴿مِنْهُ﴾**: من عبادته ﷻ والحكم الذي خالفك فيه قومك، لا تتحرّج، أو تتردّد في إبلاغ النّاس به، ولتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حيث تأتي هذه الآيات؛ لتزيل الخوف من صدر الرسول ﷺ **﴿لِ﴾**: حرفُ علّةٍ وسببٍ **﴿تُنْذِرَ﴾**: لتحذير المخالفين، وتهديد من لا يؤمن **﴿بِهِ﴾**: بالقرآن، وتحذّر الكافرين **﴿وَذِكْرَى﴾**: تذكير باستمرار، حينًا بعد آخر **﴿لِ﴾**: حرف تخصيص **﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾**: تخصيصًا، إنّ المؤمن مطمئنٌ، يحتاج إلى تذكير؛ ليعزز إيمانه، والقرآن يذكّره.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

﴿اتَّبِعُوا﴾: أمرٌ من الله ﷻ: أيّها النّاس سيروا على هدى **﴿مَا﴾**: الذي **﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾**: وحيًا، حمله جبريل، ﵇ **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية، أي المصدر الذي لا يحدّه مكانٌ أو زمانٌ **﴿رَبِّكُمْ﴾**: مالك أمركم كلّه، أطيعوا ما جاء في القرآن الكريم، وما أُوحيَ إلى محمدٍ ﷺ من السُنّة المشرّفة **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا **﴿لَا﴾**: حرف نهي **﴿تَتَّبِعُوا﴾**: لا هنا للتحريم، ما بعدها حرام إتباعه **﴿مِنْ دُونِهِ﴾**: غيره **﴿أَوْلِيَاءَ﴾**: الولي هنا رؤساءٌ في الشرك، ولا تخرجوا عن تعاليم الله ﷻ باتباع أُناس كفّار تحبونهم، وتنصرونهم، وتتقربون إليهم، وتساوون بينهم وبين الله ﷻ، في تلقي الأوامر والنواهي من الشياطين، وتقلدونهم كما يفعل أهل الجاهلية، ويحرموا ما يحرمون ويحللوا ما يحللون، وهذه هي عبادتهم **﴿قَلِيلًا مَا﴾**:

الذي ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: المقصود هنا تتعظون وبخاصّة أولياء الشياطين من النّاس، جاء في المعنى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣].

التكليف: هنا أمرٌ صريحٌ من فاتحة السورة بضرورة اتباع القرآن الكريم.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤)

تفيد الآية الكريمة عاقبة الذين اتبعوا أولياءَ من دون الله ﷻ ﴿وَكَمْ﴾: حرفٌ يفيد الكثرة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿قَرْيَةٍ﴾: أو مدينة أو دول ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: أردنا إهلاكها؛ فزالوا، وهلكوا، وجاءت بصيغة الجمع؛ لعظم ما حدث لهم ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿جَاءَهَا بَأْسُنَا﴾: جاء أمر الله ﷻ بالهلاك لأهل القرية، بقوة، وهم ﴿بَيَاتًا﴾: هو الإغارة على العدو ليلًا، وهم نائمون، لوقت طويل، وقت استراحة، على حين غرّة؛ وهذه أشدّ وأصعب من وقت الظهيرة ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد المساواة بين متعاطفين: هنا هلاكهم ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿قَائِلُونَ﴾: أو جاءهم عذابنا لأهل القرية وهم في قيلولة، وسط النّهار نائمون استراحة نصف النهار؛ إنّ عذاب الله ﷻ يأتي وهم في غفلة، ولأنّ الحروب في ذلك الزمان كانت تتم في الليل أكثر من النّهار.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥)

﴿فَمَا﴾: حرفٌ ينفي هنا كلَّ عملٍ ﴿كَانَ﴾: في السابق ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: دعاؤهم هنا حُجج، وتبرير سبب شركهم وعدم إيمانهم عند نزول العذاب بهم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى، ويفيد الوجع ﴿جَاءَهُمْ﴾: حلّ بهم، ووقع عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾: عندما نزل بساحتهم العذاب الشديد ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿قَالُوا إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿كُنَّا﴾: قبل نزول العذاب ﴿ظَالِمِينَ﴾: اعترفوا بظلمهم، دونَ توبةٍ، فيستحقون العذاب.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦)

﴿فَ﴾: حرف استئناف يفيد الترتيب الزمني ﴿لَ﴾: حرف لام القسم والتوكيد ﴿نَسْأَلَنَّ﴾: يؤكد الحق ﷻ أنّه سيسأل الكافرين يوم القيامة، وهو أعلم بهم بغرض التوبيخ والتقريع ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: يسأل الله ﷻ الأمم: ماذا أجاب الرُسل؛ فقد جاء في المعنى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص-٦٥] ﴿وَ﴾:حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾: نسأل بغرض الشهادة التي يشهدونها بالتأكيد ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: ويسأل الله ﷻ، بكل تأكيد الأنبياء، وهو أعلم: هل بلّغ الرُسلُ رسالته؟ إنّ

المسئولية قضية ربّانيّة؛ ضابطة للمجتمعات، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ[1].

التكليف: إنّ التشريع الربّاني لا يقر الفوضى، سيسأل الله ﷻ من باب الدوافع والدواعي وليس عمّا فعلوا؛ لأنّ أفعالهم مكتوبة عليهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧)

﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول **﴿لَنَقُصَّنَّ﴾**: نذكر لهم بالتأكيد **﴿عَلَيْهِمْ﴾**: من الرسل إليهم، وما وقع بينهم عند الدعوة منهم يقول الله ﷻ؛ إنّه سيخبر النّاس يوم القيامة، ماذا فعلوا **﴿بِعِلْمٍ﴾**: سيوضع الكتاب يوم القيامة؛ فيتكلم بما كان النّاس يعملون، علم اليقين **﴿وَمَا﴾**: حرف نفي **﴿كُنَّا﴾**: هو الله ﷻ بالتعظيم **﴿غَائِبِينَ﴾**: كان الله ﷻ شهيدًا عليهم، لم يغب عنه شيء، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، يقول ﷻ: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** [الأنعام-٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[2]، **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال **﴿الْوَزْنُ﴾**: هو وزن الأعمال، يقول الرازي: التي يقلبها الله ﷻ أجسامًا **﴿يَوْمَئِذٍ﴾**: يوم القيامة **﴿الْحَقُّ﴾**: يوم العدل، لا يُظلم أحدٌ، تُوزن أعمال العباد يوم القيامة وزنًا حقيقيًا، طبقًا للعدل الذي لا ظلم فيه، جاء في المعنى: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾** [الأنبياء-٤٧]، وقال ﷻ: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** [النساء-٤٠] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ[3]، وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

[1] صحيح البخاري /٣/١٢٠(٢٤٠٩).

[2] صحيح البخاري ٨/ ٨٦(٦٤٠٦).

[3] صحيح البخاري ٩/ ١٢٢ (٧٤١١).

«الطُّهورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[1]، وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، يقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى: الْبِطَاقَةُ: الرُّقْعَةُ، وَأَهْلُ مِصْرَ يَقُولُونَ لِلرُّقْعَةِ: بِطَاقَةً[2]، ﴿فَمَنْ﴾: حرفٌ يُفيد التفصيل، وبمعنى الذي ﴿ثَقُلَتْ﴾: رجحت حسناته على سيئاته في ﴿مَوَازِينُهُ فَـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب وللبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: هؤلاء هم الذين فازوا بالمطلوب، ونجوا من النّار.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩)

﴿وَمَنْ﴾: أيضًا الذي من جنس العاقل ﴿خَفَّتْ﴾: رجحت سيئاته على حسناته ﴿مَوَازِينُهُ﴾: ميزان أعماله: يُؤتى بالرجلِ السمين يوم القيامة؛ فلا يزن عند اللهِ جناح بعوضة، قال ﷻ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف–١٠٥]، قيل عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ[3]. فتارة تُوزن الأعمال، وتارة تُوزن محالها، وتارة يُوزن فاعلها؛ والله أعلم ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: أوردوها جهنّم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾: البراهين والحجج الواضحة ﴿يَظْلِمُونَ﴾: أنفسهم بكفرها، وبما نشروه من كُفرٍ بين غيرهم.

---

[1] صحيح مسلم ١/ ٢٠٣(٢٢٣).

[2] سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٧(٤٣٠٠) قال الألباني: صحيح.

[3] مسند أحمد /٧/٩٨(٣٩٩١). قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾: جعلنا لكم قوّةً وتمكينًا، جاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم التمكين، وهيأنا لكم أسباب المعايش ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: يَمتَنُّ اللهُ ﷻ على عباده؛ بأنّه هيّأ لهم كوكب الأرض؛ ليكون للنّاس قرارًا، جعل فيه الهواء، والماء، والغذاء، والسكن، وسخّر لهم الشمس والقمر ﴿وَجَعَلْنَا﴾: أيضًا هيأنا ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿فِيهَا مَعَايِشَ﴾: وسائلُ التكسُّب من الزراعة، والتجارة، والصناعة، والصيد، وغيرها من وسائلِ الرزق، ومع كلّ ذلك ﴿قَلِيلًا﴾: جاء لفظ "**قليل**" هنا بمعنى أنّه لا شيء ﴿مَا﴾: الذي ﴿تَشْكُرُونَ﴾: مع كلّ هذا الفضل؛ فإنّه لا يوجد أحدٌ من الشاكرين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: خلق الله ﷻ آدم، عليه السلام، من طينٍ لازبٍ، ولم يكن جنسه موجودًا من قبله، وخلق الآباء والأجداد ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾: جعلناكم في صورةِ بشرٍ سويًا، وقيل نُفخ فيه من روحه؛ وهذا هو الأصح والله أعلم، وقيل خُلقوا في أصلاب الرجال وأرحام الإناث، وقيل إنّ الخلق كان لآدم عليه السلام، وأمّا ذريّته فخُلقت من نطفة ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾: قول أمرٍ واجبٍ ﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾: سجود تكريم، وليس سجود عبادة ﴿لِ﴾: حرف تمليك وتخصيص ﴿آدَمَ﴾: عليه السلام الذي خلقه من أديم الأرض ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر لهذا السبب؛ أسرع الملائكة ﴿سَجَدُوا﴾: تكريمًا له ﴿إِلَّا﴾: باستثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾: سجد الملائكة، وأبى إبليس أنْ يسجد؛ تكبُّرًا، وعنادًا؛ فكانت هذه معصية؛ تبعها عقابٌ يُفصَّل في مواضع أخرى، ولقد سُمّي إبليس؛ لأنّه أبلس من الرحمة؛ أي يئس منها هو الحزن المعترض ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي ﴿يَكُنْ مِنَ﴾: حرفٌ يفيد التمييز ﴿السَّاجِدِينَ﴾: سجود طاعة الأمر الربّاني.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ توبيخًا لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ﴾: والسؤال هنا لإقامة الحجةِ، والتقريع، والتوبيخ، ما الذي ألزمك، ما اضطرك ﴿أَلَّا﴾: حرف تخصيص، وقيل هي مكونة من **أنْ لا**، قيل إنّ "**لا**" زائدة؛ لتأكيد الجمود، وإنّ للنفي على ما، وهي أداة نافية، ذلك لتأكيد النفي ﴿تَسْجُدَ﴾:

دليل طاعة وعبادة ﴿إِذْ﴾: تفيد شيئًا حدث من الماضي بمعنى حين او حينذاك ﴿أَمَرْتُكَ﴾: وقد أمرتك ﴿قَالَ﴾: إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾: أفضل كان هذا زعم إبليس، واعتقاده أنّه أفضل من آدم عليه السلام، وإنكار أن يُؤمر مثله بالسجود لمثل آدم ﴿مِنْهُ﴾: حرف يفيد التمييز، قال إبليس أنا أفضل من آدم؛ فكيف تأمرني بالسجود له، وفسّر السبب ﴿خَلَقْتَنِي﴾: أوجدتني من غير سابق وجود ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿نَارٍ﴾: القائل إبليس لعنةُ اللهِ عليه، يُبرر خيريته وشرفه؛ أنْ خلقه الله سبحانه وتعالى من نار، والنّار عنده أشرف من الطين، هنا ملحوظتان: الأولى: نظر إبليس إلى أصل عنصر الخلق، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، حيث خلق الله سبحانه وتعالى آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، و الثانية: أنّ إبليس لم ينكر خلق الله سبحانه وتعالى له، ولا خلق الله سبحانه وتعالى لآدم؛ فطُرد من رحمة الله سبحانه وتعالى، بينما كثير من المسلمين اليوم يُنكرون وجود الله سبحانه وتعالى؛ من المُلحدين المجاهرين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى حال ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية ﴿طِينٍ﴾: وهو اختلاط التراب بالماء، إنّ طبيعة الطين الرزانة، والحلم والأناة، والتثبت، وهي محل النبات، والنمو والزيادة والإصلاح، أما النّار فطبيعتها الإحراق، والطيش، والسرعة، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ[1]. وقال الحسن: قاس إبليس وهو أول من قاس، وقال ابن سيرين، أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلّا بالمقاييس.

التكليف: قال إبليس هنا اعتقادًا منه أنّ عنصر النّار أفضلُ من عنصر الطين، وهذا قياس خاطئ؛ لأنّ الميزان هو التقوى لقوله سبحانه وتعالى: **﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات-١٣١]

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)

﴿قَالَ﴾: الله سبحانه وتعالى بأمرٍ قدريّ محتومٍ ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر؛ بهدف ترتيب الأمر، يفيد سرعة التنفيذ ﴿اهْبِطْ مِنْهَا﴾: كان الطرد هبوطًا من العلو وهو محلُّ المطيعين من الملائكة؛ للأسفل وهو مقرُّ العاصيين والمطيعين على حدٍّ سواءٍ، وفي هذا إشارة ودلالة عقاب ﴿فَمَا﴾: حرف عطف ﴿يَكُونُ لَكَ﴾: لا يجب ولا يتحقق لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: حرفٌ يُفيد ابتداء الغاية المكانية، وهي هنا بداية الهبوط، فيها أقوال: من الجنّة، ويُحتمل أنْ تكون عائدة إلى المنزلة التي كان فيها ﴿فَ﴾: لهذا السبب، وبدون تأخير ﴿اخْرُجْ﴾: قال سبحانه وتعالى فاهبط بسرعة، ثم قال فاخرج؛ وهو طرد متكرر ﴿إِنَّكَ﴾: حرف تأكيد الفعل، أنت بالتأكيد ستكون ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾:

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢٢٩٤(٢٩٩٦).

الحقيرين الذليلين، أمرٌ يُناقضُ رؤية إبليس لنفسه، من أهل الصغار والهوان على الله ﷻ، وعلى صالحي عباده؛ جزاء استكباره.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤)

﴿قَالَ﴾: إبليس مستدركًا ﴿أَنْظِرْنِي﴾: بمعنى أمهلني ولا تُمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: يوم الدين، كان هدفه إغواء المزيد من بني آدم؛ كأنّه طلب أن لا يموت أبدًا.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿إِنَّكَ﴾: أنت يا إبليس بالتأكيد ﴿مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾: أجابه الله ﷻ إلى ما طلب؛ لحكمةٍ يريدها، ومشيئة لا تُمانع، أنت من المؤجل عقابُهم حتى تقوم للحساب مع كلّ الخلائق، يوم النفخة الأولى.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦)

﴿قَالَ﴾: إبليس بعد أنْ استوثق من استجابة الله ﷻ لطلبه، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَا﴾: بالذي، بسبب أنّك ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: وقعت في الغواية ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾: حرف اللام حرف علّةٍ وسببٍ يفيد هنا التأكيد لأن يترصد ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا لعبادك الذين ستخلقهم من ذرية آدم، الذي كان سببًا في إبعادي؛ أنْ أُبعدهم عن ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: طريق الحق، وسبيل النجاة، عَنْ سَبْرَةَ ابْنِ أَبِي فَاكِهٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ قَالَ: فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ قَالَ: ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ، وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقَسَّمُ الْمَالُ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ [1].

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧)

يريد إبليس الملعون أن يُفسد على عباد الله إيمانهم حتى لا ينجوا ويهلكوا كما هلك هو؛ فقال ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي؛ أي على طول الزمن ﴿لَآتِيَنَّهُمْ﴾: أصل إليهم،

[1] مسند أحمد ٢٥/٣١٥-٣١٦(١٥٩٥٨) قال الأرناؤوط: إسناده قوي.

بكّل تأكيد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: يقول إبليس لعنه الله ﷻ: سأستخدم أسلوب التشكيك في الآخرة، وقيل من بين أيديهم هي الدنيا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: بعد أنْ أُزيّن وأُرغّب لهم الدنيا، سوف أشكك لهم في الآخرة ﴿وَعَنْ﴾: حرفٌ يُفيد المجاوزة ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾: أخلط عليهم أمر دينهم، وأُدخل الشُبهات فيه؛ عن طريق المعاصي ﴿وَعَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿شَمَائِلِهِمْ﴾: أُزيّن وأشهّى لهم المعاصي؛ بتكثير السيئات، قال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، وهو الغيب، وقال ابن جرير: أنْ يصدّهم عن كلِّ طريقٍ للخير، ويُزيّن لهم كلَّ طريقٍ للشرّ.

التكليف: لقد بيّن إبليسُ الجهات الأربع التي يأتي منها، وترك جهة الفوق والتحت؛ لأنّ الرحمة تنزل من فوقهم، وترك الجهة التحتية؛ لأنّ أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد، ويتذكر بداية خلقه، وموته، ودفنه، ثم بعثه مرّةً أخرى.

﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا نفي ﴿تَجِدُ﴾: يكون ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: الغالبية منهم لنْ يكونوا ﴿شَاكِرِينَ﴾: سيكفرون، وينكرون نعمتك، وفضلك عليهم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ بِعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الأَرْوَاحُ فِيهِمْ فَقَالَ اللهُ فَبِعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي[١].

وعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ إِبْلِيسُ بَثَّ جُنُودَهُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ الْيَوْمَ مُسْلِمًا أَلْبَسْتُهُ التَّاجَ، قَالَ: فَيَخْرُجُ هذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَتَزَوَّجَ، وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَقَّ وَالِدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَبَرَّ، وَيَجِيءُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى أَشْرَكَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيُلْبِسُهُ التَّاجَ»[٢]

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ[٣]، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ

---

[١] مسند أحمد ٤/ ١٨٣٩ قال الأرناؤوط: حسن

[٢] صحيح ابن حبان ١٤/ ٦٨(٦١٨٩) صححه الأرناؤوط، والألباني انظر الصحيحة (١٢٨٠).

[٣] قال النووي في شرح النووي ١٥٧/١٧: الْعَرْش: سَرِير الْمَلِك، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ مَرْكَزَهُ الْبَحْر، وَمِنْهُ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي نَوَاحِي الْأَرْض.

مِنْهُ وَيقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ[1][2]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ[3]، وعن ابن عمر قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ حينَ يُمْسِي وحينَ يُصبحُ: اللَّهُمَّ إني أسألُكَ العافيَةَ في الدُنيا والآخرة، اللَّهُمَّ إني أسألُكَ العفوَ والعافيَةَ في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللَّهُمَّ استُر عورَتي. وقال عُثمان: عوراتي، وآمِن رَوْعَاتي، اللَّهُمَّ احفظني مِنْ بين يدىَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شِمالي، ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتِكَ أنْ أُغْتَالَ مِن تحتي[4].

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿اخْرُجْ﴾: فعلُ أمر ﴿مِنْهَا﴾: الكلام موجّه إلى إبليس، عليه اللّعنة، وبالطرد، والإبعاد، والنفي من الجنّة ﴿مَذْءُومًا﴾: هو المعيب: الذأم هو العيب، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذمّ، وهو ذكر المساوئ، وهو عكس المدح، وقيل معناها: منفيًا ﴿مَدْحُورًا﴾: القصي، المُبعد، المطرود، اللعين، المُصّغر ﴿لَمَنْ﴾: حرف اللّام هنا موطئة للقسم، للذين ﴿تَبِعَكَ﴾: من سلك سبيلك، سبيل الشيطان، واتبعه ﴿مِنْهُمْ﴾: بعضُهم ﴿لَ﴾: حرف اللام هنا واقعة في جواب القسم ﴿أَمْلَأَنَّ﴾: أزيد الأعداد؛ بكلّ أدوات التوكيد أعداد أهل ﴿جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾: بعضكم بالتأكيد ﴿أَجْمَعِينَ﴾: ستزدحم جهنّم بكم، الضمير يعود على من اتبع الشيطان، يقول ﷻ: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء-٦٣].

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

﴿وَيَا﴾: قلنا يا آدم، وكان هذا بعد إخراج إبليس من الجنّة ﴿آدَمُ﴾: خاطب الله ﷻ آدم وزوجه عليهما السلام ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾: حواء، عليها السلام ﴿الْجَنَّةَ﴾: أنْ تكون الجنّة سكنك أنت وزوجك، ويقال إنّ جبل عرفات هو المكان الذي أسكن اللهُ ﷻ آدم وحوّاء، عليهما السلام، في أول الخلق؛ وتسميته قد تكون بسبب وظيفته حيثُ أخبره الله ﷻ بدوره وهي الطاعة بعد السكن ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب، ودونَ تأخير زمني ﴿كُلَا﴾: تناولا طعامكما

---

[1] قال النووي: أَيْ: يَمْدَحُهُ لِإِعْجَابِهِ بِصُنْعِهِ وَبُلُوغِهِ الْغَايَةَ الَّتِي أَرَادَهَا. مسلم بشرح النووي ١٥٧/١٧.

[2] صحيح مسلم ٢١٦٧/٤(٢٨١٣).

[3] صحيح البخاري ١٢٣/٤(٣٢٧٦).

[4] سنن أبي داود ٤٠٨/٧(٥٠٧٤). وصححه الأرناؤوط.

﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على بداية الغاية المكانيّة ﴿شِئْتُمَا﴾: أسكن اللهُ ﷻ آدم وزوجه جنّة الأرض، التي فيها يعيش المؤمن والكافر؛ لأنّ الله ﷻ لن يدخل الكافر الجنّة؛ في الأرض؛ يأكلا من كلِّ الثّمار، وفي الأوقات التي يريدون ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا نهي وتحريم ﴿تَقْرَبَا﴾: الاقتراب بغرض الأكل؛ وكان هذا مبالغةً في النهي عن الأكل ﴿هَذِهِ﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المؤنث ﴿الشَّجَرَةَ﴾: استثنى الله ﷻ شجرةً واحدةً، جاء ذكرها في سورة البقرة وأباح لهم جميع شجر الجنّة ما عدا هذه الواحدة، وقد اختُلف في نوع تلك الشجرة، ولم يرد في تعيينه خبرٌ صحيحٌ؛ ولا جدوى من البحث في ذلك ﴿فَ﴾: بسبب قربهما من الشجرة بغرض الأكل ﴿تَكُونَا﴾: تُصبحا في حكم الله ﷻ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: العاصين، كان كلّ شيءٍ مُباحًا، وكأن المحرّم فقط شجرةً واحدةً، كانت مخالفة آدم، ؏، لله ﷻ في شجرةٍ واحدةٍ؛ أي قليلًا من الإثم، فكان العقاب الخروج من الجنّة مع حواء.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع السريع ﴿وَسْوَسَ﴾: لقد دخل الشيطان هذه الجنّة، وهي في عرفات، في الأرض؛ التي تضم الصالح والطالح، المؤمن والكافر؛ ومارس فيها الوسوسة والإغواء، تحدث بصوتٍ خفيّ؛ بالمكر، والخديعة ﴿لَهُمَا﴾: تخصيصًا لآدم وحواء عليهما السلام ﴿الشَّيْطَانُ﴾: هو الموسوس ﴿لِ﴾: حرفٌ يُفيد العاقبة والصيرورة ﴿يُبْدِيَ﴾: ليُظهر ﴿لَهُمَا﴾: تخصيصًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿وُورِيَ﴾: ما ستره الله ﷻ وأخفى ﴿عَنْهُمَا مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿سَوْآتِهِمَا﴾: ينزع عنهما اللّباس الحسن، وتبدو عورتاهما، أراد الشيطانُ أنْ يسوؤهما بظهور ما كان مستورًا عنهما من عورتهما، فإنّهما كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدُهما من الآخر، وقد يكون المقصود بدت عورتهما لهما ولغيرهما، والله ﷻ أعلم ﴿وَقَالَ﴾: عطفاً على ما سبق قال إبليس لعنةُ الله عليه ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿نَهَاكُمَا﴾: منعكما وحرّم عليكما ﴿رَبُّكُمَا﴾: مالك أمركما ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿هَذِهِ﴾: حرف إشارة وتنبيه ﴿الشَّجَرَةِ﴾: ما نهاكم الله عن أكل هذه الشجرة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَكُونَا﴾: تصيرا، تُصبحا ﴿مَلَكَيْنِ﴾: حتى لا تكونا من الملائكة، لأنّ صور الملائكة أفضل، وأكرم من صورتهما الآدمية ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية هنا بين متعاطفين الأول كونهما ملكين والثاني ﴿تَكُونَا مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد التمييز والتأكيد ﴿الْخَالِدِينَ﴾: حتى لا تخلدا في الجنّة، أو ألّا تموتا؛ والله أعلم.

التكليف: إنّ الاستجابة لوسوسةِ الشيطانِ خسارة في كلّ الأماكن وكلّ الأحوال.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ على ما سبق، يجمع هنا بين الوسوسة والقسم ﴿قَاسَمَهُمَا﴾: أقسم لهما، حلف لهما إبليس، لعنهُ اللهُ، أقسم إبليسُ لآدم وحواء بالله، وقد يكون أنْ أقسما هما له بالقبول، كما أقسم لهما بالنصيحة، فصدّقه آدم وحواء، ولم يخطر ببالهما أنّه كاذبٌ مُضلّ عندما قال ﴿إِنِّي﴾: أنا إبليس بكلِّ تأكيد ﴿لَكُمَا﴾: تخصيصًا ﴿لَمِنَ﴾: هنا للتأكيد ﴿النَّاصِحِينَ﴾: أقسم إبليس لعنه الله كذبًا أن ما قاله هو نصيحة؛ يريد بها الخير لهما، وهو كاذبٌ، ومُخادعٌ، قال قتادة: قال لهما الشيطان إني خُلقت قبلكما وأنا أعلُم منكما؛ فاتبعاني أرشدكما، خدعهما فانخدعا.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢)

﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب والتتابع السريع ﴿دَلَّاهُمَا﴾: من التدلية والإدلاء، وهو إرسالُ الشيء من أعلى إلى أسفل، تم أنزالهما من رتبة الطاعة، ومن المنزلةِ التي كانا فيها ﴿بِغُرُورٍ﴾: حرف باء السبب، بكذبٍ ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب وهو ﴿ذَاقَا﴾: أكلا من ﴿الشَّجَرَةَ﴾: قال ابن عباس: من السنبلة، وقيل إنّ الذي وارى عنهما سوآتهما: هي أظفارهما ﴿بَدَتْ﴾: ظهرت ووضحت ﴿لَهُمَا﴾: تخصيصًا ﴿سَوْآتُهُمَا﴾: عورتِهما ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿طَفِقَا﴾: شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾: يلزقان ورق الجنّةِ بعضه على بعض ﴿عَلَيْهِمَا﴾: يُغطيان عورتهما ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: ورق أشجار الجنّة ﴿وَنَادَاهُمَا﴾: قال بصوتٍ مسموع عن بعد ﴿رَبُّهُمَا﴾: مالك أمرهما كلّه، ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾: استفهام عتاب وتوبيخ؛ لأنّهما خالفا أمر الله ﷻ ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿تِلْكُمَا﴾: اسم إشارة لخطاب الاثنين والاثنتين ﴿الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ﴾: أيضًا قلت ﴿لَكُمَا﴾: تخصيصًا أنتما الاثنين ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الشَّيْطَانَ لَكُمَا﴾: تخصيصًا ﴿عَدُوٌّ﴾: كاره؛ يتمنى لكما السوء ﴿مُبِينٌ﴾: ألم أعلمكما أنّ الشيطان عدوكما الواضح.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣)

﴿قَالَا﴾: واعترافًا بالذنب، ولأنّهما ظلما نفسيهما مما وقع منهما من المخالفة؛ خلافًا لإبليس الذي لم يعتذر عن معصيته، ولم يستغفر ربّه؛ بل تكبّر؛ قال آدم وحواء ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه، فَقَالَ آدَمُ: إِنَّهُ حَلَفَ لِي بِكَ وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ يَحْلِفُ بِكَ كَاذِبًا. ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف-٢٣][(١)]، ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾: هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه، فتعلمها، وقالها في معرض التوبة، ألبسنا أنفسنا الظلم؛ بعصيان أمر الله ﷻ؛ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَغْفِرْ لَنَا﴾: تقبل توبتنا وتسامحنا ﴿وَتَرْحَمْنَا لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿نَكُونَنَّ﴾: نصير بكلّ تأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع يفيد التمييز ﴿الْخَاسِرِينَ﴾: إذا لم تشملنا رحمة الله نخسر الجنّة، ونخسر رضا الله ﷻ.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢٤)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿اهْبِطُوا﴾: والهابطون هم: آدم وحواء وإبليس، وقيل أصحاب العداوة آدم وإبليس، والمقصود هو الهبوط من الجنّة، قال ﷻ: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة-٣٨]، ويشمل الهبوط حوّاء؛ لأنّها تابع لآدم عليه السلام، ولم يذكر القرآن مكان الهبوط، ولو كان فيه فائدة لجاء ذكره، وما قيل في هذا فهو من الإسرائيليات ﴿بَعْضُكُمْ﴾: جزءٌ منكم ﴿لِ﴾: تخصيصًا ﴿بَعْضٍ﴾: تخصيصًا لجزءٍ آخرَ ﴿عَدُوٌّ﴾: حيث جعل العداوة بين بني آدم وإبليس من أنواع العقوبة ﴿وَلَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿فِي﴾: على ﴿الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: سكن، ومعيشة، واستقرار، وقال ابن عباس: في القبور تحت الأرض وفوقها ﴿وَمَتَاعٌ﴾: إعمارٌ، وأكلٌ، وشربٌ، ومتع ﴿إِلَى حِينٍ﴾: آجالٍ معلومةٍ، جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسُطرت في الأولين، إلى وقت موتكم، وقيل إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)

﴿قَالَ﴾: كان حُكم الله ﷻ ﴿فِيهَا﴾: على الأرض ﴿تَحْيَوْنَ﴾: تعيشون، وتزرعون، وتأكلون، وتتنعمون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾: في الأرض مماتكم وقبوركم ﴿وَمِنْهَا﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانية وأيضًا منها الخروج، أي البعث يوم القيامة، وهي من القبور التي في الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾: ومن القبور يكون نشوركم ليوم القيامة، حيث يجمع الله ﷻ الأوّلين منكم والآخرين، ويحكم بينكم بالحق، جاء في المعنى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه-٥٥]

---

(١) التوحيد لابن منده ٢١٣/١(٧٨) بإسناده عن ابن مسعود وأناس من الصحابة. وقال: هذا إسناد ثابت.

﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦)

﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿بَنِي﴾: يا أنتم من نسل ﴿آَدَمَ﴾: عليه السلام أبناء آدم، والقائل هو سبحانه وتعالى خلقه من أديم الأرض ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَنْزَلْنَا﴾: من فوقكم ﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾: اللباس هو ما يستر عوراتكم ويغطّي ويمنع ويصدّ، جاء المعنى اللباس هنا لباس الضرورة، فالثياب هي لستر العورات، وهي ستر السوءات، وهي من الضروريات، وجاء أيضًا بمعنى العمل الصالح انظر معنى اللبّاس في تفسير [البقرة-٤٢] ومن المجاز المرسل أن ينزل الله سبحانه وتعالى المطر؛ فينبت النبات مثل القطن والكتّان ومنه يصنع اللباس ﴿يُوَارِي﴾: يستر ﴿سَوْآَتِكُمْ﴾: عوراتكم التي أبداها لهم إبليس اللعين، من المعروف أنّ آدم عليه السلام هو أوّل من ستر عورته بورق التين من شجر الجنّة ومنها أنّه عليه السلام، نزل مكسوًّا وورث عنه أولادُه ذلك، ومنها أنّ الماء الذي به ينبت النبات ومنه يُتخذ اللباس كالقطن نزل من السماء وحتى ذوات الصوف والوبر تعتمد حياتها على الماء فسبحان الله سبحانه وتعالى ﴿وَ﴾: أيضًا أنزلنا عليكم ﴿رِيشًا﴾: من المعروف أنّ الريش للطير والرياش للإنسان وهو كل ما علا من أنواع الألبسة، هو لباسُ زينةٍ ومالٍ، من الزيادات للكمال والتنعم، وهو في لغة العرب أثاث، وما ظهر من الثياب هو اللّباس، والعيش النعيم، وهو الجمال، وقيل الإيمان وثمراته ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾: هذا تشبيه بليغ وهو الناتج عن فعل الأوامر واجتناب النواهي، وهو خير لباس للمؤمن، ذلك الذي منَّ الله سبحانه وتعالى به عليكم، وهو من الدلائل على فضل الله ورحمته بعباده، وقيل هو لباس الضرورة؛ قال عكرمة: ما يلبسهُ المتقون يوم القيامة، وقال قتادة: الإيمان، وقال ابن عباس: العمل الصالح، والسمت الحسن، وقال عروة بن الزبير: خشية الله سبحانه وتعالى، يتقي الإنسانُ الله؛ فيواري عورته ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة للبعيد ﴿خَيْرٌ﴾: منفعة ومصلحة وكسب جزء ﴿ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ﴾: البراهين والحقائق الدالّة على ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الإشفاق؛ لأنّها جاءت من عند الله سبحانه وتعالى ولكن إذا جاءت من البشر فتفيد الترجي ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: يعتبرون، ويتعظون؛ فينتهون.

﴿يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿بَنِي﴾: أبناء، وأحفاد، وكلّ إنسانٍ من بعدهم ﴿آدَمَ﴾: ينادي الله ﷻ على أبناء آدم الذي خلقه من أديم الأرض، وجعل منه الرجال والنساء ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: انتبهوا أنْ يأتيكم الشيطان؛ لا يغرينّكم، ويلفتنّكم، ويضّلنكم عن دينكم فيغويكم، عن طاعة الله ﷻ، فينزع عنكم اللباس، أو يمنعكم التقوى، ويحرمكم من دخول الجنّةِ ﴿الشَّيْطَانُ﴾: تذكروا عداوته لأبويكم، وأنّه يريد أنْ يصرفكم ويصدكم ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الْجَنَّةِ﴾: أخرجهما من دار النعيم إلى دار التعب والعناء عندما أكلا من الشجرة ﴿يَنْزِعُ﴾: يزيل بقوة ﴿عَنْهُمَا﴾: عن أجسادهما ﴿لِبَاسَهُمَا لِ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿يُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾: هنا دليلٌ من الله ﷻ على أنّ الشيطان يحرص أن يكشف الإنسان عورته فيتم كشف عورتهما التي كانت مستورة بالنور الذي سخّره لهما الله ﷻ؛ إنّ نزع اللباس هنا يؤكد أنّها كانت جنّة الأرض، وليست الجنّة التي في الآخرة، التي ليس فيها شيطانٌ يوسوس ﴿إِنَّهُ﴾: هو الشيطان بالتأكيد ﴿يَرَاكُمْ﴾: يشاهدكم ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿وَقَبِيلُهُ﴾: أيضًا تراكم ذريّته، يُحذّر الله ﷻ بني آدم من قدرةِ الشيطان أنّه يراهم الشيطان هو وذريته ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع ﴿حَيْثُ﴾: حرفٌ يدّلُ هنا على المكان؛ بمعنى لن تروا الملائكة وأنتم تعيشون على الأرض؛ أيضًا لن تروا الشياطين ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾: وأنتم لا ترونه، ولا ترون قبيلته ﴿إِنَّا﴾: هي في الأصل ضميرٌ للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الله ﷻ بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿جَعَلْنَا﴾: سخّرنا ﴿الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾: أحباب وأنصار ومؤيدون ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخبر الحق ﷻ أنّ من بني آدم من لا يؤمن، وهنا سيصبح هؤلاء هم الكفّار، والمنافقون، أنصار، وأحباب، وأعوان الشياطين، وتكون الشياطين أنصارهم، وأعوانهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ – قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهَا – وَالْأَحْمَسِيُّ الْمُشَدِّدُ فِي دِينِهِ فِي بَعْضِ كَلَامِ الْعَرَبِ – فَمَنْ جَاءَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَضَعَ ثِيَابَهُ وَطَافَ فِي ثَوْبِ أَحْمَسِيٍّ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِيرُهُ مِنَ الْحُمْسِ ثَوْبًا، فَإِنَّهُ يُلْقِي ثِيَابَهُ وَيَطُوفُ عُرْيَانًا، وَإِنْ

طَافَ فِي ثِيَابِهِ أَلْقَاهَا إِذَا قَضَى طَوَافَهُ يُحَرِّمُهَا فَيَجْعَلُهَا عِنْدَهُ[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتَقُولُ: مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ بَعَثَهُ، فِي الحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، يَوْمَ النَّحْرِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُ فِي النَّاسِ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ[3]، فقال: ﴿وَإِذَا﴾: حرفُ ربط ما بعدها مع ما قبلها ﴿فَعَلُوا﴾: ارتكبوا خطيئة ﴿فَاحِشَةً﴾: هي فعلٌ متناهٍ في القبح، مثل الطواف حول الكعبة عُراةً رجالًا ونساءً، ومن طاف في ثوب لم يشرّعه الله ﷻ ﴿قَالُوا﴾: برروا هذا ﴿وَجَدْنَا﴾: ورثناها، وكان ﴿عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: وهذه حُجّة ما لا حجّة له، أنّهم يقلّدون آباءهم وأجدادهم ﴿وَ﴾: أيضًا يقولون إنّ ﴿اللَّهُ أَمَرَنَا﴾: شرّعها وأمرنا ﴿بِهَا﴾: ويزيدون كذبًا وافتراءً على الله أنّها من أمر الله ﷻ ﴿قُلْ﴾: أمر الله ﷻ محمدًا ﷺ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف تحريم ونهي ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾: قل يا محمد هذه أوامر ربّي ﷻ، فأين أمركم بالتعري والفواحش، التي نهى الله ﷻ عنها، ولم يأمر بها ﴿أَ﴾: حرف استفهام يفيد هنا إنكار الكذب؛ لأنّه يلحق بالأقوال ﴿تَقُولُونَ﴾: تفترون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: أتسندون إلى الله الأقوال التي لم يقلها؛ وتقولون ما لا تعلمون؟

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ قل لهؤلاء ﴿أَمَرَ﴾: شرّع ﴿رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾: أمر بالعدل والاستقامة في العبادة، أنْ تكون في محلّها ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على أمر الله تعالى ﴿أَقِيمُوا﴾: توجهوا وأدّوا الصلاة على وجهها الصحيح ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: صلّوا لله ﷻ متوجهين إليه في صلاتكم إلى القبلة، في أيّ مسجدٍ كنتم، ﴿عِنْدَ﴾: في ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿مَسْجِدٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتعزز معنى الجميع أتمّوا العبادة بحسب الشرائع، والإخلاص في العبادة؛ أي شرط صحة العبادة أنْ تجمع بين ركنين؛ الأول: الصواب موافقة للشريعة، والثاني: أنْ تكون خالصةً من الشرك ﴿وَادْعُوهُ﴾: وأنتم أيضًا مأمورون بسؤاله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: لا تُشركون في عبادته ﷻ أحدًا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾: خلقكم أوّل مرّة ﴿تَعُودُونَ﴾: قال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال حسن البصري: ما بدأكم في الدنيا أحياء؛ تعودون يوم

---

[1] أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٧٥.

[2] صحيح مسلم ٤/٢٣٢٠(٣٠٢٨).

[3] صحيح البخاري ٥/١٦٧(٤٣٦٣).

القيامة أحياءً، وقال قتادة: خلقهم الله ﷻ ولم يكونوا شيئًا، ثم ذهبوا، ثم يُعيدهم، وقال ابن أسلم: كما بدأكم أولًا كذلك يعيدكم آخِرًا، وقال مجاهد: يُبعث المسلمُ مسلمًا، والكافرُ كافرًا، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ[1].

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٠)

﴿فَرِيقًا﴾: مجموعة من النّاس ﴿هَدَى﴾: فريق يسّر الله ﷻ لهم عمل أهل السعادة ﴿وَفَرِيقًا﴾: أيضاً مجموعةً من النّاس آخرين ﴿حَقَّ﴾: وجب ﴿عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾: كانوا من أهل الشقاوة ﴿إِنَّهُمُ﴾: هم بالتأكيد ﴿اتَّخَذُوا﴾: اعتمدوا ورضوا أنْ يكونوا من أتباع ﴿الشَّيَاطِينَ﴾: واتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: هؤلاء اتخذوا الشياطين أحبابًا، وأنصارًا، ومؤيدين لهم؛ فنصروا الشيطان ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير، وبديل عن ﴿اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ﴾: يُظنون بمعنى التأكيد ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار، يتصورون أنفسهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾: أنّهم على الطريق الصحيح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ[2]. فالخلق الأول على الفطرة؛ وهي الهُدى، وبعد ذلك يختلف الحال.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

أسباب النزول: يأمر اللهُ ﷻ عباده المسلمين بالتزين، وستر العورة عند الحضور للمساجد للصلاة والطواف، فقد كان الذين يطوفون عُراةً يُحرّمون عليهم الودك الدسم طوال موسم الطواف ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب، ﴿بَنِي آدَمَ﴾: كل ما هو من نسل آدم ﷺ ﴿خُذُوا﴾: ارتدوا والبسوا ﴿زِينَتَكُمْ﴾: ملابسكم الجميلة التي تزينكم، وهي التي تستر العورة، وهنا يبرز حُكمٌ: حيث يُستحّب التجمل عند الصلاة، ولاسيّما يوم الجمعة، ويوم العيد، واستخدام الطيب ﴿عِنْدَ﴾: ظرف مكان وزمان ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿مَسْجِدٍ﴾: هذه من المجاز المرسل؛ في كلّ صلاة؛ جاءت بصيغةٍ نكرةٍ لتؤكد الطواف حول الكعبة، وعموم الصلوات في المساجد، أيضًا السواك من الزينة؛ لأنّه من تمام ذلك، وأفضل الثياب الأبيض، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ[3]. ﴿وَ﴾:

---

[1] صحيح مسلم ٢٢٠٦/٤(٢٨٧٨).

[2] صحيح البخاري ١٠٠/٢(١٣٨٥).

[3] سنن أبي داود ٨/٤(٣٨٧٨). صححه الألباني.

أيضًا من الأوامر الربّانية ﴿كُلُوا﴾: تناولوا طعامكم ﴿وَاشْرَبُوا﴾: قال ابن عباس: كُلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان، سرف؛ من الإسراف، و مخيلة، وهي التباهي، لقد جمع الله الطيب كلّه في نصف آية، عدم التجاوز في الحدّ من الإنفاق، وهذا لا يفعله إلّا أهل السفه، والتبذير، وهو مخالفٌ لما شرّعه الله ﷻ لعباده ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم ﴿تُسْرِفُوا﴾: التجاوز في الحدّ من الإنفاق، وهذا لا يفعله إلّا أهل السفه، والتبذير والإسراف والإفراط في الأكل، ﴿إِنَّهُ﴾: ﷻ بالتأكيد ﴿لَا يُحِبُّ﴾: أي أنه ﷻ يكره ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: المتجاوزين في تناول الطعام والشراب، إنّ الله لا يُحبُّ الذين يحللون الحرام، ويحرّمون الحلال فيما شرّعه ﷻ في الطعام والشراب، ولا يحب البذخ في المأكل، والمشرب، والملبس. ولبس أجمل الملابس عند أداء الصلاة.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

﴿قُلْ﴾: الأمر لمحمدٍ ﷺ ﴿مَنْ﴾: حرفُ استفهام للعاقل؛ يفيد الإنكار على الذي ﴿حَرَّمَ﴾: منع، من يملك، أنْ يمنع ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾: ما أحلّه الله ﷻ من مأكلٍ، أو مشربٍ، أو ملبسٍ من تلقاء نفسه؟ وهؤلاء هم المشركون الذين يحرّمون بآراءَ فاسدة ﴿الَّتِي أَخْرَجَ﴾: أوجد ﴿لِعِبَادِهِ﴾: من نعم الله ﷻ على الخلق تخصيصًا وتمليكًا ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾: أيضًا ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الرِّزْقِ﴾: المُسخّرة لمن آمن بالله ﷻ، ورسوله ﷺ في الحياة الدنيا ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمد ﷺ، ولكلّ مسلمٍ ﴿هِيَ﴾: ضمير الغائب المفرد المؤنث ﴿لِلَّذِينَ﴾: تخصيصًا وتمليكًا، اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: للذين أمنوا بالأصالة وإنْ شاركهم فيها الكفار ما داموا في الحياة الدنيا، فهم شركاءُ في مطعمهم، وملبسهم، الذي حرّموه ﴿خَالِصَةً﴾: خاصّة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أمّا للمؤمنين فهي يوم القيامة خاصّة، لا يُشركهم فيها أحدٌ من الكفّار؛ لأنّ الجنّة مُحرّمة عليهم، قال ابن عباس في نزول ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾: إنّ قريش كانت تطوف بالبيت، وهم عراة، يُصفّرون، ويصفقون، فلما نزلت الآية؛ أمرت بالثياب ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل، أيضًا ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: نُبيّنها، ونُوضّحها، ونشرحها ﴿لِقَوْمٍ﴾: بشر من جنسٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾: يدركون.

التكليف: من شأن المسلمين التزيّن دون إسراف وعدم التبذير، في المأكل والملبس.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

﴿قُلْ﴾: استمرار في دعوة الرسول ﷺ أنْ يُعلّم النّاس أمر دينهم ﴿إِنَّمَا﴾: حرف تحديد وتخصيص ﴿حَرَّمَ﴾: ما شرّعه حرامًا ﴿رَبِّيَ﴾: مالك أمري كلّه ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: كبائر المعاصي، التي اشتدت شناعتها، مما لا يُرضى الله ﷻ من الكلام، جاء في قوله ﷻ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام–١٥١]، ﴿مَا﴾: الذي ﴿ظَهَرَ﴾: بان للنّاس ﴿مِنْهَا﴾: بعض أو جزء ما يراه النّاس ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿بَطَنَ﴾: هنا طباق بين يظهر وما يبطن، ويخفيه المرتكب للفاحشة ﴿وَالْإِثْمَ﴾: أيضاً هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، المعصية؛ أي الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والتي يعود عقابُها عليه ﴿وَالْبَغْيَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**البغي**" على أربعة أوجه، هنا بمعنى الظلم، والاعتداء على النّاس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: بالعدوان والظلم، وهي تعود على الآخرين، جاء في المعنى قوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس–٢٧] وقوله ﷻ ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء–١٨] ﴿وَأَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُشْرِكُوا﴾: تجعلوا مع الله معبودًا آخرَ ﴿بِاللَّهِ مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي المضارع ﴿يُنَزِّلْ بِهِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿سُلْطَانًا﴾: لا تجعلوا لله ﷻ عليكم حُجّةً وبرهانًا ﴿وَأَنْ﴾: حرفُ توكيد القول ﴿تَقُولُوا﴾: تتقولوا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: هو الكذب، والافتراء على الله ﷻ، مثل القول عن عيسى إنّه ابن الله.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

﴿وَلِكُلِّ﴾: اللام حرف تمليك، جميع ﴿أُمَّةٍ﴾: قرنٍ أو جيلٍ ﴿أَجَلٌ﴾: ميقاتٌ ووقت محددٌ، يميتهم فيه، نهايةٌ مقدّرةٌ من عند الله ﷻ ﴿فَإِذَا﴾: حرف مفاجأة وأمر لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَ﴾: حلّ ﴿أَجَلُهُمْ﴾: إذا جاءت نهاية الأجل، انتهى زمن وجودهم المقدّر لهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾: لا

يملك أحدٌ من خلق الله ﷻ أنْ يطلب أنْ يُؤخر أجلهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: ولا يملكون استعجال أجلهم.

التكليف: خصّ اللهُ ﷻ الساعة بالذكر؛ لأنّها أقل أسماء الأوقات، وقدّم يستأخرون على يستقدمون؛ لأنّ التأخير مرغوبٌ للنفس الإنسانية أكثر من التقديم.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥)

﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿بَنِي﴾: أبناء وأحفاد ﴿آدَمَ﴾: نداءٌ لكلّ إنسان ﴿إِمَّا﴾: عندما ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: يصلكم بالتأكيد ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾: حرف يفيد التمايز، إذا أرسلت فيكم رسلًا من قومكم ﴿يَقُصُّونَ﴾: الذين يتلون، ويوضحون، ويخبرونكم أحكامي، ويبينونها لكم ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: شريعتي فآمنوا بهم ﴿فَمَنِ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد ﴿اتَّقَى﴾: خاف مقام ربّه ﷻ ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أيضًا ترك المحرّمات، وتجنب الخطايا، وفعل الطاعات، وأصلح عمله ونيته ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، وهو ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: هم في أمانٍ من كيد الكافرين ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَحْزَنُونَ﴾: يؤمّنهم الله ﷻ من الخوف في الدنيا، ويؤمّنهم في الآخرة من عذاب يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق؛ فإنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: الذين أنكرت قلوبهم حقيقة الإيمان؛ هم الكافرون ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: ترفّعوا، وتعالوا عن العمل بالشريعة الكاملة لله، ولرسوله ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون أبدًا ﴿النَّارِ﴾: هؤلاء الذين يمكثون في جهنّم، يلازمون النّار ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مؤبدون ومُخلّدون، لا خروج منها أبدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧)

﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام استثنائي؛ يفيد النفي ﴿أَظْلَمُ﴾: الظلمُ هو وضعُ الشيء في غير موضعه ولذلك يكون المشركُ ظالمًا لأنه جعل العبادة في غير موضعها؛ حيث عبد من، أو

ما لا يستحقها، سؤالٌ إجابتهُ أنّهُ لا أحد أشدُّ ظلمًا ﴿مِمَّنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿افْتَرَى﴾: تقوّل كذبًا، الذي قال ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: غير الحق ﴿كَذِبًا أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا التسوية بين الذي افترى على الله، والذي ﴿كَذَّبَ﴾: أنكر ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آَيَاتِهِ﴾: أنكر وكذّب بآيات الله ﷻ، والمُنزَّلة على رسوله الكريم وبين ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد، تعود على الكاذبين على الله ﷻ، والمُكذبين بما آتاهم من الله ﴿يَنَالُهُمْ﴾: يُصيبهم ﴿نَصِيبُهُمْ﴾: ما قدّره الله ﷻ لهم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، أي جزءٌ أو بعضٌ من العذاب الذي سُجّل في ﴿الْكِتَابِ﴾: في اللوح المحفوظ، قال: ابن عباس: ينالهم ما كُتب عليهم أنّ وجوههم سوداء، مَنْ عمل خيرًا جُزي به ومن عمل شرًا جُزي به، وقال: مجاهد: ما وعدهم الله ﷻ من خيرٍ أو شرٍ، وقيل هو العملُ والرزقُ والعُمر؛ و هذا الأقوى ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يصدقوا إلّا بشرط ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها وهو مجيء الرسل على ما قبلها وهو الموت ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: وصلتهم ﴿رُسُلُنَا﴾: إذا جاء ملكُ الموت وأعوانه من الملائكة ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: لتقبض أرواح المشركين ﴿قَالُوا﴾: سألهم الملائكة موبخين ﴿أَيْنَ﴾: في أيّ مكان هم ﴿مَا﴾: الآلهة الذين ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَدْعُونَ﴾: تزعمون أنّهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: أين ألهتكم غير الله ﷻ الذين أطعتم، وأين الزعماء الذين اتبعتم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾: ذهبوا، وتاهوا، وانصرفوا عنّا؛ لا نفع لهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾: إقرارٌ واعترافٌ بإنكار الحق واعتماد الباطل.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿ادْخُلُوا﴾: أيها المشركون ﴿فِي أُمَمٍ﴾: تُحشرون مع أممٍ سابقةٍ من أمثالكم، بنفس الصفات، والأمثال، ولقد جاءت كلمة في هنا بمعنى مع ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي؛ رغم أنّ هذا لم يحدث حتى اليوم؛ إلّا لأنّه مؤكّد الوقوع، جاءت بصيغة الماضي ﴿خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أممٌ سبقت ومضت قبلكم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْجِنِّ وَ﴾: أيضاً من عالم الجنّ و﴿الْإِنْسِ﴾: من نسل آدم ؑ، هؤلاء اشتركوا في الصفات نفسها، ﴿فِي النَّارِ﴾ ونالوا العاقبة نفسها؛ وهي دخول جهنم

وبئس المصير ﴿كُلَّمَا﴾: حرفٌ يُفيد التكرار والتعميم ﴿دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾: جماعةٌ من النّاس، من الأمم السابقة، ﴿لَعَنَتْ﴾: تبرأت كلُّ أُمّة من ﴿أُخْتَهَا﴾: الأخرى، ولعنت ودعا بعضُها على بعضٍ بالشر، وجاء في السياق: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة-١٦٦] ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ تُصدق إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿ادَّارَكُوا﴾: تلاحقوا، اجتمعوا، وحُشروا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾: كلّهم ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾: وهم الأتباع من المجرمين ﴿لِأُولَاهُمْ﴾: الذين شرّعوا الكفر من الأوائل، وهم أشدّ جرمًا ﴿رَبَّنَا﴾: اعترفوا اليوم أنّه ﷻ مالك كلّ أمرهم ﴿هَؤُلَاءِ﴾: إشارة إلى الجماعة الذين ﴿أَضَلُّونَا﴾: اعتراف التابعين أنّ الأوائل هم أسباب الضلال ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد سبب طلبهم الإسراع في ﴿آتِهِمْ﴾: أصابهم وعاقبهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مُضاعفًا ﴿مِنَ النَّارِ﴾: اعترفوا أنّ الله ﷻ سيعذبهم؛ فطلبوا مضاعفة العذاب على الأوائل ﴿قَالَ﴾: القائل هنا هو الله ﷻ ﴿لِكُلٍّ﴾: مُخصصٍ للجميع ﴿ضِعْفٌ﴾: سيكون الأولون والتابعون في عذابٍ مُضاعفٍ مُستحقٍ؛ بحسب الذي اقترفه من الجرم ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف استدراك ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: لنْ تعلموا عذاب كلِّ طائفةٍ، كم، وكيف سيكون عذابهم؟ لا تعلموه أو تقدروه، هذه الصورة نشاهدها مصغّرة في الحياة الدنيا، عندما تُكتشف الجرائم؛ يتبرأ المجرمون من بعضهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ[1].

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩)

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾: هم السابقون، أو التابعون للتابعين ﴿لِـ﴾: حرف تخصيص ﴿أُخْرَاهُمْ﴾: الذين تبعوا؛ هم الأتباع ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يُفيد الخبر ﴿كَانَ﴾: في الحياة الدنيا ﴿لَكُمْ﴾: أنتم تخصيصًا ﴿عَلَيْنَا مِنْ﴾: حرف يفيد التمايز بعض أو جزء ﴿فَضْلٍ﴾: لقد ضللتم كما ضللنا، وليس لكم علينا معروف أو خير ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد

---

[1] المستدرك على الصحيحين ٤/٣٤٣(٧٨٥١) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٧/١٢٣-١٢٤: قَوْلُهُ (مَنْ خَافَ) أَيِ الْبَيَاتَ وَالْإِغَارَةَ مِنَ الْعَدُوِّ وَقْتَ السَّحَرِ (أَدْلَجَ) بِالتَّخْفِيفِ مِنْ سَارَ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَبِالتَّشْدِيدِ مِنْ آخِرِهِ (وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ) أَيْ وَصَلَ إِلَى الْمَطْلَبِ. قال: الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِسَالِكِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى طَرِيقِهِ وَالنَّفْسَ وَأَمَانِيَّهُ الْكَاذِبَةَ أَعْوَانُهُ فَإِنْ تَيَقَّظَ فِي مَسِيرِهِ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِي عَمَلِهِ أَمِنَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَمِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ بِأَعْوَانِهِ ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعْبٌ وَتَحْصِيلَ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحْصُلُ بِأَدْنَى سَعْيٍ. فَقَالَ: أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ.

سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿ذُوقُوا﴾: وأصلها بوجود قليل من الطعام في الفم لمعرفة الطعم، وهنا تعني اصلوا وعانوا قليلًا من ﴿الْعَذَابَ بِمَا﴾: بالذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾: الكلُّ يطلب العذاب للآخر، هنا تؤكد الكلمات أنّ هذه لحظة تخاصم أهل النّار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَذَّبُوا﴾: رفضوا التصديق ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: الأدلّة والبراهين الدالّة على صدق الإيمان والتصديق، هنا تأكيد على الذين كفروا بالآيات الواضحات ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾: أيضًا نشدوا، ورغبوا، وتعالوا ﴿عَنْهَا﴾: تكبروا عن التصديق بها، وأرادوا التكبر عن اتباع الآيات والرسل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾: لأرواحهم إذا ماتوا ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: فيها قولان: الأول لا يُرفع لهم منها عملٌ صالحٌ أو دعاءٌ؛ أي لا تُفتّح لأرواحهم ولا لأعمالهم، و الثاني: قال ابن عباس: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، قَالَ: فَلَا يَزَالُ يُقَالُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ قَالَ: فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا تَزَالُ تَخْرُجُ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ[(١)]. ﴿وَلَا﴾: أيضًا حرف نفي ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: بأي حالٍ من الأحوال؛ ولهذا علّق الله ﷻ دخولهم الجنّةِ بالمستحيل ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يَلِجَ﴾: يُدخلَ ﴿الْجَمَلُ﴾: قيل الذكرُ من الإبل، وقيل الحبلُ الغليظُ المفتول من القنّب ﴿فِي سَمِّ﴾: في ثقب ﴿الْخِيَاطِ﴾: وهو ثقب الإبرة، لكونهِ

---

(١) مسند أحمد ٣٧٧/١٤(٨٧٦٩). صححه الأرناؤوط وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

غايةً في الضيق، هذا المثل في القرآن الكريم يفيد الاستحالة؛ فكما يستحيل إدخال الجمل في ثقب الإبرة فإنه مُحالٌ أن يدخل المجرمون الجنّة هو في معنى الكافر، وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعيرُ من خرم الإبرة، وقال ابن عباس: الجُمّل: يعني الحبلُ الغليظُ في خرم ثقب الإبرة، وفي الحالتين استحالة تحقيق الدخول ﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿نَجْزِي﴾: نعاقب ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: هم أهل النّار.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

﴿لَ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد هنا لأصحاب النّار ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿جَهَنَّمَ﴾: مثواهم الأخير في النّار ﴿مِهَادٌ﴾: هو الفراش الذي سينامون فوقه ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ﴾: ما يعلوهم ﴿غَوَاشٍ﴾: بيّن الله ﷻ الحال الذي وصل إليه الكفار، فهم يفترشون النار، وتغشاهم من فوقهم كذلك كالأغطية، هو اللّحاف ﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل هذا أيضًا ﴿نَجْزِي﴾: نكافئ بما يستحق ﴿الظَّالِمِينَ﴾: نعاقب الذين ظلموا، وهم الذين كذّبوا بآيات الله، واستكبروا عن عبادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد الجمع بين متعاطفين، الأول كان في الآية السابقة وهم أهل النّار، والثاني هنا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بعد أنْ جاء ذكر المُكذّبين المستكبرين؛ جاء ذكر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهو منهج قرآني ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾: لا نفرض ونشرّع، جاءت بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿نَفْسًا﴾: لا يطلب الله ﷻ من أيّ من نفس مخلوقٍ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطع ﴿وُسْعَهَا﴾: ما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه، وما تطيق نفوسهم وأجسادهم ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: المقيمون دائمًا في ﴿الْجَنَّةِ﴾: الذين يؤدون تكليف الله ﷻ الإيمان، وعدم الاستكبار، هم أصحاب الجنّة ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مقيمين في الجنّة أبدًا.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق؛ فبعد دخول المؤمنين الجنّة يأتي فضلٌ إضافيٌ من الله ﷻ ﴿نَزَعْنَا﴾: خلع للتخلص ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾: المقصود هو قلوبهم، وهي مراكز الإدراك ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا التبعيض، بمعنى جزءًا من كلٍّ ﴿غِلٍّ﴾: حقد أو غضب أو ضغينة حفاظًا على وحدة صف المؤمنين، نزع الله ﷻ الحسد، والبغض، والكره من قلوبهم؛ لأنّ الغلّ لو بقي في صدروهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيصُ النعيم في الجنة؛ لأنّ المتخاصمين والمتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا[1]؛ أي يعرفه كما كان يعرف مسكنه في الدنيا، وقال السُدّي: إذا سيق أهل الجنّة؛ وجدوا عند بابها شجرةً في أصلِ ساقيها عينان؛ فشربوا من إحداهما؛ فيُنزع ما في صدورهم من غلٍ فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى؛ فجرت عليهم نَضرة النعيم؛ فلم يشعثوا، ولم يُسحبوا بعدها أبدًا ﴿تَجْرِي﴾: تفيض مياه الجنّة ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: زيادةً في المتعة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ﴾: أيضاً الثناء والشكر ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿اللَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾: دلّنا وأرشدنا ﴿لِهَذَا﴾: الدين ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كُنَّا﴾: قبل ذلك ﴿لِ﴾: حرف يفيد العلّة والسبب ﴿نَهْتَدِيَ﴾: نصل للمنهج الحق ﴿لَوْلَا﴾: حرفُ شرط يفيد امتناع شيءٍ لوجود غيره، بمعنى لولا الهداية ما دخلنا الجنّة ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿هَدَانَ﴾: أرشدنا ﴿اللَّهُ لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾: مالك أمرنا كلّه ﴿بِالْحَقِّ وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿نُودُوا أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿تِلْكُمُ﴾: هنا بمعنى اسم إشارة للجميع هنا للمؤنث ﴿الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾: تعني آلت سكنًا إليكم، وكلكم في ملك الله ﷻ ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾: من عبادات ومعاملات وفق ما شرّعه الله ﷻ لكم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

---

[1] صحيح البخاري /١٢٨/٣(٢٤٤٠).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: معنى الصاحبُ هنا المُلازم، أي المُقيم في الجنّة أبدًا؛ جاءت بصيغة الماضي؛ دلالةً على تحقق وقوع الفعل، ما الذي دعا أصحاب الجنّة أنْ ينادوا على أصحاب النار، مع أنّ المتوقع هو العكس، والجواب هنا للتقريع والتعيير ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾: هم المقيمون في النّار أبدًا، قالوا: ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿وَجَدْنَا مَا﴾: الذي ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾: ما وعد مالك أمرنا كلّه ﴿حَقًّا﴾: هذا من تقريع أهل الجنّة لأهل النّار: يقولون نحن وجدنا الجنّة التي وعدنا الله ﷻ، ﴿فَهَلْ﴾: حرف استفهام للاستفسار والتشكيك ﴿وَجَدْتُمْ﴾: صار عندكم بعد البحث ﴿مَا﴾: الذي ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾: ما تعبدون من دون الله ﷻ ﴿حَقًّا﴾: هل تأكدتم بعد دخولكم النّار التي وعدكم الله ﷻ صدقًا؟ ﴿قَالُوا﴾: هم الكفّار ﴿نَعَمْ﴾: هنا لا مجال للإنكار؛ فهم في النّار، هنا مشهدُ أطراف التقريع: أهل الجنّة، أيضًا الملائكة، والرسول ﷺ ضد كفّار قريش ﴿فَ﴾: حرفٌ يدلُّ على السبب وسرعة الفعل ﴿أَذَّنَ﴾: رفع صوته ﴿مُؤَذِّنٌ﴾: نادى منادٍ ﴿بَيْنَهُمْ﴾: قال هو الذي يُعلم الخلق ﴿أَنْ لَعْنَةُ﴾: غضب وسخط ﴿اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: لعنة الله ﷻ مستمرة على المطرودين من رحمته ﷻ، هم الذين فُتّحت لهم أبواب جهنّم؛ خالدين فيها؛ فماذا كانت أعمالُهم في الدنيا؟

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَصُدُّونَ﴾: يمنعون ويُبّعدون النّاس ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يفيد السبب ﴿سَبِيلِ﴾: طريق ومنهج ﴿اللَّهِ﴾: تأتي هذه الآية لتبيّن من هم أصحاب النّار، الذين وجدوا ما وعدهم ربُّهم حقًا: هم الذين أعرضوا عن الإيمان، وكانوا يمنعون النّاس من الإيمان بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: يريدون حياتهم على الأرض ﴿عِوَجًا﴾: لا يريدون الحياة على الصراط المستقيم، أي يريدونها على الأعوج من السلوك، وذلك عكس الإيمان ﴿وَهُمْ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْآخِرَةِ﴾: بيوم القيامة ﴿كَافِرُونَ﴾: هم الذين كانوا يكفرون، ويُغطّون حقيقة الآخرة، الذين لم يُصدّقوا، ولم يبالوا بما ارتكبوا من آثام؛ لأنّهم لم يخافوا حسابًا ولا عقابًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦)

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾: سيكون بين أهلِ الجنّة وأهل النّار ﴿حِجَابٌ﴾: هو السور الذي يحجب، أي يمنع بينهم الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ [الحديد-١٣] ﴿وَ﴾: حرف

عطفٍ بمعنى الحال، أيضًا سيكون ﴿عَلَى الْأَعْرَافِ﴾: هي أعالي السور المرتفع وشرفاته، هو حجابٌ بين الجنّة والنّار، والأعراف جمع عرف، وهو كلُّ شيءٍ مرتفعٍ من الأرض بلغة العرب، وقيل سُميَ الأعراف؛ لأنّ أصحاب الأعراف يعرفون النّاس، وهنا يُطرح سؤال: من هم أصحاب الأعراف؟ هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنّة، وخلفت منعت بهم حسناتهم عن دخول النّار، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «يُحَاسَبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَسَنَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ النَّارَ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ [الأعراف–٩] ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْمِيزَانَ يَخِفُّ بِمِثْقَالِ حَبَّةٍ، أَوْ يَرْجُحُ، قَالَ: وَمَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَوَقَفُوا عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ نَادَوْا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَإِذَا صَرَفُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى يَسَارِهِمْ نَظَرُوا إِلَى أَصْحَابِ النَّارِ، قَالُوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف–٤٧][1] ﴿**رِجَالٌ يَعْرِفُونَ**﴾: يميّزون ماهيّة ﴿**كُلًّا**﴾: الجميع، حرف يفيد الجمع بلا استثناء ﴿**بِسِيمَاهُمْ**﴾: يعرف أهلُ الأعراف أهل الجنّة بعلاماتٍ مميّزةٍ، ببياض وجوههم ﴿**وَنَادَوْا أَصْحَابَ**﴾: أيضاً المقيمين أبدًا في ﴿**الْجَنَّةِ أَنْ**﴾: حرف توكيد القول ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ**﴾: هذا نداء أهل الأعراف على أهل الجنّة ﴿**لَمْ**﴾: حرف نفي ﴿**يَدْخُلُوهَا**﴾: أي أنّ أهل الجنّة لم يدخلوها بعد ﴿**وَهُمْ**﴾: بالتحديد ﴿**يَطْمَعُونَ**﴾: والطمع هو نزوع النفس إلى شيءٍ شهوةً له يتأمل أهل الجنّة دخولها، ويأملُ أهلُ الأعراف أنْ يدخلوها أيضًا؛ والله أعلم.

﴿**وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ **(٤٧)**

﴿**وَإِذَا**﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿**صُرِفَتْ**﴾: تم توجيه أهل الجنّة إلى النظر إلى أهل النار ﴿**أَبْصَارُهُمْ**﴾: إذا نظر أصحاب الأعراف ﴿**تِلْقَاءَ**﴾: في اتجاه، ناحية ﴿**أَصْحَابِ**﴾: الملازمين دائمًا بلا مفارقة، هم أهل ﴿**النَّارِ**﴾: جهنم ورأوا العذاب الذي هم فيه ﴿**قَالُوا رَبَّنَا**﴾: استغاثوا وتضرعوا وتعوذوا بالله ﷻ، ودعوا يا ربنا ﴿**لَا**﴾: حرف نفي ﴿**تَجْعَلْنَا**﴾: لا تحكم علينا بأن يكون مصيرنا ﴿**مَعَ الْقَوْمِ**﴾: هنا هم الجماعة أصحاب النّار ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾: بسبب شركهم وكفرهم؛ الذين ظلموا أنفسهم بدخولها النار. فبينما يُعطى أصحاب الحسنات نورًا؛ يمشون به بين أيديهم، وبأيمانهم، كلُّ عبدٍ يُؤتى نورًا، وكل أمّة نورًا؛ فإذا أتوّا على الصراط سلب اللهُ ﷻ نور كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، فلما رأى أهلُ الأعراف ما لقي المنافقون قالوا: ﴿**رَبَّنَا**

---

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد ١٢٣/٢.

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم–٨]؛ ويبقى لأصحاب الأعراف نورُهم بأيديهم، لا يُنزع منهم، جاء في المعنى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف–٤٦]، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: هُمْ آخِرُ مَنْ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، وَإِذَا فَرَغَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ فَصْلِهِ بَيْنَ الْعِبَادِ قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجَتْكُمْ حَسَنَاتُكُمْ مِنَ النَّارِ وَلَمْ تُدْخِلْكُمُ الْجَنَّةَ، وَأَنْتُمْ عُتَقَائِي فَارْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ[1]. وقال ابن عباس: في أصحاب الأعراف: يُعرف أهل الجنّة ببياض الوجوه، ويُعرف أهل النّار بسواد الوجوه، وهم يحيون حياة أهل الجنّة ولم يدخلوها، وهم يطمعون.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨)

﴿وَنَادَى﴾: عطفاً على ما سبق جاءت هنا بصيغةِ الماضي بدلًا من المستقبل؛ دلالةً على تأكيد حدوثِ الفعل ﴿أَصْحَابُ﴾: سكان ومالكو ﴿الْأَعْرَافِ﴾: هي الأماكن المرتفعة في الجنّة ﴿رِجَالًا﴾: اختلف العلماء في أصحاب الأعراف: قيل هم الشهداء، وقيل هم فضلاء المؤمنين، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال النّاس، وقيل هم قومٌ استوت حسناتُهم وسيئاتُهم؛ قد قصرت بهم أعمالُهم عن دخول الجنّة، ثم يدخلونها بفضل الله ﷻ ورحمته، هم آخرُ من يدخلها، وقيل هم ملائكةٌ مُوكلون بهذا السور، يُميّزون بين الكافرين والمؤمنين قبل إدخالهم الجنّة أو النّار، وهذا هو الأقرب للصواب؛ لأنّ الملائكة هم الذين يقفون في الشرفات، وينادون المسلمين لدخول الجنّةِ، ولدخول الكافرين في النّار، ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾: يتأكدون من هويتهم حتى وهم في النّار ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿سِيمَاهُمْ﴾: هي العلامة الدالّة على من هي فيه، صفات وجوههم، وسوادها، وزرقة أعينهم ﴿قَالُوا مَا﴾: حرف نفي ﴿أَغْنَى﴾: لم يحفظ، ولم يمنع ﴿عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: يقولون تقريعًا؛ ما أغنى عنكم كثرتكم، ولا كثرة مؤيديكم، ولا كثرة أموالكم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ما نفعكم الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: تتكبرون عن عمدٍ وتتعالون في الدنيا؛ لقد ذهب استكباركم، ولم ينفعكم إعراضكم عن الدين؛ وصرتم إلى العذاب.

﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩)

---

[1] تفسير الطبري /٤٦١/١٢(١٤٧١٥). قال محقق المطالب العالية ٦٦٧/١٤: وهذا على إرساله ضعيف الإسناد؛ فيه حسين بن داود المصيصي سنيد وهو ضعيف وتقدم مرارًا.

﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿هَؤُلَاءِ﴾: من أمثال بلال بن رباح، وعمّار بن ياسر، وصهيب، وخباب، وغيرهم من الصحابة الكرام، قال ابن عباس: هؤلاء هم أصحاب الأعراف ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾: حلفتم أيها الكفّار ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَنَالُهُمُ﴾: يصيبهم ﴿اللَّهُ بِ﴾: حرف باء السبب ﴿رَحْمَةٍ﴾: هؤلاء الذين أكدتم بالقسم أن الله ﷻ لن يدخلهم الجنّة، كذبًا وافتراءً على الله ﷻ؛ كأنّكم أنتم الذين تقسمون رحمة ربّكم، يسألهم الله ﷻ تقريعًا ثم يقول ﷻ ﴿ادْخُلُوا﴾: أمر من الله ﷻ للمؤمنين بدخول ﴿الْجَنَّةَ لَا﴾: حرف نفي ﴿خَوْفٌ﴾: فزع ﴿عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ﴾: بالتحديد ﴿تَحْزَنُونَ﴾: هنا يفوز أهل الجنّة وأهل الأعراف بالجنّة، ويدخل أصحابُ النّارِ النّارَ؛ وقد قضي الله ﷻ بينهم بالحق؛ وهم لا يُظلمون.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)

﴿وَنَادَى﴾: طلبوا منهم أن يواسوهم، جاءت بصيغة الماضي بدلًا من المستقبل؛ دلالةً على تأكيد حدوث الفعل يوم القيامة ﴿أَصْحَابُ﴾: القاطنين أبدًا في ﴿النَّارِ﴾: من الكفّار والمنافقين ﴿أَصْحَابَ﴾: القاطنين أبدًا في ﴿الْجَنَّةِ﴾: لمّا رأى أصحابُ النّار طعام وشراب أهل الجنّة، بينما هم في ذلّةٍ وهوانٍ، يدعون ولا يُستجاب لهم من أحدٍ، يتوجه أهل النّار بالسؤال إلى أهل الجنّة ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَفِيضُوا﴾: صُبّوا علينا يطلبون منهم الإكثار ﴿علينا مِنَ﴾: بشيءٍ من الأشربة، بعض ما يُشرب ﴿الْمَاءِ﴾: أنْ يصبّوا بعض الماء عليهم؛ ليُطفئوا ظمأهم وحرّهم ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد هنا التسوية بدلًا من الماء أعطونا ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: طعام أهل الجنّة ﴿قَالُوا﴾: هم أصحاب الجنّة ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: يُنادي الرجلُ أباه وأخاه، يصف له كيف يحترق؛ فيطلب الماء متوسلًا؛ فيقال لأهل الجنّة أجيبوهم، فيقول أهلُ الجنّة: إنّ الله ﷻ حرّم طعام وشراب أهل الجنّة على الكافرين.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)

تعرض الآية الكريمة صفات أهل النّار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اتَّخَذُوا﴾: اعتمدوا، وجعلوا، واستخدموا ﴿دِينَهُمْ﴾: عقيدة الإيمان بالله ﷻ وكتبه ورسله ﴿لَهْوًا﴾: مضيعةً للوقت ﴿وَ﴾: أيضًا اتخذوها ﴿لَعِبًا﴾: يصف اللهُ ﷻ تصرّف أهلِ النّار في الدنيا: الاستهزاء بالدين، وبالمتدينين، والسخرية، واللهو، واللعب، والانغماس في زينة الدنيا وزخرفها، والسعي

إلى الرئاسة والزعامة، والإدارة، والمال، والنساء ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أيضاً خدعتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ملذات الدنيا، وكذبت عليهم شياطينُهم، ونسوا عذاب الآخرة، ونسوا يوم القيامة ﴿فَالْيَوْمَ﴾: يوم القيامة؛ يوم الحساب ﴿نَنْسَاهُمْ﴾: نتركهم في العذاب كالمنسيين؛ جاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم التجاهل والإهمال ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿نَسُوا﴾: أهملوا وأغفلوا في الحياة الدنيا ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾: الجزاء هنا من جنس العمل؛ لا ينساهم الله ﷻ يوم القيامة، فهو ﷻ لا يضلُّ ولا ينسى ﴿وَمَا﴾: أيضاً الذي نسوا الله فحرمهم ﷻ كمن نسيهم، نسوا آيات الله ﷻ وحُججه، وبراهينه؛ فأعرضوا عن طاعته؛ فحرمهم من جنّته ﴿كَانُوا﴾: كما كانوا في الحياة الدنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الأدلّة والبراهين ﴿يَجْحَدُونَ﴾: يُنكرون ما أعطاهم الله ﷻ من الخير، ولم ينسهم من شرّ ما عملوا.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

يُضيف الله ﷻ سبب عقابهم الذي فصّله، وأنّه أعذر إلى المشركين ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جِئْنَاهُمْ﴾: بصيغة الجمع لعظم الحدث ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿كِتَابٍ﴾: لقد منّ الله ﷻ على الخلق جميعًا بالأنبياء والرسل، وأنزل معهم الكتاب، وكان آخره القرآن الكريم، الذي أُنزل على محمد ﷺ ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم ما فيه من تفصيل الإجابة على كلِّ شيءٍ، جاء في المعنى في قوله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود-١] ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾: هنا ينتفي الخلل والسهو والغلط وحاشاه ﷻ أنْ يسهو أو أنْ يغلط؛ لقد أزاح اللهُ ﷻ به العلل في الدنيا، ووضّح كلَّ شيء، يُعلّم الإنسان كيف يطيع الله ﷻ، ويُحذّرهُ من عقابهِ في الدنيا، ومن جهنّم في الآخرة ﴿هُدًى﴾: هاديًا ومرشدًا ﴿وَرَحْمَةً لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: كلِّ جماعةٍ أصحابِ مذهبٍ واحدٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: ورحمة في الدنيا وفي الآخرة للذين يعملون به، وهم المؤمنون بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣)

﴿هَلْ﴾: حرف يفيد النفي بمعنى ما ﴿يَنْظُرُونَ﴾: ينتظرون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿تَأْوِيلَهُ﴾: ما ينتظر الكافرُ إلّا تحقيق ما وعدهم الله ﷻ من العذاب للمجرمين، ومن الجنّة للمؤمنين؛ فيُدخلُ أهل النّارِ النّارَ، ويدخلُ أهل الجنّةِ الجنّةَ، وقد يعني أيضًا لا يزال يأتي من تأويله أمرٌ

جديدٌ حتى يوم الحساب، وعندها يكتمل تحقيقه ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾: يكتمل تحقيق ما فيه ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿نَسُوهُ﴾: الذين تركوا العمل به ﴿مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمنية ﴿قَبْلُ﴾: في الدنيا ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي في الدنيا ﴿جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: يعترفون بتحقيق ما حذّرهم الله ﷻ منه، وأنّ رسله كانوا صادقين ﴿فَهَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ غرضه التمني؛ هيهات أن يتحقق بمعنى يا ليت ﴿لَنَا﴾: نحن تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا التقليل ﴿شُفَعَاءَ﴾: هل من وسطاء ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿يَشْفَعُوا لَنَا﴾: يتوسطون لنا عند الله ﷻ؛ يخلّصونا ممّا صرنا إليه ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين شيئين الأول الشفاعة والثاني ﴿نُرَدُّ﴾: يُحاولون الهروب بالتمني؛ أنْ يرجعوا إلى الدنيا من جديد ﴿فَنَعْمَلَ﴾: بالطاعات للهِ ﷻ ورسله ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى ليس ﴿الَّذِي كُنَّا﴾: في الحياة الدنيا ﴿نَعْمَلُ﴾: أي نتبع الرسل ونؤمن بالله ﷻ ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: عندما دخلوا النّار خالدين فيها ﴿وَضَلَّ﴾: ذهب وغاب وتاه ﴿عَنْهُمْ مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾: بسبب كذبهم مع ما أطاعوهم من دون الله ﷻ؛ فلا ناصر، ولا منقذ مما هم فيه.

التكليف: من الملاحظ أنّ بعض المسلمين اليوم يُجسّدون هذه الحالة؛ فقد أعطوا ولاءهم للغرب الصليبي، ولليهود على حساب دينهم؛ ليُحققوا أهدافًا؛ ليتهم يسمعون اليوم ما سيقولونه يوم القيامة، يوم لا تنفعهم قوى الكفر، ولا تنفعهم أموالهم، ولا ينفعهم أولادهم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤)

يقول الله ﷻ في هذه الآيات عن عظمة خلقه، ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكُم اللَّهُ﴾: هو المنشئ للإنسان من حالٍ إلى حالٍ، وهو المُربي إلى حدِّ التمام، وهو مالكُ أمر الخلق والسموات والأرض ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق مثال ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا وأحاط بالكرةِ الأرضية البيضاوية الشكل ﴿وَالْأَرْضَ﴾: أيضاً الذي أوجد الأرض من غير سابق وجودٍ، أو مثال ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هو ﷻ قادرٌ على خلقها في لحظةٍ واحدةٍ، والمرجح هنا أنّ الأيّام الست هي قبل أيام الأرض؛ لأنّ أيّام الأرض تتحدد بالشمس، ودوران الأرض حولها، ومن سياق الآية أنّه لم تُخلق الشمس؛ فكان كلّ يومٍ كألف سنّة، كما نصّ

على ذلك مجاهد، والإمام ابن حنبل؟ وقد تكون هي أيام الأرض وأنّ اليوم السابع هو يوم السبت الذي معناه القطع، قال البخاري: وَأَنَّ حَدَثَهُ لاَ يُشْبِهُ حَدَثَ المَخْلُوقِينَ» لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى-١١][1]، وقيل بدأ الخلق يوم الأحد حتى يوم الجمعة. والله ﷻ أعلم ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿اسْتَوَى﴾: من الاستواء أي العلو والاستقرار، والله ﷻ أعلم بالكيفية، بل على الوجه الذي بجلاله ﷻ ﷻ ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: علوًا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، لا نعرف المقصود؛ نقرأها من غير تكييف ولا تشبيه ﴿يُغْشِي﴾: يُغطي كلَّ ما يحيط ﴿اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾: يُذهبُ ضياءُ النّهار بالليل، ويزيلُ ظلامَ الليل بضوءِ النّهار في تعاقب بديع، وهذا ما يؤكّد دوران الأرض أمام الشمس؛ ففي النّهار تكون الأرض في مواجهة الشمس فتضيء، وعندما تختفي الشمس من السماء تُظلم ﴿يَطْلُبُهُ﴾: تطلب كلّ حالةٍ والأخرى طلبًا ﴿حَثِيثًا﴾: سريعًا لا يتأخر عن موعدٍ حدّده الله ﷻ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾: حدّد اللهُ ﷻ لها دورها، ووظيفتها ﴿بِأَمْرِهِ﴾: حرف باء السبب، جاء معنى الأمر هنا بمعنى القضاء، الجميع بذلك تحت قضائه، وإرادته، وتسخيره، ومشيئته ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿لَهُ﴾: لله ﷻ تمليكًا ﴿الْخَلْقُ﴾: المخلوقات جميعًا ﴿وَالْأَمْرُ﴾: أيضًا له التدبير، هو ﷻ الذي أوجد، وله المُلك وهو صاحب التصرف، إنّ الكون كلّه من خلقه، والأمر فيه أمره، وهي أوامر التكوين وأحكام الشريعة، هذا من إيجاز القصر؛ الذي يجمع معانيَ كثيرة بألفاظ قليلة، هنا بكلمةٍ واحدةٍ وهي الخلق ﴿تَبَارَكَ﴾: تنزّه، وتعظّم، وكثر خيره، وعظُمُ فضلهُ ﴿اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: له الحمد والأمر كلّه، مالك السموات والأرض.

التكليف: الكيفُ غير معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإقرارُ به إيمان، والجحودُ به كفر. بدراسة ظاهرةِ الليل والنّهار، وعلاقات الشمس والأرض والقمر؛ يصل العالم إلى حقيقة عظمةِ وقدرةِ الخالق ﷻ في بديع خلقه.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥)

﴿ادْعُوا﴾: أمرٌ ربّاني للإنسان أنْ اسألوا مالك المُلك من فضله، وقيل الدعاء هو العبادة ﴿رَبَّكُمْ﴾: هو المنشئ لكل شيءٍ في الكون الفسيح، وهو خالقُ الإنسان من حالٍ إلى حالٍ، وهو المربي إلى حدّ التمام، وهو مالك أمر الخلق والسموات والأرض مالك أمركم كلّه ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذلّلًا، واستكانة، لا ترفعوا أصواتكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمًّا، بل هو السميع

[1] صحيح البخاري ١٥٢/٩ باب قوله تعالى: {كل يوم هو في شأن}.

البصير ﴿وَخُفْيَةً﴾: أيضاً غير رافعين أصواتكم وهذا أبعدُ عن الرياء وفي السرّ، بخشوع القلوب، وصدق اليقين بوحدانيته، وربوبيته؛ فإنّ الله ﷻ يكره رفع الصوت، والنداء، والصياح في الدعاء، وذكر التفاصيل ﴿إِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﷻ ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: يُخبر اللهُ ﷻ أنه لا يحبُ المعتدين في الدعاء، ولا في غيره، وأعظم التجاوز هو دعاء غير الله ﷻ معه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تُفْسِدُوا﴾: تصرفوا الشيء عن وظيفته الحقيقية بقتل النّاس وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم، ولا تُفسدوا بكفركم بالله تعالى، والوقوع في معاصيه، وإلغاء العمل بشريعته ﷻ ﴿فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد مجيء الرسل ونزول الكتب السماوية وتقرير الشرائع الربّانيّة، فالإصلاح هنا هو الطاعة، وحتى تستقيم الأمور؛ لا بد من الطاعة، وعندما يتحقق الإفساد؛ يحدث الضرر على العباد، ﴿وَادْعُوهُ﴾: أمر من الله ﷻ بالدعاء ﴿خَوْفًا﴾: خشيةً من عقابه وعذابه الذي لا يعرفه سواه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال ﴿طَمَعًا﴾: والطمع هو نزوعُ النفس إلى شيءٍ رغبةً شديدةً هنا في جزيل الثواب ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿رَحْمَةَ اللَّهِ﴾: إحسانه وإنعامه ﴿قَرِيبٌ﴾ إذا أُطلق على النسب فتفيد التذكير والتأنيث مثل زيدٌ قريبُ عمر وعائشة قريبة بكر، وإذا أُطلق على غير النسب جاز فيه الوجهان مثل ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [هود-٨٣] ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد التمييز ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: رحمة الله ﷻ معدّة للذين يتّبعون أوامر الله ﷻ، وينتهون بنواهيه، جاء في المعنى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف-١٥٦].

التكليف: جاء اللفظ القرآني ﴿قَرِيبٌ﴾: ولم يقل قريبة؛ قد يكون لأنّه ضمن الرحمة، بمعنى الثواب، وهو مُذّكر، أو لأنّه مضاف إلى الله ﷻ، والله أعلم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧)

﴿وَهُوَ﴾: ضمير مرفوع للمفرد، ﷻ ﴿الَّذِي يُرْسِلُ﴾: يأمر ﴿الرِّيَاحَ﴾: التي تحمل الغيث، جاء اللفظ القرآني لتدلَّ دائمًا على النعمة، وتبشر بالخير، كما جاء في هذه الآية، ولم يقل ﷻ الريح لأنها تدلّ على العذاب والعقاب والتخويف والسخط، كما عذّب بها الأقوام السابقة، مثل ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ﴾ [الحاقة-١٠٦] ﴿بُشْرًا﴾: تُبشّر بحلول السحاب

الحامل للماء، جاء في المعنى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ وهذه من نعم الله ﷻ على الخلق، وفي هذا دلالة على وحدانية الخالق وهو الله ﷻ، [الروم-٤٦] ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾: مقدمة ﴿رَحْمَتِه﴾: للغيث، جاء لفظ الرحمة في القرآن الكريم على أحد عشر وجهًا، هنا بمعنى المطر، الغيث ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أَقَلَّتْ﴾: حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾: السحب التي تحمل كثيرًا من بخار الماء، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض معتمة ﴿سُقْنَاهُ﴾: حددنا مساره ومصيره ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿بَلَدٍ﴾: قريةٍ أو مدينةٍ ﴿مَيِّتٍ﴾: مجدب لا زرع فيه ولا ضرع ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿أَنْزَلْنَا﴾: جاء بصيغة الجمع لأهميّة الحدث ﴿بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾: جاء اللفظ القرآني "**أَخْرَجْنَا**" بصيغة الجمع؛ لتفيد الوفرة والخير والبركة من الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: فيخرج الكريمُ بكرمه كثيرًا من الثمرات، التي يعرفها الإنسان ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا أيضًا ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾: كما ضرب الله ﷻ مثلًا بإحياء الأرض بالماء؛ يُخرج الموتى بقدرته، فيحيي أجساد الموتى التي صارت رميمًا، وذلك يوم القيامة حيث يُنزّل الله ﷻ من السماء ماءً على الأرض أربعين يومًا؛ فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب من الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الطمع والإشفاق من الإنسان، ويفيد هنا التحقق لأنّه من الله ﷻ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: يتكرر هذا المعنى في القرآن لعل النّاس يتذكرون الآخرة.

التكليف: إنَّ التفكر في كيفية تحول ماء الأرض إلى بخار، وكيف تحمله السحب، وكيف يسيّره الله ﷻ **لِبَلَدٍ مَيِّتٍ:** والموت هنا هو الأرض الجدب؛ التي لا نبات فيها، ولهذا لا فائدة من قراءة القرآن، أو التفكر في آياته إنْ لم نحسب ليوم القيامة حسابًا.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾: الأرض الطيّبةُ الصالحةُ للزراعة، وكلُّ ما يستمتع به الجسم، وتقبله الأنفس ﴿يَخْرُجُ﴾: يُعطي ﴿نَبَاتُهُ﴾: ثماره ﴿بِإِذْنِ﴾: حرف باء السببية، بمشيئة ﴿رَبِّهِ﴾: والربُّ هو المُنشئُ لهذا الكون الفسيح من حالٍ إلى حالٍ، وهو المُربي لخلقه إلى حدِّ التمام، هو الذي يخرج الزرع، خروجًا سلسًا، سريعًا، حسنًا، مُثمرًا، ومُفيدًا ﴿وَالَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا

أيضاً الفرد المُذكر ﴿خَبُثَ﴾: الأرض غير الصالحة، التي لا تُمسك ماءً، ولا تنبت زرعًا، ولا تختزنه للشرب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَخْرُجُ﴾: لا ينبتُ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء: بمعنى حتى إذا خرج سيخرج ﴿نَكِدًا﴾: عسيرًا قليلًا لا خير فيه، يُشبّه الله ﷻ النفس الطيبة كالأرض الطيبة، والنفس الخبيثة كالأرض التي لا تُخرج زرعًا ولا تحتفظ بماءٍ ينتفع منه الخلق ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل هذا ﴿نُصَرِّفُ﴾: نكررها بأساليب مختلفة على وجوهٍ مختلفةٍ ﴿الْآيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ، أصحاب فكرٍ واحدٍ ﴿يَشْكُرُونَ﴾: يحمدون الله ﷻ على نعمه.

التكليف: لابد من تذكر أنّ العلم النافع للإنسان المؤمن كالأرض الطيبة تحتفظ بالماء؛ فتنبت.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد، لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾: بعث الله ﷻ وكلّف ﴿نُوحًا﴾: جاء في بداية هذه السورة الكريمة قضية آدم عليه السلام، وهنا جاء ذكر الأنبياء، عليهم السلام، كان نوح عليه السلام أوّل المذكورين؛ كأوّلِ رسولٍ بعثه الله ﷻ إلى الأرض؛ فأصابه أذى كثير، إلّا الذين قتلهم الكفّار، كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون؛ ألف سنة كلّها كانت على الإسلام، ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾: جماعة من أصلٍ واحدٍ ﴿فَ﴾: حرف يفيد سرعة التنفيذ فقد بلّغ الرسالة دونَ تأخير، وعلى أكمل وجه ﴿قَالَ يَا﴾: حرف نداء؛ هنا للقريب ﴿قَوْمِ﴾: جماعة من النّاس من أصلٍ عرقيٍ واحدٍ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أطيعوا واعملوا بما أمر سبحانه ﴿مَا﴾: حرف نفي، ليس ﴿لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ﴾: معبود يستحق العبادة ﴿غَيْرُهُ﴾: سواه، يقول ابن عباس وغيره: أوّل ما عُبدت الأصنام كان بسبب موت قومٍ صالحين؛ فبنى قومُهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك فيها؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم؛ فيتشبهوا بها، فلما طال الزمان؛ جعلوا أجسادًا تماثيل على تلك الصور، ثم عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بأسماء الصالحين ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرا، فلما انحرف النّاس؛ أرسل الله ﷻ نوحًا؛ ليأمرهم بعبادة الله ﷻ وحده قائلًا ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أَخَافُ﴾: أخشى حقًّا وصدقًا وليس ظنًّا ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾: ما يؤلمكم ألمًا شديدًا ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: وهو عذاب يوم القيامة؛ إذ متّم على شرككم، لقد بدأ الانحراف في العقيدة بفكرة صغيرة، وهذه قضية مستمرة، وتزداد، وتتضخم، فكرةٌ صغيرةٌ تحمل ألفاظًا، ونيات حسنة، ثم تنحرف حتى تكبر، وتُصبح آثامُها كالجبال.

التكليف: لا قليل من الإثم، فالقليل بالتراكم يصبح كالجبال.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦٠)

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾: كبارُ الجمهور، والسادة، والقادة الكبراء منهم، أشراف القوم ورؤساؤهم **﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾**: هم عِليَة القوم **﴿إِنَّا﴾**: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الملأ بصيغة الجمع **﴿لَ﴾**: حرف علّةٍ وسبب **﴿نراكَ﴾**: نحن نعتقد، ونقدّر دعوتك لنا بترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا أنّها **﴿فِي ضَلَالٍ﴾**: في تيهٍ وضياعٍ **﴿مُبِينٍ﴾**: واضحٍ، عن طريق الحق.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦١)

﴿قَالَ﴾: نوح، عليه السلام **﴿يَا﴾**: حرفُ نداء للقريب والبعيد **﴿قَوْمِ﴾**: أقاربه، وجيرانه، و الجماعة التي أُرسل إليهم نوحٌ، عليه السلام؛ يدعو الجميع إلى توحيد المعبود؛ فقال: **﴿لَيْسَ﴾**: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي **﴿بِي﴾**: لا أعاني مِنْ **﴿ضَلَالَةٌ﴾**: لست ضالًا ولا تائهًا عن الحق والصواب حتى ولو كانت ضلالة واحدة **﴿وَلَكِنِّي﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد الاستدراك **﴿رَسُولٌ﴾**: مبعوثٌ إليكم **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية الكلّية **﴿رَبِّ﴾**: والربُّ هو المُنشئُ لكم وللكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام؛ فهو مالك أمركم وأمر **﴿الْعَالَمِينَ﴾**: أنا جئتكم برسالة من ربّكم، المالكِ، والمتصرفِ فيكم، وصاحبِ عالم الغيب، والشهادة، والإنس، والجن، وكلّ المخلوقات.

التكليف: هناك فرقٌ بين رسالة ورسالات، الرسالة واحدة، ومعجزة واحدة فقط، كما هي الناقة في هذه الآية، بينما في باقي الرسل بعث اللهُ سبحانه وتعالى لهم أشياءَ كثيرة؛ أمرهم بها، والرسالات جاءت في أزمانٍ متطاولةٍ، أو وَفقَ المعاني المختلفة، من الأمر والنهي، والزجر والوعظ، والتبشير، والإنذار، أو وَفقَ ما أُوحي إليه، وإلى من جاء قبله من الرسل عليهم السلام.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢)

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: أنقل إليكم بأمانة الرسل **﴿رِسَالَاتِ﴾**: ما كلّفني به **﴿رَبِّي﴾**: مالك أمري كلّه، أنقلها إليكم بصدقٍ من الله سبحانه وتعالى **﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾**: أتحرى ما فيه صلاحكم من قولٍ، وعملٍ، وكرسولٍ؛ فإنّي أملك النصح، والإرشاد، والتوجيه من الله سبحانه وتعالى **﴿وَ﴾**: عطفًا على ما سبق **﴿أَعْلَمُ﴾**: عِلم يقين **﴿مِنَ﴾**: حرفٌ يُفيد ابتداء الغاية **﴿اللَّهِ مَا﴾**: الذي **﴿لَا﴾**: حرف نفي **﴿تَعْلَمُونَ﴾**: أعلم ما تجهلون، أعلم أين الخير من ربّكم؛ فهو ما نصحتكم به، وأعلم عذاب الله سبحانه وتعالى لكم؛ وهو ما أحذّركم منه.

التكليف: هذا دور الداعية: النصحُ بالحق والصدق.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣)

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: هل تعجبون وتستغربون من هذا الحدث **﴿أَنْ﴾**: حرف توكيد القول **﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾**: جاء اللفظ القرآني ذكر على ستة عشر وجهًا؛ هنا بمعنى البيان كما في قوله ﷻ **﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾** [ص-١] وفي قوله أيضًا: **﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾** [ص-٤٩] **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية الكلّية؛ أي المصدر وهو **﴿رَبِّكُمْ﴾**: من مالك أمركم كلّه، وهو وحي الله ﷻ، **﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾** إلى رجلٍ، تعرفون أصله وخلقه ومحاسنه وفضله، وهو منكم **﴿لِ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿يُنْذِرَكُمْ﴾**: حتى يُحذّركم، ويخوّفكم من عذاب ربّكم؛ رحمةً بكم، ولُطفًا، وإحسانًا إليكم **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿لِتَتَّقُوا﴾**: تتجنبوا نقمة الله ﷻ وغضبه عليكم **﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾**: حرف طمع وإشفاق **﴿تُرْحَمُونَ﴾**: أنْ تصيبكم رحمة الله ﷻ؛ فتفوزوا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (٦٤)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئناف يربط بين جملتين، هنا للاستئناف **﴿كَذَّبُوهُ﴾**: استمر القوم في تكذيب نوح عليه السلام، وخالفوه؛ فدعا ربّه؛ فاستجاب ﷻ، وجاءهم الهلاك **﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾**: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم النجاة من حالة الغرق **﴿وَ﴾**: أيضًا أنجينا **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ **﴿مَعَهُ﴾**: كتب اللهُ ﷻ لنوحٍ، عليه السلام، النجاة مع من آمن معه منهم، حيث أمرهم لأوّل مرّة في تاريخ البشرية، بصناعة السفن **﴿فِي الْفُلْكِ﴾**: في السفن والمراكب **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال **﴿أَغْرَقْنَا﴾**: جاءت بصيغة الجمع لعظم الفعل وهو الغرق **﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِ﴾**: حرف باء السببية **﴿آيَاتِنَا﴾**: جاء الغرق بصيغة الجمع لضخامة الحدث، كان عقابُهم الموت في الماء، ودخولهم النّار، جاء في المعنى: **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾** [نوح-٢٥] **﴿إِنَّهُمْ﴾**: هم بالتأكيد **﴿كَانُوا قَوْمًا﴾**: جماعةً من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ **﴿عَمِينَ﴾**: كلمة **أعمى** تُطلق على فاقد البصر، أمّ **عمين** فتطلق على أعمى البصيرة، عمى القلوب، ولم يهتدوا إليه، ولا يفدهم التذكير والموعظة.

التكليف: ستبقى قصةُ أصحاب، نوح عليه السلام، قائمة إلى يوم القيامة، ملخصها: اختلاف الناس بين مؤمن وكافر، والعاقبة للمتقين؛ فهم الغالبون، والهلاك للمكذبين المشركين.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥)

﴿وَإِلَى عَادٍ﴾: قوم عاد الأولى وهم أولاد عادٍ بن إرم الذين كانوا يؤون إلى العمد في البر، وكانوا أصحابَ بأسٍ وقوة، وقد جاء: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت- ١٥]، كانوا يسكنون اليمن في الأحقاف، وهي الأودية التي سكن بقربها قوم عاد، وكان فيها تلالٌ عظيمة في الصحراء، كانت قلوبهم قاسية، وكانوا أشدّ الأمم تكذيبًا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾: كان هود عليه السلام أشرفهم نسبًا، كشأن كلّ الأنبياء، وأرسلنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم هودًا، وهو واحدٌ منهم ﴿قَالَ﴾: هود عليه السلام ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: أبناء عشيرتي وأقاربي ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: والعبادة هي الطاعة ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾: معبودٍ مُطاعٍ يستحق العبادة ﴿غَيْرُهُ﴾: حرف استثناء، أمرهم بعبادة الله سبحانه وتعالى وحده، ولزوم طاعته، وتقواه وحده ﴿أَفَلَا﴾: حرفُ استفهامٍ للاستنكار ﴿تَتَّقُونَ﴾: لتنجوا من غضب الله سبحانه وتعالى.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦)

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾: الجمهورُ والسادةُ والقادةُ والكبراء، قالوا لنبيّهم، عليه السلام، ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَفَرُوا﴾: أنكروا رسالته وبعثته ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿قَوْمِهِ﴾: قبيلته وسكان منطقته ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الملأ بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿نَرَاكَ﴾: نظنّك بمعنى التأكد أنّك ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾: وهي خفّةِ العقلِ حيث الطيش زورًا وكذبًا، أجمع كبراؤُهم على تسفيهِ النبيّ عليه السلام، ووصفوه أنّه في ضلال، وأنّه في خفّةِ عقلٍ، وطيشٍ؛ عندما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام، وعندما جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وهو الموقف نفسه الذي اتخذته قريش من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿لَنَظُنُّكَ﴾: مؤكدين ظنّهم فيه؛ وكذبه فيما ادعوه من الرسالة ﴿مِنَ﴾: بعض، حرف تمييز ﴿الْكَاذِبِينَ﴾: اتهموه بالكذب؛ ليبرروا لأنفسهم كفرهم، وإنكارهم لدعوته.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧)

﴿قَالَ﴾: هود، عليه السلام ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: خاطب هود عليه السلام الجمهور أيضًا، وليس القادة فقط؛ فقال مدافعًا عن دعوته ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يفيد النفي: بمعنى أنّي لا أعاني أو ﴿بِي سَفَاهَةٌ﴾: لست خفيف العقل، أو طائش ﴿وَلَكِنِّي﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ، بمعنى إنّما أنا ﴿رَسُولٌ﴾: جئتكم كرسولٍ مبعوثًا إليكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان

وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية الكلّية ﴿رَبِّ﴾: المُنشِئ لكم من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، هو الله ﷻ، مالك ﴿الْعَالَمِينَ﴾ أمر الكون.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨)

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: أنقل إليكم بأمانة وصدق: ﴿رِسَالَاتِ﴾: ما أمرني الله ﷻ به ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري وأمر الكون، لا زيادة ولا نقصان ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنَا﴾: بالتحديد ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿نَاصِحٌ﴾: يعظكم، ويرشدكم، ويدلكم ﴿أَمِينٌ﴾: بصدق وأمانة، وهي ضد الخيانة، لا زيادة ولا نقصان، وهذه كانت أول الرسالات التي توضّح أهداف رسالة كلّ الأنبياء والرُسل البلاغ، والنصح، والأمانة.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

﴿أَوَ﴾: حرفُ استفهامٍ للإنكار ﴿عَجِبْتُمْ﴾: هل أثار عجبكم، واستغرابكم، واستهجانكم ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ﴾: أنزل الله ﷻ إليكم ما يُذكركم بما فيه من الخير، على لسانِ رجلٍ منكم ويخوفكم بأسَ اللهِ ﷻ وعقاب ﴿رَبِّكُمْ﴾: أنْ بعث الله ﷻ مالك أمركم كلّه، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾: رجلًا من جنسكم، ليس من الجنّ، ولا من الملائكة؛ ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾: يحذركم يوم لقائه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اذْكُرُوا إِذْ﴾: حرفٌ يُفيد: حدث في السابق ﴿جَعَلَكُمْ﴾: كتب عليكم أنْ تكونوا ﴿خُلَفَاءَ﴾: الكلمة تعني بغياب المستخلفين وهم قوم نوحٍ، ؑ، الذين عاشوا في المنطقة قبلهم؛ تخلفون في الأرض مَنْ قبلكم من بعد ما أهلك قوم نوحٍ ؑ، تحملون دعوته ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أمرهم نبيُّهم ؑ أنْ يذْكروا ويدرسوا كيف جعلهم الله ﷻ من ذريّةِ قوم نوحٍ ؑ، الذين هلكوا؛ ليخلفوه في دعوته ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾: إذا انتشرت وتوسعت، وإذا زادت قوتكم البدنية؛ فأجسادكم أطول وأقوى، وأشدُّ بطشًا لأعدائكم من أبناء جنسكم أي طولًا في الخلق، وعِظمًا في الجسم؛ زيادةً على ما كان عليه غيرُكم في الأبدان ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي؛ بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول ﴿اذْكُرُوا﴾: ذكرُ موعظةٍ وتفكرٍ ﴿آلَاءَ﴾: نِعم وفضل ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ فضله ومنّته عليكم، هذا الذكر يستتبعه الشكر ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف يفيد التوقع والترجي؛ إذا كان من عند البشر، وهنا تفيد الإشفاق لأنّها جاءت من الله ﷻ ﴿تُفْلِحُونَ﴾: فلاح المعتصمين بربهم، تفوزون بتحقيق ما هو مطلوب منكم، وفلاحكم برضاه ﷻ، ودخول الجنّة، والنجاة من النّار.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠)

﴿قَالُوا أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار ﴿جِئْتَنَا﴾: أتيت إلينا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿نَعْبُدَ﴾: نُطيع ﴿اللَّهَ وَحْدَهُ﴾: وهو قولُ كفّار قريش، الذين يُفاضلون بين عبادة أصنامهم وعبادة الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا كان هذا مستنكرًا عندهم؛ لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه، أنْ ﴿نَذَرَ﴾: نترك وننصرف عن ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانَ﴾: في الماضي ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: فقد كانوا يعبدون صنمًا، يقال له صمد وآخر سموه صمود، وآخر يُقال له هباء ﴿فَ﴾: فعل أمر ﴿أْتِنَا﴾: أحضر لنا ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿تَعِدُنَا﴾: تُهددنا، وتتوعدنا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتَ مِنَ﴾: حرف يفيد التأكيد وجزءً أو بعضًا ﴿الصَّادِقِينَ﴾: بمعنى أنّك لست صادقًا، هذا استعجالٌ منهم للعذاب الذي كان هود، عليه السلام، يعدهم به، وذلك لشدّةِ تمردهم على الله ﷻ، وبعدهم عن الصواب.

التكليف: هذا نهج الكفّار؛ تحدي الرسل والأنبياء؛ فيطلبوا بأنفسهم هلاكهم؛ مبالغة في الكفر والتحدي، ويشترطون صدق نبيهم بتحقيقٍ فوريٍ لما يخوّف به.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١)

﴿قَالَ﴾: رد هود عليه السلام قائلًا ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿وَقَعَ﴾: سينزل بكم ويُصيبُكم؛ أي استحققتم عذاب الله ﷻ وغضبه؛ فهو واقعٌ لا محالة ﴿عَلَيْكُمْ﴾: من فوقكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية الكلّية ﴿رَبِّكُمْ﴾: لقد وجب عليكم من مالك أمركم كلّه؛ حياتكم، ورزقكم، ومماتكم ﴿رِجْسٌ﴾: ومعناه هنا العذاب الشديد، هو في فهم الناس الشيء الخبيث القذر، والرجسُ يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، سينزل عليكم ﴿غَضَبٌ﴾: لعنٌ وطردٌ أو سخطٌ، لقد غضب الله ﷻ عليهم، هكذا حال من يستعجل العذاب، ولقد جاء في المعنى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد-٦] ﴿أَ﴾: حرفُ استفهام بغرض الاستنكار والتكذيب ﴿تُجَادِلُونَنِي﴾: تناقشوني ﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾: الأصنام التي كانوا يعبدونها؛ جعلها مجرد أسماء؛ لأنّ مسمياتها لا حقيقة لها، بل إنّ تسميتها بالآلهة باطلة، فكأنها معدومة لم تُوجد، ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾: اخترعتموها، اختلقتموها، أيضًا اختلقها ﴿أَنْتُمْ وَ﴾: من جهة أنفسكم،

﴿آبَاؤُكُمْ﴾: هل تجادلون في أصنام لا تضر، ولا تنفع، لم يجعل الله ﷻ لكم على عبادتهم حُجّة أو دليلًا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا﴾: بعثها للخلق عبر الرسل والأنبياء ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾: دليل وحجّة وبرهان ﴿فَانْتَظِرُوا﴾: توقعوا بالتأكيد عذابًا من الله ﷻ، وغضبًا مثلما حلّ بقوم نوح ﵇ من قبلكم ﴿إِنِّي﴾: أنا بكلّ تأكيد ﴿مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾: كان التهديدُ شديدًا من هودٍ ﵇ لقومه، الكلُّ في انتظار غضب الله ﷻ على القوم الكافرين، ونجاة المؤمنين؛ فعندما تصل العلاقة بين المؤمنين والكافرين إلى نقطةٍ فاصلةٍ؛ يُهلكُ عندها اللهُ ﷻ الكافرين؛ ويُنجّي المؤمنين.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1]، ذكر الله ﷻ هلاك قوم هود في أماكن أخرى من القرآن الكريم؛ فقد جاء: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة-٦]، وجاء في وصفهم: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة-٧]، حيث كانت رؤوسهم تتكسر فوق الجثث ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ وعدم التأخير هنا في العمل ﴿أَنْجَيْنَاهُ﴾: أنجى الله بعظمته وقدرته هودًا، والذين معه من المؤمنين به بالعذاب النازل بمن كفر، والذين لم يقبلوا رسالته، جاء لفظُ **النجاة** بصيغةِ الجمعِ؛ لعظم الحدث ونتائجه ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد أيضًا جميع مَنْ ﴿مَعَهُ﴾: ككل حالات الدعوات الصادقة ﴿بِـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿رَحْمَةٍ مِنَّا﴾: من الله ﷻ، نجاةِ المؤمنين، وهلاكِ الكافرين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على ما سبق ﴿قَطَعْنَا دَابِرَ﴾: نهاية وآخر، والمقصود تم استئصال، ووضع نهاية؛ فلم يُبق منهم أحدًا ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أدلّة الله ﷻ والبراهين ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: لأنّهم كانوا كافرين.

التكليف: كانت هذه نهايةُ قومٍ أشدّاء أقوياء، سكنوا في اليمن بين عُمان وحضرموت، تسمى الأحقاف، وقد احتلوا كثيرًا من الأرض، وقهروا أهلها؛ بسبب قوتهم التي آتاهم الله ﷻ، وقد بنوا في كلّ ريعٍ آيةً عبثًا لا ينفع، ولقد جاء في هذا السياق: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء-١٢٨، ١٢٩، ١٣٠]؛ هكذا خاطبهم ووصفهم هود ﵇، ولقد ساق الله ﷻ سحابة سوداء إلى عادٍ؛ فلمّا رأوها استبشروا و﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ *

---

[1] صحيح البخاري ٤/١٣٧(٣٣٤٣).

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف-٢٤، ٢٥]، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة-٧]؛ أي دائمة.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣)

﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾: وأرسلنا إلى ثمودُ بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا من العرب العاربة قبل إبراهيم، عليه السلام، جاؤوا بعد قومِ عادٍ، كانت تسكن الحجر، بين الحجاز والشام عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْضَ ثَمُودَ، الحِجْرَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَأَنْ يَعْلِفُوا الإِبِلَ العَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ البِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ»[1]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالحِجْرِ قَالَ: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الوَادِيَ[2] **﴿أَخَاهُمْ﴾**: من نسبهم وأصولهم **﴿صَالِحًا قَالَ يَا﴾**: حرف نداء للقريب والبعيد **﴿قَوْمِ﴾**: أهلي وعشيرتي **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾**: وهذا منهج كلُّ الأنبياء؛ الدعوة إلى عبادة الله وحده **﴿مَا﴾**: حرف نفي بمعنى ليس **﴿لَكُمْ﴾**: تمليكًا وتخصيصًا **﴿مِنْ إِلَهٍ﴾**: "**من**" يفيد بداية الغاية المكانيّة، المقصود هنا هو معبودٍ **﴿غَيْرُهُ﴾**: لا ربّ سواه، ولا معبود غيره **﴿قَدْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي **﴿جَاءَتْكُمْ﴾**: حدث بالفعل قد وصلتكم **﴿بَيِّنَةٌ﴾**: معجزةٌ ظاهرةٌ واضحةٌ، وهي إخراجُ الناقةِ من الحجرِ الصلد **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية الكلّيّة أي المصدر الأول **﴿رَبِّكُمْ﴾**: المنشئ لكم من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، الذي أرسل مالك أمركم كلّه إليكم حُجّة تُصدّق ما جئتكم به؛ بناءً على طلبكم **﴿هَذِهِ﴾**: اسم إشارة للمفرد المؤنث **﴿نَاقَةُ﴾**: أنثى الجمل من، **﴿اللَّهِ لَكُمْ﴾**: تخصيصًا وتمليكًا، كان إضافة اسم الناقة إلى اسم الله ﷻ للتشريف والتكريم **﴿آيَةً﴾**: دليلًا وبرهانًا مُعجزًا، **﴿فَ﴾**: لهذا السبب، ودون تأخير **﴿ذَرُوهَا﴾**: اتركوها ودعوها **﴿تَأْكُلْ﴾**: ترعى **﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ﴾**: والأرض أرضه؛ فلا تمنعوها مما ليس لكم، ومما لا تملكونه، عطفًا على هذا **﴿لَا﴾**: حرف نهي وتحريم **﴿تَمَسُّوهَا﴾**: تصيبوها في بدنها **﴿بِ﴾**:

---

[1] صحيح البخاري ٤/١٤٩(٣٣٧٩).
[2] صحيح البخاري ٦/٧(٤٤١٩).

حرف باء السببية ﴿سُوءٍ﴾: هنا النهي للتقليل التحقير، بمعنى لا تصيبوها أقل السوء؛ لا تُصيبوها بأقل ضررٍ أو شرٍّ، ولا تتعرضوا لها بوجهٍ من الوجوه التي تسوؤها، وتضرها، وحذّرهم إنْ فعلتم ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾: يُصيبكم بشدّة جميعًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: حذّرهم صالح عليه السلام، بمصيرهم جميعًا، وكانت الناقة تشرب من بئرهم يومًا، وتدعه لهم يومًا؛ يوم تشرب ماءهم؛ يشربوا هم من لبنها، يملئون منه ما شاءوا من أوانيهم، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء–١٥٥، ١٥٦] وعندما اشتد تكذيبهم لصالح، عليه السلام؛ رغم هذه الآية العظيمة، فعزموا على قتلها؛ ليستأثروا بالماء كلّ يومٍ، فتداعى الجميع على قتلها، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، قَالَ: «انْتَدَبَ لَهَا رَجُلٌ ذُو عِزٍّ وَمَنَعَةٍ فِي قَوْمِهِ كَأَبِي زَمْعَةَ»[1]، ولقد جاء في المعنى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس–١٤]، الآية واضحة: كذّبوه كلهم، وعقروها؛ فدمدم عليهم جميعًا، في الماضي كان هدف الكفّار هو التخلص من آيات المؤمنين، وفي العصر الحديث سجن أو قتل الدعاة والمصلحين.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اذْكُرُوا﴾: ادرسوا، وتأملوا، واستخلصوا العبر جيدًا ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما حدث في الماضي ﴿جَعَلَكُمْ﴾: هيأ لكم منصبًا أنْ تكونوا ﴿خُلَفَاءَ﴾: استخلفكم في الأرض، أنْ ترثوا ﴿مِنْ﴾: حرفٌ يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ عَادٍ﴾: وكان هذا قول صالح، عليه السلام، لقومه يذكّرهم، كانت جزيرة العرب مسرحَ الرسالات ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أيضًا جعل لكم مباءة، وهي المنزل الذي تسكنون فيه؛ فأسكنكم، وأنزلكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: أرض الحجر والحجاز والشام، فبعد عذاب قومِ عادٍ تسلّمت الزعامة قبيلة ثمود ﴿تَتَّخِذُونَ﴾: تستغلون ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿سُهُولِهَا﴾: المناطق المُنبسطة التي اتسعت وامتدت يسهل فيها السير، وتسهل الزراعة، ويسهل فيه أنْ تبنوا ﴿قُصُورًا﴾: استغلوا سهولها قصورًا ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تستخلصون الحجارة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الْجِبَالَ﴾: لتبنوا بها ﴿بُيُوتًا﴾: كهوفًا تسكنون فيها، وتعيشون في بيوتٍ في الصخر؛ تحميكم من المطر، والريح، ومن بأس النّاس ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اذْكُرُوا﴾: احمدوا واشكروا ﴿آلَاءَ اللَّهِ﴾: هذه النعم التي تستوجب الإسراع في

---

[1] صحيح البخاري ١٤٨/٤(٣٣٧٧).

شكر الله ﷻ وفضله ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم عليكم أنْ ﴿تَعْثَوْا﴾: لا تسيروا في الأرض فتفسدوا إفسادًا كبيرًا ﴿فِي﴾: على وجه ﴿الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: وهذا نهيٌ عن فسادٍ كانوا يمارسونه في الأرض حولهم، وهنا نستخلص من هذه الأمثلة أنّ زوال النعم تأتي من المعصية، وأنّ شكر الله ﷻ على نعمة؛ يزيد الإنسان نعيمًا.

التكليف: إنّ الظلم هو من أسباب الهلاك، جاء في المعنى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**﴾ [الكهف-٥٩]؛ بظلم الغرب واليهود للمسلمين؛ سيكون زوالهم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥)

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾: هم قادةُ وسادةُ وزعماءُ القبيلة، أصحابُ الاستكبار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع ﴿مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانية ﴿قَوْمِهِ﴾: قوم صالح عن الطاعة والعبادة لله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾: هم المؤمنون، وكانوا ضعافًا في هذا المجتمع المُرشّح للهلاك ﴿لِمَنْ﴾: للذين من جنس العاقل ﴿آمَنَ مِنْهُمْ﴾: بعضهم أو جزءٍ منهم، هم الذين آمنوا لصالح عليه السلام، وعبدوا الله ﷻ ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿تَعْلَمُونَ﴾: هل تدركون ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ﴾: حرفٌ للتمييز والتأكيد، رغم أنهم قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية ﴿رَبِّهِ﴾: من مالك أمره كلّه، هنا نلحظ قضيتين: الأولى: محاولة التشكيك في رسالة صالح بين الذين أمنوا به عليه السلام، والثانية: قولهم ربّه وليس ربّنا؛ فكشفوا عن كفرهم؛ هنا يتمايز المجتمع إلى مؤمنٍ وكافرٍ ﴿قَالُوا إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: وأكّد المؤمنون إيمانهم بصالح، عليه السلام.

التكليف: عند المفاصلة لا بدّ أنْ يصدع المؤمنُ بإيمانه؛ حتى ولو كان ضعيفًا.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦)

﴿قَالَ﴾: أعلنوا بصوتٍ وكلماتٍ واضحةٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: نشدوا ورغبوا في الزعامة والريادة ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من المستكبرين بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الَّذِي آمَنْتُمْ﴾: صدّقتم به، والمقصود هو صالح عليه السلام ﴿بِهِ﴾: المقصود صالح عليه السلام ﴿كَافِرُونَ﴾: والكفر هو التغطية، منكرون ورافضون.

التكليف: هنا مثالٌ واضحٌ حيث حدث التمايز الفاصل بين استمرار النعمة وزوالها، صرّح المؤمنون بإيمانهم، وصرّح الكفّار بكفرهم، وتجري هنا سنّة الله ﷻ في هذا المجتمع.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧)

﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب والتتابع السريع **﴿عَقَرُوا﴾**: قتلوا **﴿النَّاقَةَ﴾**: نحروها أو قطعوا عرقوبها، وجاءت بصيغة الجمع مع أنّ الذي نحرها واحدٌ منهم، وكان ذلك برضاهم وموافقتهم؛ فنُسب الفعل إليهم، وهي التي كانت دليل الرسالة النبوية، وآيةَ الإيمان، كما يحدث مع الحركة الإسلامية، إذ يشنُّ المكذّبون حربًا على المُصدقين، كما يحدث الانقلاب عليهم، أو الاستعانة بالأعداء عليهم، أو حصارهم، أو الاعتداء على الدعاة كما اعتدوا على الأنبياء والرسل، أو طلب المعجزات **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، جرائمهم وكفرهم **﴿عَتَوْا﴾**: تكبروا وتجبروا **﴿عَنْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة **﴿أَمْرِ﴾**: تكاليف الله ﷻ لهم **﴿رَبِّهِمْ﴾**: المنشئُ لهم من طورٍ إلى طورٍ إلى حدّ التمام، مالك أمرهم **﴿وَقَالُوا يَا﴾**: حرف نداء للقريب والبعيد **﴿صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا﴾**: بالذي **﴿تَعِدُنَا﴾**: ما توعدتنا من العذاب **﴿إِنْ﴾**: حرف شرط **﴿كُنْتَ من الْمُرْسَلِينَ﴾**: من رسل الله ﷻ حقًا.

التكليف: يسري المنهج ويستمر في كلّ مكانٍ وزمانٍ؛ استدعاء واستعجال الكافرين للعذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٧٨)

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ([النمل-٤٨، ٤٩،٥٠، ٥١]؛ علم بذلك صالح عليه السلام وقال لهم: **﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾** [هود-٦٥]، فتحدّوه: **﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** [الأعراف-٧٧]، **﴿فَـ﴾**: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل **﴿أَخَذَتْهُمُ﴾**: حرف عطف يفيد التعليل، اقتلعت قلوبَهم **﴿الرَّجْفَةُ﴾**: الزلزلةُ الشديدةُ، جاءت صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ شديدةٌ من أسفل منهم **زلزال**؛ فماتوا جميعًا في ساعةٍ واحدةٍ، ولم يفلت منهم أحدٌ **﴿فَأَصْبَحُوا﴾**: كان مآلهم **﴿فِي دَارِهِمْ﴾**: بيوتهم، مساكنهم، أو بلدهم **﴿جَاثِمِينَ﴾**: جثثًا هامدة، لا روح فيهم، لاصقين بالأرض على رُكبهم ووجوههم، كما

يجثم الطائرُ، ميتين، لا حراك لهم، لم يفلت منهم أحد، ولم ينجُ إلّا صالح ﷺ، ومن تبعه منهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (٧٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر بسرعة التنفيذ، بسبب ما أصابهم وبسرعة ﴿تَوَلَّى﴾: ابتعد صالح، ﷺ، عنهم قليلًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالَ﴾: وقف وهم يسمعون أو لا يسمعون تقريعه بعدما أصابهم العذاب ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ ﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾: أوصلت لكم ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾: دعوتي من مالك أمري كلّه ﴿وَنَصَحْتُ﴾: أيضاً قلت الحقّ ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف يفيد الاستدراك ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾: فلم تنفعكم نصيحتي؛ لأنّكم لا تحبون الناصحين، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمُ الآنَ يَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ، فَذُكِرَ لِعَائِشَةَ، فَقَالَتْ: إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُمُ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الحَقُّ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾ [النمل-٨٠] حَتَّى قَرَأَتْ الآيَةَ[1].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠)

﴿وَ﴾: أيضًا؛ تعني في السياق: لقد أرسلنا، أو تعني و اذكر ﴿لُوطًا﴾: ﷺ، هو ابن هاران ابن آزر ابن أخي إبراهيم الخليل ﷺ. هاجر لوطٌ مع عمّه إبراهيم، من أرض العراق إلى بيت المقدس، فأرسله الله ﷻ رسولًا إلى قريةٍ تُسمى سدوم بالقرب من بين المقدس ﴿إِذْ﴾: حرف يفيد ما مضى وتحقق من الزمن بمعنى حين ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: حرف اللّام للتخصيص، أرسله الله ﷻ مع إبراهيم ﷺ؛ فبعثه الله ﷻ إلى أهل سدوم، وهي في منتصف شرق فلسطين بالقرب من البحر الميت، الذي ملوحته لا يطيقها جسم الإنسان؛ فقال لهم ﴿أَ﴾: حرف استفهام يفيد الاستنكار والتوبيخ على فعلهم ﴿تَأْتُونَ﴾: ترتكبون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾: المحارم والفواحش المنهي عنها؟! ﴿مَا﴾: الذي ﴿سَبَقَكُمْ﴾: ما فعلها منْ كان قبلكم ﴿بِهَا﴾: بفعلها ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا التأكيد والتمييز ﴿أَحَدٍ﴾: لم يفعلها قبلهم أحدٌ من بني آدم ﷺ، وهي إتيان الذكور دون الإناث، شيء لم يعهده بنو آدم، ولم تألفه النفوس

---

[1] صحيح البخاري ٥/٧٧(٣٩٨٠).

السويّة، ولا خطر ببال أحدٍ ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: البشر من قبل ذلك، ولا حتى بعدهم، حتى قصّ الله ﷻ على المؤمنين قصتهم؛ فتعجبوا.

التكليف: إنّ الفاحشة تجلب سخط الله ﷻ العام؛ وأمراضًا مثل الإيدز للفاعل والمفعول به، وغيره من الأمراض.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (٨١)

﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف علة وسبب ﴿تَأْتُونَ﴾: تُمارسون الفاحشة مع ﴿الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾: لقد حوّلتم شهوتكم إلى الرجال، لا غرض لهم إلّا مجرد قضاء الشهوة من غير أنْ يكون لهم في ذلك غرضٌ يوافق العقل والفطرة السليمة، فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضُهم على بعض ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿النِّسَاءِ﴾: بدلًا من النساء، لقد وضعتم الشيء في غير محلّه، وعدلتم عن النساء ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿أَنْتُمْ﴾: بكل تأكيد ﴿قَوْمٌ﴾: قومُ لوط، عليه السلام، الذين يمارسون الشهوة مع الرجال ﴿مُسْرِفُونَ﴾: هذا إسراف، ومبالغة في الجهل، وتجاوزٌ لحدود خالقكم وأمره؛ فقدتم إرادتكم في النساء؛ فاستغنى الرجال بعضُهم ببعضٍ، وكذلك استغنى النساءُ بعضُهن ببعض؛ هكذا تهلك الأقوام، وتزول الحضارات، وتنتشر الأوبئة، والأمراض، وهذا خروجٌ عن مقتضى الفطرة، وحدود الاعتدال البشري.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٨٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ جَوَابَ﴾: ردٌّ وحجَّة ﴿قَوْمِهِ﴾: الذين وقعوا في هذه الفاحشة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يُفيد توكيد القول ﴿قَالُوا﴾: كان ردُّهم فقط، ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾: أخرجوا لوطًا وأهله، انفوهم، وأبعدوهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿قَرْيَتِكُمْ﴾: عن بلدكم ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم، ويقصدون المؤمنين بالتأكيد ﴿أُنَاسٌ﴾: من بني آدم ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: والطهارة نوعان طهارة النفس من الآثام وطهارة الجسد من الأوساخ يدّعون الطهارة مما نفعل، قال قتادة: عابوا عليهم بغير عيب، وقال مجاهد وابن عباس: يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء، أي يتنزهون عن الوقوع في هذا العمل؛ فلا يساكنونا في قريتنا.

التكليف: إذا عمّ الفسادُ صار النّاس يعيرون الصالحين بصلاحهم، قال شريح رحمه الله: ليأتين على النّاس زمانٌ يُعيّرُ المؤمنُ بإيمانه، كما يُعيّرُ اليوم الفاجر بفجوره، إنّ المجتمع الفاسد إذا لم يجد للمصلحين تهمة؛ عيّرهم بأجمل ما فيهم وهو الصلاح.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣)

﴿فَ﴾: حرفٌ استثناء بهدف ترتيب الأمر يفيد سرعة التنفيذ ﴿أَنْجَيْنَاهُ﴾: نجَّى الله ﷻ نبيّه لوطًا نجاةً عظيمة ﴿وَ﴾: أيضًا أنجينا ﴿أَهْلَهُ﴾: قالها ﷻ بصيغة الجمع؛ إكرامًا، وتشريفًا لنبيّه ولأهله، حيث أمرهم بالهروب ليلًا من القرية التي تنتظر غضب الله ﷻ، ولم يتخلف عن الهروب ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿امْرَأَتَهُ﴾: التي لم تؤمن بزوجها نبيًّا، وبقيت على دين قومها، تتجسس، وتخبر أهلها عن القادمين من الضيوف بإشارات بينها وبينهم، أمر الله ﷻ لوطًا ؈؛ إلّا يخبرها بخروجه من البلد، قيل إنّها بقيت وهذا هو الأرجح، وقيل إنها اتبعت لوطًا، ولكن التفتت خلفها؛ فأصابها ما أصاب قومها ﴿كَانَتْ﴾: كان قدر الله ﷻ لها أنْ تكون ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: من الباقين مع قومها، وهذا يُرجح بقاءها، وقيل من الهالكين بالضرورة، أي الباقين في عذابٍ أليم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال، عطفًا على ما سبق ﴿أَمْطَرْنَا﴾: أنزل الله ﷻ عليهم مطرًا من الحجارة، وقلب بلادهم؛ فجعل عاليها سافلها؛ وجاءت "**أمطرنا**" بصيغة الجمع؛ لتفيد شدّة وغزارة ما نزل ﴿عَلَيْهِمْ﴾: من السماء ﴿مَطَرًا﴾: وجاء في موقع آخر ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود-٨٢، ٨٣] ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف الاستئناف ﴿انْظُرْ﴾: أيها الرسول نظرة تأملٍ، وتفكرٍ، وتدبرٍ ﴿كَيْفَ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد التعجب والاستنكار ﴿كَانَ﴾: كيف صارت ﴿عَاقِبَةُ﴾: نهاية، ومآل، ومصير ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: الذين اجترؤوا على معاصي الله ﷻ وكذبوا رسله عليهم السلام. تأمّل ومن تبعك مصير هؤلاء الذين تجرؤوا بارتكاب معاصٍ نهى عنها الله ﷻ، وكذّبوا برسله، وتفكّر وتدبّر في حكم الله ﷻ فيمن يتشبه بقوم لوط؛ قال أبو حنيفة: يُلقى من يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ من مكانٍ شاهقٍ، ويتبعه الرجم بالحجارة، وقال الشافعي: يُرجم سواءً كان مُحصنًا أو غير محصن، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ[1]، وقال آخرون ومنهم القول الثاني للشافعي: كالزاني فإنْ كان مُحصنًا متزوجًا: يتم رجمه، وإنْ لم يكنْ مُحصنًا يجلد مئة جلدة، مع العلم أن إتيان النساء في الأدبار حرامٌ بإجماعِ العلماء.

---

[1] سنن أبي داود ٤/١٥٨(٤٤٦٢). وحسنه الألباني وقال: حسن صحيح.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

﴿وَ﴾: أيضًا أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾: اسمٌ يدّلُ على القبيلة، وعلى المدينة، وهي قرب معان من طريق فلسطين، والحجاز، وهي مدينةٌ في شرق الأردن ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: جاء لفظ الأخ هنا بمعنى الأخ في النسب، هؤلاء هم أصحاب الأيكة، وكان شعيب يُسمى خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عباراته ﴿قَالَ﴾: شعيبٌ ﷺ ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب هنا ﴿قَوْمِ﴾: قبيلته التي أُرسل إليها ﴿اعْبُدُوا﴾: أطيعوا ﴿اللَّهَ﴾: هو قولُ كلّ الأنبياء والرسل، عليهم السلام؛ أي لا تطيعوا غير الذي خلقكم، والذي يرزقكم ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَكُمْ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾: معبودٍ بحق ﴿غَيْرُهُ﴾: حرف استثناء لا يوجد لكم ولا لغيركم من خالقٍ، وبارئٍ، ومصوّرٍ، ورزّاقٍ إلّا الله ﷻ ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَتْكُمْ﴾: وصلتكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾: جاءتكم من الحُجج والبينات ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الكلّية أي المصدر الحق ﴿رَبِّكُمْ﴾: من مالك أمركم كلّه، على صدق دعوته ﷻ ﴿فَـ﴾: حرفُ استثناء بهدف ربط جواب الشرط ﴿أَوْفُوا﴾: أكملوا ﴿الْكَيْلَ﴾: تحديد الوزن والحجم من بضاعة ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: ما تزنون أي بعد أنْ تأكدتم من صدق نبيكم شعيب ﷺ؛ أصلحوا أمور تعاملكم في أمور المال؛ فأعطوا كل ذي حقٍ حقّه في الكيل والميزان، لا تنقصوا منه شيئًا، لا تغشّوا، ولا تدلّسوا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَا﴾: حرف نهي يفيد التحريم ﴿تَبْخَسُوا﴾: تُنقصوا حق ﴿النَّاسَ﴾: عموم بني آدم ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾: أي تخونوا الأمانة في أموال النّاس خفيةً وتدليسًا ونقصًا في الميزان ﴿وَلَا﴾: حرامٌ عليكم أنْ ﴿تُفْسِدُوا﴾: تغيروا طبيعة الأشياء؛ فلا تؤدي وظيفتها على الوجه الصحيح ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في مجتمعاتكم ﴿بَعْدَ﴾: أنْ تم بالرسالات من الله ﷻ ﴿إِصْلَاحِهَا﴾: بعد أنْ وضّح الله ﷻ لها ما يُصلحها ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، لما أمر به ونهى عنه، ﷻ الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب المذكور؛ الذي هو ﴿خَيْرٌ﴾: منفعة ومصلحة ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

التكليف: خصّ الله ﷻ هذه المدينة بإصلاح التجارة ووسائل تبادل المنفعة، بأنْ حرّم، وحذرّ من عقاب من يخالفها؛ إنّ المعاملات التجارية جزءٌ من الدين، من خالف شرع الله ﷻ نالهُ العقاب.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَقْعُدُوا﴾: من القعود أي الجلوس ﴿بِكُلِّ﴾: جميع ﴿صِرَاطٍ﴾: الصراط هنا بمعنى الطريق، ينهاهم شعيب ﷺ أنْ يقطعوا الطرق حسّيًا بالجسد، و معنويًا بالتهديد ﴿تُوعِدُون﴾: بمعنى تتوعدون النّاس بالقتل إنْ لم يعطوكم أموالهم، هؤلاء قُطّاع طرقٍ، وهذا هو الأصح وقيل كانوا يقعدون في الطرقات المؤدية إلى بيت شعيب، ﷺ؛ يهددون من أراد المجيء إليه، ويقولون إنّه كذّاب ﴿وَتَصُدُّونَ﴾: أيضاً تمنعون الناس من الوصول إلى شعيب ﷺ، ﴿عَنْ﴾: حرف جر يفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وتمنعونهم عن القعود على طريق الدين، وتحاربون دين الله ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿آَمَنَ بِهِ﴾: بالله ﷻ ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾: أيضًا تريدونها عن عمدٍ ﴿عِوَجًا﴾: تتوعدون المؤمنين الذين يأتون إلى شعيب ﷺ؛ ليتبعوه، تريدون أن تكون حياتهم على غير الصراط المستقيم ﴿وَاذْكُرُوا﴾: ذكر دراسة، وتفكر، واستخلاص العبر ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يُفيد التحقق في الماضي تفيد هنا التعليل بمعنى حين ﴿كُنْتُمْ﴾: فيما قبل الرسالة ﴿قَلِيلًا﴾: أعدادُكم قليلة، وضعيفة ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾: زادت أعدادكم، فاستفيدوا من تجربة ماضيكم، حيث كنتم قلّة مستضعفين؛ فأصبحتم أقوياء ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿انْظُرُوا﴾: ادرسوا ﴿كَيْفَ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد التعجب والاستنكار ﴿كَانَ﴾: في الماضي ﴿عَاقِبَةُ﴾: جزاء، وعقوبة، ونهاية ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: الذين ألبسوا على النّاسِ إيمانهم، ما كان من الأمم السابقة الذين ارتكبوا جرائم المعاصي، وما حلّ بهم من عذاب.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿كَانَ﴾: في السابق ﴿طَائِفَةٌ﴾: جماعةٌ متجانسةٌ ﴿مِنْكُمْ﴾: من أصولكم ﴿آَمَنُوا﴾: اعتقادًا صادقًا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ﴾: جماعةٌ أخرى ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، أي كانوا كفارًا لم ﴿يُؤْمِنُوا فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب؛ إذا انقسمتم إلى طائفة مؤمنة وأخرى لم تؤمن، إذا انقسمت المدينة إلى تيارين ﴿فَاصْبِرُوا﴾: انتظروا ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يَحْكُمَ﴾: يُقرر ﴿اللَّهُ بَيْنَنَا﴾: حتى يفصل الله ﷻ بين الجميع بالحق ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾: هو أعدلُ من يحكم، وفي حكمه الخير كلّه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (٨٨)

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾: قال قادة وزعماء، وكبراء قوم شعيب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: الذين تعالوا، ونشدوا، وقرروا التكبر عن الاستجابة لدعوة النبي شعيب عليه السلام ﴿مِنْ قَوْمِهِ لَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿نُخْرِجَنَّكَ﴾: التهديد نُبعدك ونطردك بكل تصميمٍ وتأكيدٍ ﴿يَا شُعَيْبُ﴾: يؤكد المُستكبرون لشعيب ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الحال؛ أيضًا نُخرج ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة والمكانيّة ﴿قَرْيَتِنَا﴾: قبيلته وأهل ملّتهم أنّهم سيطردونه، ومن آمن معه من القرية ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التخيير أو التسوية ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَعُودُنَّ﴾: حتى بالتأكيد ترجعوا ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾: أنْ نتأكد تمامًا أنّكم رجعتم عن إيمانكم؛ إلى ملّة الكفر التي نحن عليها ﴿قَالَ﴾: شعيب عليه السلام ﴿أَوَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد استحالة حدوث الفعل ﴿كُنَّا﴾: صرنا ﴿كَارِهِينَ﴾: سؤال استنكاري، تريدون أنْ تعاقبونا، وتُكرهونا؛ حتى نؤمن بما أنتم عليه؟

التكليف: تبقى هذه الظاهرة في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ومنها إجبار المسلمين؛ للتخلي عن دينهم؛ ليكونوا جزءًا من نسيج المجتمع العلماني، ومنها دعوة المقاومة والإصلاحيين بالتخلي عن محاربة الخيانة، والاحتلال، والفاسدين، والاعتراف بهم؛ حتى يرفعوا الحصار، ويوقفوا العدوان.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩)

﴿قَدِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿افْتَرَيْنَا﴾: كذبنا، وقلنا غير الحق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: نكون قد عظّمنا الفرية، وهي الكذب على الله سبحانه وتعالى في جعل الشركاء لله سبحانه وتعالى أندادًا؛ أي مساوين ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عُدْنَا﴾: رجعنا وأصبحنا مرتدين ﴿فِي مِلَّتِكُمْ﴾: إذا رجعنا إلى دينكم، وهي الملّة الباطلة، الكافرة ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: حرفٌ يدلُ على ما مضى من الزمن ﴿نَجَّانَا﴾: حفظنا من مصائبها ﴿اللَّهُ مِنْهَا﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة، بعد أن عرفنا الطريق، واعتمدنا المنهج الذي ننجو به ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرامٌ علينا ولا ﴿يَكُونُ﴾: لا يجوز ﴿لَنَا﴾: تحديدًا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿نَعُودَ فِيهَا﴾: نرجع عن إسلامنا إلى ملّتكم ﴿إِلَّا﴾: في حالة استثنائية وهي ﴿أَنْ يَشَاءَ

﴿اللَّهُ﴾: بإرادة الله فقط ﴿رَبُّنَا﴾: مالك أمرنا كلّه، هذا إقرار من المؤمنين بمشيئة الله ﷻ في كلّ شيءٍ؛ حتى في عودتهم عن الإسلام الصحيح ﴿وَسِعَ﴾: أحاط الله ﷻ إحاطةً واسعةً كاملةً ﴿رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾: تفيد العموم ﴿عِلْمًا﴾: إنّ ربنا يعلم كلّ شيءٍ ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: جاء تقديم الجار والمجرور ليفيد الحصر، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع، اعتمدنا على الله ﷻ فيما نعمل من أمورنا، وما نترك منها ﴿رَبَّنَا﴾: حالة إعلان تكرار الإيمان بقوّة، بربوبية الله ﷻ ﴿افْتَحْ﴾: احكم، واقض، وافصل ﴿بَيْنَنَا وَ﴾: أيضًا افتح ﴿بَيْنَ قَوْمِنَا بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿الْحَقِّ﴾: معناه العدل، فتحًا يكون انتصارًا لنا عليهم، لقد حسم المؤمنون أمرهم، ولجأوا إلى القوة التي لا تُهزم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ﴾: الأفضل على الإطلاق ﴿الْفَاتِحِينَ﴾: الموضحين الحقيقة أنت خير الحاكمين؛ لأنّك العدل، لا تجور أبدًا، هذه حالة إعلان الإيمان بقوةٍ، نصرُ المظلوم على الظالم، وهذا خير الحكم.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (٩٠)

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾: قادة وزعماء وأمراء الكافرين؛ نلحظ في كلّ نبيٍ أنّ الذين يتصدرون مشروع الكفر هم الملأ قادة المال والسياسة، والإعلام في مواجهة النبي، ومن بعده الحركات الإسلامية ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَفَرُوا مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿قَوْمِهِ﴾: زعماء كفّار قوم شعيب وهم المتمردون ﴿لَئِنِ﴾: حرفٌ يُفيد شرط ﴿اتَّبَعْتُمْ﴾: إذا آمنتم، وصدّقتم ﴿شُعَيْبًا﴾: عندها ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿إِذًا﴾: حرف جواب ﴿لَ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿خَاسِرُونَ﴾: سنجعلكم الخاسرين، تخسرون أرواحكم؛ فتموتون، وتخسرون أموالكم؛ فتفقرون، وتخسرون أولادكم؛ فيقل عددكم؛ فهذه مشيئتهم؛ حققها الله ﷻ في المشركين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٩١)

﴿فَ﴾: حرفٌ استثناء بهدف ترتيب الأمر؛ يفيد سرعة التنفيذ ﴿أَخَذَتْهُمُ﴾: ذهبت بهم ﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ الشديدةُ، التي هددوا بها شعيبًا وأصحابه، وتوعدوهم بالطرد ﴿فَأَصْبَحُوا﴾: صاروا ﴿فِي دَارِهِمْ﴾: في بيوتهم التي ناموا فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾: أصبحوا موتى، جاءتهم الرجفةُ؛ الزلزال العظيم؛ فأسكتتهم فأخذهم عذابُ يوم الظُلّة إنّه عذاب يوم عظيم، كانت سحابةٌ أظلتهم، فيها شررٌ، نّارٌ، ولهيبٌ، ووهجٌ عظيم، ثم جاءت صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ في الأرض زلزال؛ وهذا معنى **جَاثِمِينَ** أي منكبين على ركبهم، وعلى وجوههم؛ خامدين، ميتين.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٢)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ جاء ذكرهم، الذين كفروا به ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا بعثة النبي ﴿شُعَيْبًا﴾: هم الكفّار والمشركون، الذين لم يصدّقوا رسالة شعيب عليه السلام ﴿كَأَنْ﴾: حرفٌ يُفيد التقريب أو التشبيه ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَغْنَوْا فِيهَا﴾: كأنّهم لم يقيموا بديارهم مُتنعمين، مُستمتعين، التي أرادوا طرد شعيب والمؤمنين منها قال البخاري: معنى ﴿يَغْنَوْا﴾ [الأعراف-٩٢]: يَعِيشُوا[1]، أي أصبحت بعد نزول العذاب عليهم خرابًا خاليًا، كأن لم يُقيموا في دارهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى استأصلهم عن بكرةِ أبيهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾: تتكرر الكلمات للدلالةِ والتأكيدِ ﴿كَانُوا﴾: صاروا ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْخَاسِرِينَ﴾: أجاب الله سبحانه وتعالى عمليًا عليهم يوم قالوا؛ لئن اتبعتم شعيبًا إنّكم إذا لخاسرون، كان عقابهم من جنس ما توعدوا شعيبًا والذين آمنوا معه.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣)

﴿فَ﴾: حرفُ استثناء بهدف السبب ﴿تَوَلَّى﴾: ابتعد شعيب، عليه السلام ﴿عَنْهُمْ﴾: بعد الذي أصابهم من العذاب، والنكال، والهلاك؛ مخاطبًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قَالَ يَا﴾: حرفُ نداءٍ ﴿قَوْمِ﴾: يا عشيرتي، مقرّعًا لهم وموبخًا ﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾: أوصلت إليكم حقًّا ﴿رِسَالَاتِ﴾: أوامر الله سبحانه وتعالى ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري كلّه ﴿وَنَصَحْتُ﴾: عطفاً على ما سبق أوعظت وأرشدت ﴿لَكُمْ﴾: نقلت إليكم رسالات ربّي أمينًا، وكنت لكم ناصحًا، مُخلصًا؛ فلم تقبلوا نُصحي ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد جواب الشرط ﴿كَيْفَ﴾: أداةُ استفهامٍ تُفيد هنا النفي ﴿آسَى﴾: أنا لا أشعرُ بالأسى، أو بالأسف، أو بالحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾: جماعة كافرة ﴿كَافِرِينَ﴾: على ما أصاب القوم الكافرين المستخفين بالعذاب، والأرجح أنّ كلام شعيب كان موعظة للذين آمنوا معه؛ والله أعلم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿أَرْسَلْنَا﴾: في كلّ حالةٍ بعثنا ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾: أهل وسكان المكان ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية ﴿نَبِيٍّ﴾: كلّ نبيٍ من الأنبياء؛ فكذبه أهلُها ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿أَخَذْنَا﴾: أهلكنا، أصبنا؛ جاءت بصيغة الجمع للتعظيم ﴿أَهْلَهَا﴾: سكانها وأصحابها ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْبَأْسَاءِ﴾: البؤس هو ما يصيب النّاس في أجسادهم ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أمراضٍ، وفقرٍ وغمٍ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: يُفيد الترجي

---

[1] صحيح البخاري ١٥٨/٤ باب تفسير سورة الأعراف.

والتمني من البشر ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: يتضرعون ويتذللون، خاشعين، مبتهلين؛ ليكشف عنهم السوء الذي هو الشرّ والضرر.

التكليف: هذه الآية تعني أنّ الله ﷻ يبتلي النّاس بالشدّة؛ ليدعوه، ويتذللوا إليه؛ فإذا فعلوا انقلب حالُهم إلى رخاء.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني البطيء ﴿بَدَّلْنَا﴾: غيّرنا ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾: حوّل الله ﷻ حال السيئة، هنا هي القحط، والشدّةِ إلى الحسنةِ، وهي الرخاء، ومن مرضٍ إلى صحةٍ وعافيةٍ، ومن فقر إلى غنى؛ ليشكروا الله ﷻ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿عَفَوْا﴾: كثرت أموالهم وأولادهم، إذا عفا الشيء كثُر ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قَالُوا قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿مَسَّ﴾: أصاب في العمق ﴿آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ﴾: ابتلاهم الله ﷻ؛ ليتضرعوا ويعودوا إليه ﷻ؛ فلم ينفع فيهم فضل الله ونعمته، ولا انتهوا عن هذا أو ذاك ﴿وَالسَّرَّاءُ﴾: أيضاً جاءهم الابتلاء بالذي يسرّهم، وكان حالُ المؤمنين هو الشكر في السراء والصبر في الضراء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ[1]. ﴿فَ﴾: حرفُ استثناء بهدف ترتيب الأمر يفيد سرعة التنفيذ ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾: أصبناهم بمصائب تأخذهم من الدنيا؛ جاءت بصيغة الجمع للتعظيم ﴿بَغْتَةً﴾: جاءهم العذابُ فجأة، وعلى عدمِ توقعٍ منهم ﴿وَهُمْ﴾: بعينهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَشْعُرُونَ﴾: لم يتوقعوا، متى يكون العذاب؟

التكليف: الحذر من الغنى، ودوام الصحة، ومن عظمة السلطان؛ لا تدوم فكلّها تزول بالذنوب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦)

﴿وَلَوْ﴾: حرفُ امتناع لامتناع ﴿أَنَّ﴾: حرفٌ يفيد التأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿أَهْلَ﴾: سكان وأصحاب ﴿الْقُرَى﴾: المُدن والتجمعات السكانيّة، التي أُرسل إليها الأنبياءُ والرسلُ؛ لدعوتهم إلى الحق ﴿آمَنُوا﴾: لو أنّ الشعوب التي أرسلنا فيها رسلنا آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل

---

[1] سنن الترمذي ٤/١٨٠(٢٣٩٩). وحسنه الترمذي وقال: حسن صحيح.

من ربّهم، وصدّقت به جوارحهم، وعملوا بأوامره، وانتهوا عن نواهيه ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿اتَّقَوْا﴾: تجنبوا عصيان الله ﷻ وغضبه؛ طمعًا في رحمته، وخوفًا من عذابه ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿فَتَحْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ للتعظيم، يسرنا كثيرًا ﴿عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾: كلّ ما فيه خير ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿السَّمَاءِ﴾: كلّ ما علاهم من الغيم المحمّل ببخار الماء ﴿وَالْأَرْضِ﴾: أيضاً لفتحنا عليهم أبواب كلِّ خيرٍ، مثل نزول الغيث، ونبات الأرض، واكتشاف ما بباطنها من بترولٍ، ومعادنَ، ومياهٍ وغيرها ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ استدراك ﴿كَذَّبُوا﴾: كفروا، وغطوا الحقيقة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾: عاقبناهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: بما كذّبوا رسلهم وعصوا؛ فعاقبناهم بالهلاك بسبب المعاصي؛ إن كسبهم كان خسارة.

التكليف: الحذر من امتناع نزول البركات؛ لامتناع الإيمان والشكر.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧)

﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿فَأَمِنَ﴾: هل أمن؟ هل يأمنوا؟ والإجابة: لا يأمنون ﴿أَهْلُ﴾: أصحاب وسكان ﴿الْقُرَى﴾: المقصود أهل القرى التي جاء ذكرها سابقًا، وقيل المقصود مكّة وما حولها لتكذيبهم النبي ﷺ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾: تحلُّ بهم قوة ﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا وانتقامنا ﴿بَيَاتًا﴾: ليلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: مطمئنون غير مدركين ما ينتظرهم، وهنا يُحدّد القرآن الكريم فترة الليل، وقت الراحة، التي قد يأتي فيها عذاب الله لمن في الأرض.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨)

﴿أَوَأَمِنَ﴾: استفهامٌ يفيد التهديد والوعيد، هل اطمأن ﴿أَهْلُ﴾: سكان وأصحاب ﴿الْقُرَى﴾: أهل التجمعات السكانية الصغيرة، والكبيرة؛ هل أمن؟ فالعذاب هنا يأتي ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾: يحلُّ بهم، وينزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾: قوّتُنا، ويقع عليهم عذابُنا ﴿ضُحًى﴾: جاء اللفظ القرآني "**الضحى**" على ثلاثة أوجه، في هذه الآية بمعنى النّهار أيضًا في سورة [الضحى-١]، وفي قوله ﷻ **﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾** [طه-٥٩]، أي كل النّهار، وجاءت بمعنى أول ساعة من النّهار في قوله ﷻ **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾** [النازعات-٤٦]، وجاءت بمعنى حرّ الشمس في قوله ﷻ **﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾** [الشمس-١]، وفي قوله ﷻ **﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾** [طه-١١٩]، وهو

وقت النّهار ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَلْعَبُونَ﴾: وهم يشتغلون، وهم غافلون؛ لأنّ العذاب يصيب الأرض كلّها، فالآية حدّدت أنّ لحظة العذاب تكون ليلًا، أو نهارًا.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩)

﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أَمِنُوا﴾: اطمأنوا وأخذوا حذرهم من ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾: هل أمنوا؟ هل تجنبوا؟ هل تحصّنوا أولًا مما يدبره ﷻ مِنْ العقوبة وهم لا يشعرون، وثانيًا استدراجه ﷻ لهم بالنعمة والصحة، انتظارًا لتحقيق بأسه ﷻ، وغضبه، وقدرته ﷻ عليهم؛ إذا أخذهم في يقظةٍ، أو في سهوٍ، أو غفلةٍ؟ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عنْ ﴿يَأْمَنُ﴾: يطمئن أنّه لا يأتي ﴿مَكْرَ﴾: عقوبة واستدراج ﴿اللَّهِ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الْقَوْمُ﴾: اسم موصول يفيد هنا أصحابُ مذهبٍ واحدٍ هم ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: لا أمن لهم، ولا اطمئنان؛ لكنّهم يشعرون بالأمن؛ لأنّ المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وخائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

﴿أَوَلَمْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستفهام والاستنكار ﴿يَهْدِ﴾: لم يتبين ويتضح ﴿لِلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾: الذين يحكمون في الأرض بعد من سبقهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: الذين أهلكوا أنفسهم؛ بعصيانهم، والذين ساروا على نهجهم، وسيرتهم ﴿أَنْ لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة في نظر الخلق ﴿نَشَاءُ﴾: أردنا ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾: تدلُّ على غضب الله ﷻ؛ لأنّها جاءت بصيغة الجمع ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: حرف باء السببية، لو شئنا فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿و﴾: عطفًا على ما سبق ﴿نَطْبَعُ﴾: نختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: كأنّ ما فعلوه هو ما فعله أسلافُهم؛ لأنّهم لم يستفيدوا من تجربةٍ، ولم يتعظوا بموعظةٍ ﴿فَهُمْ﴾: لهذا السبب هم تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْمَعُونَ﴾: كأنّهم لم يسمعوا، وإذا سمعوا الموعظة ما عملوا بها، يقول ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك–١٨].

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١)

﴿تِلْكَ﴾: إشارة للمؤنث البعيد ﴿الْقُرَى﴾: لقد ذكر الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ قصص أقوام نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشعيبٍ التي أهلكها اللهُ ﷻ ﴿نَقُصُّ﴾: نذكر، ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾: يا محمد ﷺ

﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد جزءًا أو بعضًا ﴿أَنْبَائِهَا﴾: أخبارها ما حدث لها ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: بُعث فيهم منهم ﴿رُسُلُهُمْ بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج، والبراهين ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يُفيد الخبر ﴿كَانُوا لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُؤْمِنُوا﴾: لأنّهم كذّبوا في أوّل الأمر، وأصرّوا على التكذيب ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ هنا بمعنى الذي، حرف باء السببية؛ تعني بسبب الذي ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ورفضوا التصديق ﴿مِنْ﴾: هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: حدث في الماضي ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا أيضًا ﴿يَطْبَعُ﴾: يختم أي تلتصق الذنوب بالقلوب فلا تغادر ﴿اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾: بهذه النتيجة يختم الله ﷻ على قلوبِ أهلِ القرى الظالمِ أهلُها، هذه سنّةٌ من سنن الله ﷻ في الكافرين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿وَجَدْنَا﴾: لم نجد ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾: أولًا هم الغالبية من الأمم الكثيرة السابقة، وثانيًا الكفّار على العموم، الذين لا وفاء ولا عهد لهم، الذين نزل بساحتهم عذابُ الله ﷻ، بعد عصيانهم لرسلهم ﴿مِنْ﴾: جاءت لتقوية النفي، بمعنى جزءًا أو بعضًا ﴿عَهْدٍ﴾: ليس لأغلبهم وفاء بما أوصيناهم، هم خارجون عن الطاعة، والعهد هو الذي أخذه الله ﷻ عليهم في الأصلاب أنّ الله ربّهم ومليكهم، عهد وفاء والتزام؛ ونقض العهود هو دأبُهم في كلّ حال ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ، بمعنى بل ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾: الغالبية منهم ﴿لَفَاسِقِينَ﴾: خارجين عن العهد، لم يوفوا به، وعبدوا غير الله ﷻ بلا دليل أو برهان.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني البطيء ﴿بَعَثْنَا﴾: أرسلنا رسلًا وأنبياء ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: في الزمن هم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام، أيضًا ﴿مُوسَى بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿آيَاتِنَا﴾: المعجزات التي جاء ذكرها والأدلّة والبراهين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾: ملك مصر، في زمن موسى عليه السلام ﴿وَ﴾: أيضًا بعثناه إلى ﴿مَلَئِهِ﴾: زعمائه، وقادة قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: بسبب كفرهم بها ظلمًا لأنفسهم، وعنادًا كفروها، وجحدوا بها ﴿فَ﴾: فعل أمر لهذا السبب وبدون تأجيل النظر ﴿انْظُرْ﴾: تأمل وادرس حالةَ كلِّ واحدٍ منهم ﴿كَيْفَ﴾: استفهام يفيد التعجب ﴿كَانَ عَاقِبَةُ﴾: نهاية ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: يا محمد ﷺ تأمل وتذكّر ماذا فعل الله ﷻ

بهم، كيف أغرقهم جميعًا أمام أعين موسى، ﷵ، وقومه؛ ليثبّت به فؤاد محمد ﷺ والمؤمنين، وذهب فرعون غريقًا في الدنيا، وإلى جهنّم في الآخرة.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾: في المناظرة بينه وبين فرعون وقادةِ مصر، قال موسى، ﷵ إنّ الله ﷻ أرسله إليهم، صدح بها قويّة واضحة ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب ﴿فِرْعَوْنُ﴾: حاكم مصر ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿رَسُولٌ﴾: إنّي مرسلٌ من الله ﷻ، الذي هو ﴿رَبِّ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، فهو ﷻ مالك وخالق ﴿الْعَالَمِينَ﴾: كلّ شيءٍ في هذا الكون الفسيح، وما أنت يا فرعون إلّا عبد ومخلوق من عباده.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٥)

﴿حَقِيقٌ﴾: جدير وحريّ بي، حريصٌ على ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الْحَقَّ﴾: لا أبلّغ من الله ﷻ إلّا الصدق، أخبركم بما أُرسلتُ به كما هو، وأنا جديرٌ بذلك ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿جِئْتُكُمْ﴾: أحضرت لكم ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾: حرف باء التأكيد، بدليل صدقٍ وبرهان حقٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الكلّية، المصدر الحق ﴿رَبِّكُمْ﴾: مالك أمركم كلّه، أُقدّم لكم حجّةً واضحةً، ودليلًا كبيرًا من الله ﷻ؛ تُصدّق ما جئت به ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿أَرْسِلْ﴾: اسمح يا فرعون بخروج المُضطهدين، والمسجُونين، والمظلُومين عندك ﴿مَعِيَ﴾: في صحبتي من ﴿بَنِي﴾: أبناءِ وأحفادِ ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: أطلق سراح أبناء يعقوب، ﷵ، واتركهم وما يعبدون، فهؤلاء أبناء أنبياء، وأتباع يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، عليهم السلام.

التكليف: كان وسيبقى فكُّ المأسورين، ونصرة المظلومين منهجًا ربّانيًا أصيلًا لكلّ مسلمٍ.

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٦)

﴿قَالَ﴾: فرعون، أنا لا أصدقك فيما قلت، ولن ألبيّ طلبك ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتَ جِئْتَ بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿آيَةٍ﴾: إذا جئت بدليلٍ أو برهانٍ كما تزعم ﴿فَـ﴾: يفيد جواب الشرب هنا بمعنى أسرع ﴿أْتِ بِهَا﴾: أحضرها وأظهرها أمامنا؛ حتى نُشاهدها، وننظر فيها ﴿إِنْ﴾:

حرف شرط ﴿كُنْتَ مِنَ﴾: بعض، وهو حرف يفيد التمييز ﴿الصَّادِقِينَ﴾: لأنّنا لا نصدقك، فأثبت لنا صدقك.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٧)

﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر يُفيد سرعة التنفيذ، وهو طلب فرعون ﴿أَلْقَى﴾: موسى، ﷺ ﴿عَصَاهُ﴾: ما كان يتكئ عليه ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿هِيَ﴾: ضمير رفع منفصل للغائب المفرد المؤنث، هي هنا العصا ﴿ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾: حيّةٌ ظاهرةٌ واضحةٌ لا ريب فيها، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الثُّعْبَانُ الحَيَّةُ الذَّكَرُ مِنْهَا، يُقَالُ: الحَيَّاتُ أَجْنَاسٌ: الجَانُّ وَالأَفَاعِي، وَالأَسَاوِدُ([1]).

التكليف: هذا حالُ كلّ طاغيةٍ إذا رأى العذاب؛ وعد بالتوبة، وإذا رُفعت عنه؛ عاد لطغيانه.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٠٨)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿نَزَعَ﴾: أخرج موسى، ﷺ ﴿يَدَهُ﴾: من درعه بعد أنْ أدخلها فيه انظر [المائدة-٦٤] ﴿فَإِذَا﴾: حرف مفاجأة وأمر للمستقبل ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿هِيَ﴾: يده ﴿بَيْضَاءُ﴾: تتلألأ؛ نورٌ يظهر لكل مُبصرٍ، دون أن يكون لها برص؛ غلبت شعاع الشمس، جاء في المعنى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه-٢٢]، ثم أعادها إلى كمّه فعادت إلى لونها الأول ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاظِرِينَ﴾: تخصيصًا للحضور المُشاهدين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩)

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾: هم السادة، والمستشارون من قوم فرعون، وقد استرد توازنه؛ بعد أنْ عاد إلى كرسيه ﴿مِن قَوْمِ﴾: عشيرةٍ وقبيلةٍ ﴿فِرْعَوْنَ إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿هَذَا﴾: حرف إشارة إلى موسى ﷺ ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿سَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾: قوي السحر، قالوها لفرعون فوافق عليها، أي كثيرُ العلم بالسحر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١٠)

﴿يُرِيدُ﴾: القول لفرعون، ويقصد موسى، ﷺ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُخْرِجَكُمْ﴾: أنْ تغادروا دياركم، وتخرجوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿أَرْضِكُمْ﴾: أفصح فرعون عمّا طلبه موسى، ﷺ، أنْ يغادر بنو إسرائيل مصر؛ ويذهبوا مع موسى ﴿فَمَاذَا﴾: أداة استفهام ﴿تَأْمُرُونَ﴾: أشيروا عليّ كيف تكون الحيلة، كيف نُطفئُ نور

([1]) صحيح البخاري ١٢٧/٤ باب قوله تعالى: {وبث فيها من كل دابة}.

الحقيقة، ونخمد كلمته، ونُبطل انتصاره علينا؛ بالكذب والسحر، وعلينا أنْ نمنع تصديق النّاس لموسى؛ حتى لا يظهر عليكم، وبالتالي يُخرج بني إسرائيل من مصر، وهنا يُطرح سؤال: لماذا يريد فرعون وأعوانه استبقاء بني إسرائيل في مصر؟ والإجابة: لأنّهم عبيد لهم، يقتلون رجالهم خوفًا منهم، ويُبقون نساءهم لخدمتهم، وخوفًا من أنّ يظهر منهم من يقضي على عرش فرعون، أيضًا لأنّ منهم أربابَ المال والجباية، وإذا فسدوا كانوا أرباب الربا وكلّ أشكال الفساد المالي.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١)

﴿قَالُوا﴾: هم ملأ فرعون، وأعوانه ومستشاروه ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾: أرجئ وأخّر موسى وأخاه، أي أجّل عقابهما ﴿وَأَرْسِلْ﴾: وابعث في طلب السحرة ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾: في مدن وأقاليم مصر؛ حتى يأتي السحرةُ ﴿حَاشِرِينَ﴾: اجمع أكبر عددٍ من السحرة، واحشرهم؛ جميعًا.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (١١٢)

﴿يَأْتُوكَ﴾: إنّ عسكرك ورجالك سيجلبون لك هؤلاء الذين أرسلتهم لإحضار السحرة ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿كُلِّ﴾: جميع جنس ﴿سَاحِرٍ﴾: يأتوا بكلماتٍ في السحر، من هو كثير العلم بصناعته، لا يتركون واحدًا. كان فرعون وبطانته يظنون أنّ موسى، عليه السلام، جاء بالسحر، فقد انتشر السحر والشعوذة في ذلك الزمان والمكان؛ فطلبوا السحرة؛ ليواجهوا سحر موسى كما ظنّوا، فيبطلوا بيّناته، وآياته ﴿عَلِيمٍ﴾: ضليعٍ في السحر.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿جَاءَ﴾: تم جمع ﴿السَّحَرَةُ﴾: إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾: اجتمعوا حول فرعون ﴿قَالُوا﴾: اشترطوا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿لَنَا﴾: تمليكًا، وتحديدًا لنا ﴿لَأَجْرًا﴾: حرف لام التمليك، سألوا فرعون أنْ يعطيهم عطاءً جزيلًا؛ فهؤلاء ككل المرتزقة المأجورين؛ لا يعملون دونَ أجر ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنَّا﴾: صرنا ﴿نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾: اللغة توحي باحتمال أنْ يغلبوا، واحتمال غير ذلك، إذا انتصروا يأخذوا، وهذا حال الكذّابين في كلّ زمانٍ وفي كلّ مكان.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١١٤)

﴿قَالَ﴾: أجابهم فرعون ﴿نَعَمْ﴾: استجاب فرعون لمطالبهم نعم وإضافة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا، أيضًا ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم تخصيصًا ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مِنَ﴾: أنتم مميزون لأنّكم جزءٌ أو بعض ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾: جاء هنا تأكيد القول بحرفي إن واللام، الخاصّة والصُفوة، لقد وعدهم

فرعونُ أنْ يزيد في عطائهم، وأنْ يكونوا من المُقربين، من بطانته التي تجلس بجواره، ووعدهم بالمناصب العالية، يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران-١١٨]، قال السدي: بلغ عدد السحرة بضعًا وثلاثين ألف ساحر، في يدِ كلِّ واحدٍ منهم عصا وحبل، وقال الطبري: كانوا سبعين ألفًا.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥)

﴿قَالُوا﴾: اجتمع السحرةُ وموسى عليه السلام، والجمهور؛ فقال السحرةُ **﴿ يَا مُوسَى إِمَّا﴾**: حرفُ شرطٍ وتفضيلٍ يحمل معنى التخيير **﴿أَنْ﴾**: حرف تصور **﴿تُلْقِيَ﴾**: خيّر السحرة موسى عليه السلام، أنْ يطرح، أدلّته، وبراهينه، وقدراته أولًا، كان هذا من ثقتهم بأنّهم غالبون، وإنْ تأخروا **﴿وَإِمَّا أَنْ﴾**: حرف تحقيق الفعل **﴿نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾**: في التخيير الذي بدأه السحرة ثقةٌ وتحدٍ؛ كأنّهم يظهرون واثقين من سحرهم وقدرتهم.

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٦)

﴿قَالَ﴾: أجابهم موسى عليه السلام بقوله **﴿أَلْقُوا﴾**: قال لهم موسى، عليه السلام ألقوا أنتم أولًا، والحكمة في ذلك أنْ يأخذ النّاسُ فرصةً كافيةً يتأملون سحر السحرة، حتى إذا انبهروا به؛ جاءهم ما يُبطل سحرهم؛ فتكون الهزيمة أوقع، وهذا ما تحقق **﴿فَلَمَّا﴾**: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب **﴿أَلْقَوْا﴾**: ما في أيديهم من الحبال والعصي **﴿سَحَرُوا﴾**: خيّلوا لهم غير الحقيقة **﴿أَعْيُنَ النَّاسِ﴾**: خدعوا بصر النّاس، كانت أعمالهم كالخيال، فعندما ألقى كلُّ ساحرٍ منهم ما في يديه من الحبال والعصي: بدت كحيّات، يركب بعضُها فوق بعض **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى الاستئناف **﴿اسْتَرْهَبُوهُمْ﴾**: حققوا غايتهم بتخويف النّاس، وأدخلوا الرهبة في قلوبهم إدخالًا شديدًا **﴿وَجَاءُوا﴾**: أيضاً عرضوا **﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾**: كانت العصا والحبال تتحرك كأنّها تمشي؛ جاء في المعنى **﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾** [طه-٦٦]. كان السحرُ الذي جاء به السحرةُ عظيمًا في أعين النّاس، وإن كان لا حقيقة له في الواقع، وهذا نوعٌ من سحر التخييل؛ وخفّة اليد.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق **﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾**: قالها ﷻ بصيغة الجمع؛ التي تُفيد القوّة القاهرة لهذا الموقف الرهيب، أمر الله ﷻ موسى **﴿أَنْ﴾**: حرف تأكيد الفعل **﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾**: أنْ يُلقي ما في يمينه وهي العصا **﴿فَإِذَا﴾**: حرف مفاجأة وأمر **﴿هِيَ﴾**: عصا موسى **﴿تَلْقَفُ﴾**: تبتلع الشيء بالدقةِ والحذقِ بالفم، والحدث الثاني أنْ تحوّلت عصا موسى عليه السلام، إلى مخلوقٍ ضخمٍ من الثعابين، يبتلعُ ما أُلقي من الحبال والعصي، في مشهدٍ مُرعبٍ ومُخيفٍ

﴿مَا﴾: الذي من غير العاقل، هي الحبال التي بدت كالثعابين ﴿يَأْفِكُونَ﴾: ما ألقوه ليوهموا النّاس أنّها حقيقة، وهي في الحقيقة إفك؛ أي كذب.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر يفيد سرعة التنفيذ، فكان والتتابع السريع ﴿وَقَعَ﴾: ظهر وتبيّن أنّ ما جاء به موسى، ﷺ ﴿الْحَقُّ﴾: انتصر الحق، انتصرت آياتُ اللهِ ﷻ التي أعطاها لموسى ﷺ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿بَطَلَ﴾: ظهر بُطلان وزيف، والباطل نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الماضي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: صنيع السحرة وعملهم، وأدرك السحرةُ أن عصا موسى ﷺ؛ هي من آيات الله ﷻ.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ (١١٩)

﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ودونَ تأخير ﴿غُلِبُوا﴾: انهزم سحرةُ فرعون وخذلوه ﴿هُنَالِكَ﴾: عندها وفي هذا الموقع، المكان، وفي هذا الوقت، الزمان، وفي هذه الحادثة ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿انْقَلَبُوا﴾: رجعوا، وتراجعوا، فعندما رفعوا رؤوسهم رأوا الجنّة، ورأوا النّار ﴿صَاغِرِينَ﴾: مخزيين، مهزومين، قال محمد بن إسحق: كانت عصا موسى ﷺ تتتبع وتبتلع تلك الحبال، والعصي واحدةً، واحدةً؛ حتى اختفت، ثم أخذ موسى ﷺ عصاه في يده؛ فعادت كما كانت.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أُلْقِيَ﴾: خرّوا سُجّدًا؛ لم يحتملوا شدّة ما رأوا ﴿السَّحَرَةُ﴾: لقد أيقنوا أنّ ما عند موسى ﷺ ليس بالسحر، وأنّهم إذا استمروا في كذبهم فالعذاب هو العقاب ﴿سَاجِدِينَ﴾: ليس سجود عبادة ولكن سجود طاعةٍ وتسليم.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١)

﴿قَالُوا﴾: صرّح السحرةُ بأنّهم آمنوا بربّ العالمين ﴿آمَنَّا﴾: أيقنّا، وتأكّدنا، واطمأنت قلوبنا بالحقيقة ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الله ﷻ المالك للكون، ومن فيه، من عالم الإنس والجن، فلو كان ما عند موسى سحرًا؛ لهزمناه.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٢)

﴿رَبِّ﴾: مالك كل أمر ﴿مُوسَى﴾: هو الذي بعث موسى برسالته، وهو الذي أيّد موسى ﴿وَهَارُونَ﴾: أيضاً أيّد هارون؛ ونصرهما بما أتاهما من آياتٍ، ليست بالسحرِ؛ لئلّا يتوهم متوهمٌ من قوم فرعون المقربين بأنّه إله وأنّ السجود كان له.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢٣)

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الإنكار والاستبعاد، فقد استبعد فرعون المكر من السحرة **﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾**: عزّ على فرعون أنْ يؤمن قومُه بربّ السموات والأرض، وحصر القضية في أنّ قومه آمنوا قبل موافقته **﴿قَبْلَ أَنْ﴾**: حرف تأكيد الفعل **﴿آذَنَ﴾**: أسمح **﴿لَكُمْ﴾**: ككلِّ طاغيةٍ لا يسمح لأحدٍ من رعيته، حتى الإيمان، إلّا من بعد إذنِه، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتنفسون؛ إلّا بإذنِه، إنّ فرعون حاضرٌ في كلّ زمان وهذا من سوء رأيه، لأنّ الإيمان بالحق لا يحتاج إلى إذنٍ من أحد **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار **﴿هَذَا﴾**: إنّ الهزيمة التي مُنيتم بها اليوم **﴿لَ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿مَكْر﴾**: كيد ومؤامرة **﴿مَكَرْتُمُوهُ﴾**: تآمرتم مع موسى **﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾**: إنّ هزيمتكم أيّها السحرة أمام موسى كانت باتفاقٍ، وتآمرٍ مسبقٍ، بينكم وبينه، كان هذا عن تشاورٍ، وتراضٍ منكم. كانت الأدلّة على كذب فرعون: **الأولى:** أنّ موسى ﵇، ذهب إلى فرعون فقط مباشرة بمجرد وصوله إلى مصر. **الثانية:** أنّ الذي دعا النّاس هو فرعون، ولم تكن رغبةً من موسى ﵇. **الثالثة:** أنّ السحرة جاؤوا من مناطق بعيدة ومتفرقة في البلاد، وجمع كل من أمكنه جمعهم هو فرعون، **الرابعة:** أنّ فرعون هو الذي استدعاهم. **الخامسة:** أنّ فرعون وعدهم بعطايا وغنائم، ولهذا كانوا الأكثر حرصًا على الانتصار على موسى ﵇. **السادسة:** أنّ قومه كانوا من أجهل النّاس؛ إذ صدّقوا فرعون عندما قال لهم أنا ربّكم الأعلى. **﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا﴾**: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿أَهْلَهَا﴾**: هذا لتطردوا ملوكها؛ وتكونوا و موسى ملوك هذه البلاد، تتحكمون في مقدراتها، رأى فرعون أن ما حدث كان رغبةً في انقلاب عليه **﴿فَسَوْفَ﴾**: كلمةٌ تدلُّ على وعدٍ بعملٍ في المستقبل **﴿تَعْلَمُونَ﴾**: سوف تعرفون ما ينتظركم من العذاب منّي؛ على صنيعكم هذا، ولذلك جاءت الآية التالية توضّح، وتشرح.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٤)

﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب **﴿أُقَطِّعَنَّ﴾**: يفصل بعض أجسادهم عن بعض بالتأكيد **﴿أَيْدِيَكُمْ وَ﴾**: أيضًا **﴿أقطعن﴾**: بالتأكيد أيضًا **﴿أَرْجُلَكُمْ مِنْ﴾**: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿خِلَافٍ﴾**: سأقطع من كلّ واحدٍ منكم اليد اليمني والرجل اليسرى أو بالعكس، وهذه تشلّ الحركة **﴿ثُمَّ﴾**: حرف يفيد التتابع الزمني غير السريع **﴿أُصَلِّبَنَّكُمْ﴾**: الصلبُ هو الشدُّ على خشبةٍ حتى الموت **﴿أَجْمَعِينَ﴾**: جاءت كلماتُهُ كلُّها بصيغ التأكيد، فبعد قطع الطرفين سيقوم فرعون بربطهم على

الصلبان، في جذوع النخل؛ فكان فرعون أوّل من صلب النّاس، وأولَ من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، وجاء في موقع آخر: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه-٧١].

التكليف: إنّ حالة انقلاب الحاكم الظالم على الشعب، وعلى البطانة الفاسدة إذا صلُحت قضية قديمة، والأمثلة في التاريخ القديم والحديث عديدة واضحة؛ كلُّها كأنّها استنساخ موقف فرعون من موسى ﷺ.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥)

﴿قَالُوا﴾: قال الذين سطع نورُ الإيمان في قلوبهم، وكانوا قبل لحظاتٍ من أتباع فرعون ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من المؤمنين بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾: مالك أمرنا كلّه ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾: راجعون، لقد تحققنا في هذه الحادثة أنّ الله حق، وأنّ عذابه أشدُّ من عذابك، وأنّ جريمتنا حيث أكرهتنا على السحر كبيرة، وعقوبتها عظيمة، لقد أيقنّا بأننا لله ﷻ راجعون في الحياة الدنيا بالموت وللجنّة في الآخرة ، وسيعاقبك اللهُ بما فعلت بنا، ويحسنُ إلينا.

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما تفعله فينا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿تَنْقِمُ مِنَّا﴾: حرفُ تعليلٍ وما غضبُك وحقدُك علينا، وكرهُك لنا وما تُعيبه وتنكره منّا ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿آمَنَّا بِآيَاتِ﴾: حرف الباء يفيد السبب ﴿رَبِّنَا﴾: آمنّا بالله ﷻ وصدّقنا بموسى وما جاء به من ربّهِ من حججٍ وأدّلةٍ، لا تقدر عليها يا فرعون، لا أنت ولا أحد آخر سوى الله ﴿لَمَّا﴾: حرفٌ يدلُّ على حدث في الماضي؛ أي حين ﴿جَاءَتْنَا﴾: لأننّا وصلنا إلى حقيقة: من يستحق أنْ نؤمن به، ونصدّقه، بعد رؤية آيات ربّنا على يد موسى ﷺ ﴿رَبَّنَا﴾: وهذه واحدة من علامات الإيمان؛ أنْ دعوا ربّهم وفيها ولاءٌ للهِ ﷻ وبراءٌ مِنْ فرعون ﴿أَفْرِغْ﴾: أسبغ، وأكثر، وأنزل ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: بالصبر على عذاب الذين يحاربون دينك، هذا دواء المظلومين ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾: فبعد أنْ منحتنا الصبر؛ لم يعد الخوف من الموت سببًا في الكفر، سنموت ونسأل الله ﷻ أنْ نموت ونحن نتبع نبي الله موسى، ﷺ، جاء في المعنى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه-٧٢].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾: هنا تحرك مستودعُ المصلحةِ، والجاهِ، والسرقةِ، والفسادِ، والدّس ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿قَوْمِ﴾: جماعةِ ﴿فِرْعَوْنَ﴾: حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، وهم في حاشية فرعون يحرّضون ﴿أَ﴾: حرفُ استفهام بغرض الاستنكار ﴿تَذَرُ﴾: هل تترك وتدع ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾: من أبناء إسرائيل، هل تترك موسى ومن يقف معه من قومه ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُفْسِدُوا﴾: الفساد هنا بمعنى القتل؛ كأنّهم يقولون ليس من المعقول أنْ تترك موسى ومن آمن له؛ ليقتلوك، وهذا هو مفهوم الفساد عند الحاشية والبطانة الفاسدة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في البلاد ﴿وَيَذَرَكَ﴾: أيضاً يتركك ويهملك ﴿وَآلِهَتَكَ﴾: أيضاً يتركون عبادتك، وعبادة آلهتك، فقد كان فرعون يعبد إلهًا بالسرّ ﴿قَالَ﴾: كان قرار فرعون ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل في المستقبل القريب ﴿نُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾: قتل أبناء الذين آمنوا لموسى ﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على قتل الأبناء، سنقوم باستعباد النساء ﴿نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾: نُبقي نساءهم أحياءً؛ إذلالًا لقومِ موسى، عليه السلام، واستمرارًا لسياسة التنكيل التي كانت قبل مولد موسى، عليه السلام؛ خوفًا من ظهور من يذهب بعرش الفرعون، والذي أذلّه الله سبحانه وتعالى بهذا الحدث الكبير ﴿وَإِنَّا﴾: نحن بالتعظيم وبالتأكيد ﴿فَوْقَهُمْ﴾: عالين متكبرين مترفعين ﴿قَاهِرُونَ﴾: سنبقى فوقهم، نقهرهم، ونذلّهم، ونستعبدهم.

التكليف: إنّ منهج فرعون حاضرٌ في كلَّ عصرٍ، ليس جديدًا، ولا منتهيًا، إنّه في كلِّ ركنٍ في المجتمعات البشرية.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨)

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: تخصيصًا، أصبح لموسى عليه السلام، قومٌ يلتفّون حوله، ويؤمنون برسالته ﴿اسْتَعِينُوا بِ﴾: حرف باء الاستعانة ﴿اللَّهِ﴾: لعلاج بطش فرعون اطلبوا العون من الله سبحانه وتعالى ﴿وَاصْبِرُوا﴾: على المحن والابتلاء، وهي من أجنحة النصر الآخر، بعد الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الْأَرْضَ﴾: البلاد ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾: اللام هنا تفيد الملك الحقيقي يهبُها لـ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر ﴿يَشَاءُ﴾: للذي أراد الله سبحانه وتعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾: من خلق الله سبحانه وتعالى، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ على هذا يجب التأكد أنّ ﴿الْعَاقِبَةُ﴾: النتيجة النهائية ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ إنّ العاقبة في الحكم، وملكية الأرض، والحكم سيعطيكم إيّاها بإرادته سبحانه وتعالى.

التكليف: كان وعد موسى عليه السلام، لقومه بالنصر على فرعون وقومه، ثم بشّرهم بأنّ العاقبة للمتقين من عباد الله سبحانه وتعالى، وهذه قواعد ربانية أصيلة في كلّ وقتٍ وعلى أيّ أرض.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩)

﴿قَالُوا﴾: هم الذين آمنوا من بني إسرائيل بعد المواجهة بين السحرة و موسى، عليه السلام، أيضًا الذين من قوم موسى ﴿أُوذِينَا﴾: أصابنا الضرر في أجسادنا، وأموالنا، وأولادنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَأْتِيَنَا﴾: رسولًا من الله سبحانه وتعالى، لقد قتل فرعون أبناءنا، عند مولدك، وسبى نساءنا، واستعملنا في الأعمال الشاقة بغير أجر، وبما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا ﴿وَ﴾: أيضًا أوذينا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: بعد هزيمة فرعون وملئه في المناظرة ﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام ﴿عَسَى﴾: فعلٌ ماضٍ جامد من أخوات كان، يفيد هنا الترجي لأنّه جاء في الأمر المحبوب ﴿رَبُّكُمْ﴾: هو الذي خلقكم وهو مالك كلّ أمركم ﴿أَنْ يُهْلِكَ﴾: يُفني ويزيل ﴿عَدُوَّكُمْ﴾: هنا إشارة أنّ الله سبحانه وتعالى سيُهلك فرعون وملئه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، وهو الجمع بين متعاطفين؛ الأول: هو هلاك فرعون، والثاني: ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: يُمكّن لكم، أنْ تخلفُوا القوم الظالمين، في مالهم، وملكهم؛ تشجيعًا لهم على الصبر والشكر ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿يَنْظُرَ﴾: ترصد الملائكة وتبلغ الله سبحانه وتعالى ﴿كَيْفَ﴾: أداةُ استفهامٍ ﴿تَعْمَلُونَ﴾: ليرى كيف ستتصرفون؛ تشكرون أم تكفرون، والله سبحانه وتعالى في كلّ الحالات أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣٠)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿أَخَذْنَا﴾: عاقبنا وابتلينا وذهبنا بـ ﴿آلَ﴾: أهل وأتباع ﴿فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾: حرف باء السبب، سنوات الجوع؛ بسبب الجدب، والقحط في الزراعة ﴿وَ﴾: أيضًا أخذنا فرعون ﴿نَقْصٍ﴾: قلّة وشُحّ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بعض ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: حتى وصلت النخلة لا تحمل إلّا ثمرةً واحدةً ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: يفيد هنا الترجي؛ لأنّها جاءت من البشر ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: يتعظون ويعتبرون.

التكليف: من نتائج معصية الله سبحانه وتعالى تدهور الأحوال الاقتصادية، وخاصّة الزراعة، فتجدب الأرض، ويقل الغيث من السماء؛ وتُنزع البركة.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

﴿فَ﴾: حرف مفاجأة وأمر ﴿جَاءَتْهُمُ﴾: جاءت آل فرعون ﴿الْحَسَنَةُ﴾: الخصب، والزرع الوفير، ورخص الأثمان، ورغد العيش، وصلاح الثمرات ورخاؤها ﴿قَالُوا لَنَا﴾: تمليكًا ﴿هَذِهِ﴾: لنا نستحقها دون غيرنا، وهذا بجهدنا، وعرقنا ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُصِبْهُمْ﴾: تنالهم ﴿سَيِّئَةٌ﴾: جدبٌ، أو قرحٌ، أو قحط، وكثرة الأمراض، وغيرها من صنوف البلاء، مصائبُ الدنيا ﴿يَطَّيَّرُوا﴾: يتشاءمون فيتهمون موسى، ﷺ ومن معه أنّهم السبب ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿مُوسَى وَ﴾: أيضًا يتشاءمون ﴿مَنْ مَعَهُ﴾: يتشاءمون منهم ﴿أَلَا﴾: حرفُ تنبيه ﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ تحديدٍ وتخصيصٍ ﴿طَائِرُهُمْ﴾: مصائبُهم، وعقابُهم الموعود في الآخرة هو ﴿عِنْدَ﴾: حرف زمان، وظرف مكان ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ قدرًا، ولكنّهم يتهمون موسى ومن معه من المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركون ولا يعون الحقائق.

التكليف: كان من عادة الكفّار أنْ يُطلقوا الطير عند قضاء حوائجهم، وينظرون وجهته، فإنْ طار نحو اليمين تفاءلوا، وإنْ طار نحو الشمال تشاءموا.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالُوا﴾: هم قوم فرعون المتمردون ﴿مَهْمَا﴾: اسم شرطٍ لغير العاقل؛ يدلُّ على الزمن ﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ﴾: جزءٍ أو بعضٍ ﴿آيَةٍ﴾: في تحدٍ، وتمردٍ، وعتوٍ، وعنادٍ للحق، إذا جئتنا بأيّ دليلٍ على صدق دعوتك، وأيّ حجّةٍ لن نغيّر موقفنا؛ لأنّك تريد ﴿لِ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿تَسْحَرَنَا بِهَا﴾: ما زالوا يعدّون ما جاء به موسى ﷺ حرف "ب" النقل من حالٍ إلى حال هو السحر؛ حتى يبرروا عدم إيمانهم ﴿فَمَا﴾: حرف نفي كامل ﴿نَحْنُ لَكَ﴾: تحديدًا ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: لنْ نقبل منك أيّ دليلٍ على صدقك؛ قلُوبنا غلفٌ ولنْ نصدقك؛ لا يفتحها منطق ولا دليل ولا برهان؛ ولذلك يأتيهم العقاب، قالوا ذلك وأرادوا تأييسه حتى لا يُراجعهم بالدعوة من جديد.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (١٣٣)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿أَرْسَلْنَا﴾: سلّطنا ﴿عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾: قال ابن عباس: كثرةُ الأمطار؛ التي تُغرق وتُتلف الزرع والثمار، وَيُقَالُ لِلْمَوْتِ الكَثِيرِ الطُّوفَانُ[١]، وقال مجاهد:

[١] صحيح البخاري ٥٨/٦ باب سورة الأعراف.

الماء، والطاعون ﴿وَ﴾: أيضًا سلّطنا عليهم ﴿الْجَرَادَ﴾: الذي يأكل الأشجار، بكمياتٍ كبيرةٍ، ويُسببُ تلفًا عظيمًا في وقتٍ قصيرٍ، قال مجاهد: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. ﴿والْقُمَّلَ﴾: قيل أيضاً قمل الرأس، وقيل هو السوس؛ الذي يخرج من الحنطة؛ ويتلف طعامهم، وقيل البراغيث، وقال ابن جرير: جمع قملة، وهي دابّةٌ تشبه القمل، تأكل الإبل، وهي السوس ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾: أيضاً الضفادع التي ازدحمت بها أوانيهم، وقواريرهم، وقنوات المياه، وحرمتهم النوم من أصواتها ﴿وَالدَّمَ﴾: أيضاً تحولت قنوات الماء العذب إلى دمٍ، وكذلك مياه الآبار ﴿آيَاتٍ﴾: أدلّة وبراهين ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾: كل آية فيها مصيبة، تتبع الواحدةُ الأخرى، على المكذبين، إنّ جنود الله ﷻ لا تُعدُّ أصنافُها ولا تُحصى، وإذا شاء أنْ يُصيب بها قومًا؛ أهلكتهم ﴿فَـ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر؛ يفيد سرعة التنفيذ، فكان التتابع السريع ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: طلبوا التعالي والكبرياء ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، عطفًا على ما أصابهم ﴿كَانُوا قَوْمًا﴾: جماعةً من أصلٍ عرقيٍ وأصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿مُجْرِمِينَ﴾: كافرين وهي أساس كلّ جريمة، لم ينصاعوا، ولم يؤمنوا، واستكبروا عن الحق.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤)

﴿وَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد توكيد وقوع حدث في الماضي ﴿وَقَعَ﴾: نزل وأحاط بهم، ووقع ﴿عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾: هو العذاب، لمّا أصابتهم هذه المصائب، ومنها الطوفان، وعاشوا العذاب ﴿قَالُوا يَا﴾: حرف نداء ﴿مُوسَى ادْعُ﴾: هنا بمعنى اسأل ﴿لَنَا رَبَّكَ﴾: مالك أمرك، ولم يقولوا ربنّا ﴿بِمَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، والباء هنا باء القسم ويمكن فهمها هنا بمعنى سبب ﴿عَهِدَ﴾: بما خصّك ﴿عِنْدَكَ﴾: بالحظوة، وبما وعدك أنْ يرفع عنّا العذاب، جاءت كلمة ادع؛ بسبب قدرك عند الله؛ ادعوه أنْ يرفع عنّا العذاب أي الطوفان ﴿لَئِنْ﴾: حرف شرط يتبع ما بعده ﴿كَشَفْتَ﴾: رفعتَ وأزلتَ ﴿عَنَّا﴾: بمعنى أبعدتَ ﴿الرِّجْزَ﴾: ما أصابتنا هذه المصائب ﴿لَـ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿نُؤْمِنَنَّ﴾: نصدّقُ بالتأكيد ﴿لَكَ﴾: تخصيصًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَـ﴾: علّة وسبب ﴿نُرْسِلَنَّ﴾: بالتأكيد نترك لك، ونطلق معك سراح بني إسرائيل؛ فلا نمنعهم من أنْ يذهبوا حيث شاؤوا ﴿مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: ولكنّهم لم يُرسلوا معه بني إسرائيل؛ فأنبت الله ﷻ لهم زروعًا كثيرة لم تنبت من قبل، ثم أرسل الله ﷻ عليهم الجراد، الذي لم يُبق لهم منه شيئًا، فقالوا لموسى، ؑ، ادعُ لنا ربّك يكشف عنّا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل فلم يؤمنوا، وبنوا البيوت، وحصّنوها فأرسل عليهم القُمّل، السوس، فسألوا موسى،

عليه السلام، فرفعه عنهم؛ ولم يؤمنوا، ثم أرسل عليهم الضفادع، حتى كان الرجل يجلس والضفادع تصل إلى ذقنه، التي هي أسفل الوجه وتثب إلى فمه إذا تكلم، فطلبوا من موسى أنْ يدعو ربّه ففعل، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا بني إسرائيل معه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١٣٥)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب، استمر عذاب الله ﷻ عليهم؛ ﴿كَشَفْنَا﴾: رفعنا ﴿عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾: فدعا موسى عليه السلام ربّه فكشف الله ﷻ عنهم الدم، والجراد، والقُمّل وغيرها من الوان العذاب؛ حتى يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل؛ فلم يؤمنوا ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾: تأجيل العذاب إلى فترة ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿بَالِغُوهُ﴾: إلى فترة مُعيّنة، معلومة قبل إهلاكهم بالغرق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَنْكُثُونَ﴾: ينقضون ما قطعوا من وعود.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦)

﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف بيان السبب وترتيب الأمر يفيد سرعة التنفيذ، فكان التتابع السريع وحدوث الفعل بسرعة بعد هذه الموجات من العتو والتكبر، الواحدة بعد الأخرى، قال ﷻ بالتفخيم ﴿انْتَقَمْنَا﴾: عاقبناهم بشدّةٍ لمّا نكثوا ﴿مِنْهُمْ﴾: حيث اجتمعوا كُلّهم في البحر، ثم طبق عليهم الموجُ من كلّ جهة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾: جاء الغرق بصيغة الجمع لعظم غرق فرعون وجنوده أجمعين في البحر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسبب، بالتأكيد ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا وجحدوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الأدلّة والبراهين على صدق الرسالة، الطوفان والجراد والقمل والجراد ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، عطفًا على تكذيبهم هذا ﴿كَانُوا عَنْهَا﴾: عن آيات الله تعالى ﴿غَافِلِينَ﴾: غير مُنتبهين، مُتجاهلين.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧)

﴿وَ﴾: حرفُ يجمعٍ هنا بين متعاطفين الأول: الانتقام منهم، والثاني ﴿أَوْرَثْنَا﴾: انتقلت ملكيةُ كلّ شيءٍ للآخرين ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَانُوا﴾: في الماضي ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾: يستذلون ويمتهنون بني إسرائيل؛ لخدمة فرعون وقومه في مصر ﴿مَشَارِقَ

﴿الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾: جاءت المشارق والمغارب كدليلٍ على تعدد المشارق والمغارب وهذا يؤكد على تعاقب الليل والنهار في اختلاف البلدان بسبب كروية الأرض، وبخاصة أرض الشام، وأرض بيت المقدس وفلسطين من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط، التي سكنوها **﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾**: صاحبة الخير الوفير، بركةً من الله ﷻ في الزرع، والثمر والرجال **﴿وَ﴾**: عطفًا على ذلك **﴿تَمَّتْ﴾**: تحققت بالكامل **﴿كَلِمَةُ﴾**: إرادة **﴿رَبِّكَ﴾**: القريبِ، والجامعِ، والمصلحِ، والسيدِ، مالكِ الأمر كلّه **﴿الْحُسْنَى﴾**: التي جاءت في القرآن الكريم: **﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** [القصص-٥، ٦] **﴿وَدَمَّرْنَا﴾**: أيضاً تم هدم وإزالة **﴿مَا﴾**: الذي **﴿كَانَ﴾**: في الماضي **﴿يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ﴾**: أيضًا تحقق الدمار بالكامل فيما صنع **﴿قَوْمُهُ﴾**: أزال اللهُ ﷻ مباني ضخمةً، وتماثيلَ بديعة، ومعابدَ، ومزارع **﴿وَمَا﴾**: أيضًا تم تدمير الذي **﴿كَانُوا﴾**: فيما سبق **﴿يَعْرِشُونَ﴾**: جاء هنا يصنع ويعرشون بصيغة المضارع مع أنّها حدثت في الماضي لاستحضار الصورة في عقل المخاطب؛ لأنّ الأصل في المعنى هو ما صنعوا وما عرشوا، أي ما كانوا يبنون من بيوتٍ وقصورٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ وَاليَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا»[1].

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق **﴿جَاوَزْنَا﴾**: عبروا واجتازوا، وقطعنا **﴿بِبَنِي﴾**: أبناء وأحفاد **﴿إِسْرَائِيلَ﴾** يعقوب عليه السلام **﴿الْبَحْرَ﴾**: هل هو البحر الأحمر أم نهر النيل؟ الله أعلم، الذي غرق فيه فرعون وجنوده، بعد أنْ فلقته عصا، موسى، عليه السلام **﴿فَ﴾**: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر يفيد سرعة التنفيذ، فكان والتتابع السريع **﴿أَتَوْا﴾**: نزلوا **﴿عَلَى قَوْمٍ﴾**: قيل مرّوا على قبائل لخم الذين كانت تماثيلهم من بقر، وقيل إنهم كانوا من الكنعانيين، سكان فلسطين في ذلك الوقت، **﴿يَعْكُفُونَ﴾**: مستمرون **﴿عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾**: يعبدون أصنامًا من دون الله ﷻ، وكان الكنعانيون في هذه البلاد **﴿قَالُوا﴾**: هم بنو إسرائيل **﴿يَا﴾**: حرف نداء **﴿مُوسَى اجْعَلْ﴾**: خصّص وحدّد صرّح واسمح **﴿لَنَا﴾**: تخصيصًا **﴿إِلَهًا﴾**: معبودًا بعبادة صنم **﴿كَمَا﴾**: مثلما **﴿لَهُمْ آلِهَةٌ﴾**: قال ابن جرير: كانت أصنامهم على صور البقر، وهذا ما يفسّر عبادة العجل بعد ذلك، الذي صنعه لهم السامري، قالوا يا موسى ولم يقولوا يا رسول الله **﴿قَالَ﴾**: موسى

---

[1] صحيح البخاري ٦/٧٢(٤٦٨٠).

عليه السلام ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿قَوْمٌ﴾: هم الذين من جنسٍ واحدٍ، واصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿تَجْهَلُونَ﴾: قال موسى غاضبًا وموبّخًا: هل بعد الذي شاهدتم، ما حلّ بـ فرعون وقومه من بطش الله العظيم، تريدون أنْ تُشركوا معه آلهة أخرى.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿هَؤُلَاءِ﴾: المقصود هم الذين يعبدون الأصنام، وقد يُقصد بها الذين أرادوا عبادة العجل من بني إسرائيل فهم سواء ﴿مُتَبَّرٌ﴾: هالكٌ، ومدمرٌ ﴿مَا﴾: الحال الذي ﴿هُمْ فِيهِ﴾: معيشتهم، وعقيدتهم، ونعيمهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾: فاسدٌ، وزائلٌ، ومضمحلٌ لا يستقيم، ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: عبادتهم وكلّ ما يشركون.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠)

﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿اللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾: كيف أبغي لكم وأطلب لكم ﴿إِلَهًا﴾: معبودًا غير الذي أنقذكم من فرعون وقومه، وفرق بكم البحر، وأخرجكم من الذلّة وما كان من القهر والهوان، إلى القوة والعافية ﴿وَهُوَ﴾: سبحانه وتعالى ﴿فَضَّلَكُمْ﴾: كرّمكم واختصّكم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوّكم، ومستخلفكم في الأرض، وأخرجكم من الذُلِّ والهوانِ إلى العزّ والرفعة، وهداكم للدين الحق ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على جيلكم من الخلق في زمانكم.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلّ على ما مضى من الزمن ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾: أنقذناكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا ﴿آلِ﴾ أعوان وأنصار ﴿فِرْعَوْنَ﴾: حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، أخرجناكم من سطوة فرعون وحاشيته؛ الذين كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم ويكلفونكم ﴿سُوءَ﴾: ما يسبب الشر والضرر لكم ﴿الْعَذَابِ﴾: أشدّ أنواع العذاب ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: يقتلون المواليد الذكور عامًا بعد عام ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، كانوا ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: يُبقون المواليد الإناث أحياءً؛ ليكنّ خدمًا لهم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، ما حدث في الماضي؛ كان قتل الأطفال، واستحياء النساء أيضًا كانت نجاتهم من بطش فرعون ﴿بَلَاءٌ﴾: اختبارٌ وامتحانٌ لدرجة إيمانكم بالله سبحانه وتعالى ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يُفيد بداية الغاية الكليّة ﴿رَبِّكُمْ﴾: تعني كلمةَ المُعبود، والمُربي، والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرَ الخير،

والمُحيط، والمُدبّر، والثابت، والقريبَ، والجامعَ، والمُصلحَ، والسيدَ ﴿عَظِيمٌ﴾: شديد الوقع والتأثير؛ أنظر [البقرة-٤٩].

﴿وواعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، ومن جملة ما كرم الله ﷻ به موسى ﵇، أنْ ضرب له موعدًا لمناجاته ومكالمته ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾: واعد الله ﷻ موسى ﵇؛ للدعاء، والتذلل، والشكر؛ فصام ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾: ثم استاك أسنانه بلحاءِ شجرةٍ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد الحال؛ هنا جمعٌ بين الوعد والإتمام ﴿أَتْمَمْنَاهَا﴾: أكملها الله ﷻ ﴿بِعَشْرٍ﴾: فأمرهُ اللهُ ﷻ أنْ يكمل بعشرةِ أيامٍ أخرى؛ لتكون أربعين، وأغلب المفسرين يقولون إنّ الثلاثين يومًا هي ذو القعدة، وأنّ العشرة هي أول ذي الحجّة ﴿فَ﴾: بهذا السبب ﴿تَمَّ﴾: اكتمل ﴿مِيقَاتُ﴾: موعد ﴿رَبِّهِ﴾: مالك أمره كلّه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: وهنا يكون اكتمال الموعد بيوم النحر، الذي هو شريعةُ محمدٍ ﷺ وفيه أكمل الله ﷻ الدين لمحمدٍ ﷺ قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة-٣] ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾: كنْ خليفتي ﴿فِي﴾ ﴿قَوْمِي﴾: في بني إسرائيل أهلي وقبيلتي ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَصْلِحْ﴾: عندما تم الميقات، وأراد موسى ﵇، أنْ يذهب إلى الطور استخلف أخاه هارون، وأوصاه بالرفق وهو معنى الإصلاح ﴿وَلَا﴾: حرف نهي ﴿تَتَّبِعْ﴾: تعتمد ﴿سَبِيلَ﴾: منهج وسلوك ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: لا تعتمد، ولا تُعنِ المفسدين على المعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣)

﴿وَلَمَّا﴾: اسم توكيد ﴿جَاءَ مُوسَى لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿مِيقَاتِنَا﴾: بعد الصوم أربعين ليلة، وهو الموعد المضروب لموسى، ﵇ ﴿وَ﴾: أيضًا بعد أنْ ﴿كَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: وأسمعهُ كلامه من غيرِ واسطةٍ بالكيفية التي يعلمها ﷻ، كان جوهر الكلام هو تلقي موسى، ﵇، الأوامر والنواهي من الله ﷻ؛ بعدها ﴿قَالَ﴾: موسى ﴿رَبِّ﴾: هو المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمر الخلق كلِّه، ﴿أَرِنِي﴾: اجعلني ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾: وطمعًا من موسى في مزيد من التكريم،

أراد النظر إلى وجه الله ﷻ ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَرَانِي﴾: بمعنى أنّه لا يراه أحدٌ في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، وأمّا رؤيته في الآخرة فهذا ثابتٌ بالأحاديثِ المتواترةِ؛ تواترًا لا يخفى على أحدٍ ممن يعرف السُنّة، ولكنّ بعض المعتزلة قالوا إنّها تعني لنْ تراني في الدنيا والآخرة؛ والحقيقة أنّ أحاديث الرسول ﷺ تواترت في رؤية المؤمنين للهِ ﷻ في الدار الآخرة، جاء في المعنى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة-٢٢، ٢٣]، وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ - فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق-٣٩]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ: «افْعَلُوا لاَ تَفُوتَنَّكُمْ»[1]، ﴿وَلَكِنِ﴾: حرفٌ يُفيد الاستدراك ﴿انْظُرْ﴾: ارفع بصرك ﴿إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اسْتَقَرَّ﴾: بقي الجبل في ﴿مَكَانَهُ فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿سَوْفَ﴾: حرفٌ يفيدُ عملٌ في المستقبل ﴿تَرَانِي﴾: جاء في الكتب الأولى أنّ الله ﷻ قال لموسى: يا موسى إنّه لا يراني حيٌ إلّا مات، ولا يابس إلّا تدهده ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع ﴿تَجَلَّى﴾: بدا واضحًا ﴿رَبُّهُ﴾: مالك أمره كلّه ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْجَبَلِ﴾: قال ابن عباس: ما تجلى منه إلّا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾: أصبح الجبل ترابًا، قال النووي ساخ الجبل، أي هبط وزال علوّه؛ حتى وقع في البحر، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف-١٤٣] قَالَ حَمَّادٌ: هَكَذَا، وَأَمْسَكَ سُلَيْمَانُ بِطَرَفِ إِبْهَامِهِ عَلَى أُنْمُلَةِ إِصْبَعِهِ اليُمْنَى قَالَ: فَسَاخَ الجَبَلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف-١٤٣][2]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، عطفًا على ما سبق ﴿خَرَّ﴾: نزل على الأرض سريعًا ﴿مُوسَى صَعِقًا﴾: قال ابن عباس: مغشيًا عليه، وقال قتادة: وقع ميتًا وهذا ضعيف، والله ﷻ أعلم ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿أَفَاقَ﴾: عندما استيقظ موسى، ﵇، من هذه الغيبوبة ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾: تنزيهًا لله ﷻ عن كلّ النواقص عمّا لا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أُعلن توبتي، لن أسألك رؤيتك مرّة أخرى ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وابن جرير: أنا أوّلُ من تاب إليك، وآمن من بني إسرائيل، وقال أبو العالية: أنا أول مؤمن أنّه لنْ يراك أحدٌ من خلقك إلى يوم القيامة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «النَّاسُ

---

[1] صحيح البخاري ١/١١٥(٥٥٤).

[2] سنن الترمذي ٥/٢٦٥(٣٠٧٤). وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[1].

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿مُوسَى إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾: اخترتك وفضّلتك ﴿عَلَى النَّاسِ﴾: من بني آدم، في أهل زمانك ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿رِسَالَاتِي وَ﴾: أيضًا خصصتك بالرسالة ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿كَلَامِي﴾: التكليم بغير واسطة أي أنّ الله ﷻ اصطفى موسى، عليه السلام، في ذلك الزمان، وخصّه بالرسالة، وتكليمه ﷻ له. كان هذا في فترته قبل التفضيل، أمّا تفضيل الأنبياء فمحمد ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، قال أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[2]، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين، وأتباعه أكثر من أتباع سائر المرسلين كلّهم، يأتي بعده في الفضل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الله عليه السلام ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي يحقق الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ، فكان والتتابع السريع ﴿خُذْ﴾: احفظ ﴿مَا﴾: الذي ﴿آتَيْتُكَ﴾: أوحيت إليك من الكلام والمناجاة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: لتكن شاكرًا، على الكلام، والمناجاة، ولا تطلب ما لا تطيق.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿كَتَبْنَا﴾: كلّفه الله ﷻ ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿فِي الْأَلْوَاحِ﴾: ألواح التوراة، كتب الله له ﷻ بالكيفية التي شاء لموسى، عليه السلام ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يُفيد جزءًا أو بعضًا ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت نكرة لتفيد كلّ الأشياء، أي ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم ﴿مَوْعِظَةً﴾: واجبة التنفيذ؛ لم يتعظ بها من بني إسرائيل ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: مفصّلة في أحكام الحلال والحرام واجبة، وسائر الأحكام المحتاجة إلى تفصيل، ﴿فَخُذْهَا﴾: طبقها ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بعزمِ الطاعة على تنفيذها ﴿وَأْمُرْ﴾: اطلب من والزم ﴿قَوْمَكَ﴾: الذين هم من عشيرتك ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾: أنْ يأخذوا بها ولكنْ على موسى أنْ يأخذها بأحسن ما أمر به قومَه كالعفو، والصبر ﴿سَأُورِيكُمْ﴾:

---
[1] صحيح البخاري ٤/ ١٥٣(٣٣٩٨).
[2] صحيح مسلم ٤/١٧٨٢(٢٢٧٨).

أجعلكم تشاهدون في المستقبل، بمعنى تأخذونه ﴿دَارَ﴾: إن كان المقصود في الدنيا فهي مساكن وممتلكات، وإن كان المقصود في الآخرة فهي جهنّم، إنّ الله ﷻ يعلم ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: الفاسق هو الذي يخرج عن تعاليم الله ﷻ، تُسمى الفأرة فويسقة؛ لأنّها تخرج من جحرها، ستشاهدون عاقبة الذين يخرجون عن أوامري من هلاكٍ ودمارٍ، وقال ابن جرير: على وجه التهديد والوعيد للعصاة سترى ما يصير إليه حال الكافرين.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٤٦)

﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَصْرِفُ عَنْ﴾: سوف أمنعهم فَهْمَ ﴿آيَاتِيَ﴾: كتابي. وسأصرفهم عن الإيمان بها. جاء اللفظ القرآني التصريف على خمسة أوجه، هنا بمعنى الرفع والإبعاد في قوله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان–٦٥]، وفي قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف–٢٤]، وبمعنى التنويع والتلوين، وبمعنى التقسيم في قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان–٥٠]، وبمعنى التوجيه في قوله ﷻ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف–٢٩]، وبمعنى التعديل في قوله ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر–٦٩]، يخبر الله ﷻ ما معناه: سأُبعد وأمنع فهم الآيات الدالّة على عظمتي وشريعتي عن ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: المتعالون على النّاس وعلى الطاعة لله ﷻ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: على الناس ﴿بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿غَيْرِ﴾: حرف استثناء ﴿الْحَقِّ﴾: معنى ذلك يوجد استكبار للمؤمنين على الكافرين بالإيمان، وهو حق فمن لم يصبر على ذلّ التعليم ساعةً بقي في ذلّ الجهل أبدًا ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَرَوْا﴾: يشاهدوا، ويدركوا ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾: دليلًا أو برهانًا ﴿لَا يُؤْمِنُوا بها﴾: أي يكفروها بمعنى إنكارها وتغطيتها ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَرَوْا﴾: يُدركوا إدراك المُعاين المُشاهد لكل آيةٍ لا يؤمنوا بها مع كثرتها ووضوح دلالاتها ﴿سَبِيلَ﴾: إذا عرفوا طريق ﴿الرُّشْدِ﴾: النجاة وتعني الرَشَد التي هي عكس السفه والخيبة ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: لا يسلكونه ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾: يشاهدوا ويدركوا ﴿سَبِيلَ﴾: طريق ﴿الْغَيِّ﴾: إذا ظهر لهم طريق الضلال، والكفر، والغواية،

والهلاك ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾: اعتمدوه وسلكوه، ﴿سَبِيلًا﴾: دينًا، وطريقًا ومنهجًا ﴿ذَٰلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: حرف باء الصلة كذّبت قلوبهم وعقولهم بآيات الهدى، والأدلّة والبراهين ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾: عن آيات الله ﷻ ﴿غَافِلِينَ﴾: غفلوا فهم لا يعلمون ما فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال مَنْ ﴿كَذَّبُوا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿آيَاتِنَا﴾: الذين أنكروا صدق ما جاء من عند الله ﷻ، وخاصّة تكذيب ما أرسل الله ﷻ للرسل، وماتوا على ذلك، وهم مُكذبون ﴿وَ﴾: أيضًا كذبوا ﴿لِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة، يوم الحساب، يوم يُعرضون على ربّهم ﴿حَبِطَتْ﴾: انتفخت انتفاخ مرضٍ، وفسدت، وزال، وبطل وضاع أجرُ وثوابُ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام ﴿يُجْزَوْنَ﴾: يجنون عاقبة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ما عملوا، إنّ العدل هو الحساب على العمل، والثواب للمؤمنين والعقاب على العمل، وجزاء الكافرين النّار.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتَّخَذَ﴾: اعتمد واختار ﴿قَوْمُ﴾: أهل وعشيرة ﴿مُوسَى مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿حُلِيِّهِمْ﴾: هذا كان صُنع السامريّ وهو من أشكال ضلال بني إسرائيل بعد أنْ قام السامريّ بجمع ذهب وحليّ الأقباط الذي استعاروه منهم؛ صنع لهم من الذهب ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾: جسدًا كهيئة العجل، تمثالُ عجلٍ من الذهب، لا صوت له، ولا حراك فيه، ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿خُوَارٌ﴾: كخوار العجل؛ وهو صوت مرور الهواء عليه ﴿أَلَمْ﴾: حرف استفهام يفيد الاستنكار ﴿يَرَوْا﴾: يشاهدوا ويدركوا ﴿أَنَّهُ﴾: حرف توهم؛ أي العجل الذهبي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُكَلِّمُهُمْ﴾: إنّ التمثال لا يتكلم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾: لا يدلّهم، ولا يرشدهم ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا صحيحًا ﴿اتَّخَذُوهُ﴾: اعتمدوه واختاروه ﴿وَكَانُوا﴾: صاروا ﴿ظَالِمِينَ﴾: معتدين جائرين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩)

﴿وَلَمَّا﴾: حرفُ توكيد ﴿سُقِطَ﴾: يقال سَقَطَ في يده، وأُسْقِطَ وأصله أنّ مَنْ اشتدّ ندمُهُ وحزنُه، أنْ يعضَّ يدهُ غمًّا؛ فتصير يده مسقطًا فيها؛ دلالةً على شدّةِ الندم؛ انقطعت حيلهم ﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾: عندما أدرك الكفّار الحقيقة بسرعة؛ ندموا أشدّ الندم على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا﴾: وتأكدوا كأنّهم يرون بأعينهم ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد ونفي الإنكار ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿ضَلُّوا﴾: تحقق ضلالهم، وعرفوا أن ما فعلوه ضلال، ومخالفة لشرع الله ﷻ ﴿قَالُوا﴾: هم الكفّار ﴿لَئِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾: إنْ لم يقبل مالك أمرنا كلّه طاعتنا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿نَكُونَنَّ﴾: نصير بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانية من بعض ﴿الْخَاسِرِينَ﴾: والمقصود هنا الضلال؛ أي نكون من الضاليّن؛ لأنّهم رأوا هلاك الضالين من قوم فرعون، وكان آخر عهدهم نجاتهم من البحر، وغرق الضالّين.

التكليف: جاء في تاج العروس: هذا نظمٌ لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب، جاء ذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب، وأثره يحدث بالعض أو بضرب الكف بالأخرى، كما جاء: في سورة [الكهف–٤٢] "**فأصبح يُقلّب كفيّه على ما أنفق فيها وهي غاوية على عروشها**"

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠)

﴿وَلَمَّا﴾: بمعنى حين وهي اسم تدل على وجود شيء في الزمن الماضي ﴿رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾: بعد مناجاة ربّه الأربعين يومًا ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾: والأسف هنا أشدُّ من الغضب؛ حزينًا، هذه من أشدّ الصيغ؛ والتعبير عن أشد الغضب لمّا وجدهم يعبدون العجل الذهب ﴿قَالَ﴾: موسى ؑ ﴿بِئْسَمَا﴾: إشارة لسوء وشر ما فعلتم ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾: فعلتموه من بعد أنْ غبت عنكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الزمان ﴿بَعْدِي﴾: كانوا في أسوأ حالهم بعبادتهم العجل ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿عَجِلْتُمْ﴾: استعجلتم حُكم ﴿أَمْرَ﴾: تعاليم ﴿رَبِّكُمْ﴾: فهو مالك أمركم كلّه، هل استعجلتم عودتي إليكم، وهو أمرٌ ليس بيدي، إنّه قدرٌ مقدور، فعبدتم العجل؟ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾: طرح الألواح التي هي التعاليم التي تلقاها موسى، ؑ، من ربّه، وهو في شدّة الغضب والأسف على قومه ﴿وَأَخَذَ﴾: أمسك ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿رَأْسِ﴾: شعر ﴿أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾: أمسك بشعر رأس ولحية هارون أخيه، ظنًّا أنّه قصّر في نهيهم، وأخذ يجرّه إليه؛ لأنّه

بقي معهم ﴿قَالَ﴾: هارون ﴿ابْنَ أُمَّ﴾: يا ابن أمّي كان هذا رد هارون؛ ليرقّق القلب، ويُخفف الغضب، ويذكّره أنّه شقيقه ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الْقَوْمَ﴾: بني إسرائيل ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾: تكاثروا عليّ، وظنّوا أنّي ضعيف واستذلوني ﴿و﴾: عطفاً على هذا َ﴿كَادُوا﴾: أوشكوا ﴿يَقْتُلُونَنِي﴾: أنْ يقتلوا هارون عندما نهاهم، أي أنّه لم يُقصّر في نهيهم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿تُشْمِتْ بِيَ﴾: لا تجعل أعداءنا يفرحون بخلافنا، ويسرون بمعاقبتك لي ﴿الْأَعْدَاءَ﴾: وبسبب غضبك منّي؛ إنّ غضبك يسرُّ أعداءنا ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي﴾: أيضاً لا تحسبني ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: مع هؤلاء الكافرين الظالمين الذين عبدوا العجل، لا تتركني مع هؤلاء الأعداء تجعلني في عداد القوم الظالمين.

التكليف: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبِرِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُوسَى أَنَّ قَوْمَهُ قَدْ فُتِنُوا فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ فَلَمَّا رَآهُمْ أَلْقَى الأَلْوَاحَ[1].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١)

﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام ﴿رَبِّ﴾: يا مالك أمري كلّه؛ تقرُّبًا وتودُدًا ﴿اغْفِرْ﴾: معناه التفرغ والدعاء، وطلب الرحمة؛ أي سامحني وامحُ ذنوبي وارحمني ﴿لِي﴾: تخصيصًا ﴿وَ﴾: أيضًا اغفر ﴿لِأَخِي﴾: جاء الدعاء بعد أنْ عاين موسى عليه السلام، خبر القوم، وأنّ هارون تعرّض لعصيانهم، وأنّهم استضعفوه، عندها ميّز موسى، عليه السلام، بين أخيه وبينهم؛ فدعا ربّه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾: طلب موسى عليه السلام، أنْ يغفر الله سبحانه وتعالى له، ولأخيه برحمته ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: جاءت بصيغة الأرحم؛ لأنّه حقًّا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿اتَّخَذُوا﴾: عبدوا ﴿الْعِجْلَ﴾: الذهبي، واتخذوه إلهًا، وهم بنو إسرائيل الذين عاينوا غرق فرعون ﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَنَالُهُمْ﴾: يكون نصيبهم فعلًا ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كله ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، أيضًا سينالُهم ﴿ذِلَّةٌ﴾: أعقبهم ذلًّا، وصغارًا في الحياة الدنيا ﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿نَجْزِي﴾: يكون عقاب ﴿الْمُفْتَرِينَ﴾: هذه نهاية كلّ من يفترى على الله، ويصنع بدعة، إلى يوم القيامة.

---

[1] صحيح ابن حبان ٩٧/١٤(٦٢١٤) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣)

نبه الله ﷻ عباده وأرشدهم أنّه يقبل توبة عباده ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا أيضاً جميع الرجال والنساء ﴿عَمِلُوا﴾: ارتكبوا خطايا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: كلّ ما سبّب الشر والضرر ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿تَابُوا﴾: أقلعوا وكفوّا عنها ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد الزمان ﴿بَعْدِهَا﴾: الكلام موجه لمحمدٍ ﷺ عن الذين تابوا وآمنوا برسالة الرسول الخاتم، أي رسالة محمد ﷺ ﴿وَآَمَنُوا﴾: أيضاً آمنوا بالله ﷻ وبرسوله ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: مالك أمرك كلّه، فيها ودٍّ ومحبةٍ بالربط بين الرسول وربّه ﷻ ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾: بعد التوبة الصادقة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أنْ يُذنب الإنسان ثم تتوب؛ فباب الرحمة مفتوح.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤)

﴿وَلَمَّا﴾: اسم توكيد بمعنى حينما ﴿سَكَتَ﴾: هدًا واستكان ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد السبب، سكن غضب ﴿مُوسَى الْغَضَبُ﴾: هدأت نفسه، ﴿أَخَذَ﴾: جمع ﴿الْأَلْوَاحَ﴾: وكان قد ألقاها على الذين عبدوا العجل؛ من شدّة الغضب ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: المكتوب فيها ﴿هُدًى﴾: دليلُ صدقٍ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: قيل إنّه لمّا ألقاها تكسرت، ثم جمعها فوجد فيها تعاليم هدى ورحمة، ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلَّه ﴿يَرْهَبُونَ﴾ يخافون.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اخْتَارَ﴾: انتقى من بين النّاس ﴿مُوسَى قَوْمَهُ﴾: من أهله، وعشيرته، وأتباعه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: أمر الله ﷻ موسى عليه السلام، أنْ يأتيه بسبعين رجلًا من خيار قومه وكأنّهم كلّ قومه فكانت العبرة بالإيمان وليس بالعدد؛ يعتذرون عن عبادة العجل؛ فاختارهم موسى، عليه السلام، على عينه؛ للقاء ربّهم، فلما وصلوا طور سيناء، جاء في المعنى أنّهم قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة-٥٥] فقد كلّمته أنت، ونحن نريدُ أنْ نراه، كانت هذه حالةُ تعبيرٍ عن غلظةِ القلب والعناد ﴿لِ﴾: حرف تخصيص

﴿مِيقَاتِنَا﴾: للموعد الذي حدده الله ﷻ ﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع والسبب ﴿أَخَذَتْهُمُ﴾: أصابتهم؛ فذهبت بهم ﴿الرَّجْفَةُ﴾: جاءتهم بسرعةٍ صاعقةٌ فماتوا، فأخذ موسى، ﵇، يبكي ويدعو الله ﷻ: ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا جئتهم أنا وقد أهلكت أنت سبحانك أخيارهم؟ ﴿قَالَ﴾: موسى ﵇ ﴿رَبِّ﴾: يا مالك أمري كلّه ﴿لَوْ شِئْتَ﴾: أردت ﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾: دمّرتهم وأمتّهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة والزمانيّة ﴿قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾: قال موسى: وأنا معهم لو شئت ربّي أهلكتهم عندما سفهوا، أتهلك من ورائي من بني إسرائيل ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاسترحام، وهي بمعنى الدعاء والطلب ﴿تُهْلِكُنَا بِمَا﴾: بالذي ﴿فَعَلَ﴾: اقترفت حواسهم الجرائم ﴿السُّفَهَاءُ﴾: أصحابُ العقول غير الراشدة ﴿مِنَّا﴾: قال ابن عباس: أخذتهم الرجفة لأنّهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿فِتْنَتُكَ﴾: ابتلاؤك، واختبارك، وامتحانك ﴿تُضِلُّ﴾: تتنكب الطريق وتبتعد عن الصواب ﴿بِهَا﴾: حرف باء السبب ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي﴾: تقودهم إلى الصحيح ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿تَشَاءُ﴾: الأمر أمرك، وإن الحكم إلّا لك، تُضلُّ من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، الملك كلّه لك، ولك الخلق والأمر ﴿أَنْتَ﴾: يا الله ﴿وَلِيُّنَا﴾: ناصرنا، ومؤيدنا، وحبيبنا ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾: هذا فعلُ أمرٍ بمعنى التضرع، والدعاء، وطلب الرحمة؛ أي سامحنا، واسترنا، ولا تؤاخذنا بذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾: كان ربطُ المغفرة بالرحمة يعني عدم إيقاعهم في مثلِهِ في المستقبل ﴿وَأَنْتَ﴾: تحديدًا وتمليكًا ﴿خَيْرُ﴾: أفضل ﴿الْغَافِرِينَ﴾: أنت خير من يمحو الذنب، ويقبل التوب، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ ﷿ ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف-١٥٥] قَالَ: دَعَا مُوسَى فَبَعَثَ اللَّهُ سَبْعِينَ، فَجَعَلَ دُعَاءَهُ حِينَ دَعَاهُ لِمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَاتَّبَعَهُ قَوْلَهُ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف-١٥٥] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف-١٥٦] وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مُحَمَّدًا ﷺ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[1].

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦)

---

[1] المستدرك على الصحيحين ٣٥٢/٢(٣٢٥٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ووافقه الذهبي.

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اكْتُبْ﴾: قدّر بمشيئتك توفيقنا للأعمال الصالحة؛ أو تفضّل علينا بإفاضةِ النعمِ في هذه الدنيا من العافيةِ وسعةِ الرزق ﴿لَنَا﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾: حياتنا على الأرض ﴿حَسَنَةً﴾: فعلًا تقبله وتُثيب عليه ﴿وَ﴾: أيضًا اكتب لنا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: بعد قيام الساعة، كان دعاء موسى، ﷺ، في الآية السابقة لدفع غضب الله ﷻ، وهو ما يحذرونه، وتأتي هذه الآية لتحصّل المقصود، وقد دعا رسول الله ﷺ بهذا الدعاء فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[١]، ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الذين هادوا بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾: قال: ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك: تبنا ورجعنا وأنبنا، وقال علي، ﷺ: إنّما سُمّيت اليهود لأنّهم قالوا إنّا هدنا إليك ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿عَذَابِي﴾ المقصود الرجفة ويندرج تحته كلّ عذاب ﴿أُصِيبُ بِهِ﴾: أجعله في ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿أَشَاءُ﴾: قدّم الله ﷻ عذابه على رحمته في هذا الموقع؛ بسبب غضبه عليهم، والله أعلم ﴿وَرَحْمَتِي﴾: أيضًا عطفي وشفقتي ﴿وَسِعَتْ﴾: شملت وضمّت ﴿كُلَّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: وهي تُفيد العموم أيضًا، آيةٌ شاملةُ العموم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٢]. وتعددت في ذلك أحاديث بالمعنى نفسه ﴿فَ﴾: حرفُ سببٍ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿سَ﴾: حرف توكيد الفعل ﴿أَكْتُبُهَا﴾: أعط ثوابها ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن ﴿يَتَّقُونَ﴾: سأجعلها خصيصًا للمتقين، الذين يؤمنون بالله ﷻ، ويرجون رحمته، وينتهون عن المعاصي؛ خشية عذابه ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: أيضًا ينفقون حق الفقراء في أموالهم، إنّ المعنى عام يشمل زكاة النفوس، وزكاة المال، والله أعلم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، ستشمل رحمتي ﴿الَّذِينَ هُمْ بِ﴾: حرفُ باء التوكيد ﴿آيَاتِنَا﴾: الأدلّة والبراهين على صدق الرسالة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يُصدّقون به ﷻ في السرّ، ويطبقون أوامره ونواهيه.

---

[١] صحيح البخاري ٦/ ٢٨(٤٥٢٢).

[٢] صحيح مسلم /٤/٢١٠٨(٢٧٥٢).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧)

تعزز هذه الآية استجابة الله ﷻ لدعاء موسى ﵇، بعد أنْ أصابت الرجفةُ أصحابه، وكان وعدُه لأمّة محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: يطيعون، ويعملون بأمر الله ﷻ، وأصحابه وليس لبني إسرائيل، كلُّ ما جاء في هذه الآية ينطبق على محمد ﷺ وأمّته ﴿الرَّسُولَ﴾: المرسل من ربّه ﷻ ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾: الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو محمد ﷺ بعثه أميًّا في أمّة أميّة ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المذكر ﴿يَجِدُونَهُ﴾: هم الأمم من غير أهل الكتاب، حتى يعرفوا عنه ﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾: في كتابهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: عَنْ أَبِي صَخْرٍ الْعُقَيْلِيِّ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، قَالَ: جَلَبْتُ جَلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لَأَلْقَيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ يَمْشُونَ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَاةَ يَقْرَؤُهَا، يُعَزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَلَى ابْنٍ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَحْسَنِ الْفِتْيَانِ وَأَجْمَلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ: لَا، فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ، ثُمَّ وَلِيَ كَفَنَهُ وَجَنَنَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ[1]، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [الأحزاب-٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا[2]. ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾: يعلمهم أمور دينهم الواجبة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهو كلّ ما عرّفه الشرع وتعرفهُ القلوب، ولا تنكرهُ النفوس من مكارم الأخلاق، لا يأمرُ إلّا بخير ﴿وَ﴾:

---

[1] صحيح مسلم /٢١٠٨/٤(٢٧٥٢).

[2] صحيح البخاري /٦٦/٣(٢١٢٥).

أيضًا ﴿يَنْهَاهُمْ عَنِ﴾: حرف جر يفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: هو كلُّ ما أنكرهُ الشرع، ولا ينهى إلّا عن شرٍ، هذا المنهج يسمى في اللغة بالمقابلة، وهو الإتيان بمعنيين فأكثر بما يقابلهما بالترتيب. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة-١٠٤] فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ[١]، ﴿وَيُحِلُّ﴾: أيضاً يخبرهُم أنّه حلالٌ مسموحٌ بأكله ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس يحلّ لهم ما حرّمة الكفّار على أنفسهم: مثل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾: كلحم الخنزير والربا، وكل ما هو غير حلال، وغير نافع للإنسان، وكل ما هو حرام ضار للإنسان ﴿وَيَضَعُ﴾: يرفع ﴿عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾: عهدهم بالعمل بما جاء في التوراة، والإصر هو عقد الشيء وحبسه وقهره؛ أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات ﴿وَالْأَغْلَالَ﴾: أيضًا هي التكاليف الشاقّة التي كانوا قد كُلّفوا بها؛ عقوبةً لهم على أعمالهم السيئة، وفي المعنى اللغوي هي القيود، وتعني ما هو ممنوع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ[٢]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ[٣]. ﴿الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفردِ المؤنث ﴿كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: أتى محمد ﷺ لهم من ربّه ﷻ بالتيسير والسماحة، عن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ[٤]، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[٥] ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾: عظّموه، ووقّروه ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿نَصَرُوهُ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، نصروه في مواجهة أعداء الدين ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: جاء لفظ النور في القرآن الكريم على عشرة أوجه؛ هنا بمعنى الحلال والحرام وكذلك في قوله ﷻ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن-٨] هو القرآن والوحي الذي جاءه مُبلّغًا ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد،

---

[١] الزهد ١٣٠(٨٦٦).
[٢] صحيح مسلم ١/١١٦(٢٠١).
[٣] سنن ابن ماجه /١/٦٥٩(٢٠٤٣). صححه الألباني.
[٤] مسند أحمد /٣٦/٦٢٣(٢٢٢٩١). وضعفه شعيب الأرناؤوط.
[٥] صحيح البخاري ٤/٦٥(٣٠٣٨).

الذين ورد في الآية صفاتهم ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون في الدنيا وفي الآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول ﴿يَا أَيُّهَا﴾: أداةُ نداءٍ للتنبيه لما يأتي وبيان الفرق في المكانة بين المُخاطَب والمخاطِب، وهي للقريب والبعيد حرفُ تواصلٍ بين المُنَادِي وهو محمد ﷺ، والمُنَادَى عليه، وهم ﴿النَّاسُ﴾: جاءت للعموم؛ مؤمنهم وكافرهم، تشمل العرب، والعجم، والأبيض، والأسود، والأحمر ﴿إِنِّي﴾: أنا محمد بن عبد الله ﴿رَسُولُ﴾: إنّي مبعوث ﴿اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: إلى النّاس كافّة، من الله ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ هنا يعني الله الواحد الأحد ﴿لَهُ﴾: حرف تمليك ﴿مُلْكُ﴾: هو خالق ومالك ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الكرة الأرضية وأحاط بها؛ لأنّها كرويّة الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا مالك ما ومَنْ في ﴿الْأَرْضِ﴾: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُهُنَّ فَخْرًا: بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِي، فَهِيَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا[1]، ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: الله ﷻ ﴿يُحْيِي﴾: يهب ويكتب الحياة لمن شاء ﴿وَيُمِيتُ﴾: أيضاً يكتب الموت، هذه من صفات الله ﷻ، خالق كلّ شيء؛ ومالكه، هو الذي يكتب الحياة ويكتب الموت لمن يشاء في السموات ومن في الأرض ﴿فَ﴾: حرفٌ لربط جواب الشرط وهو ﴿آمِنُوا بِ﴾: حرفُ باء المصاحبة والصلة ﴿اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: مبعوثه إلى النّاس ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: صدّقوا واستجيبوا لي ولرسولي النبي الأميّ، الذي وعدتكم، وبشرتكم به، في كتبكم التي سبقت ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِ﴾: حرف باء المصاحبة والصلة ﴿اللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾: يؤمن بكلمات الله وهي الوحي، ويطبقها بالعمل والتصديق، والعمل خيرُ شاهدٍ على الإيمان ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اتَّبِعُوهُ﴾: أطيعوا أوامره ونواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد الإشفاق من الله ﷻ ﴿تَهْتَدُونَ﴾: يأمر الله ﷻ النّاس باتباع نبيّه محمد ﷺ أنْ يسلكوا طريقه، ويقتفوا أثره، ويعملوا بسنّته؛ عندها سيهتدون إلى الحق.

---

[1] مسند أحمد ٤/٤٧١(٢٧٤٢). وحسنه الأرناؤوط.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

لمّا قصّ الله ﷻ ما وقع من السامري، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، قصّ علينا ﷻ أن مِنْ قوم موسى عليه السلام، أمّةٌ مخالفةٌ لأولئك، من صفاتهم أنّهم ﴿وَمِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿قَوْمِ﴾: هم جماعةٌ أصحابُ مذهبٍ ﴿مُوسَى﴾: يقول ﷻ أنّ من أبناء إسرائيل، عليه السلام، طائفةٌ يتبعون الحق، يحكمون بالعدل ﴿أُمَّةٌ﴾: والأمّة هنا هي عصبةٌ من الناس من أصلٍ واحدٍ، وفي هذا جاءت الآيات التالية: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران-١١٣]، وجاء أيضًا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران-١٩٩] ﴿يَهْدُونَ﴾: يدعون النّاس إلى الهُدى، إلى الإيمان ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْحَقِّ﴾: بكتب الله ﷻ ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يحكمون بالعدل.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾: قسّمنا قوم موسى عليه السلام، حيث افترق أبناءُ يعقوب عليه السلام إلى ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾: كلّ أمّةٍ من أصلٍ واحدٍ، أبٍ وأمّ، أي أنّ درجة القرابة كانت عالية جدًا بينهم ﴿أَسْبَاطًا﴾: السبط هو القبيلة التي من ذريّةٍ واحدةٍ ﴿أُمَمًا﴾: أعدادًا كبيرة، كلُّ أمّةٍ منهم من أصلٍ واحدٍ ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾: عبر الرسل ﴿إِلَى مُوسَى إِذِ﴾: تحقق طلبهم منه ﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾: طلبوا السقية، يريدون أنْ يشربوا الماء ﴿أَنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اضْرِب بِ﴾: حرف باء السبب ﴿عَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: عندما طلب منه بنو إسرائيل أنْ يستسقي لهم، ففعل ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في العمل ﴿انْبَجَسَتْ﴾: تفجّرت ﴿مِنْهُ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانية، أي من الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: بعدد قبائل بني يعقوب ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿عَلِمَ﴾: تحدد وتخصص ﴿كُلُّ﴾: تفيد الجميع ﴿أُنَاسٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد على العموم، كلّ قبيلةٍ، كلّ أفرادِ السبطِ الواحد ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾: من أين تشرب، من عينٍ مُخصصّةٍ، لا تشرب من غيرها ﴿وَظَلَّلْنَا﴾: والظل هو أعمُّ من الفيء، هو حجبُ ضوء الشمس أو القمر عن الشيء، جاءت هنا بصيغة الجمع لتعظيم الحدث ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جعل الله

ﷻ فوقهم ﴿الْغَمَامَ﴾: سخّر الله ﷻ السحابَ الأبيضَ الخفيف؛ أنْ يُظلّهم حيثما حلّوا ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾: أيضًا أنزلنا بغزارة لأنّها جاءت بصيغة الجمع، من السماء من العلو إلى الدنو ﴿عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾: شرابٌ حلوٌ، مثل العسل ﴿وَالسَّلْوَى﴾: أيضًا رزقناهم بطيرٍ يقال هو السمّان؛ وهو أكبرُ من العصفور، وأصغرُ من الحمام ﴿كُلُوا﴾: حلالٌ لكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية ﴿طَيِّبَاتِ﴾: ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس ﴿مَا﴾: الذي من غير جنس العاقل ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾: أحلّ اللهُ ﷻ لكم من طيبات الطعام والشراب ﴿وَمَا﴾: حرف نفي، أيضاً ينفي أنّهم ﴿ظَلَمُونَا﴾: ما نقصوا من قدرنا شيئًا؛ بسبب كفرهم نِعَمَ الله ﷻ عليهم ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف يفيد الاستدراك ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: بالتأكيد والتخصيص ﴿يَظْلِمُونَ﴾: ظلموا؛ فأوردوا أنفسهم الهلاك بمعاصيهم؛ أنظر [البقرة-٦٠].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلّ على ما مضى ﴿قِيلَ﴾: يوم قال الله ﷻ ﴿لَهُمُ﴾: لبني إسرائيل ﴿اسْكُنُوا﴾: أقيموا بصورةٍ دائمةٍ في ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: بيت المقدس ﴿وَ﴾:عطفاً على هذا ﴿كُلُوا مِنْهَا﴾: من كلِّ ما فيها من خيراتٍ؛ فهي بلادُ خيرٍ ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمان والمكان ﴿شِئْتُمْ﴾: من أيّ مكانٍ وفي أيّ وقتٍ تريدون ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: ادعوا ربّكم: يا رب حطّ عنّا خطايانا، أي نقّنا من ذنوبنا، واغفر لنا ما سبق ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾: قيل أيضًا ادخلوا باب القرية ساجدين لله ﷻ وشاكرين، وقيل إنّ المقصود دخول المسجد، أو المصلى، أو المعبد، والدليل أنهم دخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا حبّة في شعيرة؛ ولهذا أرسل الله ﷻ عليهم العذاب ﴿سُجَّدًا﴾: خاضعين، مُتذللين لله ﷻ؛ فإذا فعلتم ﴿نَغْفِرْ﴾: نسامح، جاءت بصيغة الجمع؛ للدلالة على عظمة الغفران ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾: نتجاوز عن سيئاتكم ﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل في المستقبل ﴿نَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: نعطي الذين آمنوا المزيد من رزق الدنيا، وخير الآخرة.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب، والتتابع السريع ﴿بَدَّلَ﴾: غيّر ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾: اعتدوا على شرع الله ﷻ وهم الكفّار ﴿قَوْلًا غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: طلب الله ﷻ منهم أنْ يستغفروا؛ فقالوا حبّة في

شعيرة، وأمرهم الله ﷻ بالدخول خاشعين؛ فدخلوا يزحفون على قواعدهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: أنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾: عذابًا قيل هو مرض الطاعون ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿السَّمَاءِ﴾: كلّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: ظلموا أنفسهم بمخالفة أمر الله ﷻ؛ فذاقوا العذاب في الدنيا، وأوردوها النّار في الآخرة راجع [البقرة-٥٩].

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣)

﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾: استفسر منهم يا محمد ﷺ ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرّ يُفيد هنا الاتصال، والارتباط، والتعلق، تذكيرًا لهم بما وقع لقدماهم كيف مسّهم اللهُ ﷻ عندما تلاعبوا بدينه، وتحايلوا على أمره ونهيه، علّهم يُخبرونك عن قصة أهل ﴿الْقَرْيَةِ﴾: قيل هي قرية إيلة على شاطئ بحر القلزم، وقال ابن عباس: هي إيلة بين مدين، والطور، وقال أيضًا هي مدين ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ﴾: محاذيةٍ؛ أي لها شاطئ على ﴿الْبَحْرِ﴾: يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ اسأل اليهود الذين عندك عن أصحابهم الذين عاقبهم الله ﷻ؛ نتيجة مخالفة أمره، وحذّرهم من كتمان صفتك الموجودة في كتبهم؛ حتى لا يحلّ بهم ما حلّ بأسلافهم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن وتفيد هنا السبب والعلّة حين كانوا ﴿يَعْدُونَ﴾: يوم كانوا يتجاوزون حدود الله ﷻ في الصيد ﴿فِي﴾: يوم ﴿السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾: تقترب من شاطئهم ﴿حِيتَانُهُمْ﴾: الأسماك الكبيرة ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾: يوم يسبتون تعظيمًا، أي عدم العمل فيه ﴿شُرَّعًا﴾: ابتلاهم الله ﷻ بأنْ جعل السمك يظهر واضحًا في الماء يوم السبت ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يَوْمَ لَا﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، يراعون أمر يوم السبت ﴿يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾: تبتعد الأسماك وتختفي ﴿كَذَلِكَ﴾: هكذا ﴿نَبْلُوهُمْ﴾: نختبرهم بإغراء السمك لهم يوم السبت، واختفائه بعد ذلك؛ هل يسمعون ويطيعون حتى ولو كان ذلك على حساب صيد السمك، أم يخالفون ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: يخرجون عن طاعة الله ﷻ بالاحتيال، إذا أخذوا بالظاهر الذي باطنه حرام، ينصبون شباكهم قبل يوم السبت، ويأخذوها يوم الأحد. **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ»[1].

التكليف: لقد لازمت اليهود هذه الخصلة؛ الحيل، والكذب، والخداع في كلّ وقتٍ ومكانٍ.

---

(١) إبطال الحيل لابن بطة ص٤٧. قال ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود٢/١٤٥: إسناده حسن.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤)

عندما افتضحت حيلة اليهود؛ انقسمت القرية إلى ثلاث فرق: الأولى هي الفرقة التي احتالت على الله ﷻ، واصطادت يوم السبت، والثانية هي فرقة نَهتْ عن الفعل واعتزلتهم، والثالثة فرقة سكتت ولم تمنع الجريمة، ولكنّها قالت للفرقة المنكرة ﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن ﴿قَالَتْ﴾: بغرض النصيحة ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعةٌ من الصالحين من أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المعتدين في السبت؛ حين أيسوا من قبولهم الموعظة ﴿مِنْهُمْ لِمَ﴾: حرف استفهام ﴿تَعِظُونَ﴾: لماذا تُحذّرون وتنصحون ﴿قَوْمًا﴾: من أصلِ الذي احتالوا على الحق ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾: يميتهم في الدنيا ﴿أَوْ﴾: حرف عطفٍ يُفيد التسوية بين متعاطفين ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾: سيعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾: لماذا تنهونهم، ولا فائدة منهم، فسوف يُنزل الله ﷻ العذاب بهم إمّا هلاكًا أو عذابًا شديدًا في الحياة، قالت الفئة المعتزلة ﴿قَالُوا﴾: الناصحون ﴿مَعْذِرَةً﴾: نعظهم حتى نعذر ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾: ونعتذر إلى مالك أمرنا كلّه؛ فنكون قد أمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾: يفيد الترجي والتوقع عند البشر ﴿يَتَّقُونَ﴾: لعلهم يقلعون عن فعلهم، يتوبون، ويخافون الله ﷻ؛ فيتوب عليهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥)

﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع، والسبب ﴿نَسُوا﴾: تجاهلوا، أي لمّا ترك العصاةُ من أهلِ القريةِ ما ذكّرهم به الصالحون، الناهون عن المنكر ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿ذُكِّرُوا بِهِ﴾: هؤلاء الذين تناسوا تعاليم الله ﷻ؛ واصطادوا في السبت، ورفضوا النصيحة ﴿أَنْجَيْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم الحدث ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ﴾: حرفُ جرٍ يفيد المجاوزة ﴿السُّوءِ﴾: وهي الفئة التي نهت عن ارتكاب المعصية، والشر، والضرر، واعتزلتهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَخَذْنَا﴾: أصبنا بعذاب شديد ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: جاء عذابُنا للفرقة التي ارتكبت المعصية ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿عَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: شديدٍ، قويٍ، أليمٍ، وموجعٍ ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: بسبب خروجهم عن طاعة الله ﷻ، ولا تزال هذه الفئات حاضرةً في كلِّ الأديان؛ فليختر الإنسان الفئة الناصحة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦)

﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع، والسبب ﴿عَتَوْا﴾: تجاوزوا الحدود، وأصرّوا على ارتكاب المعصية؛ تمردًا وتكبرًا ﴿عَنْ﴾: حرف جر بمعنى على ﴿مَا﴾: الذي ﴿نُهُوا﴾: حرّم الله ﷻ فعله عليهم ﴿عَنْهُ﴾: رفضوا أنْ يستجيبوا لمن قال لهم لا تعدوا في السبت ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾: أمر الله ﷻ أنْ ﴿كُونُوا﴾: انقلبوا، صيروا ﴿قِرَدَةً﴾: فصيلة القرود القريبة من شكل الإنسان، ولكن بصورة قبيحة ﴿خَاسِئِينَ﴾: مطرودين؛ لأنّهم ذليلون، حقيرون، مهانون؛ كالكلاب؛ وجاء قوله ﷻ: **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** [البقرة-٦٥].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على الماضي ﴿تَأَذَّنَ﴾: أخبر، وقضى، وأعلم، إعلامًا ظاهرًا ﴿رَبُّكَ﴾: هو ﷻ المُعبود، والمُربي، وهو إنشاء الشيء حالًا فحال إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، فهو مالك أمرك كلّه، هذا تكريم للرسول ﷺ بأن الله ﷻ ربّه مالك كلّ أمره ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَبْعَثَنَّ﴾: يرسل بالتأكيد، ويسلّطنّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: بدأت باللام وكأنها قسم، ليرسلن على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: سيصيبهم أمد الدهر، قضية مستمرة، لا تنقطع حتى تقوم الساعة؛ فكان هؤلاء أذلّاء مُستضعفين، مُعذبين بأيدي أهلِ الملل، ويُعطون الجزية صاغرين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَسُومُهُمْ﴾: يُذيقهم ويكلّفهم ﴿سُوءَ﴾: ما فيه شر وضرر ﴿الْعَذَابِ﴾: قال ابن عباس: بدأ موسى، ﵇، أنْ ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل ثلاث عشرةَ سنة؛ فكان أوّل من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى، وإذلالهم إيّاهم، وقد أخذوا منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام فعاشوا تحت قهره، وذمّته، يؤدون الجزية، وقال ابن سعيد، والسدي، وقتادة: يبقى اليهود إلى يوم القيامة تحت قهر محمد ﷺ وأمّته، ثم سيخرجون لنصرة الدجال؛ فيقتلهم المسلمون، و عيسى، ﵇، في آخر الزمان ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿لَ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: يُنزل عقابه سريعًا على العاصين المخالفين أمره ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنَّهُ﴾: هو ﷻ بالتأكيد ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كثير الغفران واسع الرحمة للتائبين والمنيبين، وهذا منهج الإسلام، قرنَ الرحمةَ بالعقوبة؛ حتى لا يحدث يأس؛ ولتبقى النفوس في دائرتي الخوف والرجاء.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾: فرّق الله ﷻ اليهود ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾: طوائفَ وفرقًا، لا يخلو قطرٌ من أقطار الأرض إلّا وفيه طائفةٌ ﴿مِنْهُمُ﴾: حرفٌ يُفيد التمييز، طائفة ﴿الصَّالِحُونَ﴾: قيل هم من ماتوا قبل البعثة المحمدية غير مبدلٍ، ملزمون بتعاليم ربّهم، وقيل الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ﴾: طائفة ﴿دُونَ﴾: من هم أقلُّ من ﴿ذَٰلِكَ﴾: فيهم المؤمن وفيهم العاصي ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾: حرف باء السببية، بالرخاء ﴿وَ﴾: أيضًا اختبرناهم بـ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: جاء لفظ السيئات بمعنى الكفر، والرهبة، والعافية، والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الإشفاق؛ لأنّها جاءت من عند الله ﴿يَرْجِعُونَ﴾: حتى تكون فرصةً لمن يرغب في التوبة والإنابة.

التكليف: يجب ألّا يغفل الإنسان عن قانون الابتلاء بالخير فيشكر وبالبأساء فيصبر.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي يهدف ترتيب الأمر، يفيد التتابع ﴿خَلَفَ﴾: كانوا بدلَ سوءٍ، وتعاقبت عليهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِمْ﴾: الجيل الذي كان فيه الصالح والطالح من بني إسرائيل ﴿خَلْفٌ﴾: ولفظ "الخلفُ" لا يأتي إلّا للتعبير عن الشرّ والسوء، فقد جاء بعدهم جيلٌ لا خير فيهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: ورثوا دراسة التوراة من اليهود، قال قتادة: هم النصارى، وقد يكون المقصود أعمّ من ذلك ﴿يَأْخُذُونَ﴾: يعتمدون، ويرغبون في ﴿عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾: يشترون الحياة الدنيا ما عُرض عليهم من حُطام الحياة الدنيا بدلًا من نشر الحق ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿يَقُولُونَ سَ﴾: حرفٌ يُفيد التحقق في المستقبل ﴿يُغْفَرُ لَنَا﴾: تتم مسامحتنا: يسوّفون، ويضحكون على أنفسهم، ويقولون لأنفسهم إننّا سنتوب، وإذا ما لاح لهم مثلُ الذين قبلهم؛ وقعوا فيه، يأخذون الحلال والحرام، ويقولون سيغفر الله لنا ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَأْتِهِمْ﴾: يصل إليهم، أو ينالوا ﴿عَرَضٌ﴾: من متاع الحياة الدنيا ﴿مِثْلُهُ﴾: مثل ما سبق لأجدادهم ﴿يَأْخُذُوهُ﴾: قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستفتون قاضيًا إلّا ارتشى في حكمه، وإذا خلفه قاضٍ آخرٍ ارتشى هو أيضًا ﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ للتقريع والتوبيخ ﴿يُؤْخَذْ﴾: ألم يأمرهم الله ﷻ وأخذ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: عهدًا ﴿مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾: في

التوراة ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿يَقُولُوا﴾: يفتروا، ويتقوّلوا كذبًا ﴿عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ بمعني غير ﴿الْحَقَّ﴾: الصدق والعدل ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿دَرَسُوا﴾: تعلّموا ﴿مَا﴾: الذي ﴿فِيهِ و﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿الدَّارُ الْآَخِرَةُ﴾: هي النشأةُ الثانيةُ في مقابل النشأة الأولى، وهي الجنّة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع ﴿يَتَّقُونَ﴾: يرجون رحمة الله ﷻ، ويخشون عذابه ﴿أَفَلَا﴾: حرفُ استفهامٍ؛ بغرض الاستنكار والتوبيخ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: تدركون الحقيقة، يقول ﷻ إنّ الجنّة خير للذين يعبدون الله ﷻ صدقًا.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

﴿وَ﴾: حرف يجمع بين متعاطفين، هنا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يُمَسِّكُونَ﴾: يتمسكون، ويلتزمون ﴿بِالْكِتَابِ﴾: حرف باء الظرفية، منهم طائفةٌ يتمسكون بكتابهم وهو التوراة؛ ويعملون بما فيها، ويرجعون إليه في أمر دينهم، وهذا هو الأرجح؛ لأنها تتناسب مع ما قبلها وما بعدها؛ فالسياق يتكلم عن بني إسرائيل. وقد يكون المقصود هو القرآن الكريم، في مقابل اليهود والنصارى، يأتي أولئك الذين يتمسكون بالقرآن؛ يقودهم محمد ﷺ، الذين يعتصمون بالكتاب، ويتّبعون أوامره، ويتركون نواهيه، والله ﷻ أعلم ﴿وَ﴾: أيضًا الذين ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: يؤدونها على وجهها في أوقاتها ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من الله ﷻ بصيغة الجمع؛ للتعظيم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿نُضِيعُ﴾: لا نحرمُ ﴿أَجْرَ﴾: ثوابَ وجزاء ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾: تربط هذه الآية الكريمة أهلَ الصلاةِ بالمصلحين، الذين يعدهم الله ﷻ أنْ أجرهم لا يضيع، وثوابهم لا ينقص.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يفيد ما كان في الماضي ﴿نَتَقْنَا﴾: اقتلعنا، رفعناه من جذوره؛ جاء في المعنى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء-١٥٤] رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَصْحَابَ الْعِجْلِ قَالُوا: كلامًا بلغتهم وَهِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ قَوِيَّةٌ، فِيهَا شَعْرَةٌ سَوْدَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة-٥٩] فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَسْجُدُوا قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْجَبَلَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ قَدْ غَشِيَهُمْ، فَسَقَطُوا سُجَّدًا عَلَى شِقٍّ، وَنَظَرُوا بِالشِّقِّ الْآخَرِ فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ، فَقَالُوا: مَا سَجْدَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ

تَعَالَى مِنْ سَجْدَةٍ كَشَفَ بِهَا الْعَذَابَ عَنْكُمْ، فَهُمْ يَسْجُدُونَ لِذَلِكَ عَلَى شِقٍّ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** [الأعراف-١٧١][1].

وفي سبب الرفع قيل: بعد عودة موسى عليه السلام، من لقاء ربّه ﷻ، وهو يسير إلى الأرض المقدسة، وقد أخذ الألواح، وسكت عنه الغضب، أمرهم بالوظائف، فاعتقدوا أنّها ثقيلة، ورفضوا قبولها، قال لهم موسى هذا كتابٌ تقبلونه بما فيه من حلالٍ لكم وحرامٍ عليكم، طلبوا منه أنْ ينشر عليهم ما فيه، واشترطوا إنْ كانت الفرائض يسيرة قبلوها، قال موسى عليه السلام اقبلوها بما فيها، قالوا: لا حتى نعلم حدودها **﴿الْجَبَلَ﴾**: جبل الطور في سيناء **﴿فَوْقَهُمْ﴾**: أصبح فوقهم وأعلى من رؤوسهم **﴿كَأَنَّهُ﴾**: حرف يفيد التقريب للفكرة **﴿ظُلَّةٌ﴾**: كأنهُ سحابة تُظلّهم؛ أوحى اللهُ ﷻ إلى الجبل؛ فانقلع من الأرض، وارتفع في السماء؛ حتى صار فوق رؤوسهم، قال لهم موسى عليه السلام: ألا ترون ما يقول ربّي ﷻ **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا **﴿ظَنُّوا﴾**: تأكدوا **﴿أَنَّهُ﴾**: أنّ الجبل **﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾**: سيسقطُ عليهم؛ فخرّوا، كل واحدٍ منهم على حاجبه الأيسر، ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فوقه، ولا نجد اليوم يهوديًا يسجد إلّا على حاجبه الأيسر **﴿خُذُوا﴾**: هذا أمرٌ ربّانيّ باتباع **﴿مَا﴾**: الذي **﴿آتَيْنَاكُمْ﴾**: أرسلناه إليكم من تعاليم **﴿بِقُوَّةٍ﴾**: حرف باء التوكيد، بالتزامٍ قويٍ **﴿وَاذْكُرُوا﴾**: عطفًا على الأخذ بقوة لا تنسوا **﴿مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ﴾**: تفيد التوقع والترجي من البشر **﴿تَتَّقُونَ﴾**: قيل لهم خذوا والتزموا بالتطبيق بجد ونيّة صادقة، وتذكروا دائمًا ما فيه من أوامر؛ وطبقوها، فسجدوا وقالوا هذه السجدة هي التي رفعت العقوبة، عندما ألقى موسى الألواح لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلّا اهتز، ولا يوجد يهودي اليوم صغير أو كبير على وجه الأرض قُرئت عليه التوراة؛ إلّا اهتز، ونغض لها رأسه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف-١٧٢] فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ:

---

[1] المستدرك على الصحيحين ٣٥٢/٢(٣٢٥٢) وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ووافقه الذهبي.

خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[1].

﴿وَإِذْ﴾: حرف يفيد ما كان في الماضي ﴿أَخَذَ﴾: قطع عليهم عهدًا ﴿رَبُّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿مِنْ بَنِي﴾: هنا تم تحديد بداية الغاية المكانيّة وهي أصل الجماعة، أبناء وأحفاد ﴿آدَمَ﴾: هو أبو البشر، الذي خلقه الله ﷻ من أديم الأرض ﷺ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿ظُهُورِهِمْ﴾: من الخصيتين والمبيضين المتكونة كلّها في كلّ جانبٍ بين العمود الفقري الصلب وبين الضلوع الترائب ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: هنا توجد حقيقةٌ علميةٌ؛ أنّ المولود الذكر والأنثى يتكون من حيوان منوي من الخصية في الذكر، ومن بويضة من مبيض الأنثى، والجهازان يتكونان في منطقة ما بين الصلب؛ وهو العمود الفقري، والترائب؛ وهي الضلوع، ثم تنزل هذه الأعضاء أثناء نمو الجنين، حتى تبلغ مكانها قبل الولادة؛ أي أنّ بني آدم، الذكور والإناث، تخلقتا من منطقةٍ في ظهر الإنسان، ولقد جاء اللفظ من ظهورهم وليس من ظهر آدم؛ لأنّه جاء من غير أمّ وأب ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾: جعلهم شهداء ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: أقام عليهم الحُجّة من أقوالهم، أشهد كلَّ واحدٍ على نفسه ﴿أَلَسْتُ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض التأكيد والإقرار ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: مالك أمركم كلّه طلب منهم الله ﷻ أن يشهدوا أنّ لا إله إلّا هو ﴿قَالُوا بَلَى﴾: نعم وهو حرف جواب وتصديق ﴿شَهِدْنَا﴾: قالوا جميعًا من الخوف نعم أنت ربُّنا، وعندما يُولد الإنسان يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه، أو ينصرانه، والفطرة هي الإسلام، والميثاق أن يعبدوه ﷻ، وألّا يشركوا به شيئًا، إنّ أهل الجنّة مُسيّرون لها وأهل النّار مسيرون لها، وقد تكفّل الله ﷻ لهم بالأرزاق ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿تَقُولُوا﴾: حتى لا تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ليس لنا علم بهذا التوحيد ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت هنا من بني آدم؛ للتعظيم ﴿كُنَّا﴾: في الحياة الدنيا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد السبب ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب، أنْ تُنكروا التزامكم بشهادة التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾: ساهين، لا علم لنا بها، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا**

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٥٤/٢(٣٢٥٦) وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ووافقه الذهبي.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف-١٧][1].

التكليف: إنّ الأخذ والإشهاد من الله ﷻ لآدم، ﵇، قد حدث في جبل عرفات؛ وهذا يتجدد كلّ عامٍ في موسم الحج، فهم بذلك يحيون سُنّة أبيهم يوم أعطى ميثاقه لله ﷻ.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣)

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾: أنْ تساووا في القول، أنْ تحتجوا بالقول **﴿إِنَّمَا﴾**: حرفُ تحديدٍ وحصرٍ **﴿أَشْرَكَ﴾**: جعلوا مع الله آلهة **﴿آبَاؤُنَا﴾**: وأجدادنا **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة **﴿قَبْلُ وَ﴾**: عطفًا على ما سبق **﴿كُنَّا﴾**: أصبحنا **﴿ذُرِّيَّةً﴾**: سلالةً من البشر **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾**: بعد موت الأجداد، يحتج المجرمون بأنّهم يسيرون على نهج آبائهم؛ حيث وجدوا آباءهم مشركين؛ فأشركوا، والآية السابقة تؤكد على المعاني التالية: **الأولى:** كلّ مخلوقٍ يُولد على الفطرة، وهي الإقرار بخلق الله ﷻ له **والثانية:** أرسل الله الرسل والأنبياء، وترك للإنسان أنْ يختار **﴿أَ﴾**: حرف استفهام بغرض الاسترحام **﴿فَ﴾**: حرفُ جواب الشرط بهدف الترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل **﴿تُهْلِكُنَا﴾**: هل تؤاخذنا فتميتُنا وتبددنا **﴿بِمَا﴾**: اسم موصول هنا بمعنى الذي **﴿فَعَلَ﴾**: بسبب ما اقترف من ذنوب **﴿الْمُبْطِلُونَ﴾**: هم آباؤنا الذين أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك.

التكليف: الآية تُحذّر من أنْ يقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد فاقتدينا بهم بعدهم، ونحن لا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، وبسبب اقتفائنا آثار أسلافنا.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل، وأيضًا؛ كما فُصّلت الآيات في مصيرِ الأممِ السابقة وبخاصّة بني إسرائيل **﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾**: نوضحها بتفاصيلها **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا **﴿لَعَلَّهُمْ﴾**: حرفٌ يفيدُ الإشفاق من الله ﷻ **﴿يَرْجِعُونَ﴾**: يعودون إلى الإيمان، ويكفّوا عن التعذّر بما جاء في الآيتين السابقتين: الأولى: لم نكن نعرف، وكنا عن التوحيد غافلين؛ لأنّ الله ﷻ فطركم على الإيمان، وأرسل فيكم رسلًا، والثانية: بسبب مولدنا من آباءَ غير مسلمين؛ علمًا أنّ الفطرة هي الإسلام.

[1] مسند أحمد ٢٦٧/٤(٢٤٥٥) قال الأرناؤوط: رجاله رجال الثقات غير كلثوم بن جبر من رجال مسلم. وقد اختلف في وقف الحديث أو رفعه وممن صححه مرفوعًا الحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتْلُ﴾: قُصّ واذكر وأقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: أخبرهم يا محمد ﴿نَبَأَ﴾: قصةَ وخبرَ وأمرًا آخرَ وقع لبعض أسلافهم؛ رجلٌ من بني إسرائيل، ترك أمر الله ﷻ لهوى ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول بالفرد المذكر، وفيه أقوال أشهرها: كان اسمه بلعم بن باعوراء كان في زمن بني إسرائيل، وكان يعلم اسم الله الأكبر، وكان مُجاب الدعاء، فلما جاء يوشع بن نون جاء أبناءُ بلعم يُحذّرون من موسى، وقوّته، وأنّه يمكن أنْ يُهلكهم؛ فطلبوا من بلعم أنْ يدعو ربّه؛ ليرد عنهم موسى، ﵇، قال لهم إنْ فعلتُ ذهبت دنياي وآخرتي، ولكنّهم ضغطوا عليه؛ فاستجاب لهم، ودعا على يوشع ومن معه ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾: علّمناه الحق وفهمناه إيّاها ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿انْسَلَخَ﴾: وانخلع عنها بالكليّة، كما ينسلخ جلد الشاةُ عن جسدها؛ فخرج بعنفٍ وشدّةٍ ﴿مِنْهَا﴾: حرفٌ يفيدُ التمايز، خرج منها بكفره، فلم يعمل بها، بل دعا على المؤمنين، وترك الآيات كأنّه انخلع منها ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: لحقه فأدركه واستحوذ عليه؛ فصار له قرينًا، أي صار قائدًا للشيطان، والشيطان خلفه، أو استحوذ عليه ﴿الشَّيْطَانُ﴾: بالكليّة، كان إذا أمرهُ الشيطان أطاع ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب والتتابع العملي بدون تأخير ﴿كَانَ﴾: صار ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع ﴿الْغَاوِينَ﴾: الضاليّن الهالكين، الحائرين.

التكليف: إنّ نمط هذا الذي انسلخ من آيات الله ﷻ، كثير من شيوخٍ انحرفوا وضلّوا بعد أنْ جاءهم الهدى؛ فحرّضوا الزعماء الفاسقين على قتل المسلمين، ورمي المؤمنين بما ليس فيهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦)

﴿وَلَوْ﴾: حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ يفيد الاستحالة ﴿شِئْنَا﴾: لو أردنا، لو أراد الله ﷻ ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿رَفَعْنَاهُ﴾: نذكر أنّ الرجل المقصود هو "بلعم" لوفّقناه ﴿بِهَا﴾: للعمل بها، وأبعدناه عن ذنوب الدنيا، والرافعة هي آيات الله ﷻ، التي أنزلها؛ ترفع الإنسان في الدنيا والآخرة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَكِنَّهُ﴾: حرف استدراكٍ ﴿أَخْلَدَ﴾: مالت نفسه ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾: إلى زينة الحياة الدنيا، وملذّاتها، ونعيمها ﴿وَاتَّبَعَ﴾: عطفاً على ميل نفسه انقاد، وخضع ﴿هَوَاهُ﴾: رغبات نفسه ولم يتبع شرع الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرف استئناف ﴿مَثَلُهُ﴾: يشبهُ

حالهُ ﴿كَ﴾: مثل حال ﴿مَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾: بمعنى أن تضربه، وتطرده؛ فيجري ويخرج لسانه؛ فيلهث من شدّةِ التعب، أو أنْ تستخدمهُ في حملِ أمتعةٍ مثل جرّ عرباتِ التزلجِ، أو جرّ عرباتٍ صغيرةٍ للنقل، وهذه تحتاج إلى مجهودٍ بدنيٍّ يفرز العرق، ويزيد من عدد مرات التنفس ﴿يَلْهَثْ أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿تَتْرُكْهُ﴾: واقفًا أو جالسًا ﴿يَلْهَثْ﴾: ولأنّه لا يعرق؛ فاللعاب المتبخرة من لعابه يُخفف من درجة حرارة، في هذه الآية: اندلع لسان بلعم على صدره؛ فصار كالكلب، وقيل بسبب عصيانهِ ومعصيتهِ، ولم ينتفعْ بالموعظة. من المعلوم أنّه لا توجد غددُ عرقٍ في جسد الكلب؛ فيحاول تخفيف درجة الحرارة، من خلال تبخير اللُعاب الذي على لسانه ﴿ذَلِكَ﴾: اسم اشارة للمفرد البعيد ﴿مَثَلُ﴾: حال وشبه ﴿الْقَوْمِ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أنكروا الأدلّة والبراهين التي جاء بها الرسل لتؤكد صدق دعوتهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب يأتي فعل الأمر ﴿اقْصُصِ﴾: اذكر لهم ﴿الْقَصَصَ﴾: الروايات، كيف أساء بلعم استخدام معرفة اسم الله الأعظم؛ ﷻ، الذي إذا سُئل به أجاب ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد الترجي إنْ كان من البشر، ويفيد الإشفاق إنْ جاءت من الله ﷻ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: يتعظون فيتجنبوا أنْ يكونوا مثله.

التكليف: إنّ أثر فتنة العلماء مُدمّر، لا يزال اليهود على عهدهم، لا اعتبار لشرف العرض عندهم؛ فهم يُقدّمون نساءهم للدعارة من أجل غايات دنيوية.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

﴿سَاءَ﴾: من الشرِّ والضرر ﴿مَثَلًا﴾: تشبيههم بالكلاب التي لا همّة لها، إلّا تحصيل أكلةٍ أو شهوةٍ، فمن خرج عن حدود العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه؛ ساء ذكر أو اتباعًا مثلُ ﴿الْقَوْمُ﴾ الذين يُشبهون الكلاب في أعمالهم، الكلاب التي لا همَّ لها إلّا الحصول على أكلةٍ، أو قضاء شهوةٍ، بئس المثل هذا وسوء المصير. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ[1]، ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا صدق الرسالة ﴿بِآيَاتِنَا﴾: حرف باء السبب، الكفّار الذين غطّوا أو حرّفوا الأدلّة والبراهين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، يجمع هنا بين متعاطفين، الأول: التكذيب والثاني: ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: جوهرهم، طبيعتهم ﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: ما ظلمهم الله ﷻ، ولكن ظلموا أنفسهم بالركون إلى الدنيا الفانية.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

---

[1] صحيح البخاري /٣/١٥٨(٢٥٨٩).

﴿مَنْ﴾: الذي، وهو للعاقل ﴿يَهْدِ﴾: الهداية هي إبانة الطريق الموصل إلى السعادة والفلاح؛ يدلّهُ ويُرشدهُ ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ ويسهّل له ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا ربط للجواب ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الْمُهْتَدِي﴾: الذي عرف السبيل حقًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ[1]، ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿يُضْلِلْ﴾: من يحرفهُ ويبعدهُ اللهُ ﷻ عن الإيمان ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد جواب الشرط ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للجمع القريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتخصيص والتأكيد ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: أصحاب الخسارة الكبرى، لأنفسهم، وأهلهم يوم القيامة.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿ذَرَأْنَا﴾: زدنا، وخلقنا، وأوجدنا، وهيأنا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿جَهَنَّمَ﴾: لها بعمل أهلها يعلمون: ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ عندما خلق الله ﷻ كثيرًا من الإنس وكثيرًا من الجن وهو يعلم ما سيعملون قبل خلقهم، فكتب ذلك عنده في كتابٍ قبل أنْ يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، هنا نسوق معنى حديث: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ[2]، ﴿لَهُمْ﴾:

---

[1] صحيح مسلم /٢/٥٩٣(٨٦٨).

[2] صحيح مسلم /٤/٢٠٥٠(٢٦٦٢).

تخصيصًا وتمليكًا ﴿قُلُوبٌ﴾: لا شك أنّ القلب هو مركز الإدراك الحقيقي في الإنسان، وإنّ تعطيل الإدراك في القلب هو حالة مرضية؛ إمّا عضوية، أو نفسية، وأنّ كلّ وسائل الإدراك المختلفة في الجسم على تواصلٍ عضويٍ ووظيفي تام مع وظائف القلب: إنّ القلب يعمل كمضخة؛ فالجانب الأيمن منه، الأذين والبطين يضُخّان الدم القادم من الجسم إلى الرئتين؛ لتنقيته من الغازات الذائبة، والجانب الأيسر من القلب يضخ الدم إلى جميع أجزاء الجسم، بما يحمل من غذاءٍ وأكسجينَ ذائبٍ فيه، ومن المعلوم أنّ معدل النبض في الإنسان العادي وقت الراحة حوالي (٧٢) نبضة في الدقيقة، ويعلم الأطباء أنّ المُحرك للانقباض هو جزءٌ في عضلة القلب، ومن المعلوم أيضًا أنّ القلب يتلقى مؤشرات من الجهاز العصبي الذاتي؛ فيسرع أو يبطئ عدد الضربات، ومن المعلوم أنَّ الوصلات العصبية في القلب كهربائية، تنقل الإشارات من عضلةٍ لأخرى في الاتجاهين، وعن علاقة المخ بالقلب: فإنّ كلّ ما تدركهُ الحواسُ يتحوّلُ إلى إشاراتٍ عصبيةٍ، سمعيةٍ، وبصريّةٍ، وحسيّة؛ تصلُ إلى المخ؛ أي أنّ هناك دائرة حوارٍ بين القلب والمخ، في دورةٍ كاملةٍ متكاملةٍ تربط وسائل الحواس في المخ بالقلب، ومنه إلى أعضاء الجسم التي تُنفّذ؛ وإنّ شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله تفتح القلوب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: ومن القرآن الكريم نعلم حقيقة مهمة، وهي أن القلب السليم يستقبل الحواس، ويدرك المعاني إدراكًا صادقًا، وأنّ القلوب المريضة لا تدرك ما ترسله الحواس السليمة، وإنْ كانت الحواس شرط الإدراك إلّا أنّ هناك من البشر من يملك أدوات الإحساس؛ ولكنّه لا يدرك المعنى؛ وكأنّ القلوب لا تعمل؛ فلا يدركون، ولا يفهمون، ولا يعون وبذلك لا ينتفعون بهذه الجوارح التي خلقها الله ﷻ سببًا للهداية ﴿وَلَهُمْ﴾: أيضا يمتلكون تخصيصًا ﴿أَعْيُنٌ لَا﴾: نفي أنّهم بها ﴿يُبْصِرُونَ﴾: يرون، يشاهدون ويدركون ﴿بِهَا﴾: بهذه الأعين ﴿وَلَهُمْ﴾: أيضاً وتخصيصًا لهم ﴿آذَانٌ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: والآذان والعيون، وهي من وسائل الإدراك والوعي، كأنّها معطلة ﴿أُولَئِكَ﴾: المتصفون بهذه الأوصاف السابقة، وقد تكررت في هذه الآية للتأكيد على مكانتهم السيئة؛ وقبح ما كانوا يعملون ﴿كَ﴾: حالهم مثل حال ﴿الْأَنْعَامِ﴾: في نفي انتفاعهم بهذه المشاعر، مثل الدواب السارحة، التي تأكل وتشرب؛ حتى تستمر حياتها، جاء في المعنى: **﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾** [البقرة-١٧١] كالأنعام إذا ناداها صاحبها تسمع، ولكنّها لا تفهم ماذا يقول ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿أَضَلُّ﴾: أكثرُ تيهًا من الدواب؛ لأنّ الدواب تستجيب

لصاحبها إذا دعاها للأكل والشرب، وإنْ لم تفهم كلامه ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين جاء ذكرهم سابقًا تأكيدًا وتحديدًا ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: هم في غفلة، وحالة الغفلة صفة ملازمة للدواب، إنّها تنتبه إذا جاء الخطر فقط.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: تمّ تقديم لفظ الجلالة "وَلِلَّهِ" للتخصيص، والمعنى أنّ الأسماء الحُسنى هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وهي هنا خاصةً باللهِ ﷻ وحده، دون سواه، لقد جمع أحدُ أئمّةِ المالكية من الكتاب والسُنّة من أسماء الله ﷻ ألف اسم. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]، ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿ادْعُوهُ بِهَا﴾: توسلوا إليه ﷻ بالدعاء بها، عَنْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا[2]، أي إلّا أذهب الله همّه، وغمه وأبدله مكانهما فرجا ﴿وَذَرُوا﴾: بعد جمع الأسماء الحسنى؛ أمر الله ﷻ بترك والابتعاد عن ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾: يميلون وينحرفون عن الحق ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾: فيجعلونها لغير الله ﷻ، أو ينفونها، أو يحرفون معناها، قال مجاهد: مثل الذين دعوا اللات في أسماء الله، واشتقوا العُزّى من العزيز، وقال ابن عباس: الإلحاد هو التكذيب، وأصله في لغة العرب العدول عن القصد، والميل، والجور، والانحراف، ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه تجاه القبلة، لا يتوقعون ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد التحقق في المستقبل ﴿يُجْزَوْنَ﴾: ينالون جزاءهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: ما يقولون وما يفعلون.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ١٩٨) ٢٧٣٦

[2] مسند أحمد /٤/٢١٥(٤٣١٨). صححه الألباني وأحمد شاكر.

﴿وَمِمَّنْ﴾: من الذين من جنس العاقل ﴿خَلَقْنَا﴾: أوجدنا من غير سابق وجودٍ لهم، من بعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعةٌ أصحابُ عقيدةٍ واحدةٍ، قائمةٌ تقول بالحق، وتعمل به، من بين الأمم ﴿يَهْدُونَ﴾: اهتدوا في أنفسهم ﴿بِالْحَقِّ﴾: حرف باء السببية، يقولون ويعملون بالحق ﴿وَبِهِ﴾: بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يقضون بالحق: هذه أُمّة محمد ﷺ الذي قال: هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم قبلكم مثلها، فقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف-١٥٩] إنّها فرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، كما ورد في الأحاديث الصحيحة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الأدلّة والبراهين الصحيحة على صدق الرسالة، وهم الكفّار الذين كذبوا بآيات الله ﷻ ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل ﴿نَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: سوف نقربهم ونفتح لهم باب الرزق، ووسائل العيش في الدنيا نستميلهم وهم هابطون إلى هوّةِ العذاب درجةً بعد درجة حتى ينتهي بهم الأمر للعذاب؛ فيهلكوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿حَيْثُ﴾: تدُلُّ على الزمان والمكان ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون الزمان فيأتيهم بغتةً على غفلةٍ منهم.

التكليف: إن الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلةً بعد منزلةٍ، وذلك بإدرار النعم عليهم، ونسائهم شكرها؛ فينهمكون في الغواية؛ ويتنكبون طرق الهداية.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣)

﴿وَ﴾: أيضًا، حرف يجمع بين الاستدراج في الآية السابقة وبين ﴿أُمْلِي﴾: أُمهلهم وأزيدُ وأُطيل المدّةِ؛ وأؤخر عنهم العقوبة ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ما هم فيه، من قوّةٍ، ومالٍ، وأولادٍ مع تأخير العقوبة حتى يركنوا، ويعتقدوا أنّهم نجوا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿كَيْدِي﴾: عذابي وتنكيلي وأخذي لهم ﴿مَتِينٌ﴾: قويٌ شديدٌ، إنّ تأخير العقوبة لا يعني زوالها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤)

أسباب النزول: عَنْ قَتَادَةَ، وقَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الصَّفَا، فَدَعَا قُرَيْشًا، فَجَعَلَ يُفَخِّذُهُمْ فَخْذًا فَخْذًا: يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي فُلَانٍ، فَحَذَّرَهُمْ بَأْسَ اللَّهِ، وَوَقَائِعَ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَّاحِ، أَوْ حَتَّى أَصْبَحَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]. ﴿أَوَلَمْ﴾: اسمٌ استكار واستفهامٍ مركبٍ بمعنى الأمر؛ أي تفكروا، ويحمل معنى الإنكار والتقريع ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾: هل استخدم هؤلاء المكذبون بآيات الله عقولهم؛ ليدبروا؛ ويتفكروا؛ في شأن رسول الله ﷺ وفيما جاء به؛ ليعلموا أنّ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿صَاحِبِهِمْ﴾: إنّ محمدًا ﷺ بينكم تعرفونه ليس ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾: جنونٍ، ألم يُدركوا أنّه يعي ويعقل وليس بمجنون، وجاء في المعنى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير-٢٢] ﴿إِنْ﴾: ما ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو محمد ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿نَذِيرٌ﴾: مُحذّر، ومُبلّغ، ومُنذر، ﴿مُبِينٌ﴾: واضحٌ وصريحٌ وصادقٌ يحذر من بأس الله ﷻ، وغضبه، ومن يوم القيامة.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)

﴿أَوَلَمْ﴾: اسمٌ مركبٌ يفيد الاستفهام، ومعناه الإنكار والتقريع والتوبيخ، والقصد التعجب من إعراضهم عن النظر في ملكوت السموات والأرض ﴿يَنْظُرُوا﴾: لقد نظروا، وتأملوا، وتفكروا، هؤلاء الكفّار ﴿فِي مَلَكُوتِ﴾: ملك الله وسلطانه العظيم في ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها كرويّة الشكل ﴿وَالْأَرْضِ﴾: في السماوات وأيضًا في الأرض وما خلق فيهم من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ، وكواكبَ، وأقمارٍ، والشمسِ، ويعتبروا؛ فيؤمنوا؛ ويصدّقوا ﴿وَمَا خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق وجود ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: بعض أو جزء، تفيد كلّ ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد عموم الأشياء ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿عَسَى﴾: فعلٌ ماضٍ جامدٍ يفيد هنا الإشفاق لأنه جاء في الامر المكروه، وهو انتهاء الأجل، وهي تدلُّ على التحقق والوجوب ﴿أَنْ يَكُونَ قَدِ﴾: تحقق في الماضي ﴿اقْتَرَبَ﴾: دنا ﴿أَجَلُهُمْ﴾: ألم يروا كيف تنتهي آجال الأفراد، وتنتهي آجال الأمم ومنها الكافرة، سيأتيهم أجلُهم لا محالة، فليتوبوا قبل فوات الأوان ﴿فَبِأَيِّ﴾: حرف استفهام واستنكار ﴿حَدِيثٍ﴾: كلامٍ أو جدال ﴿بَعْدَهُ﴾: بعد كلام الله ﷻ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: بعد هذا التوضيح، وهذا التخويف الصادق الصادر من محمدٍ ﷺ؛ فأيّ حديث بعده يصدقون.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

[1] تفسير الطبري /٦٠٢/١٠(١٥٥٣٢). إسناده ضعيف مرسل.

بعد التساؤل في الآية السابقة يُحقق الله ﷻ قضية ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل من بني آدم ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: من تاه وضلّ عن طريق الحق؛ ولم يرشده الله ﷻ إلى الهداية والرشاد، ولم يهده إلى الصراط المستقيم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿هَادِيَ﴾: مرشد أو مساعد ﴿لَهُ﴾: تحديدًا وتخصيصًا، لا يستطيع أيّ مخلوق أنْ يهديه، ولن تُنفعه أي كلمات، أو موعظة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ عطفًا على هذا فإنّ الله ﷻ ﴿يَذَرُهُمْ﴾: يتركهم مُهملين ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: سيتركهم الله ﷻ في تجاوزهم الحدود في الكفر، وظُلمهم لأنفسهم، وفي ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: من المعلوم أنّ العمى هو فقد البصر، أمّا العمه فهو عمي البصيرة، القدرة على استنباط النافع من الضار؛ فهم يتخبطون، يغيبون عن الرشد، ويتحيرن، ويتيهون، وجاء في المعنى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس-١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات-٤٣] قَالَ: «فَانْتَهَى»[1]، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: يا محمد ﷺ هم اليهود، وقيل السائلون عن يوم القيامة هم كُفّار قريش؛ لأنّ الآية مكّية، وقيل نزلت في نفرٍ من اليهود، وهذه ضعيفة، كان السؤال من باب الاستبعاد لوقوعها، وتكذيبًا لوجودها ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرّ يفيد الاتصال والارتباط والتعلق ﴿السَّاعَةِ﴾: يوم القيامة، جاءت التسمية بالساعة؛ لأنّها تأتي بغتة، على حين غفلةٍ من الخلق ﴿أَيَّانَ﴾: متى ﴿مُرْسَاهَا﴾: الرسو؛ هو التوقفُ على جانبٍ، والمعنى هو متى وقوع يوم القيامة، ومتى آخرُ الزمان ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ ليجيب: ﴿إِنَّمَا﴾: حرف تحديد وتخصيص ﴿عِلْمُهَا﴾: ما يخُصُّ أمرها كلّه ﴿عِنْدَ﴾: حرفُ زمانٍ ومكانٍ ﴿رَبِّي﴾: هو ﷻ المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو ﷻ الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك الأمر كلّه، مالك أمري كلّه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُجَلِّيهَا﴾: لا يُظهرها ﴿لِوَقْتِهَا﴾: زمن وقوعها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٥٨) ٣٨٩٥ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المُذكر، والمقصود هنا هو ﷻ الذي حدّد وقتها وقدّره ﴿ثَقُلَتْ﴾: مخفيٌّ علمُها عند الله ﷻ وحده ثقيل على الذين ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا وأحاط بالأرض هو سماؤها ﴿وَ﴾: أيضًا ثقلت في ﴿الْأَرْضِ﴾: قال ابن عباس: إذا جاءت فهي كفيلة على أهل السموات والأرض، لا شيء من الخلق إلّا سيُصيبه ضررٌ يوم القيامة، إذا جاءت انشقت السموات، وانتثرت النجوم، وكُوِّرت الشمسُ، وسُيّرت الجبال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَأْتِيكُمْ﴾: تحلُّ بكم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بَغْتَةً﴾: تأتي فجأة، والنّاس تعمل في حياتها اليومية العادية ﴿يَسْأَلُونَكَ كَ﴾: حرف بمعنى كحال ﴿أَنَّكَ﴾: تأكيد الخبر ﴿حَفِيٌّ﴾: تسأل عنها كثيرًا حتى أصبحت يا محمد ﷺ تعرف وقت مجيئها، باحثٌ عنها كأنّك حريصٌ ومسئولٌ ﴿عَنْهَا﴾: عن العلم بوقتها، قال ابن عباس: كأنّك صديق لهم، وقَالَ قَتَادَةُ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَرَابَةً، فَأَسِرَّ إِلَيْنَا مَتَى السَّاعَةُ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف–١٨٧][(١)]. ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيٌ لمحمدٍ ﷺ ﴿إِنَّمَا﴾: حرف تخصيص وتحديد ﴿عِلْمُهَا﴾: علم حدوثها ﴿عِنْدَ﴾: حرفُ زمانٍ ومكانٍ ﴿اللَّهِ وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿أَكْثَرَ﴾: غالبية ﴿النَّاسِ﴾: بني آدم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: قل يا محمد إنّ علم وقوعها عند الله ﷻ، حتى الأنبياء لا يعرفون، ولقد ذكر أَبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان–٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ[(٢)].

التكليف: إنّ الحكمة من كون يوم القيامة غير معروفٍ للخلق، هو حمل المكلّفين على المسارعةِ إلى التوبة، وأداء الفرائض، وسداد الحقوق.

التكليف: اعمل للساعة كأنّها واقعة غدًا، ولكلِّ إنسانٍ ساعته، وإنّ أجله هو ساعة الموت.

---

(١) البعث والنشور ص٦٦(٢٢). وضعفه عبد الرزاق المهدي: عن قتادة مرسلًا. فهو ضعيف.

(٢) صحيح البخاري ١/١٩(٥٠).

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيٌ أنْ صرّح يا محمد ﷺ بوضوح ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَمْلِكُ﴾: ليس عندي ولا في قدرتي ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَفْسِي﴾: جوهر وجودي ﴿نَفْعًا﴾: أجلب لها الرزق والمنفعة ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا ضَرًّا﴾: ليس بيدي نفعُ أحدٍ أو ضُرّه، ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء إنّ ﴿مَا﴾: الذي ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾: إنّ النفع والضرر بيد الله ﷻ وحده؛ وذلك لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة، أيّان تكون ومتى تقع، لا أقدر على علم ما استأثر اللهُ ﷻ بعلمه ﴿وَلَوْ﴾: حرف استفهام ونفي ﴿كُنْتُ﴾: في السابق ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: وهو ما خبأه الله ﷻ في المستقبل ﴿لَ﴾: حرفُ علّة وسبب ﴿اسْتَكْثَرْتُ﴾: لطلبت كثيرًا ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْخَيْرِ﴾: لو كنتُ أعلم متى سأموت؛ لأكثرت من الطاعات، وعملت الأعمال التي تجلب الخير الوفير لي، لو أعلم الغيب لأعددت للسّنةِ المُجدبةِ من السنةِ الخصبة ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾: أصابني في العمق ﴿السُّوءُ﴾: الضررُ والشرُّ، لاتقيته قبل وقوعه ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾: حرفُ يُفيد الاستثناء ما أنا إلّا ﴿نَذِيرٌ﴾: ما أنا إلّا مبلغ عن الله ﷻ لأحكامه مُحذّرًا، ومنذرًا من العذاب للعاصين والكافرين ﴿وَبَشِيرٌ﴾: أقول ما يسرُّ ويُفرح الآخرين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابِ منهجٍ واحدٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون يقينًا باللهِ ﷻ، وأركان الإسلام، يصدقون أنّي رسول الله؛ ويعملون بشرعهِ ﷻ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩)

﴿هُوَ الَّذِي﴾: اسم إشارة تعني هنا الفرد الواحد الأحد؛ ﷻ ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من غير سابق وجود ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿نَفْسٍ﴾: هي جوهر الإنسان، هي الوسط المحيط بالقلب من غير الهواء، والتي تختفي الكهرباء منها بعد الموت مباشرة، إنّها هي الإنسان الحقيقي ﴿وَاحِدَةٍ﴾: إن الله ﷻ خلق النّاس كلّهم من آدم، عليه السلام ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿جَعَلَ﴾: أوجد ﴿مِنْهَا﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿زَوْجَهَا﴾: ومن آدم خلق زوجته حوّاء، ومنهما كان باقي خلق بني آدم ﴿وَجَعَلَ﴾: أوجد ﴿مِنْهَا﴾: من ضلع آدم عليه السلام ﴿زَوْجَهَا﴾: زوجته حواء عليها السلام ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿يَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: والسكنُ هنا الاستئناس جعل الله ﷻ من حواء عليها السلام، سكنًا الأنس والطمأنينة

ليألفها ويطمئن معها بالمودّةِ والرحمةِ وهي أعظم الألفة، ليأنس بها ويطمئن ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿تَغَشَّاهَا﴾: وطأها، جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: ككلّ النساء من بعدها، ففي بداية الحملِ لا توجد آلام ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة هنا في ﴿مَرَّتْ بِهِ﴾: استمرت في حملها بغير مشقّةٍ، لما استمرت في أشهرِ الحملِ، ظهر حملها، وقيل أصابها الشكُّ أهي حاملٌ أم لا ﴿فَلَمَّا﴾: بمرور الزمن، وبسبب الحمل ﴿أَثْقَلَتْ﴾: عندما ثقل وزن ما برحمها، بزيادة حملها، وكبُر الولدُ في بطنها، وتأكدت وزوجها، عليهما السلام، بالحمل ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: الداعي هو آدم وحواء، عليهما السلام، قالا: ﴿لَئِنْ﴾: حرفٌ يُفيد الشرط والسبب ﴿آتَيْتَنَا﴾: وهبتنا مولودًا ﴿صَالِحًا﴾: ولدًا كاملًا، صالح الخلقة والتكوين، قال ابن عباس: أشفقا أنْ يكون بهيمةً ﴿لَنَكُونَنَّ﴾: نصيرُ بالتأكيد ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: الحامدين.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠)

﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد هنا السبب والتتابع وهنا للاستئناف. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿**فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ [الأعراف-١٩٠] قَالَ: إِنَّ حَوَّاءَ لَمَّا حَمَلَتْ أَتَاهَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي أَنَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَإِنْ لَمْ تُطِيعِينِي لَأَجْعَلَنَّ لِابْنِكِ قَرْنَيْنِ فَلَيَشُقَّنَّ بَطْنَكِ أَوْ لَأُخْرِجَنَّهُ مَيِّتًا، فَقَضَى أَنْ خَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّانِيَ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَتْ لَهُ حَوَّاءُ: أَخْبِرْنِي مَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ أُطِيعَكَ فِيهِ؟ قَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَفَعَلَتْ، فَخَرَجَ بِإِذْنِ اللَّهِ سَوِيًّا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ [الأعراف-١٩٠] فَقَالَ عِكْرِمَةُ: «لَمْ يُخَصَّ بِهَا آدَمُ وَلَكِنْ جَعَلَهَا عَامَّةً لِجَمِيعِ النَّاسِ بَعْدَ آدَمَ»[١]، ﴿آتَاهُمَا صَالِحًا﴾: رزقهما ولدًا صالحًا، سليمًا معافى ﴿جَعَلَا لَهُ﴾: اصطنعوا، ادعوا تخصيصًا ﴿شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾: سموا الولد عبد الحارث، وليس المقصود في هذا السياق آدم وحواء، وإنّما المرادُ هم المشركون من ذريته، كان هذا في بعض الملل ولم يكن لآدم، عليه السلام، وقيل هم اليهود والنصارى، رزقهم الله ﷻ أولادًا؛ فجعلوهم هودًا أو نصارى، وقيل هم شركاءُ في الاسم وليس في العبادة، والله ﷻ أعلم ﴿فَتَعَالَى﴾: تنزّه وترفّع ﴿اللَّهُ عَمَّا﴾: عن الذي ﴿يُشْرِكُونَ﴾: هم العرب الذين عبدوا الأصنام، تنزّه الله ﷻ عن كلِّ شريكٍ، لا إله إلّا هو، جاء لفظ الشرك في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه: الشرك في الطاعة في هذه الآية، والشرك بالله ﷻ؛ في قوله ﷻ ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**

[١] التفسير من سنن سعيد بن منصور ٥/١٧٣-١٧٤(٩٧٣). والحديث ضعفه الأرناؤوط والألباني.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء-٣٦]، وفي قوله أيضًا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة-٧٢]، و الشرك في الأعمال هو الرياء؛ في قوله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف-١١٠].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١)

﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار والتوبيخ **﴿يُشْرِكُونَ﴾**: أيجعلون الأصنام شركاء لله ﷻ في العبادة ويعلمون أنّ هذه الأصنام، والأنداد، والأوثان أشياءُ مخلوقةٌ، لا تملك لنفسها شيئًا، ولا تتحرك، ولا تضر، ولا تنفع، ولا تنتصر لمن يعبدها، ولا تسمع، ولا تُبصر، والذي يعبدها يسمع ويبصر وهو أفضل منها **﴿مَا﴾**: حرفٌ يُفيد الذي من غير العاقل **﴿لَا﴾**: حرف نفي **﴿يَخْلُقُ﴾**: يُوجد من العدم ومن غير سابق وجود **﴿شَيْئًا﴾**: تفيد أيّ شيءٍ، ليس فقط لا يخلق بل لو أخذ الذباب منه شيئًا وطار لا يستطيع أنْ يسترده **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال **﴿هُمْ﴾**: تحديدًا **﴿يُخْلَقُونَ﴾**: والله ﷻ هو الذي خلقهم من غير سابق وجود.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (١٩٢)

﴿وَلَا﴾: حرف نفي **﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾**: يقدرون ولا يملكون **﴿لَهُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿نَصْرًا﴾**: إنّ الأصنام ثابتة لا تحمي ولا تنصر من يعبدها **﴿وَلَا﴾**: حرف نفي **﴿أَنفُسَهُمْ﴾**: أرواحهم وأجسادهم **﴿يَنصُرُونَ﴾**: ولا تدافع الأصنام عن نفسها، لقد كسّر إبراهيم ﵇ أصنام قومه، كان معاذ ابن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل: شابيّن أسلما في المدينة وكان لعمرو بن الجموح صنمٌ فكان ابنه معاذ ومعاذ بن جبل يأتيان في الليل فيُنكّسان رأس الصنم، ويضعان على رأسه القاذورات، فيأتي عمرو بن الجموح فيغسله، ويعطّره، ويضع بجواره سيفًا ويقول له انتصر، ثم أخذ الاثنان الصنم فوضعاه بجوار كلبٍ ميتٍ، ودلّياه في بئرٍ، وعندما أدرك عمرو بن الجموح بطلان عمله؛ أسلم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ (١٩٣)

﴿وَإِنْ﴾: حرفُ تأكيدٍ وشرطٍ **﴿تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾**: إذا دعوتم هذه الأصنام إلى الهدى، فهي لا تسمع من دعائكم شيئًا، وقد قال إبراهيم، ﵇، لأبيه من قبل: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم-٤٢] ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَّبِعُوكُمْ﴾: لأنّهم لا حياة فيهم، لن يُطيعوكُم ﴿سَوَاءٌ﴾: يستوي كل حال ﴿عَلَيْكُمْ﴾: عندكم ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾: يستوي حالهم إذا دعوتموهم إلى أيّ شيءٍ أو لم تدعوهم ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾: أو أنتم ساكتون؛ لأنّها مجرد حجارة منحوتةً من صخرٍ جامدٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

تخاطبُ الآيةُ الكريمةُ الإنسان بالعقل، والحكمة، والموعظة الحسنة، فتقول: ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿تَدْعُونَ﴾: تعبدون وتتقربون؛ ترجون منهم ﴿مِنْ دُونِ﴾: حرف استثناء بمعنى غير ﴿اللَّهِ﴾: يا أيّها المشركون الذين تطلبون منهم، وترجونهم، وتتوسلون إليهم، لن يجيبوكم، لن يردّوا عليكم ﴿عِبَادٌ﴾: إنّ الله ﷻ هو مالك هذا الكون الذي فيه أصنامكم التي تعبدونها، كما أنتم مملوكون لله ﷻ، فكيف يجوز منكم عبادتهم ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾: هم من خلْق الله ﷻ أمثالكم؛ فلماذا تهينوا أنفسكم؟ ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ودونَ تأخير ﴿ادْعُوهُمْ﴾: اطلبوا من الكفّار أنْ يطلبوا مما يعبدون شيئًا، وينتظروا ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾: يردوا ﴿لَكُمْ﴾: إذا استجابوا لكم فاعبدوهم وإنْ لم يستجيبوا فادعوا الله ﷻ خالق كلّ شيءٍ، الذي يستجيب الدعاء ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إنْ استجاب الأصنامُ لكم تكونوا صادقين في دعائكم، وإذا لم يستجيبوا فلماذا تكذبون على أنفسكم.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (١٩٥)

يخاطب الله ﷻ عقول الخلق الضالين، عبدة الأصنام، التي لا تتحرك على أرجلٍ، ولا تدفع عن نفسها بأيديها، ولا ترى من يعتدي عليها، ولا تسمع، فإنْ كان هذا حالَ ما تدعُون أيّها الكفّار؛ فإنّ الصواب ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض التوبيخ والاستنكار ﴿لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ﴾: يملكون ﴿أَيْدٍ﴾: أذرع وأصابع ﴿يَبْطِشُونَ﴾: يضربون أعداءهم ضربًا مُبرحًا ﴿بِهَا أَمْ﴾: بمعنى هل ﴿لَهُمْ﴾: يملكون ﴿أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: يشاهدون ويستعينون بها ﴿أَمْ لَهُمْ﴾: يملكون ﴿آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ﴾: هذا أمْرٌ من الله ﷻ: يا محمد ويا كلّ مُسلمٍ من بعده ﴿ادْعُوا﴾: اطلبوا من ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾: آلهتكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التباعد الزمني مع التراخي؛ أي خذوا وقتًا كافيًا واستعدوا ﴿كِيدُونِ﴾: الأصل هو

كيدونِي فحُذفت الياء للتخفيف، ومن المعلوم أنّ الكيد هو المكر للاعتداء على النبيﷺ وصحبه، وإيقاع السوء والمكروه به ﷺ وهو طلبٌ يزيدُ من إشعار الكفّار بجهلهم، وسفاهةِ عقولهم، ودرجةِ ضعفهم؛ في تحدٍ معلومِ النتائج ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تُنْظِرُونِ﴾: عجّلوا بإيقاع السوء بي فإنّي لا أبالي بآلهتكم، لاعتمادي على الله ﷻ، يطلب اللهُ ﷻ من النبيّ محمدٍ ﷺ أنْ يطلب الكفّارُ من أصنامهم أنْ يكيدوا للرسول وللمؤمنين، ولا يتأخروا.

التكليف: جاء في هذه الآية الكريمة من منهج القرآن الكريم الاستفهام الإنكاري، والإطناب الذي يُراد به زيادة التقريع والتوبيخ للكافرين.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿وَلِيِّيَ﴾: الناصر، والمحب، والمعين، والمؤيد لي هو ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ، بكلّ ما له من كرمٍ على الخلق، والرزق، والنُصرة ﴿الَّذِي﴾: هنا اسمٌ موصولٌ بالواحد الأحد الفرد الصمد، ﷻ ﴿نَزَّلَ﴾: وحيًا عبر الرسول الأمين جبريل، عليه السلام ﴿الْكِتَابَ﴾: جنس الكتاب، مثل التوراة والإنجيل والقرآن؛ فيه تبيان الحلال والحرام، وهو نعمةٌ كبرى ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾: تبدأ الآية تقول إنّ الله يتولى الصالحين؛ أي ينصرهم، ويؤيدهم، ويعينهم، في انتقالٍ من مخاطبة عقول الكافرين إلى إنذارهم، وطمأنة المؤمنين، ويؤيد الذين أصلحوا علاقتهم بالله ﷻ وبالناس، وحاربوا الفساد وأوّلهُ الشرك بالله ﷻ، وينهي ﷻ أنّه يتولى الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد أيضاً جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿تَدْعُونَ﴾: الذين تطلبون منهم النصر أيها المشركون ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية ﴿دُونِهِ﴾: من غير الله ﷻ، تطلبون من الأصنام، من الضعفاء الأذلاء ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: يقدرون على ﴿نَصْرَكُمْ﴾: ولا نصر أنفسهم، إشارة إلى أنّ: النتيجة في النهايةِ نصرٌ أو هزيمةٌ، فإذا بحثتم عن النصر عند أصنامكم؛ فلنْ ينصروكم، هذا منهجُ انتقالٍ من مخاطبة العقل إلى الوعيد ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: ذاتهم، وجوهرهم، أرواحًا وأجسادًا ﴿يَنْصُرُونَ﴾: إذا جاء أمر الله بالمواجهة معكم فلن تنفعكم أصنامكم، إذا قرر المسلمون تحطيم أصنامكم لا يدافعون عن أنفسهم، إنْ سألت فاسأل الله، وإنْ استعنت فاستعن بالله ﷻ.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨)

﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: سألت المشركين ﴿إِلَى الْهُدَى﴾: أنْ يدخلوا في الإسلام، وإلى الاستقامةِ والسداد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْمَعُوا﴾: مثل أنْ تقول: إنّ أصنامَكم لا تسمعُ، وأنتم تسمعون؛ فكيف تعبدون من هم دونكم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿تَرَاهُمْ﴾: تُشاهدهم ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: إذا نظرت إلى الكفّار كأنك تنظرُ إلى هذه الأصنام يقابلونك بعيونٍ مصورةٍ في صنمٍ كأنّها تنظر، وهي جمادٌ، وهذا هو الأصح والله أعلم ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُبْصِرُونَ﴾: لا يعرفون الحقيقة كأنّهم لا يرون، قال السدي وهذا هو الأصح، المراد أنّ المشركين ينظرون بالعيون؛ وهي وسيلة الإدراك، ولكنْ لا يُدركون، جاء لفظ البصر في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه، وجاءت هنا بمعنى البصر بالقلب وهو أداةُ الإدراك والعقل، وجاء أيضًا في قوله ﷻ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر-١٩] وفي قوله ﷻ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس-٤٣] وجاء بمعنى المشاهدة بالعين في قوله ﷻ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان-٢]، وفي قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف-٩٦]، وفي قوله ﷻ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق-٢٢]، وجاء بمعنى إدراك الحُجّةِ في الدنيا في قوله ﷻ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه-١٢٥].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: قيل خذ من النّاس ما سمحت به أنفسهم، تعنى هنا الفضل؛ أي ما يزيد، وهذا هو الأشهر، راجع [البقرة-٢١٩] وتعني أيضًا ما عفا وأُتيح من أخلاق النّاس، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ، أَوْ كَمَا قَالَ»[1] فلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: مَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ الْعَالِمَ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ[2]. ﴿وَأْمُرْ﴾: مُرهم واطلب من النّاس ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْعُرْفِ﴾: حرفُ باء السببية، بالمعروف من الأقوال

[1] صحيح البخاري ٦/٦١(٤٦٤٤).

[2] تفسير الطبري ١٠/٦٤٣(١٥٦١٨). ضعفه الألباني في الضعيفة ١٢/٨٤٣، وقال: وهذا مرسل ضعيف الإسناد.

والأفعال الحسنة، ويدخل في ذلك جميعُ الطاعات، وكلّ قولٍ حسنٍ، وكلّ فعلٍ حسنٍ ﴿وَ﴾: عطفاً على ما سبق ﴿أَعْرِضْ﴾: تجنّب وابتعد ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ المُجاوزة ﴿الْجَاهِلِينَ﴾: قال ابن جرير: تأديب المسلمين بالعفو عمّن ظلمهم، واعتدى عليهم، وليس الإعراض عن الذين جهلوا الحق الربّانيّ ولا الصفح عن الكافرين، عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا»، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ»، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: **﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف-١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»[1]، وقال بعض الحكماء: النّاسُ رجُلان، رجلٌ محسنٌ فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلّفة فوق طاقته، ولا ما يحرجه، وإمّا مسيء؛ فمره بالمعروف، فإنْ تمادى؛ فأعرض عنه لعلّ ذلك يردُّ كيده، قال ﷻ: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت-٣٤].

التكليف: يأمر اللهُ ﷻ نبيّهُﷺ أنْ يقبل هو وأمّته الفضل من أخلاق النّاس، وأعمالهم؛ ولا يطلب منهم ما يشقُّ عليهم؛ حتى لا ينفروا.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠)

﴿وَإِمَّا﴾: بمعنى إذا ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾: النزغ والنزغ والهمز بمعنى واحدٍ، وهو يعني الإفساد والإغواء والإغراء يُصيبك أو يصرفُك، وأصلُ النزغِ هو الفساد، وذلك بالوسوسة، والامتناع عن فعل الخير ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: وسوسة من الشيطان، أو غضبٌ يحملك على عقاب ﴿فَ﴾: حرفٌ ربط الجواب ﴿اسْتَعِذْ﴾: الجأ إلى الله ﷻ، لطلب العون ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: استجر بالله ﷻ من الغضب دونَ تأخير، والجأ إليه ﴿إِنَّهُ﴾: هو ﷻ بالتأكيد ﴿سَمِيعٌ﴾: يسمعُ دبيب النمل، وما فوقها، وما أقلّ منها، سميعٌ لما يقوله الجاهل عليك ﴿عَلِيمٌ﴾: بالذي يُذهب عنك نزغ الشيطان، قال ﷻ: **﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾** [الإسراء-٥٣]، عن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ، قَالَ: اسْتَبَّ

---

[1] صحيح البخاري ٦/٦٠(٤٦٤٢).

رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿اتَّقَوْا﴾: الذين أطاعوا الله بوعيٍ، يرجون رحمته، وينتهون عن نواهيه ويخافون عقابه وعذابه ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿مَسَّهُمْ﴾: إذا أصابهم عارضٌ من وسوسة الشيطان تذكروا ما أوجب الله ﷻ عليهم من طاعته والتوبة إليه؛ لأنّ الخطاب موجهٌ للذين اتقوا، الذين لا يرتكبون عظيم المعاصي ﴿طَائِفٌ﴾: الطيف والطائف بمعنى، وقيل الطيف هو الخيال، والطائف هو الشيطان؛ بمعنى أصابتهم وسوسةٌ ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾، وفيها أقوال: غضبٌ، مسَّ الشيطان؛ أي الصرع، وقيل الذنب ﴿تَذَكَّرُوا﴾: استحضروا عقاب الله ﷻ، وثوابَه، ووعدَه، ووعيدَه؛ تابوا؛ وأنابوا، واستعاذوا بالله ﷻ، ورجعوا ﴿فَ﴾: حرفٌ مفاجأة وأمر للمستقبل ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿مُبْصِرُونَ﴾: بسرعة استعادوا استقامتهم، وانتبهوا كالذي فتح عينيه على الحقيقة.

التكليف: وهنا رؤيةٌ عمليةٌ بمعنى إذا مسّ المسلم ضررٌ بالغٌ، أي اصابه ضررٌ بعمقٍ، والفرق بين المس، واللمس هو أنّ اللمس ما يُصيب في المظهر من قولٍ وعملٍ، ليس في الجوهر، مثل الأفعال والأقوال دونَ عقيدة، والله ﷻ أعلم، أمّا المس فهو في العمق من الجسد أو غيره.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢)

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾: عطفاً على ما سبق المقصود هنا إخوان الشياطين من الإنس، جاء في المعنى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء-٢٧]، الذين يتبعونهم، ويستمعون لهم، ويتلقون أوامرهم وهم الفجار من خلال الإنس، تمدهم الشياطينُ في الضلالة والغواية ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: يُزودونهم ويساعدونهم، ويسهلون لهم، يزيدون فيها وهذا هو المعنى اللغوي ﴿فِي الْغَيِّ﴾: في الضلال والمعاصي، والذنوب، والجهل، والسفه ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني

---

[١] صحيح البخاري /٨/٢٨(٦١١٥).

مع التراخي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُقْصِرُونَ﴾: لا يكفوّن أو يمتنعون في أعمالهم، قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عمّا يعملون، ولا الشياطين تُمسك عنهم، أي أنّ الإنسان لا يُقصّرُ في العمل الضال، والجنُّ لا يُقصّرون في الإيحاء إلى أوليائهم، قال ابن عباس: الشياطين تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا. يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم-٨٣].

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

﴿وَإِذَا﴾: حرفُ ربطِ ما بعدها بما قبلها ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَأْتِهِمْ﴾: تنزل إليك فيهم ﴿بِآيَةٍ﴾: بدليلٍ وبرهانٍ من الله ﷻ ﴿قَالُوا﴾: هم الكفّار ﴿لَوْلَا﴾: حرفُ شرطٍ يدلُّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: لو اخترعتها، أحدثتها؛ فأنشأتها؛ قلتها من عندك، تُخرجها من نفسك، تقول تلقيتها من الله ﷻ، لو أخذتها أنت فجئت بها من السماء ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ يعالج هذه الحالة ﴿إِنَّمَا﴾: حرفٌ يُفيد التوكيد؛ فقط أنا ﴿أَتَّبِعُ﴾: أعبدُ وأطيعُ ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُوحَى﴾: ينزل وحيًا ﴿إِلَيَّ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿رَبِّي﴾: هو المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون حالًا فحال إلى حدّ التمام، والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك الأمر كلّه، أنا أتبّعُ ما ينزل إليّ من ربّي، ولا أتقدم عليه في شيء، بل اتّبع ما أمرني به، فإنْ أرسل ﷻ آيةً اتبعتها، وإنْ منعها لا أسأله ابتداءها ﴿هَذَا﴾: اسم إشارةٍ للمذكر ﴿بَصَائِرُ﴾: هذه تعاليم وأوامر الله ﷻ تبصركم كيف تعرفون الصواب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الكلّية ﴿رَبِّكُمْ وَهُدًى﴾: نورٌ يُضيءُ لكم الطريق، ويهديكم، أي يقُودكم إلى الحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أيضاً فضلُ الله ﷻ ورحمته ﴿لِقَوْمٍ﴾: حرف اللام للتخصيص، هم جماعة أصحاب عقيدة واحدةٍ وهي الإيمان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لعبادة المُخلصين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿قُرِئَ﴾: تلا إنسانٌ ﴿الْقُرْآنُ فَـ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع السريع ﴿اسْتَمِعُوا لَهُ﴾: هنا الربط بين قراءة القرآن والاستماع، قيل في الصلاة المكتوبة إذا كانت جهريّة، عَنِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ

حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ[1]، وقيل إنّ النّاس كانوا يتكلمون في الصلاة، فلمّا نزلت؛ أنصتوا، وكان النّاس يُسلّمون على بعضهم في الصلاة، وكان النّاس يقرؤون مع الإمام، وقيل لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام، وإنْ لم يسمعوا صوته، ولكن يقرؤون فيما لا يجهر به سرًّا في أنفسهم، ولا تصلح القراءة مع الإمام فيما يجهر به سرًا ولا علانية، قال الشافعي: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين، أمّا أبو حنيفة فقال: لا يجب على المأموم قراءة أصلًا في السرية أو الجهرية بما ورد في الحديث عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقِرَاءَتُهُ لَهُ قِرَاءَةٌ[2]، وقيل الإنصات في الصلاة، وفي خطب الجمعة والأعياد ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ﴾: و"**لعل**" إذا كانت من البشر فهي بمعنى الرجاء، وإنْ كانت من الله كما هي هنا؛ فهي تُفيدُ الإشفاق ﴿تُرْحَمُونَ﴾: تنالون رحمةَ الله، وتفوزون برحمته ﷻ، وذلك بامتثال أمره ﷻ، وسماع آيات كتابه الكريم.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اذْكُرْ﴾: يأمر الله ﷻ الإنسان بذكره سرًّا، التذكرُ بالقلب، والذكرُ أيضًا باللسان ﴿رَبَّكَ﴾: مالك الأمر كلّه، ﴿فِي نَفْسِكَ﴾: في سرّك ﴿تَضَرُّعًا﴾: بالذلّة وما كان عن قهرٍ، والضراعة رجاءً وطمعًا في رحمته ﴿وَ﴾: أيضًا ذكر الله ﷻ ﴿خِيفَةً﴾: الخوف من غضبه، إنّ هدف الذكر سرًّا هو طلب الخير والخوف من غضب الله ﷻ ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾: أي تُسمع نفسك ولا تصرخ به صراخًا، بل متذللًا وخائفًا بصوت أقل من الجهر بالصوت، وقيل بخشوعٍ وتواضعٍ لله ﷻ، وجل القلب ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بعض ﴿الْقَوْلِ﴾: دون إسماع الصوت ﴿بِ﴾: حرفُ باء التوكيد ﴿الْغُدُوِّ﴾: أوّل الظُهر ﴿وَالْآَصَالِ﴾: جمع أصيل، وهي عند الغروب ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريمٍ ﴿تَكُنْ مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بعضًا أو جزءًا؛ أي عليك التمايز عن ﴿الْغَافِلِينَ﴾: اللاهيين عن الحقيقة.

التكليف: كان هذا الحكمُ قبل فرض الصلاة؛ لأنّ الصلاة ذكر، والصلاة المفروضة معروفة الأوقات، وليست في الصباح والمساء فقط، ولقد كان النّاس يرفعون أصواتهم بالدعاء في بعض الأحيان، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ؓ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا

---

[1] صحيح البخاري /١/١٤٧(٧٣٢).

[2] مسند أحمد /٢٣/١٢(١٤٦٤٣). وحسنه الأرناؤوط وقال: حسن بطرقه وشواهده.

عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ[1]، وقد تكون إحدى أسباب النزول: أنّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبّوه، وسبّوا من جاء به؛ فأمر الله ﷻ ألّا يجاهروا بالصلاة؛ حتى يتفادوا قول المشركين؛ ولا يُخافتوا بها عن المسلمين؛ فلا يسمعوهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن فهو مالك كل أمر الملائكة، يمدحهم الله ﷻ؛ فيقول هم عند الله ﷻ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: لا يتكبرون، ولا يستنكفون ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا بمعنى على ﴿عِبَادَتِهِ﴾: في طاعتهم لله ﷻ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾: أيضًا يُنزهونه ﷻ عن كلِّ النواقص، وعن كلِّ ما لا يليق به ﷻ، له وحده لا شريك له ﴿وَلَهُ﴾: تخصيصًا ﴿يَسْجُدُونَ﴾: هنا يكون سجودُ البشر لله ﷻ، اقتداءً بالملائكة، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ[2]، وكانت هذه أولَّ سجدةٍ في القرآن، وبذلك شرّع الله ﷻ لتاليها ومستمعها السجود.

التكليف: بدراسة مقاصد هذه السورة الكريمة نُدرك سُنن الصراع بين الإيمان والكفر، وكيف كان الصراعُ بين الأنبياءِ والرسلِ وبين الكافرين، وعاقبةَ كلّ سبيلٍ.

سُورَةُ الأَنفَالِ

ترتيبها 8 — آياتها 75

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

---

(١) صحيح البخاري /٤/٥٧(٢٩٩٢).

(٢) صحيح مسلم /١/٣٢٢(٤٣٠).

سُمّيت سورةُ الأنفال بأسماء عدة، أهمها: سورة الأنفال: عُرفت بين المسلمين، وبه كُتبت بالاسم في المصحف الشريف، وكان سبب التسمية أنّها افتتحت بآيةٍ جاء فيها اسم الأنفال. وسورة بدر: فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورةُ الأنفال، فقال تلك سورة بدر. واتفق رجال الأثر كلّهم أنّها نزلت في غزوة بدر. السورة مدنية، عددها (٧٥) آية.

هي من السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصّة ما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ﷻ، فقد وضعت للمؤمن طريقًا واضحًا للنصر والتمكين، ورسمت الخطّةَ التفصيلية للقتال، وبيّنت ما ينبغي أنْ يكون عليه المسلم من البطولة والوقوف في وجه الباطل، بكلِّ جُرأةٍ وشجاعةٍ، وصمودٍ، فطريقُ النصر طريقٌ طويلٌ وشاقٌ، مليءٌ بالعطاء والتضحيات، وإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود، ولكنه محفوفٌ بالأشواك، مليءٌ بالمخاطر، لكن عاقبته حَسنة وطيّبة. تحدثت السورة عن قانوني النصر في غزوة بدر وذلك ليبيّن لنا الله ﷻ أنّ النصر له قوانين، فالنصر لا يأتي صدفة ولا فجأة، وإنّما يحتاج إلى قوانين ربّانية، وكذلك قوانين مادية؛ بالتخطيط استعدادًا للقتال بالعُدّةِ، والتهيئة النفسية والعسكرية، فالسورة تنقسم إلى قسمين بارزين، كلّ منهما يتناول أحد هذه القوانين.

القانون الأول في الآيات [١-٤٠]: ﴿وما النصر إلّا من عند الله﴾: ودليل ذلك:

١) الترتيب للمعركة من الله ﷻ: **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾**.

٢) الإعداد النفسي للمعركة: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾**.

وقوله ﷻ: **﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴾**.

٣) **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وقوله ﴿إِذْ﴾** نزول الملائكة: **﴿يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾**.

٤) موعد ومكان المعركة بترتيب من الله ﷻ: **﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** لمّا أنزل الله ﷻ

المطر جعل الأرض عند المسلمين صلبة تعينهم على خفة الحركة وجعل الأرض عند المشركين طينية أعاقت حركتهم في المعركة وهذا بتدبير الله ﷻ.

٥) نتيجة المعركة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَنًا إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

القانون الثاني، في الآيات [٤١–٧٥]: **القوانين المادية للنصر**

١) أهمية التخطيط: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾

٢) موازين القوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

الوحدة وعدم التنازع ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فقضية الأخوّة هي من أهم الأسباب المادية التي تصنع النصر فالمؤمنون مهما اختلفت أجناسهم أمّة واحدة.

ملخص قانون النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال–٤٥ – ٤٨].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)

أسباب النزول: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا، فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللهُ الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ، وَأَكَبَّتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ، وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ: نَحْنُ حَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ. وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَامِنَّا نَحْنُ نَفَيْنَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ. وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا

بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَخِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً وَاشْتَغَلْنَا بِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾ [الأنفال–١] فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَغَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ نَفَلَ الرُّبُعَ، وَإِذَا أَقْبَلَ رَاجِعًا وَكُلَّ النَّاسِ نَفَلَ الثُّلُثَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ وَيَقُولُ: لِيَرُدَّ قَوِيُّ المؤمنين على ضَعِيفِهِمْ[١]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَلَهُ مِنَ النَّفَلِ كَذَا وَكَذَا». قَالَ: فَتَقَدَّمَ الْفِتْيَانُ وَلَزِمَ الْمَشْيَخَةُ الرَّايَاتِ فَلَمْ يَبْرَحُوهَا، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالَ الْمَشْيَخَةُ: كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ لَوِ انْهَزَمْتُمْ لَفِئْتُمْ إِلَيْنَا، فَلَا تَذْهَبُوا بِالْمَغْنَمِ وَنَبْقَى، فَأَبَى الْفِتْيَانُ وَقَالُوا: جَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [الأنفال–١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**﴾ [الأنفال–٥] يَقُولُ: «فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ، فَكَذَلِكَ أيضًا فَأَطِيعُونِي فَإِنِّي أَعْلَمُ بِعَاقِبَةِ هَذَا مِنْكُمْ»[٢]، ولقد نسختها الآية الكريمة: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ**﴾، ﴿**يَسْأَلُونَكَ**﴾: السؤال هو طلب معرفةِ شيءٍ؛ يستفسرون ويستوضحون منك يا محمد ﷺ ﴿**عَنِ**﴾: حرفُ جرٍ يُفيد الاتصال والارتباط والتعلق ﴿**الْأَنْفَالِ**﴾: هي جمع نَفَلَ وهو من النافلة أصله الزيادة في العطاء، وسُميّت نفلًا لأنها زيادة خصّ الله ﷻ بها هذه الأمة، إذ إنّها كانت مُحرّمةً على من قبلهم من الأمم، وهي الغنائم، ومفرده النفل، وهو ما يعطيه الإمام للسرايا زيادة على القسمة، والسائل هم أصحاب رسولِ الله ﷺ وكانت أنفالُ معركة بدرٍ الأولى. لقد فرّق العلماءُ بين الغنائم والأنفال، فالغنائم هي الأموال من الكفّار قهرًا بقتالٍ، أمّا الأنفال فهي الأموال المأخوذة من الكفّار، ثم هربوا، بغير قتال، ودونَ انتزاعٍ، ولا افتكاك، مثل أموال بني النضير، التي سلّموها قبل القتال ﴿**قُلِ**﴾: هنا الحكم الربّاني بالقول ﴿**الْأَنْفَالُ لِلَّهِ**﴾: أيضًا تمليك ﴿**وَالرَّسُولِ**﴾: فقط أمر الغنائم لله وأيضًا للرسول لهما الحكم في التصرف والتوزيع ﴿**فَ**﴾: حرفٌ يفيد السبب بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ**﴾: خافوا الله ﷻ بيقين؛

---

[١] مسند أحمد /٣٧/٤٢١(٢٢٧٦٢). قال الأرناؤوط: حسن لغيره. قلت: روى مسلم في صحيحه ٣/١٣٦٧ (١٧٤٨) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ: أَصَبْتُ سَيْفًا، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَفِّلْنِيهِ، فَقَالَ: ضَعْهُ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ: نَفِّلْنِيهِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: ضَعْهُ، فَقَامَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَفِّلْنِيهِ، أَؤُجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال–١].

[٢] سنن أبي داود ٣/٧٧(٢٧٣٧) قال الألباني: صحيح.

طمعًا في ثوابه، وخوفًا من عذابه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَصْلِحُوا﴾: صوبوا ما حدث ﴿ذَاتَ﴾: عين الشيء ﴿بَيْنِكُمْ﴾: وأصلحوا العلاقات والمعاملات فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تخاصموا، ولا تشاجروا ولا تتشاتموا؛ خاصّةً بعد الغنائم ﴿وَأَطِيعُوا﴾: عطفًا على ما جاء نفّذوا ما أمر ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: جاء ذكر الله ﷻ هنا لتأكيد مهابته ﷻ، وتعليل الحكم؛ فيما قسّمه الرسول ﷺ بينكم؛ لأنّ هذه القسمة هي أمرُ الله ﷻ، فيها العدل والإنصاف، والعفوُ من إصلاح ذاتِ البين، وهذه من آيات أدب المعاملة خاصّة عندما تكثر مُغريات الدنيا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بأركان الإيمان، الله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ وتخصيصٍ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: حقًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾: فرقت؛ فزعت، وخافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: هذه قلوب المؤمنين، فصارت قلوبهم وأبدانهُم للطاعة، قال سفيان الثوري: هو الرجلُ يريد أنْ يظلم أو يهمّ بمعصيةٍ؛ فيُقال له اتق الله؛ فيجل قلبه يخاف، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، قَالَتْ: إِنَّمَا الْوَجَلُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ أَمَا يَجِدُ لَهَا قَشْعَرِيرَةً؟ قَالُوا بَلَى، قَالَ: فَادْعُوا إِذَا وَجَدْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يُسْتَجَابُ عِنْدَ ذَلِكَ[1]، ﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربط بين التلاوة ﴿تُلِيَتْ﴾: قُرئت ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾: من كتاب الله ﷻ ﴿زَادَتْهُمْ﴾: ترسّخ وتعمّق فيهم أكثر ﴿إِيمَانًا﴾: إذا سمعوا القرآن تفكروا في معانيه، فازدادوا إيمانًا وقد استدلوا على أنّ القلوب تتفاضل، ويزيد الإيمان فيها وينقص ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق هم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾: المصلحُ، والسيدُ، مالك أمرهم كلّه ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: عليه ﷻ وحده يعتمدُون، ويقصدُون، ويلوذون؛ ليحققوا ما يريدون.

التكليف: لكلّ صنعةٍ مقاييس جودة، ومقياس الإيمان هو القرآن الكريم.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: في الآية السابقة جاء الحديث عن الاعتقاد، وهنا جاءت الأعمال، وهي أعمالُ الخير كلّها، وهي إقامة الصلاة، والمداومة على أدائها في أوقاتها، قال قتادة: الحفاظ على الوقت، والوضوء،

---

[1] حديث سفيان الثوري ص٤٩(١٢).

والسجود، وقال مقاتل: أضاف للسابق تلاوة القرآن، والتشهد، والصلاة على النبي ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الأموال، عطاءُ الله ﷻ مقابلَ طاعةٍ، أو بلا مقابل ﴿يُنْفِقُونَ﴾: إخراجُ الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من الإنفاق على الفقراء والمساكين.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب وللبعيد، المتمثلون بالصفات المذكورة في الآيتين السابقتين ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: تصديقًا وتسليمًا ﴿حَقًّا﴾: هم المؤمنون حق الإيمان، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا. فَقَالَ: انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَاطْمَأَنَّ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا. فَقَالَ: يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ ثَلاَثًا[1]، ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿دَرَجَاتٌ﴾: جاء اللفظ "**درجات**" مستعارًا لمراتب الجنّة، منازلٌ ومقاماتٌ ودرجاتٌ عاليةٌ ﴿عِنْدَ﴾: حرفُ مكانٍ ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم في الجنّة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: يغفر الله ﷻ لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات ﴿وَرِزْقٌ﴾: أيضًا خيرٌ ﴿كَرِيمٌ﴾: وافرٌ.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (٥)

أسباب النزول: عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ، سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ: إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ؟ لَعَلَّ اللَّهُ يُغْنِمُنَاهَا، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا، فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا، أَوْ يَوْمَيْنِ، قَالَ لَنَا: مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ؟ فَقُلْنَا: لاَ وَاللَّهِ مَالَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ* يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ**

[1] المعجم الكبير للطبراني ٣/٢٦٦(٣٣٦٧). قال البزار فيكشف الأستار ١/٢٦: تَفَرَّدَ بِهِ يُوسُفُ بن عطية، وَهُوَ لَيِّنُ الْحَدِيثِ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٣٧٠: وفيه من يحتاج إلى الكشف عنهم.

يَنْظُرُونَ﴾[1]، ﴿كَمَا﴾: مثلما، اختلفوا في وجه الشبه بها، فقيل: كما أنّكم اختلفتم في المغانم فانتزعها الله منكم؛ فكانت مصلحةً لكم، كذلك لمّا كرهتم النفير؛ فكان عاقبة ذلك نصرًا وفتحًا ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾: أمرك الله ﷻ أنْ تهاجر من المدينة بلدك وأهلك على كرهٍ من فريق المؤمنين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿بَيْتِكَ بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: بالصدقِ واليقينِ، والوحي الذى أتاك به جبريل عليه السلام ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿فَرِيقًا﴾: جماعةً ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: يشهد الله ﷻ لهم بالإيمان ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿كَارِهُونَ﴾: من الطبيعي أنْ يكره الإنسانُ الهجرة من وطنه قسرًا، مع كراهة فريقٍ من المؤمنين للخروج.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦)

﴿يُجَادِلُونَكَ﴾: يجادلك فريقُ المؤمنين في القتال من بعد ما تبيّن لهم أنّ ذلك واقعٌ، يُقلّبون لك المعاني؛ ليبرروا خوفهم ﴿فِي الْحَقِّ﴾: في القتال، ولقاء المشركين ﴿بَعْدَمَا﴾: بعد الذي ﴿تَبَيَّنَ﴾: كانت الأمور تسير في اتجاه القتال ﴿كَأَنَّمَا﴾: كمثل الذين ﴿يُسَاقُونَ﴾: يُدفعون رغمًا عنهم دفعًا ﴿إِلَى الْمَوْتِ﴾: تعبيرًا عن الخوف الشديد ﴿وَهُمْ يَنْظُرُون﴾ يرون الموتى ومصارعهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧)

﴿وَإِذْ﴾: واذكروا أيها المجادلون فيما مضى من الزمن ﴿يَعِدُكُمُ﴾: يبشركم ووعد الله ﷻ بالظفر ﴿اللَّهُ إِحْدَى﴾: بواحدةٍ من اثنتين ﴿الطَّائِفَتَيْنِ﴾: العير وما تحمله من أرزاق، تأخذونها من المشركين ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾: إمّا أنْ تفوزوا بالعير والغنائم وما تحمل من أموالٍ، تأخذونها غنيمةً باردةً، وإمّا القتال؛ فتقاتلون؛ وتنتصرون عليهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فقد كان مطلبكم ﴿تَوَدُّونَ﴾: تحبون وتفضلون ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار والشك ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿ذَاتِ﴾: صاحبة ﴿الشَّوْكَةِ﴾: التي ليس فيها قتال، ﴿تَكُونُ﴾: تكتب ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ولا مواجهة مع العدو، وهي أخذ العير من أبي سفيان ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُحِقَّ﴾: يحقق وينفذ ﴿الْحَقَّ﴾: نشر الدين الصحيح ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿كَلِمَاتِهِ﴾: يجمع الله ﷻ بين الذين لا يريدون القتال، وطائفة المقاتلين؛ لينتصر

---

[1] المعجم الكبير للطبراني ١٧٥/٤(٤٠٥٦) قال علوي السقاف في تخريج أحاديث وآثار في ظلال القرآن ٢٣٣/١: ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٤/٦: في إسناده عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

المسلمون، ويظهروا على عدوهم، وينصر دينه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ﴾: مؤخرة؛ كنايةً عن أوّل وآخر ﴿الْكَافِرِينَ﴾: تقتلون قادة الكُفر، وتهزمون كفّار قريش، وتأسرون فريقًا آخر، وتفوزون بما يملكون من عيرٍ وثرواتٍ.

التكليف: إنّ المؤمن فائزٌ في كلّ الحالات إنْ حقق ما أراد في الدنيا أو نال أجر الآخرة.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ﴾: ليُعزّ الله ﷻ الإسلام وأهله، ويُذهب الشرك وأهله، ولو كره المشركون، ومعنى الحق هنا نشر الإسلام ينشر الدين الحق، الذي جاء من عند الله ﷻ ﴿وَيُبْطِلَ﴾: يكف ويمنع ﴿الْبَاطِلَ﴾: ليكف منهج الشيطان عن النّاس، فيظهر الإسلام والمسلمين ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد التعميم والدلالة على المستقبل ﴿كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: هم الكُفّار، هذه لحظةٌ فارقةٌ في تاريخ الدين، وفي كلِّ مشروع إصلاحٍ، تأتي اللحظةُ التي ينتصر فيها الدين؛ فيسُود العدلُ، وينتهي الظلم؛ فيفرح المؤمنون.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩)

﴿إِذْ﴾: حرف يُفيد ما مضى من الزمن، اذكروا نعمة الله ﷻ عليكم يوم بدر ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: تطلبون العون من ﴿رَبَّكُمْ﴾: الله ﷻ، فهو مالك أمركم كلّه، ففي يوم بدر وقف الرسول ﷺ يدعو الله ﷻ أنْ ينصرهم، عَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ[١]. ﴿ف﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ ﴿اسْتَجَابَ﴾: لبّى ونفّذ ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا يُخبر الرسول ﷺ المؤمنين أنّ الله ﷻ استجاب لدعائكم، وقال ﴿أَنِّي﴾: أنا الله بالتأكيد ﴿مُمِدُّكُمْ﴾: مُزودكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية المكانيّة ﴿الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: فيها أقوال: يردف بعضُهم بعضًا، متتابعين، نجدةً لكم، المدد، بعضُهم على أثر بعض ﴿**مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ،

---

[١] صحيح مسلم /٣/١٣٨٣(١٧٦٣).

كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»[1].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرفُ نفي ﴿جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: أراد أنْ يكون المقصود إرسالُ الملائكة لنصرةِ المسلمين، وما جعل اللهُ ﷻ ذلك الإمداد ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بُشْرَى﴾ كان بشرى لكم بالنصر، وهو كلُّ ما يسر ويفرح ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف تعليل وتخصيص ﴿تَطْمَئِنَّ﴾: تسكن به قلوبكم؛ ويزيلُ عنها الخوف ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾: ليَدخل المؤمنون المعركة باطمئنان؛ فلا يحدث اضطراب أو جزع ﴿وَمَا﴾: أيضاً نفي ﴿النَّصْرُ﴾: لتؤمنوا بنصر الله ﷻ لكم وبهزيمة الأعداء ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿عِنْدِ﴾: حرف زمان ومكان ﴿اللَّهِ﴾: هنا نستعرض كيف هزم الله ﷻ الأمم السابقة، أهلك قوم نوح بالطوفان، وأهلك عادًا الأولى بالدبور، وأهلك ثمود بالصيحة، وأهلك قوم لوطٍ بالخسف وحجارة السجيل، وأهلك قوم شُعيب بالظُّلّة، ومن بعد موسى ﵇، شرّع اللهُ ﷻ قتال الكفّار، واستمر الحكم بهذا، ومما جاء قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ﴾ [القصص-٤٣] ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه، ولا يغلبه أحدٌ، له العزّة ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿حَكِيمٌ﴾: يحقق الصواب قولًا وعملًا في تشريع القتال للمسلمين، مع قدرته على دمار قريش.

التكليف: إنّ الحكمة من القتال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة-١٤]، وهذا تجسّد في قتل صناديد قريش أنكى لهم، وأشفى لصدور المؤمنين، وكان قتلُ أبي جهل في المعركة أوقعَ وأشدَّ إهانة في الحرب، من موته على فراشه.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يُفيد ما مضى من الزمن بمعنى حين أو إذ ذاك ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: ألقى اللهُ ﷻ على المؤمنين كأنّهُ غطاء ﴿النُّعَاسَ﴾: النوم ﴿أَمَنَةً﴾: ينزل عليكم الأمن، وهو دواء الخوف ﴿مِنْهُ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية، من فضل الله ﷻ، حيث كان عدد المسلمين يزيد عن

---

[1] صحيح مسلم ١٣٨٣/٣(١٧٦٣).

ثلاثمائة، وعدد المشركين في بدر أكثرُ من ألفٍ، وهذا حدث أيضًا في موقعة أُحد، حيث قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ [آل عمران-١٥٤]، غشي الصحابة رضوان الله عليهم النعاس فأخذتهم سنة من النوم؛ أما الرسول ﷺ فقد مكث ليله يصلي لربه ويستغيثه تحت شجرة حتى أصبح؛ قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ بَدْرٍ[١] قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: وَكُنْتُ فِيمَنْ غَشِيَهُ النُّعَاسُ يَوْمَئِذٍ، فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ[٢]، وعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرُ الْمِقْدَادِ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إلا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْت شَجَرَةٍ يُصَلِّي، وَيَبْكِي، حَتَّى أَصْبَحَ[٣]، قال ابن مسعود: النُّعَاسُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالنُّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ.[٤] وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كُلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّةَ الشكل ﴿مَاءً﴾: كانت قريش قد خرجت لنصرة العير؛ فنزلوا على مصدر الماء، واستولوا عليه؛ فأصاب المؤمنين الظمأ، وأصاب بعضهم الجنابة، فأنزل الله ﷻ من السماء ماءً؛ حتى سال الوادي؛ فشرب المسلمون، وملؤوا أوعيتهم ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُطَهِّرَكُمْ﴾: والطهارة نوعان طهارة النفس من الآثام وطهارة الجسد من الأوساخ ﴿بِهِ﴾: اغتسل المسلمون من الجنابة ﴿وَيُذْهِبَ﴾: يُزيل ويُمضى ويأخذ، ويمحو، ويزيل ﴿عَنْكُمْ﴾: هنا ظرفُ مكانٍ ﴿رِجْزَ﴾: وسوسة وتخويف ﴿الشَّيْطَانِ﴾: لكم الذي كان يُوسوس فيقول: ستموت وأنت جُنب ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: يُثبتُ ويمنعُ الخوف والتردُد ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: كنايةً عن عدم الهرب بسبب الخوف، كانت ساحةُ المعركة رملية؛ فثبتت تحت أقدام المجاهدين.

التكليف: كان الماء طهورًا للباطن قبل المعركة، وليربط على القلوب؛ ليحقق شجاعة الباطن، ويثبت الأقدام؛ لتحقيق شجاعة الظاهر، وهذه ثلاثية النصر: الطهارة، ويقين الباطن، وشجاعة الظاهر.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢)

---

(١) صحيح البخاري ٣٨/٦(٤٥٦٢).

(٢) مسند أحمد ٢٦/ ٢٧٧(١٦٣٥٧) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) مسند أحمد /٢/٢٩٩(١٠٢٣). وصححه الأرناؤوط.

(٤) مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ٤٩٩(٤٢١٩).

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على حدثٍ في الماضي وتأتي هنا للتعليل أيضًا ﴿يُوحِي﴾: ومعنى الوحي هنا الأمر من الحق ﷻ عن كرمه يوم بدر ﴿رَبُّكَ﴾: هو المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، مالك أمر الخلق كلّه ﴿أَنِّي﴾: أنا معكم بالتأكيد ﴿مَعَكُمْ فَ﴾: حرفُ الفاء استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ لأُعينكم وأنصركم ﴿ثَبِّتُوا﴾: شدّوا من عزمهم وبشّروهم بالنصر، فتقوى عزائمهم، ويذهب الخوف من نفوسهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: إدخال الطمأنينة، الطمأنينة والاطمئنان هي السكون بعد الانزعاج وهذه أداةُ نصرٍ للجيوش ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد توكيد الفعل في المستقبل ﴿أُلْقِي﴾: سأصيب ﴿فِي قُلُوبِ﴾: وهي مراكز الوعي والإدراك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: فقد أُصيبت قلوب المشركين بالخوف الشديد، وهذه أداةُ الهزيمة للكافرين والذلّة والصَغار لهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾: ضرب رؤوس الأعداء، وضرب أعناقهم؛ فاقطعوها ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿اضْرِبُوا﴾: اقطعوا ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية المكانيّة ﴿كُلَّ﴾: تفيد العموم ﴿بَنَانٍ﴾: اقطعوا الأطراف وهي الأصابع؛ كنايةً عن أيديهم وأرجلهم، فقد تم في هذه المعركة قتل أبي جهل، ومعه تسعةٌ وستون وتمّ أسرِ عقبة بن أبي معيط.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣)

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة للذي حدث للكفّار من ضرب رؤوسهم وأعناقهم وأطرافهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿أَنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ونفي الشك ﴿شَاقُّوا﴾: جاء لفظ "**الشقاق**" في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى عداوة، وكذا في [هود–٨٦]، وجاءت بمعنى الضلال في قوله ﷻ **﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [البقرة–١٣٧] وفي قوله أيضًا **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾** [البقرة–١٧٦]، وبمعنى خلاف في قوله ﷻ **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾** [النساء–٣٥] وفي قوله ﷻ **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [النساء–١١٥] وفي جاءت في قوله ﷻ **﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾** [ص–٢]، شقّ الشيء جعله فرقتين، فهؤلاء خالفوا رسول الله

ﷺ، وتركوا الإيمان في شقٍ آخرٍ ﴿اللَّهَ وَ﴾: أيضًا عادوا ﴿رَسُولَهُ﴾: تركوا جانب الإيمان والشرع الذي أمر به الله ﷻ، ودعا إليه رسوله ﷺ، وذهبوا إلى جانب الكفر ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: الذي من بني جنس بني آدم ﴿يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: عقابه شديد للكافرين.

التكليف: هذه سنّةٌ ربّانيّةٌ هزيمةُ من يُحادد الله ﷻ، ويُعادي رسوله، والمؤمنين من بعده.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤)

﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد والمقصود هنا الهزيمة بالموت، أو بالأسر لكلّ من يُشاق الله ورسوله ﷺ، والعذاب الذي عجّله لهم ﴿فَ﴾: حرفٌ استئناف ﴿ذُوقُوهُ﴾: اشعروا بآلامه وتجرعوا غصّته، وهنا تعني كابدوا وعانوا قليلًا من العذاب جرّبوه وعايشوه واقعًا، إنّه القتل، والأسر، والهزيمة، والخزي في الدنيا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الإنكار ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين يُخفون ويُنكرون ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾: الموت للكافرين، فهذه هزيمة، وخزي في الدنيا، وما بعد الموت هي جهنّم، وهذا خسرانٌ مبينٌ في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿آمَنُوا﴾: بأركان الإيمان جميعًا بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيامة، وصدّقوا الله ﷻ ورسوله ﷺ، واعملوا بشرعه ﷻ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿لَقِيتُمُ﴾: واجهتم في المعركة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: إذا اقتربتم ودنوتم من الكفّار في ساحة المواجهة ﴿زَحْفًا﴾: تتقاربون وتسيرون في اتجاههم، ويسيرون في اتجاهكم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: تهربوا من أمامهم؛ وتعطوهم ظهوركم، هنا ربط بين لقاء العدو والهروب، لا تُعطوهم ظهوركم؛ كنايةً عن الهرب، أنْ تهرُبوا، وتفروا، وتُهزموا، وتتركوا إخوانكم.

التكليف: هنا أمرُ الله ﷻ بقتال الكفّار، جاء بعد ذكرِ تجربةِ هزيمةِ الأعداء في موقعةِ بدرٍ، فقد قدّم الله ﷻ النتيجة المُحبّبة ليؤكد نصر المؤمنين وفوزهم.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: الذي من البشر ﴿يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾: من يهرب يوم لقاء العدو فيعطي ﴿دُبُرَهُ﴾: ظهره كناية عن الهروب وقت الزحف ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾: منعطفًا لمكيدة الكفّار؛ أنْ يتظاهر بالهرب مكيدةً للعدو؛ ليُظهر أنّه خائف؛ فيلحق به العدو، ثم يكرّ عليه المسلم فيقتله، إذن إنّ منهج المكيدة والمناورة مسموح، والنيات يعلمها الله ﷻ، قال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى جماعة من الأعداء؛ فيصيبهم ﴿أَوْ﴾: حرف يساوي بين شيئين أو التخيير الخيار الأول المتحرف للقتال والثاني ﴿مُتَحَيِّزًا﴾: ينضم ﴿إِلَى فِئَةٍ﴾: أن يغيّر من موقع إلى موقع آخر؛ يعاون فيه إخوانه المسلمين، أو يعاونوه، وقيل المتحيز أو الفار إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، عن جَابِرِ بْن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الحَرْبُ خَدْعَةٌ[1]، ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿بَاءَ﴾: عاد ورجع وكسب واستحق ﴿بِ﴾: حرف باء السبب، وأيضًا باء الملابسة ﴿غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾: حرف يفيد بداية الغاية أي مصدرها اللَّهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ[2]. ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَأْوَاهُ﴾: مصيره ومثواه ومقامُه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ﴾: سبب السوء والشرّ والضرر ﴿الْمَصِيرُ﴾: المآل والمنتهى، في النّار يوم القيامة.

التكليف: لم الخوف في القتال إنْ كان الله ﷻ معك؛ وقد علمت هنا تعاليم القتال.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

﴿فَلَمْ﴾: حرفُ توكيد الخبر ﴿تَقْتُلُوهُمْ﴾: أيّها المؤمنون، صحيحٌ أنّكم قتلتم الكفّار يوم بدر، ولكنّ الله ﷻ هو الذي أعانكم على قتلهم، وهو المحمودُ على ما كان منكم من شجاعة، وقتال، فقد وفق، وأعانكم عليهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾: أعانكم على ذلك؛ إذ أظفركم وأنتم قلّة على أعدائكم وهم كثرة، جاء في المعنى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران-١٢٣]، إنّ النصر ليس بكثرة العدد، ولكن النصر من عند الله ﷻ، فقد جاء: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة-٢٤٩] ﴿وَمَا﴾: عطفًا على ما سبق: حرف نفي

---

[1] صحيح البخاري ٤/ ٦٤(٣٠٣٠).

[2] صحيح البخاري /٤/١٠(٢٧٦٦).

﴿رَمَيْتَ﴾: قذفت ما بيدك من سهام وحراب ﴿إِذْ﴾: حدث في الماضي وتفيد هنا السبب ﴿رَمَيْتَ﴾: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قِصَّةِ بَدْرٍ قَالَ: وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا» فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام: «خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا وُجُوهَهُمْ، فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمِنْخَرَيْهِ وَفَمَهُ تُرَابٌ مِنْ تِلْكِ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ»[1]. ﴿وَلَكِنَّ﴾ أيضاً استدراكًا ﴿اللَّهَ رَمَى﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ، حيث أوصل اللهُ سبحانه وتعالى الرمية التي رميتم إلى وجوه الكفّار ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾: أيضًا يحقق المسلمون فيه اختبارًا ﴿الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية، أي مصدرها ﴿بَلَاءً﴾: ينعم الله عليهم بفعل ﴿حَسَنًا﴾: ليعرف المؤمنون نعمة الله سبحانه وتعالى عليهم؛ ويشكروا فضله ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد يحقق المسلمون فيه اختبارًا ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: ما من صوت من مخلوقاته إلّا ويسمعه ﴿عَلِيمٌ﴾: سميعٌ للدعاء، وعليم بما في النفوس.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، هنا إشارة إلى الفعل السابق، قتْل المشركين يوم بدر، إصابتُهم بالرمي، وهزيمتهم، وفرار أحبائهم، الذي كان بسبب ﴿وَأَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ مُوهِنُ﴾: مُضعفُ ومُخذّلُ ﴿كَيْدِ﴾: مكرٍ وتآمرٍ وخيانةٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: المنكرين الحقائق لله سبحانه وتعالى.

التكليف: لقد أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بشارة النصر، فقد أوهن وأضعف كيد الكافرين في الصغيرة والكبيرة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط، هذا خطابٌ إلى الكفّار؛ تهكمًا بهم ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾: تطلبون الفتح من الله سبحانه وتعالى، أن يُوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين، استفتح بمعنى طلب الفتح، أيها الكفّار إذا طلبتم النصر من الله سبحانه وتعالى ضد المؤمنين ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد هنا التحقق، بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي، جاءكم ما تستحقون، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ الْعُذْرِيِّ؛ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ أَقْطَعُنَا لِلرَّحِمِ، وَآتَانَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ، فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ، قَالَ: فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحًا مِنْهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: **﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾**[2]، ﴿جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾: أجاب الله سبحانه وتعالى طلبكم أوقع الله على الكفّار بأسه لأنّهم المعتدون،

---

[1] القضاء والقدر للبيهقي ص: ١٧٥(١٤٥). وحسنه المحقق علي بن نايف الشحود. في حاشية في ظلال القرآن ٤/٤٧٣.

[2] مصنف ابن أبي شيبة ٣٠٨/٢٠(٣٧٨٢٩) قال الحاكم في المستدرك ٣٥٧/٢: صحيح على شرط البخاري ومسلم. وافقه الذهبي.

أعطاهم ما سألوا، وكان الكفّار لمّا خرجوا من مكّة أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله، وقالوا اللهم انصر أعلى الجنديين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾: تكفوا عن الكفر والتكذيب برسوله ﷺ عمّا كنتم عليه من الكفر والعداوة للرسولِ ﷺ ﴿فَهُوَ﴾: في اللغة يعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿خَيْرٌ﴾: فائدة ﴿لَكُمْ﴾: هذا خير لكم تخصيصًا في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿تَعُودُوا﴾: للقتال والكفر ﴿نَعُدْ﴾: إذا عدتم إلى الكفر؛ نعود عليكم بالهزيمة، وبالنصر للمسلمين، قال السدي: إنْ تعودوا إلى الاستفتاح؛ نعد إلى الفتح لمحمد ﷺ ونصره ﴿وَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تُغْنِيَ﴾: تنفعُكم أو تحفظُكم ﴿عَنْكُمْ﴾: تُفيدكم ﴿فِئَتُكُمْ﴾: جماعتُكم وقومُكم ولا أعوانكم في مكّة ﴿شَيْئًا﴾: صغيرًا أو كبيرًا ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الامتناع لامتناع ﴿كَثُرَتْ﴾: مهما جمعتم من الكفار لنْ تنفعكم كثرةُ جماعتِكم، ولا قوةُ أعوانكم مهما بلغت ﴿وَأَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إنّ الله ﷻ ناصرُ أصحاب وأنصار رسول الله ﷺ، هذه قاعدةٌ ساريةٌ بعد الرسول ﷺ في أنصاره وأوليائه، كتبها التاريخ لكلّ من جاهد؛ ليجعل كلمةَ الله ﷻ هي العُليا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿آمَنُوا﴾: خطاب قائمٌ ومستمرٌ إلى يوم القيامة، أمر من الله للمؤمنين الذين صدقوا الله ﷻ ورسوله ﷺ فيما أمرهم به ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: نفذوا أوامره، وانتهوا عن نواهيه: نفّذوا ما أمركم به الله ﷻ من الكتاب ﴿وَ﴾: أيضًا أطيعوا ﴿رَسُولَهُ﴾: وما علّمكم الرسول ﷺ من السُنّة النبويّة ﴿وَلَا﴾: أيضًاهنا نهي ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: حرف يُفيد المجاوزة، لا تتركوا طاعته، والعمل بأمره، والانتهاء عن نواهيه ولا تُعرضوا عنه إذا ناداكم؛ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾: بعدما أدركتم بوسائل الإدراك وهي السمع؛ فعلمتم شريعته، وأنتم تسمعون آيات الله ﷻ تُتلى عليكم من كتابه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١)

﴿وَلَا﴾: حرف نهي ﴿تَكُونُوا﴾: تحريمٌ للمؤمنين التشبه بالمشركين أو المنافقين أو اليهود ﴿كَ﴾: مثل ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾: سمعوا كتاب الله ﷻ يُتلى عليهم، وصلهم القول الحق، فقالوا سمعنا بآذاننا وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يتفكرون فيه ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي أنهم ﴿يَسْمَعُونَ﴾: قال ابن جرير: هم المشركون، وقال ابن إسحق: هم المنافقون الذين سمعوا؛ ولم يعقلوا؛ فلم يستجيبوا.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿شَرَّ﴾: الذي يسبب الضرر والسوء ﴿الدَّوَابِّ﴾: الدابّة هي كلُّ منْ دبّ على الأرض، هنا المقصود أكثر الدواب شرًا وضررًا، ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمان، وظرف مكان؛ في شرع ﴿اللَّهِ﴾: مَن خلَق الله ﷻ وتقديره لهم ﴿الصُّمُّ﴾: الذين لا يسمعون الكلام بالأذن ولا ينطقون، وصفهم الله ﷻ بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، لم يسمعوه سماع قبولٍ، وتدبرٍ، وانتفاعٍ، واستفادةٍ بالقلوب ﴿الْبُكْمُ﴾: الذين لا يفهمونه ولا يتكلمون به ﴿الَّذِينَ﴾: اسمُ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: وهذه صفات الكافرين، الذين لا يطيعون الله ﷻ لتحقيق ما أراده من خلقه؛ وهي العبادة، وهؤلاء لا يعبدون؛ فهم كالبهائم والأنعام، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾** قَالَ: «هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ»[(١)].

التكليف: لقد شبّه اللهُ ﷻ الكفّار بالبهائم، بل أكثر شرًّا منها؛ لأنّهم يضرّون الآخرين؛ وهو ما لا تفعله الدواب.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿عَلِمَ﴾: علمُ تحقيق وتنفيذ ﴿اللَّهُ فِيهِمْ﴾: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾: أنّ الله ﷻ يعلم ولكنّ الاستحالة في خيرتهم، جاء لفظ الخير في القرآن الكريم هنا بمعنى الإيمان، في قوله ﷻ **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [هود-٣١]، وبمعنى لكن، لا خير فيهم؛ فلن يفهموا ﴿لَ﴾: حرف سببٍ؛ لتحقيق الفعل ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾: مواعظ القرآن الكريم، سماعًا ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحُجج والبراهين لأفهمهم، ولكنّهم لا يفقهون ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾: كتب لهم السمع والفهم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَوَلَّوْا﴾: حتى إذا فهموا سوف يرفضون الاستجابة عنادًا، ويقصد حتى بعد الفهم ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: مبتعدون عنه، وهذا طرازٌ متجددٌ في كلّ زمانٍ، إنّ الكبر قد أغلق أدوات إدراكهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)

---

(١) صحيح البخاري ٦/٦١(٤٦٤٦).

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَيُّهَا﴾: تُفيد التواصل بين المُنَادِي وهو الله ﷻ والمُنَادَى عليه ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع البشر ممن ﴿آمَنُوا اسْتَجِيبُوا﴾: النداء هنا للمؤمنين الذين صدّقوا الله ﷻ ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا؛ فبادروا إلى طاعة الله ﷻ ورسوله وتنفيذ أمره؛ فإنّ أوامره فيها حياةٌ لكم، وعزٌّ وكمالٌ؛ أجيبوا وقد تكون بمعنى اطلبوا الإجابة ﴿لِلَّهِ وَ﴾: أيضًا استجيبوا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الرسُولِ إِذَا﴾: أداةُ ربطٍ ما بعدها بما قبلها ﴿دَعَاكُمْ لِمَا﴾: للذي ﴿يُحْيِيكُمْ﴾: ما فيه حياتكم من علوم الشريعة؛ لأن العلم حياة، والجهل موت، وبه تحيون في الجنّةِ حياةً أبدية، ويُصلحُ حياتكم في الدنيا، قال مجاهد: هو الحق، وقال قتادة: الحياةُ هي القرآن؛ ففيه النجاةُ والبقاءُ والحياةُ، وقال السدي: الحياةُ هي الإسلام، حياة لكم بعد الكفر، وقيل الجهاد في سبيل الله ﷻ، فإنّه سبب الحياة في الظاهر؛ لأنّ العدو إذا لم يُغزَ غزا، وقيل هي علوم الشريعة ﴿وَاعْلَمُوا﴾: عطفًا على العلم يتحقق علم اليقين ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ﴿اللَّهَ يَحُولُ﴾: يمنع ويحجز ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾: الإنسان ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، يحول بينه وبين ﴿قَلْبِهِ﴾: ما يشتهيه قلبه؛ ولأن القلب هو مركز الإدراك والوعي، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، وقال السدي: لا يستطيع الإنسانُ أنْ يؤمن أو يكفر إلّا بإذن الله ﷻ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ [1]، وعن النواس بن سمعان، قال ﷺ: وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ[2]. ﴿وَأَنَّهُ﴾: حرف تأكيد ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمعون يوم القيامة للحساب.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥)

قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَنَحْنُ مُتَوَافِرُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ فَجَعَلْنَا نَقُولُ: مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ؟ وَمَا نَشْعُرُ أَنَّهَا تَقَعُ حَيْثُ وَقَعَتْ[3] آخِرُ حَدِيثِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ﷺ، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتَّقُوا﴾: احذروا وتجنبوا الوقوع في ﴿فِتْنَةً﴾: عذاب، اختبار، ومحنة، تصرف الناس عن دينهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُصِيبَنَّ﴾: يُبتلى بها ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع البشر ممَنْ ﴿ظَلَمُوا﴾: خالفوا شرع الله ﷻ؛ فظلموا أنفسهم ﴿مِنْكُمْ﴾: جزءٌ منكم أو بعضكم ﴿خَاصَّةً﴾: تخصيصًا تُصيب المؤمن، وتُصيب الكافر، وقد نزلت في أهل بدرٍ خاصّة في حادثةِ الجمل، حيث اقتتلوا، قال

---

[1] مسند أحمد /٤٣/٢٣٠(٢٦١٣٣). قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

[2] مسند أحمد /٢٩/١٧٨(١٧٦٣٠). قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[3] مسند أحمد ٣/ ٤٧(١٤٣٨) قال الأرناؤوط: صحيح لغيره، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

ابن عباس: نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصّة، ولقد أمر الله ﷻ المؤمنين ألا يُقروا المنكر بين ظهرانيهم؛ فيعمّهم العذاب، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي، عَمَّهُمُ اللهُ ﷻ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ: يُصِيبُهُمْ ما أصاب النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ[1]. ﴿وَاعْلَمُوا﴾: أيضاً اعلموا علم يقين ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: عقابه في الدنيا شديد، وفي الآخرة أشدّ، لدرجة أنّه يصيب من لم يباشر أسبابه؛ بأن تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسكتوا.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦)

﴿وَاذْكُرُوا﴾: الخطاب هنا للمؤمنين، وللمهاجرين، وقيل لأمّة العرب في باب تذكير الله ﷻ بفضله على المؤمنين ﴿إِذْ﴾: حرفُ يدلُّ على ما مضى من الزمن ويفيد السبب ﴿أَنْتُمْ﴾: كنتم ﴿قَلِيلٌ﴾: في مكّة قلّة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: ضعفاء عددًا وعُدّة في أرض مكّة ﴿تَخَافُونَ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: يناوشكم الأعداء ويأخذونكم بسرعةٍ يفرقونكم ﴿النَّاسُ﴾: خائفين من مشركي قريش، وقيل فارس والروم، وهي تعني كأعداء الإسلام في كل زمانٍ ومكانٍ، أنْ يقتلكم أعداؤكم؛ لقلّةِ عددكم، وضعفكم ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ويفيد سرعة التنفيذ ﴿آوَاكُمْ﴾: ضمّكم الله ﷻ إلى المدينة، وفيها الأنصار، فقد كانت الهجرةُ إلى المدينةِ هي المأوى الآمن ﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾: أيضًا ساندكم وساعدكم ﴿بِـ﴾: حرف باء السبب ﴿نَصْرِهِ﴾: بأنْ نصركُم وأصبح أغلب سكانها أهلًا ومناصرين ومساعدين لكم بالمال ﴿وَرَزَقَكُمْ﴾: أيضاً وهبكم ما يطيب تناوله طعامًا أو شرابًا ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: ما يستمتع به الجسم، وتقبله النفس، كلّ ما ترغبون وتتمنون ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يفيد الترجي من البشر ﴿تَشْكُرُونَ﴾: قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أكثر النّاس ذُلًّا، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم ردي في النّار، يُؤكلون ولا يَأكلون، حتى جاء الإسلام فمكّن به في البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب النّاس، وبالإسلام أعطى الله ﷻ ما رأيتم؛ فاشكروا الله على نعمه، فإن ربّكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد.

---

[1] مسند أحمد /٤٤/٢١٦(٢٦٥٩٦). صححهُ الألباني في الصحيحة ٣/ ٣٥٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب وللبعيد من صدّق الله ﷻ ورسوله وعملوا بشره ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع البشر ممن ﴿آمَنُوا﴾: الذين صدّقوا الله ﷻ ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه وأوامره ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَخُونُوا اللَّهَ﴾: الخيانة هي إظهارُ الإيمان والطاعة ومخالفتها في الباطن، لا تخونوا الله ﷻ؛ بترك ما أوجبه الله ﷻ عليكم، وفعل ما نهاكم عنه، ولا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه، وأوجبه، ولا تخونوا ﴿وَ﴾: أيضًا لا تخونوا ﴿الرَّسُولَ﴾: ﷺ أيضاً يحكم اللهُ ﷻ على صاحب هذه القصة بالإيمان وهو أبو لبابة بن عبد المنذر فعَنْ عَائِشَةَ (في بني قريظة) قَالَتْ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصَارُهُمْ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ، قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ[١]. فقال أبو لبابة: والذي نفسي بيده، ما زالت قدماي من مكاني، حتى علمت أنّي قد خنت الله ورسوله، وأوثق نفسه إلى سارية المسجد، حتى أنزل الله ﷻ توبته ونزل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾، يعني: لا تخونوا أماناتكم. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنها خيانة[٢]. وقيل نزلت في قتل عثمان ﷺ، وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة، أيام عام الفتح الذي أرسل كتابًا إلى قريش، فعَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ المُشْرِكِينَ، مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُشْرِكِينَ، قَالَ: فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْنَا: أَيْنَ الكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ؟ قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَأَنَخْنَا بِهَا، فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا، قَالَ صَاحِبَايَ: مَا نَرَى كِتَابًا، قَالَ: قُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنِّي أَهْوَتْ بِيَدِهَا إِلَى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتِ الكِتَابَ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ: مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا غَيَّرْتُ وَلاَ بَدَّلْتُ، أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ: صَدَقَ، فَلاَ تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: فَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ

---

[١] مسند أحمد ٢٦/٤٢/(٢٥٠٩٧). وحسنه الألباني في الصحيحة ١/ ١٤٣.

[٢] تفسير السمرقندي ١٧/٢. وقال إياد القيسي في درج الدرر في تفسير الآي والسور ٨٣٩/٢: مرسل.

عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ قَالَ: فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ[1]. ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿تَخُونُوا﴾: هي نقض الفرائض، وترك السُنن، وارتكاب المعاصي ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾: هي الفريضة، وهي الأعمال التي ائتمن الله ﷻ عليها العباد ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَعْلَمُونَ﴾: تدرون وتعون الحقيقة.

التكليف: إنّ الآية عامّة، فالأخذ بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب عند الجمهور من العلماء.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

﴿وَاعْلَمُوا﴾: علم يقين أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا﴾: أداةٌ تُفيد التوكيد ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾: ثرواتكم التي استخلفكم الله ﷻ فيها ﴿وَأَوْلَادُكُمْ﴾: الذين وهبهم الله ﷻ لكم، ومنهم الأحفاد الذين وهبكم الله ﷻ ﴿فِتْنَةٌ﴾: هي هنا الاشتغال بهم الذي يفتنكم عن طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ اختبارٌ وامتحانٌ وابتلاءٌ وأسبابٌ للكفر من أعداء الله ﷻ، وقد جاء: **﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾** [الأنبياء–٣٥]، وجاء أيضًا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [المنافقون–٩] ﴿وَأَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ عِنْدَهُ﴾: في ملكِهِ وما أعده ﴿أَجْرٌ﴾: ثواب ﴿عَظِيمٌ﴾: ثمينٌ غالٍ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين الذي يُنادي؛ وهو الله ﷻ مع الذي يُنادى عليهم وهم المؤمنون الصادقون ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: الذين صدّقوا بالله ﷻ وبرسوله وعملوا بشرعه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَتَّقُوا﴾: تتجنبوا نواهي وغضب؛ جاء اللفظ التقوى؛ لأنها تقي أي تحفظ وتحمي العبد من النّار التي شرّعها ﴿اللَّهَ﴾: باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه ﴿يَجْعَلْ﴾: يخلق ويهيئ ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا وتمليكًا ﴿فُرْقَانًا﴾: فصلًا، وهدايةً، ونورًا، ونجاةً، ويُلهمكم ما تُفرّقون به بين الحق والباطل، فلا تلتبس عندكم الأمور، جاء: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** [الطلاق–٢]، قال ابن عباس: أنصار، وقال محمد بن اسحق: يجعل لكم فصلًا بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرْ﴾: أيضًا يزيل ويمحو ﴿عَنْكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد انتهاء الغاية ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ﴾: أيضًا يتوب ويسامح ويمحو

---

[1] صحيح البخاري /٨/٥٧(٦٢٥٩).

﴿لَكُمْ﴾: ما عليكم؛ لأنّه ﷻ ﴿وَاللَّهُ ذُو﴾: صاحب ﴿الْفَضْلِ﴾: المنّة والعطاء ﴿الْعَظِيمِ﴾: صاحب الجنّة أعدّت للمتقين.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يُفيدُ ما مضى من الزمن، اذكر يا محمد ﷺ ما حدث في الماضي ﴿يَمْكُرُ﴾: يكيد ويتآمر في الخفاء ﴿بِكَ﴾: عليك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: المشركون من قومك في مكّة ﴿لِ﴾: حرف علةٍ وسببٍ ﴿يُثْبِتُوكَ﴾: يُقيدوك ويسجنوك ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿يَقْتُلُوكَ﴾: أولًا القتل، أي إزهاق روحك: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: ينفوك بإبعادك عن وطنك وأهلك، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فَمَكَرَتْ بِهِ، وَأَرَادُوا بِهِ مَا أَرَادُوا، أَتَاهُ جِبْرِيلُ، ﵇، فَأَمَرَهُ أَلَّا يَبِيتَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيهِ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَبِيتَ عَلَى فِرَاشِهِ وَأَنْ يَتَسَجَّى بِبُرد لَهُ أَخْضَرَ، فَفَعَلَ. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَوْمِ وَهُمْ عَلَى بَابِهِ، وخَرَج مَعَهُ بِحَفْنَةٍ مِنْ تُرَابٍ، فَجَعَلَ يذرها على رؤوسهم، وَأَخَذَ اللَّهُ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس-١-٩][1]. ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يَمْكُرُونَ﴾: يكيدون لقتل النبي ﷺ عطفًا على مكرهم ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾: وعطفاً على مكر الكافرين، يبطل الله تعالى مكرهم، هذا المعنى من باب المشاكلة، حيث يتفق اللفظ ويختلف المعنى، أي يُبطلُ مكرهم، أو يعاقبهم عليه، وجاء لفظ مكر الله بمعنى ردّ عليهم بمجازاتهم وعقابهم، ويُخرج رسوله ووليه من بين أيديهم سالمًا، وقد حفظهُ في غار حراء، وحفظه وهو في طريقه إلى المدينة في منطقة متعددة التضاريس، وتبعد عنها حوالي أربعمائة وخمسين كيلو مترًا ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ﴾: أفضلُ وأقدرُ وأعزُّ ﴿الْمَاكِرِينَ﴾: هو الذي يُبطل مكر المجرمين، ويُنجي من يشاء بفضله وكرمه، وهذ نموذج الصراع بين مكر الله ﷻ ومكر المشركين؛ فإنّ النصر يجنيه المؤمن مهما أصابه من عنت.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١)

﴿وَإِذَا﴾: حرفُ عطف ما بعدها على ما قبلها ﴿تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾: إذا قرأ النبيُّ ﷺ على المشركين، الذين كفروا بالله ﷻ، أو قرأ مسلمٌ ﴿آيَاتُنَا﴾: من القرآن الكريم ﴿قَالُوا﴾: جهلًا

[1] دلائل النبوة للبيهقي /٤٦٩/٢ مرسلًا من رواية ابن إسحاق، قال البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا.

وضلالًا. وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لَعَنَهُ اللَّهُ كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ والسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ. كَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيَنْصِبُ لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَكَانَ قَدْ قَدِمَ الْحِيرَةَ، وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَأَحَادِيثَ رُسْتُمَ وَاسْبِنْدِيَارَ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسًا فَذَكَّرَ فِيهِ بِاللَّه، وَحَذَّرَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ، خَلَفَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، فَهَلُمَّ إِلَيَّ، فَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتُمَ وَاسْبِنْدِيَار، ثُمَّ يَقُول: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي؟.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيمَا بَلَغَنِي: سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ[1]. وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، وَطُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيٍّ، وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ؛ وَكَانَ الْمِقْدَادُ أَسَرَ النَّضْرَ، فَلَمَّا أُمِرَ بِقَتْلِهِ قَالَ الْمِقْدَادُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسِيرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا يَقُولُ». فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ[2].

﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿سَمِعْنَا﴾: مثل هذا الكلام ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿نَشَاءُ﴾: أردنا ورغبنا ﴿لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾: حرف اللام يفيد السبب؛ عندنا أقوالٌ متشابهةٌ مثل ما تقولون ﴿إِنْ هَذَا﴾: آيات القرآن الكريم، ما تقول ما هو ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَسَاطِيرُ﴾: جمع أسطورة، والمقصود بها قصص أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: الأمم السابقة المكتوبة؛ ليبرروا كفرهم بها.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدل على ما مضى ﴿قَالُوا﴾: واذكر يا محمد قول كفّار مكّة من قومك داعين الله ﷻ ﴿اللَّهُمَّ﴾: الأصل فيها يا الله تم حذف حرف أداة النداء، وتم تعويضها بحرف الميم، هي حرفُ شرطٍ، وتفيد تمكين الجواب ﴿إِنْ كَانَ﴾: في الماضي والحاضر ﴿هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾: الصدق الذي جاء به محمدٌ من ربّه وهو الحق ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة، أي مصدرها ﴿عِنْدِكَ﴾: إذا أنزلت هذا الكتاب على محمد حقًا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾: أنزل علينا كميات كثيرة، وبسرعة ﴿حِجَارَةً مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية ﴿السَّمَاءِ﴾: بدلًا من أنْ يقولوا اهدنا لاتباعه، طلبوا ما يدمّرهم؛ فاستعجلوا العذاب بصورةٍ

---

[1] سيرة ابن هشام ١/٣٠٠. الحديث مرسلًا.

[2] تفسير الطبري بإسناده عن سعيد بن جبير مرفوعًا هكذا مرسلًا. وبنحوه أخرجه القاسم بن سلام في كتاب الأموال ١/٢٣٠(٣٤٥).

بشعةٍ، نزول الحجارة عليهم من السماء، قال ﷻ في هذا السياق أيضًا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت-٥٣]، وقد قالوا ذلك لشعيبٍ، ﵇، من قبل: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء-١٨٧] ﴿أَوِ﴾: حرفٌ يُفيدُ التسوية بين المتعاطفين، كان الأوّل نزول الحجارةِ عليهم، والثانية ﴿ائْتِنَا﴾: أنزل علينا، أصبنا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: شديدٍ موجعٍ؛ مبالغةً في التحدي، والجحود، والإنكار، وإبراز يقينهم في الباطل الذي يعتقدون.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿كَانَ اللَّهُ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ؛ يعود هنا على المشركين ﴿يُعَذِّبَهُمْ﴾: وتوضح الآية الكريمة أنّ عناصر الأمان للمؤمنين بمحمدٍ ﷺ كانت: وجود النبي ﷺ بينهم، أُمّة الذين استجابوا أو أُمّة الدعاة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَدْ فَيَقُولُونَ إِلَّا شَرِيكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، وَيَقُولُونَ: غُفْرَانَكَ غُفْرَانَكَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال-٣٣]، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، وَالِاسْتِغْفَارُ، قَالَ: فَذَهَبَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَبَقِيَ الِاسْتِغْفَارُ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال-٣٤] قَالَ: فَهَذَا عَذَابُ الْآخِرَةِ وَذَلِكَ عَذَابُ الدُّنْيَا ([1])، ﴿وَأَنْتَ﴾: يا محمد ﷺ ﴿فِيهِمْ﴾: موجود بينهم، قال قال ابن عباس: ما كان الله ليُعذّب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجوا، وقد خرج النبيُّ من مكّة، وبقي الاستغفار فيهم إلى يوم القيامة، فإنّ قول ابن عباس هنا يشمل أمان الكافرين أيضًا ما دام فيهم الرسول ﷺ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: يرضى ﴿اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يُصَلون، وقيل هم أهل مكّة، وقيل مؤمنو مكّة، وقيل وفيهم من يستغفر من المسلمين.

التكليف: تأمل هنا فضيلة الاستغفار.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)

هذه الآية نسخت سابقتها ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَهُمْ﴾: وكيف لا يستحقون عذاب الله ﷻ؟ ماذا يملكون وما الذي يمنع الله ﷻ ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيص

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي ٥/٧٢(٩٠٣٧).

﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾: أنْ يصيبهم بالعذاب، ولكن لبركة مقام الرسول ﷺ بينهم؛ حتى إذا خرج من مكّة إلى المدينة كانت موقعة بدر، لتُقْتَل صناديدُهم، ويُثأَرُ من قادتهم، أي أنّهم مستحقون لعذاب الله ﷻ لما ارتكبوا من القبائح ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَصُدُّونَ﴾: يمنعون الناس بالقوة ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: وهذا سببٌ آخرُ لعذابهم؛ إذ كانوا يمنعون المؤمنين من الصلاة والطواف حول الكعبة المُشرّفة ﴿وَمَا﴾: أيضاً هنا نفي ﴿كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾: الولي الحبيب هو الصاحب، والمؤيد، والمناصر؛ هذا عليهم؛ لأنّهم كانوا يقولون إنّهم ولاةُ البيت ﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى ما ﴿أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الْمُتَّقُونَ﴾: إنّ أحباب الله ﷻ هم الذين آمنوا، هم أولياء المسجد؛ يعمرونه صلاة وطوافًا. قال مجاهد: أولياء الرسول هم كلُّ مُجاهدٍ من حيث كانوا، ودوره، ورسالته ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ استدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: غالبيتهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: معنى الولاء والبراء، هذه معضلةُ كلّ عصرٍ؛ حتى يأتي وعد الله، وإنّ أكثر البشر في جهلٍ بحقيقة الكون، وحقيقة خالقه ﷻ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥)

هذه الآية والتي سبقتها نسخت الآية رقم [٣٣] بعد خروج الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾: عبادتهم ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمان، وظرف مكان ﴿الْبَيْتِ﴾: في الكعبة المشرّفة ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ، كانت صلاة الكافرين هي: ﴿مُكَاءً﴾: الصفير، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: هو صفيرٌ يُشبه صفير طير اسمه المُكاء في أرض الحجاز ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: وأيضًا كان من صلاتهم التصفيق، قال ابن جبير: كان الهدف صدّ النّاس عن سبيل الله ﷻ، فكانوا بهذه الضوضاء يشوشون على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في صلاتهم؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُكَاءً﴾: «إِدْخَالُ أَصَابِعِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: «الصَّفِيرُ»[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مكاء وتصدية﴾ قَالَ الْمُكَاءُ الصَّفِيرُ وَالتَّصْدِيَةُ التَّصْفِيقُ[2]، كلُّ هذه الأعمال وأشباهها كان بغرض التشويش على النبي في صلاته ﷺ ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي يفيد السبب؛ بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿ذُوقُوا﴾: وأصلها بوجود قليل في الفم؛ لمعرفة الطعم، والمعنى هنا أسلوب يفيد أنّ الله ﷻ يتهكم من هؤلاء المشركين؛ لأنّ التذوق هو من باب التلذذ بالطعام، وجاءت هنا

---

[1] صحيح البخاري ٦/٦١ باب سورة الأنفال.

[2] المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ١٠/١١٧(١١٦).

حتى يشعروا بهذا العذاب الأليم الذي ينتظرهم، بإيادي المؤمنين بالقتل في موقعة بدر، أو في الآخرة من الله ﷻ؛ على كفرهم وجحودهم، ﴿الْعَذَابَ﴾: ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، قال مجاهد: كان عذاب أهل الإقرار بالسيف، وكان عذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في السابق ﴿تَكْفُرُونَ﴾: تُغطون الأدلّة والبراهين على صحّة الدعوة الإسلامية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦)

أسباب النزول: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع من بقي حيًّا إلى مكّة، ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجالٍ من قريش؛ فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ، فَلَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُ ثَأْرَنَا بِمَنْ أَصَابَ مِنَّا فَفَعَلُوا، وَفِيهِمْ – كَمَا قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ – نَزَلَتْ الآيةُ قَوْلُهُ ﷻ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾**[1]، ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: هؤلاء الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ؛ وعصوا رسوله؛ بإصرارهم على الكفر؛ وصدّوا الناس عن المسجد الحرام، واستخدموا وسائل أخرى؛ ويبيّن اللهُ ﷻ من وسائل الكافرين أنّهم سوف ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: مثل عير أبي سفيان وغيرها ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَصُدُّوا﴾: يمنعوا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ليمنعوا ظهور الدين الحق ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد الاستئناف ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد التحقق في القول والفعل في المستقبل ﴿يُنْفِقُونَهَا﴾: سيصرفونها للكيد ضد الإسلام ومحاربته ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني غير العاجل ﴿تَكُونُ﴾: تصبح وتصير ﴿عَلَيْهِمْ﴾: تنقلب نتائجُها ﴿حَسْرَةً﴾: لن تحقق أهدافها فينال الكفّار ندامة الهزيمة وندامة خسران الأموال ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني البطيء ﴿يُغْلَبُونَ﴾: يُهزمون كما حدث في بدرٍ وما بعدها ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق؛ فإنّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾: جمعُهم جمعًا مكدّسًا مُتراكمًا؛ جمعت هذه الآية بين هزيمة الكافرين في الدنيا وبيّن مصيرهم في جهنّم في الآخرة؛ يوم القيامة، يوم الحشر، حيث جهنّم تنتظرهم خالدين فيها أبدًا.

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي ٣/٢٢٤. قلت: الحديث مقطوع من رواية الزهري.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٧)

﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَمِيزَ اللَّهُ﴾: يُميّزُ اللهُ ﷻ، يُفصّل ويوضّح، ويُبيّن صفات ﴿الْخَبِيثَ﴾: أهل الفساد والشقاء، والكفر، والعصيان؛ بهدف كشفه وفضحه ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الطَّيِّبِ﴾: جاءت الكلمتان الخبيث والطيب من باب الطباق، والطيب هو من أهل السعادة، من المؤمنين، المُطيعين، ويحتمل ذلك أنْ يكون يوم القيامة، والله أعلم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ﴾: جزء منه ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾: وهو الجزء الآخر حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب بهدف ترتيب الأمر في تتابعٍ سريع ﴿يَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾: يجمعُ بعضهُ على بعضٍ، ويشمل هذا الأشخاص، والأموال، يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور-٤٣] ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب بدون تأخير ﴿يَجْعَلَهُ﴾: يُحدّدُ مآله ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾: وهي الخسارة العظمى ﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ هنا للبعيد، هنا المقصود الفريق الخبيث؛ لتوضيح مدى خسارتهم ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: في الدنيا، وفي الآخرة.

التكليف: هناك فرق بين التحالف الذي يشدُّ بعضُهُ بعضًا، وبين تحالف الركام؛ الذي ينهزم في الدنيا، ومصيره جهنّم يوم القيامة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ بالقول من الله ﷻ إلى محمد ﷺ، وهو عامّ يقال في أيّ زمانٍ بعده ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: المشركين من قومك الذين جحدوا وأنكروا وحدانية الله ﷻ ﴿إِنْ﴾: حرف تأكيد ﴿يَنْتَهُوا﴾: إنْ يكفّوا ويُقلعوا عن كفرهم بالله ﷻ، ورسوله ﷺ، والشقاق والعناد، وعداوتهم للنبي ﷺ ويدخلوا في الإسلام ﴿يُغْفَرْ﴾: يسامح الله ﷻ عمّا سبق ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿سَلَفَ﴾: الذنوب التي تحققت في الماضي، جاء في الصحيح: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ ﷺ: مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلاَمِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلاَمِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ[1]. وقَالَ ﷺ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ

---

[1] صحيح البخاري /٩/١٤(٦٩٢١).

مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟[1] ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿يَعُودُوا﴾: أن يستمروا في ضلالهم، أو يعودوا بعد التوبة إلى العصيان ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾: لقد نفذت؛ وتحققت ﴿سُنَّتُ﴾: القوانين الربّانيّة في ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: جرت وتحققت سنّته ﷻ في الأولين، وهي المُعاجلةُ بالعذاب، والعقوبة، وكان النموذج الواضح قضيةَ موقعة بدرٍ، وما حدث بعدها في غيرها من الأمم.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾: هنا أمرُ الله ﷻ للمؤمنين بمقاتلة الأعداء ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ وهي مشروعية مقاتلتهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَكُونَ﴾: تصبح وتصير ﴿فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يكون هناك شركٌ، ولا يُفتن المسلم، أو يُصدَّ عن دينه ﴿وَ﴾: عطفًا عل ما جاء ﴿يَكُونَ الدِّينُ﴾: الاعتقاد والتصديق الصحيح ﴿كُلُّهُ﴾: دونَ استثناء ﴿لِلَّهِ﴾: يخلص التوحيد لله ﷻ ليس فيه شركٌ، ولا أندادٌ، ولا يكون دين كفرٍ ﴿فَإِنِ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿انْتَهَوْا﴾: إنْ كفّوا عن الكفر؛ حتى ولو في الظاهر ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِمَا﴾: بالذي ﴿يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: إنّه ﷻ يعلم علم المشاهدة، فهو مطلعٌ على قلوبهم، جاء قول الحق: ﴿إِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة-١٩٣].

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٤٠)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا وانصرفوا وابتعدوا عن الإسلام، واستمروا في حربكم، ومخالفتكم ﴿فَ﴾: حرفٌ ربط الجواب وهو ﴿اعْلَمُوا﴾: أيقنوا وتأكدوا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار والشك ﴿اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: هو ﷻ النصير، والمؤيد، والمحب ﴿نِعْمَ﴾: يفيد المدح ﴿الْمَوْلَى﴾: المحبُ والمؤيد، والناصر ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: أكرم به من مولى، ونعم النصير مدحٌ وحمدٌ لله ﷻ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اعْلَمُوا﴾: تذكروا، واعرفوا، وتيقنوا أيّها المؤمنون ﴿أَنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيدُ التوكيد؛ أنّ الذي ﴿غَنِمْتُمْ﴾: ظفرتم به من عدوكم وحصلتم عليه بالجهاد في

---

[1] صحيح مسلم /١/١١٢(١٢١).

سبيل الله ﷻ، من غنائم النصر في الحرب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد بعض أو جزء ﴿شَيْءٍ﴾: عموم الغنائم، جاءت الكلمةُ هنا بصيغة النكرة بهدف التقليل، لقد بيّن الله ﷻ شرعه لهذه الأمّة الشريفة، وهي إحلال الغنائم التي أُخذت من الكفّار قهرًا، والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفّار، بإيجاف الخيل، والركاب، أي في المعركة، أمّا الفيء: فهو ما أُخذ منهم بغير ذلك، مثلُ مالٍ يُصالحون عليه، أو يتوّفوّن عنه؛ أي يموتون ويتركونه، ولا إرث لهم، والجزية والخراج، والغنائم تُقسّم بحسب الآتي: أربعةُ أخماس للمقاتلين الذين حضروا المعركة، والخمس الباقي يُجزأ خمسة أقسام ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ فأربعةُ أخماسه حُكمًا للرسول تطبيقًا، والثاني لقرابة النبي وهم بنو هاشم بن عبد المطلب، والثالث لليتامى الذين فقدوا آباءهم قبل سنِّ البلوغ، والرابع للمدين وهكذا في مصالح المسلمين العامّة للمقاتلين الذين شاركوا في المعركة، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الرَّسُولِ﴾: ﷺ تأكيد على خُمس القليل والكثير؛ حتى الخيط والإبرة، والباقي أربعُ أخماسٍ للغانمين قال ﷻ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران-١٦١]، وعَنْ رَجُلٍ، مِنْ بُلْقِينَ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الْغَنِيمَةِ؟ قَالَ: لِلَّهِ خُمُسُهَا، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجَيْشِ، قُلْتُ: فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَا، وَلَا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ لَسْتَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ[1] ﴿وَلِذِي﴾: أيضاً أصحاب ﴿الْقُرْبَى﴾: الأقارب، وقسم ﴿وَالْيَتَامَى﴾: أيضًا أيتام المسلمين، وهنا اختلاف: هل لليتامى الفقراء أم الأغنياء؟ ﴿وَ﴾: أيضًا قسمٌ مخصصُ لشريحةٍ من المجتمع هم ﴿الْمَسَاكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما يسدُّ حاجتهم، ومسكنتهم، وقسم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المُسافر الذي يريد السفر لمسافةٍ تقصر فيها الصلاة، الذين انقطعت بهم السبل، وليس معه ما ينفقه في سفره ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، إذا ﴿كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿اللَّهِ﴾: إذا كان إيمانكم خالصًا ﴿وَمَا﴾: بالذي ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾: على محمدٍ بن عبد الله ﷺ جاء ذكر عبوديته لله ﷻ للتشريف والتكريم ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: حيث أعلى الله ﷻ فيه كلمةَ الحقّ على كلمةِ الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيّه؛ فَرّقَ اللهُ ﷻ فيه بين الحق والباطل، ولقد جاء لفظ ﴿الْفُرْقَانِ﴾ في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى النصر، وجاءت بالمعنى نفسه في قوله ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة-٥٣]، وبمعنى القرآن الكريم في قوله ﷻ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان-١] وفي قوله أيضًا ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ

---

[1] صحيح مسلم /١/١١٢(١٢١).

الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران–٤]، وبمعنى المخرج في قوله ﷻ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة–١٨٥] وفي قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال–٢٩] ﴿وَ﴾: حرف عطفٍ يفيد هنا الحال؛ تيقنوا أنّ ﴿اللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تُفيد عموم ﴿شَيْءٍ﴾: تُفيدُ عموم الأشياء؛ لأنّها جاءت بصيغة النكرة بعد كلّ شيء ﴿قَدِيرٌ﴾: إنّ الخالق لهذا الكون من غير سابق مثالٍ هو المُسيّر له بأمره ﷻ.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢)

﴿إِذْ﴾: ظرف يدُلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين ﴿أَنْتُمْ بِ﴾: حرف باء يفيد هنا ظرف المكان، اذكروا حينما كنتم في ﴿الْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾: والدنيا هنا بمعنى القريبة من حافّة الوادي، حيث كان المسلمون في موقع عدوة الوادي الغربية، القريبة من المدينة ﴿وَهُمْ﴾: وأيضًا كان الأعداء الكفّار ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾: وكان الكافرون في العدوة البعيدة عن المدينة المنوّرة من حافّة الوادي من الجهة الأخرى، ناحية مكّة المكرّمة ﴿وَالرَّكْبُ﴾: أيضاً كانت فيها عير أبي سفيان، وما فيها من تجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية المكانية، كانت مما يلي سيف البحر الأحمر، الشاطئ ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الشرط ﴿تَوَاعَدْتُمْ﴾: لو اتفقتم أنتم والمشركون على مكان بدر ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: لو عرف كلُّ طرفٍ ما عند الآخر من أعداد الجيش والسلاح، ما ذهبتم للقتال؛ لكثرةِ عدوكم ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفٌ يفيد الاستدراك ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾: يحقق اللهُ ﷻ فعلًا، وقرارًا، وحدثًا ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾: لتتحقق إرادة الله ﷻ بنصر المسلمين وإذلال المشركين، خرج أبو جهل لنصرة أبي سفيان، ووصل أبو سفيان قادمًا من الشام، ولا يعرفُ أيُّ طرفٍ من الثلاثة بالآخر، أراد أبو جهل أنْ يقعد في المكان ثلاثة أيام؛ للبهرجة، وإشعار العرب بقوته، وأراد أبو سفيان أنْ يرجع ومن معه إلى مكّة بعد أنْ نجت عيرُهم ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَهْلِكَ﴾: يفني ﴿مَنْ﴾: الذي من البشر ﴿هَلَكَ﴾: مات ﴿عَنْ﴾: حرف جر بمعنى على وتفيد السبب ﴿بَيِّنَةٍ﴾: ليحقق الله ﷻ

فيهم موت الكافرين، بعد أنْ بلغتهم دعوة رسول الله ﷺ ورأوا ما ينتظرهم، ويبقى المؤمنون بإيمانهم على بينّة ﴿وَيَحْيَى﴾: أيضًا يبقى حيًّا ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس الإنسان ﴿حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: وليكون الذين آمنوا على بصيرة؛ فالإيمان حياة القلوب رغم قلة عددهم وأسلحتهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾: يسمع دعاء المؤمنين، وتضرعهم، واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾: بهم؛ ظاهرهم وباطنهم، وأنّهم يستحقون النصر على أعدائهم.

التكليف: إنّ القتال إرادة ربّانية تتجلى الفوائد بعد وقوعها ليستفيد منها النّاس.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ للتعليل يدُلُّ على ما مضى من الزمن، واذكر أيها النبي حين ﴿يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: يجعلك تُشاهد ﴿فِي مَنَامِكَ﴾: في الرؤيا عددهم ﴿قَلِيلًا﴾: أعدادهم قليلة؛ لتطمئنوا ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَرَاكَهُمْ﴾: جعلك تشاهدهم ﴿كَثِيرًا﴾: ولو رأيتهم في النهار أنّهم أكثر منكم عددًا؛ ﴿لَ﴾: حرف لام العاقبة ﴿فَشِلْتُمْ﴾: خفقتم وتراجعتم عن القتال ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أيضًا لترددتم، واختلفتم في المواجهة ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿اللَّهَ سَلَّمَ﴾: سلّمكم من الخلاف، ومن الجبن، ومن الخوف، ومن النزاع ﴿إِنَّهُ﴾: حرف تأكيد، إنّه ﷻ ﴿عَلِيمٌ﴾: علم الصانع بصنعته ﴿بِذَاتِ﴾: طبيعة النفوس التي في ﴿الصُّدُورِ﴾: ما في الضمائر والسرائر وما تخفي النفوس.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)

﴿وَإِذْ﴾: واذكر أيضًا يا محمد ﷺ حينما ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: شاهدتم مشاهدة العين بروز أعدائكم للقتال ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾: في المواجهة ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾: في نظركم الذي قد يخدعكم ﴿قَلِيلًا﴾: من لطف الله ﷻ بعباده أنْ جعل المسلمين يرون الأعداء قليلي العدد؛ فجرّأهم عليهم، وطمّعهم في قتالهم؛ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قُلْتُ لِصَاحِبٍ لِي إِلَى جَنْبِي: كَمْ تُرَاهُمْ؟ تُرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أُرَاهُمْ مِائَةً، حَتَّى أَخَذْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا[1]، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾: يخفض من عددكم ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾: صوّر الله ﷻ عدد المسلمين للكفّار قليلًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَقْضِيَ﴾: يحقق في الواقع ﴿اللَّهُ أَمْرًا﴾: إرادة ربّانية ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾: حتى يتحقق الأمر المقدر، الذي هو هنا بمعنى القتل ببدر؛ لتحدث الحرب؛ ولينتقم

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة ٧/٣٦٠(٣٦٦٩٨).

الله ﷻ من الكفّار، وليُنعم على المسلمين بالنصر، لقد أغرى الله ﷻ كلا الطرفين، وقلّل كلَّ طرفٍ في عين الطرف الآخر؛ حتى حدثت المواجهة، وأيّد الله ﷻ المؤمنين بألفٍ من الملائكة مردفين ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: الكلُّ راجعٌ إلى ربّه؛ فيُجازي المحسن جنّة، والمسيء نارًا.

التكليف: كان تقديم الجار والمجرور للاختصاص، أنّ مرد وإرجاع الأمور كلّها إلى الله ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ **﴿آمَنُوا﴾**: نداء للمؤمنين المُقبلين على القتال، هذه واحدةٌ من آيات آداب القتال في سبيل الله ﷻ؛ لتعليم المؤمنين أصول مواجهة الأعداء **﴿إِذَا﴾**: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها، الأول هو **﴿لَقِيتُمْ فِئَةً﴾**: الفئة هي الطائفة المقاتلة إذا حاربتم وواجهتم أعداءكم من الكافرين والثاني **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يفيد ربط جواب الشرط **﴿اثْبُتُوا﴾**: بالثبات عند القتال والصبر في المواجهة، لا فرار، ولا تخاذل، ولا جُبن **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، يجمع هنا بين الثبات وذكر الله ﷻ **﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾**: التسبيح والحمد والدعاء **﴿كَثِيرًا﴾**: اذكروا الله كثيرًا؛ حتى لا تنسوه؛ فبيده النصر، اسألوه العون، وتوكلوا عليه، والصمت مع الذكر **﴿لَعَلَّكُمْ﴾**: لعل إذا جاءت من الله ﷻ تعني الإشفاق والتحقق، وهنا قد تحقق الانتصار على الأعداء ولو جاءت من عند البشر فتفيد الترجي **﴿تُفْلِحُونَ﴾**: تفوزون وتنتصرون في الدنيا وتخلُدون في الجنّة في الآخرة.

التكليف: قال ﷺ: لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا، وَاذْكُرُوا اللَّهَ، وَإِنْ أَجْلَبُوا وَصَاحُوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ[1]، وقضاء الله ﷻ نافذ مهما اختلفت موازين القوى.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦)

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾: عطفًا على ما سبق التزموا طاعة الله ﷻ، وقد جاءت وسيلة الطاعة مقترنة بالذكر، والاستعانة، والصمت **﴿وَرَسُولَهُ﴾**: ﷺ وأيضًا طاعة القائد في المعركة، والتي حددتها الكلمات التالية **﴿وَلَا﴾**: حرف نهي وتحريم **﴿تَنَازَعُوا﴾**: لا تختلفوا، وتتفرق آراؤكم؛ لأنّ الخلاف سيقودكم **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يفيد السبب **﴿تَفْشَلُوا﴾**: وهذا نتيجة الاختلاف، وكأنّها متلازمة، تنازعوا؛ فتفشلوا **﴿وَتَذْهَبَ﴾**: تمضى وتأخذ، وتمحو، وتزيل وتضيع **﴿رِيحُكُمْ﴾**:

---

[1] مصنف عبد الرزاق ٥/٢٥٠(٩٥١٨).

بمعنى قوتكم المعنوية والمادية، وما أنتم فيه من الشجاعة والإقدام ﴿وَاصْبِرُوا﴾: أيضاً اصبروا في العسر وفي اليسر واعلموا ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ مَعَ﴾: ناصر، ومؤيد، ومُساند ﴿الصَّابِرِينَ﴾: في اليسر وفي العسر، إنّ مفتاح النصر والعون من الله ﷻ، يُختم بالصبر على الأذى، من جروحٍ، وشهداء وجهد، وقد ترجم صحابة رسول الله ﷺ هذه الكلمات عملًا في الساحات؛ ففتحوا الدنيا شرقًا وغربًا في سنواتٍ قليلةٍ، وبهذا وصلت دولة الإيمان مشارق الدنيا ومغاربها.

التكليف: هذه الآية لخصت عوامل النصر والتمكين للأمة وهي: (الثبات، ذكر الله، طاعة الله ورسوله، عدم التنازع والشقاق، الصبر، والإخلاص).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧)

أسباب النزول: قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقال محمد بن كعب: نزلت في الذين خرجوا من قريش من مكّة إلى بدر بالقيان والدفوف، فقد بَعَثَ أبو سفيان إِلَى قُرَيْشٍ أَنَّ اللهَ قَدْ نَجَّى عِيرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَرِجَالَكُمْ، فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا – وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ – فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا، فلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا[1]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَكُونُوا﴾: نهي من التشبه ﴿كَ﴾: مثل أو حال ﴿الَّذِين﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممن ﴿خَرَجُوا﴾: تركوا وغادروا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿دِيَارِهِمْ﴾: من مساكنهم وأوطانهم ﴿بَطَرًا﴾: هو التظاهر والفخر، ومن هنا جاء النهي عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من مكّة؛ تكبرًا وتفاخرًا بين النّاس ضد الحق، وهذا هو البطر ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾: من باب المفاخرة، والتكبر على النّاس: حتى يروا كما قال أبو جهل وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا، فلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: يمنعون النّاس ﴿عَنْ﴾: حرف جر يفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ﴾: طريق ومنهج ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ عن

[1] السيرة النبوية لابن هشام ٦٧٣/١.

الإيمان ﴿وَاللَّهُ بِمَا﴾: بالذي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: يخططون ويتآمرون ﴿مُحِيطٌ﴾: أحاط وطوّق نياتهم وحدّد مستقبلهم، ولذلك جازاهم عليه شرّ الجزاء.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ إِبْلِيسُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَعَهُ رَأَيْتُهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا اصْطَفَّ النَّاسُ، أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَآهُ، وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَزَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ، فَوَلَّى مُدْبِرًا هُوَ وَشِيعَتُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةُ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟ قَالَ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلاَئِكَةَ[1]. ﴿وَإِذْ﴾: واذكروا حين ﴿زَيَّنَ﴾: جمّل وحسّن ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿هُمُ﴾: ضمير رفع للجمع المذكر الغائب والمؤنث وهي للتخصيص، واذكروا أيّها المؤمنون يوم جاء ﴿الشَّيْطَانُ﴾: في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: ما يقترفون من الأقوال والأعمال ﴿وَقَالَ﴾: الشيطان لكم كاذبًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿غَالِبَ﴾: منتصر ﴿لَكُمُ﴾: لن يهزمكم أحدٌ ﴿الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾: لا أحد من النّاس يهزمكم اليوم ﴿وَإِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿جَارٌ لَكُمْ﴾: أنا حليفكم، أقف بجواركم في حربكم هذه ﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع والسبب ﴿تَرَاءَتِ﴾: شاهدتْ ﴿الْفِئَتَانِ﴾: الجيشان بعضهما عن قرب، ووقف كلُّ فريقٍ في مواجهة الآخر؛ يرى كلُّ طرفٍ الطرف الآخر ﴿نَكَصَ﴾: انقلب الشيطان ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: راجعًا هاربًا؛ عندما رأى جبريل عليه السلام ومعه الملائكة ﴿وَقَالَ﴾: الشيطان ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿بَرِيءٌ﴾: لا صلة لي بكم وبما تفعلون ﴿مِنْكُمْ﴾: فرّ الشيطان هاربًا متبرئًا من محاربتهم المسلمين؛ وعلّل ذلك ﴿إِنِّي أَرَى﴾: أعلم علم المشاهدة ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَا تَرَوْنَ﴾: أرى الملائكة تنزل من السماء؛ يقودهم جبريلُ عليه السلام، وأرى هزيمتكم، وأنتم لا ترون هذا ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾: أخاف؛ لأنّي أعلم غضب الله وعواقبه ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: وهذا ما سترونه من هزيمةٍ وذلّةٍ لكم ولمنْ يقفُ معكم.

التكليف: لا يزال الشيطان يتعامل مع اليهود، وأوليائهم، من المسلمين بالسياسة نفسها.

---

[1] تفسير الطبري /٢٢١/١١(١٦٢٦١). وحسنه أ. د. حكمت ياسين. في الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٤١١/٢.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩)

﴿إِذْ﴾: وأيضًا اذكر يا محمد ﷺ حين ﴿يَقُولُ﴾: يوم قالوا وهو لسان حالهم في كلّ وقتٍ وحينٍ ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾: قول الذين يُظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ولم يشهدوا بدرًا ﴿وَ﴾: أيضًا يقول ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَّن ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: في مراكز الوعي والإدراك عندهم ﴿مَرَضٌ﴾: النفاق، هم المنافقون والكافرون، الذين كانوا فئةً من قريش، ولم يخرجوا للقتال ﴿غَرَّ﴾: خدع وغشّ ﴿هَؤُلَاءِ﴾: تنبيه وإشارة للبعيد؛ الأول: منافقون لم يحضروا بدرًا من المدينة، والثاني: كفّارٌ من قريش لم يحضروا بدرًا، و الثالث: كفّارٌ ومنافقون من مكّة، حضروا بدرًا؛ والله أعلم ﴿دِينُهُمْ﴾: يشيرون إلى المسلمين أنّهم اغتروا، وانخدعوا في دينهم، وهاهم يظهرون قلّة في أعيننا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَتَوَكَّلْ﴾: يعتمد ﴿عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: هو القوي المنيع، ذو الأنفةِ، الأبيّ الذي لا يغلبه أحدٌ ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يُضام من التجأ إليه؛ لعزّته وجلاله، حكيم في أفعاله؛ يقدّر الفعل في موضعه، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من يستحق الهزيمة.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستحالة ﴿تَرَى﴾: لو شاهدت يا محمد ﷺ ماذا يفعل الملائكة بالكفّار يوم بدر ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدُلُّ على ما مضى من الزمن لبيان العلّة والسبب ﴿يَتَوَفَّى﴾: قيّض الله ﷻ الملائكة تقبض أرواح ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَّن ﴿كَفَرُوا﴾: ماذا فعل ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: حيث تزهق الملائكة أرواح الكفّار ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾: إذا أقبل الكفّار بوجوههم، تضربهم الملائكة بالسيوف على وجوههم عند إقبالهم ﴿وَ﴾: أيضًا إذا هربوا تضرب الملائكةُ ﴿أَدْبَارَهُمْ﴾: تضربهم الملائكة على ظهورهم بالسيوف عند هروبهم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿ذُوقُوا﴾: وأصلها بوجود قليل من الطعام في الفم لمعرفة الطعم، هنا بالسخرية والتهكم يكرر الله ﷻ القول بمعنى اصلوا، وعانوا، وقاسوا، تنادي عليهم الملائكةُ أنْ ذوقوا وعانوا جزاء ما فعلتم في الدنيا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: تنتظرهم جهنّم؛ ليعانوا عذابهم فيها.

التكليف: كان الكفّار يذوقون العذاب الأول بسيوف المسلمين في معركة بدر، وقيل هذا الضرب يكون عند الموت، وقيل هو يوم القيامة؛ حين يسيرون بهم إلى النّار وقيل يذوقون العذاب المُحرق بالنّار يوم القيامة، ويعزز هذا ما جاء في سورة [التوبة–٣٥] يوم ﴿**يحمى عليها في نار جهنم فتكوى**﴾ بها جباههم.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١)

﴿ذَلِكَ﴾: حرف يدل على البعيد، والهدف هو إظهار السبب، هذا العقاب، أي الموت، والحرق، والجرح، والهزيمة، وعذاب القبر، أي ذلك الجزاء الذي أصابكم **﴿بِمَا﴾**: اسم موصول هنا بمعنى الذي **﴿قَدَّمَتْ﴾**: فعلت **﴿أَيْدِيكُمْ﴾**: إنّ كسب الذنوب والخطايا لا يكون باليد فقط، وإنّما هنا ذُكرت اليد من باب التغليب؛ لأنّه ما من عملٍ يقومُ به الإنسان إلّا ولليد فيه دخلٌ وشانٌ **﴿وَأَنَّ﴾**: حرف تأكيد ونفي الشك **﴿اللَّهَ لَيْسَ﴾**: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي **﴿بِ﴾**: حرف باء التأكيد **﴿ظَلَّامٍ﴾**: صيغة مبالغة تُفيدُ بفعل الظلم الكبير **﴿لِ﴾**: حرف تخصيص وهي هنا زائدة؛ للتقوية **﴿الْعَبِيدِ﴾**: لم يكتب الله ﷻ على نفسه الظلم، ولفظ ظلّام صيغة تفيد أكبر من ظالم للذين خلقهم الله ﷻ ليعبدوه، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ[1].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢)

هذا العقاب والعذاب الذي أحاق بالكافرين حاله **﴿كَ﴾**: بمعنى مثل، أو حال **﴿دَأْبِ﴾**: عادةٍ مستمرةٍ، وسلوكٍ، وطباعٍ **﴿آلِ﴾**: بطانةِ وأهلِ **﴿فِرْعَوْنَ﴾**: حاكم مصر الظالم **﴿وَ﴾**: أيضًا كسلوك **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة **﴿قَبْلِهِمْ﴾**: مثل الذين خلوا من كفّار قريش؛ كذّبوا بالرسل، والأنبياء، والذين **﴿كَفَرُوا﴾**: أخفوا وغطّوا وأنكروا **﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾**: حرف باء السبب الأدلّة والبراهين على حقيقة الدين الذي هو من عند الله ﷻ على الخلق، وكذّبُوها، وحاربوا كلَّ من آمن بها **﴿فَ﴾**: حرفٌ يفيد السبب **﴿أَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾**: بسبب ذنوبهم عاقبهم الله ﷻ بالأخذ؛ وهو الموت **﴿بِ﴾**: حرفُ باء السبب **﴿ذُنُوبِهِمْ﴾**: عاقبهم بالفناء بسبب ذنوبهم **﴿إِنَّ﴾**: حرف تأكيد

---

[1] صحيح مسلم /٤/١٩٩٤(٢٥٧٧).

الفعل ﴿اللَّهَ قَوِيٌّ﴾: مقتدرٌ على فعلِ كلِّ شيءٍ في ملكه، وخلقه، وقدره ﷻ، لا يغلبهُ شيءٌ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: عقابُه شديدٌ أليمٌ. إنّ سُنن الله ﷻ لا تُحابي زمانًا ولا مكانًا ولا طائفةً، جرت من قبل، تجري اليوم وغدًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣)

﴿ذَٰلِكَ﴾: حرفٌ يدلُّ هنا على السبب البعيد، ذلك العذاب السيئ، العقاب الذي أنزله الله ﷻ بهم ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿اللَّهَ لَمْ﴾: حرف نفي المضارع ﴿يَكُ﴾: ما كان يصح منه لبالغ حكمته وعدله، ورحمته ولا يكون ﴿مُغَيِّرًا﴾: لا يزيل الله ﷻ ﴿نِعْمَةً﴾: خيرًا، أو عدلًا، أو فضلًا، أو رزقًا ﴿أَنْعَمَهَا﴾: تفضّل بها من قبل ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: عباده والقوم في اللغة هم جماعةٌ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ وهو تغيير النعمة ﴿يُغَيِّرُوا مَا﴾: الذي ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾: حرف باء الالتصاق، ما في قلوبهم، جوهر حقيقتهم، إلّا بسبب ذنوبٍ ارتكبوها، وغيرّوا إيمانهم بالكفر، وغيّروا الطاعة بالعصيان ﴿وَأَنَّ﴾: عطفاً على ما سبق هنا تأكيد ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يعلم ما توسوس به الأنفس وما تخفي الصدور ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم كلّ ما فيها؛ ظاهره وباطنه.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٥٤)

﴿كَ﴾: حرف يفيد التشبيه؛ بمعنى مثل ﴿دَأْبِ﴾: عادة وسلوك ﴿آلِ﴾: بطانة، ووزراء، وأهل ﴿فِرْعَوْنَ﴾: حاكم مصر الظالم في عهد موسى عليه السلام ﴿وَ﴾: أيضًا كعادةِ وسلوكِ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا تفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ﴾: مثل الذين خلوّا من كفّار قريش، والأمم الكافرة؛ هي الكلمات والمعاني الواردة في الآية (٥٢) ﴿كَذَّبُوا﴾: جحدوا وأنكروا ﴿بِآيَاتِ﴾: البراهين القاطعة ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: تم تدميرهم وفناؤهم بسبب ذنوبهم ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾: بسبب تكذيبهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَغْرَقْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع لعظم الحدث ﴿آلَ﴾: أهل وأنصار وأعوان ﴿فِرْعَوْنَ﴾: حدّد الله ﷻ هنا طبيعة العذاب؛ وهو الغرق ﴿وَكُلٌّ﴾: الأقوام السابقة؛ قوم عاد وثمود وغيرهم

﴿كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿ظَالِمِينَ﴾: ظلموا أنفسهم بكفرهم وعصيانهم، فكان عقابُهم أنْ أهلكهم الله ﷻ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿شَرَّ﴾: الذي يسبب الأذى والسوء هم الأشرار، هم الأكثر شرًّا ﴿الدَّوَابِّ﴾: الذين يدبّون على الأرض، الخلق الذين يسيرون عليها، والمقصود هنا هم بنو قريظة فقد أخبر الله ﷻ نبيّه ﷺ أنّهم سيموتون على الكفر ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه ﷻ وتقديره هم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: الرجال والنساء الذين لا يؤمنون بآيات وبراهين جاءتهم من الله ﷻ ورسوله ﷺ ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد هنا السبب ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿لَا﴾: حرف يفيد النفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: إنّ الذي لا يؤمن هو الكافر، الذي لم ينفعه سمعه، ولا بصره، ولا عقله، ولم يتعظ من تجارب الأمم السابقة.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾: اليهود الأشرار الذين دخلوا معك يا محمدٍ ﷺ في معاهداتٍ بأن لا يحاربوك ولا يُظاهروا عليك أحدًا منهم عهدًا، كبني قريظة ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التباعد الزمني ﴿يَنْقُضُونَ﴾: وبعد الاتفاق يلغون ﴿عَهْدَهُمْ﴾: ميثاقهم معك ﴿فِي كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿مَرَّةٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد جميع المرّات في كل اتفاق، والمقصود كلّما أعلنوا إيمانهم، وأعطوا الرسول ﷺ عهدًا على ذلك، كفروا، ونقضوا عهودهم، ومواثيقهم؛ والسبب ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَّقُونَ﴾: لا يخافون عذاب الله ﷻ، والتقوى إيمان بيقين في الجنّة.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٥٧)

﴿فَإِمَّا﴾: حرف عطف أصلها "إن" و"ما" هي زائدة أدغمت في إنّ الشرطية، وهنا عطفٌ يُفيدُ الشكّ بمعنى إذا أو عندما ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: فإن واجهت هؤلاء الناقضين للعهود والمواثيق في معركة قادمة، تُصادفنّهم أو تنتصر عليهم، تغلبهم، وتظفر بهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾: وجاءت كلمة الحرب هنا بمعنى القتال وفي قوله ﷻ **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة–٣٣] وفي قوله ﷻ **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة–٦٤] ﴿فَ﴾: حرفٌ عطف استئنائي واقعٌ في جواب الشرط، هنا بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿شَرِّدْ﴾: اجعلهم يتفرقون؛ فيضعفون، وشتت شملهم، وأنزل بهم من العذاب ما يُشتت جموعهم ﴿بِهِمْ﴾: شتت بما تفعله فيهم شمل ﴿مَنْ﴾: الذين من الذين ﴿خَلْفَهُمْ﴾: نكّل بهم، اجعل عقوبتهم غليظة، أثخن فيهم قتلًا؛ ليخاف سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف يفيد التوقع والترجي من البشر والتحقق من الله ﷻ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: كلّما أرادوا الخيانة تذكروا ما حدث بأمثالهم؛ فيكفّوا عن الخيانة والنكوص.

التكليف: إنّ آثار الطرد لا تقلُّ قيمةً عن أثار الحرب؛ فإذا هزمت العدو فاجعله درسًا لغيره.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨)

﴿وَإِمَّا﴾: حرف ربط بمعنى إذا ﴿تَخَافَنَّ﴾: علمت وعهدت بالتأكيد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية بعض ﴿قَوْمٍ﴾: الجماعةِ التي نقضت عهودها، وقد لا يكونون من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿خِيَانَةً﴾: نقض الاتفاق الذي بينك وبينهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب وبدون تأخير ﴿انْبِذْ﴾: اطرح إليهم عهدهم، بمعنى إلغاء اتفاق الصلح أو الهدنة السابق؛ وحاربهم وأعلن ذلك ﴿إِلَيْهِمْ﴾: لهم وأخبرهم، بأنّك غير ملتزم بالعهد، وعلمُك وعلمُهم أنّك في حربٍ عليهم، وهم في حربٍ عليك ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾: جاء لفظ "**سواء**" في القرآن الكريم على ستة عشر وجهًا، هنا بمعنى **أمر مبين** لا عهد ولا اتفاق بينك وبينهم بصورة متساوية، بحيث تستوي أنت وهم في الموقف ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ﴾: أي أنّه ﷻ لن يساعد ولن ينصر ﴿الْخَائِنِينَ﴾: الكفّار الذين خانوا عهدهم مع الله ﷻ، وهذا ما مارسه الصحابة في فتوحاتهم.

التكليف: إنّ المسلم لا يخون، لا يعقد اتفاقًا حتى مع أعدائه، ثم يقاتلهم خيانة، بل عليه أنْ يقول لهم إنّه نقض الاتفاق كما نقضوا على السواء.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَحْسَبَنَّ﴾: لا يظنُّ بالتأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: أنكروا حقيقة الإيمان بالله ﷻ ﴿سَبَقُوا﴾: هربوا من العذاب، تفوّقوا علينا وتجاوزوا عقاب الله ﷻ؛ فلا نقدر عليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُعْجِزُونَ﴾: جاء لفظ "**العجز**" في القرآن على وجهين، هنا بمعنى **سابقين** وفي

قوله ﷻ ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى–٣١]، وجاء بمعنى مبطلين في قوله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج–٥١]، هم تحت قبضة الله ﷻ، وقدرته ومشيئته، ولا يصعب ذلك عليه ﷻ.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

كانت الآيات السابقة تحدد أصول التعامل مع الأعداء قبل الحرب، وهذه الآية توضّح وسائل النصر **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال **﴿أَعِدُّوا﴾**: جهّزوا وحضّروا، لمواجهة أعدائكم كل ما تقدرون عليه من العدة والعتاد، وهذه تشمل إعداد الحُجّة الإعلامية، وهذه من حقوق الإنسان التي أقرها العالمُ أوّل مرّة في عام ١٢١٥م، وفي الوقت نفسه جهّزوا آلات الحرب وأدواتها **﴿لَهُمْ﴾**: تخصيصًا للأعداء والذين ينقضون عهودهم، ويخططون لحربكم **﴿مَا﴾**: تفيد هنا كلّ شيءٍ من العتاد والعُدّة **﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾**: الذي تقدرون على إعداده **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، بعض كلّ وسائل **﴿قُوَّةٍ﴾**:جاءت بصيغة النكرة لتفيد كلّ قوّة عسكرية أو بشرية أو غيرها من القوى الماديّة بالأسلحة بكلّ ما فيها من قديمٍ وجديدٍ في كلِّ عصر، وأيضًا الإعداد المعنوي والروحي لاستنهاض الهمم وحفز المواهب، وإعداد الأجيال بكلّ وسائل الحرب، والتربية الدينية، وتسليح بالعقيدة السليمة.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾** [الأنفال–٦٠]، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ[1]. **﴿وَمِنْ﴾**: حرف يفيد بعض **﴿رِبَاطِ﴾**: من ربط الفرس بشدّه بالمكان حتى لا يبتعد ومنها رباط المجاهدين على الثغور، وتعني قوة القلب وتعني ربط **﴿الْخَيْلِ﴾**: ما يُحبس للجهاد، وكان ذلك في زمانه ﷺ واليوم يعنى هذا كلّ ما يُركب من سيارات، ودبابات، وطائرات، وغيرها **﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾**: تخوّفون به أي تدخلون بذلك الخوف الشديد في قلوبهم، وهي إحدى الأسلحة الحديثة، سلاح الدعاية والترهيب **﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾**: قدّم الله ﷻ عداوة هؤلاء لله ﷻ؛ لأنها السبب في كفرهم، وكرههم للمسلمين **﴿وَآخَرِينَ﴾**: أيضاً غيرهم **﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾**: غيرهم لم يُظهروا لكم عداوتهم الآن، ففي كلّ جيلٍ هناك أعداءٌ، وهناك أعوانُ

---

[1] صحيح مسلم /٣/١٥٢٢(١٩١٧).

الأعداء، وفي حالنا اليوم اليهود والغرب المعادي هم العدو، ومن دونهم، وهم أقلّ منهم، هم الجواسيس، والخونة، والأنظمة التي تتعاون معهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَهُمُ﴾: لا تعرفونهم يقينًا ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: وهذا ما تُوضّحهُ كلُّ ساحةِ مواجهةٍ، فمنهم من يقول إنّه عدو لأعداء الله ﷻ، وهو في الباطن يتعاون معهم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ﴾: جزءًا أو بعضًا ﴿شَيْءٍ﴾: ولأنّ الإعداد يحتاج إلى مال؛ فالله ﷻ يُحدّد ثواب الإنفاق أنّه ما يتم جمعه لنصرة الله ﷻ، فهو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: المال المبارك كثير الخيرات، ومردهُ، ومآلهُ، وثوابهُ ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: يعود عليكم نفعه بالتمام والكمال وأكثر، جاء في المعنى نفسه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة- ٢٦١] ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: لا تضيع حقوقكم ولا يبخس أجركم عند الله ﷻ.

التكليف: أمر اللهُ ﷻ عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب بأمرين: **(أحدهما)** إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة. **(وثانيهما)** مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها، وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد، والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على حين غرة، قاومه الفرسان، لسرعة حركتهم، وقدرتهم على الجمع بين القتال وإيصال أخباره من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها، وهذان الأمران هما اللذان تعوّل عليهما جميع الدول الحربية إلى هذا العهد التي ارتقت فيه الفنون العسكرية وعتاد الحرب إلى درجة لم يسبق لها نظير، بل لم تكن تدركها العقول ولا تتخيلها الأفكار. ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه، فالإعداد على قدر الطاقة وإن كانت طاقتنا لا تمثل شيئًا أمام القوة الرهيبة التي يمتلكها الأعداء؛ لأن النصر لا يكون بالعوامل المادية فقط إلا إذا تساوى الطرفان فإذا تقابل كافر مع كافر ففي هذه الحالة تكون الغلبة للأكثر عدة وعتادًا والأدق تنظيمًا أما إذا تقابل المؤمن مع الكافر فإن الميزان يختلف.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١)

بعد أنْ ذكر الله ﷻ وسائل الإعداد ووسائل الحرب والقتال، تأتي هذه الآية لتحدد واحدةً من نتائج الحرب، وهي الميل للسلم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنْ﴾: حرف يفيد التأكيد ﴿جَنَحُوا﴾: إذا مالوا، وأرادوا ترك الحرب ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿السَّلْمِ﴾: جاءت بصيغة التأنيث المصالحة، والمهادنة ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيدُ السبب يستلزم هنا الإسراع ﴿اجْنَحْ﴾: اقبل

﴿لَهَا﴾: جاء جواب السلم مؤنثًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء-٨٩] وَقَالَ ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [الممتحنة-٨] ثُمَّ نَسَخَ هَؤُلاَءِ الآيَاتِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة-١] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة-٥] وَأَنْزَلَ ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة-٣٦] قَالَ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال-٦١] ثُمَّ نَسَخَ هَذِهِ الآيَةُ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة-٢٩][1]، فالهدنة جائزة في مواجهة الخصوم الأقوياء ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: أيضًا اعتمد ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: أعقد معهم الصلح، فالله ﷻ وحده هو الكافي ﴿إِنَّهُ﴾: هو ﷻ بكلّ تأكيدٍ ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿السَّمِيعُ﴾: الذي لا يغيب عن سمعه شيءٌ، حتى دبيب النمل ﴿الْعَلِيمُ﴾: الذي أدرك علمه كلَّ شيءٍ في الكون.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يُرِيدُوا أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل، إذا أراد الذين عاهدوك ﴿يَخْدَعُوكَ﴾: الخديعة؛ أي يصالحوك حتى يتقووا، ويستعدوا للاعتداء عليك ﴿فَإِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿حَسْبَكَ﴾: كافيك ﴿اللَّهُ هُوَ﴾: ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ هنا بالواحد الأحد، الفرد، الصمد، ﷻ ﴿أَيَّدَكَ ب﴾: حرفُ باء السببية ﴿نَصْرِهِ﴾: ﷻ الذي ساندك وقوّاك ﴿وَ﴾: أيضًا أيدك ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: حرف باء الاستعانة بما سخّره لك بمن آمن معك من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، فيما يُعرف بالإطناب للتذكير بفضل الله ﷻ العظيم على الرسول وعلى المؤمنين وهي نعمة ﴿أَلَّفَ﴾: هي من الألفة والمحبة والاجتماع، والانسجام وفي توافقٍ، وحبٍ، وودٍ، وتعاطفٍ، وتراحمٍ ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: القلوب التي هي مراكز الوعي والإدراك والفهم التي كانت متنافرةً ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿أَنْفَقْتَ﴾: صرفت يا محمد ﷺ من أموال

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٩/ ١١) ١٨٢٠٠

﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: ثروات الأرض كلّها ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: هذا الاطناب جاء للتذكير بنعم وفضل الله ﷻ العظمى على رسوله وعلى المؤمنين؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، إنّ ثمن هذه الألفة والمحبة أكبر مما في الدنيا من كنوزٍ وأموالٍ ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: بفضل الله ﷻ جمع الأوس والخزرج، وقد كانت بينهم حروبٌ كثيرةٌ في الجاهلية، فأضاء الإيمان طريق المحبة بينهم ﴿إِنَّهُ﴾: الله ﷻ ﴿عَزِيزٌ﴾: إنّ منعة الله ﷻ لا يصيبها شيءٌ في ملكه وهو ﴿حَكِيمٌ﴾: في أقواله، وأفعاله ﷻ، وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا، كَمَا تَتَحَاتُّ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ، وَإِلَّا غُفِرَ لَهُمَا، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُمَا مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ[١].

التكليف: إنّ المحبة في الله ﷻ عاملٌ مهمٌ من عوامل النصر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو الله ﷻ والمُنَادَى عليه وهو ﴿النَّبِيُّ﴾: تأتي هذه الآية في معرض تحريض النبي ﷺ المؤمنين على القتال، وعدّةُ النصر هي الأساس هنا ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾: يكفيك، ويؤيدك، وينصرك: مهما كانت قوّةُ الأعداء ﴿وَ﴾: أيضًا حسبُك ﴿مَنِ﴾: الذي من البشر ﴿اتَّبَعَكَ﴾: خرجوا معك ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية وهم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: يكفيك مع تأييد الله ﷻ لك تأييد المؤمنين الذين اتبعوك وناصروك، يكفيك الله ﷻ، ومن معك من المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ اللَّهُ﴾ (٦٥)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿النَّبِيُّ﴾: نداء لمحمدٍ ﷺ وللمؤمنين من بعده ﴿حَرِّضِ﴾: بالغ في حثِّ، وشجّع، وبكل وسائل ما يُعرف برفعِ الروحِ المعنوية ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾: على مواجهة الأعداء بالسلاح، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ[٢]. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَكُنْ﴾: يوجد معك ﴿مِنْكُمْ﴾: من المؤمنين ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾: يصمدون في وجه العدو ﴿يَغْلِبُوا﴾: ينتصروا ويهزموا من عدوكم ﴿مِائَتَيْنِ وَ﴾: أيضًا ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾: حرف يفيد التمايز، من المؤمنين حقًا ﴿مِائَةٌ

---

[١] المعجم الكبير للطبراني /٦/٢٥٦(٦١٥٠). وحسنه علي بن نايف الشحود في ظلال القرآن ٥/٤٤.

[٢] صحيح مسلم /٣/١٥٠٩(١٩٠١).

يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ﴾: تفيد تحديد الغاية والتمييز ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَن ﴿كَفَرُوا بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ﴿قَوْمٌ﴾: جماعة من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَفْقَهُونَ﴾: وهذا ما يُعرف بالاحتباك؛ وهو إثبات قيد الصبر في الشرط الأول، وحذف نظيره من الشرط الثاني، لا يدركون حقائق الأمور، فأعمى الله ﷻ بصيرتهم؛ فانهزموا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ فَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ؛ فَقَالَ سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنْ لاَ يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ؛ ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال-٦٦] الآيَةَ، فَكَتَبَ أَنْ لاَ يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ وَزَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً: نَزَلَتْ: ﴿حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفال-٦٥]، قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: «وَأُرَى الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا»[1].

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦)

﴿الْآنَ﴾: بنزول هذه الآية ﴿خَفَّفَ اللَّهُ﴾: قلّل ﷻ من العدد ﴿عَنْكُمْ﴾: خفف من العدد، بسبب قلّةِ القُدرة على الصبر، هنا حالةٌ من وقوع النسخ شرعًا، كانت حكمة النسخ في القرآن الكريم لأهداف أجملها بالآتي: **أولًا**: التخفيف عن الخلق، كما في هذه الآية. **ثانيًا**: مراعاة مصالح العباد. **ثالثًا**: التدرج في التشريع حتى الكمال. **رابعًا**: تهيئة المكلّفين بالاستعداد لقبول التحول. **خامسًا**: إخبار المكلّفين بفضله وشكره. ﴿وَعَلِمَ﴾: عمليًا تأكد علمهُ ﷻ لكم ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: لم تكتمل فيكم عوامل النصر بسبب الضعف ﴿فَإِنْ﴾: حرف يفيد هنا التأكيد على الفعل ﴿يَكُنْ مِنْكُمْ﴾: من المسلمين؛ حرف يفيد التمايز ﴿مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾: في المواجهات الدامية مع الكفّار ﴿يَغْلِبُوا﴾: ينتصروا على، ويهزموا من الكفّار ﴿مِائَتَيْنِ﴾: فكان الصحابة إذا زاد عدد أعدائهم عن الضعف كانوا لا يتحرزون من القتال ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا﴾: يهزموا ﴿أَلْفَيْنِ﴾: لماذا تكرار الضعف هنا؟ والسبب هو التخفيف عن المؤمنين؛ لأنّ الله ﷻ أكّد ضعفهم ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿إِذْنِ اللَّهِ﴾: بأمره، وحكمته، وتأييده ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ مَعَ﴾: مؤيدٌ وناصرٌ ومعينٌ ﴿الصَّابِرِينَ﴾: ﷻ يعرض الصابرين للبلاء؛ تدريبًا، وتهيئةً لمهمة عالمية؛ وهي خلافة المسلمين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنْ يَكُنْ

---

[1] صحيح البخاري (٦/ ٦٣) ٤٦٥٢

مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ، فَجَاءَ التَّخْفِيفُ، فَقَالَ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قَالَ: «فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ العِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ»[١].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧)

أسباب النزول: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال-٦٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال-٦٩] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ[٢].

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا ينبغي ولا يحقّ ولا يجوز ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَبِي﴾: من أنبياء الله ﷺ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَكُونَ لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿أَسْرَى﴾: جمع أسير وهو من تم السيطرة عليه في الحرب من الأعداء، ولأنه في العادة يُشدّ بقيود حول يديه، بإسارٍ وهو قيدٌ من جلدٍ أو من حديد وغيره؛ يأخذ أسرى أحياءً من الكافرين ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يُثْخِنَ﴾: يبالغ ويزيد في القتل؛ لإدخال الرعب في قلوبهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: هذا أمرٌ بقتلهم؛ ليشرّد بهم من خلفهم، هذه صورة

---

[١] صحيح البخاري (٦/ ٦٣) ٤٦٥٣.

[٢] صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) ٥٨ - (١٧٦٣).

من صور تقديم العقاب على الفعل، وهذا يدل على التحريم كما جاءت هنا في هذه الآية، ﴿تُرِيدُونَ﴾: ترغبون وتتمنون ﴿عَرَضَ﴾: حطامَ الدنيا الزائل، وهي الفدية من المال والنصر وما يُفيدكم في ﴿الدُّنْيَا﴾: في حياتكم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: يريد لعباده الانتصار في الدنيا، وينالون ثواب الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه أحدٌ من خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾: صاحب الصواب في القول والفعل.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٨)

﴿لَوْلَا﴾: حرف تخصيص ﴿كِتَابٌ﴾: هو كتاب المقادير بأن الله ﷻ أحلّ لنبيّ هذه الأمّة الغنائم ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية أي المصدر ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ قال مجاهد: أي المغفرة، وقال: ابن عباس: كتاب ﴿سَبَقَ﴾: به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمّة، جاء في أمّ الكتاب الأول أنّ المغانم والأسرى لكم، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً[1] جاء الحكم الربّاني قبل أنْ تضلوا ﴿لَ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿مَسَّكُمْ﴾: أصابكم في العمق منكم ﴿فِيمَا﴾: في الذي قررتم ﴿أَخَذْتُمْ﴾: نفّذتم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: غضبٌ من الله ﷻ، وعقابٌ شديدٌ، أي لنالكم عذابٌ عظيم بسبب أخذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل بشأنها التشريع.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا السبب بهدف ترتيب الأمر وبدون تأخير ﴿كُلُوا﴾: يكونُ طعامُكم ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿غَنِمْتُمْ﴾: مغانم الحرب ﴿حَلَالًا﴾: مشروعًا لكم، وغير محرّم عليكم ﴿طَيِّبًا﴾: ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس، هنا ما أخذتم من الكفّار من غنائم فهي حلال لكم ﴿واتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفًا على رزقكم اخشوه؛ طمعًا في رحمته، وخوفًا من عذابه، ومحافظةً على أحكام دينه وتشريعاته ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ غَفُور﴾: واسع السماح والعفو ﴿رَحِيمٌ﴾: واسعُ الرحمةِ بهم.

---

[1] صحيح البخاري /١/٧٤(٣٣٥).

التكليف: لقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أنّ الإمام مُخيّر فيهم، إنْ شاء قتلهم كما في بني قريظة، وإنْ شاء أخذ الفدية كما في أسرى بدر، أو بادل أسرى بأسرى، وإنْ شاء استخدم منهم عبيدًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠)

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَحْرَيْنِ بِثَمَانِينَ أَلْفًا، فَمَا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَالٌ أَكْثَرُ مِنْهُ لَا قَبْلَهَا، وَلَا بَعْدَهَا، فَأَمَرَ بِهَا، وَنُثِرَتْ عَلَى حَصِيرٍ، وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمِيلُ عَلَى الْمَالِ قَائِمًا، فَجَاءَ النَّاسُ وَجَعَلَ يُعْطِيهِمْ، وَمَا كَانَ يَوْمَئِذٍ عَدَدٌ، وَلَا وَزْنٌ، وَمَا كَانَ إِلَّا قَبْضًا، فَجَاءَ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَعْطَيْتُ فِدَائِي وَفِدَاءَ عَقِيلٍ يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِعَقِيلٍ مَالٌ اعْطِنِي مِنْ هَذَا الْمَالِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ» فَحَثَى فِي خَمِيصَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يَنْصَرِفُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ارْفَعْ عَلَيَّ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «أَمَا أَحَدُ مَا وَعَدَ اللَّهُ فَقَدْ أَنْجَزَ لِي وَلَا أَدْرِي الْأُخْرَى قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسَارَى، إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنِّي وَلَا أَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِالْمَغْفِرَةِ»[١].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿النَّبِيُّ﴾: والمقصود هو محمد بن عبد الله ﷺ ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ، وهو توجيهٌ لكلّ قائدٍ مسلمٍ من بعده أنْ يقول ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: للذين من جنس العاقل ﴿فِي أَيْدِيكُمْ﴾: أسير عندكم ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾: قل يا محمد لمن أسرتموهم في معركة بدر من أعدائكم لا تأسوا على الفداء الذي أُخذ منكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَعْلَمِ﴾: يتحقق منكم ﴿اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾: الإيمان الصادق والإخلاص التام. كان رسول الله ﷺ، يعلم أنّه في يوم بدر، قد خرج أناسٌ من بني هاشم كُرهًا منهم، وكذلك البختري بن هاشم، والعباس بن عبد المطلب ﴿يُؤْتِكُمْ﴾: يرزقكم ويعطيكم ﴿خَيْرًا﴾: أفضل وأكثر نفعًا ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿أُخِذَ﴾: خسرتموه في الحرب وراح ﴿مِنْكُمْ﴾: حرف يفيد التمايز، هم الأسرى الذين دفعوا فدية، وهم مُكرهون على القتال، ومنهم من كان مسلمًا مثل أبي جعفر ابن جرير الذي أخبر الرسول ﷺ بإسلامه، وسأله أنْ يحاسبه، ولكن الله ﷻ

(١)المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٧٢) ٥٤٢٣«هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٥٤٢٣ - على شرط مسلم

عوّضه خيرًا مما أُخذ منه ﴿وَيَغْفِرْ﴾: يسامحكم ويمحو ذنوبكم ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا يغفر الشرك الذي كنتم عليه. ومن الذين استعاد مالًا كان العباس الذي أخذ من مال البحرين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: مسامح ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة بعباده ﷻ.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿يُرِيدُوا﴾: الذين أطلقت سراحهم يضمرون في أنفسهم ﴿خِيَانَتَكَ﴾: جاء معنى الخيانة هنا بمعنى الخلاف في الدين، بأقوالٍ كاذبةٍ ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع على الفعل الماضي ﴿خَانُوا اللَّهَ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الزمانية ﴿قَبْلُ﴾: أي فيما قبل معركة بدر بالكفر بالنبي ﷺ ﴿فَـ﴾: حرفٌ علّة وسبب بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ ﴿أَمْكَنَ﴾: جعل للمسلمين عليهم سطوةً وتمكينًا في يوم بدر ﴿مِنْهُمْ﴾: فقُتل منهم من قُتل، وأُسر منهم من أسر، ولهم مثل ذلك إنْ أخلفوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم ما كان، ويكون، وسيكون من قولٍ وفعلٍ خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾: يكون الخير في عمله وقوله ﷻ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: بأركان الإيمان تصديقًا كاملًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما أصابهم ﴿هَاجَرُوا﴾: تركوا منازلهم، وأهلهم في سبيل الله ﷻ، هذا القسم الأول من المؤمنين الذين تركوا مكّة وهم المهاجرون الذين تركوا بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين ﴿وَ﴾: أيضًا تركوا منازلهم وقراهم في سبيل الله ﷻ ﴿جَاهَدُوا بِـ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: ضحّوا بالمال، ومنهم من قضى نحبه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: نصرة للإسلام والمسلمين ﴿واللذين آوَوْا﴾: أسكنوا معهم المهاجرين في سبيل الله ﴿وَنَصَرُوا﴾: هذا القسم الثاني من المؤمنين، وهم الأنصار من أهل المدينة حيث أسكنوا المهاجرين في بيوتهم، وشاركوهم في أموالهم، ونصروا الرسول ﷺ بالقتال معه ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿أَوْلِيَاءُ﴾: مفردها ولي، وهم الأنصارُ، والمؤيدون، والأقاربُ، والمتحابون ﴿بَعْضٍ﴾: كلّ واحدٍ منهم أحق بالآخر في النصرة، والتأييد، والمعونة، كان هؤلاء في البداية يتوارثون بعضهم، تفضيلًا عن وراثة ذوي القربى، ونُسخت هذه الحالة بآية

المواريث ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ﴾: أيضاً هنا نفي ﴿يُهَاجِرُوا﴾: هذا القسم الثالث من المؤمنين الذين بقوا في أماكنهم ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿وَلَايَتِهِمْ﴾: حبُّهم ونصرتهم وتأييدهم ﴿مِنْ شَيْءٍ ﴾: جزء أو بعض، تفيد العموم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يُهَاجِرُوا﴾: ليس لهم من المغانم نصيب، ولا خمسها، إلّا إذا حضروا القتال ﴿وَإِنِ﴾: حرف شرط ﴿اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾: طلبوا منكم التأييد والعون ﴿فِي الدِّينِ﴾: إذا طلب هؤلاء منكم النصرة على عدوٍ يحاربهم في دينهم؛ فانصروهم، هو واجبٌ؛ لأنّهم إخوانكم في الدين ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا﴾: يستثنى من ذلك ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: وهذا استثناء، لا نصرة لهم ضدّ أُناس بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ؛ لأنّ ذلك نقض للأيمان، وهو محرّم في الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا﴾: بالذي ﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: اعلموا أنّ الله ﷻ يرى ويعرف ماذا تفعلون، وماذا ستفعلون.

التكليف: نعتبر هذه الآية أرقى مبادئ حقوقِ الإنسانِ في الحرب والسلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

أكدت الآيات السابقة أنّ المؤمن وليُّ المؤمن؛ لا يخذله، ولا يسلمه، بل يؤيده وينصره، وقطعت الآيات الموالاة بين المؤمنين والكافرين ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: أنكروا أصول الدين ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿أَوْلِيَاءُ﴾: أنصار وأحباب ﴿بَعْضٍ﴾: في المعسكر الآخر فإن الكفّار يرثون بعضًا، وينصرون بعضًا قال ﷺ: لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ[1]، وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: لاَ تَرَاءَى نَارَاهُمَا[2]، وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ[3] ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطع ﴿تَفْعَلُوهُ﴾: إلّا أنْ تجانبوا المشركين وتتباعدوا عنهم ﴿تَكُنْ﴾: تحدث ﴿فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾: تقع الفتنة بين النّاس، وهي اختلاط المؤمنين بالكافرين ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾: أيضاً يكون فساد الدين بين النّاس؛ حيث لا يجد المسلم أخًا له في الإسلام ينصره، وهذا ما يحدث في بعض المدن والقرى المختلطة في الوقت الحالي.

---

[1] صحيح البخاري /٨/١٥٦(٦٧٦٤).

[2] سنن أبي داود /٤/٢٨٠-٢٨١(٢٦٤٥). قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

[3] سنن أبى داود /٣/٤٨(٢٧٨٩). صححه الألباني.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤)

بعد تصدير حكم المؤمنين في الدنيا جاء ما لهم في الآخرة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: أخبر الله ﷻ بحقيقة إيمانهم؛ الذين جاؤوا بعد المؤمنين السابقين ﴿وَهَاجَرُوا﴾: الذين ضحّوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، وتركوا أرضهم وممتلكاتهم؛ في سبيل الله ﷻ ﴿وَجَاهَدُوا﴾: أيضًا قاتلوا بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الذين حملوا السلاح دفاعًا عن دينهم، وأرضهم، وإخوانهم؛ لإعلاء كلمة الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾: أيضًا الذين أسكنوا إخوانهم في بيوتهم، كحادثة المهاجرين والأنصار ﴿وَنَصَرُوا﴾: أيضاً نصروا نبيّهم ﷺ ونصروا إخوانهم من المسلمين، ودافعوا عن حقوقهم ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: كانت هذه مفردات الإيمان والعمل الصادق ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: سماح من الله ﷻ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: إضافة إلى مغفرة الله ﷻ لهم؛ فإنّ الله ﷻ وعدهم بالرزق الوفير.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ جمع بين متعاطفين، بين المؤمنين في الآية السابقة وبين ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا مِنْ﴾: بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ﴿بَعْدُ﴾: الذين دخلوا في الإيمان بعد الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا﴾: أيضًا تركوا أهلهم وممتلكاتهم ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾: وهذا حكمٌ عامٌ يشمل كلّ من آمن وهاجر، وجاهد في سبيل الله ﷻ مع النبي ﷺ أو مع المؤمنين ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للجماعة ﴿مِنْكُمْ﴾: جزء أو بعض، هم في حكم الله ﷻ من المؤمنين الأوائل، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَأُولُو﴾: أصحاب، ذوو القرابة ﴿الْأَرْحَامِ﴾: القرابة بالنسب والزواج ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿أَوْلَى﴾: أحقُّ من غيرهم في الميراث من الأجانب ﴿بِبَعْضٍ﴾: حرف باء التعددية، هم الأقارب الذين لهم فرضٌ، كالخالة والخال، والعم والعمّة ونحوهم، الآية عامّة تشمل جميع القرابة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: كما وضعها الله ﷻ في كتابه القرآن الكريم ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِكُلِ﴾: تفيد عموم الأشياء ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة؛ لتؤكد العموم ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلمُ كلّ شيءٍ، وشرع كل شيء، وهذه

الآية نسخت الإرث بالخلف، والإخاء في الذين كانوا يتوارثون بها بعضهم بعضًا، إنْ تآخى اثنان ليس بأخوين.

التكليف: بدراسة مقاصد هذه السورة الكريمة؛ ندرك عوامل النصر والهزيمة من خلال نموذج غزوة بدرٍ الكبرى. إنّ معارك أمّة الإسلام مع أعدائها تعتمد على جانبين، جانب معنوي إيماني، وجانب ماديّ حسّي وهو: عدد الجنود وكثرة الآليات وحسن التخطيط لإدارة المعركة وهو جانب أعطاه الإسلام أهميته؛ فأمر اللهُ ﷻ أمّة الإسلام أنْ تُعدّ مثل هذا العتاد الحسّي ولكنه ﷻ لم يطالبنا بأنْ نكون مثل الأعداء في القوة والعدد والعتاد؛ حتى ندخل المعركة معهم وإنّما أمرنا بأنْ نبذل جهدنا، وبذل ما نستطيع قال ﷻ: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾. [الأنفال-٦٠].

سُورَةُ التَّوْبَةِ

ترتيبها 9 — آياتها 129

سُميّت هذه السورة بأسماءٍ عديدة: التوبة، النافعة، المُبعثِرة، المُخزية، المُثيرة، الحافرة، سورة البحوث، المُنكلة، المنافقون، المُدمرة، براءة، العذاب، المنفّرة، المُشرّدة، ولم يكتب عثمان، ﵁، في مقدمه هذه السورة البسملة، ولم يكتبها بعده المسلمون، نزلت هذه السورة في السنة التاسعة للهجرة، وترتيبها في القرآن التاسعة.

﴿**بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (١)

كانت آخر أية نزلت من القرآن الكريم هي: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ**﴾ [النساء-١٧]، وكانت آخر سورة هي براءة، ولقد نزلت أول السورة على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة، فقد بعث الرسول ﷺ أبا بكر ﵁ أميرًا على الحج في هذه السنّة، وليمنع المشركين من الحج بعد عامهم هذا. ﴿**بَرَاءَةٌ**﴾: جاءت الكلمة القرآنية بتنوين الضم للتفخيم، هذه براءةٌ عظيمةٌ من الله ﷻ ورسوله، وإعلان التخلي عن العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين؛ تبرؤٌ، وتباعدٌ ﴿**مِنَ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية أي المصدر ﴿**اللَّهِ وَ**﴾: أيضًا براءة ﴿**رَسُولِهِ**﴾: عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إِلَى أَهْلِ الْعَهْدِ: خُزَاعَةَ، وَمُدْلَجَ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ. أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حِينَ فَرَغَ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَجَّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ يَحْضُرُ الْمُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً، فَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّى لاَ يَكُونَ ذَلِكَ. فَأَرْسَلَ أَبَا بَكْرٍ وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَطَافَا بِالنَّاسِ بِذِي الْمَجَازِ وَبِأَمْكِنَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَبَايَعُونَ بِهَا وَبِالْمَوَاسِمِ كُلِّهَا، فَآذَنُوا أَصْحَابَ

الْعَهْدِ بِأَنْ يَأْمَنُوا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَهِيَ الأَشْهُرُ الْمُتَوَالِيَاتُ عِشْرُونَ مِنْ آخِرِ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى عَشْرٍ يَخْلُونَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الآخَرِ، ثُمَّ لاَ عَهْدَ لَهُمْ. وَآذَنَ النَّاسَ كُلَّهَا بِالْقِتَالِ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا.[1]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فِي رَهْطٍ، يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ([2])، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ، نُؤَذِّنُ بِمِنًى: أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ: «لاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»[3]. ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿عَاهَدْتُمْ﴾: يا أيها المؤمنون؛ يا من أعطيتم ميثاقًا؛ وهم الذين نقضوا العهد ﴿مِنَ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: إعلان لأهل خزاعة، ومدلج وغيرهم، ينهي رسول الله ﷺ عهده معهم عندما توافرت الظروف المناسبة للإسلام والمسلمين.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

أقوال في المقصود الأول: لذوي العهود غير المؤقتة، والثاني: الذين كانت عهودُهم أقلَّ من أربعة أشهر، والثالث: من كان له عهد، فعهده إلى مُدّته، وهذا الأفضل وقال به ابن جرير ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿سِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾: الكلام موجّهٌ إلى المشركين؛ يمشون حيث شاؤوا، سيروا في الأرض أيّها المشركون ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: تذهبون حيث شئتم آمنين مطمئنين، وهي من بداية عشرين ذي الحِجّة إلى عشرة من ربيع ثاني، وبعد ذلك لا عهد لكم ﴿و﴾: عطفًا على هذا ﴿اعْلَمُوا﴾: علم يقين ﴿أَنَّكُمْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿غَيْرُ﴾: حرف نفي هنا بمعنى ليس ﴿مُعْجِزِي﴾: لن تفروا من العقوبة ﴿اللَّهِ وَأَنَّ﴾: تأكيد ونفي الشك ﴿اللَّهَ مُخْزِي﴾: مُذلِّ ومُنكس ﴿الْكَافِرِينَ﴾: واعلموا أنّكم لَنْ تفلتوا من العذاب إنْ لم تؤمنوا؛ فسوف يُخزيكم ويُذلكم الله ﷻ بالقتل، أو بالأسر في الدنيا؛ وبدخول النّار في الآخرة.

([1])تفسير الطبري /١١/٣٠٩(١٦٤٤١). وقال المحقق علي الشحود: صحيح مرسل في ظلال القرآن٥/ ١١٨.

([2]) صحيح مسلم ٢/٩٨٢(١٣٤٧).

([3])صحيح البخاري (١/ ٨٢) ٣٦٩

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣)

﴿و﴾: عطفًا على ذلك ﴿أَذَانٌ﴾: إعلام، وإنذار وإيذان، أي سماح ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾: جميع بني آدم عليه السلام، في كلّ الأجيال والأزمان ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: قيل يوم عرفة، الذي لا صوم فيه، وقيل يوم النحر، وهذا أفضل أيام المناسك، وأظهرها، وأكبرها جميعًا ﴿أَنَّ﴾: تأكيد ونفي الإنكار والشك ﴿اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ﴾: حرف يفيد التمايز ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين نقضوا عهدهم، وعبدوا مع الله آخرين ﴿وَرَسُولُهُ﴾: الله بريء ورسوله بريء أيضًا من أعمال، وأقوال، واعتقاد المشركين ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد فعل، هنا المقصود التوبة ﴿تُبْتُمْ﴾: أقلعتم عن الشرك والضلال أيّها الكافرون ﴿فَهُوَ﴾: ضمير رفع للغائب الفرد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾: توبتكم خيرٌ لكم من شرككم ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط وإذا ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك، وأعرضتم ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا سبب تأكيد العلم ﴿اعْلَمُوا﴾: علم اليقين والتأكيد ﴿أَنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد، ونفي الشك ﴿غَيْرُ﴾: حرف نفي هنا بمعنى ليس ﴿مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: لنْ يُعجزه سبحانه وتعالى أنْ يُهلككم، ويبطشَ بكم؛ ولن تفلتوا من عذاب ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ﴾: هنا تهكّمٌ واستهزاءٌ ممَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: لأن البشرى تكون عادة بما هو مفرحٌ، أخبرهم، أبلغهم ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: العذاب الشديد في الدنيا، والخزي والعذاب في الآخرة؛ بالمقامع والأغلال.

التكليف: جاء لفظُ التبشير تقريعًا للكفّار؛ لأنّ البشرى هي إخبارٌ بما يُفرح ويدخل السرور، وليس للعذاب الأليم الذي ينتظرهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤)

﴿إِلَّا﴾: حرف يفيد الاستثناء من أصحاب العقود المطلقة بغير موعدٍ مؤقتٍ، ويُستثنى من الحكم السابق ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد مَن ﴿عَاهَدْتُمْ مِنَ﴾: حرفٌ يفيد التمايز ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين أعطيتم عهدًا مضروبًا بمدة محددة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِبَرَاءَةٌ. فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنَّا نُنَادِي: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ، فَإِنَّ أَجَلَهُ أَوْ أَمَدَهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتِ الْأَرْبَعَةُ الْأَشْهُرِ فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَحُجُّ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. قَالَ: فَكُنْتُ أُنَادِي حَتَّى صَحِلَ

صَوْتِي[1] ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿لَمْ﴾: نفي ﴿يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾: الذين التزموا بعهدهم، ولم ينقضوا منه شيئًا، ولم يخونوا العهد، هذا شرط استمرار العهد من جانب المشركين، وهو استثناء لما سبق ﴿وَلَمْ﴾: جزم ينفي الفعل المضارع ﴿يُظَاهِرُوا﴾: لم يؤيدوا ويدعموا، ويعاونوا أحدًا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾: من أعدائكم ضدّكم ﴿فَأَتِمُّوا﴾: بسبب ما سبق أكملوا ﴿إِلَيْهِمْ﴾: لهم ﴿عَهْدَهُمْ﴾: ما وعدتموهم واتفقتم عليه ﴿إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾: إلى النهاية الزمنية المحدودة ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يوفون بعهدهم؛ امتثالًا لله ﷻ.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئنافي ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿انْسَلَخَ﴾: هنا استعارة؛ حيث شبّه الله ﷻ انقضاء الشهر بالانسلاخ الواقع بين جسد الحيوان وجلده، إذا انقضت وانتهت ﴿الْأَشْهُرُ﴾: جاءت الكلمة القرآنيّة "**أشهر**"؛ كجمعِ قلّةٍ، بمعنى أربعة أشهرٍ فقط، ولم يقل ﷻ شهور التي هي جمع كثرة كما قال ﷻ: **﴿إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا﴾** [التوبة-٣٦] ﴿الْحُرُمُ﴾: قال ابن عباس: الأرجح هي أشهر التيسير التي قيل فيها **﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾** [آل عمران-١٣٧]، وهذا هو التخصيص الزماني، والشهور الأربعة هي: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم؛ فقد جاء أنّ سورة براءة نزلت في شهر شوّال ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب بتنفيذ الأمر بدون تأخير. وهي الأشهر الأربعة المتفق عليها التي أَمِنتم فيها المشركين ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ﴾: أعلنوا الحرب على الأعداء في أيّ مكانٍ ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: الحكمُ عامٌ، بانقضاء الشهور الأربعة المقصودة، يكون قد انتهى العهد بانتهاء المدّة، أمّا التخصيص المكاني، فكان في: **﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾** [البقرة-١٩١] ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: أيضًا احبسوهم، وهنا التخيير بين القتل وبين الأسر ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾: حاصروهم في معاقلهم وحصونهم ﴿وَاقْعُدُوا﴾: أيضاً تربصوا وترصدوا في طرقاتهم ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿كُلَّ﴾: تفيد عموم ﴿مَرْصَدٍ﴾: رصدهم في طرقهم، ومسالكهم؛ للتضييق عليهم، واضطرارهم إلى تغيير كفرهم بالإسلام أو بالقتال ﴿فَإِنْ﴾: حرفٌ يفيد التأكد من الفعل ﴿تَابُوا﴾ رجعوا عن جرائمهم، وأنابوا، وأصلحوا ﴿وَأَقَامُوا﴾: أيضًا أدّوها على الوجه الصحيح ﴿الصَّلَاةَ﴾: أي أسلموا، وأقاموا الصلاة ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: هذه الآية التي اعتمد عليها أبو بكر الصديق في قتال

---

[1] مسند أحمد /١٣/٣٥٦(٧٩٧٧). وحسنه الأرناؤوط، وصححه الألباني.

المرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ عندما منعوا الزكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾: لا تقتلوهم، واتركوهم، إنْ كانوا مُعتقلين أو مُحاصرين: ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد، ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: مُسامحُ وماحي الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة والمسامحة.

التكليف: يُقرنُ القرآنُ الكريمُ بين الصلاة، وهي حق الله ﷻ وبين الزكاة، وهي حق الفقراء والمحتاجين، وهي من أشرف الواجبات تجاه النّاس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَحَدٌ﴾: واحدٌ من الرجال ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾: طلب منك الأمان، إذا جاء أحدٌ من غير المؤمنين، الذين يعبدون من دون الله آلهةً أخرى من الذين استبيحت دماؤهم وأموالهم؛ الدخول في جوارك أيها الرسول، ورغب في الأمان فأجبه إلى طلبه ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿أَجِرْهُ﴾: أجب طلبه بشرط ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: جاء اللفظ القرآني كلام على خمسة أوجه؛ هنا بمعنى الكلام من غير وحي. انظر [البقرة-٧٥]، أنْ تقرأ عليه القرآن، وتعرّفه بالإسلام؛ حتى تقيم عليه الحُجّة ﴿ثُمَّ﴾: يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾: يبقى آمنًا، حتى يرجع إلى بلاده، أو دار أمنه ﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ لإقامة الحُجة عليه ﴿بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿أَنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿قَوْمٌ﴾: جماعةٌ من أصلٍ واحدٍ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: ولأنهم يجهلون حقيقة الإسلام؛ شُرّعت هذه الحالة حتى يتعلم المشرك أمر الإسلام؛ فيؤمن فينتشر، جاء يوم الحديبية جماعةٌ من قريش، فرأوا كيف يُعظم المسلمون رسولهم؛ فبهرهم هذا، فرجعوا إلى أهلهم؛ وأخبروهم أنّهم شاهدوا ما لم يشاهدوه عند ملك، أو قيصر، وكان هذا سببًا في هداية كثيرين. قال العلماء لا يجوز أنْ يُقيمَ الكافرُ في دار الإسلام سنة، ويجوز أنْ يقيم أربعة أشهر.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧)

﴿كَيْفَ﴾: حرف استفهام يفيد التعجب واستبعاد ثبات المشركين على العهد ﴿يَكُونُ﴾: لا يجب ولا يصح ولا ينبغي أنْ يكون لهم عهد وهم أعداء، ولذلك يُبيّن الله ﷻ حكمته في تأجيل الشهور الأربعة ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾: ميثاق وقسم ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ

﴿رَسُولِهِ﴾ أنْ يكون لهم أمان، وهم مشركون كافرون ﴿إِلَّا﴾: حرف حثٍّ وتحريضٍ وتخصيصٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿عَاهَدْتُمْ﴾: الذين عاهدوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية ﴿عِنْدَ﴾: بالقرب من ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا﴾: حرف يفيد العمل ﴿اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾: طالما التزموا وتمسكوا على الوفاء بعهدهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾: التزموا لهم بعدم الحرب في هذه المدة. وقد اِسْتَمَرَّ الْعَقْد وَالْهُدْنَة مَعَ أَهْل مَكَّة مِنْ ذِي الْقَعْدَة فِي سَنَة سِتّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْش الْعَهْد وَمَالَئُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْر عَلَى خُزَاعَة أَحْلَاف رَسُول اللَّهﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَم أيضًا فَعِنْد ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُول اللَّه ﷺ فِي رَمَضَان سَنَة ثَمَان فَفَتَحَ اللَّه عَلَيْهِ الْبَلَد الْحَرَام وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهمْ وَلِلَّهِ الْحَمْد وَالْمِنَّة فَأَطْلَقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْد الْقَهْر وَالْغَلَبَة عَلَيْهِمْ فَسُمُّوا الطُّلَقَاء وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ وَمَنْ اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْره وَفَرَّ مِنْ رَسُول اللَّه ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِير فِي الْأَرْض أَرْبَعَة أَشْهُر يَذْهَب حَيْثُ شَاءَ وَمِنْهُمْ صَفْوَان بْن أُمَيَّة وَعِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل وَغَيْرهما ثُمَّ هَدَاهُمْ اللَّه بَعْد ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَام التَّامّ وَاَللَّه الْمَحْمُود عَلَى جَمِيع مَا يُقَدِّرهُ وَيَفْعَلهُ[1]. ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ عبادة تصديقٍ كاملٍ بيقينٍ.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨)

﴿كَيْفَ﴾: جاء تكرار "**كيف**" لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط، بمعنى إذا أُتيحت لهم فرصة ﴿يَظْهَرُوا﴾: يَعلو شأنهم فوقكم، ويتقووا ﴿عَلَيْكُمْ﴾: أو يتغلبوا عليكم، يحرّض اللهُ ﷻ المؤمنين على معاداة الكافرين، والتبرؤ منهم، بأنّهم لا يستحقون عهدًا، وإذا انتصروا على المسلمين فسيحدث ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾: لا يُراعوا أو ينشدوا ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾: هي كلّ حالةٍ ظاهرةٍ من عهدٍ أو حلفٍ، وهي من تئل؛ أي تلمع، فلا يتم إنكارها قال ابن عباس: هي القرابة، وقال: مجاهد: هو الله، لا يرقبون الله، وقال قتادة: الحلف ﴿وَلَا﴾: حرف نفي يرقبون فيكم ﴿ذِمَّةً﴾: لا يحترمون العهد ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: يقولون كلامًا يقبلهُ المسلمون ﴿وَتَأْبَى﴾: الإباء هو شدّة الامتناع، فكلُّ إباءٍ هو امتناع، وليس كلّ امتناع إباء ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: وقلوب الكافرين كارهة رافضة العهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾: تدلّ على أنّهم أيضًا ﴿فَاسِقُونَ﴾: خارجون عن حدود العهد، مجاوزون للاتفاق، حتى لا ينخدع المسلمون بكلام المشركين؛ فأكثر هؤلاء متمردون على الدين ناقضون للعهود.

---

[1] تفسير ابن كثير ٤/١٠١

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩)

﴿اشْتَرَوْا﴾: هؤلاء باعوا، وبادلوا، واعتاضوا واستبدلوا ثمنًا حقيرًا ﴿بِ﴾: حرف باء البدل ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: آيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود أي باعوا البراهين الدالّة على وجود الله ﷻ، وصدق رسالة نبيه ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: حقيرًا وهو متاع الدنيا وزينتها الفانية، وهي مكاسب رخيصة ﴿فَصَدُّوا﴾: منعوا المؤمنين وصرفوهم ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِهِ﴾: من اتباع الحق، ومنعوا الكفّار من الإيمان ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتحديد ﴿سَاءَ﴾: أصحابُ شرٍّ وضررٍ، شاهت الوجوه، وخزيت؛ بسبب ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: بئس ما عملوا فكلّهُ سيئٌ، وكلّهُ مذمومٌ بذكر المساوئ، وهو عكس المدح.

التكليف: التحذير من المشركين؛ لأنهم إذا شعروا بالقوة على المؤمنين فإنّهم لا يراعون القرابة ولا العهد، فلا يغرنك منهم ما يعاملونك به وقت الخوف، فهم يقولون كلامًا لترضوا عنهم، ولكن قلوبهم تأبى ذلك.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠)

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْقُبُونَ﴾: ليس عندهم أي مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، ولا يُقيمون وزنًا لعهودهم مع المسلمين ﴿فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾: من تثل أي تلمع، هي كلّ حالةٍ ظاهرةٍ من العهود، والحلف، والقرابة، أو النسب، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: يراعون ﴿ذِمَّةً﴾: عهدًا أو ميثاقًا ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة للجمع للقريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْمُعْتَدُونَ﴾: المُتجاوزون، المعتدون المبالغون. انظر [التوبة-٨].

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١)

﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل والقول ﴿تَابُوا﴾: إذا أسلموا بعد كفرهم ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿أَقَامُوا﴾: أدّوا على الوجه الصحيح، التزموا شرائع الله ﷻ من إقامة ﴿الصَّلَاةَ﴾: المشروعة المعروفة بأركانها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: وأيضًا أدّوا حق الفقراء من النّاس عليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾: أي أنّ أخوّة الإسلام تحققت معهم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ﴾: نوضّحُ ﴿الْآيَاتِ﴾: الشريعة والأدلّة والبراهين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قوم﴾: أصحابُ رؤية وصفةٍ واحدةٍ هم ﴿يَعْلَمُونَ﴾: للمسلمين والمؤمنين؛ حتى يعلموا أصول دينهم؛ لأنّ توبة الكافر تُلزم المؤمن المعاملة الحسنة.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٢)

﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿نَكَثُوا﴾: إذا نقض هؤلاء المشركون ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾: عهودهم، ومواثيقهم التي أبرموها معكم في موضوع القتال بالذات ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾: بعد إعطائهم عهدًا للمسلمين ﴿وَطَعَنُوا﴾: شكّكوا ولمزوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: عابوا، وانتقصوا منه ﴿فَ﴾: حرف سبب بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ، وهو هنا النكوص ﴿قَاتِلُوا﴾: وجب قتال وقتل ﴿أَئِمَّةَ﴾: قادة وزعماء ورؤساء ﴿الْكُفْرِ﴾: الكافرين؛ من هنا كان تشريع قتل من سب الرسول ﷺ أو طعن في دين الله ﷻ، أو دعا المسلمين إلى الكفر؛ فيكون المُستهدف منهم كبارهم وزعماؤهم، وهي عامّةٌ في النّاس؛ وإنْ نزلت في أبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأُميّة بن خلف ﴿إِنَّهُمْ﴾: تأكيد ونفي للشك والإنكار، هم بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَيْمَانَ﴾: عهد أو ميثاق ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الترجي والتوقع؛ لأنّها كانت من عند البشر ﴿يَنْتَهُونَ﴾: حتى يكفّوا عن إيذاء المسلمين، ويُقلعوا عن ممارسةِ كفرهم، والإفساد في الأرض.

التكليف: قاتلوا رؤساء الكفر والضلال؛ لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، حتى ينتهوا عن كفرهم وعداوتهم للإسلام.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

﴿أَلَا﴾: حرف غير عامل دخلت هنا الهمزةُ على حرف النفي؛ فأفادت المبالغة في الفعل؛ فجاء حرفُ استفهامٍ يُفيدُ الأمر، للإنكار والتوبيخ، بمعنى ما الذي يمنع أنْ ﴿تُقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾: لا تترددوا في قتال القوم الذين نقضوا عهدهم ﴿نَكَثُوا﴾: نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾: هم الذين نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿هَمُّوا﴾: أرادوا وأوشكوا في دار الندوة ﴿بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: عملوا على إخراجه من مكّة، وهذه قرينة كفرهم؛ وقد جاء بالمعنى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال-٣٠] ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿بَدَءُوكُمْ﴾: بادروا بعداوتكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: المقصود يوم بدر، حين خرجوا لنصرةِ غيرهم من الكفّار، وقيل نقضهم عهدهم، وقيل خروجهم مع بني بكر في قتالهم ضدّ خزاعة حلفاء الرسول ﷺ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: سؤال مجازي، هل تخافُونهمَ؟ ولا ترغبون في قتالهم؟ ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿اللَّهُ أَحَقُّ﴾:

صاحب الحق الأَوْلَى كثيرًا ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: تخافوه حرف تأكيد الفعل: إنّ الله ﷻ أحقُ أنْ تخافوه فيُذهب؛ ينقضي ويمضي غيظ المسلمين؛ من كثرةِ ما عانوا من الكُفّار.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤)

﴿قَاتِلُوهُمْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بقتالهم؛ ونتيجة قتالهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾: يُصيبهم اللهُ ﷻ بعذاب ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: نزلت الآية في نُصرة خزاعة على الكافرين ليذيقوهم الخزي والعذاب، ولكنّها عامّة؛ تأمر بقتال المشركين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، ينالهم من الله ﷻ عذابٌ بأيدي المؤمنين، أيضًا ﴿يُخْزِهِمْ﴾: يذلهم بالهزيمة والخزي وتحقيرهم ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: عطفاً على ما سبق تهزموهم فتقتلوا منهم وتأسروا منهم وتأخذوا أموالهم وممتلكاتهم وتطردوهم ﴿وَيَشْفِ﴾: أيضًا يُذهب غيظ وألم ما في ﴿صُدُورَ﴾: التي فيها قلوب ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ أو أصحاب منهجٍ واحدٍ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: والمسلمين من كثرة ما عانوا من الأعداء.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥)

﴿وَيُذْهِبْ﴾: يُزيل وينزع ﴿غَيْظَ﴾: حنق وغضب ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: يمحو الغيظ من قلوب المؤمنين، الذين عانوا من الكفّار؛ فتهدأ نفوسهم ﴿وَيَتُوبُ﴾: أيضًا يغفر ويسامح ﴿اللَّهُ عَلَى مَنْ﴾: الذي من جنس الإنسان ﴿يَشَاءُ﴾: يغفر ويسامح ﷻ للعباد المعاندين العاصين إذا أرادوا التوبة ﴿وَاللَّهُ﴾: جاء ذكر الجلالة هنا مكان الضمير لغرس الهيبة والرهبة في قلب المؤمن ﴿عَلِيمٌ﴾: ﷻ يعرف صدق من تاب من عباده ﴿حَكِيمٌ﴾: في أفعاله وأقواله، يحكم بالعدل.

التكليف: هذه الآية تعالج مشاعر الغيظ في قلوب المؤمنين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

﴿أَمْ﴾: هل بمعنى الإنكار ﴿حَسِبْتُمْ﴾: لا تظنون يا معشر المؤمنين ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تُتْرَكُوا﴾: أنْ يتركَكم الله ﷻ دونَ حسابٍ أو ابتلاءٍ ﴿وَلَمَّا﴾: اسم توكيد للمعنى اللفظي ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: دونَ أنْ يختبركم الله ﷻ اختبارًا ظاهرًا لعباده ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿جَاهَدُوا﴾: الذين أخلصوا جهادهم لوجه الله ﷻ؛ بأموالهم، وأنفسهم، ودافعوا عن دينهم ﴿مِنْكُمْ﴾: جزء أو بعض ﴿وَلَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَتَّخِذُوا﴾: يعتمدوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾: لم يتخذوا من دون الله بطانةً، وأنصارًا، وأعوانًا وأصحابَ سرٍ ممن يحاربون الله ﷻ ورسوله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾: عنده خبر وتفاصيل ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا

بمعنى الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: يعلمُ عمل كلّ إنسانٍ قبل أنْ يقع، وكلّ مصيبةٍ قبل أنْ تتم. إنّ التمحيص والاختبار من منهج الإسلام؛ لأهدافٍ عديدة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا ينبغي وليس من شأن ولا ينبغي ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾: تخصيصًا الذين يعبدون غير الله ﷻ أو يشركوا معه أربابًا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَعْمُرُوا﴾: إعمار بيوت الله لتكون آهلة بالمصلين ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: التي بُنيت باسمهِ ولأجلهِ ﷻ، هؤلاء لنْ يعمروا المساجد بالصلاة والقيام والذكر ﴿شاهدين﴾: بعدم الصلاة ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْكُفْرِ﴾: حالهم وأقوالهم تشهد على كفرهم، فإذا سألت اليهودي ما دينك، قال يهودي، والنصراني ما دينك: قال نصراني، ومن لا دين له قال: ليبرالي، أو شيوعي، أو يساري، أو وطني ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿حَبِطَتْ﴾: انتفخت انتفاخَ فسادٍ؛ فبطلت أجور ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: انتفاخ مرض وفناء، فبسبب شركهم فُقدت شروط قبولها فإنْ ماتوا قبل التوبة ﴿وَ﴾: عطفًا على كفرهم فهم ﴿فِي النَّارِ هُمْ﴾: بالتأكيد ﴿خَالِدُونَ﴾: مصيرهم جهنّم، أبدًا، أولئك ليس من شأنهم ولا ينبغي لهم إعمار المساجد وهم يعلنون الكفر ويشركون بالله ﷻ.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التحديد والتخصيص؛ بمعنى لا يعتني ببيوت الله ﷻ إلّا الذي ﴿يَعْمُرُ﴾: بالمكوث؛ وبالصلاة؛ والذكر ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: مساجد المسلمين، الذين يعبدون فيها الله ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذين من النّاس ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾: حرف باء الصلة: الذي صدّق بالله ﷻ إلهًا وبرسوله وملائكته ﴿وَ﴾: أيضًا آمن بحقيقة ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوم القيامة، يوم الثواب والعقاب ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: أيضًا أدّاها على وجهها الصحيح، وهي أكبر عبادات البدن ﴿وَآتَى﴾: أعطى ﴿الزَّكَاةَ﴾: وهي الإنفاق من المال، وهي أفضل الأعمال المؤدية إلى منفعة الخلق ﴿وَلَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَخْشَ﴾: لا يخاف ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿اللَّهَ﴾: إلّا من الله ﷻ ﴿فَعَسَى﴾: فعل ماضٍ جامدٍ هو هنا للترجي في الأمر المحبوب يُفيد هنا تقطع أطماع الكفّار من الانتفاع بأعمالهم التي فاخروا بها، وانتظروا عاقبتها ﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للقريب والبعيد

﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَكُونُوا﴾: يصيروا ويصبحوا ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾: يقول الله ﷻ إنّ أولئك هم المفلحون.

التكليف: عسى في القرآن من الله واجبة، فهي من الله حق ومن الناس للترجي.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

سبب النزول: قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** [التوبة-١٩] الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا[١]، وقال: ابن عباس: نزلت في العباس ابن عبد المطلب حين أُسر في بدر، قال: سبقتمونا بالإسلام، والهجرة، والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقى الحاج، ونفك العاني ﴿أَ﴾:استفهام إنكاري ﴿جَعَلْتُمْ﴾: ساويتم وعادلتم بين ﴿سِقَايَةَ﴾: توزيع الماء على ﴿الْحَاجِّ﴾: الحُجاج ﴿وَ﴾: أيضًا جعلتم ﴿عِمَارَةَ﴾: بالصلاة والقيام والمكوث ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: كلام موجه للمشركين هل تساوون أيّها الكفّار بين هذه الأعمال من سقاية حجاج الكعبة من المشركين التي تمت في الشرك، وهو عملٌ غيرُ مقبولٍ ﴿كَ﴾: بمعنى مثل وحال ﴿مَنْ﴾: مثل الذي من بني آدم ﴿آمَنَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوم القيامة ﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بالكلمةِ، والسلاحِ، والمالِ؛ كالذي آمن باللهِ ﷻ ولم يشرك به شيئًا، وآمن بالقيامة يوم الثواب والعقاب، وجاهد بالمال والنفس في سبيل الله ﷻ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَوُونَ﴾: لا يتساوون في المنزلة ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: يدُلُّ ويُرشدُ إلى الحق، لا يلهمهم حُجتهم، ولا يوفقهم في أعمالهم ﴿الْقَوْمَ﴾: هم جماعةً من عرقٍ واحدٍ أو عقيدةٍ واحدةٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لأنّها ليست من باب هدى الله ﷻ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:

---

[١] صحيح مسلم ٣/١٤٩٩(١٨٧٩).

«ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[1].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿آمَنُوا﴾: إنّ الذين جمعوا بين الإيمان بالله ﷻ ﴿وَهَاجَرُوا﴾: والهجرة هي ترك بلاد الكفر؛ قاصدين دار الإسلام ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿أَمْوَالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ﴾: والجهادِ في سبيل الله ﷻ بالمال والنفس، الذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس؛ هؤلاء ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾: أكبرُ شأنًا وثوابًا ﴿عِنْدَ﴾: ظرفٌ يفيد الزمان والمكان ﴿اللَّهِ﴾: وأرفعُ منزلةً وأسمى مرتبةً عند الله ﷻ ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد من المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد وهي، هنا حصرًا وتحديدًا ﴿الْفَائِزُونَ﴾: هؤلاء يحقُّ وصفهم بأصحاب الفوز والانتصار في الدنيا، والفوز بالجنّة في الآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ (٢١)

﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾: يُخبرُهم بما يسرهم ويُفرحهم ﴿رَبُّهُمْ﴾: هو تعالى المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون البديع من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام وهو سبحانه الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، هو الله ﷻ مالك أمرهم كلّه ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿رَحْمَةٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة للتفخيم والتعظيم، يُرسل الله ﷻ لأوليائه بشرى الرحمة العظيمة التي يُنزلّها عليهم ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ [البقرة-١٥٧] ﴿مِنْهُ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: أيضًا الرضوان هو من الرضا الذي لا يعقبه سخط ﴿وَ﴾: أيضًا يبشرهم أنّه تعالى أعدّ لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾: ويبشرهم ﷻ بنعيم الآخرة الذي في الجنّة ورضاه ﷻ عليهم ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة ﴿نَعِيمٌ﴾: وسائل التنعم ﴿مُقِيمٌ﴾: دائمٌ مستمرٌ غيرُ متقطعٍ، لا يفارق صاحبه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢)

---

[1] صحيح مسلم ١/٩٠(٨٥)

﴿خَالِدِينَ﴾: مقيمين ماكثين ﴿فِيهَا﴾: في تلك الجنان ﴿أَبَدًا﴾: الأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عِنْدَهُ﴾: حرف يفيد ظرف الزمان، وظرف المكان ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: فرضي عنهم المُعطي ﷻ؛ وادخر لمن آمن به، وعمل صالحًا، وامتثل لأوامره، واجتنب نواهيه؛ ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المنادي وهو الله ﷻ وبين المُنَادَى عليهم وهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: تصديقًا بالله ورسوله وعملوا بشرعه ﷻ ﴿لَا﴾: حرفُ نهي يُفيد التحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: نهى الله ﷻ عن اعتماد وجعل هؤلاء ﴿آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: هم الأحباب، والأنصار، والمعينون تُفشون إليهم أسرار المؤمنين، وتستشيرونهم في أموركم ﴿إِنِ﴾: حرف شرط ﴿اسْتَحَبُّوا﴾: طلبوا وأرادوا حُبّ ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾: لا حبّ ولا نُصرة ولا تأييدَ للأب والأخ والابن الكافر ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس الإنسان ﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾: يُحبهم، ويُطيعُهم، وينصُرهم ﴿مِنْكُمْ﴾: بعض المسلمين ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويُفيد سرعة التنفيذ ﴿أُولَئِكَ﴾: اسمٌ يُفيد الجمع القريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الظَّالِمُونَ﴾: من يواليهم فقد وقع في الظلم؛ ظَلَمَ نفسه في الدنيا وفي الآخرة.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤)

﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول للمؤمنين ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿كَانَ﴾: في تقديرك أنْ فُضِل ﴿آبَاؤُكُمْ وَ﴾: أيضًا فضّلتم ﴿أَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾: وهم الأقارب من الدرجة الأولى ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: أقرباؤكم سندٌ وعونُ لكم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾: اكتسبتموها، حصلتم عليها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ﴾: تخافون على تجارتكم ووسائل اكتسبتموها ﴿كَسَادَهَا﴾: أنْ تبور ولا تُباع، أو ضياعُ حُسنها وجمالها ﴿وَمَسَاكِنُ﴾: أيضاً بيوتٌ ومنازلُ السكن الواسعة والفارهة ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾: تُقيمون فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾: تحبونها وتفضلونها أكثر ﴿مِنَ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية أي على حبّ ﴿اللَّهِ وَ﴾: أيضًا أكثر من حبّ ﴿رَسُولِهِ﴾: عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الآنَ يَا عُمَرُ[1]، ﴿وَجِهَادٍ﴾: مقارعةٍ وحربٍ ﴿فِي سَبِيلِهِ فَـ﴾: لهذا السبب ودونَ تأخير ﴿تَرَبَّصُوا﴾: من الربص وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زوالُه أو حصولُه ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلَّا بشرط أنْ ﴿يَأْتِيَ﴾: يحقق وينفذ ﴿اللَّهُ بِـ﴾: حرف باء السببية ﴿أَمْرِهِ﴾: ومعنى الأمر هنا فتحُ مكّة يأتي ﷻ بالعقاب، والنكال، على الكافرين، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ[2] ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: يرشد للحق والصواب ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: جماعة أصحاب عقيدة فاسدةٍ خارجه عن الدين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥)

أسباب النزول: عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: حُنَيْنٌ: وَادٍ إِلَى جَنْبِ ذِي الْمَجَازِ. ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وَكَانُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ فِيمَا ذُكِرَ لَنَا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. قال ابن حجر: رَوَى يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ فِي زِيَادَاتِ الْمَغَازِي عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: قال رَجُلٌ يَوْمَ حُنَيْنٍ لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ[3]. ﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد، لأنّه وقع على الفعل الماضي وهو تحقيق نصر الله ﷻ لعباده المؤمنين ﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾: أنزل نصركم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾: مواقع ومعارك ﴿كَثِيرَةٍ﴾: تقدم الآية الكريمة فضل الله ﷻ على المؤمنين في نصرهم في معارك كثيرة، بتأييده وتقديره، وليس بعدد المسلمين ولا عدّتهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: يوم نصركم الله ﷻ اسمُ مكانٍ بأوطاس نسبة إلى رجلٍ من العمالقة اسمه حنين بن قانية، وفي موقعة حُنين: التي جاءت بعد فتح مكّة في شوال للسنة الثامنة للهجرة، حيث جمع مالك بن عوف النضري وهو من هوازن، ومعه ثقيف، وقبائل عربية أخرى، ومعهم زادهم وسلاحهم، خرج إليهم رسول الله ﷺ وهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومعهم ألفان ممن أسلموا من أهل مكّة الطلقاء، التقوا بالكفّار بوادٍ بين مكّة والطائف واسمه وادي حنين،

---

[1] صحيح البخاري /٨/١٢٩(٦٦٣٢).

[2] سنن أبي داود ٣/٢٧٤(٣٤٦٢). وصححه الألباني.

[3] فتح الباري ٨/ ٢٧.

قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺيَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ، فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَفِرَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ البَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺيَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ[١]. وَثَبت مَعَه من أَصْحَابه قريب من مائَة، وَقيل: ثَمَانُون، مِنْهُم: أَبُو بكر وَعمر وَالْعَبَّاس وَعلي وَالْفضل بن عَبَّاس وَأَبُو سُفْيَان بن الْحَارِث وأيمن ابْن أم أَيمن وَأُسَامَة بن زيد وَغَيرهم رَضِي الله عَنْهُم.

قَالَ عَبَّاسٌ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا ﷺ[٢] ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدُلُّ على ما مضى من الزمن يفيد هنا العلّة والسبب حين ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: غرّتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾: اذكروا عندما اعتقدتم أنّ النصر بكثرةِ العددِ والعتادِ، وقلتم لن نُغلب اليوم من قلّةٍ ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾: تمنع ولن تمنع ﴿عَنْكُمْ شَيْئًا وَ﴾: عطفًا على هذا ظهر عليكم العدو فلم تجدوا ملجًا في الأرض الواسعة ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾: لمّا انتصر المسلمون في اللقاء أوّل الأمر نزلوا إلى الوادي لجمع الغنائم، فأمطرهم أعداؤهم بالسهام والنبال؛ وحُشر المسلمون،

---

[١] صحيح البخاري /٤/٣٠(٢٨٦٤).

[٢] صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٨(١٧٧٥)

ففروا في الأرض ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿رَحُبَتْ﴾: هنا استعارة تشبه ما حلّ بهم من الكرب والهزيمة بضيق الأرض رغم اتساعها، وتمددها، وانحسر المسلمون في الأرض الواسعة بسبب الهزيمة ﴿ثُمَّ﴾: يفيد التتابع الزمني البطيء ﴿وَلَّيْتُمْ﴾: هربتم ﴿مُدْبِرِينَ﴾: انهزمتم هاربين مولين أدباركم إلى جهة عدوكم.

التكليف: إنّ النصر في المعارك مع المسلمين ليس بالعدد والعتاد بل بنصر الله ﷻ.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦)

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: بعد هزيمتكم وفراركم أنزل الله عليكم ﴿سَكِينَتَهُ﴾: الطمأنينة والثبات على ثمانين من صحابة رسول الله ﷺ ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾: محمد ﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا أنزل ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: الطمأنينة التي هي سلاح القائد أولًا، والتي تنعكس على الجيش ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ﴾ حرف نفي ﴿تَرَوْهَا﴾: لم تشاهدوها... ثُمَّ اقْتَحَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ فَرَسِهِ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ، فَأَخْبَرَنِي الَّذِي كَانَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنِّي ضَرَبَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ ﷻ. قَالَ يَعْلَى بْنُ عَطَاءٍ: فَحَدَّثَنِي أَبْنَاؤُهُمْ عَنْ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا امْتَلَأَتْ عَيْنَاهُ وَفَمُهُ تُرَابًا، وَسَمِعْنَا صَلْصَلَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَإِمْرَارِ الْحَدِيدِ عَلَى الطَّسْتِ الْحَدِيدِ[1]، هؤلاء كانوا هم الملائكة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿عَذَّبَ﴾: أذاق ﷻ العذاب بالهزيمة ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: المُنكرين لله وملائكته وكتبه ورسله والقيامة ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارةٌ للبعيد ﴿جَزَاءُ﴾: عقاب ﴿الْكَافِرِينَ﴾: المُنكرين لكلّ أركان الإيمان بالله ﷻ، ورسله وكتبه والقيامة والقضاء والقدر، وقاتلوا المسلمين.

التكليف: السكينة وقت المواجهة والروح العالية عند القيادة من عواملِ ثباتِ الجُندِ وشجاعتهم.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿يَتُوبُ﴾: يُسامح ويغفر ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: من رجع عن كفره بعد ذلك ودخل في الإسلام فإن الله ﷻ يقبل توبة من يشاء منهم، يشمل هذا العفو توبة الذين حاربوا الرسول ﷺ فقد تاب الله ﷻ على من بقي من هوزان فأسلموا، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ وَفْدُ هَوَازِنَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ، وَقَدْ نَزَلَ بِنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: اخْتَارُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِنْ نِسَائِكُمْ

---

[1] مسند أحمد ٣٧/١٣٤(٢٢٤٦٧) قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

وَأَبْنَائِكُمْ، فَقَالُوا: قَدْ خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا بَلْ نَخْتَارُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ فَقُومُوا، فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَعِينُ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوِ الْمُسْلِمِينَ فِي نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا صَلَّوْا الظُّهْرَ قَامُوا فَقَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ»، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا، وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا، فَقَامَتْ بَنُو سُلَيْمٍ فَقَالُوا: كَذَبْتَ، مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَمَنْ تَمَسَّكَ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ فَلَهُ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يُفِيئُهُ اللَّهُ ﷻ عَلَيْنَا، وَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَرَكِبَ النَّاسُ اقْسِمْ عَلَيْنَا فَيْئَنَا، فَأَلْجَئُوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لَكُمْ شَجَرَ تِهَامَةَ نَعَمًا قَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ لَمْ تَلْقَوْنِي بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَذُوبًا»، ثُمَّ أَتَى بَعِيرًا فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ: هَا إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذِهِ إِلَّا خُمُسٌ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بِكُبَّةٍ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذْتُ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْدَعَةَ بَعِيرٍ لِي فَقَالَ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ، فَقَالَ: أَوَبَلَغَتْ هَذِهِ؟ فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا، فَنَبَذَهَا وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1]. ﴿عَلَى مَنْ﴾: من بني آدم ﴿يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: واسع المغفرة ﴿رَحِيمٌ﴾: واسعُ الرحمةِ وهذا من فضل الله ﷻ: المسامحة، والرحمة بعباده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨)

عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْعَامِ الَّذِي نَبَذَ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾** [التوبة-٢٨] وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُوَافُونَ بِالتِّجَارَةِ، فَيَبْتَاعُ مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَلَمَّا حُرِّمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قُطِعَ عَلَيْهِمْ مِنَ التِّجَارَاتِ الَّتِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُوَافُونَ بِهَا، فَقَالَ اللهُ ﷻ: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** [التوبة-٢٨] ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي تَتْبَعُهَا الْجِزْيَةَ، وَلَمْ تَكُنْ تُوجَدُ قَبْلَ ذَلِكَ عِوَضًا لِمَا مَنَعَهُمْ مِنْ مُوَافَاةِ الْمُشْرِكِينَ بِالتِّجَارَةِ، فَقَالَ: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ**

---

[1] سنن النسائي /٦/٢٦٢(٣٦٨٨). حسنه الألباني والأرناؤوط.

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة–٢٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة–٢٩] فَلَمَّا أَحَلَّ اللهُ ﷻ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ، عَلِمُوا أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ عَاضَهُمْ أَفْضَلَ مِمَّا مَنَعَهُمْ مِنْ مُوَافَاةِ الْمُشْرِكِينَ بِالتِّجَارَةِ[1] ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ للتواصل بين المُنادِي وهو الله ﷻ وبين المُنَادَى عليهم، وهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: من الرجال والنساء؛ أمرٌ من الله ﷻ إلى المؤمنين الطاهرين في أنفسهم وفي أبدانهم ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التحديد والتخصيص ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾: مَنْ جعلوا مع الله ﷻ آلهةً أخرى ﴿نَجَسٌ﴾: النجاسة المعنوية، هذا تشبيهٌ بليغٌ يُخبر الله ﷻ حقيقة نجاستهم؛ فهي بسبب الشرك، والكفر، والظلم، والعادات الاجتماعية السيئة، فهم لا يتطهرون ولا يغتسلون إلّا قليلًا، ولا يجتنبون النجاسات فهي ملبسةٌ لهم. ﴿فَلَا﴾: حرفُ نهي وحثٍّ على عدم الفعل، وهو هنا أمر ﴿يَقْرَبُوا﴾: يدخلوا ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: الكعبة المشرفة ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: كان هذا في العام التاسع للهجرة، عن أَبَي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ ﵁ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي المُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى، أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ[2]، فأتم الله ﷻ ذلك الأمر شرعًا، وأرسلوا إلى كلّ مساجد المسلمين ألّا يدخلها مسيحيٌ أو يهوديٌ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: إذا خشيتم فقرًا أو نقصًا في المال؛ بسبب ضعف التجارة معهم، وضعف الأسواق ﴿فَ﴾: حرفٌ جواب الشرط ﴿سَوْفَ﴾: وعدٌ لعملٍ في المستقبل ﴿يُغْنِيكُمُ﴾: يزيد من ثرواتكم؛ لتلبي حاجاتكم وتزيد ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: بعض ﴿فَضْلِهِ﴾: فكانت أموال الجزية التي أخذوها؛ عوضًا وزيادةً ببركة الحلال ﴿إِنْ﴾: إذا ﴿شَاءَ إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: صاحب العلم التام بعباده ﴿حَكِيمٌ﴾: يفعل ويقول الصواب والحق والعدل.

التكليف: المراد بالنجاسة هنا نجاسة الشرك والظلم؛ فالكافرُ ليس بنجس الذات، لأنّ الله ﷻ أحلّ طعامهم، والنبيّ ﷺ أكل في آنيتهم، وشرب منها، وأنزلهم في مسجده.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

---

[1] أخبار مكّة للفاكهي ٣/٤٣(١٧٥٩) إسناده حسن إلى الزهري والحديث منقطع.

[2] صحيح البخاري /٦/٦٤(٤٦٥٦).

أسباب النزول: أمر رسول الله ﷺ في العام التالي للهجرة استجابةً لأمر الله ﷻ في هذه الآية تجهيز جيشٍ لقتال الروم، وبعث إلى المسلمين في المدينة، وجهّز ثلاثين ألفًا، وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺكَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ[1]. ﴿قَاتِلُوا﴾: أمرٌ من الله ﷻ للمسلمين كافّةً في كلّ زمانٍ ومكانٍ بقتال ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: أي الكفّار ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿بِ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويُفيد سرعة التنفيذ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ولا يؤمنون بالغيب: وهو الله ﷻ، ويوم البعث والقيامة الذي هو اليوم الآخر، خير دليل على الإيمان، وليس القول باللسان: إنّ الادعاء بالإيمان بالرسل السابقين فقط باطل؛ فالدين الجديد هو الخاتم، ولو آمنوا بالديانات السابقة لقادهم إلى الإيمان بمحمدٍ ﷺ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾: لا يجتنبون ﴿مَا﴾: الذي ﴿حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: أيضًا الذي حُرّم من الكتاب والسُنّة ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾: يعتقدون، ويتبعون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾: كانوا يُصرون على المعصية بالانحراف والعناد، ولو كان إيمانُهم بالأنبياء السابقين صحيحًا؛ لقادهم للإيمان بالدين الجديد الذي نزل على محمدٍ ﷺ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: نزل فيهم رسولٌ بكتابٍ من عند الله ﷻ، كاليهود والنصارى ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يُعْطُوا﴾: يدفعوا ﴿الْجِزْيَةَ﴾: الخراج المقدّر على رؤوسهم، جاء لفظ حتى في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه؛ بمعنى ما يقرب، قرابة أي وقتٌ لشيءٍ يكون وكذلك في ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات-٩]، و في قوله ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة-١٩٣] وفي قوله أيضًا ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ**

---

[1] صحيح البخاري /٦/٣(٤٤١٨).

وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة-٢١٤]، وجاءت بمعنى إلى حين في قوله ﷻ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات-١٧٨]، في قوله ﷻ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات-٤٣]، أنْ يُسلّموا بدفع الجزية ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد السبب ﴿يَدٍ﴾: يقدمونه بأيديهم كنايةً عن إذلالهم، وانقيادهم، وقهرهم، السبب هو غلبةٌ عليهم ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿صَاغِرُونَ﴾: إن المشهد الأهم هو يوم دفع الجزية، فالكافرون أذلاّءُ، مُهانون، وقد كاتب أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ نصارى أهل الشام، وأخذ عليهم شروطًا تتفق مع ما جاء في هذه الآية الكريمة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (٣٠)

كانت هذه الأقوال سببًا في دفع المسلمين لقتال الكفّار من اليهود والنصارى ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، العزير ابن الله ﴿قَالَتِ﴾: لقد أشرك اليهود عندما قالوا ﴿الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾: وهو قولٌ شنيعٌ؛ فالله ﷻ لا صاحبة له؛ ولا ولد، بل هو ﷻ ربّ كلّ شيءٍ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾: عيسى بن مريم هو ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾: وقد أصابهم ما أصاب غيرهم من غضبٍ؛ لهذا القول وقد أشرك النصارى بالله ﷻ عندما قالوا المسيح ابن الله ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة للبعيد ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: وهو تعبيرٌ عمّا يعتقدون في قلوبهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾: يُشابهون في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾: الذين كفروا قبلهم في السابق، وما قالتهُ الأممُ الضالّة من اليهود والنصارى: أنّ الملائكة بنات الله ﴿قَاتَلَهُمُ﴾: قال ابن عباس: لعنهم ﴿اللَّهُ أَنَّىٰ﴾: حرفٌ يفيد الاستنكار والاستحالة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يزيغون عن الحق، وهو ظاهرٌ ويذهبون إلى الباطل.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

أسباب النزول: كان عُدّي بن حاتم الطائي نصرانيًا، وقد تمّ أسرُ أخته هند، ثم أفرج عنها الرسول ﷺ، وأعطاها من المال، فرجعت إلى أخيها؛ ورغّبته في الإسلام؛ وشجعته على القدوم إلى رسول الله ﷺ؛ فجاء إلى المدينة، فعَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [التوبة-٣١]، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ[1]، ﴿اتَّخَذُوا﴾: اعتمدوا وجعلوا ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: جمع حَبر، وهم علماء اليهود ﴿وَ﴾: أيضًا اعتمدوا ﴿رُهْبَانَهُمْ﴾: المتنسكين من النصارى ﴿أَرْبَابًا﴾: أطاعوهم كما يطيعون الرّب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير، وتعني أقل ﴿اللَّهِ﴾: اتبعوا أوامرهم التي حلّلت الحرام، وحرّمت الحلال، فهذه هي العبادة ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: جعله النصارى إلهًا مع الله ﷻ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أُمِرُوا﴾: لم يأمرهم الله ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿يَعْبُدُوا﴾: يطيعوا ويتبعوا أوامر ﴿إِلَهًا﴾: معبودًا ﴿وَاحِدًا﴾: ما كان أمرُ الله ﷻ إلّا فقط: أنْ يُطيعوا وينفّذوا ما شرّع اللهُ ﷻ، والحكم به ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود ﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ﴾: ﷻ وتقدّس وتنزّه ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿يُشْرِكُونَ﴾: الشركاء، والنظراء، والأولاد، والأرباب.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)

﴿يُرِيدُونَ﴾: يرغب الكفّار بتكذيبهم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تصورٍ أو توهمٍ ﴿يُطْفِئُوا﴾: يقضوا على الإسلام؛ ويبطلوا الذي هو ﴿نُورَ اللَّهِ﴾: هذه استعارة فقد شبّه اللهُ ﷻ الإسلام بوضوح أدلّته وقطعيتها واضاءتها بالشمس الساطعة في نورها وضيائها، جاء لفظ النور في الكتاب الكريم على عشرة أوجه؛ هنا بمعنى دين الإسلام وكذا في قوله ﷻ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور-٣٥] ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: وتعني بكذبهم وطعنهم في الدين كي يصرفوا الناس عن الدخول فيه؛ يريد الكفّار بالجدال، والكذب، والافتراء؛ أنْ يحجبوا ما بُعث إلى محمدٍ ﷺ من دعوته الحق، كمنْ يُحاول إطفاء نور الشمس بالنفخ عليها ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَأْبَى﴾: الإباء هو شدّة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء ﴿اللَّهُ إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُتِمَّ﴾: يُكمل ﴿نُورَهُ﴾: أنْ يُحققَ وعده، ويتمّ، ويعمّ نورُ الإسلام على العالم أجمع ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستفهام والنفي ﴿كَرِهَ﴾: لم يرغب ﴿الْكَافِرُونَ﴾: ولو كره الكافرون هذا الأمر، فقد أنكرَ وأخفى الكافرون الحقائق، ولكنّ الله ﷻ مُظهرُ دينه، وناصرُ رسوله ﷺ.

---

[1] سنن الترمذي /٥/٢٧٨(٣٠٩٥). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وحسنه الألباني.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ **﴿الَّذِي﴾**: اسمٌ موصول هنا بالفرد الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، هو الله ﷻ **﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾**: محمدًا ﷺ **﴿بِـ﴾**: حرف باء المصاحبة **﴿الْهُدَى﴾**: الإخبار الصادق، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، هذه مكونات الهُدى، ومعنى الهُدى هنا التوحيد **﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾**: وهي الأعمالِ الصادقةُ، والنافعةُ، والصحيحةُ **﴿لِـ﴾**: حرف سبب **﴿يُظْهِرَهُ﴾**: يُعليه ويرفع شأنه **﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾**: جاء لفظ "**ظهر**" في القرآن الكريم على ثمانية أوجه؛ هنا بمعنى العلو بالقهر بإرغام الكفّار؛ ليعلوا على سائر الأديان، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا[1]. **﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾**: لم يرغب **﴿الْمُشْرِكُونَ﴾**: الذين جعلوا مع اللهِ ﷻ آلهةً أخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو الله ﷻ والمُنادَى عليهم وهم **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ **﴿آمَنُوا إِنَّ﴾**: حرف تأكيد **﴿كَثِيرًا مِنَ﴾**: هؤلاء **﴿الْأَحْبَارِ﴾**: عددٌ كبيرٌ من علماء اليهود **﴿وَ﴾**: أيضًا عددٌ كبيرٌ مِنْ **﴿الرُّهْبَانِ﴾**: عبّاد النصارى والقسيسين وعلمائهم، قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى **﴿لَيَأْكُلُونَ﴾**: حرف علّة وسبب، شبّه اللهُ ﷻ أخذ الأموال بالأكل على سبيل الاستعارة؛ لأنّ المقصود هو الأعظم والأكثر من أكل الأموال، فسمّي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده؛ فيأخذون **﴿أَمْوَالَ﴾**: ممتلكات **﴿النَّاسِ بِـ﴾**: حرفُ باء

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢٢١٥(٢٨٨٩).

السببية، ﴿الْبَاطِلِ﴾: يأكلون الأموال بالرشوة، ويأكلون أموال النّاس دونَ وجه حق، ويحتلون مناصبهم بالنصب، والاحتيال، وفي زماننا يأتي دور البنوك ومشاريع الاستثمار ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: أيضًا يمنعون ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: مع أكل أموال الحرام، يمنعون النّاس من الإيمان واتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾: يحتفظون بالأموال ولا يؤدون زكاتها، ولا يُخرجون منها الحقوق الواجبة. قال ابن عمر: المال الذي لا تُؤدّي زكاته، وما أدى زكاته فهو ليس كنزًا مهما بلغ ﴿الذَّهَبَ وَ﴾: أيضًا يكنزون، يكدّسون ﴿الْفِضَّةَ﴾: هذا الصنف الثالث من أكلة رؤوس الأموال، وهم الأغنياء الذين يجمعون بكثرةٍ الأموال ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لا تُصرف في دعوة الله ﷻ، مع منعها الزكاة ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿بَشِّرْهُمْ﴾: أخبرهم ﴿بِعَذَابٍ﴾: ما يسبب الأذى والضرر ﴿أَلِيمٍ﴾: ويسبب الوجع الشديد. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران–١٨٠] الآيَةَ[١]. وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا[٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[٣].

التكليف: كلُّ مالٍ هو حلالٌ، وليس بكنزٍ إذا توافرت فيه الشروط الآتية: أولًا: دُفعت زكاته، ثانيًا: وُزع كما أراد الله ﷻ على المواريث.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٥)

﴿يَوْمَ﴾: هو القيامة ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: سوف تُجمع الأموال الحرام، ويُوقد عليها؛ فتحترق، إنّ المال الحرام يكون سببًا في دخول صاحبه النّار فجاء التشبيه كأنّ أموالهم الحرام حطبٌ واشتعل، وصاحبه فوق النّار يحترق، هذا للتقريع والتبكيت والتهكم هذا بذاك

---

[١] صحيح البخاري ٢/١٠٦(١٤٠٣).

[٢] صحيح البخاري ٢/١٠٨(١٤٠٩).

[٣] صحيح البخاري ٢/١٠٨(١٤١٠)

﴿فَ﴾: بسبب هذا ﴿تُكْوَى﴾: تُحرق جلودهم ﴿بِهَا﴾: توضعُ النّارُ لتسبب الألم الشديد على ﴿جِبَاهُهُمْ﴾: مقدمةُ الرأس، ومقدمةُ الجسد، ومقدمةُ البطن، ومقدمةُ الأطراف ﴿وَ﴾: أيضًا تكوى جميع أجسادهم ﴿جُنُوبُهُمْ﴾: جنبا الشمال واليمين ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾: أيضاً تكوى مؤخرة الرأس ومؤخرة الصدر والبطن والأطراف السفلى؛ والمحصلة ما من جزءٍ صغيرٍ أو كبيرٍ في الجسم؛ إلّا سيذوق النّار؛ والعياذ بالله ﷻ، قال طاووس: يتحوّل الكنزُ يوم القيامة شُجاعًا ثُعبانًا يتبع صاحبه، وهو يفرُّ منه يقول: أنا كنزك؛ لا يدرك منه شيئًا إلّا أخذه، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ، إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ، وَجَبِينُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ[١]، وعن أَبَي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَأْتِي الإِبِلُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ، إِذَا هُوَ لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَأْتِي الغَنَمُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ إِذَا لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا، تَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا، وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا»، وَقَالَ: «وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تُحْلَبَ عَلَى المَاءِ» قَالَ: وَلاَ يَأْتِي أَحَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِشَاةٍ يَحْمِلُهَا عَلَى رَقَبَتِهِ لَهَا يُعَارٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ، وَلاَ يَأْتِي بِبَعِيرٍ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ[٢]، ﴿هَذَا﴾: العذاب بسبب ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿كَنَزْتُمْ﴾: جمعتم بكثرة ﴿لِ﴾: حرف تمليك وتخصيص ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾: لم تنفقوا منه على غيركم من المحتاجين ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا السبب؛ بهدف ترتيب الأمر، ويُفيد سرعة التنفيذ ﴿ذُوقُوا﴾: توبيخًا وتبكيتًا وزيادةً لهم في العذاب، بمعنى اصلوا وعانوا، وقاسوا الشديد من صنوف الألم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَكْنِزُونَ﴾: تجمعون وتُكدسون في حياتكم الدنيا.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿عِدَّةَ﴾: عدد ﴿الشُّهُورِ﴾: جاءت بصيغة الشهور لتفيد جمع الكثرة، بعكس ما يعنيه اللفظ "أشهر" الذي يفيد جمع القلّة ﴿عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ، وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: كما قدّرها ﷻ ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: الزَّمَانُ قَدْ

[١] صحيح مسلم /٢/٦٨٢(٩٨٧).
[٢] صحيح البخاري ٢/١٠٦(١٤٠٢).

اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ[1]، وقال ابن عباس: مُحرّم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة ثلاثة متواصلة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: في اللوح المحفوظ، أو فيما أثبتهُ كتابُه ﷻ ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق مثال ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَالْأَرْضَ مِنْهَا﴾: بعض الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: وهي: ذو القعدة: كانوا يقعدون فيه عن القتال، وذو الحجة: لأنّ فيه موسم الحج، والشغل في المناسك، و مُحرّم: حتى يرجع الحجيج إلى أقصى بلادهم آمنين، أمّا الشهر الرابع فمفرد وهو رجب: في منتصف السنّة لزيارة البيت والاعتمار ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة للبعيد الذي لا تطالهُ يدُ بشرٍ من التحريف ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: العقيدةُ المستقيمةُ؛ دين إبراهيم ﷺ، هذا امتثالٌ لأمر الله ﷻ على نحو ما سبق في اللوح المحفوظ، يوم خلق الله ﷻ السموات والأرض ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: لا تظلموا النّاس بقتلهم في الأشهر الحُرم وتظلموا أنفسكم في هذه الأشهر؛ فارتكاب الإثم فيها أبلغ، وهو القتال، حيث تتضاعف فيه عقوبات المعاصي، لا تجعلوا حرامَها حلالًا، ولا حلالَها حرامًا، كما فعل المشركون ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: على جميع المسلمين أنْ يشاركوا في قتال المشركين ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾: جميعًا، وكأنّ الواقع اليوم يُجسد بصورةٍ كونيةٍ هذه الحقيقة القرآنية، الغرب الصليبي والشرق الشيوعي، والعلماني، والمنافقون في داخل العالم الإسلامي؛ أجمعوا على محاربة الحركة الإسلامية، فوجب أنْ تتوحد الأمّة لتقاتل كافّة في مواجهة المعتدين كافّة. ومن المعلوم أنّه يوجد اختلاف في الحكم الشرعي في القتال في هذه الأشهر: فيه قولان: الأول: منسوخ؛ فالآية: فلا تظلموا فيهن أنفسكم، وأمر بقتال المشركين أمرًا عامًا؛ ولأنّه لم يُقيّدِ القتالُ بالسلاح في الأشهر الحرم، وقد حاصر ﷺ الطائف في ذي القعدة، والثاني: غير منسوخ: وأنّ ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، والدليل ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ [البقرة-١٩٤] ﴿وَاعْلَمُوا﴾: عطفاً على ما سبق اعلموا علم تصديقٍ ويقين ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الشك ﴿اللَّهَ مَعَ﴾: يُجيرُ ويُؤيدُ ويُناصرُ ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يعبدون الله بيقينٍ وتصديقٍ.

---

[1] صحيح البخاري /١٠٧/٤(٣١٩٧).

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧)

﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ تخصيصٍ وتحديد ﴿النَّسِيءُ﴾: هو تأخير حُرمة شهرٍ لشهرٍ آخر، كان النّاس مُجمعين، قبل الإسلام، على تحريمِ أربعةِ أشهرٍ من السنّة، فمرّة يُقدّمون الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية، وهو المحرم، وتارة يؤخرونه، ينسئونه إلى شهر صفر ﴿زِيَادَةٌ﴾: مبالغةٌ ﴿فِي الْكُفْرِ﴾: في الشرك بالله ﷻ يقود إلى الضلال ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾: يقود الشيطان به إلى مسالك خاطئة من التيه ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: أشركوا بالله ﷻ ﴿يُحِلُّونَهُ﴾: يجعلونه حلالًا، أي يحلون الذي أخروا تحريمه من الأشهر الأربعة ﴿عَامًا﴾: في سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ﴾: يُحرّمون فيه الحلال ﴿عَامًا﴾: في سنة أخرى ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُوَاطِئُوا﴾: ليوافقوا حُكمًا آخَرا؛ فيُحرّموا ما أحلّ الله ﷻ في شهرٍ، ويقولون نحن التزمنا بتحريم أربعة أشهر ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿يُحِلُّوا﴾: يجعلوه حلالًا بالكذب ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: جعله حرامًا ﴿زُيِّنَ﴾: تمّ تزيين وتجميل ﴿لَهُم﴾: تحديدًا وتخصيصًا لهم الشيطان، وهوته أحبته وفضّلتهُ أنفُسهم ليحققوا رغباتهم ومصالحهم ﴿سُوءُ﴾: ما يسبب لهم الضرر والشرّ من ﴿أَعْمَالِهِمْ﴾: التي تغضب الله ﷻ من قول وعمل ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يوفّق للخير والصواب ﴿الْقَوْمَ﴾: الجماعةَ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابِ دينٍ واحدٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين جعلوا مع الله ﷻ آلهة أخرى يعبدونها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: تخصيص المؤمنين ﴿مَا﴾: نفي ﴿لَكُمْ﴾: استفهام بغرض الإنكار، ما شأنكم؟ ما بالكم؟ كيف أنتم؟ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿قِيلَ﴾: جاءكم أمر ﴿لَكُمُ﴾: تخصيصًا ﴿انْفِرُوا﴾: إذا قيل لكم اخرجوا إلى الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ﷻ لقتال أعدائكم، جاء هذا العتاب للمؤمنين في غزوة تبوك، والآيةُ عتابٌ من الله ﷻ للمؤمنين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الفَتْحِ: «لاَ هِجْرَةَ

بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[1] ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾: تكاسلتم، وتباطأتم، وفضّلتم المُقامة ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾: قعدتم ومكثتم في بيوتكم، حيث الهدوء، وطيب الثمار ﴿أَرَضِيتُمْ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار، بمعنى هل فضّلتم متاع ونعيم ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ﴾: حرف يفيد التمييز بمعنى عن ﴿الْآخِرَةِ﴾: بدل نعيم وثواب الآخرة، فاعلموا ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد الخبر ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: حرف "إلّا" يفيد الاستثناء؛ يُزهّدُ الله ﷻ بالمبالغة في التهوين بشأن الدنيا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ، وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ، فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟[2]، وقال الأعمش: كزاد الراكب.

التكليف: قال عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ الْوَفَاةُ قَالَ: «ائْتُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أُكَفَّنُ فِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ»، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نظر إليه فقال: أما ليه مِنْ كَثِيرٍ؟ مَا أَخْلَفُ مِنَ الدُّنْيَا إلا هَذَا؟ ثُمَّ وَلَّى ظَهْرَهُ فَبَكَى وَهُوَ يَقُولُ: «أُفٍّ لَكِ مِنْ دَارٍ إِنْ كَانَ كَثِيرُكِ لَقَلِيلٌ»، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكِ لَقَصِيرٌ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكِ لَفِي غُرُورٍ([3]).

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ، بمعنى إنْ لمْ ﴿تَنْفِرُوا﴾: تخرجوا للجهاد في سبيل الله ﷻ؛ لقتال عدّوكم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: هنا جناس اشتقاق، يُنزل الله ﷻ عقوبته الشديدة الإيلام بكم ﴿وَ﴾: وعطفاً على ما سبق ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾: يغيّر ويأتي ﴿قَوْمًا﴾: جماعةً من أصلٍ واحدٍ أو أصحابَ مذهبٍ واحدٍ ينفرون إذا استنفروا، ويُطيعون الله ﷻ ورسوله، وينصرون دينهم؛ فتكون لهم الدولة ﴿غَيْرَكُمْ﴾: سيجد غيركم ممن ينصر دينه، جاء في المعنى: **﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** [محمد-٣٨] ﴿وَلَا﴾: عطفاً على ما سبق جاء النفي ﴿تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾: والضمير يعود على الرسول؛ فالله الغني عنكم، وأنتم الفقراء إليه ﷻ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد عموم ما هو في الكون ﴿قَدِيرٌ﴾: قادرٌ على الانتصار على الأعداء ودونكم.

---

[1] صحيح البخاري ٤/٢٣(٢٨٢٥).

[2] صحيح مسلم /٤/٢١٩٣(٢٨٥٨).

[3] تفسير ابن أبي حاتم ٦/١٧٩٧.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٠)

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾: إن تركتم نصرة الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد التحقق بالتأكيد لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾: أيدهُ وحفظهُ ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلّ على حدث في الماضي ويفيد السبب ﴿أَخْرَجَهُ﴾: يوم خرج مضطرًا بسبب عداوة الكفار من قريش، خرج مهاجرًا من بلده مكّة المكرّمةِ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: اضطر الرسول ﷺ إلى الهجرة من مكّة إلى المدينة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾: هو وصاحبهُ أبو بكر رضي اللهُ عنه ﷻ ﴿إِذْ هُمَا﴾: كان الاثنان ﴿فِي الْغَارِ﴾: غار جبل ثور قرب مكّة، حيث مكثوا ثلاثة أيام حتى تخف ملاحقة الكفّار لهما ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ﷺ: الرسول ﴿لِصَاحِبِهِ﴾: حرف تخصيص، رفيق الرسول وهو أبو بكر ﷺ ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَحْزَنْ﴾: كان خوفُ أبي بكر على الرسولِ شديدًا، حتى لا يقتلوا الدين في مهده ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ مَعَنَا﴾: كان ﷺ مطمئنًا؛ فيقول لصاحبه: عن أَنَسِ بْنش مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا[1] ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي؛ بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾: ربط على قلبه؛ كي لا يخاف ولا يحزن، ووعده بالنصر ﴿وَأَيَّدَهُ﴾: أيضًا ساندهُ ﴿بِ﴾: حرفُ باء التوكيد ﴿جُنُودٍ لَمْ﴾: حرفُ جزمٍ ينفي المضارع ﴿تَرَوْهَا﴾: لم تشاهدوهم وهم الملائكة ﴿وَجَعَلَ﴾: حقق في الواقع ﴿كَلِمَةَ﴾: جاءت "**كلمةَ**" هنا منصوبة؛ لتقارن بما بعدها، وهي كلمة الله ﷻ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾: كلمةُ الكفّار والمشركين، والكلمة هي الشرك ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾: كلمةٌ كنايةً عن المنهج، الإيمان، والإسلام، وجاءت بالرفع لأنها مرفوعة المقام دائمًا ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾: الغالبة المنتصرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبهُ أحدٌ، في ذاته وانتقامه، وانتصاره، منيعُ الجانب ﴿حَكِيمٌ﴾: الصدق في أقواله و الحق في أفعاله.

التكليف: الطمأنينةُ فضلٌ من الله ﷻ وأداةٌ من أدوات النصر الكُبرى.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

---

[1] صحيح مسلم /١٨٥٤/٤(٢٣٨١).

كانت هذه الآية في غزوة تبوك التي أراد الرسول ﷺ فيها غزو الروم، في بلاد الشام ﴿انْفِرُوا﴾: وجهّزوا أنفسكم، وعتادكم للغزو؛ ثم اخرجوا أيّها المؤمنون للجهاد في سبيل الله ﷻ ﴿خِفَافًا﴾: في المنشط ﴿وَثِقَالًا﴾: أيضًا انفروا في الصعوبات، أي انفروا في كلّ الأحوال ﴿وَ﴾: عطفاً على ما سبق ﴿جَاهِدُوا بِ﴾: حرف باء الصلة والتأكيد ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾: دفع المال ﴿وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أيضاً جاهدوا في المكره، وفي العسر، واليسر، كهولًا، وشبابًا، أغنياءَ وفقراءَ، مشاغيل وغير مشاغيل، نشطاً وغير نشطاء، سيرًا أو ركبانًا، قويًّا أو ضعيفًا والنفس في سبيل الله ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسمُ إشارةٍ لما حدث في الزمن البعيد، ما أوجب من الأوامر والنواهي، ﷻ الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب المذكور ﴿خَيْرٌ﴾: بركةٌ وفائدةٌ ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تفوزون بالغنيمة في الدنيا، وبالجنّة إذا قتلتم. لما اشتددت هذه الآية على الناس؛ نزلت الآية تنسخها: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [التوبة-٩١].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢)

الآية توبخ جماعةً من المنافقين؛ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنوا الرسول في ذلك ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿كَانَ﴾: في الذي دعاكم إليه الرسول ﷺ ﴿عَرَضًا﴾: غنيمةً سهلة المنال ﴿قَرِيبًا﴾: سهل الوصول إليه وتحقيقه ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: سفرًا قريب المسافة، لا مشقة فيه ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿اتَّبَعُوكَ﴾: لصاحبوك وتبعوا آثارك، وجاءوا معك ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف استدراك ﴿بَعُدَتْ﴾: طالت ﴿عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾: هنا استعارة تفيد السفر للمسافة الطويلة البعيدة؛ التي تجلب التعب والمشقة، وكان المقصود السفر إلى تبوك ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد التحقق في المستقبل ﴿يَحْلِفُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ، إذا رجعتم إليهم ﴿لو استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: لو قدرنا على الخروج ما تخلفنا عنكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: يوردون أنفسهم خسارةً وهلاكًا بغضب الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿كَاذِبُونَ﴾: يشهد الله ﷻ أنّ أعذارهم كانت كاذبة.

التكليف: لا شكّ أنّ الخوف هو من أمراض الجهاد في سبيل الله ﷻ، ومآله خسارةُ الآخرة.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣)

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرًا بْنَ مَيْمُونٍ الأَوْدِي يَقُولُ: اثْنَتَانِ فَعَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُؤْمَرْ (بِهِمَا): إِذْنُه لِلْمُنَافِقِينَ، وأَخْذُه مِنَ الأُسَارَى، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿**عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾، و: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى**﴾[1]، تبدأ الآية الكريمة بالعفو قبل المعاتبة، وهو منهجٌ قرآنيٌّ جاء في ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال-٦٧]، فقدّم الله ﷻ الأسر قبل الإثخان في الأرض، تفسير عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [التوبة-٤٣] وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ نَاسٌ: اسْتَأْذِنُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ فَاقْعُدُوا، وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ فَانْفِرُوا.[2]

﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ**﴾: غفر الله ﷻ وسامح، قدّم اللهُ ﷻ هنا العفو قبل العتاب؛ رحمةً بنبيّه الكريم ﷺ إكرامًا له إذ لو قدّم العتاب الذي هو ﴿**لِمَ أَذِنْتَ**﴾: سمحت ﴿**لَهُمْ**﴾: لأنّك أذنت لهم بعدم النفير في هذه الغزوة لأوجد في قلبه خوفًا وحزنًا ﴿**حَتَّى**﴾: حرفُ جرّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿**يَتَبَيَّنَ لَكَ**﴾: تظهر حقيقة ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿**صَدَقُوا**﴾: حتى يتحقق من صدق أعذارهم ﴿**وَتَعْلَمَ**﴾: تتحقق فتعرف من هم ﴿**الْكَاذِبِينَ**﴾: كان الله ﷻ يريد من رسوله ﷺ ألّا يأذن لأحدٍ بالقعود حتى يتحقق الرسول، وهو ﷻ الأعلم بالكاذب؟ لأنّهم صمّموا على القعود في كلّ الأحوال.

﴿**لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**﴾ **(٤٤)**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿**لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ [التوبة-٤٤]، الْآيَةَ نَسَخَتْهَا الَّتِي فِي النُّورِ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [النور-٦٢]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة-١٧٣][3]، ﴿**لَا**﴾: حرف نفي ﴿**يَسْتَأْذِنُكَ**﴾: ليس من أخلاق وطباع الذين آمنوا بفضيلة الجهاد أنْ يستأذنوك في القعود عن الغزو، هؤلاء هم ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾: حرف باء الصلة: أصحاب الإيمان الصادق بالله ﷻ ﴿**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾: وأيضًا يؤمنون بوعد الله ﷻ يوم القيامة من الثواب الكبير ﴿**أَنْ**﴾: حرفُ تأكيدِ الفعل ﴿**يُجَاهِدُوا بِـ**﴾: حرف باء السببية ﴿**أَمْوَالِهِمْ وَ**﴾: أيضًا يجاهدون بـ

---

[1] التفسير من سنن سعيد بن منصور ٥/٢٥٢(١٠١٧).

[2] تفسير مجاهد ص٣٦٩.

[3] سنن أبي داود ٣/٨٨(٢٧٧١) قال الألباني: حسن.

﴿أَنْفُسِهِم﴾: الذين يؤمنون أنّ الجهاد قربةٌ من الله ﷻ، وفوزٌ في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: يعلم الذين يؤمنون حقًا، ويرجون ثوابه، ويخافون عذابه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥)

﴿إِنَّمَا﴾: حرفٌ يُفيد التحديد والتخصيص ﴿يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميعَ مَنْ يطلب الإذن بالقعود والتخلف عن الجهاد في سبيل الله ﷻ، هم المنافقون والكافرون ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: الذين يكفرون ﴿بِاللَّهِ وَ﴾: أيضًا لا يؤمنون بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: هم المنافقون الذين لا عُذرَ لهم، ولا الذين يرجون ثواب الآخرة، ولذلك حجبوا أعمالهم الخروج والجهاد في سبيل الله ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: في قلوبهم شكٌّ من صحة رسالتك، وما جئت به ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿هُمْ﴾: ضمير للجمع المذكر الغائب؛ بسبب هذا إنّهم ﴿فِي رَيْبِهِمْ﴾: شكّهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: هؤلاء المنافقون لا يُصدّقون بالله ﷻ ولا باليوم الآخر؛ فبشركهم وبسبب عدم يقينهم يتحيرون، النّاس حيارى لم يحسموا، أمرهم مع من يقفون؟ فهم في تيهٍ وضلالٍ، جاء في المعنى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر-٣٣].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦)

﴿وَلَوْ أَرَادُوا﴾: لو كانوا صادقين في إيمانهم ويريدون حقًا ﴿الْخُرُوجَ﴾: إلى الغزو معك أيّها النبيّ ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿أَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: لتأهبوا وجَهّزوا أنفسهم، وأدواتهم ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: كره الله ﷻ أنْ يخرجوا مع الرسولﷺ ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿ثَبَّطَهُمْ﴾: أخّرهم، وقلّل عزيمتهم، وهمتهم، وثقّل عليهم الخروج؛ قضاءً وقدرًا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يربط هنا بين كره الله ﷻ انبعاثهم وبين قوله ﴿قِيلَ﴾: هل هم الذين قالوا فيما بينهم بالقعود أم هو أمر من الله ﷻ؟ الله أعلم ﴿اقْعُدُوا﴾: ابقوا في بيوتكم؛ وهذا من الذم والتنبيه؛ وتشبيههم ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾: مع المرضى، والضعفاء العاجزين، والقواعد من النساء، والصبيان والجبناء.

التكليف: لقد هيأهم اللهُ ﷻ قدرًا، وليس قهرًا لهم، ولو كان قهرًا فلماذا يعذبهم؟

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيدُ الاستحالة ﴿خَرَجُوا فِيكُمْ﴾: لو خرج المنافقون معكم للجهاد، استخدم الحقُّ ﷻ اللفظ **فيكم** بدلًا من معكم؛ لأنّ ذلك أوقع وأكثر أثرًا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿زَادُوكُمْ﴾: أضافوا إليكم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿خَبَالًا﴾: شرًا، وفسادًا، وعجزًا، وجُبنًا، لنْ يزيدوكم إلّا زيادةٍ في عدم الإدراك، وعدم التقدير السليم؛ بسبب جُبنهم، أي لنشروا الاضطراب في صفوفكم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿أَوْضَعُوا﴾: زرعوا ﴿خِلَالَكُمْ﴾: لجعلوا بينكم النميمة والبغضاء ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾: يريدون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾: بتثبيطكم ينتشر ما يفتنكم عن الجهاد، ونشرها في داخلكم، وهذا دور الطابور الخامس من الجواسيس ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿فِيكُمْ﴾: معكم أيّها المؤمنون ﴿سَمَّاعُونَ﴾: لهم، يُحبون الاستماع ﴿لَهُمْ﴾: من بينكم من هو على استعداد أنْ يسمع لهم، ويستحسن قولهم، ويقبل رأيهم؛ فيحدث الخلاف، والشقاق، والفساد الكبير، وهذا هو الأظهر في السياق وهو رأيُ الأغلبية، قال مجاهد: سمّاعون لهم؛ أي عيون لهم؛ يتسمّعون ما تقولون؛ وينقلون أخباركم إليهم، وهذا يُوجبُ عدم خروجهم معكم، وكان من بين الذين استأذنوا في عدم الخروج عبد الله بن أُبيّ بن سلول، والجد بن قيس حيث كان مع المسلمين قومٌ يحبون هؤلاء ويطيعونهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: الله ﷻ يعلم سرّهم ونجواهم، ما كان منهم وما يكون ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾: أصحابَ الصفاتِ الرذيلةِ التي وردت في الآية.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

يقول الله ﷻ للرسول ﷺ عن حال الكافرين والمنافقين ﴿لَقَدِ﴾: ﴿﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿ابْتَغَوُا﴾: أرادوا لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾: وهي صرف النّاس عن دينهم؛ وصدّهم عن سبيل الله ﷻ من قبل غزوة تبوك ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: في السابق، إنّ هؤلاء، هم المنافقون الذين يمارسون الكيد ضدّك، وضدّ إخوانك، ويُخذّلون منذ بداية الهجرة؛ لإحداث الفتنة، وهي تفريقُ كلمة المسلمين من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا﴾: أيضاً دبّروا الحيل والمكائد ﴿لَكَ﴾: تحديدًا ﴿الْأُمُورَ﴾: نوّعوا وصوّروا لكم، وشغلوكم عن الإيمان بالنقاش، والتحليل، والتخويف، والكيد، والكذب، باتصالهم باليهود والمشركين والتعاون والتآمر معهم عليه، وكان هذا في بداية الدعوة، وخاصّة بعد هجرة الرسول ﷺ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿جَاءَ﴾: تحقق ﴿الْحَقُّ﴾: النصر ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿ظَهَرَ﴾: علا وانتصر ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: وأمر الله هنا هو دين الإسلام، انتصر المسلمون على

كفّار المدينة، وعلى اليهود، وعلى المنافقين، وخاصّةً يوم بدرٍ، بعدها دخل المنافقون في الإسلام تظاهرًا ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كَارِهُونَ﴾: كان الكره والحقد والكيد ضد المسلمين يزداد بعد كلّ انتصار يُحققه الرسول ﷺ والمؤمنون.

التكليف: الحذرُ من المنافق فهو سوسةُ الجماعة، ينخرُ جوهرها قبل مظهرها.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

﴿وَ﴾: أيضًا اعلموا أنّ ﴿مِنْهُمْ﴾: جزء أو بعض المنافقين كان الجد بن قيس يُسوّق الأسباب والأعذار الكاذبة، ﴿مَنْ﴾: الذي من الرجال وهو جنس العاقل، الذي للرسول ﷺ ﴿يَقُولُ ائْذَنْ﴾: اسمح ﴿لِي﴾: يا محمد: ائذن لي في القعود، والتخلف عن الجهاد ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ونهي ﴿تَفْتِنِّي﴾: لا توقعني في الابتلاء بم يُعرض لي؛ بالخروج معك؛ لأنّني إذا لم أخرج معك أكون آثمًا وإذا خرجت معك وانتصرنا سوف أفتن بنساء الروم وجواريهم ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾: بهذا القول سقطوا في الفتنة الأعظم، النفاق، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ: يَا جِدُّ بْنَ قَيْسٍ مَا تَقُولُ فِي مُجَاهَدَةِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي امْرُؤٌ صَاحِبُ نِسَاءٍ، وَمَتَى أَرَى نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أُفْتَتَنُ فَائْذَنْ لِي فِي الْجُلُوسِ، وَلَا تَفْتِنِّي، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾ [التوبة-٤٩][1] ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿جَهَنَّمَ لَ﴾: حرفٌ يُفيد العلّة ﴿مُحِيطَةٌ﴾: تلتف من كلّ الجهات ﴿بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين أنكروا أركان الإيمان، لا نجاة لهم من جهنّم، هم في وسط جهنّم، لا محيص، ولا محيد.

التكليف: لا بد من ضرورة الحذر من أعذار المنافقين المُتعددة يصوغونها في قوالب مزيّنة.

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُصِبْكَ﴾: إذا حقّق الرسول ﷺ والمسلمون ﴿حَسَنَةٌ﴾: فتحًا، أو نصرًا على الأعداء، أو سرورًا أو غنيمة.. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: هنا منهج المقابلة بين أمرين، يشعروا بالغيظ والغضب، وتُسبب لهم ضيقًا في أنفسهم وحزنًا ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُصِبْكَ﴾: تُلمُّ بك ﴿مُصِيبَةٌ﴾: هنا مقابلة بين أمرين، الحسنة والمصيبة، إذا أُصيب المسلمون بهزيمة أو ضرر أو يلحق بك مكروه ﴿يَقُولُوا قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على

---

[1] المعجم الكبير للطبراني/١٢/١٢٢(١٢٦٥٤). وحسنه الألباني في الصحيحة ٦/ ٤٨٧.

الفعل الماضي ﴿أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾: احتطنا تحصنّا لأنفسنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: يقول المنافقون لقد احتطنا ولم نذهب معه؛ فنجونا من القتل والأسر ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَتَوَلَّوْا﴾: ينصرفوا يذهبوا إلى قومهم ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿فَرِحُونَ﴾: سعداء بنجاتهم مما أصاب المسلمين؛ وبما صنعوا.

التكليف: هذا مشهدٌ شائعٌ في العالم الإسلامي في حالات مقاومة المعتدين على بلادهم.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول للمنافقين المتخاذلين زجرًا لهم وتوبيخًا ﴿لَنْ﴾ حرف نفي ﴿يُصِيبَنَا﴾: في أجسادنا، وأموالنا، وأحوالنا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾: حرف اللام هنا يفيد الاختصاص، لن نُصاب إلّا بما خصّصهُ وما قدّرهُ اللهُ ﷻ لنا، في اللوح المحفوظ. جاء لفظ "**كَتَبَ**" في القرآن الكريم على أربعة أوجه، هنا بمعنى قضى وحكم كما في قوله ﷻ ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة-٢١]، راجع [آل عمران-٥٣]، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَقَالَ: «كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُونُ فِي بَلَدٍ يَكُونُ فِيهِ، وَيَمْكُثُ فِيهِ لاَ يَخْرُجُ مِنَ البَلَدِ، صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ»[(١)] ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿مَوْلَانَا﴾: الله ﷻ ناصرنا، وسيدنا، وملجؤنا، ومُحيينا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿عَلَى اللَّهِ فَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار، بمعنى هل ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَتَوَكَّلِ﴾: يعتمد ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: نحن نعتمد على الله ﷻ، هو حسبنا ونعم الوكيل. إنّ سلاح التوكل دواءُ القلوب في كلّ الأحوال.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ أخبر هؤلاء المنافقين ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد التوبيخ ﴿تَرَبَّصُونَ﴾: من الربص، وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زوالهُ أو حصوله، ترقبون وتنتظرون ﴿بِنَا﴾: بمعنى نحن، هل تنتظرون أنْ نصيب ﴿إِلَّا إِحْدَى﴾: واحدةً من ﴿الْحُسْنَيَيْنِ﴾: إمّا الشهادة في سبيل الله ﷻ، وإمّا النصر على الأعداء ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿نَحْنُ﴾: هنا ضميرٌ منفصل يُعبّر عن الإثنين أو أكثر ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾: ننتظر لكم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُصِيبَكُمُ اللَّهُ﴾

---

(١) صحيح البخاري ٨/١٢٧(٦٦١٩).

ب﴾: حرف باء التعددية ﴿عَذَابٍ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية أي المصدر ﴿عِنْدِهِ﴾: القتل، أو الأسر، أو الطرد، أو الهرب، يأتيكم من حيث لا تعلمون ﴿أَوْ﴾: يفيد التسوية في الحكم ﴿بِأَيْدِينَا﴾: بأمر الله ﷻ نقتلكم أو نأسركم ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿تَرَبَّصُوا إِنَّا﴾: هنا معنى التهديد والوعيد منذ نحن المسلمون ﴿مَعَكُمْ﴾: نحن وإياكم في حالةِ تربصٍ وليس توافق ﴿مُتَرَبِّصُونَ﴾: وهنا أمرٌ من الله ﷻ أنْ يبقى المؤمنون يتربصون بأعدائهم، جاهزين لملاقاتهم، وردّ كيدهم.

التكليف: يبقى المسلم في حالة تأهبٍ ضد المنافقين داخل الصف المسلم وضد الأعداء خارجه.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ فعل أمر ﴿أَنْفِقُوا﴾: أخرجوا من مالكم كيف شئتم وعلى أي حال شئتم ﴿طَوْعًا﴾: والطوع هو الانقياد بإرادتهم، ورغبتهم، وبحبٍ ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا التسوية بين متعاطفين الأول طوعًا والثاني ﴿كَرْهًا﴾: رغمًا عنكم، أخبرهم يا محمد وأمثالهم: مهما أنفقتم من مالٍ بإرادتكم أو رغمًا عنكم ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾: لن يقبله الله ﷻ، وليس لكم فيه ثوابٌ أو أجرٌ؛ والسبب ﴿إِنَّكُمْ﴾: بالتأكيد ﴿كُنْتُمْ﴾: ولا زلتم ﴿قَوْمًا﴾: جماعةً ﴿فَاسِقِينَ﴾: يشهد اللهُ ﷻ أنّهم خارجون عن طاعته.

التكليف: كم من منافقٍ تفاخر، وزيّن، ودلّس، وقت الحروب ولكنّ المؤمن يعرفه في لحن القول.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٤)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿مَنَعَهُمْ﴾: لم يمنع الرسول ﷺ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُقْبَلَ﴾: من قبول عرضهم ﴿مِنْهُمْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿نَفَقَاتُهُمْ﴾ أنْ يُنفقوا من أموالهم للرسول وللمسلمين من بعده إلّا ثلاثة أمور ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناء ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿كَفَرُوا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾: أولًا: كفرهم بالله وبرسوله ﷺ وهذا سبب عدم قبول نفقاتهم؛ لأنّ العمل والنفقة لا تصحُّ إلّا بالإيمان، وثانيًا: إنّ سبب عدم قبول نفقاتهم أنّهم أضمروا الكفر باللّه ﷻ، وتكذيب رسوله ﷺ ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿هُمْ كُسَالَى﴾: ليس لهم همّة العبادة، ولا الأداء الصحيح، وثالثًا: ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُنْفِقُونَ﴾: مالًا مفروضًا كالزكاة أو غير مفروض ﴿إِلَّا

﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كَارِهُونَ﴾: الإنفاق، لا يحبون إعطاء بعض المال للمسلمين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ[1].

التكليف: إنّ العبادات هي بوصلةُ الإيمان الصادق، وأولُها الصلاة.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥)

﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تُعْجِبْكَ﴾: لا تُحب يا محمد ﷺ ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾: ثروات المنافقين وأموالهم ﴿وَلَا﴾: حرف نهي، أيضًا لا تحب ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾: فهذه من متاع الحياة الدنيا، قال ﷻ في المعنى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه-١٣١] ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ وتخصيصٍ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾: إنّ عاقبة هؤلاء ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾: بسبب عدم تسخيرها في سبيل الله تعالى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: بتحصينك في الحياة الدنيا، وبما يدفعونه، كارهين من الزكاة، والنفقة منها في سبيل الله ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾: يموتون ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كَافِرُونَ﴾: وهم على الكفرِ وينتظرهم في الآخرة أشدّ العذاب.

التكليف: إنّ كثرةَ المالِ والرجالِ ليست المقياس في النصر والهزيمة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٥٦)

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾: يُقسم المنافقون ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿اللَّهِ إِنَّهُمْ﴾: هم المنافقون كذبًا وباطلًا بالتأكيد ﴿لَمِنْكُمْ﴾: حرف يفيد التمايز؛ يؤكدون بالأَيْمان المغلّظة أنّهم منكم؛ لخوفهم، وجزعهم، وهلعهم، من قوتكم، بسبب ما حدث للكافرين من قتلٍ وسبيٍ ﴿وَمَا﴾: وينفي الله ﷻ أنّهم ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿مِنْكُمْ﴾: شهادةُ الله ﷻ تنفي أنْ يكونوا من المسلمين المؤمنين ﴿وَلَكِنَّهُمْ﴾: حرف استدراكٍ ﴿قَوْمٌ﴾: جماعةٌ، أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿يَفْرَقُونَ﴾: يخافون منكم فيكذبون؛ لأنّهم ليسوا منكم، هم ليسوا في فرقتكم؛ فيكذبون عليكم خوفًا؛ ويحلفون تُقيةً؛ ومن هنا كان وجوبُ الحذرِ من الحلف الكاذب؛ فإنّه مؤشرُ نفاق.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٧)

---

[1] صحيح مسلم /٢/٧٠٣(١٠١٥).

﴿لَوْ﴾: يفيد الاستحالة ﴿يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾: لو أُتيح للمنافقين الحصن والحرز المنيع، مثل الملاجئ تحت الأرض ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التقسيم والتسوية بين متعاطفين الأول الملجأ والثاني ﴿مَغَارَاتٍ﴾: وهي الكهوف الموجودة في الجبال للمأوى وللتحصين فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾: هو النفق تحت الأرض لينجيهم منكم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿وَلَّوْا﴾: توجهوا وانصرفوا ﴿إِلَيْهِ وهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَجْمَحُونَ﴾: لذهبوا إليه، مسرعين بعيدًا عن المسلمين، فمخالطتهم للمسلمين كانت كُرهًا لا محبّة، فهم في همٍّ وحزنٍ دائمٍ؛ بسبب توسع الإسلام.

التكليف: فرقٌ بين ملجأٍ لحماية المسلم الشجاع، وبين ملجأٍ لحماية منافقٍ جبانٍ؛ والحُكم هنا هي النيّات التي لا يعلمها إلّا اللهُ ﷻ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَمِنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التمايز، من المنافقين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس الإنسان ﴿يَلْمِزُكَ﴾: الذي يعيب عليك ويطعن فيك ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾: في قسمة الصدقات لتوزيعها؛ ويتهمك بذلك، هم لا يُنكرون هنا الدين، ولكنّهم ينكرون قسمة توزيع الصدقات؛ بسبب عدم أخذ ما يريدون، إنّها حظُّ النفس ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أُعْطُوا﴾: أخذوا ﴿مِنْهَا﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية؛ إذا أخذوا من الصدقات ﴿رَضُوا﴾: إذا أخذوا ما يرضي الجشع عندهم رضوا عنك ﴿وَإِنْ﴾: حرف نفي وشرط ﴿لَمْ﴾ حرف نفي ﴿يُعْطَوْا﴾: يأخذوا ﴿مِنْهَا إِذَا﴾: حرفٌ يعطف ما بعدها على ما قبلها ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَسْخَطُونَ﴾: إذا تقالّوا ما أعطيتهم؛ يغضبون لأنفسهم، لقد نزلت هذه الآية في تقسيم الذهب والفضة، عَن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، وَهُوَ قِدْحُهُ، فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ

شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ[1].

التكليف: إنّ المال والولد من أسباب النفاق، وسبب خسارةٍ في الدارين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)

هذه آيةٌ من آيات تأديب المسلمين من الأدب الربّاني العظيم، والسرِّ الشريف وهو: الرضا بما آتاه الله ﷻ ورسوله ﴿وَلَوْ﴾: يفيد الاستحالة والامتناع، أنّ هؤلاء الذين يعيبونك في قسمة الصدقات ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار والشك، هؤلاء الذين يعيبونكم في قسمة الصدقات ﴿رَضُوا﴾: لو قبلوا طوعًا وحُبًّا ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل مثل المال والغذاء ﴿آتَاهُمُ﴾: وهبهم وأعطاهم ﴿اللَّهُ وَ﴾: أيضًا رضوا ما أعطاهم ﴿رَسُولُهُ﴾: ما يعطيه الله ﷻ، ويعطيه رسولهﷺ ليس فقط في المال، ولكن في كلّ مناحي الحياة، من الصحة، والزوجة، والزرع، والتجارة ﴿وَ﴾: عطفًا على رضاهم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾: يكفينا طاعة ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ وتوفيقه لنا؛ وطاعة رسوله ﷺ وأتباعه ﴿س﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُؤْتِينَا﴾: يعطينا ويهبنا ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: جزءًا أو بعضًا ﴿فَضْلِهِ﴾: كرمه ﴿وَرَسُولُهُ﴾: سيكرمنا رسوله ﷺ: مما آتاه الله ﷻ ﴿إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾: إنّما نريد رضا الله ﷻ، ونحن إلى الله ﷻ راغبون أنْ يعطينا من فضله أن يوسع الله ﷻ علينا؛ فيغنينا عن الصدقات من النّاس. ﴿﴾:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

أسباب النزول: بعد اعتراض المنافقين على قسمة الرسول ﷺ جاءت الآية الكريمة؛ لتقول إنّ الذي قسّم الصدقات هو الله ﷻ، وهو الذي بيّن حكمها، وتولي أمرها، هنا ثمانية مجالاتٍ للتوزيع، هل الدفع لها جميعًا، أو بعضها؟ أقوال: الأول: قال الشافعي وجماعة: يجب توزيعها، واستيعابها للفئات الثماني كلّها، وقال مالك وغيره من السلف والخلف: لا يجب استيعابها كلها، بل يجوز الدفع لواحدٍ منها؛ وهو الأرجح ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيدُ التحديد والتخصيص تُعطى ﴿الصَّدَقَاتُ﴾: ما يُنفَق من مال المسلمين، ومنها الزكاة ﴿ل﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿الْفُقَرَاءِ﴾: تخصيصًا وتمليكًا، شديدي الحاجة، الذين ليس لهم مال،

---

[1] صحيح البخاري /٤/٢٠٠(٣٦١٠).

المتعففين، الذين لا يسألون شيئًا، والمرضى والمحتاجين ومن يحتاجون ما يسدّ حاجتهم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: أيضًا للذين يسألون النّاس، وهو الشخص صحيح الجسم الذي لا يجد ما يُغنيه ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾: هم السعاة، الذين يبعثهم الإمام لجلب المال وتحصيل الزكاة، وهنا لا تحلُّ هذه الصدقات لأقرباء الرسول ﷺ ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: ما يُعطي للكافر ليسلم، ليحسن إسلامه، ويثبّت قلبه، من يدافعُ عن المسلمين في أطراف البلاد ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: المكاتبون، وفي عتق الرقاب ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾: الذين عليهم ديونٌ من غير إسرافٍ أو تبذيرٍ ﴿وَ﴾: أيضًا تنفقُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: المجاهدين من المسلمين ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المسافر الذي نفذت أمواله ﴿فَرِيضَةً مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية الكليّة، أي المصدر ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ هو الذي حددها وهو الذي فرضها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: لا يغيب عن علمه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾: صاحب الحق والصواب في القول والعمل.

التكليف: خصّص الله ﷻ توزيع الصدقات على الصنوف الثمانية، وحرّم أنْ تتجاوزهم لغيرهم.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦١)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإن ﴿مِنْهُمُ﴾: من المنافقين قومٌ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يُؤْذُونَ﴾: يُسببون ما يضرُّ ويُغضبُ ﴿النَّبِيَّ﴾ ﷺ بالافتراء عليه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَقُولُونَ هُوَ﴾: ضميرُ رفعٍ مُنفصلٍ يُفيد المفرد ﴿أُذُنٌ﴾: الأذنُ الجارحةُ، وشبّه به كحلقة أذن القدر وغيرها، ويُستعار لمن كثر استماعه، وقوله لما يسمع، ويتهمونه أنّه ﷺ يُصدّقُ ما يُقال له فينا، ويُصدّق من يحدثه، فإذا حلفنا له صدّقنا؛ فهو يُصدّق أيّ شيءٍ، ولم يعلموا أنّ هذا من حلمهِ وحُسنِ خُلق ﷺ ﴿قُلْ﴾: أجبهم يا محمد وقل لهم الحقيقة عنك ﴿أُذُنُ﴾: هنا تشبيهٌ بليغٌ تم حذف أداةِ التشبيه؛ بمعنى هو كالأذن يسمع كلّ شيءٍ يُقال، وهو عظيم السمع، أي سمّاع فالنبي يسمع من كلِّ متكلمٍ معه، لا يتكبر، ولا يقبل، ولا يقول إلّا الحق؛ فهو أذنُ خير، يسمع ما يفيد وينفع، لا أذن شرٍّ مثلكم أيّها المنافقون ﴿خَيْرٍ لَكُمْ﴾: أي استماعه لما يعود بخيركم؛ لا يسمع إلّا الطيب من القول ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: حرف باء الصلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: يصدّق بالله ﷻ، ويصدّق المسلمين والمؤمنين فيما يقولون ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾: إنّه هو أيضًا رحمة للمؤمنين منكم، ورسالته رحمة للبشر جميعًا من بعده ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾: يُسبِبُون الضرر النفسي والجسدي ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾: جاء ذكر الرسول ﷺ

هنا مقام الضمير تعظيمًا لشأنه؛ وللجمع بين الرسالة والنبوّة، التي أضيفت إلى الله ﷻ زيادةً في التكريم، أمّا الذين يكذبون عليه، ويتهمونه بما ليس فيه ﴿لَهُمْ﴾: سينالهم تحديدًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: موجعٌ في الدنيا وشديدُ الوجع في الآخرة.

﴿يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

سبب النزول: عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة-٦٢] الْآيَةَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَخِيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَلَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْحِمَارِ، فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟ فَجَعَلَ يَلْتَعِنُ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ: وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة-٦٢][1]. ﴿يَحْلِفُونَ﴾: يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة ويقدمون الأعذار المُلفقة ﴿بِاللَّهِ لَكُمْ لِ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿يُرْضُوكُمْ﴾: هذه من طباع المنافقين؛ يحلفون بالله ﷻ؛ ليرضوا الرسول ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُرْضُوهُ﴾: بالإيمان بالله ورسوله وقول الحق، ومخالفة المنافقين ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: هذا مقياسُ الإيمان ألّا يكذبوا، ولا يحلفوا كذبًا.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣)

﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ بغرض الاستنكار ﴿يَعْلَمُوا﴾: ألم يعلم هؤلاء المنافقون ويتحققوا ويتأكدوا من قولهم وإيذائهم للرسول ﷺ أنّ مصير الذين يحاربون الله ﷻ ورسوله نار جهنّم ﴿أَنَّهُ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُحَادِدِ﴾: من شاقّ، وعادى، وحارب، وخالف ﴿اللَّهَ وَ﴾: أيضًا خالف ﴿رَسُولَه فَأَنَّ﴾: لهذا السبب وبالتأكيد ﴿لَهُ﴾: تحديدًا ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾: فإنّ عقابه نارُ جهنّم ﴿خَالِدًا﴾: مقيمًا ابدًا؛ بلا خروجٍ منها ﴿فِيهَا﴾: مُعذّبًا، ومُهانًا فيها ﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارةٍ للبعيد؛ لتفيد بُعدَ درجته في الهول والشناعة ﴿الْخِزْيُ﴾: الشعور بالعار والتحقير ﴿الْعَظِيمُ﴾: هذا أكبر وأعظمُ ذلٍ وشقاءٍ وهوانٍ.

---

[1] تفسير الطبري /١١/٥٤٠. حسنه عبد الرزاق المهدي وقال: هو حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده. انظر تفسير البغوي٢/ ٣٦٥. قلت: الحديث مرسل بل معضل.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤)

﴿يَحْذَرُ﴾: يخشى ويخاف ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾: الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾: أنْ يُوحَي الله ﷻ إلى نبيّه شيئًا في أمرهم ﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾: تكشفُ مسبقًا وتبيّن ما يضمرون ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا بمعنى الذي ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: تفضح وتُظهر أسرارهم من الكفر ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾: أخبرهم يا محمد أنْ أظهروا سُخريتكم من الإسلام؛ فهذا لا يؤثر في الرسول ﷺ ولا في المؤمنين؛ والسبب ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾: مُظهرٌ ومُبيّنٌ ﴿مَا﴾: الذي ﴿تَحْذَرُونَ﴾: إنّ الله ﷻ سيفضح ستركم، ويبيّن أمركم؛ ومن أجل ذلك سُمّيت هذه السورة الفاضحة للمنافقين.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥)

أسباب النزول: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: مَا أَرَى قرآنَ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَرْغَبَنَا بُطُونًا، وَأَكْذَبَنَا أَلْسِنَةً، وَأَجْبَنَنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَقَالَ: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**مُجْرِمِينَ**﴾ [التوبة-٦٦] وَإِنَّ رِجْلَيْهِ لَتَسْفَعَانِ بِالْحِجَارَةِ، وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنِسْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[1]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَئِنْ﴾: حرفُ شرطٍ بمعنى إذا ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾: استفسرت عمّا قالوا من القدح في حقك وحقّ أصحابك ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: بالتأكيد ﴿إِنَّمَا﴾: حرف تأكيد ﴿كُنَّا﴾: في الماضي وما سبق ﴿نَخُوضُ﴾: نتلهى ونتسلى بحديث وكلام لا قصد لنا به ﴿وَنَلْعَبُ﴾: يقولون قلنا ليس من باب الجد، ولكن قلنا للتسلية، والقائل هو: وديعة بن ثابت ولكن كان هدفهم خُذلان المسلمين؛ وإضعاف عزيمتهم، أرسل الرسول ﷺ عمار بن ياسر ليقول لهم: لقد قلتم كذا وكذا؛ فردَّ عليه وديعة إنّما كنّا نخوض ونلعب ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ﴾: هل بالله ﷻ ﴿وَآيَاتِهِ﴾: أيضًا الأدلّة والبراهين ﴿وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾: تسخرون؟ سؤالُ استنكارٍ، وتوبيخٍ، وتحقيرٍ، وفضحِ ما في نفوسهم.

---

[1] تفسير الطبري /١١/٥٤٥، وحسنه علي بن نايف الشحود وقال: حسن لغيره في ظلال القرآن٥/ ٢٣٣. قلت: الحديث من رواية الزبير بن بكار كما ترى قالها الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١١١. يروي عن الزهري وغيره، فالحديث معضل.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦)

﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَعْتَذِرُوا﴾: لا تسوقوا الأعذار الكاذبة أيها المنافقون؛ فلا جدوى من اعتذاركم؛ لأنّكم ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿كَفَرْتُمْ﴾: لقد خرجتم من دين الإسلام بهذا الاستهزاء والتخاذل ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: بعد أنْ دخلتم الإسلام ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿نَعْفُ﴾: نغفرُ ونسامحُ ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيدُ التجاوز ﴿طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾: بعضكم أو جزءِ منكم، فمنهم ابن عامر الذي اعتذر للرسول فعفى عنه، وسأل الله ﷻ أنْ يُقتل شهيدًا، ولا يُعرف مكانه؛ فقتل في اليمامة ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾: نعاقبُ المنافقين المُصرّين على نفاقهم ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَنَّهُمْ﴾: تأكيد ونفي الشك ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: وبسبب إجرامهم سيتم عذاب آخرين أجرموا بما قالوا ولم يتوبوا.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧)

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾: هؤلاء صنفٌ واحدٌ من الرجال والنساء الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿بَعْضٍ﴾: بعضُهم أولياء بعض، حلفاء بعض ومن طباعهم: ﴿يَأْمُرُونَ﴾: يدعون بجد ﴿بِالْمُنْكَرِ﴾: كل ما حرّمه الله ﷻ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾: يمنعون ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: هم عكس المؤمنين، هؤلاء الذين يأمرون بالمنكر الذي لا يُرضي الله ﷻ، وينهون عن المعروف الذي هو من دين الله ﷻ عن قَتَادَة، عَنْ رَجُلٍ مِنْ خَثْعَمَ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «ثُمَّ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الْأَمْرُ بِالْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَعْرُوفِ»[1]، ﴿وَ﴾: عطفًا أخلاقهم القبيحة ﴿يَقْبِضُونَ﴾: يُغلقون ويُمسكون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: كنايةً عن الشّح وأنّهم يبخلون، ولا ينفقون، كما أن بسط اليد كنايةً عن الجود والكرم، وفي سبيل الله ﷻ ﴿نَسُوا﴾: ذكر وغضب وعذاب

---

[1] مسند أبي يعلى الموصلي ٢٢٩/١٢(٦٨٣٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٥١/٨ رجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة.

﴿اللَّهَ﴾: ونسوا ثوابه، وتركوا العمل بطاعة الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿نَسِيَهُمْ﴾: هنا من باب المشاكلة؛ لأنّ الله ﷻ لا ينسى، عاملهم الله ﷻ كالمُهملين، المنسيين، المطرودين من رحمته، هذا مجازٌ مُرسلٌ، أطلق السبب وهو نسوا وأراد المسبب نسيهم ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الْمُنَافِقِينَ هُمُ﴾: تحديدًا ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: المؤمن من يُصدّق قلبُه عملَه وقولَه، والمنافق من يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر، والفاسق الذي يخرج عن تعاليم دينه ويتجاوزها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٦٨)

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: توعد الله ﷻ بعقاب ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾: الذين من الرجال والنساء يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَالْكُفَّارَ﴾: أيضًا وعد الله ﷻ الذين يجهرون بالكفر ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾: دخول النّار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: ماكثين فيها مخلدين، لا يخرجون منها أبدًا ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: هذا ما يكفيهم من عذاب جهنم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا وتمليكًا ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: تأكيد خلودهم في النّار وبئس المصير.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩)

﴿كَ﴾: حرفٌ بمعنى مثل أو حال ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع ﴿مِن﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانية ﴿قَبْلِكُمْ﴾: أنتم أيّها المنافقون مثل الأمم التي سبقتكم في الكفر والاستهزاء بالرسل كأفعال الأمم السابقة، كمثل بني إسرائيل، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ[1]. ﴿كَانُوا﴾: فيما سبق ﴿أَشَدَّ﴾: أكثر شدّة وعنفًا ﴿مِنْكُمْ﴾: من بعضكم، من مجموعةٍ منكم ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا﴾: جمعًا للمال والثراء ﴿وَأَوْلَادًا﴾: أيضًا أكثر في الذريّة من الأولاد والأحفاد ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿اسْتَمْتَعُوا﴾: اشبعوا رغباتهم وملذاتهم ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾: هنا ذمٌّ وتوبيخٌ لهم، وفي طمعهم في الدنيا وما يشبع شهواتهم؛ وهذا نصيبهم ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾: أخذتم نصيبكم من متاع

---

[1] صحيح مسلم /٤/٢٠٥٤(٢٦٦٩).

الدنيا ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن﴾: يفيد بداية الغاية الزمانية ﴿قَبْلِكُم﴾: الأجيال السابقة ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾: نصيبكم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿خُضْتُمْ﴾: جاء هنا التفات من الحديث عن الغيب إلى الخطاب لزيادة التقريع والذّم، جرّبتم، ودخلتم في الباطل ﴿كَ﴾: مثل ﴿الَّذِي خَاضُوا﴾: دخلتم وسرتم في طريق الكذب، والباطل، كأهل فارس والروم، واليوم كاليهود والنصارى ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿حَبِطَتْ﴾: انتفخت انتفاخ مرضٍ وفسادٍ، وضاع الأجرُ والثواب على ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: فلا ثوابَ لهم، ولا جزاءَ حسنًا عليها ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: لا نتائج حسنة في الدنيا، بل خسارة، ولا جزاءً حسنًا في الآخرة، بل جهنّم وبئس المصير ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد أيضًا ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: الذين خسروا ما جمعوا في الدنيا بالموت وخسروا الجنّة بدخول النّار.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠)

﴿أَلَمْ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد الاستنكار ﴿يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾: ألم يصل إليكم يا معشر المنافقين خبر الذين مضوا من قوم نوحٍ، وقبيلة عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين.. وأخبارُ الذين من قبلهم، ماذا فعلوا من تكذيب؟ وكيف كان العقاب؟ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ﴾: هنا يأتي التهديد والتحذير بتذكيرهم بمصير الأمم التي كذّبت بالرسل والأنبياء مثل ﴿قَوْمِ﴾: جماعةٌ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿نُوحٍ﴾: حيث غرقوا جميعًا، وأرضهم، وبيوتهم، ولم ينج إلّا المؤمنون ﴿وَعَادٍ﴾: أيضًا الذين أهلكتهم الريحُ العقيم، التي لا تنقلُ حبوبَ اللقاحِ في الزرع؛ فتنتج الثمار، فكانوا غير مثمرين لمّا كذّبوا بنبيّهم هود ﵇ ﴿وَثَمُودَ﴾: أخذتهم الصيحة لما كذّبوا نبيهم صالح، ﵇، وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾: كيف أهلك الله ﷻ ملكهم نمرود، ونجّا الله ﷻ إبراهيم ﵇، من النّار ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾: كيف أصابتهم الرجفةُ، الزلزلة، وعذابُ يوم الظُّلّة، وهم أيضًا قوم شعيب ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: قوم شعيب ﵇، وكانوا يسكنون في مدائن ﴿أَتَتْهُمْ﴾: جاءتهم ﴿رُسُلُهُمْ بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: جاء رسلهم بالحُجج، والبراهينِ، والأدلّةِ القاطعةِ على صدق الرسالة ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يفيد الخبر ﴿كَانَ اللَّهُ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَظْلِمَهُمْ﴾: حيث أهلكهم ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ

واستدراكٍ ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: جوهرَهم، ذاتَهم ﴿يَظْلِمُونَ﴾: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بالرسل؛ فأصابهم الدمار، والعذاب؛ وما من ظالم إلّا وله يوم قصاص.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

هذه هي الصورة المقابلة لصورة الكفار، والمنافقين، وهي صفات المؤمنين ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾: الذين يُصدّقون بوعيٍ كاملٍ بالله ﷻ، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر، والقضاء، والقدر ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزءٌ منهم ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: أنصارُ، وأحبابُ، وحلفاءُ بعض، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ[١] ﴿يَأْمُرُونَ﴾: يطلبون من الناس جهرًا وبقوّةٍ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: حرف باء الصلة، يقولون ويعملون بما أمر الله ﷻ وهو كلّ الحلال ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: يمنعون النّاس من كلّ حرامٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[٢]. ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: عطفًا على ما سبق يقيمونها على الوجه الصحيح، في أوقاتها وهيئتها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: أيضاً يُحسنون إلى فقراء النّاس؛ بالإنفاق من أموالهم ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أيضًا يُنفذون ما أمرهم اللهُ ﷻ ورسولُه، وينتهون عمّا نهى اللهُ ﷻ ورسولهُ عنه ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿سَ﴾: تأكيدَ الفعلِ في المستقبل ﴿يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾: يرحم الله ﷻ كلَّ من هذه صفاته ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه أحدٌ، عزيزٌ في ذاته وصفاته، ويعزُّ من أطاعه، فإنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾: في قسمته هذه الصفات للمؤمنين، وفضح المنافقين بصفاتهم، وله الحكمة البالغة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: أخبر ﷻ أنّه سيفعل في المستقبل بالتأكيد ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَ﴾: أيضًا وعد ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: أنْ يُدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ﴾: يفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

---

[١] صحيح البخاري /١/١٠٣(٤٨١).

[٢] سنن الترمذي ٤/ ٤٦٨(٢١٦٩) قال الألباني: حسن.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين فيها أبدًا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: جنّات الإقامة الدائمة، ما يستمتع بها الجسم وتقبلُها النفسُ، مساكن حسنة البناء، طيبة الإقامة، الفردوس وهو أعلى الجنّة وأوسطها، منه تُفجّر أنهار الجنّة، وفوقه عرشُ الرحمن، وبناء الجنّة لبنةً من ذهبٍ ولبنةً من فضّةٍ، وملاطُها، المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابُها الزعفران ﴿وَ﴾: وعدهم الله ﷻ أيضًا ﴿رِضْوَانٌ﴾: ورضي ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية، أي المصدر ﴿اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وأعظم مما هم فيه من النعيم، رضا من الله ﷻ لا يعقبه سخط ﴿ذَلِكَ﴾: إشارةٌ للبعيد ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعنيًا ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفرد المذكر ﴿الْفَوْزُ﴾: النجاة من النار، والفلاح ﴿الْعَظِيمُ﴾: كبيرُ الشأن.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو الله ﷻ والمُنادَى عليه، وهو ﴿النَّبِيُّ﴾: محمد ﷺ ﴿جَاهِدِ﴾: جاء لفظ "**جاهد**" في القرآن الكريم على ثلاثةِ أوجه؛ هنا بمعني مدافعة ومقاومة الكفّار بالسيف، أي القتال بالسلاح في قوله ﷻ ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء–٩٥]، وجاء بمعنى العمل في قوله ﷻ ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت–٦] وفي قوله أيضًا ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت–٦٩] وفي قوله ﷻ ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج–٧٨] ﴿الْكُفَّارَ﴾: الذين غطوا وأنكروا براهين الإيمان، وأنكروا وجود الله ﷻ ورسالاته، والجنّة، والنّار ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾: أيضًا جاهد الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، عليك أنْ تُجاهد المنافقين بالكلامِ والحُجّةِ البالغةِ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اغْلُظْ﴾: اشدد، واضغط ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خذ الكفّار والمنافقين بالشدّة ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾: عطفًا على ما سبق، إنّ مصيرهم أنْ يدخلوا ﴿جَهَنَّمُ وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿بِئْسَ﴾: ضرر، وسوء، وخسارة ﴿الْمَصِيرُ﴾: المآل والنتيجة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤)

سبب النزول: عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَتْ أُمُّ عُمَيْرِ بْنِ سَعِيدٍ عِنْدَ الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْدٍ فَقَالَ الْجُلَاسُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، فَسَمِعَهَا عُمَيْرٌ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَى إِنْ لَمْ أَرْفَعْهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ فِيهِ، وَأَنْ أُخْلَطَ بِخَطِيئَتِهِ، وَلَنِعْمَ الْأَبُ هُوَ لِي، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ: فَدَعَا الْجُلَاسَ فَعَرَفَهُ وَهُمْ يَتَرَحَّلُونَ فَتَحَالَفَا، فَجَاءَ الْوَحْيُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَكَتُوا فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ لَا يَتَحَرَّكُونَ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ، فَرُفِعَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾** [التوبة-٧٤] حَتَّى **﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾** [التوبة-٧٤] فَقَالَ الْجُلَاسُ: اسْتَتِبْ لِي رَبِّي، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَشْهَدُ لَقَدْ صَدَقَ **﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** [التوبة-٧٤][1] حدث سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، قَالَ: سَمِعَ عَمْرٌو جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ[2]، قيل نزلت هذه الآيات في الجلاد بن سويد **﴿يَحْلِفُونَ﴾**: يُقسمُ المنافقون **﴿بِ﴾**: حرف باء الصلة **﴿اللَّهِ مَا قَالُوا﴾**: أنكر المنافقون وقالوا إنّهم ما قالوا شيئًا يُسيءُ إلى الرسول وإلى المسلمين، هذه من أدوات المنافقين، الحلف الكذب، يقولون ثم ينكرون، ويحلفون على الكذب **﴿وَلَقَدْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي **﴿قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾**: يحلفون كذبًا أنّهم ما كفروا، والله يشهد أنّهم قالوا كلام الكفر **﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾**: ارتدوا عن دينهم بكلمة الكفر **﴿وَ﴾**: حرف يجمع هنا بين متعاطفين: الأول أنّهم قالوا كلمة الكفر، والثاني: **﴿هَمُّوا﴾**: حاولوا الإضرار برسول الله فلم يمكنهم الله ﷻ من ذلك أوشكوا **﴿بِمَا﴾**: اسم موصول، هنا بمعنى الذي **﴿لَمْ﴾**: حرف نفي **﴿يَنَالُوا﴾**: قيل نزلت في الجلاد بن سويد، وقيل

---

[1] مصنف عبد الرزاق الصنعاني ١٠/٤٦(١٨٣٠٣)

[2] صحيح مسلم ٤/١٩٩٨(٢٥٨٤).

نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿نَقَمُوا﴾: كرهوا وعابوا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ ﴿و﴾: أيضًا أغناهم ﴿رَسُولُهُ مِنْ﴾: جزءِ أو بعض ﴿فَضْلِهِ﴾: كلّ ما كان يُغضبهُم أنّ الله ﷻ أغنى الرسول ﷺ ببركته ومنّ عليه بسعادته ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَتُوبُوا﴾: يرجعوا عن معصيته ﷻ ﴿يَكُ﴾: يكن ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾: تحديدًا وهو الخير للتائبين ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَتَوَلَّوْا﴾: يستمروا في نفاقهم وكفرهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: شديد الوجع ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: بالقتلِ والهمِ، والغمِ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: بهم بالنّار والهوان والصغار ﴿وَمَا﴾: أيضًا ليس ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿وَلِيٍّ﴾: لن يجدوا المنقذ والناصر الذي يدفع عنهم السوء المُحب أو المُؤيد ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نَصِيرٍ﴾: المؤيد والمعين، الناصر.

التكليف: لم يجد المنافقون شيئًا يُعيبونه وينتقدونه إلّا أنّ الله ﷻ تفضل عليهم؛ فأغناهم بما فتح على نبيه من الخير والبركة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مِنْهُمْ﴾: من فقراء المنافقين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر الذي ﴿عَاهَدَ﴾: قطع عهدًا على نفسه ﴿اللَّهَ لَئِنْ﴾: حرفٌ يُفيد الشرط والسبب ﴿آتَانَا﴾: أعطانا ووهبنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿فَضْلِهِ﴾: أعطى ميثاقًا إذا أغناهم الله ﷻ ﴿لَ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿نَصَّدَّقَنَّ﴾: لننفق بالتأكيد من مالنا الصدقات ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾: ويُؤكدون أنّهم أيضًا سيكونون ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بعض ﴿الصَّالِحِينَ﴾: ماذا يعمل الصالحون في أموالهم، الذين أصلحوا دينهم، ودنياهم، عبادات، ومعاملات، ليعملن ما يعمل الصالحون في أموالهم؛ وليسيرنّ في طريق الصلاح.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرْبَعُ خِلَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا[١].

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦)

﴿فَلَمَّا﴾: يفيد التتابع والسبب ﴿آتَاهُمْ﴾: أعطاهم الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد جزءًا أو بعضًا ﴿فَضْلِهِ﴾: من كرمه ورزقه الواسع ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾: لم ينفقوا ما يجب إنفاقه، والبخل هو إمساك المقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود ﴿وَ﴾:

---

[١] صحيح البخاري ٤/١٠٢(٣١٧٨).

حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿تَوَلَّوْا﴾: أداروا ظهورهم، أي انصرفوا عمّا كانوا عليه يوم العهد ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: وصاروا مُبتعدين عن الإيمان، والوفاء بعهدهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧)

سبب النزول: بعث النبي ﷺ رجلين من الصحابة بعد نزول الآية: ﴿**خذ من أموالهم صدقة**﴾: لجمع الصدقة من المسلمين، وأعطاهما كتابًا بذلك، وامرهما بالذهاب إلى ثعلبة وغيرهِ فمرّا على ثعلبة، ورأى الكتاب؛ فقال ما هذه إلّا جزية، وما هذه إلّا أخت الجزية، طلب منهما ان يذهبا، ثم يعودا، فذهبا إلى رجلٍ اسمه السلمي فأعطاهما من الصدقات كثيرًا، فرجعا إلى ثعلبة؛ فنظر في كتاب رسول الله ﷺ فكرر ما هذه إلّا جزية أو أخت جزية؛ ولم يُعط شيئًا. وقد مات ثعلبة في عهد عثمان ﵁. ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿أَعْقَبَهُمْ﴾: كان جزاء صنيعهم وعاقبتهم، خاتمتهم ﴿نِفَاقًا﴾: أن زادهم نفاقًا على نفاقهم؛ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: متجذرًا في قلوبهم لا يستطيعون أنْ يتخلصوا منه إلى يوم القيامة، وهو إظهارُ الإيمان، وإبطانُ الكُفر ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾: يخبر الله ﷻ أنّهم سيموتون على نفاقهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا بمعنى الذي ﴿أَخْلَفُوا﴾: نقضوا عهدهم مع ﴿اللَّهَ﴾: ففعلوا عكس ﴿مَا﴾: الذي ﴿وَعَدُوهُ﴾: كان النفاق ثمرةَ مُخالفةِ الوعد ﴿وَبِمَا كَانُوا﴾: أيضًا بسبب ما كانوا عليه في السابق ﴿يَكْذِبُونَ﴾: وبسبب الكذب والإعراض.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨)

﴿أَلَمْ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد الاستنكار والتوبيخ ﴿يَعْلَمُوا﴾: ألم يعرف ويتأكد هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: علم الصانعِ لصنعته، والخالقِ لخلقه ﴿سِرَّهُمْ﴾: يعلم ﷻ ما يُخفون في أنفسهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر، وما لا يقولونه للنّاس، ﴿وَ﴾: أيضًا يعلم ﴿نَجْوَاهُمْ﴾: ما يتحدّثون به فيما بينهم عن المؤمنين، من المطاعن في الدين، وافتراء العيوب؛ يعلم الله ﷻ ما يُسارونه من الأسرار التي لا تُقالُ علنًا ﴿وأَنَّ﴾: حرفُ تأكيد ونفي الإنكار والشكّ ﴿اللَّهَ عَلَّامُ﴾: صاحبُ العلم المطلق لكلِّ ﴿الْغُيُوبِ﴾: يعلمُ كلَّ غيبٍ، وكلّ شهادةٍ؛ فيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

وهذه من صفات المنافقين ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَلْمِزُونَ﴾: لا يسلم المتصدقون من أذاهم، فهم يُعيبون ويُشككون في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾: والطوع هو الانقياد بإرادتهم، ورغبتهم، وبحبٍ ومنهم، الذين يتصدقون ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، فكانوا جزءًا أو بعضًا ﴿الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة-٧٩][1]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿الَّذِينَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَجِدُونَ﴾: لا يملكون ﴿إِلَّا﴾: حرفٌ يفيد الاستثناء ﴿جُهْدَهُمْ﴾: طاقتهم ووسعهم، جاء أبو عقيل ليتصدق بصاعٍ من تمرٍ ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾: بسبب هذا يستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾: هذا من باب المقابلة، على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين جزء أو بعض، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن هذا الصاع؟ ﴿سَخِرَ﴾: أهانهم وأذلّهم ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ سيُذلّهم؛ فيُصبحوا سخريةَ الخلق ﴿مِنْهُمْ﴾: فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ وهنا نالَهم غضبٌ وسخط عظيم ﴿وَلَهُمْ﴾: أيضًا وتحديدًا سيصيبهم الله ﷻ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جاء تنوين الضمّ هنا للتهويل والتشديد والتفخيم، فيكون عذابُهم مُوجعًا شديدًا.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

﴿اسْتَغْفِرْ﴾: يا محمد ﷺ أطلب المغفرة من الله ﷻ ﴿لَهُمْ﴾: للمنافقين تحديدًا وتخصيصًا ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ هنا نمط طباق السلب، والمقصود هو التسوية؛ يقول ﷻ لرسوله ﷺ مهما استغفرت أو امتنعت عن طلب المغفرة لهم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: بمعنى طلب ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾: جاء الرقم سبعين للمبالغة وليس لتحديد العدد، وكلّ ما هو ماثل هذا في القرآن كان للدلالة على الكثرة، إنّ الله ﷻ لن يغفر لهؤلاء المنافقين؛ لأنّهم ليسوا أهلًا للاستغفار، ومن المعلوم أنّ العرب يستخدمون رقم السبعين في المبالغة في الكلام، ونفهم هنا أنّ المسلم إذا استغفر سبعين مرّة فسيغفر الله ﷻ له ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿لَنْ﴾: يفيد النفي ﴿يَغْفِرَ﴾: يسامح، ويمحو الذنوب ﴿اللَّهُ لَهُمْ﴾: تحديدًا، لقد أخبر الحق ﷻ أنّهُ لنْ يغفر لهم، لقد فهم الرسول ﷺ من هذه الآية أنّ الله ﷻ لنْ يغفر إذا استغفر لهم سبعين مرّة فقال سوف

---

[1] صحيح البخاري ١٠٩/٢(١٤١٥).

أستغفر أكثر من سبعين مرّةً؛ فجاء الرد الرّبانيّ بالنفي، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ: تُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ، وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ؟ قَالَ: إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ – أَوْ أَخْبَرَنِي اللَّهُ – فَقَالَ: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ، أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة–٨٠] فَقَالَ سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: **﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾** [التوبة–٨٤][1]، **﴿ذَلِكَ﴾**: إشارة للبعيد **﴿بِ﴾**: حرف يفيد السبب **﴿أَنَّهُمْ﴾**: يفيد التأكيد ونفي الإنكار والشك **﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ﴾**: عطفًا على هذا فإنّ **﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي﴾**: إنّه يدُلُّ على الصواب فهو ﷻ متصلٌ مترابطٌ لا يكتمل معناه إلّا باتصاله **﴿الْقَوْمَ﴾**: الجماعة من البشر المتجانسين عرقيًا، وفكريًا، الجماعة **﴿الْفَاسِقِينَ﴾**: وصف الله ﷻ هؤلاء بالفاسقين؛ لأنّهم خرجوا عن أوامر الله ﷻ ونواهيه.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)

يذمُّ الله ﷻ المتخلّفين عن غزوة تبوك، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأذن لهم وخلفهم في المدينة؛ وكان فرحهم بسبب قعودهم عن الجهاد **﴿فَرِحَ﴾**: صاروا فرحين مسرورين وهم **﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾**: كان فرح الذين تخلفوا عن غزوة تبوك **﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾**: بسبب قعودهم وتخلّفهم عن القتال **﴿خِلَافَ﴾**: مخالفين بالقعود بعد خروجه، أو مخالفين أمر **﴿رَسُولِ اللَّهِ﴾**: وبقوا في بيوتهم بعد خروجه **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال **﴿كَرِهُوا أَنْ﴾**: حرفُ تأكيد الخبر **﴿يُجَاهِدُوا﴾**: كرهوا الذهاب معه للجهاد في سبيل الله ﷻ **﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**: بسبب أنّهم لم يدفعوا أموالًا، ولم يشاركوا بأجسادهم في الجهاد **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا **﴿قَالُوا لَا﴾**: حرف نهي **﴿تَنْفِرُوا﴾**: تغزوا أو تحاربوا في معركة تبوك **﴿فِي الْحَرِّ﴾**: حيث كانت الغزوة في فصل الصيف، والمنطقة شديدةُ الحرارة، فقالوا للمؤمنين؛ للتثبيط: لا تذهبوا معه، ولا تغيبوا عن الظلال والثمار **﴿قُلْ﴾**: أمر ربّاني، أخبرهم يا محمد ﷺ أنّ **﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾**: التي تنتظركم، والتي ستصيرون إليها **﴿أَشَدُّ﴾**: أكثر **﴿حَرًّا﴾**: بكثير جدًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ يَا رَسُولَ

[1] صحيح البخاري /٦/٦٨(٤٦٧٢).

اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا[1]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ[2] ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾: يشهد الله ﷻ أنّهم لا يفهمون مطلقًا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿لْ﴾: حرفُ لام الأمر ﴿يَضْحَكُوا﴾: هؤلاء المنافقون الذين تخلّفوا وكان ضحكُهم تعبيرًا عن سرورهم ﴿قَلِيلًا﴾: قال ابن عباس: الدنيا قليلٌ، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا، وصاروا إلى الله ﷻ، استأنفوا بكاءً، لا ينقطع أبدًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ضحكهم ﴿لِيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في نار جهنّم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا[3]، وقال ﷺ: لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى، أَوْ إِلَى، الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ[4] ﴿جَزَاءً﴾: عقابًا ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: بسبب ما اقترفوا من جرائم في حق الله ﷻ، يبكون حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماءُ؛ فتقرح العيون، فلو أنّ سُفنًا أُجريت فيها؛ لجرت.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣)

﴿فَإِنْ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الحدث ﴿رَجَعَكَ اللَّهُ﴾: إذا ردّك الله ﷻ من غزوتك، وعدت إلى المدينة والكلام موجه إلى رسول الله ﷺ إذا رجع من غزوته ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾: جماعةٍ واحدةٍ من المنافقين الثابتين على نفاقهم ﴿مِنْهُمْ﴾: بعض أو جزء، قال قتادة: كان عددهم اثني عشر رجلًا ﴿فَ﴾: يفيد السبب ﴿اسْتَأْذَنُوكَ﴾: أسرعوا في الطلب، والإذن منك ﴿لِ﴾: حرف علّة وسببٍ ﴿الْخُرُوجِ﴾: أنْ يجاهدوا معكم في غزوةٍ أخرى ﴿فَقُلْ﴾: أخبرهم بوضوح القول ﴿لَنْ﴾: حرفُ نهيٍ قاطعٍ ﴿تَخْرُجُوا﴾: للجهاد ﴿مَعِيَ﴾: بصحبتي ﴿أَبَدًا﴾: قل لهم دونَ تأخيرٍ عقوبةً لهم: إنّكم لنْ تُشاركوا في شرفِ غزوةٍ أخرى، لأنّ العقوبةَ على التخلفِ الأول أبديّة ﴿وَلَنْ﴾: حرف نفي قاطع ﴿تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾: لا تصاحبوني في قتال الأعداء والسبب ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم

---

[1] صحيح البخاري /٤/١٢١(٣٢٦٥).

[2] سنن الترمذي /٤/٧١٠(٢٥٩١). وقال الترمذي: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا مَوْقُوفٌ أَصَحُّ. والحديث ضعفه الألباني وغيره. قلت: مثل هذا الحديث وإن كان موقوفًا؛ فإن له حكم الرفع، لأنه إخبار عن غيب لا مجال للاجتهاد فيه.

[3] سنن ابن ماجه ٥/ ٢٨٧(٤١٩٦) قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

[4] مسند أحمد ٣٥/٤٠٥(٢١٥١٦) قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

بالتأكيد ﴿رَضِيتُمْ﴾: قبلتم من قبل ﴿بِالْقُعُودِ﴾: بسبب التخلف عن الجهاد في سبيل الله ﷻ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: لأنّ للخروج أجرًا وشرفًا وعزّةً، وفيه ضررٌ دنيويٌ على بعض المسلمين ﴿فَاقْعُدُوا﴾: لهذا السبب تخلفوا في بيوتكم ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: مع الذين تخلفوا عن الغزو، المرضى والنساء والصبيان.

التكليف: في هذه الآية تكليفٌ للقادة في كلّ المعارك ألّا يكون فيهم أو يشاركهم في معارك التحرير أحدٌ من المنافقين، الثابتين على نفاقهم، الذين يثبطون النّاس عن القتال.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ: تُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ، وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ؟ قَالَ: إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ – أَوْ أَخْبَرَنِي اللَّهُ – فَقَالَ: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ، أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة–٨٠] فَقَالَ سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: **﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾** [التوبة–٨٤][1]

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تُصَلِّ﴾: صلاة الجنازة، وفي هذا إشارة لفضلها على الميت ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾: أيّ واحدٍ ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التمايز، من المنافقين ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾: تحريمٌ قاطعٌ وعامٌ من بعده ﷺ ﴿وَلَا﴾: أيضًا ينهي ﴿تَقُمْ﴾: تزر من الزيارة وتدعو له ﴿عَلَى قَبْرِهِ﴾: كان هذا بعد أنْ نصح عمر بن الخطاب الرسول ﷺ ألّا يصلي على ابن سلول فلما نزلت الآيةُ لم يُصلِّ الرسولُ ﷺ على منافقٍ بعدها أبدًا، ولا قامَ يدعو لهُ على قبره ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﷺ ﴿كَفَرُوا﴾: أخفوا وأنكروا الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَ﴾: أيضًا كفروا ﴿رَسُولِهِ وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿مَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾: خارجون عن طاعةِ الله ﷻ ورسوله ﷺ وهذا حكمٌ عامٌ في كلِّ منافق.

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

---

[1] صحيح البخاري /٦/٦٨(٤٦٧٢).

﴿ولَا﴾: يفيد التحريم ﴿تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ﴾: أيضًا لا تغرّك وتخدعُك أموال هؤلاء المنافقين فتعجبك يا محمد ﷺ أموال هؤلاء المنافقين ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾: لا يغرنّك عدد الأولاد، وكثرة المال ﴿إِنَّمَا﴾: يفيد التحديد والتخصيص ﴿يُرِيد﴾: إرادة ربّانيّة لا تُرد ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾: بمكابدتهم الشدائد في شأنها؛ وستكون الأموال والأولاد سببَ شقاوتهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾: تخرج أرواحهم فيموتون على كفرهم بالله ﷻ ورسوله؛ فلن ينالوا دنيا، ولن يفوزوا بنعيم الجنّة في الآخرة ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كَافِرُونَ﴾: غير مؤمنين؛ أنكروا حقيقة الإيمان.

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَإِذَا﴾: حرفُ ربطِ ما بعدها بما قبلها ﴿أُنْزِلَتْ﴾: من الله ﷻ وحيًا على محمدٍ ﷺ ﴿سُورَةٌ أَنْ﴾: تأكيد الفعل ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾: حرف باء الصلة تأمرهم بالإيمان والإخلاص الصادق بالله ﷻ ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ﴾: طلب الإذن منك ﴿أُولُو﴾: أصحابُ ﴿الطَّوْلِ﴾: أصحاب القدرةِ، والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾: من المنافقين، حرفٌ يفيد التأكيد على عدم القتال؛ يقولون ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾: اتركنا، يطلبون الإذن أنْ يتخلفوا عن الجهاد حتى ﴿نَكُنْ﴾: نبقى ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾: ويقعدوا مع المسموح لهم شرعًا بالقعود من الرجال ومع النساء، والمرضى، والضعفاء.

التكليف: الحذر من تشريع وممارسة المُحرّم والممنوع بحججٍ واهيةٍ؛ فهذه تأكل من الدين.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

﴿رَضُوا﴾: أحبوا ﴿بِأَنْ﴾: بكل تأكيد الفعل ﴿يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾: قبلوا الحرام والعار بالقعود في البيوت مع النساء، والصبيان، وأصحاب الأعذار، والسماح لهم بالقعود من الرجال الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا كانت الحرب؛ كانوا أجبن النّاس، وإذا جاء الأمن كانوا أكثر النّاس كلامًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿طُبِعَ﴾: خُتم ﴿عَلَى قُلُوبِهِم﴾: أصبحت سماتهم وتصرفاتهم، لا تتغير، ولا تتبدل ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَفْقَهُونَ﴾: لا يعلمون فضل الجهاد والاستشهاد والجنّة، فهم الجاهلون حقًّا، ما به صلاحهم ورشادهم.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨)

بعد ذكر صفات المنافقين جاء مدحُ المُجاهدين ﴿لَكِنِ﴾: حرفُ استدراكٍ تعني أمّا ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾: هؤلاء الذين آمنوا ولم ينافقوا فقد ﴿جَاهَدُوا بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: ذهبوا فعلًا في الحرّ، وضحّوا بالمال، وبالنفس ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد منهم ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الْخَيْرَاتُ﴾: جمعوا في الدار الدنيا النصر، وجمعوا المنافع الماديّة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾: تحديدًا ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الذين نالوا في الدار الآخرة في مقابل النشأة الأولى الفردوس والدرجات الرفيعة، أي لهم النصر والغنيمة في الدنيا، والجنّة والكرامة في الآخرة.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩)

وفي مزيدٍ من الثناء على المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ﴿أَعَدَّ﴾: حضّر، جهّز ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ بمشيئته ﴿لَهُمْ﴾: ثواب المجاهدين ﴿جَنَّاتٍ﴾: وليست جنّة واحدة، تفيد تعدد وسائل النعيم ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: بمزيدٍ من النعيم توجد الأنهار التي تجري تحت القصور والأشجار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مالكين، ماكثين فيها بلا انقطاع ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد منها ﴿الْفَوْزُ﴾: النجاح ﴿الْعَظِيمُ﴾: إنّ أيام الجهاد والقتال والمكابدة محدودة بعمر الإنسان، أمّا الثواب في الآخرة، فخالد لا ينتهي، هو الفوز العظيم: نصر الدنيا وجنات الآخرة.

التكليف: إنّ الله ﷻ كريم، والكريم يعطي أكثر.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿جَاءَ﴾: حضر ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾: جاء جماعةٌ من أحياء العرب حول المدينة من أصحاب الأعذار الكاذبة ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة، بعض ﴿الْأَعْرَابِ﴾: من أهل البادية؛ يعتذرون إلى الرسول ﷺ وكان حول المدينة عددٌ من بني غفار، وهم أصحاب أعذارٍ حقيقةً ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُؤْذَنَ﴾: ليتم السماح ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا، يطلبون من الرسولﷺ الإذن بعدم الخروج للقتال ﴿وَقَعَدَ﴾: الذين كذبوا الله ورسوله ﷺ ولم يهبوا للقتال في سبيل لله ﷻ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع الذين تخلفوا بغير عذرٍ ﴿كَذَبُوا﴾: حيث قعدوا عن القتال بغير عذرٍ جرأةً على ﴿اللَّهَ وَ﴾: أيضًا جرأةً على ﴿رَسُولَهُ﴾: ﷺ هذا يدلّ على صدق الفئة الأولى وهي المعذرون الذين قعدوا فلم يأتوا إلى الرسول ليؤذن لهم، وجاء نفرٌ من بني غفار؛ فلم يُؤذن

لهم، والنتيجة ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يُصِيبُ﴾: سيمس في العمق وبشدّة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أنكروا وأخفوا الدين ﴿مِنْهُمْ﴾: من أصحاب الأعذار الكاذبة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الكلمات دالّة على كفر هؤلاء، ودالّة على مصيرهم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١)

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يفيد النفي، يُبيّن اللهُ ﷻ الأعذارَ المقبولةَ التي يسوقُها عن المخلّفين حقًّا عن الجهاد، التي تبيح القعود عن القتال ﴿عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾: وهم أصحابُ الأعذار من ضعفاء البدن، أو النقص العقلي الملازمِ لهم، بحيث لا يستطيعون الصبر في الجهاد، ومن ذلك الأعمى، والأعرج، والنساء، والصبيان، ونحوه ﴿وَلَا﴾: حرفٌ يُسقطُ فريضة القتال ﴿عَلَى الْمَرْضَى﴾: والمقصود به المرض نفسه الذي هو عارضٌ في البدن، يشغل المسلم عن الخروج في سبيل الله ﷻ ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿لَا يَجِدُونَ مَا﴾: ليس عندهم الذي ﴿يُنْفِقُونَ﴾: وهم الفقراء الذين لا يملكون تجهيز مستلزمات الحرب ﴿حَرَجٌ﴾: لا إثم ولا ذنب عليهم في القعود عن القتال ﴿إِذَا﴾ أداةُ ربطِ ما بعدها بما قبلها ﴿نَصَحُوا﴾: إذا اخلصوا لله ﷻ ولرسوله، وعملوا بشريعة دينهم، القادرين على طاعة ﴿لِلَّهِ﴾: تخصيصًا ﴿وَ﴾: أيضًا نصحوا لطاعة ﴿رَسُولِهِ﴾: قاموا بدورٍ في حدود الإمكان، حثّوا النّاس على الجهاد، ولم يثبطوا، أو يرجفوا المجاهدين ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾: فَسَمَّاهُمْ مُحْسِنِينَ نَصِيحَتُهُمْ لِلَّهِ بِقُلُوبِهِمْ لَمَّا مُنِعُوا مِنَ الْجِهَادِ بِأَنْفُسِهِمْ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يفيد جزءًا أو بعض ﴿سَبِيلٍ﴾: معناها ليس عليهم أيّ إثمٍ أو أيّ ذنبٍ وما من طريقٍ لمؤاخذتهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: يمحو الذنوب ولا يحاسب عليها ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة والعطف والتفضل على عباده.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢)

﴿وَلَا﴾: حرف نفي بمعنى لا ذنب ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط، وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿مَا أَتَوْكَ﴾: جاؤوك ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَحْمِلَهُمْ﴾: طلبوا من الرسول ﷺ أنْ يُجهّزهم للجهاد، من الركوبة والسلاح، قيل كان عددُهم سبعةُ نفرٍ، وكانوا فقراء ﴿قُلْتَ﴾: لهم ﴿لَا أَجِدُ﴾: ليس عندي ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: قلت لهم ليس عندي ما أجهّزكم به للقتال ﴿تَوَلَّوْا﴾:

رجعوا حزنًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا كانت ﴿أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾: تمتلئ ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾: وأعينهم تدمع بغزارة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ[1] ﴿حَزَنًا﴾: محزونين ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيص، بمعنى أنْ لا ﴿يَجِدُوا﴾: لم يجدوا ﴿مَا﴾: هنا بمعنى الذي من المال ﴿يُنْفِقُونَ﴾: في سبيل الله ﷻ، وما يحملهم لو خرجوا للجهاد في سبيل الله ﷻ.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ قصرٍ تُفيد التخصيص ﴿السَّبِيلُ﴾: هنا يُبيّن الحق ﷻ من يستحق المساءلة واللوم العقاب، فهم ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا الأغنياء المنافقين مَنْ ﴿يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾: الذين جاؤوك يطلبون أنْ تأذن لهم بالقعود عن الجهاد ﴿وَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿أَغْنِيَاءُ﴾: يستطيعون تجهيز أنفسهم بالمال، والعتاد؛ للقتال في سبيل الله ﷻ؛ ولا تنقصهم قوة البدن ﴿رَضُوا﴾: قبلوا، ورغبوا واختاروا لأنفسهم ﴿بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾: قبلوا أنْ يكونوا مع الفقراء، والضعفاء، والمرضى، والنساء، والأطفال الذين لا يخرجون للجهاد والفتح وأصحاب الأعذار ﴿وَطَبَعَ﴾: عطفًا على تخلّفهم عن القتال في سبيل الله تعالى؛ ختم، بمعنى لا يتغير ولا يتبدل ﴿اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: وهي مراكزُ الإدراك، ومصدر الوعي، ختم الله ﷻ على قلوبهم الكفر والنفاق؛ فلا يدخلها الإيمان؛ فأعمى بصيرتهم، وعميت قلوبهم عن معرفة الخير لأنفسهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: هم الجاهلون حقًّا، فقد طُبع على بصيرتهم وقدرتهم على الفهم والعلم، لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: من عادة المنافقين أنّهم يبدون أعذارَهم للمسلمين المجاهدين، أعذارًا كاذبةً، أو واهيةً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما

---

[1] صحيح البخاري /٦/٨(٤٤٢٣).

بعدها بما قبلها ﴿رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: بعد العودة من جهادكم من غزوة تبوك؛ منتصرين أو غير ذلك؛ لأنّ قوة المسلمين تبقى قائمة ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله بالقول لهم، وهو أمرٌ يجري من بعده على كلّ المسلمين ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾: عذرُكم غيرُ مقبول ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿نُؤْمِنَ﴾ لن: نصدق ﴿لَكُمْ﴾: لن نصدقكم أنتم تحديدًا ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿نَبَّأَنَا﴾: أعلمنا وأخبرنا ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: حرف يفيد التأكيد عن بعض ﴿أَخْبَارِكُمْ﴾: أحوالكم خاصّة الفكر والوسوسة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يَرَى﴾: رؤية تحقق ﴿اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: ما عملتم في السر وفي العلن ﴿وَرَسُولُهُ﴾: سيُظهر الله ﷻ أعمالكم للنّاس، يفضحكم في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿تُرَدُّونَ﴾: تموتون، فترجعون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾: الذي لا يغيب عنه شيء مما خفي عن الناس ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: هنا طباق بين السر والعلن ما يشاهده النّاس، إلى الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: يخبركم بما سيكون في المستقبل ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الماضي ﴿تَعْمَلُونَ﴾ يعلم ما تُخفون وما تُظهرون، ويحاسبكم عليه.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥)

﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد تأكيد الفعل، سوف ﴿يَحْلِفُونَ﴾: يقسم لكم المنافقون بالله ﴿بِاللَّهِ لَكُمْ﴾: الصلة بالله ﷻ تخصيصًا معتذرين كذبًا وافتراءً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: إذا رجعتم إلى مكّة من الغزو ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تُعْرِضُوا﴾: تتجنبوهم وتبعدوا ﴿عَنْهُمْ﴾: حتى لا تؤنبوهم ولا توبخوهم ﴿فَ﴾: وبسبب ذلك ﴿أَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾: إعراض احتقارٍ وازدراءٍ ونبذٍ ﴿إِنَّهُمْ﴾: بالتأكيد هم تحديدًا ﴿رِجْسٌ﴾: خبثاء البواطن، وهو الشيء الخبيث القذر، والرجس يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال يجمع هنا بين كونهم نجساً وبين ﴿مَأْوَاهُمْ﴾: مثواهم، ومصيرهم، ومآلهم ومكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾: النّار ﴿جَزَاءً﴾: عقابًا لهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾: عقابًا عمّا اقترفوه من الخطايا والآثام.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٦)

﴿يَحْلِفُونَ﴾: يُقسمون بالذي تقسمون به كذبًا ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَرْضَوْا﴾: حتى ينالوا رضاكم ﴿عَنْهُمْ﴾: وبذلك يتفادوا احتقاركم لهم ﴿فَإِنْ﴾: هنا تأكيد فعل ﴿تَرْضَوْا﴾: الرضا والقبول بهم ﴿عَنْهُمْ﴾: فقد خالفتم إرادة الله ﷻ ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَا﴾: نفي ﴿يَرْضَى﴾: يقبل توبة ﴿عَنِ﴾: حرف جر يفيد السبب ﴿الْقَوْمِ﴾: الجماعة المتجانسة فكريًا ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: خصّهم الله ﷻ بعدم الرضا؛ في موضع الإضمار لزيادة التشنيع لطبيعتهم؛ لأنّهم خرجوا عن طاعة الله ﷻ ورسوله.

التكليف: ملخص الآيات الكريمة في الآتي:

١- عدم تصديق المنافقين إذا اعتذروا.

٢- المستقبل خيرُ شاهدٍ لإظهار كذبهم.

٣- يعلم الله ﷻ سرّهم وما يخفون من خديعة ومكرٍ للمسلمين.

٤- تأكيد الجزاء على كلِّ عملٍ يردع كلّ فاسقٍ وظالمٍ.

٥- المنافقون رجس معنوي يجب الحذر منه؛ حتى لا يتأثر المؤمن منهم أعمالًا وأقوالًا.

٦- يجب الابتعاد عن كلِّ ما يوقع في الذنوب والسيئات.

٧- التماس رضا الله في كلّ حالٍ فلا ينفع رضا النّاس مع سخط الله ﷻ.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧)

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾: جمع أعرابي وهو من يسكن البادية إي في الأعراب، لأنّ الآية تقول: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾ [التوبة-٩٩] تنفي العموم عليهم، إنّ نفاق أهل البادية أشدُّ من نفاق غيرهم، أكثر، الكفر هو التغطية، والنفاق هو إبطان الشخص ما لا يُظهر، هو الذي باطنهُ كافرٌ وظاهرهُ مؤمنٌ، وهؤلاء كُفرُهم أشدُّ وأعظمُ من كفرِ غيرهم من أهل الحاضرة، المدُن، وذلك لجفائهم، وبعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر، وقسوة قلوبهم ﴿وَ﴾: عطفاً على هذا ﴿أَجْدَرُ﴾: أحرى وأحق ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيص، بمعنى هل ﴿يَعْلَمُوا﴾: يفهموا ويدركوا ﴿حُدُودَ﴾: قواعد وأصول ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النبي ﷺ وَقَالَ مَرَّةً سُفْيَانُ وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلَّا عَنِ النبي ﷺ وَقَالَ: مَنْ سَكَنَ

الْبَادِيَةَ جَفَا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ[1]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: صاحب العلم المطلق ﴿حَكِيمٌ﴾: ﷻ عليمٌ بمن يستحق الهداية، و يُعلمّه العلم الصحيح، وهو ﷻ الحكيم في أقواله وأفعاله.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨)

﴿وَمِنَ﴾: حرف بمعنى بعض ﴿الْأَعْرَابِ﴾: سكان الصحراء ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَتَّخِذ﴾: من يحتسب ويقدّر أنّ ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُنْفِقُ﴾: ما يدفعه أو يقدّره في سبيل الله ﷻ ﴿مَغْرَمًا﴾: يعُدّه خسارةً وغرامةً، ولا يجد له ثوابًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَتَرَبَّصُ﴾: من الربص، وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زواله أو حصوله، ينتظر ويترقب أنْ تنزل ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾: ويتمنى للمسلمين الكوارث، والشر، والآفات؛ فيدعو اللهُ ﷻ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: على هؤلاء الأعراب، هنا دعاءٌ عليهم؛ ستصيبهم ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: ما يتمنونه للمسلمين وتدور عليهم المصائب وتنعكس فتصيبهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمعُ دعاء أوليائه ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم من يستحق النصر ممن يستحق الهزيمة.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩)

﴿وَ﴾: حرفٌ جَمَعَ هنا بين ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع بعض ﴿الْأَعْرَابِ﴾: هذا النوع المؤمن الذي يستحق المدح والثناء من سكان البادية، وبين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر ﴿يُؤْمِنُ﴾: يصدّق بقلبه ﴿بِ﴾: باء الصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: الذي قلبهُ مطمئنٌ أنّ اللهَ ﷻ خالقهُ، ورازقهُ، ومعينهُ، ويؤمن بيوم القيامة ﴿وَيَتَّخِذُ﴾: أيضًا يعتمد ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُنْفِقُ﴾: ويعُدّ الذي ينفقه من مالٍ وجهدٍ ونصيحةٍ ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ، وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: يتقربون بها إلى الله ﷻ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: أيضًا دعوات واستغفار ويظفر بدعاء الرسول ﷺ واستغفاره للمنفقين في سبيله ﷻ ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّهَا﴾: هي بالتأكيد ﴿قُرْبَةٌ﴾: صدقات وإنفاق على المحتاجين؛ يتقربون بها ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا، جزاء ما أنفق في سبيل الله ﷻ؛ سيحصلون على رجائهم منه؛ فيتقبل قرباتهم ويقربهم ﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: وهذا هو الدليلُ على قبول الله ﷻ ما قرّبوه له

[1] سنن أبى داود /٣/٧٠(٢٨٦١). صححه الألباني.

ﷻ ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل وهو المغفرة والرحمة ﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يغفر ذنوب من يتوب عليه ويرحمه.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿السَّابِقُونَ﴾: الذين سبقوا بالإيمان الصادق، في الأجيال الأولى ﴿الْأَوَّلُونَ﴾: أوائل من آمن ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾: الذين هجروا قومهم وعشيرتهم؛ وانتقلوا إلى دار الإسلام ﴿وَ﴾: أيضًا أوائلَ مَنْ آمن مِنْ ﴿الْأَنْصَارِ﴾: الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفّار، وهم المؤمنون من سكان المدينة، الذين آمنوا بالله ﷻ، ورسله في بداية الدعوة من المهاجرين أهل مكّة، والأنصار أهل المدينة، وهم الذين أدركوا بيعة الرضوان، وقيل من صلّى على القبلتين ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اتَّبَعُوهُمْ﴾: كذلك الذين جاؤوا من بعدهم دونَ تخلفٍ أو ترددٍ ﴿بِإِحْسَانٍ﴾: في الاعتقاد والأقوال والأعمال، الذين عبدوا الله ﷻ بقناعةٍ؛ كأنّهم يرونه ﷻ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: طلبًا لمرضاة الله ﷻ؛ فقبل عملهم: حُبًا، وقبولًا، وتأييدًا، ومن هؤلاء خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق، فويلٌ لمن أبغضهم أو سبّهم أو سبّ بعضهم، أو الذين يتهمونهم بما ليس فيهم من طوائف هذا الزمان ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾: أيضًا قبلوا أنْ يكونوا من عباده ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَعَدَّ﴾: هيأ وجهّز ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿جَنَّاتٍ﴾: العديد من الجنان؛ لمزيدٍ من المتعة ﴿تَجْرِي﴾: ليست راكدة، بل متجددة ﴿تَحْتَهَا﴾: حرف يفيد الغاية المكانيّة تجري من تحت الجنان ومجالس أهل الجنّة ﴿الْأَنْهَارُ﴾: مياهُ الجنّةِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: ماكثين مُقيمينَ ساكنين ﴿أَبَدًا﴾: الأبدُ عبارةٌ عن مُدّةٍ الزمان الممتد الذي لا يتجزأ؛ أي باقون أبدًا دونَ انقطاعٍ ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة للبعيد، هنا بلا نهاية ﴿الْفَوْزُ﴾: الظفر ﴿الْعَظِيمُ﴾: بالغ القيمةِ والقدر والمُقام. إنّ فضل السبق في الخير سنّة ربّانيّة ثوابها ثواب السابقين إلى الإسلام.

التكليف: لا شكّ أنّ في هذه الآية الكريمة تزكية للمؤمنين حقّا؛ جزاءُ الدنيا، وبشارة الآخرة.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ يجمع بين من سبق، وبين ﴿مِمَّنْ﴾: من القوم الذين ﴿حَوْلَكُمْ مِنَ﴾: حرفٌ يفيد التمايز والتأكيد ﴿الْأَعْرَابِ﴾: أخبر الله ﷻ أنّه يوجد في أحياء

العرب حول المدينة من الأعراب ﴿مُنَافِقُونَ﴾: هم الذين يُظهرون الإيمان، ويُبطنون الكفر ﴿وَمِنْ﴾: أيضًا بعض يفيد بداية الغاية المكانية ﴿أَهْلِ﴾: سكان ﴿الْمَدِينَةِ﴾: أيضًا من سكان يثرب منافقون ﴿مَرَدُوا﴾: مارسوا واعتمدوا، ومنها لفظ المارد، وتمرّد أي عتا، وتجبر؛ يُقال شيطانٌ مريدٌ ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾: قاموا على النفاق، واستمروا، وثبتوا عليه ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿تَعْلَمُهُمْ﴾: لم يطّلع الرسول ﷺ على كلّ ما في قلوبهم ﴿نَحْنُ﴾: جاءت هنا لتعظيم الله ﷻ الواحد الأحد ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لتفيد التأكيد أنّ الله ﷻ يعلم كلّ سرائرهم وعلنهم ﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل ﴿نُعَذِّبُهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع لتعظيم الفعل وهو العذاب ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: مرّة في الدنيا بالقتل، والسبي، وقيل بالجوع، وعذاب القبر، وقيل في الأموال والأولاد ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿يُرَدُّونَ﴾: يُرجعون، فإنّ مآلهم ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: عذابِ الآخرةِ الشديدِ، يوم القيامة وهو الدرك الأسفل من النّار.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٢)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿آخَرُونَ﴾: من أهل المدينة وممن حولها، وهم المنافقون ﴿اعْتَرَفُوا﴾: هم من المنافقين الذين أقرّوا فيما بينهم وبين ربّهم؛ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: وندموا عليها أنّهم تخلّفوا عن الجهاد دونَ عذرٍ شرعيٍ، ولم يكذبوا، وبذلك يكونوا ﴿خَلَطُوا﴾: مزجوا ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾: كانوا قد عملوا خيرًا قبل ذلك؛ التوبةُ، والندمُ، والاعترافُ بالذنب ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾: هو التخلّف عن المشاركة في الغزو مع رسول الله وغيره من الأعمال السيئة ﴿عَسَى﴾: فعلٌ ماضٍ جامد يفيد هنا الإشفاق لأنّه جاء في الأمر المحبوب، وهو قبول التوبة، وهي تدلُّ على التحقق والوجوب ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرفٌ يُفيدُ تأكيد الفعل ﴿يَتُوبَ﴾: يغفر ويسامح، ومع ذلك يتمنون ويرجون من الله ﷻ أنْ يُوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾: يقبل توبتهم؛ ويغفر لهم ذنوبهم ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: مسامح ﴿رَحِيمٌ﴾: واسعُ الرحمة بعباده.

التكليف: إنّ الاعتراف بالذنب مقدمةٌ للتوبة؛ إذا صحّت النيات.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءُوا بِأَمْوَالِهِمْ يَعْنِي أَبَا لُبَابَةَ وَأَصْحَابَهُ حِينَ أُطْلِقُوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا قَالَ: مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ يَعْنِي بِالزَّكَاةِ: طَاعَةَ

اللَّهِ وَالإِخْلَاصَ. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يَقُولُ: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ[1]، ﴿خُذْ﴾: يا أيها النبيّ، فعلُ أمرٍ، أنْ يقبل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾: من أموال التائبين وممتلكاتهم ﴿صَدَقَةً﴾: هي الزكاة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: والطهارةُ نوعان، طهارةُ النفس من الآثامِ وطهارةُ الجسدِ من الأوساخ، تُنقي الخطايا بالمغفرة ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿تُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: تنمي بها حسناتهم وأموالهم، وتزيل عنهم السيئات ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: الصلاةُ هنا هي الدعوة والاستغفار لهم ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿صَلَاتَكَ﴾: دعاءك ﴿سَكَنٌ﴾: طمأنينة أو ورحمة، هنا تشبيهٌ بليغٌ حيث جعل الله ﷻ الصلاة كالسكن مع حذف أداة التشبيه ووجه الشبه ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصٌ وهدوءٌ واستقرارٌ، انظر [البقرة-٣٥]، جاء اللفظ القرآني سكن لهم، هنا بمعنى الطمأنينة، وقد جاءت على ثلاثة أوجه، أخرى بمعنى القرار والهدوء في قوله ﷻ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام-٩٦] وفي قوله ﷻ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر-٦١]، وبمعنى الإقامة في مكان كما في قوله ﷻ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم-١٤]، وفي قوله أيضًا ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم-٤٥]، وفي قوله ﷻ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة-٣٥] وجاءت بمعنى الاستئناس في قوله ﷻ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف-١٨٩] وفي قوله أيضًا ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر-٦] ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع كلّ ما يصدر من خلقه ﴿عَلِيمٌ﴾: الأعلم؛ صاحب العلم الكامل بكلّ ما في النفوس.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

---

[1] تفسير الطبري ٦٦٠/١١(١٧٢٣٥) صححه الألباني في المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة ٣٢٥/٧.

﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ تُفيد التقرير؛ للحث، حثّهم على ما سيأتي وهي التوبة والتصدق ﴿يَعْلَمُوا﴾: ألم يأت هؤلاء المتخلفين عن الجهاد نبأ وخبر وحقيقة ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل، ونفي الإنكار والشك ﴿اللَّهَ هُوَ﴾: ضمير رفع منفصل يفيد المفرد ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾: يحُطُّ بها الذنوب، ويزيل الخطايا، فمن تاب إليه تاب ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ بمعنى من ﴿عِبَادِهِ﴾: يحُثُّ ويحُضُّ الله ﷻ عباده على التوبة، ودفع الصدقات، وهو يقبلها، ويُثيبُ عليها ﴿وَيَأْخُذُ﴾: أيضًا يقبل ﴿الصَّدَقَاتِ﴾: الصدقة مجازًا وليس حقيقة؛ لأنّ الله ﷻ لا يأخذها وإنّ ما جاء كناية قبول التوبة والصدقة، فيأخذها بيمينه، و يربيها من الربا أي الزيادة حتى يكون ثواب الصدقة مثل جبل أحُد ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾: هو الذي يغفر، ويسامح، ﴿الرَّحِيمُ﴾: واسع الرحمة، والمغفرة للتائبين، إذا أنابوا إليه؛ ونالوا رضاه ﷻ.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

كما حضّ الله ﷻ على التوبة والصدقة فإنّه يتوعد المخالفين لأوامره ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قُلِ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بالقول ﴿اعْمَلُوا﴾: قل يا محمد للمتخلفين عن الجهاد والتائبين: اعملوا ما تشاؤون من خيرٍ؛ لتجبُروا ما سبق، وأخلصوا النيات ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿سَ﴾: حرف يُفيدُ تحققُ الفعلِ والقولِ في المستقبل ﴿يَرَى﴾: يعلم علم مشاهدة ﴿اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: ستُعرض عليه أعمالُكم من خيرٍ أو شرٍ ﴿وَ﴾: أيضًا تُعرض على ﴿رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: ستُعرض أيضًا أعمالُكم يوم القيامة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، فإنْ كانت خيرًا فهو شرفٌ وتكريمٌ، وإن كانت شرًّا فهي فضيحةٌ وعارٌ ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾: عطفاً على ما سبق سترجعون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾: المجهول الذي يغيب عن وسائل إدراككم من الرؤية والسمع والفهم ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: ما تشاهدون ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾: يُخبركم ويُعلمكم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾: ينشر أعمالكم على الملأ، وفي هذا جاء في القرآن الكريم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة-١٨]، وجاء أيضًا: ﴿يوم تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق-٩]، وجاء أيضًا: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات-١٠]، عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ،

فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، قَالُوا: اللهُمَّ لَا تُمِتْهُمْ، حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا[(١)].

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦)

﴿وَآخَرُونَ﴾: أيضًا غير ما جاء ذكرهم، قال ابن عباس: هم الثلاثة الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك؛ تخلّفوا طلبًا للتمتع بالثمار والظلال، ليس شكًا في الدين، ولا نفاقًا، ولم يربطوا أنفسهم ﴿مُرْجَوْنَ﴾: تأجل قبول توبتهم ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: فهي لقضاء الله ﷻ فيهم ﴿إِمَّا﴾: بمعنى عندما ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾: يُنزلُ بهم العقاب الشديد ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ﴾: يسامحُ ويمحو الذنوب؛ ويعفو ﴿عَلَيْهِم﴾: هم تحت رحمة الله ﷻ، إمّا العذاب، وإمّا التوبة، لكنّ رحمة الله ﷻ تسبق غضبه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلمُ من يستحق العذاب، ومن يستحق التوبة، ﷻ ﴿حَكِيمٌ﴾: في أفعاله وأقواله.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧)

سبب النزول: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ابْتَنَوْا مَسْجِدًا وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَوْهُ لِيُصَلِّيَ فِيهِ، فَفَعَلَ، فَأَتَاهُمْ فَصَلَّى فِيهِ، فَحَسَدَهُمْ إِخْوَتُهُمْ بَنُو فُلَانِ بْنِ عَوْفٍ – يَشُكُّ – فَقَالُوا: أَلَا نَبْنِي نَحْنُ مَسْجِدًا وَنَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ فَيُصَلِّيَ فِيهِ كَمَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ إِخْوَتِنَا، وَلَعَلَّ أَبَا عَامِرٍ يُصَلِّي فِيهِ – وَكَانَ بِالشَّامِ – فَابْتَنَوْا مَسْجِدًا وَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُصَلِّيَ، فَقَامَ لِيَأْتِيَهُمْ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا...﴾** [التوبة-١٠٨] قَالَ: قَالَ عِكْرِمَةُ: **﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [التوبة-١١٠][(٢)]، ﴿وَ﴾: أيضاً ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اتَّخَذُوا﴾: جعلوا من: هو أبو عامر الراهب وجماعة المنافقين والنصارى ﴿مَسْجِدًا﴾: للصلاة فيه، وهدفه ﴿ضِرَارًا﴾: ضررًا لمسجد قباء، قيل إنّهم أرادوا من المسجد الذي بنوه، أنْ يكون مقرًا لهرقل ملك الروم؛ للإضرار بالمسلمين وللقضاء عليهم ﴿وَ﴾: أيضًا، حرفٌ يجمع هنا بين الإضرار وبين ﴿كُفْرًا﴾: ليكون مركزًا للكفّار والمنافقين والنصارى ﴿وَتَفْرِيقًا﴾: أيضًا ليكون سببًا إضعافًا في الفرقة ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: لشق صف المسلمين الذين كانوا يُصلّون في مسجد قباء ﴿وَإِرْصَادًا﴾: أيضًا للترقب، والإعداد، والانتظار، ومتابعةِ التجسس على ﴿لِمَنْ﴾: الذي من

---

(١) مسند أحمد /٢٠/١١٤(١٢٦٨٣) قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وهذا الحديث تفرد به الإمام أحمد.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ٥٢) وقال أحمد شاكر: وهو باطل انظر جامع البيان تفسيرالطبري١٤/٤٧٤.

بني آدم ﴿حَارَبَ﴾: الذي حارب الله ﷻ ورسوله من قبل؛ ومنع نشر دين الإسلام ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: ليكون مركزًا لهرقل ملك الروم وأعوانه من النصارى، والمنافقين، والكافرين من المدينة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: للإعداد وانتظار اللحظة المناسبة ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾: يُقسمون بالتأكيد ﴿إِنْ﴾: حرف بمعنى ما ﴿أَرَدْنَا﴾: إنّ غايتنا وهدفنا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الْحُسْنَى﴾: يقسمون ويؤكدون كذبًا أنّهم بنوه للخير، ورفقًا بالمسلمين، وإشفاقًا عليهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾: وشهادته حقٌ؛ لأنّها مبنيّةً على علمٍ بالنيات والأهداف الخفية ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: فقد نزل جبريل، ؛ يُوضّحُ للرسول ﷺ معالم وحقيقة البناء.

التكليف: مسجد ضرار ظاهرةٌ منتشرةٌ في كلّ بلاد المسلمين، برعاية المشركين، والمنافقين.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١٠٨)

﴿لَا﴾: حرف يعني مُحرّمٌ عليك أنْ ﴿تَقُمْ﴾: لا تقم أيها النبي للصلاة في ذلك المسجد ﴿فِيهِ﴾: أو دخوله ﴿أَبَدًا﴾: مطلقًا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿مَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾: تم بناؤه من الأساس ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾: إنّ مسجد قباء المسجد النبوي الذي بُني على أساس الإيمان بيقين وإدراك؛ لنيل رضا الله ﷻ ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: قبل أنْ يُؤسس كانت النيّةُ خالصةً لله ﷻ، وليس كمسجدِ أبي عامر الراهب ﴿أَحَقُّ﴾: أولى وألزم أن تقوم فيه للصلاة، والمقصود مسجد قباء ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَقُومَ فِيهِ﴾: والحكم عام، عن أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُحَدِّثُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ[١]، وفي الحديث أنّ جبريل، ، هو الذي دلّ الرسول ﷺ على القبلة، وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: قَالَ أَبِي: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ، فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ[٢]، ﴿فِيهِ﴾: يُصلّي ﴿رِجَالٌ﴾: ونساءٌ وأطفالٌ؛ وجاء هنا تخصيص ذكر الرجال لدورهم في أداء الصلاة؛ وتعليم الجميع؛ وتهيئة المجتمع للجهاد، وغيرها ﴿يُحِبُّونَ﴾: يفعلون بحبٍ ورضا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد

---

[١] سنن الترمذي /١٤٥/٢(٣٢٤). وحسنه الترمذي وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٢] صحيح مسلم /١٠١٥/٢(١٣٩٨).

الفعل ﴿يَتَطَهَّرُوا﴾: والطهارة نوعان طهارة النفس من الآثام وطهارة الجسد من الأوساخ؛ التطهر من النجس، ومن الأوساخ بالماء، وهو الغُسل من البول والغائط؛ جاء في المعنى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة-١٢٥] كما يتطهرون بالتورع والاستغفار من الذنوب ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فاعلم أنّ ﴿اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾: والطهارةُ نوعان؛ طهارةُ النفسِ من الآثام، وطهارةُ الجسدِ من النجس.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩)

﴿أَفَمَنْ﴾: هل يستوي الذي ﴿أَسَّسَ﴾: وضع أُسس البناء القوية في الأرض تحت الجدران ﴿بُنْيَانَهُ﴾:رار المقصود هنا هو مسجد كلّ البناء ﴿عَلَى تَقْوَى﴾: هنا استعارة مكنيّة فقد شبّه الله ﷻ التقوى والرضوان بأرضٍ صلبةٍ ثابتةٍ يقوم عليها البناء، بسبب قناعة وإيمان بالله ورسوله ﷺ، وطمعًا في رحمته، وخوفًا من غضبه ﷻ ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد المصدر ﴿اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾: رضًا من الله ﷻ، ورسوله ﴿خَيْرٌ﴾: فيه القبول والبركة والفوز ﴿أَمْ﴾: حرف عطف هنا بمعنى بل ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿أَسَّسَ﴾: وضع القواعد وصمّم ﴿بُنْيَانَهُ﴾: المقصود هنا هو حكمٌ عامٌ، المقصود مسجد ضرار الذي بُني على أُسس الكفر والنفاق، والإضرار بالإسلام والمسلمين؛ فأصبح على ﴿شَفَا﴾: على حافّةِ حفرةٍ ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾: أو بئر لم تُبنَ جدرانه بالحجارة ﴿فَ﴾: حرفٌ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿انْهَارَ بِهِ﴾: سقط معه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: انهار وتهدم وسقط بسهولة في النّار ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يَدُلُّ ولا يُرْشِدُ ﴿الْقَوْمَ﴾: الجماعة الذين من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب فكرٍ أو دينٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: المتجاوزين حدود الله ﷻ، الذين كفروا؛ فظلموا أنفسهم بدخولهم النّار، وظلموا غيرهم بالفساد.

التكليف: كم من مسجدٍ في الدول الإسلامية يحكمها المنافقون والعملاء ينطبق عليه نموذج مسجد ضرار؟!

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠)

﴿لَا يَزَالُ﴾: يبقى مستمرًا ﴿بُنْيَانُهُمُ﴾: ما بناه المنافقون ليكون مضارّةً لمسجد قباء ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المذكر ﴿بَنَوْا﴾: مسجدهم وكلَّ مسجدٍ مُشابهٍ، الذي بُنى ﴿رِيبَةً﴾: شكًا

ونفاقًا، توارثوه ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: كالذين أُشربوا في قلوبهم حبُّ العجل ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَقَطَّعَ﴾: تتمزق ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: عندما يموتون، أو يُقتلون بالمواد الحادة كالسيف والبارود ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أحاط علمه ﷻ بما يفعلون، وبما يمكرون ﴿حَكِيمٌ﴾: صاحب الصواب في أفعاله وأقواله.

التكليف: لا اطمئنان للمنافقين؛ فإنّ مؤامراتهم لا تنتهي إلّا بموتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ اشْتَرَى﴾: هذه استعارة تبعية، فقد شبّه التقوى والرضوان بأرض صلبة يقوم عليها البناء؛ وضع الله عوضًا، مبادلةً بكرمه وإحسانه رغم أنّهم عبيد في ملكه ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾: جوهرهم البشري ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾: إذا بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله ﷻ بثمنٍ عظيمٍ ﴿بِ﴾: حرف باء التأكيد ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿الْجَنَّةَ﴾: إنّ ثمن بيعة الإنسان التي في عنقه لله ﷻ هي الجنّة، سواءً وفّى بها أو مات وهو على نيّةٍ خالصةٍ، فثمنُ هذه البيعة هي الجنّة، كانت بيعة العقبة: ما يريده الله ﷻ هي عبادته، وعدم الشرك به شيئًا، ويمنعون رسول الله ﷺ مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، وفي مقابل ذلك: الجنّة وكان تقدير المسلمين ربح البيع ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هذه هي بيعة القتال لتكون كلمةُ الله ﷻ هي العُليا، والنتيجة ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿يَقْتُلُونَ﴾: يقتلون أعداء الله ﷻ ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾: أيضًا ينالون الشهادة في سبيل الله ﷻ ﴿وَعْدًا﴾: وعدًا لهم في الدنيا ﴿عَلَيْهِ﴾: قطعه على نفسه الشريفة ﴿حَقًّا﴾: صدقًا ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾: الكتاب الذي نزل على موسى ﵇، جاء هذا الحكم لمن قبلهم في كتاب اليهود ﴿وَ﴾: أيضًا جاء لمن قبلهم كتاب النصارى في ﴿الْإِنْجِيلِ وَ﴾: أيضًا المُنزّل على عيسى ﵇، وجاء أيضًا في كتاب المسلمين وهو ﴿الْقُرْآنِ﴾: هذا عهد الله ﷻ المكتوب في الكتب السماوية مؤكدًا ﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام بغرض التقرير، عن العاقل هو الذي ﴿أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾: يحقق وعده صدقًا وعدلًا ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: سؤال استنكاري: لا أحد أوفى من الله ﷻ بعهده لمن وفّى بما عاهد الله ﷻ عليه ﴿فَ﴾: حرف استئنائي يفيد الأمر وسرعة التحقق ﴿اسْتَبْشِرُوا بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿بَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾: والبيع هو إعطاء الشيء المُثمن وأخذ الثمن، اطلبوا البشرى، وليستبشر الخير وما يُفرحه

ويسرُّهُ، من أوفى بمقتضيات هذا العقد ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿ذَلِكَ﴾: البيع ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾: النجاح والفلاح ﴿الْعَظِيمُ﴾: الجنّة، النعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

يذكر الله ﷻ صفات الذين اشتروا أموالهم وأنفسهم بالجنّة، والذين لهم البشرى بدخول الجنّة ﴿التَّائِبُونَ﴾: الذين يتطهرون بالتوبة من الذنوب والمعاصي السابقة الراجعون عمّا كرههُ الله ﷻ إلى ما يحبه ويرتضيه ﴿الْعَابِدُونَ﴾: المقيمون على عبادة الله ﷻ والمحافظون عليها الراجعون عمّا كرهه الله إلى ما يحبه ويرضى ﴿الْحَامِدُونَ﴾: المُكثرون من الحمد لله ﷻ، في السراء وفي الضراء ﴿السَّائِحُونَ﴾: قيل الصائمون وهي أفضل الأعمال، لأنّه ترْكُ الطعام والشراب والجماع، وقيل والمجاهدون وقيل طلبة العلم، وقيل المهاجرون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾: الراكعون في صلاتهم والساجدون فيها، أي هم الذين يؤدون الصلاة ﴿الْآمِرُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: الذين يأمرون بفعل ما يجب فعله ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: الذين يمنعون ما نهى الله ﷻ ورسوله ﷺ عن فعله ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾: أيضًا الحريصون على تأدية ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾: القائمون عل تنفيذ أوامر الله ﷻ ونواهيه، على عبادته حقّ عبادته، بأداء الفرائض، والانتهاء عن النواهي ﴿وَبَشِّرِ﴾: أخبر بما يسر ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: بالثواب الذي جاء في الآية السابقة وهو الفوز العظيم وهي الجنّة.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣)

سبب النزول: عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة-١١٣] الآيَةَ[1]، ﴿مَا﴾: حرف نفي

---

[1] صحيح البخاري /٢/٩٥(١٣٦٠).

﴿كَانَ﴾: لا يجب، ولا ينبغي ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّبِيّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع م مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: لا يجب عليهم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُوا﴾: يطلبوا عفو الله ﷻ ومغفرته ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى ﴿وَلَوْ﴾: حرفُ استفهامٍ ونفي حتى لو ﴿كَانُوا أُولِي﴾: أصحاب ﴿قُرْبَى﴾: لا يستغفر المؤمنون للمشركين حتى ولو كانوا أقرباءً لهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾: بعدما اتضح وتأكدوا ﴿أَنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ونفي الشكّ ﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون والساكنون أبدًا ﴿الْجَحِيمِ﴾: تأكدوا أنّهم كفّارٌ لا يستحقون دخول الجنّة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ(١).

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: في السابق ﴿اسْتِغْفَارُ﴾: طلب الغفران ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: لم يكن طلب إبراهيم ﵇، مغفرةً من الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿أَبِيهِ﴾: آزر المشرك ﴿إِلَّا﴾: حرفٌ يُفيد استثناءً منقطعًا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ السبب ﴿مَوْعِدَةٍ﴾: وعدها إبراهيم، ﵇، لأبيه طمعًا أنْ يُسلم ﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾: كان إبراهيمُ ﵇ يستغفر لأبيه، وهي قوله ﷻ ﴿سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيًا﴾ [مريم-٤٧] وكان وعده لكنّ الأبَ رفض أنْ يُسلم حتى قال: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم-٤٦]، وأصرّ أنْ يموت كافرًا ﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع والسبب ﴿تَبَيَّنَ لَهُ﴾: اتضح جليًّا ﴿أَنَّهُ﴾: هو والد إبراهيم ﴿عَدُوٌّ﴾: لا يحب، وكارهٌ، ومعادٍ ﴿لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: حرف يفيد التمايز؛ عندما رفض الأب، واستمر على الكفر، وعلم إبراهيم وتيقن من كفر أبيه، براءةَ المؤمن من الكافر ﴿إِنَّ﴾: تأكيدُ شهادةٍ مُؤكدةٍ من الله ﷻ ﴿إِبْرَاهِيمَ لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿أَوَّاهٌ﴾: قال ابن مسعود: كثير الدعاء؛ المتضرع، الخاضع، الرحيم بعباد الله ﷻ، الموقن، المؤمن، المُسبّح، الحفيظ، التائب من الذنوب التي لا يعرفها أحد، المُكثرُ من ذكر الله ﷻ ومن التسبيح، المكثر من تلاوة القرآن الكريم ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يغضب بسهولةٍ، ويعفو، ويصفح بسهولةٍ عن الذنوب، ويصبر على الأذى.

---

(١) صحيح مسلم /٢/٦٧١(٩٧٦).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا يفعل ولا يسمح ﴿اللَّهُ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُضِلَّ﴾: يقودُ إلى الكفر ﴿قَوْمًا﴾: جماعةً من جنسٍ واحدٍ، أو أصحابَ مذهبٍ واحدٍ ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: يفيد ما مضى من الزمن ﴿هَدَاهُمْ﴾: إنّ الله ﷻ لا يُضلُّ، ولا يتركهم على ضلالهم، ثم يحاسبهم بعد أن منّ عليهم بالهداية والتوفيق ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يُبَيِّنَ﴾: يُوضّح ويفصّل ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَتَّقُونَ﴾: إلّا بعد إبلاغهم بالرسالة، ويوضّح لهم طرق الهداية ليقيم عليهم الحُجّة؛ فإنْ ارتكبوا ما حرّم الله ﷻ بعد معرفتهم حكمه بتحريمه؛ فلا توبة لهم، قال ابن جرير: لا يُعد استغفار المؤمنين للمشركين ضلالًا بعد إذ هداهم للإيمان حتى يبلغهم النهي عن الاستغفار ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِكُلِّ﴾: بالتأكيد تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد عموم الأشياء ﴿عَلِيمٌ﴾: المحيط بكلِّ شيءٍ علمًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١١٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَهُ﴾: يملك ﴿مُلْكُ﴾: كلّ ملكوت ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: له ملك كلِّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاوية الشكل، لا شريك له في الخلق وفي الملك والتدبير والعبادة والتشريع ﴿وَ﴾: أيضًا له تعالى مُلك ﴿الْأَرْضِ﴾ وما أحاط بها ﴿يُحْيِي﴾: يهب الحياة لمن يشاء ﴿وَيُمِيتُ﴾: أيضًا بيده الموت ﴿وَمَا﴾: هنا نفي أيضًا ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: وليس لأيّ مخلوقٍ غير الله ﷻ ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولى أموركم ومحب، ومؤيد ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي، ليس لكم ﴿نَصِيرٍ﴾: ولا نصير ينصركم على عدوكم من دون الله ﷻ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿تَابَ اللَّهُ﴾: صفح وغفر، ووفق ﷻ ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾: بأن وفقه بالإنابة والطاعة، محمدًا ﷺ والاستغفار للمشركين، عندما أذن للمنافقين بالتخلّفِ عن غزوة تبوك ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ﴾: أيضًا تاب على الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾: وتاب أيضًا على هؤلاء الذين لم يتخلفوا عن

القتال في غزوة تبوك ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿اتَّبَعُوهُ﴾: أطاعوه وشاركوه ولم يتخلفوا عنه ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾: أوقات الشدّةِ، كانت غزوة تبوك التي جاءت في سنة جدبٍ وحرٍ شديدٍ، ونقصٍ من الزاد والماء، كان العطش شديدًا، والنفقة قليلة، ونقص الجنود، ونقص الزاد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا كَادَ﴾: أوشك ﴿يَزِيغُ﴾: تنحرف عن الصواب؛ فتمتنع عن القتال في غزوة تبوك ﴿قُلُوبُ﴾: وهي مراكز الإدراك ﴿فَرِيقٍ﴾: مجموعة ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التمايز؛ عندما كادت تميل قلوب عددٍ منهم أن يتركوا الجهاد، من شدّة العطش والتعب حيث همّوا بالتخلف عن الغزو لما فيه من الشدّةِ العظيمة ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿تَابَ﴾: سامحهم وغفر ﴿عَلَيْهِمْ﴾: رزقهم الثبات بالخروج لمواجهة الأعداء، حيث أنابوا إلى ربّهم، ورجعوا تائبين على دين نبيهم ﴿إِنَّهُ﴾: ﷻ ﴿بِهِمْ﴾: بالمؤمنين ﴿رَءُوفٌ﴾: عطوف ﴿رَحِيمٌ﴾: كثيرُ الرحمة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ، قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ، حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ، تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ، فِي تِلْكَ الغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ

مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ». فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لاَ وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ». فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ، قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ

مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ، وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيضًا مِنَ البَلاَءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ». قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ

عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا، مَا بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ**﴾ [التوبة-١١٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة-١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلاَمِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ - شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ**﴾ [التوبة-٩٥] إِلَى قَوْلِهِ ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة-٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ [التوبة-١١٨]. وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، لقد تاب في الآية السابقة، كذلك تاب الله

---

[1] صحيح البخاري ٦/٣(٤٤١٨)

ﷻ على الثلاثة الذين خلّفوا من الأنصار ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ﴾: همّ كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أميّة، وهم من الصادقين، فقد تأخر قبول توبتهم خمسين يومًا، هؤلاء من جاء فيهم ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿خُلِّفُوا﴾: تخلفوا دونَ عذر، ولم يكذبوا على رسول الله ﷺ بعد ما جاء، بينما كان بضعة وثمانون رجلًا قد تخلّفوا، وكذبوا أمام الرسول ﷺ ليقبل اعتذارهم، ويكلهم إلى الله ﷻ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿ضَاقَتْ﴾: صعب ﴿عَلَيْهِمُ﴾: العيش في ﴿الْأَرْضُ﴾: مكان سُكناهم الذي هو جزء من الكرة الأرضية بسعتها غمّا؛ وندمًا التي تبلغ مساحتها الكليّة (٥١٠) مليون كيلومتر مربعًا، والتي تبلغ مساحة اليابسة منها حوالي (١٤٨) مليون كيلومتر مربعًا؛ أي ما نسبته حوالي (٢٩%) والباقي مساحة البحار والمحيطات ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ، هنا بمعنى الذي ﴿رَحُبَتْ﴾: رغم اتساعها؛ وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً[1]. ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: أيضًا بسبب ما أصابهم من الهمّ، وعطفًا على هذا ﴿وَظَنُّوا﴾: تأكدوا وأيقنوا ﴿أَنْ﴾: تأكيد الفعل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿مَلْجَأَ﴾: مكانا آمنا؛ للاختباء فيه ﴿مِنَ اللَّهِ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿إِلَيْهِ﴾: استمروا خمسين ليلة؛ فأصبحوا لا يعرفون ماذا يصنعون، وسُدّت عليهم المسالك والطرق، فصبروا لأمر الله ﷻ، واستكانوا لإرادته، وثبتوا ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني مع التراخي، أي قضاء هذه المُدّة ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: غفر لهم وسامحهم ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ تخصيصًا ﴿يَتُوبُوا﴾: ليداوموا على التوبة، لقد صدقوا، وثبتوا، ولم يُفتنوا رغم الآلام الشديدة، فكان هذا عقابهم، فتاب عليهم ﷻ جزاءً على صدقهم وثباتهم ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿اللَّهَ هُوَ﴾: الله ﷻ ﴿التَّوَّابُ﴾: الذي يقبل توبة عباده الخالصة ﴿الرَّحِيمُ﴾: واسع الرحمة والعطف.

التكليف: إذا أخطأ ابن آدم؛ وتاب، وصبر، وتحمّل وثبت؛ كان المخرج عند الله ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرف تواصل بين المنادي هنا وهو الله ﷻ وبين المُنادَى عليهم وهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَّنْ ﴿آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾: أمرٌ بتقوى الله ﷻ،

---

[1] صحيح البخاري /٦/٥(٤٤١٨).

والخوف منه، والعمل بما أمر والاستعداد للموت ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: التزموا الصدق، تكونوا من أهله، فالكذب لا يصلحُ في الجدّ، ولا في الهزل، الكذب خيبة، والصدق فرج، قال الحسن البصري: إذا أردت أنْ تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا، والكفّ عن أهل الملّة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا يجوز، ولا ينبغي ﴿لِ﴾: تخصيصًا ﴿أَهْلِ﴾: سكان ﴿الْمَدِينَةِ﴾ المنورة ﴿وَمَنْ﴾: وأيضًا الذين من جنس البشر ﴿حَوْلَهُمْ﴾: من سكان البادية ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: سكان البادية من حولهم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَتَخَلَّفُوا﴾: لا يلحقون ﴿عَنْ﴾: حرف يفيد البدل ﴿رَسُولِ اللَّه﴾: ألّا يشاركوا رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله ﷻ، عندما خرج بنفسه في غزوة تبوك؛ فقد أنقصوا أنفسهم الأجر ﴿وَلَا﴾: حرف نهي ﴿يَرْغَبُوا﴾: يترفعوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾: أنْ يُحبوا أنفسهم أكثر من حبّهم لله ﷻ ورسوله ﴿ذَلِكَ﴾: اسم يشير للبعيد ﴿بِ﴾: باء السببية ﴿أَنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُصِيبُهُمْ﴾: يعانون من ﴿ظَمَأٌ﴾: العطش عندما ينقص عنهم الماء أو ينقطع ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نَصَبٌ﴾: أو ينال منهم تعبٌ أو جهدٌ ﴿وَلَا﴾: تصيبهم ﴿مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: تصيبهم المجاعة وهم يجاهدون ﴿وَلَا يَطَئُونَ﴾: ينزلون منزلًا ﴿مَوْطِئًا﴾: مكانًا على الأرض ﴿يَغِيظُ﴾: يُسببُ غضبًا وحنقًا ويخيفُ الأعداء ﴿الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ﴾: يظفرون ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿عَدُوٍّ نَيْلًا﴾: قتل أعدائهم، أو أسر منهم أو يأخذوا غنيمة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: هذه قدرةُ الله ﷻ؛ ونتيجة عن أعمالهم تنشأ أعمالٌ صالحة، ويرزقهم الله ﷻ ثوابًا جزيلًا ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾: يُذهب ﴿أَجْرَ﴾: ثواب ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ عبادة المشاهد العيان، من كرم الله ﷻ أنّه يُعطي من عطائه عن كلّ عملٍ صالحٍ، ويُضاعفُ بكرمه لمن يشاء.

التكليف: لا يبخس أحدٌ من الخلق عظم فضل النفقة في سبيل الله ﷻ مهما صغُرت.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١)

﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾: ما من مالٍ يُنفقهُ المجاهدون في سبيل الله ﷻ ﴿صَغِيرَةً وَلَا﴾: حرف نفي ﴿كَبِيرَةً﴾: قليلة أو كثيرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾: أيضًا مقصود السير في سبيل الله ﷻ نحو الأعداء، وما ازداد قومٌ بُعدًا عن أهلهم؛ إلّا ازدادوا قُربًا من الله ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾: جاء اللفظُ "لهم" في كلّ خُطوةٍ، وكلّ نفقةٍ لهم أجر، ولم يقل ﷻ **به** لأنّ الأجر أكبرُ من النفقة وأعظم ﴿لِ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿يَجْزِيَهُمُ﴾: يكافئهم ﴿اللَّهُ أَحْسَنَ مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تمثل نفقة عثمان بن عفان نموذجًا، ثلاثمائة من البعير، بعدّها وعتادها، و ألف دينارٍ جاء بها في حجره وضعها أمام الرسول ﷺ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ، قَالَ الحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ: وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي، فِي كُمِّهِ، حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ(1).

التكليف: لقد مات عثمان ﷺ وصعدت روحُه إلى بارئها، وذهب ماله، ولكن بقيت سيرة عثمان ﷺ قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

أسباب النزول: كان المنافقون يعيبون على الذين لا ينفرون مع رسول الله ﷺ ويقولون: هلك أصحاب البدو، والذين تخلفوا عن محمدٍ ولم ينفروا معه؛ لأنّ جماعة من المسلمين ذهبوا للبادية يُعلمُون قومهم، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُهُ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة-٣٩] قَالَ الْمُنَافِقُونَ: قَدْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ نَاسٌ لَمْ يَنْفِرُوا، فَهَلَكُوا، وَكَانَ قَوْمٌ تَخَلَّفُوا لِيَتَفَقَّهُوا وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَنَزَلَ الْعُذْرُ لِأُولَئِكَ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ و (أنزل) اللَّهُ فِي أُولَئِكَ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى-١٦].(2)، ﴿وَمَا﴾: أيضاً هنا نفي ﴿كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: لا يجب ولا ينبغي للمؤمنين والحديث عام، ولكنّه لا يزال في غزوة تبوك ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَنْفِرُوا كَافَّةً﴾: لا ينفر المؤمنون، يخرجوا جميعًا للقتال في سبيل الله ﷻ، ويتركوا الرسول ﷺ وحده؛ وحتى لا يتم قتلهم جميعًا؛ فينتهي المؤمنون؛ ويضيع الدين ﴿فَلَوْلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ وتحديدٍ للفعل لمنع

---

(1) سنن الترمذي /٥/٦٢٦(٣٧٠١). وحسنه الترمذي قال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

(2) التفسير من سنن سعيد بن منصور /٥/٣٠٠(١٠٥١). ضعفه د سعد آل حميد وقال: سنده ضعيف لإرساله، وهو صحيح إلى مرسلِه عكرمة.

أمرٍ لوجود غيره ﴿نَفَرَ﴾: خرج للقتال في سبيل الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿كُلِّ﴾: جميع ﴿فِرْقَةٍ﴾: جماعة ﴿مِنْهُمْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية، أي المصدر ﴿طَائِفَةٌ﴾: عصبةٌ أو جماعةٌ، تحصل بهم الكفاية المطلوبة والمقصود. يسيروا بإذن ﷺ حتى يتعلموا القرآن، الذي نزل على رسولهم من بعده﴿ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾: من الواضح هنا أنّ الفقه في العلوم الشرعية لا يقلُّ أجرًا عن الجهاد في سبيل الله ﷻ؛ ليعلموا ويُعلّموا النّاس ما نزل على الرسول ﷺ ﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾: أيضّا يحذّروا ﴿قَوْمَهُمْ﴾: جماعتهم وأهلهم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾: يبلّغون ويعلّمون الذين يعودون من سفرهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف يفيد الترجي عند البشر ﴿يَحْذَرُونَ﴾: ليخوفوهم من العذاب؛ ليتجنبوا ما حرّم الله ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو هنا الله ﷻ وبين المُنادَى عليهم وهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: نداءٌ للمؤمنين، والأمر هو أنْ يبادروا ﴿قَاتِلُوا﴾: حاربوا بالسلاح ﴿الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بقتال الكفّار الأقرب إليهم في الجوار ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾: فبدأ الرسول ﷺ القتال في جزيرة العرب، ثم فتح مكّة والطائف، ودخل سائر العرب في الإسلام أفواجًا، ثم جهّز للقضاء على الروم في الشام، ولكن جاءت موقعة تبوك في الظروف الصعبة، وكان ذلك في العام التاسع هجري، وفي السنة العاشرة جهّز لحجة الوداع، وبعد (٨١) يومًا توفي رسول الله ﷺ ﴿وَلْيَجِدُوا﴾: أيضًا يُدركوا ويتيقنوا أنّ ﴿فِيكُمْ﴾: منكم ﴿غِلْظَةً﴾: من طباع المسلمين رقتهم، ولينهم، لإخوانهم، وغلظةٌ وشدةٌ وشجاعةٌ وحميّةٌ في قتال المشركين، جاء في المعنى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة-٥٤] ﴿وَاعْلَمُوا﴾: أيضًا اعلموا علم يقين ﴿أَنَّ﴾: تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: ينصرُ ويوفّقُ الذين عبدوا الله ﷻ كأنّهم يرونه.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾: جديدة من الله ﷻ ﴿فَمِنْهُمْ﴾: جزء أو بعض

للتمييز من المنافقين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، أي النّاس ﴿يَقُولُ﴾: مُشككًا ومستهزئًا ومنكرًا ﴿أَيُّكُمْ﴾: من منكم ﴿زَادَتْهُ هَذِهِ﴾: السورة ﴿إِيمَانًا﴾: تصديقًا بالله ﷻ ولقائه، كان هذا استهزاءً وسخريةً، والإجابة الشافية ﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد ترتيب الأمر وسرعة التنفيذ ﴿آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: حرف الفاء استثنائي يفيد فالآيات عند المؤمنين يعزّز بعضُها بعضًا، وتقوي اليقين ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: تزيدهم آيات البشرى إيمانًا وأملًا في النصر والفوز في الدنيا، والجنّة في الآخرة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَمَّا﴾: حرفُ تأكيد وتفضيل ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: جاء لفظ المرض هنا بمعنى النفاق والشك وضعف الإيمان في دين الله ﷻ، المقصود هم المنافقون وضعاف الإيمان ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾: هو الإثم إلى آثامهم وكفرًا إلى كفرهم؛ زاد عندهم الشيء الخبيث القذر، والرجس يكون على أربعة أوجه: من حيث الطبع، أو جهة العقل، أو جهة الشرع، أو كالميتة ﴿إِلَى رِجْسِهِمْ﴾: على شكّهم وريبتهم، وهذه من مصائب المنافقين أنّ أسباب الهداية تكون أسباب ضلالهم وخسارتهم ﴿وَمَاتُوا﴾: هلكوا ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كَافِرُونَ﴾: قضوا أجلهم من الدنيا وهم كافرون ومنكرون وجاحدون بالله ﷻ.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦)

﴿أَوَلَا﴾: بمعنى ليس ﴿يَرَوْنَ﴾: ألا يُشاهد المنافقون ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الشكِّ ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾: يُمتحنون ويُختبرون بالقحط الشديد، والأمراض، وإظهار ما يُبطنون من النفاق في كل سنة ﴿مَرَّةً أَوْ﴾: حرف عطف يساوي بين متعاطفين ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: إمّا بالآيات، وإمّا بالقتال، الذي ينتهي بنصر المسلمين ﴿ثُمَّ﴾: يفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾: لا يُقلعون بقناعةٍ عن ذنوبهم السابقة ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: لا يستفيدون من مصائبهم السابقة؛ لأنّ الكافر مهما بلغ من الذكاء فهو لا يعرف الطريق الصحيح، وهذا تعجبٌ من حال المنافقين وتصلبهم على منهج النفاق.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿مَا﴾: حرفُ صلة لتقوية الكلام ﴿أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾: من القرآن الكريم ﴿نَظَرَ

﴿بَعْضُهُمْ﴾: تغامز المنافقون بالعيون ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾: إذا أنزلت سورة من القرآن؛ تغامز المنافقون بالعيون، إنكارًا لنزولها؛ وسخريةً وغيظًا لما نزل فيها من ذكر عيوبهم، هنا الربط المقصود عن تصرفات المنافقين، يلتفتُ بعضُهم إلى بعض، ثم يقولون لبعضهم ﴿هَلْ﴾: حرف استفسار ﴿يَرَاكُمْ﴾: يشاهدكم أو يراقبكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا بداية الغاية وتمييز النوع ﴿أَحَدٍ﴾: ليتأكدوا أنّ أحدًا لا يراهم من المسلمين عند قيامهم من عند رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التباعد الزمني مع التراخي ﴿انْصَرَفُوا﴾: فإنْ لم يرهم أحدٌ من عنده مخافة الفضيحة؛ انصرفوا عن الحق والتصديق، فهم لا يثبتون على الحق، ولا يقبلونه، ولا يفهمونه، قال ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المدثر-٩٤، ٩٥]، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف-٥] ﴿صَرَفَ﴾: أبعد ﴿اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: هي مراكز الوعي والإدراك؛ ومن ثم الإيمان أو الكفر ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَنَّهُم﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الشك ﴿قَوْمٌ﴾: جماعةٌ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَفْقَهُونَ﴾: لأنّهم لا يستوعبون كلام الله ﷻ، ولا يريدون فهمه؛ فهم مشغولون عنه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨)

﴿لَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمْ﴾: بُعث فيكم أيها المؤمنون ﴿رَسُولٌ﴾: مُكلّفٌ من الله ﷻ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: من فضل الله ﷻ أنّه أرسل إليهم رسولًا من جنسهم، عربيٌّ يتحدث لغتهم، يعرفونه ويفهمونه، يعيش بينهم يتكلم لغتهم فلا عذر لهم لأنّهم يدركون إخلاصه، وصفاته قبل الرسالة، وهذا أبلغُ في التواصل، وقد كان هذا مطلبَ إبراهيم عليه السلام إذ سأل ربه فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة-١٢٩] ﴿عَزِيزٌ﴾: في ذاته وصفاته ﷻ؛ يُعزّ ﴿عَلَيْهِ مَا﴾: الذي ﴿عَنِتُّمْ﴾: ما أتعب أمّته، فشريعته كلّها سهلة سمحة، يشقُّ عليه ما تلقونه من نوائب ومن مكروهٍ وعنتٍ ﴿حَرِيصٌ﴾: شديدُ الرغبة للحفاظ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: حريصٌ على هداكم ومنفعتكم في الدنيا والآخرة وصلاح شأنكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾: حرف باء الصلة، واسعُ الشفقة، كثير الرأفة ﴿رَحِيمٌ﴾: عظيم الرحمة، ويأمر ﷻ، واخفض جناحك للمؤمنين.

التكليف: لقد حدّدت هذه الآية مُهمة القائد: أنّه يحب لجنوده الخير، ويمنعُ عنهم العنت، ويعاملهم بالرحمة والرأفة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَوَلَّوْا﴾: إذا أعرض المشركون والمنافقون وانصرفوا عن الشريعة الكاملة الشاملة، وانصرفوا عن الإيمان بك أيّها الرسول ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد ربط جواب الشرط، لا بد هنا من القول الواضح ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ ﴿حَسْبِيَ﴾: يكفيني جميع ما أهمّني ﴿اللَّهُ لَا﴾: نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ، لا خالق سواه ﷻ، ولا معبود يستحق العبادة غيره ﷻ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: اعتمدت عليه ﷻ في كلّ شأني، وفوّضت إليه كلّ أمري؛ فإنّه ناصري ومعيني ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿هُوَ رَبُّ﴾: هو تعالى المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكلّ شيء في هذا الكون البديع من حالٍ إلى حالٍ؛ إلى حدّ التمام، وهو تعالى الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ فهو ﷻ مالك كلّ أمر ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: ربّ السموات والأرضيين وما بينهما: عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى حَسْبِىَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ صَادِقًا كَانَ بِهَا أَوْ كَاذِبًا[١].

التكليف: من مقاصد هذه السورة الكريمة: تبيان حقيقي لطبيعةِ نفوسِ الخلق، وضرورةِ المفاصلةِ على أساسها بين المؤمنين والكافرين.

سُورَةُ يُونُسَ

ترتيبها 10 — آياتها 109

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سُمّيت سورة يونس في المصاحف وكتب التفسير بهذا الاسم؛ لأنها انفردت بذكر خصوصيةٍ لقوم يونس ؑ، الذين آمنوا بعد أن توعدهم رسُولُهم بنزول العذاب؛ فعفا الله ﷻ عنهم لمّا آمنوا. وقيل، وهو الأظهر إنّها أُضيفت إلى يونس تمييزًا لها عن أخواتها الأربع التي تبدأ **(الر)** ولذلك أضيفت كلُّ واحدةٍ منها إلى نبيٍّ أو قوم نبيّ عوضًا عن أنْ يُقال **(الر)** فإن اشتهار السور بأسمائها أوّل ما يشيع بين المسلمين بأول الكلمات التي تقع فيها.

---

[١] سنن أبي داود /٤/٤٨٢(٥٠٨٣) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات، وهو موقوف، وفي متنه زيادة منكرة. قال الألباني: موضوع.

والسورة مكيّة في قول الجمهور وهي السورة رقم (٥١) في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة بني إسرائيل "الإسراء" وقبل سورة "هود" سنة إحدى عشرة بعد البعثة، ما يميزها أنها بدأت بمقصد إثبات رسالة محمد ﷺ وعدد آياتها (١٠٩) آيات.

﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

اعتمادًا على ما يقوله علماء النحو والبلاغة أن الضمائر في الكلام الأصل أنْ تعود على متقدم في اللفظ والرتبة، ولا تعود على متأخر في اللفظ والرتبة، بمعنى ما هو الاسم الذي سبق، وعليه فإن الحرفين؛ أي على ما من يعود الضمير، فالحرفان ﴿أل﴾: أرى – والله أعلم– أنّهما يدلّان على اسم الله ﷻ، وما يُعزز هذا؛ ما جاء في السور السابقة: البقرة وآل عمران وغيرها، وما جاء هنا من قول الله ﷻ في الآية رقم (١) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، والكتاب هو القرآن الكريم، الذي نزل من الله ﷻ، وجاء في الآية رقم (٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾، والضمير يعود على الله ﷻ، وجاء فيها أيضًا ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وربُّهم هو الله ﷻ، وجاء في أول الآية رقم (٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ جاء اسم الله صريحًا، أيضًا جاء صريحًا ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وجاء في الآية رقم (٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: ويعود الضمير على الله ﷻ ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ وهنا جاء اسم الله واضحًا، وجاء في الآية رقم (٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ والله ﷻ هو الذي خلق الشمس والقمر، ولم يقل بذلك أحدٌ سواه ﷻ.

حرف ﴿ر﴾: أرى – والله أعلم– أنّ معناها ربّ؛ وما يعزز هذا ما جاء بعدها مباشرة في الآية رقم (٢) قدم صدقٍ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وجاء في الآية (٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ وجاء في الآية نفسها ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، وجاء في الآية رقم (٤) ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ والله هو الرّب ﷻ، وجاء في الآية رقم (٥) ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾: والخالق هو الرّب، وجاء في الآية رقم (٩) ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، وجاء في الآية رقم (١٠) ﴿الحمدُ لله ربِ العالمين﴾ والله أعلم.

﴿تِلْكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للبعيد المؤنث، وهي ﴿آيَاتُ﴾: أدلّةٌ وبراهينُ ﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن الكريم ﴿الْحَكِيمِ﴾: القرآن المُحكمِ، المُتقنِ، المُعجزِ، والصادقِ، وهذا وصفُ القرآن الكريم يُحكم اللهُ ﷻ فيه الآيات.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (٢)

﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض التقرير والتوبيخ للمعترضين على القرآن ﴿كَانَ﴾: هل كان في السابق ﴿لِلنَّاسِ﴾: تخصيصِ عموم بني آدم ﴿عَجَبًا﴾: هل كان إيحاؤنا إليك الكتاب عجبًا للنّاس، لماذا يعجب النّاس من إرسال الرسل، وكلمةُ النّاس تفيد عموم البشر، من المؤمنين وغيرهم، فقد تعجب قوم هود وقوم صالح، عليهما السلام ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يفيد التصوّر، ﴿أَوْحَيْنَا﴾: الوحي هو كلامٌ إلى شخصٍ يتم إخفاؤهُ عن غيره، وهو إشاراتٌ سريعةٌ، كلامٌ على سبيل الرمز، والتعرّض بصوت، أو بإشارةٍ ببعض الجوارح، ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ فقد تعجّب كفّار قريش الذين قالوا إنّ الله أعظم من أنْ يكون رسولُهُ بشرًا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿أَنْذِرِ﴾: حذّر وخوّف ﴿النَّاسَ﴾: عموم بني آدم، إنّ مهمتك أنْ تقول لعموم البشر صدقًا وعدلًا ﴿وَبَشِّرِ﴾: أخبرهم بما يسرُّهم، جاء أنذر وبشّر: طباقًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ﴾: حرفَ تأكيد ونفي الإنكار ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿قَدَمَ﴾: منزلة فضل كبيرة ﴿صِدْقٍ عِنْدَ﴾: ظرف زمان ومكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: هو مالك الأمر كلّه، قال ابن عباس: سبقت لهم السعادة بذكرهم: قل لهم إنّ لكم منزلة كبيرة على ما قدّمتم من طاعات، وقال العوفي: لهم أجرٌ حسنٌ، وقال مجاهد وعددٌ من العلماء: هي الأعمالُ الصالحةُ، من صلاةٍ، وصيامٍ، وتسبيحٍ، وقيل معناها سلف صدق عند ربّهم ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِن﴾: بمعنى ما ﴿هَذَا﴾: إشارة إلى محمد ﷺ ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿سَاحِرٌ مُبِينٌ﴾: واضحٌ، وظاهرٌ في أفعاله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿رَبَّكُمُ﴾: مالك أمركم وأمر الكون كلّه ﴿اللَّهُ﴾: اسم الله ﷻ الأعظم ﴿الَّذِي﴾: هي في اللغة تعني اسمٌ موصولٌ للفرد المذكر، والمقصود هنا الله ﷻ ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق مثال، أوجده من العدم ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا وأحاط بالأرض؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا خلق ﴿الْأَرْضَ﴾: خالق أرضه وسمائه من غير سابق وجود ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:قيل من الأحد إلى الجمعة، قيل هي أيامٌ كهذه الأيام، ويدحض هذا القول إنّ الأيام والليالي على الأرض بحسب علاقة الأرض بالشمس، ولم تُخلق الشمس ولا الأرض بعد، وقيل كلّ يومٍ فيه كألفِ سنةٍ ممّا تعدُون، والله أعلم؛ إنّ الله ﷻ الذي يملك هذا الاقتدار العظيم، فكيف يكون إرساله لرسولٍ إلى النّاس من جنسهم محلًا للتعجب؟! ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والتباعد الزمني ﴿اسْتَوَى﴾: علا، وارتفع ﷻ استواءً يليق بجلال وجهه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: والعرش هو أعظم المخلوقات، ﴿يُدَبِّرُ﴾: يُصرّف الكون كيف شاء ﴿الْأَمْرَ﴾:

معنى الأمر هنا القضاء، فقد قضى ﷻ أحوال الخلائق كلّها، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، لا يتبرم بإلحاح الملحّين، ولا يلهيه تدبير الكبير والصغير في الجبال والسماء والبحار، جاء في المعنى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود-٦] ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية ﴿شَفِيعٍ إِلَّا﴾: حرفُ استثناء ﴿مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: لا شفاعة لأحدٍ إلّا بإذن الله ﷻ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له ﴿ذَلِكُمُ﴾: اسم إشارة للبعيد والمقصود هنا ﷻ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾: والعبادة هي الطاعة في كلّ أمر ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: يا من تعبدون غير الله ﷻ ألا تتذكرون نعم اللهِ ﷻ عليكم؟ وأنتم تعلمون أنّه مالك الملكوت، وكلُّ شيءٍ بإذنه ﷻ.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: عودتكم ﴿جَمِيعًا﴾: كلُّ مخلوقٍ سيعود إلى الله ﷻ يوم القيامة، هذا من الإنذار ﴿وَعْدَ﴾: إرجاعه عليكم هذا ما وعد ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ ووعده ﴿حَقًّا﴾: جاء لفظ الحق في القرآن الكريم على أحد عشر وجهًا؛ هنا بمعنى الصدق؛ هذا ما وعد الله ﷻ عباده ووعده الذي أجمل في أول السورة التبشير بما بعد هذا ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد ﷻ ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: هو ﷻ بدأ خلق كلِّ شيءٍ قبل الإنسان، ثم خلق الإنسان من غير سابق مثال ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التباعد الزمني ﴿يُعِيدُه﴾: إلى الحياة، بعد موته يوم القيامة ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَجْزِيَ﴾: لأجل الجزاء يوم القيامة؛ ليعطي كلّ مخلوقٍ جزاءهُ خيرًا، إنْ عمل خيرًا، وعذابًا بعصيانه وكفره ﴿الَّذِينَ﴾: اسمُ موصولٌ يفيد جميع من ﴿آمَنُوا﴾: هم المؤمنون والمؤمنات الذين حققوا أركان الإيمان باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسله والقيامة ﴿وَعَمِلُوا﴾: أيضًا أقاموا ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿بِالْقِسْطِ﴾: حرف باء الصلة، بالعدل والإنصاف الذي لا جور فيه، جزاءً وفاقًا ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمُ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَفَرُوا﴾: الذين غطّوا حقيقة الإيمان ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿شَرَابٌ﴾: السائل المشروب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿حَمِيمٍ﴾: هذا نوعٌ من العذاب، حين يشعر الكافرُ بالعطش الشديد، فلا يجد ما يشرب إلّا شرابًا من سموم وحميم، بحرارة عالية؛ متناهية العلو، كحامض الكبريتيك المعروف ماء النّار، ولهم ظلّ من جهنّم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شديد الإيلام أي المسبب للوجع الشديد ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا به ﴿يَكْفُرُونَ﴾: عقابًا لهم على جرائمهم، كفرهم بالله ﷻ، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥)

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصول هنا بالفرد، الواحد الأحد، ﷻ ﴿جَعَلَ﴾: سخّر ﴿الشَّمْسَ﴾: من المعلوم أنّ الشمس جسمٌ ملتهبٌ، يتكّون من غاز الهيليوم المُشتعل، وككلّ جسمٍ يحترق يَصدر عنه ﴿ضِيَاءً﴾: للمشاهد الاشياء من حوله وهو اسمٌ مشتقٌ من الضوء، لكنّ الضياء أقوى من الضوء؛ هو نورٌ ساطعٌ يُضيء علمًا بأنّ شعاع الشمس مُكوّنٌ من ألوان النور السبعة، التي تُشاهد في قوس السماء، وليست ضوءًا واحدًا ﴿وَ﴾: أيضًا هو ﷻ الذي جعل ﴿الْقَمَرَ نُورًا﴾: هو جسمٌ غيرُ مشتعلٍ، ولكنّه يعكس أشعة الشمس التي تسقط عليه كالمرآة؛ فهو يعكسُ من سطحه نورًا ﴿وَقَدَّرَهُ﴾: أيضًا وضع له مواقيت ووظائف لسرعة سيره، ومعاينة ﴿مَنَازِلَ﴾: حدّد ﷻ منازل القمر، وعددُها ثمانية وعشرون، والمنزلة الواحدة هي المسافة التي يسيرها في اليوم والليلة، والتي تظهرُ فيصير القمر بدرًا، إلى اكتمال الكوكب، ثم يشرع في التناقص إلى الحالة الأولى في ثمانيةَ وعشرين منزلًا على مدار الشهر، وعلاقة هذه المنازل بأحكام الشرع ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ﴾: أيضًا تعلموا ﴿الْحِسَابَ﴾: كي تعلموا مواقيت أيامكم، ولياليكم، فبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الشهور والفصول الأربعة، والأعوام ﴿مَا﴾: حرفُ نفي ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق مثال ﴿اللَّهُ ذَلِكَ﴾: الخلق المذكور عن الشمس والقمر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بِالْحَقِّ﴾: لم يخلقه عبثًا، بل لحكمةٍ عظيمةٍ، وحُجّةٍ بالغة؛ ودلالة على كمالِ قدرةِ اللهِ ﷻ وعلمهِ ﴿يُفَصِّلُ﴾: يُوضحُ الله ﷻ ويُبيّن ﴿الْآيَاتِ﴾: البراهين والحجج والأدلّة على وحدانيته وتفرده ﴿لِقَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابِ مذهبٍ واحدٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾: لأناس يُدركون القصد من هذه الآيات؛ ويُصدّقون ما جاء من الحق ﷻ.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿فِي اخْتِلَافِ﴾: تعاقب ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: تعاقب ظاهرة الليل والنّهار، وليس اجتماعهما، أمرٌ يتمُ، ويحدثُ بلا تسارعٍ، أو تأخرٍ ﴿وَمَا﴾: والذي ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق وجود ﴿اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وكلّ ما يحيط بها من كلّ مكانٍ؛ كونها بيضاوية الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا الذي خلق في ﴿الْأَرْضِ﴾: ومن مخلوقات الله ﷻ الشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب السيّارة، والرياح والأمطار ﴿لَآيَاتٍ﴾:

أدلةً وبراهين ومن عجائب خلقه، وما فيها من إبداعِ نظام ﴿لِقَوْمٍ﴾: تخصيصًا، جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿يَتَّقُون﴾: إنّها تُفيد أصحابَ العقولِ الواعيةِ، المُدركةِ، التي يقودها التفكرُ في ملكوتِ السماواتِ إلى الإيمان بالله ﷻ بوعي، يطمعون في ثوابه، ويتجنّبون الآثام، يخافون من عذابه، أي أدلّةً وحُججًا لقومٍ يخشون عقاب الله ﷻ، وسخطه، وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْجُونَ﴾: لا يتوقعون لا يتمنون ولا يريدون في المستقبل ﴿لِقَاءَنَا﴾: الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، والذين يُنكرون وجود الله ﷻ لا يطمعون في لقائه في الآخرة؛ للحساب والعقاب ﴿وَرَضُوا بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: سكنوا إليها، وركنوا فلم يروا غيرها حياتًا يُعمل لها، لا يرغبون في ثواب الآخرة، التي لا يؤمنون بها ﴿وَ﴾: عطفًا على كفرهم ﴿اطْمَأَنُّوا﴾: الطمأنينة والاطمئنان هي السكون بعد الانزعاج ﴿بِهَا﴾: لا يتفكرون فيها، كيف نشأت، وكيف يطويها الله ﷻ كطي السجل للكتب، وفرحوا بما نالوا فيها من مالٍ ومتاعٍ، فأصبحوا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ بمعنى من ﴿آيَاتِنَا﴾: الأدلّة والبراهين ﴿غَافِلُونَ﴾: لاهون عن التفكر، والتدبر، والاستنتاج، هذا الصنف من البشر هو الغالب في زمن العولمة، والديمقراطية، والشيوعية، ومحاربة الإسلام، فما مصيرهم؟

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة إلى هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله ﷻ في الآخرة، وهم الكفّار، والمنافقون ﴿مَأْوَاهُمُ﴾: ملجأهم وسكنهم ومقرهم الدائم، ومثواهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾: جهنّم وبئس المصير ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾: ما ارتكبوا من آثام، وجرائم، وخطايا، إنّ المعنى أنّ خسارتهم هي مكسبهم من الكفر، وما جنوا من عذاب.

التكليف: جاء لفظ المأوى على الجنّة في ثلاث آيات، وجاء على النار في بضع عشرة آية لتدل على أنّ عدد من يدخلون النار أكثر من عد الذين يدخلون الجنّة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِين﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: هنا تأكيدُ حال المؤمنين، هؤلاء هم الصنف الآخر المضاد للكفّار، الذين اطمأنت قلوبهم لله ﷻ، وصدّقوا رسله عليهم السلام ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ونفذوا أوامر الله ﷻ، وعملوا كلّ ما يرضيه ﷻ ورسوله ﷺ ﴿يَهْدِيهِمْ﴾: يجعل لهم بإيمانهم نورًا يدلّهُم ويرشدهم، ويرزقهم الهداية، ويهديهم طريق الجنّة ﴿رَبُّهُمْ﴾: هو ﷻ المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للكون بمن وبما فيه من طورٍ إلى طورٍ إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ وهو المربي والمسيّر ﴿بِ﴾: حرف يفيد السبب، أي بسبب ﴿إِيمَانِهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه، ﷻ على الصراط المستقيم؛ ليتجاوزوه إلى الجنّة، عَنْ قَتَادَةَ يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ ثنا الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مُثِّلَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَرِيحٍ طَيِّبَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ فو الله إِنّي لأَرَاكَ عَيْنُ امْرِئٍ صِدْقٍ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ فَيَكُونُ لَهُ نُورًا قَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مُثِّلَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ وَرِيحٍ مُنْتِنَةٍ فَيَقُولُ مَا أَنْتَ إِنِّي لأَرَاكَ عَيْنُ امْرِئِ سُوءٍ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ فَيَنْطَلِقُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ[1]. ﴿تَجْرِي﴾: المياه الجارية في الجنّة أجمل وأنقى من المياه الراكدة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: وهذا من مُتع الجلوس عند النهر، ومشاهدته، يجري الماء من تحت بساتينهم، أو من بين أيديهم لأنّهم على سُررٍ مرفوعةٍ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: جاء جنّاتٍ ولم يقل ﷻ جنّة واحدة؛ دلالةً على كثرةِ ما سيُعطي اللهُ ﷻ.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾: إنّ دعاء هؤلاء، سعداء يوم القيامة، الذين آمنوا وصدّقوا، فأطاعوا، ونداؤهم في الجنّة قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: ننزهك عن كلّ النواقص والقصور ﴿اللَّهُمَّ﴾: صيغةُ دعاءٍ ونداءٍ مثل يا ربنا حُذف منها حرف النداء وتم التعويض عنه بحرف الميم المُشدد ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: تحيةُ الملائكة لهم، وتحيتُهم لبعضهم بعضًا في الجنّة سلام اللفظ الذي يفيد عموم السلام ﴿وَآخِرُ﴾: أيضًا ختام ونهاية ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: دعاؤهم ﴿أَنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿الْحَمْدُ﴾: الثناء والشكر ﴿لِلَّهِ﴾: وهي أفضل التحيّات التي علّمها

---

[1] تفسير ابن أبي حاتم ٦/١٩٢٩(١٠٢٣٧).

الله ﷻ عباده الصالحين، تحية المسلمين: الثناء على ﴿رَبِّ﴾: هو مالك أمر ﴿الْعَالَمِينَ﴾: مالك الكون.

التكليف: تحية المسلمين في الدنيا والآخرة، وقولهم الحمد لله من نعم الله العظيمة في الدارين.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿يُعَجِّلُ﴾: يُسرّع ﴿اللَّهُ لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿الشَّرَّ﴾: كل ما يسبب الضرر، مثل ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: هنا تشبيهٌ مؤكدٌ مجمل، لو استجاب الله ﷻ دعاء النّاس بالشرِّ في حالِ غضبهم على أنفسهم، وعلى أولادهم، وعلى ممتلكاتهم، كما يستجيب لهم دعاءهم في الخير، وفي هذا دلالة على سرعة استجابة الله ﷻ للخير ﴿لَقُضِيَ﴾: حرفُ اللام للعلّة والسبب، التي انتهت حياتهم، أي ماتوا ﴿إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأهلكهم فور الدعاء، وماتوا، وأهلك مالهم ونسلهم ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب، وفي ذلك نهيٌ للنّاس عن الدعاء على أنفسهم ﴿نَذَرُ﴾: أي يترك اللهُ ﷻ ويؤجل هؤلاء ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يتمنون الموت ولا البعث ولا الحساب يوم القيامة، وسيبقون ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: نترك هؤلاء في ظلمهم لأنفسهم، وتجاوزهم الحدود بالشرك والكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتخبطون كالأعمى، وفاقدي البصيرة، قال رسول الله ﷺ: لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ[١].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿مَسَّ﴾: إذا أصاب في عمق وجوهر ﴿الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾: الجهد والشدّة في ماله، أو ولده، أو عافيته ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾: دعا الله ﷻ مستغيثًا في كشف الضرر والسوء الذي أصابه، وهو نائمٌ على جنبه ﴿أَوْ﴾: حرف تقسيم وتسوية بين متعاطفين ﴿قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾: المقصود في كلّ الأحوال، وليس هذه أو تلك فقط والله أعلم ﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد السبب ﴿كَشَفْنَا﴾: رفع الله عنه وجاءت بصيغة الجمع لعظم الحدث ﴿عَنْهُ﴾: عن جسده

---

[١] صحيح مسلم /٢٣٠٤/٤(٣٠٠٩).

ونفسه ﴿ضُرَّهُ﴾: إذا فرّج الله ﷻ عنه الكرب ﴿مَرَّ﴾: استمر على ما كان عليه، وكانت حياته بعد ذلك ﴿كَأَنْ﴾: حرفٌ يفيد التقريب ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾: نسي أنّه دعا الله ﷻ، ونسي أنّه سأله، واستجار به، ليرفع عنه الضرر، والسوء الذي أصابه في العمق منه، فأعرض وذهب واستمر على ما كان عليه قبل المسّ ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا أيضًا ﴿زُيِّنَ﴾: جمّل وحسّن ﴿لِ﴾: تخصيصًا ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: هكذا حُبّب إلى المبالغين والمتجاوزين للحدود، لمن ينسى فضل الله ﷻ عليه، الذين يعودون لما كانوا عليه من مبالغةٍ في المعصية، والذين دعوا الله ﷻ فاستجاب لهم، وبعدها عادوا مرّة أخرى إلى إسرافهم في أمرهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا﴾: في الماضي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: ما عملوه في حالات الكفر؛ فلم يقلعوا ويكفّوا عمّا عملوا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع وهو واحدٌ أحدٌ لتدل على شدّة الهلاك، فقد أهلك ودمّر، وأفنى ﴿الْقُرُونَ﴾: وهي جمع قرن، وهو حقبةٌ زمنيّةٌ والمقصود هم الأقوام المشتركون في العيش في زمانٍ واحدٍ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: الذين عاشوا في القرون الماضية، الذين كذّبوا رسل الله ﷻ من قبلكم ﴿لَمَّا﴾: حرفٌ يفيد حدثً في الماضي ﴿ظَلَمُوا﴾: حين أشركوا، وكذّبوا، وأسرفوا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: لم يبق لهم حُجّة بعد الرسل، فقد نصحوهم وحذّروهم بالأدلّة والبراهين؛ ليؤمنوا ﴿وَمَا﴾: أيضاً هنا يفيد النفي ﴿كَانُوا﴾: ليس لهم ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾: يشهد الله ﷻ فيهم بغلظة القلب وقسوته، وأنّهم لم يؤمنوا، ولنْ يؤمنوا ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿نَجْزِي﴾: نعاقب ﴿الْقَوْمَ﴾: الذين أصحاب منهجٍ واحدٍ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾: حيث خذلهم الله ﷻ، وثبّطهم، ولم يوفقهم للإيمان؛ فكان العقاب على تكذيبهم، حيث وصفهم الله ﷻ بالمجرمين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾: الضمير يعود على أمّة محمد ﷺ ﴿خَلَائِفَ﴾: جمع خليفة، وهو الذي يخلف، أي يأتي من بعد غيره في الشيء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: كنتم الأقوام الذين جاؤوا من بعد الأقوام الُمكذّبة الهالكة، السابق، إنّ الدعوة كونية لكلّ الأرض وليس في منطقة بعينها، فالدعوة عامّة، وشاملة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِمْ﴾: جاءوا خلفًا في الأرض من بعدهم بقرون مهلكة ﴿لِ﴾:

حرف علّةٍ لسببٍ ﴿نَنْظُرَ﴾: يتحقق ما كتبنا عليكم، ونُسجل عليكم ﴿كَيْفَ﴾: استفهام يفيد التعجب والاستنكار ﴿تَعْمَلُونَ﴾: ماذا يعمل هؤلاء أخيرًا؟ أم شرًّا فيجازيكم الله ﷻ بذلك كلّ بحسب عمله، هو ﷻ أعلم ما كتب في الأولين، ولكن كان تسجل الملائكةِ أعمالَ النّاس؛ حُجّة عليهم، وليس قدرًا قاهرًا لهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

﴿وَإِذَا﴾: أداة ربط ما يليها مع ما قبلها ﴿تُتْلَى﴾: إذا قُرئت ﴿عَلَيْهِمْ﴾: على كُفّار قريش وعلى الكافرين ﴿آيَاتُنَا﴾: آياتُ الله ﷻ التي أنزلها إليك أيّها الرسول الدالة على التوحيد ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: واضحة ظاهرة ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾: الذين لا يخافون الحساب، ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم الحساب، يوم البعث والنشور، فهم المنكرون للمعاد، ولا يتمنون ولا يرغبون في ﴿لِقَاءَنَا﴾: الذين لا يريدون يوم القيامة، وينكرون يوم الحساب، والذين لا يرجون الثواب، ولا يخافون العقاب، يسألون معاجزين ﴿ائْتِ﴾: آتنا، احضر لنا ﴿بِ﴾: حرف باء البدل ﴿قُرْآنٍ غَيْرِ﴾: حرف يستخدم للاستثناء ﴿هَذَا﴾: تنبيهٌ وإشارةٌ، لا يريدون هذا النوع القرآني الذي فيه ذم عبادة الأوثان؛ فالأمر الربّاني يذم أصنامهم؛ ويذكر المساوئ وهي عكس المدح؛ ويسفّه أحلامهم ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد هنا التسوية مع ﴿بَدِّلْهُ﴾: أن ينسخ الله ﷻ أو الرسول بعض الآيات أو كلّها ويضع أخرى مكانها، هؤلاء هم المنكرون ليوم المعاد والحساب. يطلبون غيّره، وحرّفه، واجعله في وضعٍ آخرَ في جوهره، في التعاليم، والطاعة، والعبادة، والنهي ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿يَكُونُ﴾: ما ينبغي لي، ولا يحلُّ لي، أنْ يكون ما تريدون، فأنا عبدٌ مأمورٌ، مبلّغٌ، ورسولُ الله ﷻ ﴿لِي﴾: حرف تخصيص ﴿أَنْ﴾: حرف تصور ﴿أُبَدِّلَهُ﴾: أغيّره بغيره ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تِلْقَاءِ﴾: بقرار وإرادة ﴿نَفْسِي إِنْ﴾: حرف يفيد التأكيد ﴿أَتَّبِعُ﴾: لم أطع ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء فقط ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾: أنا أُطبّق، وأُبلّغ ما نزل من الله ﷻ عليّ، والله وحده الذي يغيّره إذا شاء ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أَخَافُ﴾: هذه من صفات المؤمنين: الخوف من الجليل ﷻ، وهذه قوة من الإنسان المؤمن ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عَصَيْتُ﴾: امتنعت عن طاعته ﴿رَبِّي﴾: إذا استجبت لطلبكم؛ فقد عصيت مالك أمري كلّه، فيصيبني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: عذاب يوم القيامة.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

يستمر الرسول يتلقى عن ربّه ما يُحاج به كفّار قريش، بما لا ينكرونه، إنّه أمر الله ﷻ، وليس تقولًا ولا افتراءً على الله ﷻ من محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾: أخبرهم يا محمد ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿شَاءَ﴾: أراد وقدّر ﴿اللَّهُ مَا﴾: حرفُ نفي ﴿تَلَوْتُهُ﴾: لو أرادني الله ﷻ ألّا أقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: القرآن؛ ما قرأت، لو لم يأمرني ربّي ما قرأته عليكم، وما بلّغته لكم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾: ما أعلمكم وما أخبركم، وما علمتموه، ولحجبه عنكم على لساني ﴿فَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿لَبِثْتُ﴾: مكثتُ أقمتُ، إقامةً دائمةً ﴿فِيكُمْ﴾: بينكم ﴿عُمُرًا﴾: زمانًا طويلًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانية ﴿قَبْلِهِ﴾: والدليل أنّي عشت فيكم أربعين سنة، لم أُعلمكم بشيءٍ، لأنّه ليس عندي ما أقوله، ولو علمته قبلَ الآن وأنزله الله ﷻ عليّ لأخبرتكم ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار والتوبيخ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: ألا يدُلّكم سلوكي في عمري بينكم قبل الدعوة على أنّي لست بكاذبٍ، فقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن النبي محمد ﷺ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ[1].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

﴿فَمَنْ﴾: حرفُ استفهامٍ عن العاقل، بمعنى لا أحد ﴿أَظْلَمُ﴾: أشدّ ظلمًا، سؤال يعني لا أظلمَ ولا أطغى وأشدّ إجرامًا ﴿مِمَّنِ﴾: من الذي من جنس الإنسان ﴿افْتَرَى﴾: لمّا طلبوا منه أنْ يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو يُبدله، الذي اختلق على الله ﷻ الكذب، وادعى وزعم كذبًا، وهؤلاء صنفان: الأول: قال ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: كذب وقال إنّ الله ﷻ أوحى إليه، و الثاني ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية بين متعاطفين الأول الافتراء على الله تعالى والثاني ﴿كَذَّبَ﴾: أنكر ﴿بِآيَاتِهِ﴾: الأدلّة والبراهين الربانيّة التي جاءته فأنكرها وهي واضحة ﴿إِنَّهُ﴾: بالتأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُفْلِحُ﴾: لا يفوزون ولا يظفرون بما يطلبون ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: جاء اللفظ القرآني الفلاح هنا بمعنى الفوز، وصف الله ﷻ الصنفين بالمجرمين، الذين سيخسرون ولا يفوزون، قال الطبري في معنى الآية: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ

---

[1] صحيح البخاري /١/٩(٧).

نَسَبُوكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ إِلَى الْكَذِبِ: أَيُّ خَلْقٍ أَشَرُّ بَعْدَنَا وَأَوْضَعُ لِقِيلِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، مِمَّنْ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَافْتَرَى عَلَيْهِ بَاطِلًا[1].

التكليف: جاء الاستفهام؛ ليفيد النفي؛ ليكون المعنى: لا يوجد أحدٌ أظلمُ ممن افترى على الله ﷻ كذبًا، أو كذّب بآياته.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﷻ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على كفرهم ﴿يَعْبُدُونَ﴾: يؤمن الكفار المتجاوزون عبادة الله ﷻ إلى عبادة غيره، وليس ترك العبادة بالكليّة، بعبادة آلهة كذبًا، الحجارة، أو الحديد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: بدلًا من عبادة الله ﷻ ﴿مَا﴾: يفيد الذي من غير العاقل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّهُمْ﴾: يبعدون أشياءً لا تضرّهم فلماذا يخافون منها؟ ويتقون غضبها وهي لا تضر ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾: وقدّم الله ﷻ هنا الضرر؛ لأنّه أقوى في الخوف، وأضاف ﷻ، أنّها أشياءٌ لا تنفعهم، فمن صفات المعبود قدرته على النفع والضرر ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾: إشارة للأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا﴾: الوسطاء لنا ﴿عِنْدَ﴾: ظرف تمليك ﴿اللَّهِ﴾: إنّ أمر هؤلاء الكفّار غريب؛ يقولون ويعترفون بالله، ولكنّهم يرون أنّ هؤلاء الذين لا يضرون ولا ينفعون، هم وسطاء وشفعاء لهم عند الله ﷻ؛ فلا يعذبهم بذنوبهم ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني بالقول لهم يا محمد ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار والتوبيخ ﴿تُنَبِّئُونَ﴾: أتخبرون ﴿اللَّهَ﴾: ﷻ بأشياءٍ تدّعون أنّها تشاركه في ملكه، وهي ليست في الأرض ولا في السماء؟ سؤالٌ يُسخّفُ عقولهم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول هنا بمعنى الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي، بمعني بما لا ﴿يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ﴾: وهي كل ما علا الأرض وأحاط بها بسبب كرويّتها ﴿وَلَا﴾: أيضًا يعلم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: هل تخبرون الله ﷻ بأشياءٍ ليست موجودة في السماوات وفي الأرض ﴿سُبْحَانَهُ﴾: يُنزه الله ﷻ نفسه ﷻ عن هذا الذي يقولون ﴿وَتَعَالَى﴾: أيضًا ترفّع، وتنزّه عن النواقص ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿يُشْرِكُونَ﴾: عن شركهم، واقترافهم الإثم، وأكاذيبهم.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لم يكن ﴿النَّاسُ﴾: نسل آدم ﵇ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أُمَّةً﴾: أصحابُ عقيدةٍ ﴿وَاحِدَةً﴾: كلّهم كانوا أمّةً واحدةً على الإسلام، موحدة لله ﷻ

---

[1] تفسير الطبري١٥/٤٥.

﴿فَ﴾: حرفُ سببٍ استثنائي بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿اخْتَلَفُوا﴾: اختلفوا فصار بعضهم كافرًا، واتخذوا الأنداد والأوثان؛ فبعث الله ﷻ الرسل، وبقي بعضهم مؤمنًا، فخالف بعضُهم بعضًا ﴿وَلَوْلَا﴾: حرف امتناع الثانية وهي القضاء بينهم لوجود ﴿كَلِمَةٌ﴾: من الله ﷻ ﴿سَبَقَتْ﴾: قيلت من قبل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الكلّية ﴿رَبِّكَ﴾: هو ﷻ المُعبود، والمُربي، وهو المشيء حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، فهو مالك أمرك كلّه، كان قدرُ الله ﷻ أنّه لا يعذّب أحدًا إلّا بعد قيام الحُجّة عليه، وأنّه ﷻ أجّل حساب الخلق إلى أجلٍ معلومٍ، ولو لم يقدّر ذلك لعذّبهم في الدنيا ﴿لَ﴾: حرف سببٍ ﴿قُضِيَ﴾: تم الثواب والعقاب ﴿بَيْنَهُمْ فِيمَا﴾: في الذي ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وهو الكفر والإيمان، وهو أساس الخلاف.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يَقُولُونَ﴾: القائلون هم الذين كفروا من أهل مكّة ﴿لَوْلَا﴾: بمعنى هلّا، حرف امتناع ما بعدها لوجود ما قبلها لو ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾: دليلٌ حسنٌ من ربّه نعلم بها أنّه صادق فيما يقول ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: من مالك أمر محمدٍ ﷺ وأمّا الآية فمثلما أعطى اللهُ ﷻ ثمود الناقة؛ سألوا محمدًا ﷺ أنْ يُحوّل الله ﷻ لهم جبل الصفا ذهبًا، أو يُنبت الزرع في جبال مكّة، ويجعلها بساتين ﴿فَقُلْ﴾: يا محمد ردًا على طلبهم ﴿إِنَّمَا﴾: يفيد التخصيص ﴿الْغَيْبُ﴾: الذي لا يعرفه النّاس هو ﴿لِلَّهِ﴾: قل لهم إنّ الأمر كلّه لله ﷻ، وهو الذي يُقدّر عاقبة الأمور، ومن هذه الأمور، أنّه إذا أعطى أمّة ما سألت؛ فكفرت؛ عاجلها بالعقوبة، قال الطبري رحمه الله في تأويل الآية: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِهِ يقُول: عِلْمٌ وَدَلِيلٌ نَعْلَمُ بِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا مُحِقٌّ فِيمَا يَقُولُ. قَالَ اللَّهُ لَهُ: فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، أَيْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بِفِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَهُوَ السِّرُّ وَالْخَفِيُّ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا اللَّهُ، فَانْتَظِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ قَضَاءَ اللَّهِ بَيْنَنَا بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِ لِلْمُبْطِلِ مِنَّا وَإِظْهَارِهِ الْمُحِقَّ عَلَيْهِ، إِنِّي مَعَكُمْ مِمَّنْ يَنْتَظِرُ ذَلِكَ. فَفَعَلَ ذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فَقَضَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِأَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّيْفِ[1]. ﴿فَ﴾: لهذا السبب وبدون استعجال ﴿انْتَظِرُوا﴾: تمهلوا ولا

---

[1] تفسير الطبري١٥/٤٨.

تستعجلوا ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾: إذا كفرتم بما أنزل الله ﷻ، أنتظر وإياكم حكم الله فيّ وفيكم.

التكليف: من رحمةِ الله ﷻ تأجيل العقاب في الدنيا حتى يتوب المسيء، ولو في آخر أيامه.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿أَذَقْنَا﴾: في حال أعطينا ووهبنا المشركين مَنْ ﴿النَّاسَ﴾: بني آدم ﴿رَحْمَةً﴾: ما يسّر اللهُ ﷻ لهم يُسرًا وفرجًا، ورخاءً من مالٍ وجاهٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾: نائبةً أو مصيبةً أو شدّة كربٍ أصابهَم؛ مما يؤذيهم في نفسٍ أو مالٍ ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: أصابتهُم في العمق منهم، كالخصب بعد الجدب، والمطرِ بعد القحط، والغنى بعد الفقر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا ﴿مَكْرٌ﴾: والمكر هو إخفاء الكيد، ومكر الكافرين هو دفع، وطعن، واستهزاء، ودهاء ﴿فِي آيَاتِنَا﴾: يسخرون، ويستهزئون، ويتحايلون على أدلتنا، وبراهيننا الدالّة على صدق ما جاءهم، ليظلّوا على كفرهم وتكذيبهم، بأنْ يقولوا هذه دورة حياة الإنسان في الطبيعة ﴿قُلِ﴾: يا محمد ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾: إنّ الله ﷻ أشدُّ استدراجًا، وإمهالًا، وأعجلُ جزاءً، وعقوبةً لهم؛ حتى يظنُّ الكافرُ أنّه ناجٍ من العذاب؛ ثم يأتيه العقاب فجأة ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رُسُلَنَا﴾: الملائكة الحفظة الكتبة ﴿يَكْتُبُونَ﴾: يُسجلون عليكم ﴿مَا﴾: كلّ الذي ﴿تَمْكُرُونَ﴾: والرسل هم الملائكة الكرام الكتبة، الذين يُسجّلون، ويُحصون أعمالهم، ثم تُعرض على ربّهم ﷻ؛ فيُجازي على الصغيرة وعلى الكبيرة.

التكليف: إنّ الكافر لا يتعلم من تجاربه، فإذا رفع اللهُ عنّه مصيبةً؛ عاد لكفره.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢)

﴿هُوَ﴾: في اللغةِ تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد، وهو الله ﷻ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾: يجعلكم تمشون على أقدامكم؛ ويحفظكم وأنتم تسيرون، وتركبون ما خلق لكم من الدواب والطائرات وكل وسائل المواصلات ﴿فِي الْبَرِّ﴾: على الأرض ﴿وَ﴾: أيضًا علمكم صناعة السفن التي تحملكم في ﴿الْبَحْرِ﴾:

ويُسيّركم في البحر، فقد علّمكم صنعة السفن العملاقة، وعلّمكم صناعة الطائرات، لتطيروا في الجو أيضًا ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾: إذا ركبتم السفن بسهولةٍ ويسرٍ وأمانٍ؛ بفعل الهواء المناسب، وقياسًا على ذلك ركوبكم السيارات، وركوبكم الطائرات ﴿وَجَرَيْنَ﴾: أيضًا سارت السفن بسرعة، في هذا المثل الغيبي ما يدلُّ على زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعد شكرهم النعمة وللتعجب من حالهم والإنكار عليهم ﴿بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: حرف باء السبب، ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس، إذا سارت السفن بسهولةٍ ويسرٍ، وانطلقت السيارات، أو طارت بكم الطائرات ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾: شعروا بالسعادة ﴿جَاءَتْهَا﴾: أصابت وسائل المواصلات هذه في البحر، أو في البرّ، أوفي الجوّ ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: المثل في السفن الريح الشديدة الهبوب التي تغرقها، والمثل على الأرض حوادث الطرق، وفي الجو سقوط الطائرات ﴿وَجَاءَهُمُ﴾: أصابهم ﴿الْمَوْجُ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿كُلِّ﴾: تفيد الجميع ﴿مَكَانٍ﴾: كلِّ الأماكن، المقصود ما يُعطّلُ سير السفن، وقياسًا على هذا ما يعطل السيارات، والطائرات ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء ﴿ظَنُّوا﴾: تأكدوا وتيقنوا أنّه طوّقهم ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف يفيد التأكيد كل جانب ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: طوقتهم وأحدقت بهم وسائل الهلاك والخطرُ من كلِّ جانبٍ ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾: تضرعوا لله ﷻ ﴿مُخْلِصِينَ﴾: دونَ رياءٍ أو إشراكٍ ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿الدِّينَ﴾: لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا ﴿لَئِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَنْجَيْتَنَا مِنْ﴾: حرف يفيد التخصيص ﴿هَذِهِ﴾: من حالة الموت المُحتم ﴿لَنَكُونَنَّ﴾: بهذا السبب نصير بكلّ تأكيد ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: نشكرك، ونُفردُك بالعبادة، واستجبت لنا.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿أَنْجَاهُمْ﴾: الله ﷻ من الغرق، وهي حالةٌ عامّةٌ، تعني كلّ كربٍ، وكلّ وسيلةِ هلاكٍ ودمارٍ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿يَبْغُونَ﴾: جاء اللفظ القرآني البغي على أربعة وجوه؛ هنا بمعنى المعصية، والمبالغة في الفساد، والظلم، والعدوان على الآخرين، ويفسدون فيها وينسون ما دعوا وحلفوا وعاهدوا الله ﷻ عليه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في كلّ مكانٍ ممكنٍ ﴿بِ﴾:

باء المصاحبة ﴿غَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿الْحَقِّ﴾: ظُلمًا، وعُدوانًا، والضلال، والكذب، والخداع ﴿يَا أَيُّهَا﴾: حرفُ نداءٍ من المُنَادِي وهو الله ﷻ على المُنَادَى عليهم وهم ﴿النَّاسُ﴾: جاء لفظ النّاس في القرآن على تسعة وجوه؛ هنا أهل مكّة خاصّة؛ انظر [البقرة–١٩٩] ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مُركبةٌ تفيدُ التحديد والتخصيص ﴿بَغْيُكُمْ﴾: ظلمكم للنّاس ﴿عَلَى﴾: حرف يفيد الظرف، أي مردوده وتأثيره على ﴿أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ﴾: ولأنفسكم راجعٌ، ما تتمتعون به من ملذات ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: مكسبٌ دنيويٌ زائلٌ؛ والنتيجة ﴿ثُمَّ﴾: تُفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿إِلَيْنَا﴾: إلى الله ﷻ بالموت ثم البعث يوم القيامة ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مصيرُكم ومآلُكم إلى الله ﷻ ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: يخبركم بأعمالكم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾: ما عملتم من خيرٍ أو شرٍ.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مركبةٍ تُفيد التحديد والتخصيص ﴿مَثَلُ﴾: تشبيه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وما تتفاخرون به فيها من زينةٍ وأموالٍ، هذه الرواية من الأمثال الطبيعية للتشبيه، نسبة، ونسبة إليه، إنّ كل زينة الإنسان في الحياة على الأرض مثلها ﴿كَـ﴾: حال ومثل ﴿مَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ﴾: حرف يفيد الغاية المكانية ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ كونها كرويّة الشكل ﴿فَـ﴾: بسبب هذا ﴿اخْتَلَطَ﴾: امتزج ﴿بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: في زينته، وسرعة نموه، وسرعة زواله ﴿مِمَّا﴾: حرفٌ يفيد بعض أو جزء ﴿يَأْكُلُ النَّاسُ﴾: الثمار التي يأكلها الإنسان ﴿وَ﴾: أيضًا ما تأكله ﴿الْأَنْعَامُ﴾: من الجذوع، والورق، والثمار التي يأكلها الحيوان ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: وهذه من الاستعارة المكنية؛ تشبيه اللهُ ﷻ الأرض حين تنبت وتزهر بالعروس المُزيّنة بالحلّي، والثياب الجميلة، في زينتها، ونضارتها من الألوان الجميلة، والأشكال البديعة، والطعم الشهي ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾: أيضاً تجملت بالزهور، ونضرة الثمار، واختلاف الأشكال ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿ظَنَّ﴾: تأكّد ﴿أَهْلُهَا﴾: الذين زرعوها ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾: جاهزون لحصادها، وجمع ثمارها ﴿أَتَاهَا﴾: جاءها، أصابها

﴿أَمْرُنَا﴾: قضاؤنا، بعثنا عليها كلَّ ما يُدمّرُ الثمرَ من صواعقَ، أو رياحٍ، أو ثلوجٍ، وكلِّ ما يتلف الزرع ﴿لَيْلًا﴾: في الليل ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التخيير أو التسوية ﴿نَهَارًا﴾: جاء اللفظ "**أو**" هنا؛ للتحديد وليس للاختيار؛ مثل إمّا ظلام تام أو ضياء تام، وليس هذا المقصود؛ إنّما تأتي الساعة في الليل في مكانٍ، ويوجد نهارٌ في مكانٍ آخرَ، وهذا ما يعلمه كل إنسان اليوم، ويمكن مشاهدته في وسائل الإعلام؛ وهذا بسبب كروية الأرض ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: قدّرناها أنْ تكون ﴿حَصِيدًا﴾: صارت جافّةً يابسةً بعد الخُضرة كالمحصودة بالمناجل ﴿كَأَنْ﴾: حرف يفيد التقريب تقريبًا ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَغْنَ﴾: تمكث، تُثمرُ ﴿بِالْأَمْسِ﴾: حرف باء الظرفيّة، في اليوم الذي مضى ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا، أيضًا ﴿نُفَصِّلُ﴾: نوضحُ بالتفصيل ﴿الْآيَاتِ﴾: يُبيّن الله ﷻ الأدلّة، والحُجج الدالّةَ على الحقيقة ﴿لِقَوْمٍ﴾: مجموعةٍ من النّاس من أصلٍ واحدٍ أو عقيدةٍ واحدةٍ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: يتعظون.

التكليف: إنّ من النّاس من يصل إلى مراتب عالية جدًا، ويجبي ثروات طائلة، ويُحقق نفوذًا كبيرًا، ويتمتع بصحةٍ وعافية، ولا يظن أنّ هذا يمكن أنْ يزول؛ فقد غرّته الحياة الدنيا، ولو نظر إلى النبات حوله لأدرك الحقيقة.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، حيث بيّن الله ﷻ قيم الحياة الدنيا وتغيرها وزوالها؛ رغّبهم ﷻ في الدار الآخرة، والجنّة، فإنّ ﴿اللَّهُ يَدْعُو﴾: يأمر الله ﷻ، ويرغّب النّاس في ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾: جاء اللفظ القرآني "**السلام**" على خمسة وجوه، هنا بمعنى جنّة الله ﷻ انظر [المائدة-١٦] ﴿وَيَهْدِي﴾: يقودُ ويدلُّ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: من النّاس ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾: طريقٍ، منهجٍ، أسلوبٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: هو اتباع دين الله الحق؛ لأنّه أقصر الوسائل للوصول إلى الغاية، من الحياة الدنيا، والفوز بالجنّة في الآخرة.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

﴿لِ﴾: حرف اللام للتخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: حرف اللام للتخصيص، اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَّن ﴿أَحْسَنُوا﴾: هم الذين أخلصوا دينهم في الدنيا بالإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿الْحُسْنَى﴾: تعني هنا فضلُ الله ﷻ في منزلة الآخرة، وهي الجنّة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: أيضًا أكثرُ من جزاءِ عملهم، وهو تفضلٌ من الله ﷻ، وأعظمُ الزيادة هي النظر إلى وجهِ الله ﷻ الكريم ﴿ وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْهَقُ﴾: يتعب ينهك ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾:

غُبارٌ لا يغشى وجوه المؤمنين السوادُ والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: ولا يغشاها هوانٌ، وصغارٌ، وخزي ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: أهل وسكان ﴿الْجَنَّةِ﴾: المقيمون فيها أبدًا؛ أي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مُقيمون أبدًا.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَسَبُوا﴾: ولأن الكسب يكون بفعل اليد دلالة على أنّهم اقترفوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: بأيديهم وأفعالهم، وأكثرها جُرمًا جريمة الشرك بالله ﷻ، فلا يحاسب الله ﷻ أحدًا بمجرد الظنّ، هؤلاء عكس الذين أحسنوا ﴿جَزَاءُ﴾: عقاب ﴿سَيِّئَةٍ﴾: شرٍ وضرر ﴿بِمِثْلِهَا﴾: بقدرها وقيمتها لا زيادة عليها، جزاءً وفاقًا ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾: أيضًا تتعبهم وتعلو وجوههم، وتعتريهم ﴿ذِلَّةٌ﴾: صَغَارٌ، وتحقيرٌ، وهوانٌ، وخزيٌ، وخوفٌ دائمٌ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا وتمليكا ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الكليّة ﴿اللَّهِ مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع ﴿عَاصِمٍ﴾: لا مانع، ولا راد، ولا ودافع من عذاب الله ﷻ، لا يعصمهم أحدٌ كائنًا من كان من سخط الله ﷻ وعذابه ﴿كَأَنَّمَا﴾: كمثلِ الذين ﴿أُغْشِيَتْ﴾: كست وغطّت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾: سوادٌ شديدٌ، وغبرةٌ ليس السواد سواد البشرة؛ لشدّة ما يغشاها من دخان النّار وسوادها ﴿قِطَعًا﴾: فترات ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾: إنّه سوادُ الذلّةِ، وما كان عن القهر، والخوفِ، حيث تتقلص الأوعية الدموية في الوجه من الخوف والتوتر، وتظهر حالةٌ من الشحوب؛ بسبب هرمون الخوف المعروف الأدرينالين فتسوّد وجوهُ البشر في الدنيا ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون الدائمون في ﴿النَّارِ﴾: جهنّم ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿فِيهَا﴾: في النّار ﴿خَالِدُونَ﴾: دائمون فيها أبدًا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يَوْمَ﴾: يوم القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: جمعُ ازدحامٍ شديدٍ يكونُ أهلُ الأرض جميعًا في ضيقٍ شديدٍ، من إنسٍ وجنٍ، مؤمنٍ وكافرٍ والعابد والمعبود، أي الخلق جميعًا للحساب والجزاء ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع الزمني غير

السريع ﴿نَقُولُ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿أَشْرَكُوا﴾: يقول الله ﷻ لأصحاب الكفر، والشرك، والنفاق: ﴿مَكَانَكُمْ﴾: الزموا وابقوا في المكان الذي تحدّد لكم، بعيدًا عن مكان المؤمنين ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾: أيضًا تُحشرون مع من زيّنوا لكم كفرَكم، سيُشاركُكم جزاءكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ﷻ حتى تنظروا ماذا يُفعل بكم ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب والتتابع السريع في التحقيق ﴿زَيَّلْنَا﴾: فرّقنا بين المشركين وما عبدوا؛ وتبرأ من عُبدوا من دون الله ﷻ ممن كانوا يعبدونهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾: يتم تفريق المؤمنين عن الكاذبين، يومئذ يصدّعون: ليصيروا صدعين أي جماعتين ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا﴾: حرف نفي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿إِيَّانَا﴾: نحن ﴿تَعْبُدُونَ﴾: تطيعون، هنا تخلى القادةُ يوم القيامة عمّن اتبعهم في الحياة الدنيا.

التكليف: هذا نمطُ شركاءِ السوء في الدنيا، وأمّا في الآخرة تخلوا منهم، وقالوا ما كنتم تُطيعوننا ولكن اتبعتم أهواءكم، وهذا ما تشهد عليه حوادث الدنيا؛ فإنّ الذين تعاونوا مع أعداء الأمّة وواجهوا الشعب؛ تبرؤوا منهم.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩)

هذه شهادة المعبودين من دون الله ﷻ الذي أضلّوا النّاس في الدنيا، وحالةُ الآخرة تشهد تبرأهم من التابعين من دون الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد الاستئناف ﴿كَفَى بِ﴾: باء الصلة ﴿اللَّهِ شَهِيدًا﴾: نقبل بشهادة الله ﷻ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: يشهد الله ﷻ أننّا لم نرض عن عبادتكم لنا ﴿إِنْ﴾: بمعنى ما ﴿كُنَّا﴾: في الحياة الدنيا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ بمعنى من ﴿عِبَادَتِكُمْ﴾: طاعتكم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿غَافِلِينَ﴾: يقول المتبوع في الدنيا للتابع يكفينا نحن أنَّ الله ﷻ يشهد أننا ما أمرناكم بعبادتنا، أو رضينا ذلك منكم، نحن لم نكن نعرف في الحياة الدنيا أنّكم كنتم تتبعونا، نحن لم نأمركم.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٠)

﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المشهد والموقف العظيم يوم القيامة للحساب ﴿تَبْلُواْ﴾: تذوق كلُّ نفسٍ، وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل، وتتفقد كلُّ نفسٍ أحوالها وأعمالها التي سلفت، وتُجازى عليها ﴿كُلُّ﴾: تفيد العموم ﴿نَفْسٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة؛ لتؤكد عموم النفوس، أي ذوات وجوهر البشر ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَسْلَفَتْ﴾: ما عملت من خيرٍ أو شرٍ في حياتها الدنيا، فيُنبأ الإنسان ما قدّم وما أخّر ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿رُدُّوا﴾: يرجع الذين أشركوا

بربّهم جميعًا، التابع والمتبوع، ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾: جاء في القرآن أنّ الكافرين لا مولى لهم، لكنه أخبر ﷻ هنا أنّ الله رازقهم ومنعمٌ عليهم بكل النعم في الأرض، وهو ليس مولاهم في النصرة على المؤمنين، ﴿الْحَقِّ﴾: إلى الله ﷻ العدل ﴿وَضَلَّ﴾: تاه، وغاب، وذهب ﴿عَنْهُمْ﴾: حرفٌ يفيد البعد وانتهاء الغاية، تاه ما فعلوه من المجاوزة في ﴿مَا كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون، إنّ أسوأ الافتراء هو العبادة من دون الله ﷻ، طاعتهم وإتباعهم. اليوم تشهد حياة الإنسان والجماعة والحكومات والأمم على هذه الظاهرة في الدنيا بصورة مصغّرة، إذا سقط المجرم؛ هرب عنه كلُّ من حرّضه، وساعده، وزيّن له.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١)

﴿قُلْ﴾: هذه دعوةٌ ربّانيةٌ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول للمشركين أنْ ينظروا بتعقلٍ في فضل الله ﷻ عليهم، في قضايا لا يقدر عليها أحدٌ من خلق الله ﷻ ﴿مَنْ﴾: حرف استفسار عن العاقل ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانية ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها، مَنْ يرسل الماء؛ الغيث، والمطر؟ والإجابة: لا أحد سوى الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا من يرزقكم مِنَ ﴿الْأَرْضِ﴾: بما يُنبته فيها، من يشق الأرض، ويُخرج الشجر والزرع، ويلهمهُ رشده، فالجذر ينزل إلى باطن الأرض، وترتفعُ السوقُ إلى أعلى، ويُخرج من الأكمام الزهر والحبوب، والفواكه، والثمار، والإجابة: لا أحد إلّا الله ﷻ ﴿أَمَّنْ﴾: أي من الذي ﴿يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾: وهب الإنسان السمع الذي هو ذبذبات هواء؛ تطرق غشاء الأذن، تحدثُ اهتزازات؛ تتحول إلى موجاتٍ كهربيّة في أعصاب السمع، وتصلُ المخ؛ فيُترجمها إلى كلماتٍ ومعانٍ ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾: أيضًا من الذي يُحوّل هذه الصور التي تقع على شبكية العين؛ وتصير موجات كهربية، تسير في عصب البصر، وتصل إلى مركز الإبصار، فيُعرّفَ كلَّ شيءٍ، لتكون رؤية واضحة ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية المكانية ﴿الْمَيِّتِ﴾: لقد خلق الله ﷻ آدم الحي من التراب الميت، وأخرج النبات الحي من الطين ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: خروج البذور الساكنة من الحي وهي الأشجار ﴿وَمَنْ﴾: حرفُ استفهامٍ عن العاقل ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: من يحكم بقدرته هذا الملكوت العظيم في الأرض، والكواكب، والسماء بكلّ ما عليها من تفاصيل الزرع، والحجر، والإنسان، والحيوان، والطير، والجانّ، وغيرها ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿سَ﴾: حرف توكيد القولِ في المستقبل ﴿يَقُولُونَ اللَّهُ﴾: يعترفون بكلّ هذا؛ لأنّهم لا يملكون إجابات للتهرب من طلب البرهان على كذبهم ﴿فَقُلْ أَفَلَا﴾: حرفُ استفهامٍ خرج عن

معناه الحقيقي لإفادة معنى آخر وهو الأمر إلى ﴿تَتَّقُونَ﴾: إذا اعترفتم بأنّه الله ﷻ، فلم لا تؤمنون به حق إيمان؛ ترجون رحمته، وتتقون عذابه؟ سؤالُ توبيخٍ واستنكارٍ لصنيع هؤلاء الكُفّار الذين لا يحتاجون إلى أدلّة، بل هم في كبرٍ وعناد.

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢)

﴿فَذَلِكُمُ﴾: اسم إشارة للبعيد، ﷻ الفاعلُ وحدهُ لا شريك له، صانعُ ذلك الصنع العجيب، المثال المذكور للتكريم والتعظيم، اسم إشارة للبعيد ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾: هو مالك أمركم كلّه ﴿الْحَقُّ﴾: الثابتة ربوبيته، لا ريب فيه، المستحق بالطاعة وحده لا شريك له، مالك أمر الكون كلّه، وقد اعترفتم أيها النّاس بأنّ الله ﷻ هو خالقكم، ومالككم، ورازقكم فلماذا تعبدون غيره؟ وتطيعون سواه؟ ﴿فَمَاذَا﴾: أداةُ استفهام إنكاري ﴿بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الضَّلَالُ﴾: إنّ البديل عن الحق هو التيهُ والضياعُ والتشتت الذي لا يُحقق غاية ﴿فَأَنَّى﴾: كيف ولأيّ سبب؟ ﴿تُصْرَفُونَ﴾: تعدلون عن الحق، بعد هذه الأدلّة وبعد اعترافكم، لماذا لا تعبدونه؟ لماذا تنصرفون إلى طاعة غيره؟ سؤالٌ لا يجيبون عليه؛ إنّهُ غوايةُ الشيطان لعنهُ الله ﷻ.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

﴿كَذَلِكَ﴾: هكذا ﴿حَقَّتْ﴾: وجبت وثبتت ﴿كَلِمَةُ﴾: الربوبية الصادقة، وقع عليهم قدرُ اللهِ ﷻ ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرك كلّه، حقًا وعدلًا، لا ظلم ولا جور، إنّهم أهل الشقاء والعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿فَسَقُوا﴾: الذين خرجوا عن أوامر الله ﷻ، وعن طاعته، إلى معصيته، وكفروا به ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد يُفيد نفي الإنكار ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: شهادةً من اللهِ ﷻ على كفرهم، وإنْ اعترفوا بفضله ﷻ بالخلقِ والرزق.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤)

﴿قُلْ﴾: يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ والمؤمنين من بعده أنْ يسألوا الكفّار ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفسارٍ وتشكيكٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾: هل يوجد من آلهتكم المزعومة وما تعبدون، يأتي الاستفهامُ هنا للتوبيخُ والتقرير فإن أجابوك فبها وإلّا فقل اللهُ يبدأ الخلق ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: من بدأ خلق هذا الكون ومن وما فيه من غير أصل؟ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني غير السريع ﴿يُعِيدُهُ﴾: وهل يوجد من يُعيد إنشاءه بعد أنْ يُفنيهِ اللهُ ﷻ؛ سؤال تعجيز؛ لأنّه لا يوجد أحدٌ ممن يعبدون ولا من غيرهم ما يفعل ذلك ﴿قُلِ﴾: يا محمد ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: الله ﷻ

هو الذي يُنشئ الخلق ثم يعيده، ﷻ وحده وهذا قد حدث، لقد بدأ الله ﷻ الخلق، وهو وحده ﷻ القادر على أنْ يزيله، وقادرٌ على أنْ يعيده ﴿فَأَنَّى﴾:: كيف ولأيّ سبب؟ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: إلى أين تصرفون وجوهكم عن طريق الرشاد والهدى؛ وتذهبون إلى الباطل والكذب.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٥)

﴿قُلْ﴾: سلهم يا محمد ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ للاستفسارِ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿شُرَكَائِكُمْ مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَهْدِي﴾: يقود ويدلُّ ويُرشد ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾: هل يوجد فيمن تشركون من يستطيع أنْ يهدي ضالًّا، ويرشد الحيارى، ويُصحح الضلال، ويزيلُ الغيّ، ويثبت القلوب المتقلبة؟ والإجابة: لا أحد غير الله ﷻ ﴿قُلِ﴾: أمرٌ ربّانيّ إنّ ﴿اللَّهُ يَهْدِي ﴿لِلْحَقِّ﴾: يأمر الله ﷻ نبيّه ﷺ الذي يأمر أتباعه المسلمين أنْ يقولوا: إنْ الله ﷻ وحده يحقق هذه الغايات؛ يأخذهم من الغيّ إلى الرشاد ﴿أَفَمَنْ﴾: هل يستوي الذي ﴿يَهْدِي﴾: يقود ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾: العبادة الصادقة ﴿أَحَقُّ﴾: أوْلَى ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُتَّبَعَ﴾: يكون قائدًا ﴿أَمَّنْ﴾: أم الذي ﴿لَا يَهِدِّي﴾: لا يهتدي بنفسه؟ من أحق بالاتباع؟ الذي يهدي؟ أم الذي لا يهتدي من تلقاء نفسه ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ يُهْدَى﴾: الذي يحتاج إلى منْ يهديه بعد ضلالٍ، ويبصّرهُ بعد عميٍ ويُسمعهُ بعد صممٍ ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطف يفيد خبرًا ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿كَيْفَ﴾: سؤال استنكاري ﴿تَحْكُمُونَ﴾: سؤالٌ بغرض التوبيخ لهؤلاء الجهلة، الذين يفعلون ما يؤكد سفههم؛ إذ يسوون بين الله ﷻ وأحدٍ من خلقه؛ والذين ضلّوا عن العدل والحق.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَّبِعُ﴾: ينقاد ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: لا يتبع أكثرُ الكفّار ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿ظَنًّا﴾: يتبع أكثر الكفّار تخيلًا، ووهمًا، وشكًّا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الظَّنَّ﴾: عدم اليقين ﴿لَا يُغْنِي﴾: يكون بديلًا ناجعًا ﴿مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: لا يفيد البناء على التخيل والوهم، بل البناء على الحقائق التي قامت على العلم الصحيح ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: يُؤكدُ اللهُ ﷻ أنّهُ يُسجّل ما يعملون، وتأتي هذه الكلمات تهديدًا، ووعيدًا من الله ﷻ لهم، أنّ اللهَ يعلمُ ما يقولون، وما يفعلون؛ وسيُحاسبهم عليه جزاءً وفاقًا.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

عن الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ بِشْرًا لَقِيَ مَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ أَهُوَ اللَّهُ؟ أَمْ غَيْرُ اللَّهِ؟ أَمْ دُونَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ ﷻ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: هُوَ اللَّهُ، وَلَا يُقَالُ: هُوَ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَا هُوَ دُونَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُهُ، وَقَوْلُهُ: **﴿وما كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [يونس-٣٧] أَيْ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ، فَرَضِينَا حَيْثُ رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَاخْتَرْنَا لَهُ مِنْ حَيْثُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، فَقُلْنَا: كَلَامُ اللَّهِ ﷻ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، فَمَنْ سَمَّى الْقُرْآنَ بِالِاسْمِ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ بِهِ كَانَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَمَنْ سَمَّاهُ بِاسْمٍ مِنْ عِنْدِهِ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، فَانْهَ عَنْ هَذَا **﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف-١٨٠] فَإِنْ تَأْبَى كُنْتَ مِنَ الَّذِينَ **﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [البقرة-٧٥][1]، **﴿وَمَا﴾**: حرف نفي **﴿كَانَ﴾**: لا يمكن، ولا يصح، ولا يجب أنْ يكون **﴿هَذَا﴾**: حرفُ إشارةٍ وتنبيه **﴿الْقُرْآنُ أَنْ﴾**: تأكيد الفعل **﴿يُفْتَرَى﴾**: أنْ يأتي أحدٌ من البشر، أو من خلق الله ﷻ بمثله، أو بسورة منه **﴿مِنْ دُونِ﴾**: غير **﴿اللَّهِ﴾**: من مصدرٍ غير الله ﷻ، فصاحةً، وبلاغةً، وإيجازًا، وحلاوةً، ومنافع وحقائق علمية مُذهلةً لكلّ عالمٍ وفي كلّ عصرٍ فهو كلامُ الله ﷻ؛ فإنّه لا يقدر على مثله إلّا الله ﷻ **﴿وَلَكِنْ﴾**: أيضًا استدراكًا **﴿تَصْدِيقَ﴾**: تحقيق صواب **﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾**: يُصدّق الأحكام التي نزلت قبله من الكتب، ومهيمنًا عليها، خاصةً بعد التأويل الذي حدث فيها، والتي بشّرت به قبل نزوله **﴿وَتَفْصِيلَ﴾**: فجاء أيضًا مُصدقًا لها، بشرحٍ وتوضيحٍ غير مختصر **﴿الْكِتَابِ﴾**: شرح الأحكام شرحًا وافيًا، وشرح المقاصد السامية، فيه خبر السابقين، ونبأ اللاحقين، وحكم ما بين المسلمين **﴿لَا﴾**: حرف نفي **﴿رَيْبَ﴾**: شكّ **﴿فِيهِ مِنْ﴾**: حرفٌ يُفيد بداية الغاية، أي المصدر **﴿رَبِّ﴾**: فهو ﷻ مالك أمر الكون كلّه، يشهد بذلك أصحاب الألباب **﴿الْعَالَمِينَ﴾**: عالم الأرض والسماوات وكلّ الخلق.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

﴿أَمْ﴾: جاءت هنا للإنكار، بمعنى أيقولون؟ **﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾**: ادعى الكفّارُ أنّ القرآن هو افتراء محمد ﷺ على الله من عند نفسه **﴿قُلْ﴾**: أخبر يا محمد **﴿فَأْتُوا﴾**: هاتوا أحضروا لي

[1] الأسماء والصفات للبيهقي ٦٢١/١(٥٦٧).

﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾: قل لهم يا محمد، وكلّ أتباعه: إذا كان القرآن جاء من بشر، وهو محمد؛ فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله؛ في نظمه وهدايته، فأنتم بشر مثله ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿ادْعُوا﴾: استعينوا على ذلك ب ﴿مَنِ﴾: الذين من جنس العاقل ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾: استعينوا بكلّ من تستطيعون من البشر؛ ليساعدوكم في تحقيق غايتكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير، كل من قدرتم عليه من دون ﴿اللَّهِ إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: حتى يتبين كذبكم، ويظهر افتراؤكم، ولن تستطيعوا، وسيكون ردُّهم التكذيب.

التكليف: جاء الأمرُ هنا لتحقيق اليأس؛ وهو طلبُ ما ليس بمقدور المُخاطَب فعله؛ إظهارًا لعجزه.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)

﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿كَذَّبُوا﴾: سارعوا في التكذيب فأنكروا صدق ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، هنا بمعنى الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُحِيطُوا﴾: يدركوا أو يفهموا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿عِلْمِهِ﴾: كذبوا بالقرآن؛ لأنّهم لم يفهموا، ولم يعرفوا معانيه؛ ولا ذكر ما فيه من البعث والجنّة والنّار، وغير ذلك، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ[1] ﴿وَلَمَّا﴾: اسم يفيد التأكيد ﴿يَأْتِهِمْ﴾: يصل إليهم ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: تتبين لهم حقيقته؛ معانيه، وعاقبته، ومآله، لم يأخذوا منه فوائده، ولم يهتدوا بهديه، ولم يُطبّقوه على الأرض واقعًا، حتى يروا من القرآن تحقيقًا على الواقع ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا ﴿كَذَّبَ﴾: أنكر ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ﴾: الأمم السابقة، من قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودٍ، وغيرهم، أيضًا كذبت طائفة من أُمّةِ محمد ﷺ الكافرون منهم ﴿فَ﴾: لهذا السبب وبدون تأخير ﴿انْظُرْ﴾: أدرس وتأمل يا محمد ﷺ ومن معك ﴿كَيْفَ كَانَ﴾: ماذا كان ﴿عَاقِبَةُ﴾: خاتمة ونهاية ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم، وظلموا غيرهم بغيّهم، وعنادهم، وادرس ما في القرآن من قصص الأمم التي كذّبت رسلها فكيف زالت؟ فقد أهلك اللهُ ﷻ بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بغير ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)

---

[1] سنن الترمذي /٥/١٧٢(٢٩٠٦). وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الحَارِثِ مَقَالٌ. والحديث ضعفه الألباني وغيره.

﴿وَمِنْهُمْ﴾: أيضًا جزءٌ أو بعضُ الذين بعث الله ﷻ فيهم محمدًا ﷺ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُؤْمِنُ﴾: يصدق ﴿بِهِ﴾: من آمن بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ﴾: أيضًا بعض ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُ﴾: يصدّق ﴿بِهِ﴾: وممن حول محمد ﷺ من لم يؤمن بالقرآن، وبالتالي لا يؤمن به رسولًا، وسيموتون على هذه الحال ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿رَبُّكَ﴾: هو ﷻ المُعبود، والمُربي، والسيدُ، وهو المربي إلى حدِّ التمام، فهو مالك أمرك كلّه ﴿أَعْلَمُ﴾: صاحب العلم المطلق ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: يقول الله ﷻ تكريمًا لنبيه ﷺ، وربُّك أي خالقُك، صاحبُ العلمِ الكاملِ؛ الذي يعرف أعمالهم، وأقوالهم، ويسجّلها عليهم؛ ويحاسبهم عليها، فهذا تهديدٌ للذين خلطوا الأمور؛ ففسدت، قال الطبري رحمه الله ﷻ: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمِنْ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ سَوْفَ يُؤْمِنُ بِهِ، يَقُولُ: مَنْ سَوْفَ يُصَدِّقُ بِالْقُرْآنِ، وَيَقِرُّ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. {وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ} أبدًا، يَقُولُ: وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُصَدِّقُ بِهِ، وَلاَ يَقِرُّ أَبَدًا. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يَقُولُ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْهُمْ، الَّذِينَ لاَ يُصَدِّقُونَ بِهِ أَبَدًا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ وَرَاءِ عِقَابِهِ. فَأَمَّا مَنْ كَتَبْتُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ مِنْهُمْ فَإِنِّي سَأَتُوبُ عَلَيْهِ.[1].

التكليف: لا زالت البشرية تعيش هذه الحالة، إيمانًا يُصلح كلّ شيءٍ، في السياسة، والاقتصاد، والعلوم، والصحة، والتقدم، وفسادًا يُتلف كلّ شيء؛ وخاصّة فسادَ الحُكام، فالإصلاح والفساد وحداتٌ مُتصارعة.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤١)

﴿وَإِنْ﴾: أداة شرط ﴿ كَذَّبُوكَ﴾: إذا رفض المشركون تصديقك ورفضوا دعوتك لهم يا محمد ﷺ بالإيمان بالله ﷻ، وبالرسالة، وبالقرآن ﴿فَ﴾: بسبب هذا ﴿قُلْ﴾: بوضوح ﴿لِي﴾: ما يخصّني ﴿عَمَلِي﴾: لي جزاءُ عملي في الدنيا، وفي الآخرة ﴿وَلَكُمْ﴾: أيضًا ما يخصكم مِنْ ﴿عَمَلُكُمْ﴾: لكم جزاء عملكم في الدنيا وفي الآخرة ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ﴾: لا تتحملون نتائج أخطائي ولا تُؤاخذون ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء من الذي ﴿أَعْمَلُ﴾: لن ينالكم ثواب وجزاء عملي الحسن ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنَا بَرِيءٌ﴾: لا أتحمل نتائج أخطائكم، ولا أُؤاخذُ ﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾: وأنا بريء من كفركم وفسادكم، وبريء من عقابكم، في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢)

---

[1] تفسير الطبري /١٥/٩٤.

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مِنْهُمْ﴾: من الكفّار، بعضُ الذين يُنكرون نبوة محمد ﷺ وينكرون القرآن، كتاب الله ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: لم يقل الله ﷻ يسمعون إليك، لأنهم لا يسمعون الحقيقة فيقبلونها ويعملون بما يسمعون، والهدف ليس السمع في ذاته؛ ولكن العمل على تنفيذ ما سمعوا، ولذلك توصف به البهائم. هؤلاء الكافرون ينصتون لما تقول، ولا يعقلون، ومنهم يرفض الاستماع إليك ﴿أَ﴾ حرفُ استفهام؛ بغرض الإنكار التوبيخي ﴿فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: حرف الفاء حرفٌ استئنائي، بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ؛ سؤالٌ يُؤكدُ أنّ الذي يستمع منهم كالأصم الذي لم يسمع، ولا يدركُ عقلهُ المعنى، ولا يطرق باب قلبه الإيمان ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا﴾: حرفُ نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: من الحقائق أنّ حواس الإنسان: السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق تُرسلُ إشاراتها الكهربية إلى أجزاءٍ محددةٍ في المخ؛ فيترجمها؛ فيفهم صاحبها نتائجها، فأمّا الذي لا يسمع ولا يعرف، والذي يسمع فلا يعقل؛ فهو كالأصم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣)

﴿وَمِنْهُمْ﴾: بعض ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾: يعاين دلائل نبوّتك الصادقة، إنّه يراك، ولكنّه لا يُدرك حقيقتك، كنبيّ ورسول؛ ولا ما آتاك الله ﷻ من نور الإيمان؛ هؤلاء لهم أعينٌ يُبصرون بها، ولكنّهم لا يفهمون الحقيقة ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الإنكار ﴿فَ﴾: حرفُ سبب استئنافي بهدف ترتيب الأمر، ويفيد هنا سرعة التنفيذ والعجلة في القول ﴿أَنْتَ تَهْدِي﴾: تدلّهم على الحقِّ رغمًا عنهم؛ فيهتدي ﴿الْعُمْيَ﴾: هؤلاء الذين يُبصرون ولا يدركون، هم كالعُمى الذين لم يُبصروا، ولم يُدركوا، ولم تصلْ إليهم الهدايةُ كما حصَلت للذين أبصروا من المؤمنين، الذين يوقرونك، ويحبونك، ويطيعونك ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا﴾: حرف نفي ﴿يُبْصِرُونَ﴾: جاء اللفظ **البصر** هنا؛ بمعنى بصيرة القلب. انظر [الأعراف-١٩٨] هؤلاء الذين ينظرون ولا يؤمنون، حالُهم كحالِ الأعمى هؤلاء الكفّار الذي غطّوا الحقيقة كفروها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: نفي ﴿يَظْلِمُ﴾: هذه حقيقة الذي خلق، ورزق، ووهب، وكرّم الإنسان وخلق له ما في الأرض جميعًا من ﴿النَّاسَ﴾: هي كلمةٌ جامعةٌ لجنس البشر، تشمل المؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق ﴿شَيْئًا﴾: بزيادةٍ في سيئاتهم، أو نقصٍ في حسناتهم ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكِ ﴿النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ﴾: في حقيقة جوهرهم

﴿يَظْلِمُونَ﴾: يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية وعدم الخوف من الله ﷻ، فمن النّاس من يكفر الحقيقة، يغطيها فيضل؛ فيخسر ثواب الدنيا وثواب الآخرة؛ فيورد نفسه النّار، وهذا ظلم الكافر لنفسه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَوْمَ﴾: القيامة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: يُذكّرُ اللهُ ﷻ بيوم القيامة؛ يوم يجمع الله ﷻ النّاس جميعًا، حشرًا، متزاحمين، متلاصقين ﴿كَأَنْ﴾: حرفٌ يفيد التقريب للفكرة ﴿لَمْ﴾: نفي ﴿يَلْبَثُوا﴾: كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلّا ساعة من النّهار كانت قبلكم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿سَاعَةً﴾: قدر ساعة، والنهار (٢٤) ساعة في حسابنا اليوم على الأرض ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد ﴿النَّهَارِ﴾: يومها سيرى الخلق أعمارهم، وإنْ طالت، كأنّها ساعة من نصف يوم، وهو النّهار؛ ليخبر الله ﷻ النّاس أنّ أعمارهم قصيرة في الحياة الدنيا، مقارنةً بالآخرة ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾: ليعرف بعضُهم بعضًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾: يعرف الابن أباه والقرابة كما كانوا يعرفون بعضهم في الدنيا، ولكنْ الكلُّ مشغولٌ بنفسه ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿خَسِرَ﴾: ولم يفز ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿لِقَاءِ اللَّهِ﴾: الرجعة إليه يوم القيامة ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿مُهْتَدِينَ﴾: خسر المكذّبون أنفسهم يوم القيامة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

﴿وَإِمَّا﴾: حرفُ ربطٍ بمعنى إذا ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: جاءت بصيغة التأكيد والجمع؛ للتشديد والتعظيم، أي نجعلك يا محمد تشاهد وتحضر ﴿بَعْضَ﴾: جزءًا من ﴿الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾: وعيدنا لهم؛ عندما ننتقم منهم في حياتك، لتقر به عينُك ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد هنا التسوية بين متعاطفين الأول هو الوعد والثاني ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أو يكون نصيبهم من العذاب بعد موت محمد ﷺ ﴿فَإِلَيْنَا﴾: لهذا السبب إلى الله ﷻ ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾: مصيرهم ورجعتهم؛ للحساب، والعقاب سريعة عند الله ﷻ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني غير السريع؛ إنّ ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾: يعلمُ علم المُشاهد، السميع المُطلع ﴿عَلَى مَا﴾: الذي ﴿يَفْعَلُونَ﴾: سجّل الله ﷻ عليهم أعمالهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿كُلِّ﴾: تُفيد جميع ﴿أُمَّةٍ﴾: جماعةٍ خلت قبلكم أيها الناس، من أصولٍ واحدةٍ، يعيشون في حقبة متواصلة ﴿رَسُولٌ﴾: نبيٌّ مرسلٌ من الله ﷻ إليهم ليهديهم ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب والسرعة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾: إذا قامت القيامة، وجيء بالرسل والنبيين؛ ليشهد الذين حضروه والذين جاؤوا من بعد ﴿قُضِيَ﴾: تم الحساب والعقاب ﴿بَيْنَهُمْ بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْقِسْطِ﴾: الحكم بالعدل ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: إنّ الحكم يتم في حضور رسولهم، وكتابُ أعمالهم شاهدٌ، والملائكةُ الحفظةُ عليهم يشهدون، وستكونُ أُمّةُ محمدٍ ﷺ أوّل الأمم يوم القيامة؛ فيفصل الله ﷻ بينهم؛ تشريفًا لها بشرف رسولهم ﷺ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَقُولُونَ﴾: هم الكفّار والمشركون من قومك يا محمد ﷺ ﴿مَتَى﴾: استفسار عن الزمن ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمذكر الفرد ﴿الْوَعْدُ﴾: متى قيام الساعة؟ إمعانًا في التحدي والكفر؛ استعجالًا للعذاب الذي لا يصدقون وقوعه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ﴾: بمعنى أنّنا نشك في أنّك ومن معك ﴿صَادِقِينَ﴾: إنّهم يكذّبون الرسول ﷺ ويكذّبون المؤمنين وجاء في المعنى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى-١٨].

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿أَمْلِكُ﴾: ليس بمقدوري ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَفْسِي ضَرًّا﴾: أنْ أدفع ضررًا عن جسدي وذاتي، قدّم الله ﷻ هنا الضر على النفع لإظهار العجز عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه ﴿وَلَا﴾: أيضًا أنفي، لا أملك ﴿نَفْعًا﴾: ولا أجلب نفعًا إلّا بأمر الله ﷻ رسوله ﷺ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: الذي ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾: أراد وقضى: إنّ النفع والضرر بإذن الله ﷻ؛ فلا أقول إلّا ما علّمني، ولا أملك من شيء لم يهبني إيّاه ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿كُلِّ﴾: الجميع ﴿أُمَّةٍ﴾. جماعةٍ أو قومٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ من النّاس من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿أَجَلٌ﴾: لكلِّ زمنٌ وعمرٌ مقدّر عند الله ﷻ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَ﴾: حلّ ووجب بحسب تقدير الله ﷻ ﴿أَجَلُهُمْ﴾: إذا انقضى وقت أجلهم، وجاء فناء أعمارهم عمرهم، وحقّ هلاكُهم بمشيئة الله ﷻ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد عدم

الفعل، هنا نهى عن ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾: يُؤجلون ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: لا تُؤخرُ ساعتُهم ولا تُقدّم، حتى وإنْ رغبوا في ذلك.

التكليف: تميزت هذه الآية الكريمة بمنهج الطباق في: ضرًّا ولا نفعًا، وبياتًا أو نهارًا، يحي ويميت، يستأخرون ويستقدمون؛ هذه المقارنة توضح الفروق.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني لمحمدٍ وأتباعه أنْ يقول ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ماذا يكون حالكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَتَاكُمْ﴾: حلّ ونزل ﴿عَذَابُه﴾: جاءكم عذابُ الله ﷻ وغضبُه ﴿بَيَاتًا﴾: وأنتم نائمون في الليل ﴿أَوْ﴾: حرف عطفٍ يُفيدُ التسوية بين مجيء قدر الله ﷻ في الليل أو جاء ﴿نَهَارًا﴾: وأنتم مُتيقظون ﴿مَاذَا﴾: حرف استفهام ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾: أيُّ شيءٍ يُطلب على عجل ﴿مِنْهُ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: الكافرون، ماذا يريدون من الاستعجال؟ إنّه غضب الله وعذابه الأليم.

التكليف: جاء الاستفهام هنا للتهويل والتعظيم.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

﴿أَ﴾: استفهامٌ هنا لإنكارِ تأخيرِ إيمانهم؛ فلا يُقبل منهم ﴿ثُمَّ﴾: بدخول حرف الاستفهام على ثُمَّ تفيد استنكار تأخير إيمانهم؛ فيفيد التباعد الزمني غير السريع ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿مَا وَقَعَ﴾: هل بعد وقوع العذاب بكم أيّها المشركون ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾: هل تؤمنون إذا جاءكم ما استعجلتم من العذاب ﴿آلْآنَ﴾: هل الآن تؤمنون بوقوعه؟ هل في هذه الساعة التي استعجلتم تريدون أنْ تؤمنوا؟ في وقتٍ لا ينفعكم فيه الإيمان ﴿وَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿كُنْتُم بِهِ﴾: بهذا العذاب في هذا اليوم ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: تتعجلون بشغفٍ وقوعّه.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع مع التباعد الزمني، بعد إدخال المجرمين في العذاب ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد الجميع ﴿ظَلَمُوا﴾: يقول الحق ﷻ للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ﴿ذُوقُوا﴾: والتذوّق هو وضع قليل من الطعام في الفم؛ لمعرفة الطعم، هنا بمعنى اصلوا، وعانوا، وقاسوا، وتجرعوا قليلًا، واشعروا بالعذاب، إنّه ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾: العذابُ الدائمُ، المستمرُ، المقيمُ في الآخرة؛ تقريعًا وتوبيخًا ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام يفيد التعظيم والتهويل ﴿تُجْزَوْنَ﴾:

هل تُعاقبون ويكون جزاؤكم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطعٍ بمعنى ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ، هنا بمعنى الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في حياتكم الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾: ما اقترفتم وارتكبتم من جرائم في دنياكم.

التكليف: إنّ مصيبة الحُكام الظالمين أنّهم لا يؤمنون بالثواب والعقاب يوم القيامة، إنّهم يعيشون يومهم، يقتلون، ويسرقون، ويخونون، وينكرون العقاب الربّانيَّ.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ﴾: يطلبون منك النبأ؛ مستهزئين بموضوع العذاب؛ ويسأل هؤلاء المشركون من قومك يا محمد عن العذاب ﴿أَ﴾: حرفُ استفسارٍ ﴿حَقٌّ هُوَ﴾: هل العذاب الذي وعدنا الله حق؟ هل البعث بعد أنْ نكون ترابًا حقيقة؟ ﴿قُلْ﴾: أَمَرَ اللهُ ﷻ رسوله أنْ يقولَ يقينًا ﴿إِي﴾: نعم ﴿وَ﴾: أقسم بالله تعالى ﴿رَبِّي﴾: مالك أمري كلّه، أقسم لهم يا محمد ﴿إِنَّهُ﴾: حرف توكيد على الجزاء ﴿لَحَقٌّ﴾: وأكّد أنّ البعثَ بعد الفناءِ حقٌ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿أَنْتُمْ بِ﴾: باء التوكيد ﴿مُعْجِزِينَ﴾: لا تمنعوه، لا يُعجزه ﷻ بعثكم، أيضًا ذكّرهم أنّ الله ﷻ أنشأكم من قبل، وإنّ إعادتكم حقيقة، كما بدأكم تعودون، ويُلاحظُ أنّ في القرآن الكريم ثلاث آيات فقط يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ فيها أنْ يُقسم بالله ﷻ الأولى فيها: الأولى هذه الآية [يونس-٥٣]، والثانية: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾** [سبأ-٣]، والثالثة: **﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** [التغابن-٧].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرفُ نفي الإنكار والشك ﴿لِكُلِّ﴾: تفيد الجميع ﴿نَفْسٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة؛ لتؤكد على كلِّ مخلوقٍ من الإنسِ وغيره ﴿ظَلَمَتْ﴾: أنكرت البعث، والنشور، وأشركت، وكفرت، فظلمت نفسها ﴿مَا﴾: كلّ الذي غير الإنسان ﴿فِي﴾: على ﴿الْأَرْضِ﴾: لو امتلك الكافرُ الذي يُنكر البعث والحساب يوم القيامة جميع ما في الأرض ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾: لترك الإنسان ما يملك مقابل أنْ ينجو من عذاب يوم القيامة ﴿وَأَسَرُّوا﴾: أخفوا في نفوسهم ﴿النَّدَامَةَ﴾: الندم، والغمّ، والحسرة ﴿لَمَّا﴾: حين ﴿رَأَوُا﴾: عاينوا وتأكدوا ﴿الْعَذَابَ وَقُضِيَ﴾: تم الفصل بالعدل ﴿بَيْنَهُمْ﴾: أخذ كلُّ صاحبِ حقٍ حقّه ﴿بِالْقِسْطِ﴾: يُوضعُ ميزانُ كلِّ واحدٍ منهم؛ ليحكم الله ﷻ بالعدل؛ فهو الحق وحكمه

الحق ﴿وَهُمْ﴾: النّاس ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: نتيجة مؤكّدة من القاضي العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرّة.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

﴿أَلَا﴾: كلمةُ استفتاحٍ وتنبيهٍ يؤتى بها في أول الكلام بمعنى انتبهوا لما أقول لكم ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿لِلَّهِ﴾: ملكهِ وحده، لا لغيره مُلْك ﴿مَا﴾ الله ﷻ: الذي من غير العاقل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها لكونها بيضاوية الشكل من مخلوقات؛ وهو ﷻ يتصرف فيها وفق إرادته فيعطي من يشاء ويغفر لمن يشاء، ويتوب على من يشاء ﴿وَ﴾: أيضًا له ﷻ مُلك ما في ﴿الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعد به ﷻ من عقابِ المشركين واقعٌ لا محالة؛ كائنٌ لا ريب فيه ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: غالبية هذا الصنف من النّاس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: غير أنّ غالبيتهم لا يعلمون؛ ولا يدركون، هم الجاهلون لأنّهم لا يؤمنون، وهم أكثرُ النصارى، واليهود، والكفّار، والعلمانيين وأمثالهم.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿يُحْيِي﴾: يهب الحياة واستمرارها لكلّ الخلق، الإنسان، والحيوان، والنبات، وغيرها ﴿وَ﴾: أيضًا هو ﷻ الذي ﴿يُمِيتُ﴾: ينهي حياة المخلوقات، بقدره، وإرادته ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿تُرْجَعُونَ﴾: إذا مات الإنسان، وانقطعت حياته، وتحلل في التراب؛ سيُعيدهُ اللهُ ﷻ، ليوم الحساب، حتى وإنْ تفرقت أشلاؤه في الأرض، أو انتشرت في الهواء، أو تحللت في البحار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

﴿يَا﴾: أداة نداءٍ ﴿أَيُّهَا﴾: كلمةٌ للتنبيه ليحدث التواصل بين المُنادِي وهو الله ﷻ والمُنَادَى عليه وهم ﴿النَّاسُ﴾: والنداء لكل الناس، كلمةٌ تدُلُّ على جنس الإنسان المؤمن والكافر والمنافق ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿جَاءَتْكُمْ﴾: لقد منّ الله ﷻ عليكم، فأرسل إليكم رُسلًا منكم وإليكم، وأنزل جنس الكتاب وآخره القرآن الكريم، الكتاب الخاتم ﴿مَوْعِظَةٌ﴾: أمرٌ من الله ﷻ يذكركم بعقاب الله ﷻ، ويخوفكم وعيده، فجاءت بصيغة النكرة لتفيد تعظيم الموعظة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع،

هنا يفيد المصدر ﴿رَبِّكُمْ﴾: من مالك أمركم كلّه، فيه زجرٌ وتحذيرٌ من الكفر ﴿وَشِفَاءٌ﴾: أيضًا جاءكم القرآن الكريم يشفي من الشكّ، والوسوسة، حول البعث في سياق ما سبق ﴿لِمَا﴾: للذي ﴿فِي الصُّدُورِ﴾: والمقصود النفوس التي هي جوهر الإنسان، إنّ المنهج القرآني يقول إنّ القلب الذي هو في الصدر، هو جهازُ الوعي، والإدراك ﴿وَهُدًى﴾: أيضًا يُوصلُ إلى الحقيقة والغاية بأقصر الطُرق وأيسرَها ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: منحةٌ ربّانيّةٌ إنّه يغفر الذنب، ويرفق بعباده.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

﴿قُلْ﴾: يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أنْ يقول لجميع النّاس بفضل الله ﷻ ورحمته ﴿بِ﴾: باء التوكيد﴿ فَضْلِ﴾: كرم ﴿اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: جاء اللفظ القرآني "رحمة" على أحد عشر وجهًا؛ هنا بمعنى القرآن الكريم، فلقد تفضّل اللهُ ﷻ على عباده برحمةٍ، هي القرآن الكريم، الذي يُوضّح سُبَلَ الإيمان الصادق، والعمل الصالح في الدنيا، وأساس هذا الدين ﴿فَـ﴾: حرفُ سبب استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ والعجلة في القول والعمل ﴿بِذَلِكَ﴾: بهذا القرآن الكريم ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾: تتحقق السعادة والسرور ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾: هذه الفرحةُ أفضلُ وأكثرُ خيرًا ونفعًا ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء من الذي ﴿يَجْمَعُونَ﴾: المال، والولد، والسلطان، وحُطام الدنيا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)

﴿قُلْ﴾: سلهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: يوبخهم اللهُ ﷻ؛ فيقول ألا تشاهدون؟ أخبروني ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ﴾: من فوقكم ﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد جزءًا أو بعضًا ﴿رِزْقٍ﴾: أنزل الله ﷻ الرزق إلى الأرض، وما عليها من المال، والمتاع، والدواب، ونتاج الأرض وغيرها ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ﴾: جزءًا أو بعضًا ﴿حَرَامًا وَ﴾: أيضًا جعلتم منه ﴿حَلَالًا﴾: خالفتم شرع الله ﷻ في التحليل، والتحريم، وحكمتم بحسب الأهواء والمصالح، أي حلّلتم بعض ذلك لأنفسكم؛ وحرّمتم بعضه ﴿قُلْ﴾: للتأكيد لهم يا محمد ﷺ لهؤلاء الجاحدين للوحي ﴿آ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرضِ الاستنكار، بمعنى هل ﴿اللَّهُ أَذِنَ﴾: سمح ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا، سلهم يا محمد، و يا أتباع محمد ﷺ من بعده: هل هذا الذي تدّعونه بحسب ما شرّعه الله ﷻ؟ ﴿أَمْ﴾: بمعنى هل، وبمعنى بلْ ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾: أم تقولون على الله ﷻ الباطل وتكذبون؛ عندما تُنسبون ذلك إليه، فإنْ لم يكن بحسب ما أراد الله ﷻ؛ فهو منكم

كذبٌ، وادعاءٌ باطلٌ، لا شكّ أنّ حُكّام كلِّ زمانٍ، وفي مجالس التشريع، وفي الحكومات، ومن رجال الدين يحرّمون ويحللون؛ لإرضاء الحُكام.

التكليف: لازمت البشرية مسألةُ تحليل وتحريم رزق الله ﷻ بحسب أهواء البشر، وكان أخطر هؤلاء هم الحُكامُ الظلمة، والعلماءُ الفاسدون، الذين يوزعون ثروات شعوبهم على مريديهم، ومؤيديهم؛ فأحلّوا بذلك لهم الرزق، وحرّموه على الفقراء، والمساكين، واليتامى.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق **﴿مَا﴾**: حرف استفهام **﴿ظَنُّ﴾**: ماذا يعتقد هؤلاء أنّ الله ﷻ فاعلٌ بهم يوم القيامة؟ ما هو مصير هؤلاء **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء مِمَنْ **﴿يَفْتَرُونَ﴾**: يكذبون **﴿عَلَى اللَّهِ﴾**: ويقولون **﴿الْكَذِبَ﴾**: الذين يُحلّون ويُحرّمون دونَ دليلٍ من الله ﷻ؟ هل يعتقدون أنّ الله ﷻ سيغفر لهم **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**: يوم يقوم النّاس من قبورهم للحساب من ربّ العالمين **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿اللَّهَ لَ﴾**: حرف تمليك **﴿ذُو﴾**: صاحب **﴿فَضْلٍ﴾**: كرم عظيم **﴿عَلَى النَّاسِ﴾**: من فضل الله ﷻ على الخلق الرزق، والبعث، والثواب، والأرض والسماء، جاء لفظ النّاس؛ لأنّ فضل الله ﷻ لا يقتصر في الدنيا على المؤمنين فقط، بل يشمل العصاة أيضًا، ومن فضله تأخير عقوبتهم إلى يوم القيامة، حتى يتوب من أراد، ومن فضله أنْ حرّم عليهم ما يضرّهم في الحياة الدنيا **﴿ولَكِنَّ﴾**: حرفٌ يُفيد الاستدراك **﴿أَكْثَرَهُمْ﴾**: الغالبية منهم **﴿لَا﴾**: نفي **﴿يَشْكُرُونَ﴾**: لا يُقابلون الفضلَ بالشكرِ، ولا يُقابلونَ الفضلَ بالطاعة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي **﴿تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾**: في أمرٍ مهمٍ تعتني به، يقول الله ﷻ لنبيّه ﷺ وهو قولٌ لكلِّ مخلوقٍ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ما تعيش في حالة أنت أو غيرك من الخلائق في لحظةٍ وساعةٍ **﴿وَمَا تَتْلُو﴾**: أيضًا الذي تقرأ **﴿مِنْهُ﴾**: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿مِنْ﴾**: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿قُرْآنٍ﴾**: وما تقرأ من كتاب الله ﷻ أنت وغيرُك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»[1]، ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْمَلُونَ مِنْ﴾: خيرٍ أو شرٍّ، بعضٍ أو جزءًا مِنْ ﴿عَمَلٍ﴾: صغيره وكبيره ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿كُنَّا﴾: في الحياة الدنيا ﴿عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: مطلعين عليه، وجاء اللفظ "**كنّا**" بصيغة الجمع؛ لتعظيم الله ﷻ؛ الذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، مُسجلًا تسجيل الشهود ﴿إِذْ﴾: ظرف يدُلُّ على ما حدث في الماضي من الزمن حين ﴿تُفِيضُونَ﴾: تخوضون باندفاعٍ كما يفيض النهر، بسرعةٍ وتدفقٍ ﴿فِيهِ﴾: الذي كنتم تعملونه ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْزُبُ﴾: لا يغيب ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ، يُفيد هنا على ﴿رَبِّكَ﴾: لا يغيب عن علم الله ﷻ مالك الكون ﴿مِنْ مِثْقَالِ﴾: وزن ﴿ذَرَّةٍ﴾: وهي أصغر ما في المخلوقات ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا﴾: أيضًا ليست ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: هي ليست في ما علا الأرض وأحاط بها، ولقد كان النّاس في السابق يعُدّون الهباءة من الغُبار الذي يطير في الهواء، كأصغرِ شيءٍ، غير أنّ العلوم الحديثة اليوم تقول إنّ مُكوّنات أيّ شيءٍ هي الذرّات التي لا تُرى بالعين المُجرّدة، ولا حتى بالمُكبرات العملاقة ﴿وَلَا﴾: أيضًا نفي ﴿أَصْغَرَ مِنْ﴾: جزء أو بعض؛ للتمييز ﴿ذَلِكَ﴾: العلمُ الحديثُ في الإعجاز القرآني يقول إنّ الذّرة تتكون من أجسامٍ صغيرةٍ: هي البروتون وهو مُوجبُ الشحنة، والإلكترون، وهو سالبُ الشحنة، والنيترون وهو مُتعادلُ الشحنة؛ فيُحقق العلمُ بعد أكثر من ألف سنة أنّ في الذرّةِ ما هو أصغرُ منها ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿أَكْبَرَ إِلَّا﴾: حرفُ استثناء ﴿فِي كِتَابٍ﴾: صحيفة الأعمال ﴿مُبِينٍ﴾: في سجل أعمال كلّ إنسانٍ، ومن عمل؟ صغيرًا أو كبيرًا؟ خيرًا أو شرًا؟

التكليف: لا شكّ أنّه كلّما تقدمت العلوم في كلّ المجالات؛ كلّما اكتشف العالم أنّ القرآن الكريم قد ذكرها قبلهم.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾: أحبابه وأنصاره ﷻ، الذين يؤمنون به، ويحبونه، وينصرون دينه، ويؤيدون رُسله، ويتحابّون فيما بينهم، ويتقربون إليه ﴿لَا﴾: يفيد النفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: ينفي الله ﷻ الخوف عن المسلمين في الدنيا من أعداء الله ﷻ، فما يصيبهم هو بأجره وثوابه، ولا يصيبهم الخوف في الآخرة من هول يوم القيامة، فهم في أمنٍ واطمئنانٍ ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا نفي ﴿هُمْ﴾: ضمير للجمع المذكر الغائب، تحديدًا ﴿يَحْزَنُونَ﴾: على ما تركوا خلفهم، وضحّوا به في سبيل الله ﷻ. عن عمر

---

[1] صحيح البخاري ٩/١٥٨(٧٥٤٤).

بن الخطاب قال: قال النبيُّ ﷺ: إنَّ مِنْ عِبادِ الله لأناسًا ما هُمْ بأنبياء، ولا شُهَداء، يَغبِطُهُم الأنبياءُ والشهداء يَوْمَ القيامة لِمكانهم من الله قالوا: يا رسولَ الله تُخبرنا مَنْ هم، قال: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بروُحِ الله على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطَونْها، فواللهِ إن وجوهَهُمْ لنورٌ، وإنهم لعَلى نُور: لا يخافونَ إذا خافَ الناسُ، ولا يحزنُون إذا حَزِنَ الناسُ وقرأ هذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس-٦٢][1].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

حددّ اللهُ ﷻ هنا صفاتٍ جامعةً لأوليائه ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: بالله ﷻ ربًّا، وبرسله، وملائكته، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وبكتبه ﴿و﴾: حرفُ عطفٍ يجمع هنا بين التقوى والإيمان ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَتَّقُونَ﴾: يعملون بأوامره، تقرُّبًا إليه ﷻ؛ طمعًا في ثوابه؛ وينتهون عن معصيته بقناعة وإيمان؛ خوفًا من عذابه؛ فيعبدون الله كأنّهم يرونه ﷻ.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤)

﴿لَهُمُ﴾: خصص الله ﷻ لهؤلاء ﴿الْبُشْرَى﴾: الذي يسرّهم ويُفرحهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: هي الرؤية الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له، أو ثناء النّاس عليه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ[2]. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: هي الجنّة ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾: تغيير ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿كَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: هذا الوعد الربّاني لا يتبدل، ولا يتغيّر، هو ثابتٌ، كائنٌ لا محالة ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة للبعيد ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: النجاح الكبير.

التكليف: إنّ الرؤيةَ الصالحةَ يراها المُسلمُ بُشرى تطمئنُّ بها القلوب.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿يَحْزُنْكَ﴾: يجعلك تحزن ﴿قَوْلُهُمْ﴾: يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ لا تحزن مما تسمع من المشركين افتراءً على الله ﷻ، وعلى رسوله، وعلى القرآن، وعلى المؤمنين، والسبب هو ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الْعِزَّةَ﴾:

---

[1] سنن أبي داود ت ٥/٣٨٧(٣٥٢٧) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

[2] صحيح مسلم /٤/٢٠٣٤(٢٦٤٢).

الغلبة والقهر، والسمو، والعلو، والكرامة ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿اللَّهِ جَمِيعًا﴾: يؤكد الله ﷻ أنّ الكرامة، والنجاح، والعزة لله، ولرسوله، والنصر والتمكين للمؤمنين جميعًا ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿السَّمِيعُ﴾: الذي يسمع ما يقولون، وتُسجّل عليهم أقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾: ويعلم ما يصنعون: ويشهد الواقع المعاصر حملةً دوليةً من الأكاذيب والافتراءات على الدين والمتدينين، وعلى الرسول الكريم ﷺ.

التكليف: إنّ وسائل إعلام بعض الدول الإسلامية تكيلُ أوصافًا وألقابًا لأولياء الله ﷻ مثل الإرهاب، والرجعية، والأصولية؛ والتطرف، والله ﷻ يسمعُ، ويعلمُ ما يقولون.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

﴿أَلَا﴾: حرفٌ يُفيدُ التنبيه ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿لِلَّهِ مَنْ﴾: الذي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا وأحاط بالأرض؛ لكونها بيضاوية الشكل ﴿وَمَنْ﴾: أيضًا له كلّ الذي من جنس العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: إنّ الله مالك هذا الكون، ومن فيه، من بشر، وملائكةٍ، ومخلوقاتٍ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَتَّبِعُ﴾: لا يطيع ولا يوالي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع الرجال والنساء ممَنْ ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون ﴿مِن﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾: كانوا في عهد الرسول ﷺ يعبدون أصنامًا، لا تنفعهم ولا تضرهم شيئًا، ولا يوجد دليلٌ على وجوب عبادتها، وفي عصرنا يتّبعون دولًا ظالمة، ومبادئ منحرفة، وأفكارًا هدّامة مصطنعة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط وتعني ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: ينقادون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الظَّنَّ﴾: صنعوا أوهامًا؛ وصدقوها ﴿وَإِنْ﴾: حرف بمعنى ما ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع المذكر والمؤنث الغائب؛ للتحديد والتخصيص والتأكيد ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿يَخْرُصُونَ﴾: إنّ ما يقول هؤلاء هي أكاذيب اخترعوها، أو اخترعها لهم الشيطان، أو اخترعها أولياؤهم وصدّقوها، وبنظرةٍ على الواقعِ المعاصرِ نجد كثيرًا من الملوك، والرؤساء، والأمراء، وعلماء الدين، وأساتذة الفكر، وأئمة المساجد، ووزارات الأوقاف؛ تُصدق أنّ القوة للغرب أو للشرق، كلُّها أكاذيبُ من عمل الشيطان؛ لأنّ الذي يتصرف في هؤلاء وهؤلاء؛ هو الله؛ ربُّ كلّ شيءٍ.

التكليف: تؤكد الآيات أنّ الله ﷻ الذي يملك السماوات والأرض، يتصرف في ملكه، وفيه المشركون كيف يشاء فلا يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ في اللغةِ موصول بالفرد المذكر، وتعني هنا الله ﷻ ﴿جَعَلَ﴾: سخّر ﴿لَكُمُ﴾: للنّاس تحديدًا وتمليكًا ﴿اللَّيْلَ لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَسْكُنُوا فِيهِ﴾: تتوقف حركة العمل والكدّ من أجل الرزق، ولراحة الأجساد، يأتي هنا الحديث عن فضل النوم، إنّ طبيعة خلق الإنسان أنْ يتم استخدام الغذاء، والهواء، لوظائف الجسم الحيوية، وهو يحتاج إلى فترات راحة؛ ليتخلّص من فضلات العمليات الحيوية في جسده في مدةٍ كافية، وقد جعل الله ﷻ الليل ليستريح الإنسان من تعب النّهار، فيتخلص الجسم من السموم الناتجة عن هضم الطعام، وامتصاصه، والجهد البشري والعقلي ﴿وَ﴾: أيضًا جعل ﷻ ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أضاء الله ﷻ الكون، وبخاصة الأرض، بنور الشمس للحركة وللسعي، والسفر، والعمل وطلب الرزق، وبما يعود عليكم بالنفع ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿فِي ذَلِكَ﴾: في تتابع الليل والنّهار، ما يدفع إلى دراسة العلاقة بين الشمس، وشكلها الدائري ودراسة الكواكب، ومنها الأرض، وظاهرة الليل والنهار ﴿لَآيَاتٍ﴾: أدلّةً وبراهين ﴿لِقَوْمٍ﴾: جماعةٍ من عرقٍ واحدٍ أو أصحابِ مذهبٍ واحدٍ ﴿يَسْمَعُونَ﴾: لأنّها أدلّة وبراهين للخلق، ليؤمنوا، ولقد ذكر الله ﷻ السمع لأنّ الليل ظلمة، ووسائل الإدراك هي السمع، وهذا كان في وقت البعثة، حيث لا كهرباء، ولكنّها بقيت الوسيلة للإدراك في الليل.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

﴿قَالُوا﴾: هم الكفّار ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: اختار واعتمد؛ فقد ادّعوا زورًا وبهتانًا أنّ الله ﷻ **اتَّخَذَ**: ولم يقولوا أنجب؛ لأنّه حتى يكون له ولد؛ لا بد من أبٍ وأمٍّ، ولذلك كانت كلمة اتخذ؛ لأنّهم لم يجرؤوا أنْ يقولوا أنّ لله ﷻ زوجة أو مثيلًا، وقال بعض الكفّار إنّ الله اتخذ الملائكة بناتِه أو المسيح، عليه السلام، ابن الله؛ تقدّس الله ﷻ عن ذلك ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزَّه وتقدَّس عن كلّ ما يقولونه، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾: عن كلِّ ما سواه ﴿لَهُ﴾: إنّ ملكه ﷻ هو ﴿مَا﴾: الذي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: في كلُّ ما أحاط بالأرض وعلاها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إنّه ﷻ يملك هذا الكون، ويتصرف فيه بإرادته ومشيئته؛ فكيف يتخذ ولدًا؟ وكلُّ شيءٍ عبدٌ له ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عِنْدَكُمْ﴾: تملكون ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية

الغاية ﴿سُلْطَانٍ﴾: حجّة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾: هل عندكم دليلٌ أو برهانٌ على ما تفترون كذبًا وبهتانًا؟ لا يوجد ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ؛ بغرض الاستنكار ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا﴾: الذي ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: كيف تفترون وتكذبون على الله ﷻ؟ إنّه تهديد ربّاني ووعيد شديد وأكيد.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول، وهو أمرٌ للمسلمين أنْ يعملوا به ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَفْتَرُونَ﴾: يدعون كذبًا وزورًا ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: إنّ مصير الذين يكذبون على الله ﷻ، ويقولون إنّ له ولدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُفْلِحُونَ﴾: لن ينجحوا في الدنيا؛ فلن يُصدقهم عاقلٌ، ولا في الآخرة.

التكليف: لو أُسقطت هذه المعاني السامية على الواقع المعاصر؛ لوجب علينا أنْ نقول إنّ متاع الكفّار، والمنافقين، ومن المسيحيين، واليهود، وعملائهم قليلٌ، يفشلون في الدنيا، لا يفلحون، ومصيرهم في الآخرة جهنّم، وبئس المصير.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾: سيحقق هؤلاء المجرمون وسائل المتعة، والسلطة، والحكم، وتكوين الجيوش، وجمع المال وغيره، وكلّ هذا سينتهي بما جاء في الآية السابقة، إنّما يتمتعون في الدنيا بكفرهم وكذبهم متاعًا قصيرًا ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني غير الفوري ﴿إِلَيْنَا﴾: إلى الله ﷻ ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾: إذا انقضى أجلهم، سيموتون، ويتحللون، ثم يوم القيامة إلينا مصيرهم؛ فيُبعثون ﴿ثُمَّ﴾: يوم القيامة ليس فورًا ﴿نُذِيقُهُمُ﴾: نصليهم ﴿الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾: هذا وعيد الله ﷻ لهم، عذابٌ شديدٌ، ومن أصدقُ من الله حديثًا؟ لا أحد ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، هنا بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَكْفُرُونَ﴾: لأنّهم ستروا الحقيقة الربّانية؛ وكذبوا على الله ﷻ، وعلى أنفسهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧١)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اتْلُ﴾: اقصص ﴿عَلَيْهِمْ﴾: يا محمد، على كفّار عصرك، للذين يكذبونك، من أهل مكّة ﴿نَبَأَ﴾: قصةَ وسيرةَ وخبرَ ﴿نُوحٍ﴾: ؏، مع قومه، ولماذا؟ وكيف أهلكهم الله ﷻ بالغرق؟ قل لهم ﴿إِذْ﴾: بمعنى حين، حرف يفيد حدث في الماضي ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: لأهله وعشيرته المقربين تخصيصًا ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ إِنْ﴾:

حرف شرط بمعنى إذا يا قومي ﴿كَانَ كَبُرَ﴾: إذا صعُب، أو ثقُل، أو عظُم ﴿عَلَيْكُم مَقَامِي﴾: أنْ أعيش بينكم، وسطكم، ولقد جاء اللفظ القرآني **مقام** على أربعة وجوه؛ هنا بمعنى الإقامة والمكث، يا كفّار مكّة إذا قررتم التخلص من بقائي بينكم ﴿وَ﴾: أيضًا كبُر عليكم ﴿تَذْكِيرِي بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: وإذا ثقل عليكم أنْ أُذكّركم بحجج الله ﷻ وبراهينه، وفي مقابل صدّكم وكفركم ﴿فَ﴾: حرف يفيد ربط جواب الشرط ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أنا أعتمد هنا حصرًا على الله ﷻ وحده، لا أبالي برفضكم، ولا أكفّ عن دعوتي ﴿فَ﴾: لهذا السبب وبدون تأخير ﴿أَجْمِعُوا﴾: وحّدوا إذا صعُب، أو عظُم، أو ثقُل عليكم ﴿أَمْرَكُمْ﴾: كيدُكم، وفكركم، ورؤيتُكم ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: تحالفوا أنتم وشركاؤكم من الأصنام والأوثان ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني على التراخي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾: قراركم ورأيكم ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: لا تجعلوا موقفكم مبهمًا، غير واضحٍ، والغمّة هي الالتباس والستر، فهو عليكم ضيق شديد، بل تمايزوا عنّي ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني على التراخي ﴿اقْضُوا﴾: أدّوا ﴿إِلَيَّ﴾: ما تريدون ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهي ﴿تُنْظِرُونِ﴾: تعالوا واقضوا عليّ، اقتلوني ولا تتأخروا، ولا تؤجلوا، وافعلوا ما تقدرون.

التكليف: بإسقاط هذا الموقف على الواقع المعاصر فإنّ الحركة الإسلامية تقف أمام قوى عظمى من الصليبيين، والصهيونيين، ومن العرب الخائنة، ومن المنافقين، والفاسدين، من بعض أجهزة الأمن والجيوش، ولسانُ الحال يقول: اقضوا إلينا ولا تُنظرون، المؤمنون يثقون بالله ﷻ، فلنْ يُصيبهم إلّا ما كتب الله ﷻ لهم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢)

﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرضتم، وذهبتم عن دعوتي ﴿فَمَا﴾: يفيد النفي التام ﴿سَأَلْتُكُمْ﴾: ما طلبت منكم أو كلّفتكم شيئًا؛ لم أسألكم أجرًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، جزء أو بعض ﴿أَجْرٍ﴾: أنتم لم تخسروا شيئًا، لم آخذ منكم أجر نصيحتي ودعوتي، والأجر ما يعود من ثواب العمل دنيويًا كان أو أخرويًا ﴿إِنْ﴾: بمعنى ما ﴿أَجْرِيَ﴾: ثوابي ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: إنّ ثوابي على الله ﷻ وليس منكم؛ لأنّني أمتثل لأمر الله ﷻ إنْ آمنتم أو كفرتم ﴿وَأُمِرْتُ﴾: من الله ﷻ ﴿أَنْ﴾: تأكيد الفعل ﴿أَكُونَ مِنَ﴾: حرف يفيد التمايز وبيان بداية الغاية وهم هنا ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾: هذا الأمر الذي أريده وهو أمر الله ﷻ لي أنْ أنقاد له.

التكليف: بمعرفة عمل الحركة الإسلامية المعاصرة أرى أنّ دعوتها مجانيّةٌ في الدنيا، بل مُكلفةٌ لأصحابها، من سجنٍ، وقتلٍ، وإبعادٍ، ومصادرةِ أموالٍ، وبقي موقفهم: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ ويواجهون المجرمين بكلّ قوّةٍ، وهذا منهجُ كلّ الأنبياء، ولقد طلب نوح عليه السلام من الكافرين أنْ يتقووا بكلِّ حُجّةٍ لديهم، وأقصى جهدهم وأكثر وسائلهم في مواجهته.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣)

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾: هم قوم نوح عليه السلام، الذين لم يقبلوا براهينه، وقالوا عنه كذّابًا ﴿**فَ**﴾: بسبب ذلك وبسرعة ﴿**نَجَّيْنَاهُ**﴾: جعلناه سالمًا ﴿**وَ**﴾: أيضًا نجّينا ﴿**مَنْ مَعَهُ**﴾: نجّا الله سبحانه وتعالى نوحًا والذين آمنوا له ﴿**فِي الْفُلْكِ**﴾: في السفينة التي صنعها ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ**﴾: ورثوا ما ترك الكفارُ، مما سبق من الماضي، جعلنا المؤمنين لهم خلفًا؛ أي جاؤوا بعد الكافرين، يعيشون على الأرض ﴿**وَ**﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿**أَغْرَقْنَا الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿**كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾: أدلتنا وبراهيننا، لقد جمع الحق سبحانه وتعالى أولًا نجاة نوح والذين آمنوا معه، بشارةً لكلّ المؤمنين في كلّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ، وأخبر سبحانه وتعالى أيضًا عن غرقِ ودمارِ الكافرين ﴿**فَانْظُرْ**﴾: بسبب ما جاء خطاب لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه ومن بعده؛ تأملوا واطمئنوا ﴿**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ**﴾: مصير ونهاية ﴿**الْمُنْذَرِينَ**﴾: كيف كانت نهايةُ الذين أنذرهم نوحٌ، عليه السلام، بالهلاك.

التكليف: إذا نظرنا إلى هذه السورة في ضوء الواقع المُعاصر نجد الآتي: أنّ الداعية يقبل التحدي، ويُطالب أعداء الله سبحانه وتعالى أنْ يجمعوا كلّ ما لديهم من حُججٍ ولا يتأخروا؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سيُنجّي المؤمنين، ويُهلك الكاذبين، وأنّ أدوات النجاة لم تكن معروفة للأنبياء، والله سبحانه وتعالى يُرشد بعضهم كصناعة السفينة، وضرب البحر بالعصا، أو يصيب الكفّار بريحٍ أو صيحةٍ أو نتق، أي رفع الجبل فوقهم، لقد كانوا لا يعرفون الوسيلة، ولكنْ كانت ثقتُهم في النصر عظيمة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

﴿**ثُمَّ**﴾: حرفٌ يفيد التتابع؛ أي الترتيب الزمني على التراخي ﴿**بَعَثْنَا**﴾: أرسلنا ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿**بَعْدِهِ**﴾: بفترة زمنية ﴿**رُسُلًا**﴾: وجاء من بعد نوح رسلُ الله سبحانه وتعالى، ﴿**إِلَى قَوْمِهِمْ فَ**﴾: حرف يفيد السبب ﴿**جَاءُوهُمْ بِ**﴾: باء السببية ﴿**الْبَيِّنَاتِ**﴾: بالبراهين والأدلّة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وعقابه، وثوابه، والجنّة، والنّار ﴿**فَمَا**﴾: حرف يفيد الخبر ﴿**كَانُوا لِ**﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿**يُؤْمِنُوا بِمَا**﴾: بالذي ﴿**كَذَّبُوا بِهِ مِنْ**﴾:

حرفٌ يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: كانت ردّة فعل الكافرين في بداية دعوة أيّ رسول هي الكفر والعناد، ومع زيادة البراهين بقي الكُفّار على رفضهم الأول؛ عنادًا؛ واستكبارًا ﴿كَذَلِكَ﴾: أيضًا ومثل هذا ﴿نَطْبَعُ﴾: نختم فلا تغيير ولا تبديل ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾: مراكز الوعي والإدراك ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾: المبادرين بالعدوان على المسلمين، وهي سُنّة ساريةٌ جاريةٌ وهي تكذيبُ الأولين، وتكذيبُ الذين من بعدهم؛ كأنّهم تواصَوا به، كقضيةٍ عامّةٍ ومستمرةٍ، فكما أهلك الله ﷻ الأمم قبل نوح ﵇؛ أهلك قومهم.

التكليف: لا تزال دعوةُ الحركات الإسلامية المعاصرة الراشدة تواجه الموقف نفسه، فبين آدم ونوح، عليهما السلام، ألف سنة كانوا كُلُّهم على الإسلام، وبدأ الكفرُ في عهد نوح، واستمرت الظاهرةُ من بعده حتى اليوم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني البطيء ﴿بَعَثْنَا﴾: أرسل الله الرسل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة، أولئك الرسل، نوح عليه السلام ومَنْ ﴿بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ﴾: جاء بعد ذلك موسى وهارون إلى فرعون أيضًا إلى ﴿مَلَئِهِ﴾: إلى حاكم مصر وقادة قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾: العصا واليد البيضاء ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ؛ فكان ردُّ فعلهم السريع أنْ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: تعالوْا عن اتباع الرسل، والانقياد لأوامر الله ﷻ ﴿وَ﴾: عطفًا على استكبارهم ﴿كَانُوا قَوْمًا﴾: صاروا جماعةً من أصلٍ واحدٍ، أو أصحابَ عقيدةٍ واحدةٍ ﴿مُجْرِمِينَ﴾: بكفرهم بالله ﷻ وتكذيبهم الرسل قد أجرموا في حقّ الله ﷻ، وحقّ أنفسهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦)

﴿فَلَمَّا﴾: حرف يفيد التتابع والسبب ﴿جَاءَهُمُ﴾: إلى فرعون وملئه هذا الدين ﴿الْحَقُّ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانية ﴿عِنْدِنَا﴾: رسالة الله ﷻ عبر الرسل، عليهم السلام موسى وهارون ﴿قَالُوا إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿هَذَا لَسِحْرٌ﴾: شعوذة ﴿مُبِينٌ﴾: واضحٌ ولأنّ الآيات معجزة، ولأنّهم لا يستطيعون مواجهتها كما حدث في عصا موسى، وما أصاب قوم فرعون من الجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، وغيرها قالوا: هذا سحرٌ واضحٌ؛ لأنّه خارج طاقة وتصور البشر، قالوه هربًا من الاعتراف بالحق.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧)

﴿قَالَ مُوسَى﴾: عليه السلام، متعجبًا و مستنكرًا على قولهم عن آيات الله المبينات ورسله الثقات أنّه سحر ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الإنكار والتوبيخ ﴿تَقُولُونَ﴾: هل تقولون ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الحَقِّ﴾: للصدق ﴿لَمَّا﴾: حرفٌ يُفيدُ حدث في الماضي ﴿جَاءَكُمْ أَ﴾: حرف الألف للاستفهام بغرض الاستنكار والتوبيخ ﴿سِحْرٌ هَذَا﴾: هل هذا سحر؟ فلماذا لا تأتونَ بسحرٍ مثله، وعندكم ألوفٌ من السحرة، ولو جئتم بهم فمصيركم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: تقولون عنه سحر وأنتم تعرفون كما أعرف أنّه لا يفلح الساحرون.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

﴿قَالُوا﴾: هم ملأ وبطانة فرعون ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿جِئْتَنَا﴾: هل جئتنا ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿تَلْفِتَنَا﴾: كي تصرفنا وتمنعنا ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿وَجَدْنَا﴾: ألفناه وتعود ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: لننصرف عن دين آبائنا وما تعارفنا عليه سابقًا ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾: لك ولأخيك تخصيصًا ﴿الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾: وتنفرد أنت وأخوك بالعظمة، والقيادة، والرياسة في أرض مصر، وما حولها ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿نَحْنُ لَكُمَا﴾: أنت وأخيك ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: هذا رفض تام للإيمان برسالة موسى وهارون عليهما السلام؛ مهما كانت الحُججُ، والأدلّةُ، والبراهين.

التكليف: كانت القضية عند فرعون وأعوانه هي القيادة والزعامة، لا يريد فرعون وحاشيته التنازل عنها، ولهذا ألغوا عقولهم بعد رؤية المعجزات، وإنّها المطامع نفسها، حتى يوم الدين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: اعتقد فرعون أنّ موسى ساحر، وأنّ ما جاء به السحر، ومن باب العناد قرر أنْ يقاوم السحر بالسحر؛ فطلب من كبار السحرة ﴿ائْتُونِي﴾: اجمعوا لي ﴿بِكُلِّ﴾: جميع ﴿سَاحِرٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد العموم ﴿عَلِيمٍ﴾: ضليع، مُعجز، ومُبهر في سحره، من كبار خبراء السحر، وظنّ أنّ معركته ستكون بين سحرةٍ وسحرةٍ، وليس بين سحرةٍ ورسالة ربّانيّة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يفيد التتابع والسبب ﴿جَاءَ السَّحَرَةُ﴾: دخل موسى المعركة بيقين ثابت ﴿قَالَ لَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿مُوسَى أَلْقُوا﴾: أظهروا على الأرض في العلن ﴿مَا﴾: الذي معكم من حبالكم

وعصّيكم ﴿أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾: طلب منهم أنْ يعرضوا بضاعتهم كلّها أمام النّاس وهي كبيرة، تبهر وتأخذُ العقول.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿أَلْقَوْا﴾: وكانت خطة موسى عليه السلام، ناجحة؛ رموا حبالهم وعصيّهم محشوٌ بعضُها بمعادن ثقيلة، إذا تحركت بدت الحبال كأنّها تتحرك مثل الثعابين، كان موسى عليه السلام، قد قدّم خطته بتكذيب السحرة علنًا أمام فرعون وأمام النّاس ﴿قَالَ مُوسَى مَا﴾: إنّ الذي ﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾: الذي عرضتموه ألقيتموه على الأرض هو ﴿السِّحْرُ﴾: وليس آيات حقيقية؛ ثم قدّم النتيجة ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّه سَ﴾: حرفٌ يُفيد تحقق الفعل ﴿يُبْطِلُهُ﴾: سيكشفُ زيفه، ويفضحُ كذبه؛ لأنّ الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُصْلِحُ﴾: لا يقبل ولا يوفّق ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: والفساد هنا فساد العقيدةُ وكان السحرُ من أدوات المفسدين.

التكليف: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ لم يضرّهُ كيدُ ساحر.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

ويقدم موسى وهارون، عليهما السلام، النتيجة النهائية لهذه المواجهة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يُحِقُّ﴾: يُثبتُ ﴿اللَّهُ الْحَقَّ﴾: الدين الصحيح وما ينتج عنه ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿كَلِمَاتِهِ﴾: إنّ الله تعالى سينصر الحقّ بكلماته التي حملها موسى صدقًا وعدلًا، ولو كره المجرمون، ولقد كانت الخطة ناجحة؛ لأنّ السحرة وضعوا كلّ ما عندهم، وحدّد السحرة أهدافهم؛ كلّها منافع شخصية، وأخبرهم موسى عليه السلام، أنّ هذا السحر سيفشل؛ وإذا فشل فهذا دليلٌ على فساد السحرة و فرعون، والنتيجة أنّ الحق سينتصر بفضل الله سبحانه وتعالى، وليس لغايةٍ دنيويةٍ ومكاسبَ زائلة ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد النفي ﴿كَرِهَ﴾: لم يحب ولم يرغب ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: الكافرون.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

﴿فَمَا﴾: حرف ينفي العمل أجمعَه ﴿آمَنَ﴾: صدّق واطمأن قلبُه ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيصٍ ﴿مُوسَى إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: من النسل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز

النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة، أي المصدر ﴿قَوْمِهِ﴾: قال ابن عباس: الذين آمنوا من قوم فرعون من أقاربه وذريّته، وكان عددهم قليلًا، امرأة فرعون، ورجلٌ مؤمن من آل فرعون، و خازنُ فرعون وزوجته؛ وهذا مُرجح، وقال مجاهد وآخرون: من قوم موسى الذين مات آباؤُهم آمنوا جميعًا ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾: صدّقوا وهم خائفون ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَ﴾: أيضًا خائفون مِنْ ﴿مَلَئِهِمْ﴾: من حاشيتهِ وبطانتهِ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾: يصرفهم عن دينهم، فقد رأى النّاسُ السحرةَ يطلبون من فرعون الأجر، وهو أنْ يقرّبهم، ويُجزل عطاءهم ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿فِرْعَوْنَ لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿عَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾: إنّ فرعون جبّارٌ مُسرفٌ عنيدٌ، له سطوةٌ ومهابةٌ، يخافه النّاس خوفًا شديدًا ﴿وَإِنَّهُ﴾: أيضًا هو بالتأكيد ﴿لَمِنَ﴾: تأكيدًا هو جزء أو بعض ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: من المُبالغين في التمرّد والعلو.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالَ مُوسَى يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿قَوْمِ﴾: يقصد بني إسرائيل، والذين آمنوا من قومِ فرعون ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِ﴾: حرف باء الصلة، إذا صدّقتم بالله ﷻ، وامتثلتم شرعه؛ فثقوا به؛ وسلّموا لأمر ﴿اللَّهِ فَ﴾: الفاء هنا جواب الشرط؛ لهذا السبب ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾: إذا استقر ووقر الإيمان في قلوبكم حقًا؛ فاعتمدوا على الله ﷻ، فهو ﷻ كافيكم، ومعينكم، وناصركم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾: إن أذعنتم له بالطاعة، وأصبحتم مسلمين، ومن المعروف أنّ الإسلام والإيمان والإحسان درجات علّمها جبريل عليه السلام للرسول ﷺ.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥)

إنّ النهج القرآني يُقرنُ بين الإيمان والتوكل؛ لأنّ ثمن الإيمان كبيرٌ في مواجهة الكافرين؛ فيحتاج إلى يقينٍ وثقةٍ في نصرِ الله ﷻ؛ هنا امتثل بنو إسرائيل ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب بهدف ترتيب الأمر، ويفيد سرعة التنفيذ ﴿قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: قال موسى عليه السلام، اعتمدنا على الله ﷻ، وأوكلنا أمرنا له، وعملنا لطاعته، والصبر على الأذى ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه، هذا اللفظ يعكس صدق الإيمان؛ إذ أعلنوا عبوديتهم لله ﷻ وقالوا ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾: لا تكتب علينا ﴿فِتْنَةً﴾: لا تُسلّط فرعون وقومه علينا؛ فنُبتلى من شدّة جبروته ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: تخصيصًا حتى لا يظنُّ ظانٌّ أنّ الظالم ينتصر على الحق؛ فيُفتن، ربنا لا تعذبنا لا بعذابٍ من فرعون، ولا بعذابٍ من عندك؛ فيستغل ذلك الكفّار؛ فيفتنوا المؤمنين.

﴿وَنَجِّنَا مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿نَجِّنَا﴾: أنقذنا وخلّصنا ﴿بِ﴾: باء السببية ﴿رَحْمَتِكَ﴾: وإحسانك ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة، أي المصدر ﴿الْقَوْمِ﴾: هم أيّ جماعةٍ أصحاب عقيدة واحدةٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: هم هنا من قومٍ فرعون الذين غطّوا الحق، وستروه، وكتموا الإيمان.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَوْحَيْنَا﴾: أرسل الله ﷻ ﴿إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ هارون، عليهما السلام، كيف ينجوان، ومن آمن معهما، من بني إسرائيل ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يفيد التصور ﴿تَبَوَّآ﴾: أنْ يعدّوا ويُجهزوا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمِكُمَا﴾: أقاربكم ومن آمن معكم ﴿بِمِصْرَ﴾: أرض مصر تكون لكم مساكن، حيث يحكم فرعون ﴿بُيُوتًا﴾: مساكن وملاجئ ترجعون إليها وتعتصمون فيها ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، تمام البيوت ﴿اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أيضًا اجعلوها أماكن صلاةٍ وعبادةٍ عند الخوف؛ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قَالَ: كَانُوا لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِي البِيَعِ، فَقِيلَ لَهُمْ: صلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ مَخَافَةِ فِرْعَوْنَ[1]. وقال ابن عباس: أنْ يتخذوها مساجد، وقال الثوري: أنْ يُصلّوا في بيوتهم من الخوف، وقيل وجهوها إلى بيت المقدس القبلة ﴿وَأَقِيمُوا﴾: أيضًا أدّوها في وقتها ﴿الصَّلَاةَ﴾: أكثروا من الصلاة، فقد كان رسول الله ﷺ: إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[2]، أنْ أدّوا فرائض الصلاةِ كاملة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿بَشِّرِ﴾: والبشرى هي الإخبار بما يُفرح ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: رسالة ربّانيّة؛ ليطمئن المؤمنون؛ فأمر رسوله ﷺ، أنْ يُبشرهم بالنجاة من فرعون والثواب الجزيل منه ﷻ.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على بشارة الله ﷻ له ﴿قَالَ مُوسَى﴾: عندما اشتدّ الكرب عليه دعا، ﷺ، على فرعون وأعوانه وأنصاره الذين استمروا في ظلمهم ﴿رَبَّنَا﴾: قدّم موسى ﷺ، طبيعة العلاقة بينه كعبدٍ مملوكٍ وربّه ﷻ فقال: يا من أنشأتنا من حالٍ إلى حالٍ، وربيتنا إلى حدّ التمام، يا

---

[1] التفسير من سنن سعيد بن منصور ٣٢٩/٥(١٠٧٢) وإسناده صحيح.

[2]سنن أبي داود ٥٠٧/١/(١٣٢١). وصححه الألباني.

مالك أمرنا كلّه ﴿إِنَّكَ﴾: يا ربّي بالتأكيد ﴿آتَيْتَ﴾: وهبت وأعطيت ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾: ووهبت لأشراف قومه ﴿زِينَةً﴾: ما يحبّهُ النّاسُ من وسائل التجميل في الدنيا ﴿وَ﴾: أيضًا وهبتهم ﴿أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وهبت فرعون وأعوانه متاع الدنيا، وأثاثها، وأموالًا كثيرة ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه، إعادة التأكيد على الصلة بينه وبين الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ يفيد العاقبة، أي الصيرورة ﴿يُضِلُّوا عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِكَ﴾: فلم يشكروا، بل فتنوا النّاس، ظنًّا أنّ الله ﷻ أحبّهم؛ فأعطاهم هذا الخير؛ فلم يشكروا لله ﷻ ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه ﴿اطْمِسْ﴾: جاءت بصيغة الأمر بغرض الدعاء عليهم؛ الطمس هو المَحْق، وإزالة الأثر بالمحو، وهو بغرض الدعاء عليهم ﴿عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أهلك أموالهم، وقال الضحاك: اجعلها حجارةً منقوشةً على هيئتها، وقال قتادة: يتحول زرعهم إلى حجارة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: جاءت الشدة على القلوب كاستعارة لتغليظ العقاب وزيادته عليهم؛ اطبع عليها، إنّ الشدّة هي مرضٌ من أمراض القلب؟ لأنّ المُصاب بالذبحة الصدرية يشعر كأنّ جبلًا موضوعٌ على صدره، والله أعلم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل ﴿يُؤْمِنُوا حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيد سبب ما جاء قبلها ﴿يَرَوُا﴾: يشاهدوا في أنفسهم ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: كانت الكلماتُ تعبّرُ عن غضبةٍ من موسى عليه السلام، على فرعون وأعوانه، لعنهم الله ﷻ غضبًا لدينه، وقد دعا نوحٌ، عليه السلام، من قبل على قومه، جاء في المعنى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح-٢٦] كانت الدعوةُ عليهم أنْ يؤمنوا بعد أنْ يذوقوا العذاب الأليم؛ عقابًا لهم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

﴿قَالَ﴾: استجاب الله ﷻ لهما فقال ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد، لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾: عندما دعا موسى عليه السلام، على فرعون أمّن عليها أخوه هارون؛ فاستجاب الله ﷻ لدعائهما؛ بتدمير فرعون عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ[١]، ﴿فَ﴾: لهذا السبب قال ﷻ ﴿اسْتَقِيمَا﴾: والأمر لموسى وأخيه، عليهما السلام، قال ابن عباس: استمرا وتمسكا، وأمضيا على أمري ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا نهي ﴿تَتَّبِعَانِّ﴾: لا تسلكا ﴿سَبِيلَ﴾: طريقَ ونهجَ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمُ موصولٌ يفيد جميع من ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: هم الجاهلون، ولا تكونا تبعًا للذين لا يدركون حقيقة الإيمان وفضل التوكل على الله ﷻ.

---

[١]صحيح البخاري ٨/٦٧(٦٣٠٤).

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)

توضح هذه الآية الكريمة كيفية تحقيق دعوة موسى وهارون، عليهما السلام، على فرعون وجنوده، قال ابن جرير: إنّها حدثت بعد أربعين سنة، وقيل بعد أربعين يومًا؛ والله أعلم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿جَاوَزْنَا﴾: سهّل الله ﷻ عبور بني إسرائيل البحر، هل هو نهر النيل؟ وهذا ممكنٌ إذا كان فرعون يسكن في شمال مصر غرب النهر، هل هو البحر الأحمر، وهذا جائز إذا كان فرعون يسكن جنوب مصر، الله ﷻ أعلم ﴿بِبَنِي﴾: أبناء وأحفاد ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: النبي يعقوب عليه السلام، قيل إنّ عددهم كان ستمائة ألف مقاتل سوى الذريّة ﴿الْبَحْرَ﴾: هل هو البحر الأحمر؟ أم نهر النيل؟ والله أعلم ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿أَتْبَعَهُمْ﴾: حاول اللحاق بهم ﴿فِرْعَوْنُ وَ﴾: أيضًا معه ﴿جُنُودُهُ﴾: أرسل فرعون مسرعًا غاضبًا إلى جنوده من كلّ البلاد، وجمعهم حاشرين ﴿بَغْيًا﴾: ظُلمًا ﴿وَعَدْوًا﴾: أيضًا جريًا، مُسرعين، مصممين على العدوان، ركب فرعون في أبّهةٍ عظيمةٍ، وجيشٍ جرّارٍ؛ ليتحقق قضاءُ الله ﷻ فيهم، ولحقوا ببني إسرائيل عند شروق الشمس ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿أَدْرَكَهُ﴾: صار على وشكِ ﴿الْغَرَقُ﴾: هو و مائة ألف، خرج بنو إسرائيل إلى الحافّة الشرقيّة، وكان فرعون على حافة البحر الغربية، خاف فرعون لمّا رأى البحر قد انشق، وكان كلُّ فِرقٍ كالطود العظيم، فلما صاروا في البحر، وأوشك أولهم على الخروج؛ أمر الله ﷻ البحر أنْ يُغرقهم؛ فلم ينجُ منهم أحدٌ، وغشيت فرعون سكراتُ الموت ﴿قَالَ آمَنْتُ﴾: اعتقدت جازمًا ﴿أَنَّهُ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: لا معبود يستحق العبادة ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول بالفرد، الواحد الأحد الفرد الصمد ﷻ، والمقصود هنا هو الله ﷻ ﴿آمَنَتْ﴾: صدّقت ﴿بِهِ﴾: باء الإلصاق ﴿بَنُوا﴾: أبناءُ وأحفاد ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أَنَا﴾: أعترف أنّني ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: إعلانٌ في وقتٍ لا ينفع فيه ندم.

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١)

﴿آلْآنَ﴾: حرف الألف للاستفهام الإنكاري والتوبيخي؛ يا فرعون، وقد نزل بك الموت تقرُّ لله ﷻ بالعبودية، أفي هذه اللحظة الحاسمة؟ سؤالٌ يستنكرُ اللهُ ﷻ على فرعون إيمانه في هذا

الوقت، وفي هذا الظرف: الغرق ﴿وَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: رفضت الإيمان في الرخاء ﴿وَكُنْتَ﴾: أيضًا قبل الغرق ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: لقد أفسدت عقيدة النّاس، وأفسدت حياتهم.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢)

﴿فَالْيَوْمَ﴾: يوم الغرق والهلاك ﴿نُنَجِّيكَ﴾: جاءت بصيغة الجمع لعظمة الحدث والأثر ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿بَدَنِكَ﴾: البدن هو الجسد، إن الغرق محقق، ولكن نجعلك تطفو بجسدك الميت ﴿لِ﴾: حرف علّة وسببٍ ﴿تَكُونَ﴾: تصير ﴿لِمَنْ﴾: للذي من جنس العاقل، بني آدم ﴿خَلْفَكَ﴾: من بعدك من النّاس الذين يحيون من بعد غرقك ﴿آيَةً﴾: عبرةً وعظةً، قال ابن عباس: إنّ بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون؛ فأمر اللهُ ﷻ البحر أنْ يُلقي جسد فرعون ميتًا، بلا روح؛ ليكون لبني إسرائيل دليلًا على موته ويقال إنّ جسد فرعون باقٍ حتى اليوم لم يتحلل، والله ﷻ أعلم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿كَثِيرًا مِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: الكلمة عامّة لكلّ النّاس ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ السبب ﴿آيَاتِنَا﴾: عن الأدلّة والبراهين والحجج ﴿لَغَافِلُونَ﴾: ساهون لا يعرفون جوهرها.

التكليف: يوم نجاة موسى عليه السلام، وقومه يوم عظيم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ وَاليَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا»[1].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**باؤوا**" على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى أنزلنا أيضًا ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ في قوله ﷻ [يوسف-٥٦]، وفي قوله ﷻ ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [الزمر-٧٤]؛ أي أنعمنا ووهبنا ﴿مُبَوَّأَ﴾: منزلًا صالحًا مختارًا في بلاد الشام ومصر، مقعدًا، ومنصبًا، ومكانة ﴿صِدْقٍ﴾: بعد هلاك فرعون حكم موسى عليه السلام بلاد مصر بكاملها، بدليل الآية: ﴿**وَأَوْرَثْنَا**

---

[1] صحيح البخاري ٦/٧٢(٤٦٨٠).

﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف-١٣٧]، واستمر بنو إسرائيل يسيرون قاصدين بلاد بيت المقدس، وكان فيها قومٌ من العمالقة، ونلحظ هنا اختلاف اليهود على دخول بلاد بيت المقدس، وقد رفضوا قتال العمالقة؛ فشرّدهم الله في التيه أربعين سنة، ومات هارون، ثم مات موسى عليهما السلام، وكان خروج بني إسرائيل من التيه مع يوشع بن نون الذي فتح بيت المقدس ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: وهبهم الله ﷻ بلا عناء ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: ما يستمتع به الجسم وتقبله النفس، هو الرزق الحلال الطيب من خيرات الأرض المباركة، من الرزق، النافع، الذي تطيب له النفوس شرعًا وطبعًا ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يُفيد الخبر ﴿اخْتَلَفُوا حَتَّى﴾: يفيد سبب ما سبق وهو الاختلاف ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: اختلفوا بعد أنْ جاءهم الحكمُ من الله ﷻ، وعلّمهم، وكان لا يجب أنْ يختلفوا، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ أَنَّهُ قَامَ فِينَا فَقَالَ أَلاَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِى النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِى الْجَنَّةِ وَهِىَ الْجَمَاعَةُ[1]، ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿رَبَّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿يَقْضِي﴾: يحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾: بين هذه الفرق ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يفصل ويحكم بينهم ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿كَانُوا﴾: في حياتهم الدنيا ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من أمر ربّهم، أيّهم كان على الصواب وأيّهم كان على باطل.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤)

﴿فَإِنْ﴾: هنا حرف تأكيد الفعل ﴿كُنْتَ﴾: المقصود الرسول محمد ﷺ ﴿فِي شَكٍّ﴾: ريبةٍ وعدم يقين ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: من حقيقة ما أخبرناك به ﴿فَ﴾: حرفُ يفيد ربط الجواب ﴿اسْأَلِ﴾: استفسر من ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾: يتلون ما جاء في التوراة والإنجيل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: الذين يجدون صفات محمد ﷺ في كُتبهم ﴿لَ﴾: حرفٌ يفيد هنا التوكيد، بمعنى القسم ﴿قَدْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿جَاءَكَ﴾: وصلك ﴿الْحَقُّ﴾: الصدق ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: هو المُعبود، والمُربي، مالك أمرك كلّه وهو الحق، يعرفونه، ويحّرفونه، ويبدّلونه، ولا يؤمنون به ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب

---

[1] سنن أبى داود /٤/٣٢٤(٤٥٩٩). وحسنه الألباني.

عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَكُونَنَّ﴾: لا تصير بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: المجادلين المشككين في حقيقة الإيمان بما ورد.

التكليف: هذه شهادة من الله ﷻ بأنّ هذا الذي يتشككون فيه هو الحق الذي لا يُخالطه باطلٌ، ولا تشوبه شُبهةً؛ بأنّك رسول الله؛ وأنّ هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحّة ذلك؛ ويجدون صفتك في كتبهم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نفي يفيد تحريم ﴿تَكُونَنَّ﴾: لا تصير وتصبح أيّها الرسول ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿كَذَّبُوا﴾: أنكروا ما جاء ذكره من الله ﷻ ﴿بِ﴾: حرفُ باء السببية ﴿آَيَاتِ﴾: البراهين والحججِ الصحيحة ﴿اللَّهِ﴾: هنا تحريم أنْ تكون من الذين كذبوا بآيات الله ﷻ والحُجج، والأدلّة ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب بدون تأخير ﴿تَكُونَ﴾: تصبح وتصير ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْخَاسِرِينَ﴾: تكون من الذين أسرفوا في خسارة أنفسهم في الدنيا، وخسروا رضوان الله ﷻ في الآخرة، والذين سخط الله عليهم وعاقبهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿حَقَّتْ﴾: وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: مالك أمرك كلّه، هؤلاء الذين وقعت فيهم إرادة الله ﷻ أنّهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: الذين لا يُقرّون بوحدانية الله ﷻ ولا يعملون بشرعته، هم الكافرون أبدًا.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آَيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧)

﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الاستفهام والنفي ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: وصلت إلى مداركهم، معنى هذا أنه لم يقع بهم العذاب؛ وإنّما لو رأوا ﴿كُلُّ﴾: تفيد الكثرة، بمعنى كثير من ﴿آَيَةٍ﴾: القرآن الكريم؛ كدليلٍ وبرهانٍ على صدقِ الإسلام، مثلما حدث مع فرعون الذي كفر بكلِّ الآياتِ التي جاء بها موسى ﵇، ووصفها بالسحر ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يَرَوُا﴾: يشاهدوا ما يأتيهم ويحلُّ بهم ما جاء ذكره، ثم آمنوا في اللحظة التي لا ينفع فيها إيمانُهم؛ لم ينفعهم إيمانهم من ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ لأنّهم سيشاهدون ويُكابدون ويُعانون من العذاب الشديد.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٩٨)

﴿فَلَوْلَا﴾: تُفيد التخصيصَ والحض على الفعل،، والدلالةَ على منعِ أمرٍ لوجود غيره، فهي هنا تنفي إيمان أهل القرى، وتكني التوبيخ والتغليظ ﴿كَانَتْ﴾: في الماضي ﴿قَرْيَةٌ﴾: مدينة وأيّ تجمع سكنيّ ﴿آمَنَتْ﴾: لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيين من السابقين ﴿فَـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿نَفَعَهَا﴾: أفادها ﴿إِيمَانُهَا إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾: عليه السلام، وهي قرية نينوى، قَالَ يَحْيَى: بَلَغَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ يُونُسَ دَعَا قَوْمَهُ زَمَانًا إِلَى اللَّهِ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ وَأَبَوْا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا دَنَا الْوَقْتُ تَنَحَّى عَنْهُمْ فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ الْوَقْتِ بِيَوْمٍ جَاءَ فَجَعَلَ يَطُوفُ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: غَدًا يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ إِلَى الْمَلِكِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ يُونُسَ يَبْكِي وَيَقُولُ: غَدًا يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمَلِكُ دَعَا قَوْمَهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ وَقَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا فَسَيَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ غَدًا، فَاجْتَمِعُوا حَتَّى نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، فَاجْتَمَعُوا. فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْغَدِ فَنَظَرُوا فَإِذَا بِظُلْمَةٍ وَرِيحٍ شَدِيدَةٍ وَقَدْ أَقْبَلَتْ نَحْوَهُمْ فَعَلِمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ، فَفَرَّقُوا بَيْنَ الصِّبْيَانِ وَبَيْنَ أُمَّهَاتِهِمْ، وَبَيْنَ الْبَهَائِمِ وَبَيْنَ أُمَّهَاتِهَا، وَلَبِسُوا الشَّعَرَ، وَجَعَلُوا التُّرَابَ وَالرَّمَادَ عَلَى رُءُوسِهِمْ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَبَكَوْا، وَآمَنُوا، فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ[1]، ﴿لَمَّا﴾: يفيد: حدث في الماضي ﴿آمَنُوا﴾: خاف قوم يونس من العذاب بعد كفرهم؛ فآمنوا جميعًا بعد أنْ فقدوا نبيّهم، وتأكدوا أنّ العذاب اقترب، قذف اللهُ سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، ثم عجّوا إلى الله أربعين ليلة ﴿كَشَفْنَا﴾: رفع الله سبحانه وتعالى ﴿عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾: الذلّ والهوانِ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: عندما برهنوا لله سبحانه وتعالى توبتهم، وآمنت قلوبهم؛ رفع سبحانه وتعالى عنهم العذاب ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾: وهبناهم كلّ متعِ الحياة ﴿إِلَى حِينٍ﴾: وقتٍ، الموتِ المعلومِ، وقيل الآجال التي قدّرها اللهُ سبحانه وتعالى.

التكليف: لم يحدث في التاريخ أنّ قريةً كفرت بأنعم الله سبحانه وتعالى، وأصرّت على الكفر؛ نجّاها الله سبحانه وتعالى إلّا قرية قوم يونس، عليه السلام، لأنّهم صدقوا في إيمانهم، وتوجههم إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد هنا النفي ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿رَبُّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿لَـ﴾: حرف تخصيص ﴿آمَنَ﴾: بصدق ويقين ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، وتفيد هنا كلّ النّاس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾:

---

[1] تفسير يحيى بن سلام ٨٤٢/٢.

كل البشر الذين فوق سطح الأرض ﴿كُلُّهُمْ﴾: يبلغ عدد سكان العالم اليوم ست مليارات نسمة، يمثل المسلمون ثلثهم ﴿جَمِيعًا﴾: يا محمد لو أراد اللهُ ﷻ لأهل الأرض كلّهم الإيمان؛ لأذن لهم، ولكن لحكمةٍ أرادها؛ منهم المؤمن، ومنهم دون ذلك ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿أَنْتَ﴾: هل أنت؟ ﴿تُكْرِهُ﴾: تُجبرُ على عملٍ يكرهه ﴿النَّاسَ حَتَّى﴾: يفيد سبب ما جاء قبلها ﴿يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: هل أنت تُلزمهم الإيمان رغمًا عنهم؟ ليس هذا عليك، جاء في المعنى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة-٢٧٢]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص-٥٦].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا ينبغي ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَفْسٍ﴾: أي شخص، لأنّ النفس هي جوهر الإنسان وذاته ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُؤْمِنَ﴾: باللّهِ ﷻ وتؤمن بأركان الإيمان ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطعٍ، أي لا يتمُّ الإيمانُ إلّا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿إِذْنِ﴾: بأمر وتوفيق ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ ليس من تلقاء النفس، ولكن بفضل الله ﷻ وإذنه ﴿وَيَجْعَلُ﴾: يكتب الله ﷻ ﴿الرِّجْسَ﴾: السخط، والعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: وعلى الذين لا يدركون الحقيقة، ولا يستفيدون من الأدلّة والبراهين؛ للنجاة.

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١)

﴿قُلِ﴾: فعلِ أمرٍ بالقول ﴿انْظُرُوا﴾: يأمر الله ﷻ عبده محمدًا ﷺ وهو الأمّي أنْ يدعو النّاس إلى التفكر والتأمل؛ للاعتبار باستخدام البصر، وهو أحد أدوات الإدراك ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها. إنّ دراسة المخلوقات التي في السماء مثل الشمس، والقمر، والنجوم، وحركتها المُنضبطة، والعلاقات الكهربائية والمغناطيسية التي تقوم بدور الأعمدة والروافع، وفوائدها العظيمة ﴿وَالْأَرْضِ﴾: وأيضًا ما في الأرض من ماءٍ، وبحارٍ، وأشجارٍ، وإنسانٍ، وحيوانٍ، واختلاف ألوانها، وأشكالها، وفوائدها ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿تُغْنِي﴾: يكفي ويقنع ﴿الْآيَاتُ﴾: الأدلّة والبراهين ﴿وَالنُّذُرُ﴾: أيضًا لا تكفي الأحداثُ التي تُنذر بحدثٍ في السماوات والأرض من آياتِ اللهِ تعالى البينات ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يُفيدُ المجاوزة ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من النّاس من أصلٍ واحدٍ أو أصحابِ عقيدةٍ واحدةٍ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذه المخلوقات

البديعة، وهذه البراهين التي تدُلُّ على بديعِ صنعتها، وصانعها ﷻ، كلّ ذلك لا تُقنعُ قومًا كافرين.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

﴿فَهَلْ﴾: حرف استفهام ﴿يَنْتَظِرُونَ﴾: سؤال استنكاري؛ هل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مِثْلَ﴾: كما ﴿أَيَّامِ﴾: زمن أسلافهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿خَلَوْا﴾: قضوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ﴾: الأمم السابقة، التي كذّبت برسلهم من الأمم الماضية، واللاحقة، والكُفّار من الغضب والعذاب الربّاني، فكثيرٌ، من الإمبراطوريات زالت، الرومانية، والفارسية، والبريطانية، وغيرها دولٌ ظالمةٌ، وشعوبٌ مجرمةٌ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾: قل لهم يا محمد تهديد وتأكيد؛ إنّ العذاب قادمٌ لا محالة، فهذه سنن وقوانين ربّانيّة دائمة ﴿إِنِّي﴾: هو الله ﷻ بالتأكيد ﴿مَعَكُمْ﴾: كان اللهُ ﷻ معكم ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿الْمُنْتَظِرِينَ﴾: كما ينتظر المجرمون والكافرون عذاب الله؛ ينتظر المؤمنون نصره وتأييده، وتمكينه ﷻ لعباده الصالحين، وعد الله ﷻ لهم بالعذاب.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع الزمني مع التراخي ﴿نُنَجِّي﴾: بعد ذلك الكرب، والعذاب، والجهل، والتيه للكافرين، وما يسببه ذلك للمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، تأتي النجاة العظيمة للمستحقين لها ﴿رُسُلَنَا﴾: الأنبياء والرسل، ويأتي وعد الله ﷻ بنجاة المسلمين والأنبياء في العهود السابقة، والحاضرةِ، وفي المستقبل ﴿وَ﴾: أيضًا ننجي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: هنا الأمل للحركات الإسلامية، والجماعات الإيمانية الصادقة، التي تواجه مؤامرات الخونة في العالم الإسلامي، وتواجه الصهاينة، والغرب المسيحي، وقوى الكُفرِ الشيوعية ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل أيضًا إذا أضفناها إلى ما قبلها تعني مثلما نجينا السابقين ننجي الذين آمنوا من بعدهم، وإذا وضعنا كذلك قبل حقًّا تعني ننجي المؤمنين ﴿حَقًّا﴾: وجب ﴿عَلَيْنَا نُنْجِ﴾: ننقذ ونحفظ حياة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: بمحمد ﷺ إنّ البُشرى العظيمة في هذه الكلمات المنيرة؛ إنّ الله ﷻ كتب على نفسه حقًّا، وصدقًا، وعدلًا أنْ يُنجّي المؤمنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

﴿قُلْ﴾: يا محمد وهو أمرٌ لكّل المسلمين ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو اللهُ ﷻ والمُنَادَى عليهم وهم عموم ﴿النَّاسُ﴾: يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أنْ يقول لعموم الخلق من بني آدم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ﴾: حالكم ﴿فِي شَكٍّ﴾: عدم يقين، وتردد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، هنا يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿دِينِي﴾: تشكّون في صحّة ما جاءكم من الحق، الذي نزل على محمد ﷺ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿أَعْبُدُ﴾: أطيع ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد جميع من ﴿تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أنا لا أطيع، ولا أؤمن بالذي تعتنقونه، أو تطيعونه، مما اتخذتم من الأصنام والأوثان، سواءً كان دينًا كاليهودية، أو المسيحية أو البوذية، أو فكرةً كالعلمانية، أو الشيوعية، أو الديمقراطية التي تجعل الحاكمية للأغلبية، وليست لله ﷻ ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف يفيد الاستدراك ﴿أَعْبُدُ﴾: أطيع وأتبع ﴿اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾: يقبض لأرواحكم، إننّي اختار الحق، وهذه واحدةٌ من أدوات التخويف، وهي التذكير بالذي يملك أنْ يحييكم، ويملك أنْ يُوميتكم، ولأنّهم يخافون الموت؛ ربما أصاب هذا منهم أثرًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أُمِرْتُ﴾: من الله ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ولأنّي أطيع الله ﷻ؛ فقد أمرني أنْ أكون مِنْ ومع المؤمنين؛ فهذا أمرٌ ربّاني، وليس قرارًا اختياريًا.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

﴿وَأَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾: اصرف وجهك يا محمد ﷺ ذاتك كلّها ﴿للدين﴾: تخصيصًا للإسلام، عبادتك، ومعاملاتك، وتوجهك ﴿حَنِيفًا﴾: مبتعدًا عن الشرك، منحازًا للحق ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَكُونَنَّ﴾: تُصبحُ بالتأكيد ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: ممن يشرك في عبادة ربّه الآلهة والأنداد، وما أكثر الآلهة في هذا الزمان، الأفكار الوضعية، مثل: الشيوعية، والعلمانية، والرأسمالية، والوطنية، والدساتير، والأحزاب السياسية، والمواثيق الدولية وغيرها.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: ومُحرّمٌ عليك ﴿تَدْعُ﴾: ترجو وتطلب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ يُفيد بداية الغاية؛ التمييز ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: تطلب، وترجو، وتعتمد على مخلوقٍ غير الله ﷻ ﴿مَا﴾: حرفٌ يدُلُّ على غيرِ العاقل هو الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَنْفَعُكَ﴾: بخير

﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: عليك التصديق أنّ أحدًا من الخلق لا ينفع ولا يضرُّ إلّا بإذن الله ﷻ؛ فوجبت دعوة الله ﷻ بدلًا من دعوة من هم دونه ﷻ ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل واللفظ ﴿فَعَلْتَ﴾: إذا طلبت من غير الله ﷻ، وإذا سألت فعلًا، وإذا اعتقدت بهم حقًّا ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا تأكيد القول والفعل ﴿إِنَّكَ﴾: أنت بالتأكيد ﴿إِذًا﴾: حرفُ جوابٍ وجزاءٍ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم، بالشرك.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَمْسَسْكَ﴾: يصيبك في العمق ﴿اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: جاءت هنا لتفيد النوعية قليلة أو كثيرة؛ إنَّ المس هذا غير اللمس، المسُّ هو إصابةٌ بضررٍ، أو ببلاءٍ في العمق، في النفس، أو المال، أو الولد ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿كَاشِفَ لَهُ﴾: لن يرفعه ولن يُزيلهُ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: في اللغة تعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا المفردِ المذكر، والمقصود هنا هو ﷻ ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ﴾: يكتب لك الله ﷻ ﴿بِخَيْرٍ﴾: ما ينفعك في دينك ودنياك برخاءٍ أو نعمةٍ ﴿فَلَا رَادَّ﴾: لا مانع ﴿لِفَضْلِهِ﴾: وإذا وهبك الله ﷻ خيرًا مما تحب؛ فلا يملك أحدٌ أنْ يمنعه ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ﴾: الذي هو من جنس الإنسان ﴿يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿الْغَفُورُ﴾: الذي يُسامح عن الزلّات، والذنوب، ويمحوها ﴿الرَّحِيمُ﴾: الأعظم رحمة بعباده من أي مخلوقات؛ لهذا حثّ العلماءُ النّاسَ على سؤال الله ﷻ، والثقةِ في تحقيق ذلك، ولو بعد حين؛ فإنّ نفحات الله ﷻ واسعة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨)

﴿قُلْ﴾: فعل أمر ربّاني يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة تواصل بين المُنَادِي وهو محمد ﷺ والمُنادَى عليهم وهم ﴿النَّاسُ﴾: كلمات موجهة إلى عموم البشر ﴿قَد﴾: حرفُ جرّ يُفيد هنا التحقق بالتأكيد؛ لأنّه وقع هنا على الفعل الماضي ﴿جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾: وصلكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان الدين والهداية ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يفيد هنا بداية الغاية الكلّية ﴿رَبِّكُمْ﴾: من مالك أمركم كلّه ﴿فَمَنِ﴾: حرف استفهام استثنائي يفيد هنا العاقل الذي ﴿اهْتَدَى﴾: من آمن بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر فقد عرف الدين الحق ﴿فَإِنَّمَا﴾: يُفيد التحقق والتخصيص ﴿يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾: حرف اللام

للتخصيص؛ يكون قد أرشد نفسه إلى الطريق الذي لا ضلال، ولا ضياع فيه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿ضَلَّ﴾: تاه وضاع وتنكب وابتعد عن الحق ﴿فَإِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مركّبةٍ؛ تُفيدُ التأكيد ﴿يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: يقع الإثم على نفسه، ومن لم يهتد فقد أورد نفسه الضلال، والتيه، وعاد بالوبال عليها نفسه ﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿أَنَا﴾: الرسول ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿وَكِيلٍ﴾: لستُ حفيظًا على أحدٍ منكم؛ بل أنا نذيرٌ أدعوكم للهدى؛ وأنتم تختارون.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

﴿وَ﴾: حرف جمع بين متعاطفين، بين الهدى في الآية السابقة والإتباع في ﴿اتَّبِعْ﴾: اسْلُكَ واقتفِ يا محمد ﷺ أثر ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُوحَى إِلَيْكَ﴾: يأمر الله ﷻ نبيّه أنْ يتبع أوامر الله ﷻ، وعليه تنفيذُها برضا وقناعة، أيضًا يتبع ما جاء من رسول الله ﷺ من السُنّة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اصْبِرْ﴾: في هذا الاتباع، على كيد الكفّار، ونفاق المنافقين، والمخالفين من قومك أو غيرهم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ يُصدقوا إلّا بشرط أنْ ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ﴾: إلى أنْ يحكم اللهُ ﷻ ويقضي فيك وفيهم أمره، إمّا أنْ يفتح اللهُ ﷻ بينك وبين هؤلاء بالحق في الدنيا، وينصرَك عليهم، أو يحكم بينكم يوم القيامة إنْ ماتوا وهم كفّار؛ والله أعلم ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿خَيْرُ﴾: جاء اللفظ القرآني **خير** في القرآن الكريم على ثمانية وجوه؛ هنا بمعنى أفضل وأحسن فهو ﷻ خيرِ ﴿الْحَاكِمِينَ﴾: إنّ الله ﷻ خيرُ من يحكم بين العباد، ويهيئ الأسباب بعدله وحكمته.

التكليف: بدراسة مقاصد السورة الكريمة: نُدرك كيف واجه الرُسلُ الأقوامَ المُكذبين بالرسالات؛ بالحُجج والبراهين، وسُبلِ الترغيب والرهيب.